أصلح الطالب ما رأته اللجنة

أعضاء اللجنة:

أ.د/ ناصر بن سعد الرشيد

أ.د/ حسن عبد الكريم الوراكلي

أ.د/ إبراهيم أحمد الحاردلو

المملكة العربية السعودية

وزارة التعليم العالي

جامعة أم القرى

كلية اللغة العربية

قسم الدراسات العليا

فرع الأدب

أثر شعر المحدثين العباسيين في الشعر الأندلسي

رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراة في اللغة العربية وآدابها

« تخصص أدب »

إعداد

إبراهيم بن موسى بن حاسر السهلي

إشراف الأستاذ الدكتور

إبراهيم أحمد الحاردلو

١٤١٥ - ١٤١٦هـ

١٩٩٤م


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص البحث

« أثر شعر المحدثين العباسيين في الشعر الأندلسي »

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ، وبعد .

فإن هذا الموضوع في أساس فكرته يقوم على استقراء نصوص من الشعر العباسي والأندلسي وبيان أثر الأول في الثاني ، وهو مشروع لدراسة تأصيلية تحدد مكانة الشعر الأندلسي بالنسبة للشعر العربي بعامة ، والعباسي بخاصة . واقتضت طبيعة البحث أن يجيء في مدخل وخمسة فصول يتبع كل فصل منها مبحثان .

فالمدخل وهو بعنوان « الشعر العباسي بين القديم والمحدث » ، عرض لمواقف النقاد اللغويين والرواة من الشعر المحدث ، والفرق بينه وبين القديم في ضوء حاجتهم إلى الشاهد والمثل لحفظ اللغة سليمة من الشوائب .

الفصل الأول : « علاقة الأندلس بالمشرق » في مبحثين ، الأول : روافد الثقافة الأندلسية ، وهي ثمانية روافد أهمها الفتح الإسلامي ، والرحلات العلمية المتبادلة بين المشرق والأندلس . الثاني : علاقة الأندلسيين بالشعراء العباسيين واهتمامهم برواية أشعارهم .

الفصل الثاني : « مظاهر التأثر في غرض المديح » ، وهو أول الفصول التطبيقية التي تعتمد طرح النماذج التي برز فيها تأثير المحدثين على شعراء الأندلس ، وقد جاء في مبحثين : أحدهما : «قصيدة المدح منذ العصر الجاهلي حتى نهاية العصر العباسي» ، وثانيهما : « شعر المديح في الأندلس في ضوء التأثير العباسي » .

الفصل الثالث : « مظاهر التأثير في غرض الغزل » .

الفصل الرابع : « مظاهر التأثير في شعر الطبيعة » .

ويشتمل كل من هذين الفصلين على مبحثين على غرار مبحثي غرض المديح .

الفصل الخامس : « خصائص الشعر الفنية بين المحدثين والأندلسيين » في مبحثين ، أحدهما : « بنية القصيدة » ، وثانيهما : « الخصائص الفنية المشتركة بين المحدثين والأندلسيين » .

الخاتمة : وفيها نتائج البحث ، ومن أهمها :

١ – شدة اهتمام الأندلسيين بعلوم المشارقة ومؤلفاتهم ، وحرصهم على اقتناء دواوينهم الشعرية .

٢ – ولع الأندلسيين بشعر المحدثين خاصة بعد أن رُوي عندهم شعر أولئك الرواد من أمثال أبي نواس ومسلم وأبي تمام .

٣ – تفوق أهل الأندلس على المشارقة في العناية بالكتب والدواوين وفهرستها .

٤ – في الأغراض الشعرية وجد البحث صدى مذهب المحدثين قوياً على شعراء الأندلس مع تميز الشخصية الأندلسية وبروزها في وصف الطبيعة .

الطالب	المشرف	عميد الكلية
إبراهيم بن موسى السهلي	أ . د . إبراهيم أحمد الحاردلو	أ . د . حسن محمد باجودة

شكر وتقدير

الحمد لله أهل الشكر والمنة، وصلى الله على نبي الهدى والرحمة.

وبعد: فيقول المصطفى صلوات الله عليه: «لايشكر الله من لايشكر الناس»(١)، فالشكر لله أولاً الذي بنعمته تتم الصالحات أن وفقني لإنجاز هذا العمل، وإن أول شكر بعد الله تعالى لمن وصاني بهما فقال عز من قائل: ﴿وبالوالدين إحسانا﴾، فلله تلك القلوب الصافية، والأيادي البيضاء، ولهما مني جزيل الشكر والوفاء، فقد كان لهما بعد الله عز وجل فضل إنجاز هذا العمل بتشجيعهما لي، ودعائهما الدؤوب، وشدهما من أزري إذا أدركني الكلال، أسأل الله أن يمد في عمرهما، وأان يقر عينيهما بنجاح هذا العمل وخروجه على أحسن حال.

ولشقيقي الأكبر الشيخ **أحمد بن موسى السهلي** الذي اكتنفني يافعا، وأسبغ علي من واسع حلمه وعطفه، فله مني كل حب وتقدير واعتراف بفضل لا أنساه ماحييت بإذن الله.

ثم أتقدم بوافر شكري وعظيم امتناني لجامعة أم القرى وعلى رأسها **معالي مديرها**.

وأما كليتي، كلية اللغة العربية، فهي الأم الرؤوم التي شملتني بعنايتها منذ أنشئت، وتولى تأسيسها أستاذي الدكتور **عليان بن محمد الحازمي** الذي لاينكر فضله على الدارسين في هذه الكلية، والمنتمين إليها.

وللأستاذ الدكتور **حسن بن محمد باجودة** العميد الحالي للكلية مني جزيل الشكر والعرفان على ماحبانا به من عطف وحنان، وبما وفق إليه من لم شمل هذه الكلية، وإعادتها لعصرها الذهبي.

أما الأستاذ الدكتور **سليمان بن إبراهيم العايد** رئيس قسم الدراسات العليا بالكلية، الرجل الذي مهما قيل فيه من كلمات الشكر والثناء، فهي قليلة في حقه، إلا أننا ندعو الله له أن يثيبه على كل مايبذله مع إخوانه الدارسين دون تفضيل أحد على أحد، فجزاه الله عنا وعن كل من التحق بهذا القسم خير الجزاء.

ولا أنسى سعادة أستاذي الدكتور **إبراهيم أحمد الحاردلو**، فهو الأستاذ، ونعم الأستاذ هو، فقد فتح لي قلبه وبيته، وعايش معي معضلات هذا البحث، وبارك خطواته برحابة صدر وكلمة صادقة، فله مني كل الشكر والاعتراف بالفضل.

ولايفوتني أن أشكر صديقي العزيز الدكتور **عبدالله بن إبراهيم الزهراني** رئيس قسم الأدب، فكم كنت أستأنس برأيه في كثير من الأمور، فأجد عنده صواب الرأي، وحسن المعاملة، فأسأل الله أن يثيب كل هؤلاء الأفاضل لقاء ماأولوني من عناية وحرص لاأستطيع تجاهه إلا الدعاء لهم بأن يتولانا الله وإياهم إنه نعم المولى ونعم النصير.

وأخيراً أشكر صاحبي السعادة عضوي لجنة المناقشة سلفاً على ماسيبذلانه في تقويم هذا البحث وتسديده، سائلاً الله لهما العون وحسن المثوبة، وأن يجعل ذلك في ميزان أعمالهما، والله ولي التوفيق.

---

(١) الحديث في مسند أحمد ٣/ ٢٤٦، وسنن أبي داود ٢/ ٢٥٥.

المقدمة

المقدمة

أما بعد حمدا لله ولي الحمد وأهله ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم رسله فإنه كان بالأندلس أعلام ، فتنوا بسحر الكلام ، ولقوا منه كل تحية وسلام ، فشعشوا البدائع وروقوها ، وقلدوها بمحاسنهم وطوقوها ثم هووا في مهاوي المنايا ، وانطووا بأيدي الرزايا ، وإن ثمرة هذا الأدب العالي الرتب ، رسالة تنثر وأبيات تنظم ، وتفصل(١) ، وإن دراسة هذا الأدب العربي بأندلسنا القصي ، لاتزال تفتقر إلى البحث ، والتنقيب عن كنوز هذا الأدب التي أغفلتها بعض الدراسات المتأخرة .

وقد دأبت بعض هذه الدراسات على التعامل مع هذا الجزء من أدبنا العربي تعاملا إقليميا حجب عنهم كثيراً من وجوه الإبداع فيه، وبهذا اعتراه غير قليل من الظلم ، وعدم الانصاف، وثمة سبب آخر جعل بعض المتأدبين والدارسين ، يقفون من أدب العرب في الأندلس موقفا عجيبا ، وهو مطالبة هذا الأدب بالتميز التام، والمغايرة لما كان عليه أدب أهل المشرق ، ولهذا ظلت النظرة إليه أنه مجرد أدب مقلد ومحاكي للأدب العربي في المشرق ، ورتبوا على ذلك عدم جدوى دراسته وإيلائه شيئا من العناية اللهم إلا القليل النادر .

ولعلي أذكر هنا شيئا مما قدمت به لرسالتي للماجستير والتي كانت في « فن النثر» ، وقد انطلقت فيها أعالج قضية « الأدب العربي في الأندلس بين الاتباع والابتداع » . ومعروف أن معظم القائلين بتبعية الأدب العربي في هذا القطر ، قد

---

(١) من مقدمة مطمح الأنفس ومسرح التأنس ، للفتح بن خاقان ، ومقدمة الذخيرة لابن بسام .

أثرت فيهم تلك المقولة العجلى التي أرسلها الصاحب بن عباد عندما وضع بين يديه كتاب «العقد» لابن عبدربه، وزج به قائلا : هذه بضاعتنا ردت إلينا ، كنت أظنه سيتحدث عن أخبار بلده ، فإذا به ينقل إلينا أخبار بلدنا ، أو نحوا من ذلك ، وعلى الرغم من طابع التعجل لهذه المقولة ، فهي لاتحمل مقتا لأهل الأندلس بقدر ماهي نقد لكتاب العقد، وتعطش «الصاحب» لأخبار شعراء الأندلس، وهذا يؤكد أن ابن عباد قد سمع أن بذلك الصقع أدباء لهم مكانتهم ، فحرص على معرفة شيء من آدابهم وعلومهم .

لكن هذه المقولة قد شرقت وغربت ، وتلقفتها الألسن ، ولازالت تردد بين أوساط بعض المثقفين ممن لم يتعبوا أنفسهم قراءة مااستجد بعد « العقد» من المؤلفات ، والدواوين الأندلسية .

ونحن في رسالتنا هذه بمشيئة الله تعالى ، والتي نتقدم بها لنيل «درجة الدكتوراه» ، وهي بعنوان : « أثر شعر المحدثين العباسيين في الشعر الأندلسي » ، نظرنا إلى القضية من منظور قد لايغيب عن أذهان بعض الدارسين الذين نعتقد فيهم الإنصاف، وهذا المنظور هو التأكيد على وجوب دراسة هذا الجزء من أدبنا العربي بعيدا عن النظرة الاقليمية ، وأنه ليس سوى أدب محدث عاش شعراؤه في تلك الأصقاع ، كما حصل في عصرنا الحديث لشعراء المهجر الذين عاشوا في أمريكا ، وأقام بعض هؤلاء في دول أوروبا لظروف معينة ، وظل شعرهم عربيا ينطق بلسان عربي ، وكذلك الشاعر العربي في الأندلس ، هو شاعر عربي أجبرته الظروف على الهجرة إلى تلك البلاد الجميلة ، ووجد بها مستقراً ، ومستودعا وظل حنينه إلى مسقط الرأس ، ومهوى الأفئدة بالمشرق . . . . . ولذلك لم تنقطع صلته بعلماء وشعراء بلده الأصلي .

ومن خلال تتبعنا وتقصينا لبعض نصوص الشعر الأندلسي ، ومعرفة مناسباتها، والأندية التي قيلت فيها، ألفينا الشاعر العباسي كان حاضرا بين شعراء

الأندلس ، ونقادهم بمذهبه وشعره .

وكانت قصور الخلفاء بالأندلس وحلقات العلم والأدب تحتفل بأمثال تلك المنتديات ، وتكثر بها المجادلات الشعرية ، فتطرح بها الأشعار ويوجه إليها النقد، وتوازن بأشعار أهل المشرق إذ هم المثل المحتذى لكونهم الأصل، وكان الشاعر الجيد من أهل الأندلس لعظم اعتزازه بأرومته في المشرق، يفخر أشد الفخر إذا قرن اسمه بالشاعر العباسي، من أقطاب المحدثين كأبي نواس ، وأبي تمام والمتنبي وغيرهم ، وهذا شيء ألفناه في شعرنا العربي حتى في المشرق فهذا بشار بن برد على مكانته الكبيرة التي تبوأها ، بريادته للمحدثين كان يفخر بهجائه جريرا طمعا في أن يذكر في الفحول ، وكاد يموت حسرة إذ أهمله جرير ولم يجبه ، فهو يقول : « هجوت جريرا فأعرض عني ، واستصغرني ، ولو أجابني لكنت أشعر الناس»(١) .

وإذا كيف يعاب على الشاعر العربي بالأندلس إذا شبه بصنوه العباسي ، مع أنه كان يجب أن ينظر إليه بإجلال وإكبار ، لكونه عاش بعيدا عن المشرق، ومنبع العربية الصافي ، واستطاع ان يجاذب فحول الشعراء العباسيين ، وأن يقف إلى مصافهم ، مستشعرا أن ذلك المنبع هو الأصل الذي يستقي منه ويأوي إليه متى أعياه القريض ، ولو أنه تجافى عنه لعد ذلك منه تنكرا لأصالته وتراثه .

وفي ضوء تلك المفاهيم ، رأيت في دراسة أثر الشعراء المحدثين العباسيين على شعراء الأندلس ، موضوعا خصبا، وذا جدوى كبيرة، وبما أنني درست

---

(٣) الأغاني ٣/ ١٤٣ .

«النثر» في المرحلة السابقة، وتعرفت على نماذج نثرية لأهل الأندلس لم يسبقوا إليها، أحسست أن في هذا الأدب ذخائر لم يلتفت إليها كثيرا ، فكان من البدهي أن أدرس في هذه المرحلة الأخيرة الشعر العربي هناك، وأقف على أطواره ، ومدى صلته بأصوله المشرقية .

وعندما استقر إختياري - بعد مشيئة الله عز وجل - على هذا الموضوع كان الدرب في بدايته وعرا ، وشاقا ، ومضنيا في ذات الوقت ، حيث إن هذه التأثيرات ستكون متعددة الجوانب ، في النواحي الثقافية ، وفي الموضوعات الشعرية نفسها ، وتوكلت على الله ، وسجل هذا الموضوع في بداية أمره في سائر الأغراض الشعرية إضافة إلى مدخل يدرس فيه المحدثون العباسيون بين القديم والمحدث ، ثم ننطلق لدراسة الأغراض الشعرية ، ويسبقها بعض المقدمات المتعلقة بالعلائق الثقافيه بين المشرق والمغرب ، ونحو ذلك مما سنفعله في ذكر خطة البحث .

وقبل أن أسرد خطة هذا البحث ، أود أن أشير إلى لفتة ذات بال في شأن النصوص التي توفرت على جمعها من خلال المصادر ، ومن خلال بعض الملامح والإشارات العابرة في المراجع والدوريات المتأخرة .

فلعل من المفيد في قضية التأثيرات ، التأكيد على أن أول من رصدها وأشار إليها هم الأندلسيون أنفسهم ، إنصافا منهم، وإحقاقا للحق، وكان بعض أهداف هذا الرصد ، هو تأصيل هذا الأدب ، ووضعه في مساره الصحيح بالنسبة للأدب العربي بعامة ، وشعر المحدثين على وجه الخصوص .

ولولا ذلك الحس النقدي الكامن في عقول أولئك العلماء والنقاد الأندلسيين ، وحرصهم على إبراز ماأخذه شعراؤهم من غيرهم - مع أنه وضع طبيعي في الشعر العربي - لما استطاع الدارسون اليوم التشدق ، والتفنن في الطعن على شعراء الأندلس ورميهم بما أثأته أقلامهم ، وجارت به من سرقة الآراء

النقدية، مستخدمين إياها سهاما توجه لأولئك الشعراء، واتهامهم بالسرقة ووصمهم بالمحاكاة والتقليد - كما أسلفنا في بداية هذه المقدمة، - دون أدنى تورع في إطلاق الأحكام النقدية جزافا، وكم قرأنا وسمعنا من تلك الكلمات الساخنة، والسخرية والتهكم، مما لفظه الذوق النقدي المنصف، وإن من القدماء من كان أقرب إلى الإنصاف، والتروي في أحكامه.

وقد عرفنا من قبل دفاع بعض هؤلاء المنصفين عن المحدثين، شهادتهم لهم بالبراعة والبداعة.

ومن المعاصرين كذلك من نظر بعين الإنصاف، إلى كل من المحدثين والأندلسيين، وتدبر النصوص الشعرية الموجودة بين دفتي دواوينه ومصادره، ووضع الشاعر الأندلسي في مكانه اللائق به من الشعر العربي.

ومنهم من ظل أسيراً لفكرة السرقات، وأجهد قلمه في البحث عن المحال، وبسبب تلك الفكرة الضيقة، لم يعترف للشاعر الأندلسي بالاحسان حتى في «وصف الطبيعة» الذي تفوق فيه على غيره من شعراء المشرق، وإن تأثر بهم.

وعلى أية حال، فإننا لن نعنى في هذا البحث بأمثال تلك الآراء بقدر مايعنينا إخراج الشعر الأندلسي في صورة واضحة تتجلى فيها أصالته وإبداعه.

وأول هذه المصادر التي جعلت الإنصاف نصب عينيها، كتاب الذخيرة لابن بسام، فقد كان حريصاً أشد الحرص على بقاء الشعر العربي في الأندلس نفيا صافياً مما أخذه من الشعر المشرقي، ولم يقصد بذلك ثلب الشعراء والتشنيع عليهم بقدر ماحرص على الإنصاف، وابراز مكانة الشاعر الأندلسي وقدرته على التوفيق بين موهبته، وثقافته الشعرية التي نمت وتطورت بحفظ الكثير من شعر المشارقة،

وقد أنصف من نفسه بأنه إنما ائتسى في ذلك بالثعالبي في ذكره ثلة من شعراء الأندلس إلى جوار شعراء العصر الذين كان أغلبهم من العباسيين المجددين .

وتعتبر « اليتيمة » في مقدمة دراسة هذا الأدب ، وقد كان مؤلفها من المنصفين في نظرته إلى الشعراء ، ولقد أحسن الربط بين العصور الأدبية ، فهو يرى أن الشعر كلما تقدم خطوة في الزمن ازداد رقة وعذوبة ، ولذلك يقول : «كانت أشعار الاسلاميين أرق من أشعار الجاهليين ، وأشعار المحدثين ألطف من أشعار المتقدمين ، وأشعار المولدين أبدع من أشعار المحدثين ، وكانت أشعار العصريين أجمع لنوادر المحاسن وأنظم للطائف البدائع من أشعار سائر المذكورين لانتهائها إلى أبعد غايات الحسن ، وبلوغها أقصى نهاية الجودة والظرف ، تكاد تخرج من الاعجاب إلى الاعجاز ، ومن حد الشعر إلى حد السحر ، فكأن الزمان ادخر لنا من نتائج خواطرهم ، وثمرات قرائحهم ، وأبكار ألفاظهم أسمى الألفاظ والمعاني استيفاء لأقسام البراعة ، وأوفرها نصيبا في كمال الصنعة ، ورونق الطلاوة . . »(١) .

ولذلك تجرد أبو منصور مما وقع فيه غيره من فتنة القول ، ومغبة الحسد وتبعية الرأي ، وترجم لمجموعة من شعراء الأندلس لا بأس بها ، وأشاد بمكانتهم بين الشعراء المحدثين ، ولا أدل على ذلك من قوله عن ابن دراج القسطلي : « كان بصقع الأندلس كالمتنبي بصقع الشام ، وهو أحد الفحول ، وكان يجيد ماينظم ويقول . » .

هذا وهناك مصادر أخرى أولت التأثيرات شيئا من عنايتها لامجال للحديث عنها ، ونذكر منها على سبيل المثال : المطرب لابن دحية الكلبي ،

---

(١) اليتيمة ، ص ٣ .

ونفح الطيب ، وكتاب المن بالامامة لابن صاحب الصلاة ، والمعجب في تلخيص أخبار الأندلس والمغرب لعبدالواحد المراكشي وغيرها من المصادر الأندلسية .

وبعد شروعي في جمع مادة هذا الموضوع في ضوء الخطة المجازة وجدت نفسي أسبح في بحر عميق لاشاطيء له ، فاضطرني الحال إلى أن اقتصر في دراستي هذه على ثلاثة أغراض ، أبرز من خلالها تلك التأثيرات التي يهدف إليها البحث في أساس فكرته .

وهذه الأغراض هي أهم ماقاله الشعراء ، وأكثرها جريانا على الألسن ، بل أوضحها في موطن تأثر الشعراء بعضهم ببعض، ألا وهي « غرض المديح ، وغرض الغزل ، ووصف الطبيعة ، الذي يعد غرضاً مستقلا بالنسبة لشعراء الأندلس» .

وقد جاء البحث في خطته النهائية على هذا النحو :

مدخل : بعنوان : « الشعر العباسي بين القديم والمحدث »

وقد أوضحت في هذا المدخل الفرق المتعارف عليه بين القدماء والمحدثين ، ودرست موقف النقاد اللغويين ، والرواة من هذه المدرسة المحدثه التي تزعمها بشار ، وبينت لماذا وقف أولئك النقاد من شعرهم موقفا ربما فهم منه التقليل من شأنهم، وهل هم بالفعل خرجوا على ماسموه « عمود الشعر» ، أم أن الأمر لايعدو كونهم أسرفوا في البديع، وسائر المحسنات اللفظية، والاتيان بمعان، وأساليب لم يألفوها في شعرهم ، فنبذوه ، وراء ظهورهم .

ثم قسمت الرسالة بعد ذلك إلى خمسة فصول :

الفصل الأول : « علاقة الأندلس بالمشرق »

ويشتمل على مبحثين :

المبحث الأول : « روافد الثقافة الأندلسية » ، وقد قدمت لهذا المبحث بتمهيد موجز عن طبيعة تلك العلاقات الحميمة بين المشرقين ، وبينت أسبابها ، وأن الدين

الإسلامي هو الذي أوجدها ووثقها بشموليته ، وعدله ، وأن الله سبحانه وتعالى إنما جعلنا شعوبا وقبائل لحكمة أرادها سبحانه ، وهي التعارف ، وبما أن الاسلام جاء ليوحد بين الأمم ، فقد انتشر في أرجاء المعمورة ، وظلت دولته هي المهيمنة على سائر البلدان ، ومن بينها بلاد الأندلس ، التي خضعت لحكم الإسلام ثمانية قرون متوالية .

وتحدثت في هذا التمهيد عن أسباب ذلك الفتح العظيم ، معتمدا على ماذكره ابن عذاري في كتابه « البيان المغرب » ، إذ ذكر هو وغيره عددا ضخما من القبائل العربية التي هاجرت إلى الأندلس إبان هذا الفتح .

ثم شرعت في الحديث عن العنوان الأساسي لهذا المبحث ، وهو «روافد الثقافة الأندلسية» ، وكيف انكفأ الأندلسيون على حفظ كتاب الله العزيز ودراسة تفسيره ، وحفظ ماوصلهم من الأشعار العربية عن طريق القادمين من المشرق ، وقد حصرت هذه الروافد في خمسة أمور :

أولها : الفتح الإسلامي ، وماتبعه من دخول تلك القبائل العربية ، التي ذكرنا عددا منها بهامش هذا المبحث .

وثانيها : يعود إلى أهل الأندلس أنفسهم ، من حيث استعدادهم لتقبل كل ماوصل إليهم من ثقافة أهل المشرق .

وثالثها : وجود شعراء برزوا في الأندلس منذ بداية الفتح من أمثال أبي الخطار الكلبي الملقب بعنترة الأندلس ، وأبي الأجرب جعونه بن الصمة الكلابي ، أضف إلى ذلك أن أغلب أمراء بني مروان الذين أسسوا دولة الإسلام بالأندلس ، كانوا شعراء ، ولذلك يعدون من أهم العناصر الداعمة للثقافة الأندلسية ، وفي مقدمتهم ، عبدالرحمن الداخل ، مؤسس هذه الدولة ، وغيره من أمراء بني أمية .

ورابعها : الرحلات العلمية المتبادلة بين المشرق والمغرب ، والأندلس ، وقد بينت من خلال هذا الرافد عظم هذه الرحلات ومدى تأثيرها في اتساع الثقافة العربية بالأندلس ، ولاسيما أشعار المحدثين وروايتها عن طريق هؤلاء الراحلين» .

وخامس هذه الروافد وآخرها : النهضة العلمية الواسعة التي حصلت في عهد الناصر ، وابنه الحكم مابين سنة (٣٠٠ - ٣٦٦هـ) ، ويدخل ضمن هذا الرافد ، الحركة العلمية التي وجدت من قبل في عهد الحكم الربضي منذ سنة (١٨٠ - ٢٠٦هـ)، والذي كان يشبه بأبي جعفر المنصور في شدة الملك ، وتوطيد الدولة ، وقمع الأعداء .

وذكرت أن من الشخصيات البارزة في عهد الناصر ، أبا علي القالي الذي قدم الأندلس من بغداد في عهد أبيه الحكم الذي استقبله بحفاوة وإجلال ، يليقان بالعلماء ، وقد كان لوجود هذا العالم أثر كبير في تطور العلوم العربية بالأندلس ، وقد تحدثنا عن أثره هذا ضمن العلماء الوافدين على الأندلس من المشرق ، وختمت هذا المبحث ببيان مكانة مدينة « قرطبة» بالنسبة لمنابر العلم بالأندلس ، وماقاله ابن سعيد عنها ، من أنه إذا مات عالم بأشبيلية حملت كتبه إلى قرطبة لتباع فيها ، وإذا مات مطرب بقرطبة حملت تركته إلى إشبيلية .

المبحث الثاني : « علاقة الأندلسيين بالشعراء العباسيين واهتمامهم برواية أشعارهم » .

وفي هذا المبحث : تحدثت عن صلة الشعر الأندلسي بنظيره العباسي ، تلك الصلة التي باتت من المسلمات لكون الشعرين متعاصرين ، وبينت فيه أن تلك المعركة النقدية التي حدثت في المشرق حول المحدثين قد وصل صداها إلى الأندلس ، وكان الشعر الأندلسي في مراحله الأولى معتمدا على ماذكره الدكتور إحسان عباس في دراسته لعصر سيادة قرطبه وحديثه عن مذاهب الشعر في المشرق والأندلس .

ثم تحدثت عن ذلك الحرص الشديد الذي لمسته من الأندلسيين على تتبع أخبار الشعراء المحدثين ، واقتناصها من أفواه القادمين من المشرق ، ولخصت مظاهر هذا الاهتمام والحرص ، في نقاط ، لعل من أبرزها هذا الترصد لأخبار المحدثين مستشهدا

بما رواه الزبيدي في طبقاته، من أن الشاعر الأندلسي عباس بن ناصح الجزيري كان دائما يسأل عمن نجم بالمشرق ، من المحدثين بعد الشاعر إبراهيم بن هرمة ، وهذا مؤشر قوي إذ أن بداية الشعر المحدث تؤرخ بمن جاء بعد إبراهيم بن هرمة هذا ، من أمثال بشار العقيلي وأبي نواس الحكمي .

أما حرصهم على اقتناء دواوينهم الشعرية ورواية أشعارهم ، فهو ماأفضنا القول فيه ، وقد عولنا في ذلك على كتب المشيخات ، والفهارس ، وبرامج العلماء أمثال : فهرسة ابن خير الاشبيلي ، ومانشره الدكتور عبدالعزيز الأهواني في مجلة معهد المخطوطات المصرية في عددها الأول من برنامج ابن أبي الربيع ، وبرنامج الرعيني ، ولا ننسى كتاب تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس ، لابن الفرضي .

الفصل الثاني : وهو بعنوان «مظاهر التأثر في غرض المديح»

وهو أول الفصول التطبيقية التي تعتمد طرح النماذج التي برز فيها تأثير المحدثين ، سواء في الأخذ أو المعارضة، من خلال مانقلناه من المصادر الأندلسية المشهورة التي أولت الجانب النقدي عنايتها ، فقد قمت برصد أهم تلك التأثيرات مفيداً من تعليقات أصحابها، وحاولت التعليق على بعضها بحسب مايقتضيه المقام.

المبحث الأول:« قصيدة المدح منذ العصر الجاهلي حتى نهاية العصر العباسي »

وفيه تتبعت جذور هذا الغرض ، وكيف تناوله الشعراء ، ذاكرا الفوارق التي حصلت فيه على مر هذه الفترة إن كان ثمة فروق ، مكتفيا بنماذج معينة دون الاستقصاء لعدم إمكانه .

المبحث الثاني : « شعر المديح في الأندلس في ضوء التأثير العباسي » ويشتمل على العناصر التالية :

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية اللغة العربية
قسم الدراسات العليا
فرع الأدب

أثر شعر المحدثين العباسيين في الشعر الأندلسي

رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراة في اللغة العربية وآدابها
« تخصص أدب »

إعداد

إبراهيم بن موسى بن حاسر السهلي

إشراف الأستاذ الدكتور

إبراهيم أحمد الحاردلو

١٤١٥ - ١٤١٦هـ
١٩٩٤م

* منهج قصيدة المدح في الأندلس .
* أبرز الشعراء العباسيين الذين تجلى أثرهم في هذا الغرض ، أمثال أبي نواس ، وأبي تمام ، والمتنبي .

الفصل الثالث : « مظاهر التأثر في غرض الغزل »

ويشتمل على مبحثين :

المبحث الأول : « الغزل منذ العصر الجاهلي حتى نهاية العصر العباسي » .

المبحث الثاني : « شعر الغزل في الأندلس في ضوء التأثير العباسي » .

الفصل الرابع : « مظاهر التأثر في شعر الطبيعة » .

ويشتمل على مبحثين :

المبحث الأول : « شعر الطبيعة منذ العصر الجاهلي إلى نهاية العصر العباسي » .

المبحث الثاني : « شعر الطبيعة في الأندلس في ضوء التأثير العباسي » .

وقد تناولت هذين الفصلين بمباحثهما ، بنفس الطريقة التي تناولت بها الفصل الثاني الموسوم بـ« مظاهر التأثر في غرض المديح » .

الفصل الخامس ، والأخير : وهو بعنوان :

« خصائص الشعر الفنية بين المحدثين والعباسيين »

ويشتمل على مبحثين :

المبحث الأول : « بنية القصيدة » .

وفي هذا المبحث ، بينت أن هذه الخصائص ليست من خصوصية عصر دون غيره ، بل هي قسمة مشتركة بين الشعراء ، وتختلف باختلاف طرق تأتي الشعراء إليها .

وتحدثت فيه عن بنية القصيدة بين الشعرين ، من خلال ماحدده النقاد من جوانب بنية القصيدة كالمقدمة أو الاستهلال ، والخروج أو التخلص ، والاستطراد، والخاتمة . وحاولت في هذا المبحث الاجتهاد - دون تعويل على مصدر أو مرجع معين- في اختيار النصوص من دواوين أصحابها ، أو من أمهات المصادر الأندلسية ، وظللت أوازن بين هذه النصوص في ضوء تلك الأطر التي حددها النقاد لبنية القصيدة، وأرجو من الله أن أكون قد وفقت في ذلك .

المبحث الثاني :

وهو عبارة عن دراسة شاملة للخصائص الفنية المشتركة بين المحدثين والأندلسيين من حيث استخدام ألوان البديع والغوص على المعاني وإسرافهم في المحسنات اللفظية، وما إلى ذلك .

الخاتمة :

وانتهيت في بحثي هذا إلى خاتمة اشتملت على أهم النتائج التي توصل إليها البحث ، وتلخيص الأفكار العامة التي حواها البحث .

هذا والله أسأل أن يديم علينا نعمه وفضله إنه نعم المولى ، ونعم النصير ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ، وسلام على المرسلين .

الباحث

« مدخل »

الشعر العباسي
بين القديم والمحدث

(١)

يحسن بنا قبل الشروع في تتبع أثر الشعراء المحدثين في شعراء الأندلس ، أن نبحث قضية القدم والحداثة في الشعر العربي ، وأن نميز بين القديم ، والحديث ، من خلال كلام العلماء والدارسين .

وقبل ذلك يجب الوقوف على مدلولات تلك الألفاظ التي ترددت كثيراً عند النقاد ، مما يتعلق بالقدماء والمحدثين ، من خلال المعاجم العربية ، لنعرف الفروق بين مطابقها ومرادفها . على أن هذه الألفاظ التي تواجهنا هي : القديم ، الحديث ، المولد .

قال ابن فارس : « قَدُمَ » القاف ، والدال ، والميم : أصل صحيح يدل على سبق ورعف(*) ، ثم يفرغ منه مايقاربه ، يقولون : القدم خلاف الحدوث ، ويقال شيءٌ قديم : إذا كان زمانه سالفاً ، وأصله ، قولهم : مضى فلان قدماً لم ينثن»(١) .

إذن : لفظة قديم تعنى السبق ، وكل ماتقدم على غيره ، في اللغة يسمى : قديماً ، لأنه أصل ينبني عليه غيره .

أما المحدث : فقد ورد في اللسان : مادة « حدث » ، الحديث : نقيض القديم ، والحدوث : نقيض القدمه ، حدث الشيء يحدث حُدوثاً ، وحداثةً ، وأحدثه هو ، فهو محدثٌ وحديث ، وكذلك استحدثه (٢) .

(*) الرعف : السبق ، رعفه يرعفه : سبقه وتقدمه . انظر : هامش المقاييس ص ٦٥ .

(١) معجم مقاييس اللغة ٥/٥٦ ، ت عبدالسلام هارون .

(٢) اللسان مادة « حدث » .

وأما المولد ، ففي اللسان : المولد : المحدث من كل شيء ، ومنه المولدون من الشعراء ، إنما سُمّوا بذلك لحدوثهم (١) .

وذكر ابن منظور أن إطلاق العرب عندما قالوا : عربية مولَّدة ، ورجل مولّد إذا كان عربياً غير محض . . . وقال : وإنما سُمي المولد من الكلام مولداً إذا استحدثوه ، ولم يكن من كلامهم فيما مضى » (٢) ، وقال الزمخشري : « ومن المجاز ولدوا حديثاً وكلاماً استحدثوه ، وكلام مولد ليس من أصل لغتهم ، وشاعر مولد ، وتولدت العصبية فيما بينهم » (٣) .

يفهم من ذلك أن لفظة « المولد » أطلقت على من وجد بين العرب الخلص ووالاهم ، وهم من جنس أعجمي ، قال الزمخشري : « وغلام مولد وجارية مولدة : ولدت عند العرب ونشأت مع أولادهم وتأدبت بأدابهم » (٤) .

واتسع استعمال هذا اللفظ حتى أصبح اللغويون القدماء يطلقونه على كل كلام محدث أي متأخر عن القديم الذي حُدِّد زمنه للحفاظ على سلامة العربية ، وفيما بعد ارتبط لفظا المحدث والمولد بطبقة معينة من الناس إضافة إلى إطلاقه على الكلام المتأخر عن عصر الاحتجاج بالشعر وهو منتصف القرن الثاني الهجري ، ويؤيد ذلك قول أبي عمرو بن العلاء : « لقد أحسن هذا المولد حتى هممت أن آمر صبياننا بروايته » (٥) قال ابن رشيق « يعني بذلك شعر جرير والفرزدق . » (٦) .

---

(١) اللسان مادة « ولد » .

(٢) اللسان مادة « ولد » .

(٣) أساس البلاغة مادة « ولد » .

(٤) نفسه مادة « ولد » .

(٥) العمدة ١/ ٩٠ .

(٦) نفسه ص ١/ ٩٠ .

وهؤلاء القدماء لايفصلون المحدث عن المولد ، بل هما يحملان معنى مشتركاً ، حيث نلحظ في عبارة أبي عمرو استعمال لفظة « المولد » وابن رشيق يستعمل لفظة « المحدث » في قوله : « كل قديم من الشعراء فهو محدث في زمانه بالإضافة إلى من كان قبله . . » (١) .

وإذنْ فلفظا « المولّد » ، و « المحدث » تستعملان لدى هؤلاء من قبيل الترادف ، وقد وقف عند هذه القضية الدكتور حلمي خليل وتوصل إلى أنَّ « لفظة المولد كانت تستعمل مرادفةً للفظة محدث كمصطلح للدلالة على نوع من الكلام حتى نهاية القرن الأول الهجري وبداية القرن الثاني » (٢) . وكأنَّ لفظة «المولد» هي التي سببت إشكالاً لدى اللغويين ، وغمض تحديدها . وبناءً على استقرائهم لكلام العرب « اعتبروا كل لفظ أو تركيب جاء عن طريق الاشتقاق أو تحويل الدلالة أو التعريب ، أو حدوث تعديل أو تحريف أو لحن في الصيغة ، وتكلم به المولدون ، أو العامة بعد عصر الاحتجاج من المولّد » (٣) .

ومن هنا فكل تغيير في اللغة يسمى مولداً ، وقد نسب السيوطي لثعلب قولاً يرى فيه أن التغيير « هو كل شيءٍ مولد » (٤) .

ومن هذا المنطلق صُنِّف الشعراء إلى قديم ، ومحدث أو مولد ، وركّز اللغويون على القديم ، وأولوه عنايتهم حرصاً على الشاهد اللغوي ، وأهملوا المحدث اعتقاداً منهم بأنه مُفسدٌ للسليقة .

وسنعرض لمواقفهم إزاء الشعراء الذين سُمّوا بالمحدثين في الصفحات التاليات .

---

(١) نفسه ص ٩٠ .

(٢) المولد في العربية ، الدكتور حلمي خليل ، دار النهضة العربية ، بيروت ط ١٤٠٥هـ ، ص١٦١ .

(٣) السابق ص ١٦٦ .

(٤) المزهر ١/ ٣١٠ .

موقف القدماء من الشعر، وتقسيمه إلى قديم ومحدث :

اهتم القدماء من اللغويين بتثبيت عرى العربية ، والحفاظ عليها من أي شائبة يمكن أن تخلّ بشرفها ، ولذلك حرصوا على دقة الاستشهاد ، وإثبات أصالة ألفاظها من خالص كلام العرب الفصحاء الذين لم يتأثروا بدخيل ولا معرب مما تسلل فيما بعد عصر الاحتجاج إلى العربية ، وبذلوا في سبيل ذلك جهداً مضنياً ، حتى وصلت إلينا هذه اللغة في أحسن بزة وأبهى حلة .

وكان للشعر عندهم محل الذروة من السنام ، إذ هو أبلغ فنون القول ، وأقدرها على حفظ اللغة ، يقول ابن سلام الجمحي : «وكان الشعر في الجاهلية عند العرب ديوان علمهم ، ومنتهى حكمهم ، به يأخذون ، وإليه يصيرون»(١) وفيما يروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، أنه قال : « كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصحُّ منه » (٢) ، وكان ابن عباس رضي الله عنهما يقول : « إذا قرأتم شيئاً من كتاب الله ، فلم تعرفوه ، فاطلبوه في أشعار العرب ، فإن الشعر ديوان العرب » (٣) . وروى عن عليّ رضي الله عنه أنه قال : « الشعر ميزان القول»(٤) ، وقيل لسعيد بن المسيب : « إن قوما يكرهون الشعر ، فقال : نسكوا نسكاً أعجمياً » (٥) وقال ابن سيرين : « الشعر كلام عقد بالقوافي ، فما حسن في الكلام حسن في الشعر ، وكذلك مافيه منه » (٦) .

(١ ، ٢) طبقات فحول الشعراء ، لابن سلام ، ت الشيخ محمود شاكر ، مطبعة المدني ، السفر الأول ، ص ٢٤ .

(٣) العمدة ص ٣٠ ، وطبعة قرقزان ص ٩٠ - ٩١ .

(٤) العمدة ١/ ٩٠ ، تحقيق الدكتور محمد قرقزان .

(٥) نفسه ١/ ٩٠ .

(٦) نفسه ١/ ٩٠ .

ويقـول ابن خلدون : « . . . واعلم أن فن الشـعـر من بين الكلام كـان شريفاً عند العرب ، ولذلك جعلوه ديوان علومهم ، وأخبارهم ، وشاهد صوابهم وخطئهم ، وأصلاً يرجعون إليه في الكثير من علومهم وحكمهم . »(١) .

من أجل ذلك اهتم اللغويون ، والنحاة ، والنقاد القدماء - من أمثال أبي عمرو الشيباني ، وابن الأعرابي ، والأصمعي ، ومن جاء بعدهم كابن قتيبة ، وابن رشيق - بالشعر ، وبدأ تقسيم الشعراء ، وتصنيفهم إلى طبقات حسب عصورهم ، يتفاضلون في إجادتهم في النظم وقوة الملكة اللغوية .

ولعلنا نذكر في هذا الموطن لفتة ذات بال في رواية الشعر والسرّ في الاهتمام به ، أشار إليها ابن سلام ، يقول فيها : « . . فجاء الإسلام ، فتشاغلت عنه العرب - أي عن الشعر - وتشاغلوا بالجهاد ، وغزوا فارس والروم ، ولهت عن الشعر وروايته ، فلما كثر الإسلام ، وجاءت الفتوح ، واطمأنت العرب بالأمصار ، راجعوا رواية الشعر لم يؤولوا إلى ديوان مدون ، ولا كتاب مكنون ، وألفوا ذلك ، وقد هلك من العرب من هلك بالموت ، والقتل ، فحفظوا أقل ذلك، وذهب عليهم منه كثير . »(٢) .

ولهذا هرع اللغويون ، وسدنة اللغة من الرواة يجمعون مابقي من هذا الشعر لحفظ هذه اللغة الخالدة ، محاولين وضع ضوابط وقواعد معينة تحفظها حتى لاتعتريها عوامل التفتت والنقص ، من جراء اختلاط العرب بغيرهم من الأمم الأخرى إثر المدّ الإسلامي ، وخرجوا عن مواطن العرب الفصحاء ، وقد ترتب على ذلك فشو اللحن وفساد السليقه ، وكان القرن الثاني الهجري ، وبدأ الرواة وسدنة اللغة ينقبون عن شعر عربي أصيل يستشهدون به لما وضعوه لهذه اللغة من قواعد تثبت عراها . ولهذا كان تركيزهم على الشعر القديم ، وأخذوا في جمعه

---

(١) المقدمة ص ٥٧٠ ، دار القلم بيروت ، ط ٥ ، ١٩٨٤م .

(٢) طبقات فحول الشعراء ١/ ٢٥ .

وتدوينه من أفواه الأعراب في بوادي الجزيرة العربية ، وظلوا متنقلين بين هذه البوادي بأنفسهم حرصاً منهم على سلامة هذا اللسان العربي المبين .

هذا وقد ألجأهم ذلك البحث والتدوين إلى تصنيف الشعر إلى قديم ومولد أو محدث حتى يتسنى لهم الاستشهاد بالقديم القريب من البداوة ، ولذلك وجدوا أنفسهم مضطرين إلى تحديد هذا القديم الذي يقف عندهم في منتصف القرن الثاني الهجري ، وهي الفترة التي يمكن الاحتجاج بشعرها ، وتنتهي بالشاعر إبراهيم بن هرمة (ت ١٥٨ هـ) ، واستبعدوا من جاء بعده كبشار بن برد (ت ١٦٧ هـ) الذي جعلوه رأس طبقة المولدين في العصر العباسي ، الذين لايحتج بأشعارهم على قواعد اللغة وضوابطها التي وضعوها .

ويبدو أن تصنيف هؤلاء اللغويين الشعر إلى قديم يشمل العصر الجاهلي والإسلامي ، ومحدث يشمل كل ماعدا هذين من الأمويين أمثال جرير والفرزدق ، وشعراء مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية كابن هرمة وبشار ، وبقية شعراء العصر العباسي بصفة عامة هو تصنيف لم يقم على أساس فني يعتمد الجودة مقياساً له ، بل كان المعتمد هو الزمن فقط .

وبسبب ذلك تعصب هؤلاء النقاد اللغويون للقديم وأفرطوا في هذا التعصب حتى أفضى بهم إلى عدم الاعتداد بكل متأخرٍ عن القديم الذي حددوه فيما بعد بالجاهلي ، ومن في طبقته ، وظلوا يبحثون عن حسناته وميزاته يتداولونه ، ويروونه بين تلاميذهم مفاخرين ببلاغته وفصاحته ولاسيما الجاهلي وكأن البلاغة والفصاحة لم تخلقا إلا لذلك الشعر ، وماسواه لايستحق الدرس ، ولا النظر إليه مما وسموه بـ«شعر المولدين أو المحدثين» اللهم إلا على سبيل التندر والتهكم به في مجالسهم .

والأمثلة على ذلك كثيرة يقدمها قول أبي عمرو بن العلاء عندما سئل عن المولدين أو المحدثين فقال : « ماكان من حسن فقد سبقوا إليه ، وماكان من قبيحٍ

فـمن عندهم ، ليس النمط واحـداً ترى قطعة ديباج ، وقطعـة مسح ، وقطعـة نطـع»(١) .

على أن هذه النظرة ربما تكون مستساغة لو لم يفسدها التعصب ، ذلك أن نيتهم في الأصل إنما هي البحث عن الشاهد اللغوي والنحوي فحسب ، وهذا يؤكده ابن رشيق بقوله : « . . . بأن كل واحد منهم يذهب في أهل عصره هذا المذهب ، ويقدم من قبلهم وليس ذلك لشيء إلا لحاجتهم في الشعر إلى الشاهد ، وقلة ثقتهم بما يأتي به المولد ثم صارت لجاجةً » (٢) .

وعلى هذا فقد حدد ابن رشيق طبقات الشعراء بأنها أربع : جاهلي قديم ، ومخضرم ، وإسلامي ، ومحدث . حتى « صار المحدثون طبقات أولى ، وثانية على التدريج هكذا في الهبوط إلى وقتنا هذا » (٣) .

ولا شك أن حرص القدماء على تنقية لغة القرآن من المولد ، والهجين وبقائها صافية كما وردت عن العرب الخلص لهي نظرة فاحصة تنم عن حرص هؤلاء اللغويين ، ودرايتهم بكلام العرب ، والبحث يؤيد ذلك تماماً لأنه ربما اعترى المولد أو المحدث شيء من فساد ملكة اللسان واضطروا لمعالجتها بالصناعة ، وقد كثر ذلك لدى شعراء العصر العباسي ، إلا أن المأخذ على القدماء هو عدم التفاتهم إلى مالدى هؤلاء المولدين أو المحدثين من توليد في المعاني أو تجديد في الصياغة ، ودقة في الأغراض ، ورقة في اللفظ ، وإن قصروا عن الأولين من حيث بعدهم عن الطبع ، ومنبع العربية الصافي ، ولو لم تكن نظرة النقاد الأوائل فيها شيء من التعسف ، والتهوين من شأن المحدثين عامةً لما حصلت تلك اللجاجة التي أشار إليها ابن رشيق آنفا .

---

(١) العمدة ١/ ١٩٧ .

(٢) السابق ١/ ١٩٧ - ١٩٨ .

(٣) العمدة ١/ ٢٣٣ .

وعلى الرغم من ذلك نجد من القدماء من ينظر بعين الانصاف فيشهد لهذا المولد بالإحسان كما شهد بذلك أبو عمرو بن العلاء وهم برواية شعره ، مع أنه لم يحتج بشعر أحد منهم ، يقول الأصمعي عنه : « جلست إلى أبي عمرو عشر حجج ماسمعته يحتج ببيت إسلامي » (١) ، والذي يفهم من كلام أبي عمرو أن لفظ المولد يمكن أن يوصف به أي شاعر تأخر عن العصر الجاهلي ، يؤكد ذلك ماذكره الأصمعي من عدم احتجاج أستاذه أبي عمرو بشعر الإسلاميين الذين هم أقرب شيء للعصر الجاهلي ، وكذلك وصف أبي عمرو شعر جرير والفرزدق بالمولد .

ومن المعروف أن لفظ المحدث أو المولد على حد سواء مما ينعت به الشعراء المجددون في العصر العباسي الذين أحدثوا هذه الضجة الكبيرة لدى النقاد ، وقسموهم إلى طبقات كما نص على ذلك ابن رشيق (٢) ، هذا ولم يقف تقسيم الشعراء إلى قديم ومحدث ، وتقسيم المحدث إلى طبقات ، بل إنهم قسموهم فيما بعد إلى : جاهليين ، ومخضرمين وإسلاميين ، نجد ذلك لدى ابن سلام ، وغيره من النقاد .

وفيما بعد جاء عبدالقادر البغدادي مستقرئاً كلام العلماء حول تصنيف الشعراء إلى طبقات من حيث الاستشهاد بأشعارهم ، وفصل القول في ذلك فقال : « . . . وأقول : الكلام الذي يستشهد به نوعان : شعر ، وغيره : فقائلٌ : الأول قد قسمه العلماء على طبقات أربع :

الطبقة الأولى : الشعراء الجاهليون ، وهم قبل الإسلام كامرىء القيس والأعشى .

الطبقة الثانية : المخضرمون ، وهم الذين أدركوا الجاهلية كلبيد وحسان .

الثالثة : المتقدمون ، ويقال لهم : الإسلاميون ، وهم الذين كانوا في صدر الإسلام ، كجرير والفرزدق .

الرابعة : المولدون ، ويقال لهم : المحدثون ، وهم من بعدهم إلى زماننا ، كبشار بن برد وأبي نواس » (٣) .

---

(١) البيان والتبيين ١/ ٣٢١ .

(٢) ينظر ص ٧ من هذا البحث .

(٣) خزانة الأدب ، ت عبدالسلام هارون ، ط ٢ ، الهيئة المصرية ، ١٩٧٩م ١/ ٥ .

موقف ابن قتيبه وبعض النقاد المتأخرين :

على الرغم مما عرفنا من حرص القدماء على سلامة اللغة ، فإن نظرتهم قد شابها الغمط وعدم الاعتراف بفضل للمحدثين ، وجاء ابن قتيبة ، وانتصر لهم ، وأوضح أن تأخرهم لم يقلل من إحسانهم ، فهو يقول : « فإني رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ، ويضعه في متخيره ، ويرذل الشعر الرصين ، ولا عيب له إلا أنه قيل في زمانه ، أو رأى قائله ، ولم يقصر الله العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن ولا خص به قوماً دون قوم ، بل جعل ذلك مشتركاً مقسوماً بين عباده في كل دهر ، وجعل كل قديم حديثاً في عصره(*) ، وكل شرف خارجية في أوله ، فقد كان جرير والفرزدق وأمثالهم يدعون محدثين . . . ثم صار هؤلاء قدماء ببعد العهد منهم ، وكذلك يكون من بعدهم لمن بعدنا ، كالخريمي والعتابي ، والحسن بن هانيء ، وأشباههم . فكل من أتى بحسن من قول أو فعل ذكرناه له ، وأثنينا به عليه ، ولم يضعه عندنا تأخر قائله أو فاعله ، ولا حداثة سنه . كما أن الرديء إذا ورد علينا للمتقدم أو الشريف لم يرفعه عندنا شرف صاحبه ولا تقدمه » (١) .

ولقد أنصف ابن قتيبه في نظرته هذه ، وما ألجأه لهذا القول إلا عندما رأى التحامل واضحاً على المعاصرين ، وقد ذكر القاضي الجرجاني أن هذا التحامل كاد يفقد ديواني الطائيين ، فمن جراء تحامل أبي رياش القيسي عليهما قلّ هذان الديوانان بالبصرة لقلة الرغبة فيهما(٢) ، مع أن هذين الشاعرين كانا قد أحييا الحركة النقدية ، وأثريا الساحة الأدبية بأشعارهما التي اتسمت بالحلاوة والعذوبة ، وقرب المأخذ .

(*) وقد ذهب ابن رشيق إلى هذا الرأي فقال : « كل قديم من الشعراء فهو محدث في زمانه بالإضافة إلى من كان قبله » العمدة ١/ ١٩٧ .

(١) الشعر والشعراء ١/ ٦٣ .

(٢) الوساطة ص ٥١ بتصرف .

وهؤلاء المحدثون يجب أن يحملوا طابع الجدة ، والطرافة حتى يعيشوا عصرهم وبيئتهم ، لأنهم كما يقول ابن وكيع التنيسي ، لو أنهم سلكوا « مسلك المتقدمين في غلبة الغريب على أشعارهم ، ووصف المهامة والقفار ، والإبل ، وذكر الوحوش ، والحشرات ، ماروىت لأن الأولين أولى بهذه المعاني ، ولاسيما مع زهد الناس في الأدب في هذا العصر ، وماقاربه ، وإنما تكتب أشعارهم من الأفهام ، وأن الخواص في معرفتها كالعوام ، فقد صار صاحبها بمنزلة صاحب الصوت المطرب يستميل أمة من الناس إلى استماعه ، وإن جهل الألحان ، وكسر الأوزان . وقائل الشعر الحوشي بمنزلة المغني الحاذق بالنغم المطرب الصوت يعرض عنه إلا من عرف فضله » (١) .

وعلى أية حال فقد كثر الجدل حول القدماء والمحدثين ، وماكان له أن يكثر ، ذلك لأن المحدثين ليسوا سوى امتداد لما بدأه الأوائل وأنهم جاؤا لإتمامه ، يقول ابن رشيق : « إنما مثل القدماء والمحدثين كمثل رجلين : ابتدأ هذا بناء فأحكمه وأتقنه ، ثم أتى الآخر فنقشه وزينه ، فالكلفة ظاهرة على هذا وإن حسن ، والقدرة ظاهرة على ذلك وإن حسن . » (٢) .

ولانود إطالة القول في سرد آراء العلماء والنقاد حول هذين الجيلين ، فهي كما يقول ابن رشيق لجاجة ، لاطائل من ورائها ، والنتيجة قد تكون واحدة ، ولعلي ألخص مجمل تلك الآراء في النقاط السبع التالية :

أولاً : إن النقاد اللغويين ، كان أقصى وكدهم وشغلهم الشاغل البحث عن الشاهد اللغوي لحفظ اللغة من الضياع ، وتنقيتها من الشوائب ، وقد اضطرهم ذلك إلى التركيز على القدماء ، والتهوين من شأن المحدثين ، أو المعاصرين لهم .

---

(١) المنصف ، دار ابن قتيبة ، دمشق ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م ، ص ١٧٤ .

(٢) العمدة ١/ ١٩٩ .

ثانياً : ترتب على هذا التهوين : رفض بعض ماجاء به المحدثون ، ووصمه بالتوليد حيناً ، والتكلف حينا آخر ، ومن ذلك ماحكاه الأصمعي عندما أنشده إسحق الموصلي شيئا من شعره فأعجب به وقال : « هذا والله الديباج الخسرواني ؟ » وعندما عرف أنها لإسحق نفسه غضب ورجع عن إطرائه ، وقال : « لاجرم أن أثر التكلف فيهما ظاهر ، وفي رواية أنه قال : أفسدته ، أفسدته ، أما إن التوليد فيه لبين (١) .

ثالثاً : فشو نوع من العصبية والتحامل من قبل النقاد والقدامى ترتب عليهما اعتداد المحدثين بأشعارهم ، ومحاولة إثبات براعتهم ، وتفوقهم وقد شد من أزرهم دفاع المنصفين عنهم .

رابعاً : إن هؤلاء المنصفين هم الذين اعتمدوا الجودة الفنية مقياساً للحكم على الشعر ، وليس القدم فحسب كما فعل بعض النقاد ، ويأتي في طليعة المنصفين ابن قتيبة ، وابن رشيق ، وابن وكيع ، مع التغاضي عن بعض شطحات بسيطة وافقوا فيها المتحاملين .

خامساً : إن من النقاد المتأخرين الذين لم يأنسوا لذلك التعصب ، من دافع عن المحدثين ، وأخذ على اللغويين نظرتهم الضيقة من جانب ، وعدم فهمهم لما جاء عن المحدثين من شعر ، ويأتي أبوبكر الصولي في مقدمة هؤلاء فيقول عن القدماء : « ولم يجدوا في أشعار المحدثين منذ عهد بشار أئمة كأئمتهم ، ولا رواة كرواتهم الذين تجتمع فيهم شرائطهم ، ولم يعرفوا ماكان يضبطه ويقوم به ، وقصروا فيه فجهلوه ، فعادوه ، كما قال الله عز وجل : ﴿ بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ﴾ (٢) وكما قيل الإنسان عدو ماجهل ، ومن جهل شيئا عاداه ، وفر العالم منهم من قوله إذا سئل أن يقرأ عليه شعر بشار

---

(١) بتصرف من الوساطه ص ٥٠ .

(٢) سورة يونس آية ٣٩ .

وأبي نواس ، ومسلم ، وأبي تمام ، وغيرهم من « لا أحسن » (*) إلى الطعن ، وخاصة على أبي تمام ، لأنه أقربهم عهداً ، وأصعبهم شعرا»(١).

وفي حقيقة الأمر أن الصولي لم يفتت عليهم بذلك فلديه مايثبت عدم فهمهم أشعار هؤلاء المحدثين ، ويستشهد على هذا بقصة وقعت لأبي العباس ثعلب ، فيقول « ولقد حدثني بنو نوبخت - ومارأيت أبا العباس أحمد بن يحى على جلالته عند أحد أجل منه عندهم ، وكلهم ينتسب إليه في تعليمه أنه قال لهم : أنا أعاشر الكتاب كثيراً ، وخاصة أباالعباس بن ثوابه ، وأكثر مايجري في مجالسهم شعر أبي تمام ولست أعلمه ، فاختاروا منه شيئا فاخترنا منه له ودفعنا إليه فمضى به إلى ابن ثوابة فاستحسنه ، فقال له : إنه ليس بما اخترت ، وإنما اختاره لي بنو نوبخت ، قال : فكان ينشدنا البيت من شعره ثم يقول ماأراد بهذا ؟ فنشرحه له : فيقول : أحسن والله وأجاد ! ، فهذه قصة إمام من أئمة الطاعنين عليه عندهم . »(٢) .

سادساً : من خلال النصوص والآراء التي عرضها القاضي الجرجاني تبين لي أن هناك من النقاد اللغويين من يصدر أحكامه جزافا على المحدثين لكونهم كذلك ، وإذا بداله إعادة النظر ربما أنصفهم وشهد بالإحسان لهم ، وهم برواية أشعارهم ، ومامنعه من ذلك إلا المعاصرة ، وتقديسه للقديم لقدمه .

سابعاً : وأخيرا يلحظ من كلام أولئك الرواة والنقاد اللغويين نزعة غاضبة تؤول إلى شيء من الحسد ، وهو مما يجري دائما بين المتعاصرين ، والأقران ، وإن كانوا علماء أجلاء ، فهم بشر يصيبهم الخطأ ، ويجانبهم الصواب فيؤخذ من قولهم ويرد ، وإلا فإن هؤلاء المحدثين قد أتوا بمعان وأخيلة لم تكن موجودة من قبل ، وربما تغيرت على يديهم بنية القصيدة ولاسيما قصيدة المدح .

(*) يقصد أنه يفرُّ من قوله « لا أحسن » .

(١) أخبار أبي تمام ص ١٦ .

(٢) أخبار أبي تمام ص ١٦ .

الشعراء العباسيون « الأصل والمنشأ »

وهم فئتان :

الفئة الأولى :

طائفة الموالي الذين يعودون إلى أصول أعجمية ولكنهم عاشوا في أكناف الدولة العباسية ، وبخاصة الفرس الذين كانت لهم قدم راسخة في سياسة هذه الدولة ، وكان هؤلاء من ذوي المواهب الشعرية دعمها ماتلقوه على أيدي العلماء والرواة في حلقات الدرس ببغداد والبصرة وغيرها من حواضر الدولة العباسية . ولم يكتف هؤلاء الشعراء بالتلقي من العلماء ، بل هرعوا إلى البوادي لمخالطة الأعراب ، وفصحاء العرب حتى أصبح شعرهم يجمع بين « فصاحة البداوة وبداعة الحضارة » (١) مما جعله يلقى رواجاً لدى خلفاء هذه الدولة أضف إلى ذلك تمكنهم من لغاتهم الأصلية كالفارسية التي ساعدتهم على إدخال ألفاظ أعجمية في أشعارهم ، وهذا من الإغراب اللفظي الذي عيب على يزيد بن مفرغ الحميري ، ولم يستحسن من رواد المحدثين كبشار وأبي نواس .

الفئة الثانية :

وهم الأصل ، ويقصد بهم الشعراء العرب الخلص ، الذين تسببت الحضارة والرقي في هذا العصر في تطور ثقافتهم الأدبية ، واتساع قاموسهم الشعري ، فتنوعت أساليبهم ، وجاءت أشعارهم على نمط يرتضيه العصر ، ويمقته بعض النقاد المتعصبين للقديم ، ومن هولاء الشعراء أبوتمام والبحتري وابن المعتز وغيرهم .

وفيما بعد أصبحت النظرة شاملة لهاتين الطائفتين من الناحية النقدية ، فوصفوهم جميعا بالمحدثين والمولدين ، نظراً لتأخر زمنهم ، وتجديدهم في أشعارهم ، وبمجموع هاتين الفئتين يتشكل اتجاه بارز في الشعر العربي ألا وهو اتجاه المحدثين أو المجددين للشعر في العصر العباسي .

---

(١) المفصل في تاريخ الأدب العربي ١/ ١٦٧ ، الشيخ احمد الاسكندري وآخرون .

بواعث التجديد لدى هؤلاء الشعراء :

أولاً : وجود بدايات بسيطة للتجديد في آخر العهد الأموي :

الشعر العربي من جاهلية إلى آخر بيت يمكن أن يقال هو عبارة عن حلقة متصلة يتأثر فيه المتأخر بالمتقدم .

وشعراء الدولة العباسية عندما خاضوا تجربتهم الشعرية الجديدة لم يكن لهم بد من الالتفات إلى من سبقهم ولاسيما الذي يجدون فيه روح التجديد ، والخروج عن المألوف .

ومن الطبعي أن يكون ذلك واضحاً لدى شعراء آخر الدولة الأموية الذين سيكون لبعضهم أثر بارز في الشعراء العباسيين . وفي مقدمة هولاء الوليد بن يزيد آخر خلفاء بني أميه شاعر الخمرة المشهور ، ولذلك تجد أول ملمح للتجديد هو استبدال الشعراء العباسيين المقدمة الطللية بالمقدمة الخمرية وبالذات أبو نواس شاعر الخمرة في العصر العباسي والزعيم الفعلي للشعراء المجددين في هذا العصر . وهؤلاء وجدوا النواة الأولى لدى الوليد بن يزيد الذي وصف بالتحرر ، وقد برز تأثيره جليا في وصف الخمر ، يقول الأصفهاني : « وهو مابرز فيه وتبعه الناس جميعا فيه وأخذوه منه » (١) ويقول عنه : « وللوليد في ذكر الخمر وصفتها أشعار كثيرة قد أخذها الشعراء فأدخلوها في أشعارهم ، وسلخوا معانيها ، وأبو نواس خاصة فإنه سلخ معانيه كلها وجعلها في شعره فكررها في عدة مواضع » (٢) وقد عد الوليد بن يزيد رائداً للحركة الشعرية الجديدة في العصر العباسي لما أفاض فيه من ميله للهو والمجون ، وحرصه على سماع الأغاني مما دفعه إلى ابتكار أوزان جديدة ، يقول الدكتور شوقي ضيف « . . لقد كان أول من اقترح – فيما نعلم –

---

(١) الأغاني ٧/١٨ ، دار إحياء التراث .

(٢) المصدر نفسه ص ٢٠ .

وزن المجتث . »(١) ، وموجة الغناء التي انتشرت في هذا العصر تسببت في «شيوع الأوزان القصيرة »(٢) بصفة عامة في عصر الوليد الذي كان تمهيداً للعصر العباسي ، وقد تأثر بذلك بعض شعراء العصر العباسي ممن نادموا الوليد كمطيع بن إياس ، وقرضوا أشعاراً على وزن « المجتث » حتى قيل إن مطيعاً هو الذي أشاع هذا الوزن بعد أن أخذه عن الوليد بين شعراء عصره ، هذا ولم يسلم كبار شعراء العصر العباسي كبشار من تأثير الوليد ، فهو كما يذهب نجيب البهبيتي إلى أن طريقته الشعرية ليست إلا امتداداً « لمذهب الوليد ، ولمذهب عمر بن أبي ربيعة . . . »(٣) ، وكون بشاراً عاصر الوليد ، وللوليد تلك المكانة الرفيعة فطبيعي أن يتأثره ، ويدفعه إلى التجديد ، والخروج عن المألوف . وأما بالنسبة لتأثيره على الذين أتوا بعد بشار فقد برز في شعر أبي نواس والحسين بن الضحاك كما أشار إلى ذلك صاحب الأغاني ، عندما وقف عند شعره في الخمر ، واعتبره مجددا فيه ومبدعا في الوقت نفسه ، يقول : « . . وهذا من بديع الكلام ونادره ، وقد جدد فيه منذ ابتدأ إلى أن ختم ، وقد نقلها أبو نواس والحسين بن الضحاك في أشعارهما»(٤) .

وإذن فمذهب الوليد في استحداث الأوزان الجديدة بسبب حركة الغناء ، وكثرة المجون ، كل ذلك جعل شعر الوليد البداية الحقيقية لتيارات التجديد في العصر العباسي ، الذي وجد تربة خصبة استقبلت مذهبه برحابة صدر ، وتجاوب سريع ، وبخاصة الشعراء الذين اشتهروا بالمجانة والتفسخ ، والذي « وضع الوليد، على الرغم من وجوده بالشام ، هذا الموضع من زعامة الشعر العراقي ، إعجاب أهل العراق به ملوكا وسوقة وهيأه له مايقع في النفوس من غرابة أن يأتي هذا من

(١ ، ٢) الفن ومذاهبه ص ٥٩ .

(٣) تاريخ الشعر العربي ص ٣٢٩ .

(٤) الأغاني ٧/ ٢٠ .

أمير أصبح يوماً خليفة ، فذلك يجعل الناس أشد به ولوعاً ، وأقوى له استغراباً ، وأعمق به تأثراً ، وذلك مارأينا فعلاً آثاره في مدرسة الشعراء والمغنيين التي أحاطت به ، ثم تركت من بعد أثرها في الشعر العراقي . »(١) حتى عُدّ الوليد شاعراً عباسياً سبق عصره .

ومجمل القول فإن شعراء العصر العباسي على الرغم من تأثرهم بالوليد ، فإن الشعر نال على يديهم الشيء الكثير من الإبداع والتجديد ، والتحرر من الكثير من القيود ، فتنوعت الموضوعات ، وأساليب الشعراء بما يلائم العصر ، ولم يخرجوا عن المنهج القديم بالقدر الذي صوره بعض المتحاملين من النقاد ، ومن بعض الدارسين المتأخرين أمثال الدكتور طه حسين ، والعقاد وشوقي ضيف ، ونجيب البهبيتي ، فإن كل هؤلاء عولوا كثيراً في دراساتهم على كتاب الأغاني الذي كثيراً ماتجافى صاحبه عن الحقيقة ، واتبع الزيف وعدل عن الصواب في أغلب ماقاله عن شعراء العصرين الأموي والعباسي .

ثانياً : البواعث الحضارية :

من المعروف أن هذا العصر واكب نقلة حضارية شاملة عقب الفتوحات الإسلامية ساعدت على التطور الحضاري والثقافي بشكل ملموس ، وهذا ماعبر عنه القاضي الجرجاني بقوله : « فلما ضرب الإسلام بجرانه واتسعت ممالك العرب، وكثرت الحواضر ، ونزعت البوادي إلى القرى وفشا التأدب والتظرف ، اختار الناس من الكلام ألينه وأسهله ، وعمدوا إلى كل شيء ذي أسماء كثيرة ، اختاروا أحسنها سمعاً وألطفها من القلب موقعا ، وإلى ماللعرب فيه من لغات ، فاقتصروا على أسلسها وأشرفها ، كما رأيتم يختصرون ألفاظ الطويل ، فإنهم وجدوا للعرب فيه نحواً من ستين لفظة أكثرها بشع شنع . . . ، . . فنبذوا جميع

---

(١) تاريخ الشعر العربي ص ٣٢٩ .

ذلك وتركوه ، واكتفوا بالطويل لخفته على اللسان ، وقلة نبو السمع عنه ، وتجاوزوا الحد في طلب التسهيل حتى تسمحوا ببعض اللحن وحتى خالطتهم الركاكة والعجمة ، وأعانهم على ذلك لين الحضارة ، وسهولة طباع الأخلاق ، فانتقلت العادة ، وتغير الرسم، وانتسخت هذه السنة ، واحتذوا بشعرهم هذا المثال، وترققوا ما أمكن ، وكسوا معانيهم ألطف ماسنح من الألفاظ ، فصارت إذا قيست بذلك الكلام الأول يتبين فيها اللين ، فيظن ضعفا ، فإذا أفرد عاد ذلك اللين صفاء ورونقا ، وصار ماتخيلته ضعفا رشاقة ولطفا ، فإن رام أحدهم الاغراب والاقتداء بمن مضى لم يتمكن من بعض مايرومه إلا بأشد تكلف ، وأتم تصنع ، ومع التكلف المقت وللنفس عن التصنع نفرة ، وفي مفارقة الطبع قلة الحلاوة وذهاب الرونق ، وإخلاق الديباجة . »(١)

وقد أشار بروكلمان إلى أن من مستلزمات حركة التطور هذه : ابتعاد الشعراء عن منهج القصيدة العربية التي وجدت لدى شعراء العصر الجاهلي ، فقال : « كان قالب القصيدة كما هو معروف في الشعر الجاهلي قد صار طرازاً قديماً بالياً في أواخر الدولة الأموية فلم يقو على مسايرة العصر ، لقد كانت مواده ومعانيه المتوارثة المحدودة في نطاق ضيق مرتبطة بحياة البادية ، فلم تعد تتفق مع الروابط والصلات الجديدة التي تختلف عن علاقات البادية اختلافاً كلياً ، والتي قامت بين السكان المختلطين من العرب والعجم في المدائن الكبيرة التي غدت مراكز الحياة العقلية ، وهكذا انحل عمود الشعر فما كان من فقرات القصيدة القديمة صالحاً للحياة بعد ، تناوله كبار الشعراء في هذا العصر ، فصاغوا منه أنواعاً مستقلة من الشعر كالخمريات والغزل والطرديات . » (٢) وهذا يدل على أن قالب القصيدة لم

---

(١) الوساطة ص ١٨ – ١٩ .

(٢) تاريخ الأدب العربي ٢/ ٩ ، ترجمة الدكتور عبدالحليم النجار ، دار المعارف ، الطبعة الخامسة .

يطرأ عليه تغيير يذكر وكل ما في الأمر أنه ظهر تغيير وتجديد في موضوعات الشعر، وظلت بنية القصيدة كما هي، ولم يصبها تجديد يذكر .

ثالثاً : الحركة العلمية ، وكثرة الترجمة :

وهذا الباعث من أشد البواعث تأثيراً ، لأن الحركة الثقافية ، وفشو التأليف والترجمة تجعل الأديب دائماً على صلة بما استجد من الثقافات في عصره ، ولاسيما المجتمع العباسي فإنه واجه موجة قوية من التأثير الفارسي في اللغة والأدب وذلك يتطلب دخول ألفاظ جديدة في لغة الأدب ، يقول الدكتور صالح آدم بيلو : « وجد المجتمع العباسي نفسه أمام أشياء جديدة في كثير من مناحي الحياة، في المأكل ، والمشرب ، وآلات الطرب والغناء ، وأدوات الزينة والزخرف، وفي الدواوين ونظامها ، وما إلى ذلك من أشياء لم يكن للعرب بها عهد أو سابق معرفة ، وبدهي ألا يكون في ألفاظ العربية مايدل عليها ، ومايعبر عنها فسلكوا خير سبيل يسلك في مثل هذا الظرف ، وهو : أن يتوسعوا في مدلولات الكلمات العربية أحياناً لتؤدي المعنى الجديد أو يأخذوا الكلمات الأجنبية كما هي أحياناً ، ومصقوله بما يتفق ولسانهم أحياناً أخرى ولقد كانت الفارسية منبعاً كبيراً من المنابع التي استمدت منها العربية ووسعت مادتها . » (١)

هذا وقد شهد هذا العصر نهضة علمية شاملة حيث ظهرت العلوم العربية الصرفة ، من نحو وصرف ولغة وأدب ، وأعقبتها العلوم غير العربية من منطق ، وفلك ، وطب ، وفلسفة ، وغير ذلك .

ولهذا فالتجديد الحق الذي ظهر في شعر المجددين هو تجديد ثقافي أكثر منه لفظي ، وهو الذي أدى إلى الغوص في المعاني والتمرد على الصيغ المألوفة ، بقلب التشبيهات ، والتجسيم والتشخيص في الصور الشعرية ، وهذه كانت روافد غير

---

(١) الثقافات الأجنبية في العصر العباسي ص ٤٤ مكة المكرمة ١٤٠٨هـ .

مقصورة على الحضارة الفارسية ، بل معها الحضارة الاغريقية ، والهندية ، والرومانية ، ولذلك فالمذاهب في الآداب بصفة عامة تأتي نتيجةً للتحول الثقافي والفكري وهذا ماحدث في العصر العباسي (١) .

وقد اتصل هذا المجتمع بالعلوم الدخيلة في أوائل القرن الثاني ، ومن ثم تأثر العقل العربي بهذه العلوم تأثراً ملموساً ، وكل ذلك أدى إلى إتساع الملاحظات البلاغية في هذا العصر يقول الدكتور سعد أبو الرضا : « اتسعت الملاحظات البلاغية في العصر العباسي الأول لاسيما وقد اطرد تطور الحياة العقلية، وازداد رقي الحياة الاجتماعية واتسعت الدولة ، وتم نقل كثير من العلوم والمعارف والحضارات من فارسية ، ويونانية ، وهندية ، وغيرها ، وقد صارت ذات طابع عربي إسلامي ، بل إن كثيرين من الفرس والموالي اتخذوا العربية لساناً لهم ، وأسهموا هم ومن يرجعون إلى أصول عربية في النهوض بالحياة الثقافية ، والفكرية ، فلا غرو أن يزدهر الشعر والنثر وتتعدد فنونهما بالإضافة إلى ماتوارثته عن العصور السابقة » (٢) .

رابعاً : نشأة الشعوبية وتعدد الفرق في هذا العصر :

عندما كثر الأعاجم من الفرس وغيرهم في حواضر الدولة العباسية ، وكان بعض هؤلاء الأعاجم قد تعلم العلوم العربية وحذقها ، إضافة إلى مواهب أخرى كالشعر ، والكتابة التي نمت وتطورت لديه عن طريق تعلمه تلك المعارف العربية ، وأصبح البعض منهم مقربا لدى الخلفاء فكان منهم الوزراء والحجاب مما أحدث ذلك شيئاً من الحساسية في نفوس أبناء العرب ، واشتدت العصبية بينهم وبين

---

(١) بتصرف من محاضرة للدكتور إبراهيم الحاردلو ، عنوانها « حرية البناء في القصيدة العربية » مخطوطة .

(٢) كتاب البلاغة بين القيمة والمعيارية ، د. سعد أبو الرضا ، ص ٣٥ ، ط/ ١ .

الفرس ، فتولد عن ذلك مايسمى بالشعوبية ، التي تزعمها أبناء الفارسية حيث كانوا يحملون في دخائل نفوسهم أحقاداً دفينة على العرب وعلى السيادة العربية بصفة عامة إلا من رحم الله .

هذا ، وقد « ظهرت جماعة من المفكرين الذين لم يسلموابكل أوامر الدين ونواهيه ، وعرضوها على أفكارهم أولاً ، وشكوا في أشياء منها ، ولو في فترات شبابهم ، وفهموا أشياء أخرى فهماً غير فهم القدماء ، وظهرت جماعة أخرى شاركت الجماعة السابقة في العمل غير أنها لم تكن متأثرة بثقافتها الخاصة ، وإنما كانت منطلقة من رواسب تسربت إليها من دياناتها القديمة فغلب على تفكيرها شيء من الأثينية الزرادشتيه » (١) وتخريفات عقدية ماأنزل الله بها من سلطان .

وفيما بعد « ظهرت جماعة ثالثة شاركت الجماعتين السابقتين في التفكير والآراء غير أنها لم تشاركها سلامة النية ، فكانت تنادي بما نادت به بغية الطعن في الإسلام وإضعاف المجتمع الإسلامي ، والقضاء على الدولة العربية » (٢) وعرفت هذه النزعة فيما بعد بالشعوبية لكونها تفضل الشعوب الفارسية وغيرها على الشعوب العربية ، وأصبحت ذات خطر على الأمة الإسلامية تسعى دائماً إلى زعزعة كيانها وتمزيق صفوفها .

أما الفئات الأخرى التي تبرمت بتعاليم الاسلام فهم الزنادقة والملحدون ممن روج الشبه حول الاسلام .

كل ذلك كان له أبلغ الأثر على تغيير النمط الشعري للقصيدة العربية فلم يقو الشاعر العباسي على تجاوز هذه المعالم الحضارية ليتمسك بالماضي ، ولذلك فرض التجديد نفسه على القصيدة العربية شكلاً ومضموناً .

(١ ، ٢) حركات التجديد في الأدب العربي ، د. عبدالعزيز الأهواني وآخرون ، من مقال في الكتاب نفسه بقلم د. حسين نصار ص ٦٠ ومابعدها .

تلكم هي أهم بواعث التجديد لدى شعراء هذا العصر ، ذلك التجديد الذي شمل النمط الشعري وغيره من ألوان الثقافات الأخرى ، والحياة الاجتماعية . ولذلك لانعجب إذا رأينا الشاعر العباسي ابتعد عن الالتزام بقواعد الشعر العربي الممتدة عبر العصور السابقة له ، مع أنه لم يستطع التخلص بالكلية عن سنن الماضين من الشعراء السابقين ، وظل الشاعر في هذا العصر يتنازعه تياران : التيار الأول : القيم البدوية الموروثة ، والتيار الثاني : التطور الحضاري الذي شهده العصر ، والذي لم يكن له بد من الإنصهار فيه ومجاراته .

وهذا التطور كما يقول الدكتور طه حسين « يوشك أن يكون كاملاً ، بل قد لانخشى الغلو إن قلنا إن هذه الحياة العربية تبدلت في هذين القرنين تبدلاً تاماً ، فكان من المعقول أن يتحقق التناسب الصحيح بين هذه الحياة الجديدة ، وبين الآداب، فتتجدد هذه الآداب كما تجددت الحياة نفسها »(١) .

ومن هنا يتبين لنا أن الشعراء في هذا العصر ، وبعد أن امتزج العرب بغيرهم حضارياً وبشريا أخذوا في التغيير والتجديد . وهكذا يلتقي القديم بالجديد في العصر العباسي ، فتجد الشاعر يحن إلى الماضي ، فيعنى بقديمه الموروث مع شيء من التطور . وتجده أحياناً يستجيب لمقتضيات عصره التي يعيشها في حياته اليومية ، فلا يلتفت إلى ذلك الموروث .

---

(١) حديث الأربعاء ٢/ ٩ .

أبرز الشعراء المحدثين وطبقاتهم

مَرَّ الشعر العربي بمراحل تختلف باختلاف الظروف المحيطه بالشعراء ومن هذه المراحل : مرحلة الشعر في العصر العباسي عصر التمدن والحضارة وتنوع الثقافات ، وفُشو المذاهب الفنية والفلسفية .

وهذا العصر هو عصر الشعراء المجددين الذين تميزوا في هذه المرحلة وأصبح شعرهم يشكل تياراً مستقلاً في الأدب العربي .

وقد بدأت معالم هذا الاتجاه تتضح ، وتتحدد ملامحه ، وسماته لدى بشار ابن برد ، وإبراهيم بن هرمة ، والعتابي ، وغيرهم ، وتطور فيما بعد على أيدي كل من أبي نواس ، ومسلم بن الوليد ، وبلغ ذروته على يد أبي تمام ، واستقرّ على يد أبي الطيب المتنبي .

وهؤلاء المحدثون هم حلقة متصلة من بين شعراء اشتهروا بدورهم البارز في تطوير الشعر العربي ، يقول الطاهر بن عاشور : « إعلم أن الشعراء الذين طوروا الشعر فيما عرف من أزمان تاريخ الشعر العربي قبل بشار هم : المهلهل ، وامروء القيس ، والنابغة الذبياني ، والأعشى ميمون ، وعمر بن أبي ربيعة ، فأما المهلهل : فهو أول من هلهل الشعر كما قال أئمة الأدب في وجه تلقيبه بالمهلهل ، ومعنى هلهل الشعر : رققه وحسنه ، وأما امرؤء القيس ، فقد ابتكر التشبيهات البديعة ، ووصف مجالسه مع النساء ، وأما النابغة ، فقد ذكر المقاولات ، والاعتذارات ووصف مجالس النساء في مجالسهن الغزلية ، وكل هؤلاء لم يعدوا الطريقة المعروفة عند العرب .

أما بشار بن برد فقد أحدث طريقةً وسطا فهو آخر المتقدمين ، لأن لهجة شعره ، وجزالة ألفاظه ، ورواج اللغة العربية في شعره ، وطريقته العربية في كثير من شعره ، وذكر مفاخر القبائل وأيامها ، وانتصارها ، كل ذلك لم يقصر في شيءٍ

منه عن المتقدمين ، وكان يحتذى حذوه في هذه الصفة البحتري في شعره ، وبشار أول المولدين ، لأن امتلاء شعره بالمعاني الجديدة ، والعادات الحضرية من نسيب رقيق ، وخمريات ، وزهديات ، وهجاء مقذع مع النزوع إلى بعض العناية بالمحسنات اللفظية والمعاني العلمية ، كل ذلك سنة خالف بها طرائق الشعر العربي القديم ، وقد سنها للمولدين ، فهم يقتفون آثاره ، ويلحقون غباره ، وأول من اقتفى طرائقه سلم الخاسر ، وأبو نواس ، ومسلم بن الوليد ، وأبوتمام كل في ناحية من نواحي شعر بشار على تفاوت فيهم من إكثار وإقلال » (١) .

ومن ذلك يبدو أن الشعر العربي يعيش فترات من التطوير والتجديد منذ العصر الجاهلي حتى يومنا هذا ، وإني لأعجب كيف أنكر الرواة والنقاد على المحدثين خروجهم على سنن قديمة بل ربما خرج عنها أهلها كما يفهم من كلام ابن عاشور !! ، ويؤكد ذلك ماذكرناه من تجديد الوليد بن يزيد .

هذا وقد عرف عن هؤلاء الشعراء ولعهم بالبديع ، وخروج بعضهم على عمود الشعر العربي ، ومجانبتهم منهج القصيدة العربية .

ونظراً لولعهم هذا بالبديع ، أصبح سمةً غالبة عليهم ، وسموا فيما بعد بأصحاب مدرسة البديع ، وقسموا إلى مدارس بحسب هذه المدرسة .

وقد بحث الدكتور احمد ابراهيم موسى هذه القضية في كتابه «الصبغ البديعي» وبين زعماء مذهب البديع في هذا العصر فقال : « . . . قد ظهر إذن مذهب بديع في عصر المحدثين زعيمه بشار بن برد ، ومن رجاله ابن هرمة ، والعتابي والنمري ، وأبو نواس ، ومسلم بن الوليد وأبوتمام ، والبحترى ، وابن المعتز . »(٢) .

---

(١) مقدمة ديوان بشار بقلم المحقق الشيخ الطاهر ابن عاشور ١ / ٥٢ .

(١) الصبغ البديعي ص ٦٢ .

وكأن هؤلاء الشعراء هم عمدٌ ثابتة في تأسيس هذا الاتجاه أو الاتجاهات التي قد تتفق ، وربما تتباين في بعض أساليبها ، بحسب ميول أصحابها وأهوائهم .

وقد جعل بعض الدارسين (*) لهؤلاء الشعراء لكل منهم مدرسة مستقلة يتزعمها ، إلا أن إطلاق هذه التسمية فيه شيء من المغالاة ، فهم عبارة عن مدرسة واحدة ، نشأوا في بيئة واحدة نمت وتطورت قدراتهم من خلالها بحسب مااكتسبوه من ثقافات ووسائل معرفية متعددة .

وأبرز شعراء التجديد الذين كان لهم فضل الريادة هما بشار وأبو نواس ، ولكل منهما أسلوبه الخاص ، ونمطه المتميز في تجديده .

بشار والتجديد :

فأما بشار بن برد : فهو رأس طبقة المحدثين ، مع أنه أحد مخضرمى الدولتين الأموية والعباسية ، ولعل ذلك من أسباب تلك الريادة التي تبوأها ، يقول أبو الفرج الأصفهاني : « . . . ومحله في الشعر ، وتقدمه طبقات المحدثين فيه باجماع الرواة ، ورياسته عليهم من غير اختلاف في ذلك يغني عن وصفه وإطالة ذكر محله ، وهو من مخضرمي الدولتين العباسية والأموية » (١) .

وكان الأصمعي يقول : « بشار خاتمة الشعراء ، والله لولا أن أيامه تأخرت لفضلته على كثير منهم . » (٢) .

والأصمعي هذا على تعصبه للقدماء كان يفضل بشاراً على مروان بن أبي حفصة ، لسبب ينقض ماعرف عن الأصمعي ، يتبين ذلك من قوله في ذكر سبب التفضيل : « لأن مروان سلك طريقاً كثر من يسلكه ، فلم يلحق من تقدمه ، وشركه فيه من كان في عصره ، وبشار سلك طريقاً لم يسلك ، وأحسن وتفرد به ، وهو أكثر تصرفاً وفنون شعر ، وأغزر بديعاً ، ومروان لم يتجاوز مذاهب الأوائل . »(٣) .

(*) اتبع ذلك الاسلوب الدكتور احمد إبراهيم موسى في كتابه المذكور ص ٦٣ ومابعدها .

(١، ٢، ٣) الأغاني ٣/ ١٣٥ .

وكل هذه الميزات من تصرف في القول ، وتعدد فنون الشعر ، والغزارة البديعية ، كل ذلك جعل شعراء عصره ينظرون إليه بعين الاكبار وحاسية التلمذة ، يقول عبدالله بن المعتز : « وكان بشار أستاذ أهل عصره غير مدافع ، ويجتمعون إليه ، وينشدونه ، ويرضون بحكمه » (١) يدل على ذلك مافعله أبو نواس من إنشاده شعراً لبشار أمام بعض الخلفاء ، قال ابن المعتز « وبلغني أن مسلم بن الوليد وجماعة منهم : أبو الشيص ، وأبو نواس ، وغيرهما ، كانوا عند بعض الخلفاء فسألهم عن ديباج الشعر الذي لايتفاوت نمطه ! ، فأنشدوا لجماعة من المتقدمين ، والمحدثين ، فكأنه لم يقع منه بالغرض ، وسأل عن أحسن من ذلك ، فقال أبو نواس أنالها ياأمير المؤمنين ، وأنشد هذه الأبيات الرائية لبشار ، فاستحسنها جداً . »(٢) .

فهذا النص يؤكد زعامة بشار . وولع الشعراء بحفظ شعره وإنشاده يدل على « محله في الشعر ، وتقدمه طبقات المحدثين فيه باجماع الرواة ورياسته عليهم من غير اختلاف في ذلك . . » (٣) .

وقد ارتبط تجديد بشار بالبديع ، على الرغم من تباين الآراء في شعره ، فكان الجاحظ لايعده إلا أحد المطبوعين ، فيقول : « والمطبوعون على الشعر من المولدين : بشار العقيلي ، والسيد الحميري ، وأبوالعتاهية . . » (٤) ، ثم قال : «ولم يكن في المولدين أصوب بديعاً من بشار . » (٥) ، وابن رشيق الذي أوقفنا على حقيقة الشعراء المحدثين وتحديد أبرز شعرائهم يرى كذلك أنه من أصحاب البديع ، فيقول : « وقالوا أول من فتق البديع من المحدثين بشار بن برد ، وابن

---

(١) طبقات الشعراء المحدثين ص ٣٠ ومابعدها .

(٢) نفسه .

(٣) معاهد التنصيص ١/ ٢٨٩ .

(٤، ٥) البيان والتبيين ١/ ٥٠ - ٥١ ، ت هارون .

هرمة، وهو ساقة العرب وآخر من يُستشهد بشعره ، ثم اتبعهما مقتديا بهما كلثوم ابن عمرو العتابي ، ومنصور النمري ، ومسلم بن الوليد ، وأبونواس ، واتبع هؤلاء حبيب الطائي ، والوليد البحتري ، وعبدالله بن المعتز ، فانتهى علم البديع، والصنعة إليه ، وختم به . » (١) .

ويفهم من كلام الجاحظ ، وابن رشيق : أن البديع لايتنافى مع كون الشاعر مطبوعاً ، فهو يزين شعره بهذا البديع حتى ينسجم مع روح العصر الذي نشأ فيه ، وفي الوقت ذاته يحرص ألا يبعد كثيراً عن طريق الأوائل ، كما أن نص ابن رشيق الآنف الذكر يعد ركيزة أساسية ، ومن أقوى الأدلة على تحديد بداية الشعراء المحدثين ببشار ، وتحديد نهايتهم في كونهم يشكلون مذهباً شعرياً واحداً بعبد الله ابن المعتز ، وهو الذي انتهى إليه مذهب البديع .

وعلى هذا فإن هؤلاء المحدثين يعدون بحق مؤسسين لقواعد جديدة للشعر العربي يسير عليها الشعراء من بعدهم ، يقدمهم بشار الذي شُبه بامرىء القيس ، في تقدمه على المولدين وأخذهم عنه ، يروي المرزباني عن أحمد بن عبدالله بن عمار أنه قال : « بشار أستاذ المحدثين الذي عنه أخذوا ، ومن بحره اغترفوا ، وأثره اقتفوا . » (٢) .

المراحل التي مرّ بها شعر بشار :

مر شعر بشار بمرحلتين :

الأولى : المرحلة الأموية ، والثانية : العباسية ، وعلى هذا فبشار «يمثل مرحلة الانتقال بين الشعر العربي كما استقرت تقاليده عند شعراء العصر الأموي ، وبين هذا الشعر حين تطور على أيدي شعراء العصر العباسي الأول . »(٣) .

---

(١) العمدة طبعة محي الدين ١/ ١٣١ .

(٢) الموشح ، تحقيق محب الدين الخطيب ط/ ٢ ، ١٣٨٥ هـ ، ص ٢٢٧ .

(٣) تاريخ الشعر في العصر العباسي ، يوسف خليف ، دار الثقافة ، القاهرة ، ١٩٨١م ، ص٥٤ .

فنحن إذاً بإزاء شخصية ذات طابعين ، لأنه - أي بشار - لايكاد يخلص من مذهب القدماء إلا ويجد نفسه في عصر جديد له طوابعه وسماته التي سوف تحدد مساره الفني فيما بعد ، ولذلك سنجد شعره يتردد بين القديم والجديد . وهذا ماجعل الكلام يكثر حوله ، وقد اتهم بالتكلف والصنعة التي تناقض ماذهب إليه الجاحظ ، وابن رشيق .

يقول يوهان فك : « وإذا كان بشار قد قال الشعر على طراز الأقدمين عن قصد ، فإن أشعاره تحمل طابع الصنعة ، والتعلم على جبينها ، على أنه لم يبال إلا نادراً بالقصد إلى المحاكاة والتقليد ، فإذا ماتنازل عن ذلك ، وجدنا أسلوبه يعرض تلك الأناقة الواضحة ، والبيان الناصع الشفاف . . . سمات أساسية تبدو جلية في تعبيره سواء في اختيار الألفاظ ، أم في تركيب الجمل ، أم في تفضيل الأوزان القصيرة الخفيفة . وفي شعر الارتجال يمعن بشار في التحرر من الشعر القديم ، حتى يستعمل أحياناً عبارات شعبية ، ورطانة نبطية ، وكان بشار يستعمل المزدوج والمخمس في الهزل ، وفي تحقير الشعر القديم . »(١)

ولعلّ يوهان فك استشفّ ذلك الرأي من القول السائد بأن بشاراً كان أول من فتق البديع واعتبر ذلك نمطاً من الصنعة ، ولاسيما إذا لجأ إلى الأسلوب القديم على وجه الخصوص . وهذا الكلام فيه نظر ، لأن بشاراً شاعر مخضرم يستطيع أن يطوع ملكته في الاتجاهين عن دربة ومراس ، وقد يظهر عليه التكلف في الخيال بسبب عاهته ، لكنه شاعر محافظ من رأسه حتى أخمص قدمه .

والتطور الذي حصل في شعره إنما هو تطور في الاسلوب ، وهذا مادعا «يوهان يوفك» لأن يعدّ شعر بشار « يؤذن بشروق عهد جديد في تاريخ اللغة العربية دعا إليه الانتقال من حياة البدو إلى حضارة التمدن ، وتغلغل غير العرب في ميادين الأدب » (٢) .

---

(١) العربية ، ترجمة الدكتور رمضان عبدالتواب ، مكتبة الخانجي ، بمصر ١٤٠٠هـ ، ص٦٦

(٢) نفسه ص ٦٧ .

وعلى الرغم من محافظته تلك ، فإنه لم يتبع نهج القدماء في كل أغراضه ، ولربما خالفهم استجابة لدواعي عصره ، وهذا ماجعل شعره يحظى بالقبول لدى معاصريه ، يقول الطاهر بن عاشور : « ومما أقبل بالناس على شعر بشار أنه لم يقصر نفسه على متابعة المتقدمين من الشعراء في معانيهم بل أودعه المعاني الحضرية المستجدة في عصره ، فوصف حالة الناس في عصره ، ومحاسن شرابهم ، وبساتينهم » (١) .

وإذا كان لبشار تقليد أو محاكاة – كما يقال – للأقدمين فإن ذلك إنما حصل تحدياً منه لبعض معاصريه من اللغويين ، والنقاد ، وبعض الشعراء ومن ذلك ماحصل من أنه ألف أرجوزته المشهورة « ياطلل الحي » حين تحداه عقبة بن رؤبة ، وقال له : « هذا طراز لاتحسنه أنت ياأبا معاذ ، فقال له بشار : ألي يقال هذا ! أنا والله أرجز منك ، ومن أبيك وجدك . . . » (٢) ثم جرت بينهما ملاحاة كان على إثرها أن قال أرجوزته التي مدح بها عقبة بن سلم(٣) .

ونحن عندما نصف بشاراً بالمحافظة لايعني اتهامه بالتقليد ، فهو محافظ ومجدد في ذات الوقت ، لأن له أسلوباً جديداً في معالجة أغراضه ولاسيما في قصيدة المديح التي نالها على يديه تطورٌ ملحوظٌ ، فهو كما يقول شوقي ضيف : «احتفظ للشعر بأصوله التقليدية ، ومضى يطور في أغراضه ، ومعانيه تطوراً يختلف قلة وكثرة ، وسعة ، وعمقاً »(٤) .

وكان بشار ذا حس نقدي يمكنه من المزاوجة بين مذهبي القدماء والمجددين ، وكان يميز المصنوع من غير المصنوع ، حدث صاحب الأغاني أنه عندما أنشد شعر الأعشى :

وأنكرتني ، وماكان الذي نكرت   من الحوادث إلا الشيب والصلعا

---

(١) مقدمة الديوان ، تحقيق ابن عاشور ١/ ٥٢ .

(٢) الأغاني ٣/ ١٧٥ .

(٣) نفسه .

(٤) العصر العباسي الأول ص ٢٠٨ .

فأنكره ، وقال : هذا بيت مصنوع مايشبه كلام الأعشى (١) . وشاعر يكون لديه هذا الحس النقدي ، لن يتكلف التقليد .

وعلى العموم فإن هذا الشاعر فرض نفسه مجددا ، ومحافظا ، وقد شغل أسلوبه هذا النقاد ، فمن قائل بأنه « أرق المحدثين ديباجة كلام ، وسمى أبا المحدثين لأنه فتق لهم أكمام المعاني ونهج لهم سبيل البديع ، فاتبعوه ، وكان ابن الرومي يقدمه ويزعم أنه أشعر من تقدم وتأخر . »(٢) ، ومن قائل بأن بشاراً هو ثاني الشعراء المتقدمين ، يأتي بعد عنترة في الوصف المقارب للحقيقة (٣) .

وأينما توجهنا نجد بشاراً يعتلي منابر النقد القديم ، نقرأ ذلك عند أبي الفرج ، فنجد من يقول : « أحسن الناس ابتداءً في الجاهلية امروء القيس ، وفي الإسلام القطامي ، وفي المحدثين بشار » (٤) ونقرأ عند غيره من النقاد ، كعلي بن عبدالعزيز الجرجاني ، وابن المعتز وابن طباطبا ، وغيرهم ممن سبروا شعره ، وعرفوا قدره ، ولذلك عندما هجا حماداً الراوية ، أجله الجاحظ عن ذلك ، لأنه كما يقول في الحضيض من جهة الشعر ، وبشار في العيوق ، وليس مولد قروي يعد شعره إلا وبشار أشعر منه (٥) .

ولعلنا نختم القول عن بشاربتلخيص أبرز سمات شعره :

أولاً : مايتعلق ببحور الشعر ، فكان ذا دراية بما يناسبها من الألفاظ والأغراض ، وعلى سبيل المثال : استخدامه لبحر الرمل نظراً لرقته في أغلب قصائده الغزلية .

---

(١) الأغاني ٣/ ١٤٣ .

(٢) زهر الآداب ١/ ٤٧٢ .

(٣) ينظر عيار الشعر ، لابن طباطبا ص ٢٠١ .

(٤) الأغاني ٨/ ١٤٨ .

(٥) بتصرف من العمدة .

ثانياً : قدرته على استكناه نصوص القدماء الشعرية كزهير والأعشى ومحاولة صياغتها في قوالب جديدة ، لايظهر عليها التقليد والتكلف .

ثالثاً : براعته في الجمع بين طريقة أكثر من شاعر في قصيدة واحدة كما فعل في همزيته (*) المشهورة ، التي أولجته في الفحول ، وقد أجاد في جمعه بين طريقتى عبدالله بن قيس الرقيات ، وابن أبي ربيعة ، حتى عده بعض أهل الأدب خاتمة أصحاب الهمزيات الجياد من الشعراء المحدثين المعروفين(١) .

هذا ومن مظاهر شعره الإكثار من الرجز ، والتوسع في ذكر النساء حتى قيل إنه فتح الباب على مصراعيه وترك امرأ القيس عيياً ، ولذلك وجد أبو نواس في شعره ضالته ، يقول الطاهر بن عاشور عن بشار « إنه أول من أطنب في محاسن النساء ، فذلك مما رغبهن الاقبال على شعره ، وقد أبدع في وصف خلوات الحب ، ومشاكلة المتحابين ، وتوسط الرسل ، ومراقبة الرقباء ، وعذل العذال بما لم يسبقه إلى تفصيل التوصيف فيها أحد من الشعراء ، وهو الذي فتح لأبي نواس وأتباعه هذه الطريقة » (٢) .

وخلاصة القول ، فإن الآراء حول تجديد بشار ، ومذهبه الشعري كثيرة متباينه ، ولا يتسع مقام هذه المقدمة لبسطها ، ولكننا أحببنا أن نقف على أهم المظاهر الجديدة في شعره ، ومدى تأثيره في الشعراء من بعده ، حتى حمل عبء الريادة ، والتجديد .

وقبل أن نختم القول عنه ، نود أن نبين أن هناك مآخذ كثيرة تتعلق بحياة بشار ، وعقيدته ، وشذوذه . لأنه كما يقول أبو الفرج «كثير التلون في ولائه ،

(*) مطلع هذه الهمزية : علليني ياعبد أنت الشفاء . . . البيت » . ينظر الديوان ١/ ١٤٠ ، ت ابن عاشور .

(١) بتصرف من كتاب المرشد إلى فهم أشعار العرب ١/ ١٩٨ - ٢٠١ ، د. عبدالله الطيب .

(٢) مقدمة الديوان ص ٥٨ .

شديد الشغب ، والتعصب للعجم . »(١) وقد قاده ذلك إلى الزندقة والإلحاد ، والشعوبية المفرطة . ذكر الجاحظ أن بشاراً « كان يدين بالرجعة »(٢) أي الايمان بالرجوع بعد الموت إلى الدنيا ، وهو مذهب قوم من العرب في الجاهلية(٣) . وقد جره ذلك إلى تكفير جميع الأمه ، وتصويب رأي إبليس في تقديم النار على الطين وذكر ذلك في شعره ، فقال :

الأرضُ مظلمةٌ والنارُ مُشرقةٌ   والنارُ معبودةٌ مذ كانتِ النارُ

وهذا الكلام لم يسلم به الشيخ الطاهر بن عاشور ، فكان يرى أن أعداء بشار ، قد دسوا له مكائد كثيرة في أقواله وأفعاله أو صلته بالزنادقة ، وكأن هذا مما يجري دائما بين المتعاصرين ، ويبدو أن الطاهر استقرأ القضية ، وخرج برأي يخالف فيه كل من قالوا بفساد عقيدة بشار ، وزندقته ، فيقول : « والذي أذهب إليه أنه كان مستهتراً غير محترز في أقواله في مجالسه من لوازم مفضية إلى الإلحاد ، يجري ذلك منه مجرى المزح والهزل ، كما يجرى لأبي نواس الحسن بن هانيء ، ومحمد بن هانيء الأندلسي ، وأضرابهما ، ولكن ضراوة لسانه على الأمراء ، والكبراء ، والعلماء ، والشعراء أغرت به الجميع ، وجعلت التهمة إلى صوت المهيب به تريع »(٤) . ونحن لانختلف مع الشيخ فيما ذهب إليه من كون بشار غلب عليه الاستهتار وعدم الاحتراز في أقواله ، لكن مهما يكن من شيء فإن إشاعة كلمات الالحاد والكفر مما يسرى عليه قوله المصطفى ﷺ مامعناه رب كلمة يقولها العبد لايلقى لها بالاً ، فتهوى به في النار سبعين خريفا ، والأحاديث في هذا الباب كثيرة ، وسواء كان بشار يعتقد مايقول أم لم يعتقد فقد وقع في فتنة

---

(١) الأغاني ٣/ ١٣٩ .

(٢) البيان والتبيين ١/ ٢٤ ، والأغاني ص ١٤٥ .

(٣) هامش الأغاني ص ١٤٥ .

(٤) مقدمة الديوان ص ٣١ .

القول ، وسوء الظن ، وهذا مما تسبب في اتهامه بالزندقة (*) أما صلته بالاعتزال فليس هناك دليل قاطع على ذلك ، وكل مافي الأمر أنه كان على صلة بواصل بن عطاء ، وبكل من « اشتهر بالخوض في العقائد » (١) ، ومعروف عن بشار أنه لاتدوم له مودة مع أحد ، فقد فسدت علاقته بواصل بن عطاء بعد أن كان صديقاً له ، وقد مدحه « فلما أظهر بشار مذهبه هتف به واصل فقام بتكفيره وقعد »(٢) ، قال أبو الفرج فقال يهجوه :

مالي أشايعُ غزّالاً له عُنُقٌ ... كَنِقْنِقِ الدَّوِّ إن ولّى وإن مثلا
عُنْقُ الزرافةِ مابالي وبالكُمُ ... تُكفِّرون رجالاً كفَّروا رجلا (٣)

ولو كان بشار صاحب مذهب لتعصب لواصل ، ومن هو من أتباع واصل ، وكل مايمكن أن يقال هو ماذهب إليه الشيخ بن عاشور ، من استهتار بشار وعدم المبالاة مما أوقعه في شرك الاتهام ، ولعل كثرة وقوعه في أعراض الناس بالهجاء ، من الأمور التي وسعت دائرة الطعن عليه ، لأنه لم يسلم من لسانه حتى أصدقائه (٤) .

ولقد أفاد بشار من مخالطة علماء الاعتزال وأهل الكلام ، كثرة الجدل والاستدلال ، وقرع الحجة بالحجة كما يقال ، وهذا ماذهب إليه الدكتور شوقي ضيف فقال عن ثقافة بشار وشخصيته : « واشتركت الثقافات الأجنبية والعربية في تكوين شخصية بشار ، فقد كان يجالس المتكلمين . . . كما كان يجالس من

(*) ذكر الذهبي أن بشاراً « اتهم بالزندقة ، فضربه المهدى سبعين سوطاً ليقر ، فمات منها» سير أعلام النبلاء ٧/ ٢٥ .

(١) مقدمة الديوان ص ٣١ .

(٢) نسب ابن عاشور للجاحظ ولم أجده بنصه في البيان والتبيين .

(٣) الأغاني ٣/ ١٤٥ .

(٤) ينظر الأغاني ٣/ ١٥١ .

يعرفون زندقة الفرس ، ودهرية الهند وأراءهم في التناسخ » (١) ، ولم يجزم أحدٌ من المتقدمين بانتماء بشار إلى شيء من ذلك ، وماورد عند المتأخرين هوعبارة عن تحليل وتفسير لما قاله أبوالفرج الأصفهاني عن الستة الكلاميين الذين يقول عنهم : «كان بالبصرة ستة من أصحاب الكلام : عمرو بن عبيد ، وواصل بن عطاء ، وبشارالأعمى ، وصالح بن عبدالقدوس ، وعبدالكريم بن أبي العوجاء ، ورجلٌ من الأزد . . . فكانوا يجتمعون في منزل الأزدي ويختصمون عنده ، فأما عمرو ، وواصل فصارا إلى الاعتزال ، وأما عبدالكريم وصالح فصححا التوبة . وأما بشار فبقي متحيراً مخلطاً ، . . . الخ . »(٢) .

وخلاصة المطاف فإن بشاراً كان فاتحة كبرى في الشعر العربي في العصر العباسي ، لشعراء أولعوا بمتابعته ، وقد طار ذكره في جملة من أغراض الشعر كان فيها أولاً ، يقول أبوالفرج « لقي أبوعمرو بن العلاء بعض الرواة فقال له : ياأباعمرو ، من أبدع الناس بيتاً ؟ قال الذي يقول :

لم يطلْ لَيلِي ولكنْ لم أَنَمْ   ونفى عنّي الكَرَى طيفَ أَلَمْ

....

قال فمن أمدح الناس ؟ قال الذي يقول :

لَمَسْتُ بكفّي كفَّه أبتَغِي الغِنَى   ولم أدرِ أنَّ الجودَ من كفِّه يُعْدِي

....

قال فمن أهجى الناس ؟ قال الذي يقول :

رأيت السُّهَيْلَين استوَى الجودُ فيهما   على بعدِ ذا من ذاك في حُكْمِ حاكمِ

سُهَيلَ بن عثمان يَجودُ بمالِهِ   كما جادَ بالوَجْعا سُهَيلُ بن سالمِ

---

(١) الفن ومذاهبه ص ١٥١ .

(٢) الأغاني ٣/ ١٤٦ .

قال : وهذه الأبيات كلها لبشار »(١)

فذلكم هو بشار بن برد ، ومذهبه الشعري من خلال حياته بكل مافيها من صخب واستهتار .

تجديد أبي نواس :

وأبرز شاعر اشتهر بعد بشار : أبو نواس : وهوأحد أتباع مذهب البديع الذي ظهر على يد بشار ، ولذلك فإن أغلب ماقلناه عن بشار ، ينطبق على أبي نواس من حيث مذهب البديع .

وعلى الرغم من شهرة بشار بالتجديد ، إلا أن أبا نواس ارتبط اسمه بالتجديد بسبب هجومه على مقدمة القصيدة العربية ، وكان يعتبره بعض النقاد من« الرواد الذين مهدوا السبيل لمذهب أبي تمام » (٢) .

لقد طور أبونواس منهج القصيدة العربية متأثراً ببشار وبروح العصر الذي نشأ فيه ، وتأثر كذلك بالرقي العقلي الذي أصاب الحياة العربية في هذا العصر ، حيث تنوعت المعارف الأجنبية ، وأكب الشعراء على قراءتها مما أثر في أشعارهم . وأبو نواس كان من أكثر الشعراء العباسيين إلماماً بثقافة عصره ، وبالفلسفة والمنطق، وكثير من مذاهب أهل الكلام ، كل ذلك كون شخصيته فنزع كثيراً إلى التحرر ، من مذاهب الشعر العربي ، وخصوصاً نبذه للمقدمة الطللية التي لاتنسجم مع العصر الذي يعيشه ، يقول الدكتور طه إبراهيم : « فإذا ما افتتح الجاهلي مديحه بالنسيب ، والوقوف بالأطلال ، فإن ذلك كان من بيئته ، ومن طبعه ، وإذا ماوصف الناقة ووصف مالاقاه في الصحراء من عناء وتعب ، وماصادفه من حيوان ونبات ، فإن ذلك مقبول منه لأنه يفصح فيه عن أمرٍ واقعي ، ويصور فيه

---

(١) نفسه ص ١٥٠ – ١٥١ .

(٢) إلى طه حسين في عيد ميلاده السبعين / مقال د . عبدالقادر القط ص ٤٠٩ .

حالة نفسية قاتمه . هذه الديباجة سائغة من الجاهليين ، والإسلاميين لأنها تصور كثيراً من حالاتهم ، ولأنها صادقة التصوير . ولكن أيصح من شاعر كأبي نواس يقيم في بغداد مع الرشيد والأمين أن يستهل مدائحه بأطلال لم يقف بها ، وناقة لعله لم يركبها ؟ أيصح أن تكون الديباجة التي أخذت عناصرها من مشاهد الصحراء صالحة لمن يقيم على ضفاف دجلة بين ترف ولهو وقصور ، ورياض ؟ وبما أن الديباجة الجاهلية صادقة لأنها تصور الحياة الجاهلية البدوية ، فكذلك يجب أن تكون ديباجة الشعر الحديث صادقة تصور الحياة الحضرية الناعمة » (١) .

ولا نود أن نطيل الوقوف عند أبي نواس ، لأنه أحد أتباع مدرسة بشار ، ولكن نود أن نبين مظاهر التجديد عنده والتي خالف فيها القدماء ، وهي تتلخص في النقاط التالية :

أولاً : انشغاله بالتعبير عن ذاته مصوراً نفسه وماتمليه عليه هذه الحياة المتحضرة حتى خرج عن العفه والوقار .

ثانياً : التوسع في وصف الخمرة ، حتى أصبحت لديه غرضاً لذاتها ، وجعلها كائناً حياً له إحساس ونبض شأنه في ذلك شأن كل متحرك وجعل لها تاريخاً مكتوباً يسجل كل مايتعلق بها .

ثالثاً : اتباعه إسلوباً جديداً في قصائده الخمرية لم يكن معهوداً من قبل تقوم فيه عصابات المجان بالخروج إلى حانات الخمر في ضواحي بغداد ، أو في طريق الكوفة أو البصرة بعيداً عن أعين الشرطة فيصف كيف تتجه هذه العصابات إلى الحانة في ظلمة الليل وكيف يطرقون على الخمَّار بابه ، فيفزع لأول وهلة ، لأنه يتوجس خيفة من رجال الشرطة أو من قطاع الطرق ، ثم كيف تطمئن نفسه ويهدأ روعه عندما يعرف أنهم أصحابه الذين يغدون عليه

---

(١) تاريخ النقد عند العرب ص ٩٧ .

من حين لآخر فيسرع ليفتح لهم وقد استخفه الفرح ، وبدت نواجذه في ضوء المصباح الذي أوقده ليضيء له ولهم الطريق (١) .

فالجديد إذن هو هذه الطريقة القصصية والحوارية ، التي تشعر القاريء أنه أمام مشهد تمثيلي له شخصيات يمثلون أدواراً حددها خيال هذا الشاعر .

رابعاً : ماأدى إليه هذا الحوار القصصي من جعله القصيدة وحدة متكاملة ، وانتفاء وحدة البيت المعهودة في القصيدة العربية ومع أن النقاد القدماء عدوا ذلك عيباً في الشعر العربي ، لكنه ليس معيباً لدى أبي نواس لأنه لم يكن يعنيه طابع القصيدة العربية القديمة ، ولأنه قيد له من أشياء كثيرة يريد التعبير عنها من خلال هذه الرؤية ، وإلا كيف يمكن له أن يدير الحوار القصصي بين الشخصيات التي رسمها لقصيدته .

خامساً : قدرة أبي نواس على هذا التصوير ، تدل على اتساع ثقافته واستحضاره للقصص الشعبي وحفظه للحكايات والنوادر وبهذا استطاع أن يحيط شعره بهالة عجيبة من الألوان والصور تفوق بها على كل الذين قالوا الشعر في الخمر ، ولذلك جاء اسلوبه منفرداً في تاريخ القصيدة الخمرية .

ولا يعني كلامنا هنا أن أبا نواس قد تجافى عن منهج القصيدة العربية من حيث استعمال المقدمة الطللية في غرض المدح الذي هدفه رضى الممدوح . بل تؤكد بعض الدراسات التي سبقت في هذا الميدان أن مدائح أبي نواس قد ترددت بين القديم والجديد ، فهي من حيث المنهج بدأها بالوقوف على الأطلال ، ومن حيث ألفاظها : استخدم فيها الألفاظ الجزلة حتى إنها أخذت طابعاً رسمياً يظهر عليه الوقار ، ومن ذلك : مدحته للخصيب فقد وصف الصحراء على مذهب الأوائل ، واستعرض فيها رحلته من بغداد إلى الفسطاط .

---

(١) بتصرف من كتاب تاريخ الشعر العباسي ، د. يوسف خليف ص ٦٤ .

وكان يظهر استشعار الفحولة الشعرية في مدحه لأنه يخاطب الخلفاء والعظماء ، وربما يكون هذا الخليفة شاعراً أوناقداً لايرضى منه إلا بمنهج القصيدة العربية ، ومن ذلك على سبيل المثال مدحته للرشيد التي يقول فيها :

حَيِّ الديارَ إذِ الزمانَ زمانُ   وإذ الشباكُ حَرَّى ومعانُ
ياحبذا سَفَوانُ من مُتَربعٍ   ولربّما جمعَ الهوَى سَفَوانُ(١)

هذا ، وتذهب بعض الدراسات إلى أن مدائح أبي نواس قد ترددت بين القديم والجديد ، يقول د. محمد مندور إن أبا نواس « حافظ على الهياكل القديمة للقصيدة العربية مستبدلاً ديباجة بأخرى ، وأنه لم يساير مذهبه - أي الدعوة إلى نبذ المقدمة الطللية - إلى النهاية بل كان يعود إلى مذاهب القدماء ، وربما يكون هذا شأنه وشأن غيره من المجددين ، كما سنعرف ذلك عند أبي تمام»(٢) .

ونخلص من كل هذه الآراء إلى أن أبا نواس كان حريصا على نشر مذهبه ومخالفة القديم ماأمكنه ذلك بدليل مدحه للرشيد بمدحة لم يُطل فيها المقدمة الطللية وانتقل بسرعة إلى ذكر « الحان » ووصف الشراب ، فغضب الخليفة إلا أنه ترك ذلك وانصرف إلى المدح قبل أن ينال منه ، وهذه القصيدة هي أول قصيدة على المذهب الجديد يقول المبرد : « ماعلمت قائلاً مدح خليفة فنسب بمثل هذا النسيب»(٣) ثم قال : « إلا أن أبا نواس كان ينسب في المديح الجليل الذي هو شأنه، وفيه تصرفه وجل مذهبه » (٤) .

ولم يفتأ أبو نواس يدافع عن مذهبه هذا حتى أنه استغل قربه من الأمين وظل يبدأ مدائحه بذكر الشراب وملابساته ، وهو عندما يفعل ذلك لم يصدره عن

---

(١) الديوان ص ٤٠٤ .

(٢) النقد المنهجي عند العرب ، الدكتور محمد مندور ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، ص٧٩.

(٣) نسب هذا القول إلى المبرد ، ينظر الديوان ص ١٢٠ .

(٤) نفسه .

سذاجة ، بل كان يقصد إليه قصداً ويدافع عنه ، وعندما دخل عليه يهنؤه بالخلافة قدم لقصيدته بمقدمة تقريرية قال فيها : « ياأمير المؤمنين : إن شعراء الملوك قبلي شببوا بالمدر والحجر والشاء والبقر ، والصوف والوبر ، فغلظت طباعهم ، واستغلقت معانيهم ، ولابصر لهم بإمتداح خلفائنا ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لي في الإنشاد »(١) ، وعندما أذن له بدأها بقوله :

أَلا دَارِهَـــا بالماءِ حتى تُلينَهـــا　　فَلَنْ تُكرِمَ الصَّهْباءَ حتى تُهِينَها

وعلى كل حال فأغلب مدائحه قبل الأمين في مجملها لم تخرج كثيراً عن قصائد المدح لدى سابقيه ، بشار ، وابن هرمة .

وأما بقية الأغراض فإن أبا نواس لم يبعد فيها كثيراً عن القدماء اللهم إلا تلك الروح الشفافة ، والأسلوب الجميل اللذين يضفيهما على شعره وتجده في بعض الأغراض يختار لها أسلوبا جزلاً رصيناً ، كالطرديات مثلاً فأسلوبه فيها تغلب عليه البداوة ، ولا تقرؤه كما يقول محقق الديوان إلا إذا كان بجانبك قاموس في اللغة ، حتى ليظن القاريء له أنه نظمه تقليداً لا ابتكاراً (٢) .

وأختم الحديث عن أبي نواس بقضية برز فيها وارتبطت به كثيراً وهي الغزل بالمذكر ، فقد قيل إن هذا الفن لم يعرف قبل أبي نواس وهو في ذلك كما يقول عبدالله بن المعتز إنه يصف نفسه بضد ماهو عليه يروي ذلك عن أبي الأسود المكي قال : « حدثني ابن عون المديني – وكان المديني فقيهاً – قال : كان محمد الباهلي من ألحف الناس إذا سأل ، وألحهم إذا استماح مع كثرة ذكره للقناعة بشعره ، وهو أحد جماعة كانوا يصفون أنفسهم بضد ماهم عليه حتى اشتهروا بذلك منهم : أبونواس كان يكثر من ذكر اللواط ، ويتحلى به وهو أزنى من قرد . »(٣) .

---

(١) اتجاهات الشعر في القرن الرابع ص ١٦٥ .

(٢) بتصرف من مقدمة محقق الديوان عبدالمجيد الغزالي .

(٣) طبقات ابن المعتز ص ٣٠٨ .

وأما وصف الخمرة فالجديد فيه هو ماذكرناه سابقاً من الكثرة المفرطة لذكرها ، وجعلها كائناً حيا يخاطبها ويصبغ عليها كثيراً من الألوان والصور ، وإلا فالموضوع لذاته ، قد سبق إليه كما أشار إلى ذلك أبوالفرج الأصفهاني عندما تحدث عن مذهب الوليد بن يزيد ، وبين أنه شاعر الخمرة الأول دون مدافع ، أما أبونواس ومن لف لفه فهم عيال عليه (١) .

مسلم والبديع :

وندع أبا نواس لنتعرف على أحد الرواد المحدثين ، ونقف على منهجه الشعري ، وهو مسلم بن الوليد .

يعدُّ مسلم بن الوليد حلقة اتصال بين بشار وأبي نواس ، وهو أحد رواد مدرسة البديع التي اشتهرت في هذا العصر ، يقول أحمد الاسكندري «المأثور عن العلماء أن مسلماً وأبا العتاهية وأبا نواس ، ثلاثتهم هم الذين انتهى إليهم التفوق في الشعر من الطبقة الثانية . »(٢) .

وفي حقيقة الأمر أن مذهب البديع لم يجد طريقه إلى الشهرة إلا على يد مسلم . يقول ابن رشيق « وهو أول من تكلف البديع من المولدين وأخذ نفسه بالصنعة ، وكثر منها ، ولم يكن في الأشعار المحدثة قبل صريع الغواني إلا النبذ اليسيرة ، وهو زهير المولدين ، كان يبطيء في صنعته ويجيدها » (٣) ، وذكر ذلك صاحب معاهد التنصيص فقال : « وهو فيما زعموا أول من قال الشعر المعروف بالبديع واللطيف ، وتبعه فيه جماعة ، وأشهرهم أبوتمام الطائي فإنه جعل الشعر كله مذهباً واحداً فيه ، ومسلم كان متفننا متصرفاً في شعره »(٤) .

---

(١) ورد الحديث عن هذه القضية في صفحات سابقة ، نقلاً عن الأغاني ٦/ ١١٠ .

(٢) تاريخ آداب اللغة العربية في العصر العباسي ص ١٦٥ - ١٦٦ .

(٣) العمدة ١/ ٢٦٢ دار المعرفة تونس .

(٤) معاهد التنصيص ٣/ ٥٥ .

وقال ابن مهرويه : « أول من أفسد الشعر مسلم بن الوليد جاء بهذا الفن الذي سماه الناس بالبديع » (١) .

ويقول صاحب الموشح : « وهو أول من طلب البديع وأكثر منه وتبعه الشعراء فيه » (٢) .

فهذه الآراء التي تتفق وتتباين في الوقت نفسه كلها تؤكد أن مسلماً هو رائد هذا المذهب ، وإن كانت آراء النقاد هذه لايعول عليها كثيراً لأنها يضرب بعضها بعضاً فابن رشيق امتدح بشار بما امتدح به مسلم من أنه أول من فتق البديع وجعل مسلماً تابعاً له . وابن المعتز قبل ذلك نفى أن يكون المحدثون هم الذين اخترعوا البديع ، وإنما كثر في أشعارهم وأكد ذلك في موضع آخر بادئاً بمسلم فقال : « وهو أول من وسع البديع ، لأن بشار بن برد أول من جاء به ثم جاء مسلم فحشا به شعره، ثم جاء أبوتمام فأفرط فيه وتجاوز المقدار . »(٣) ، وكلام ابن المعتز هذا أقرب إلى الصواب من واقع شعر هؤلاء المحدثين الذي يؤكد ماذهب إليه ابن المعتز .

وذهب الآمدى إلى قريب من هذا فقال : « . . . وعلى أن مسلماً أيضاً غير مبتدع لهذا المذهب ، ولا هو أول فيه ، ولكنه رأى هذه الأنواع التي وقع عليها اسم البديع وهي الاستعارة والطباق والتجنيس - منثورة متفرقة في أشعار المتقدمين فقصدها وأكثر في شعره منها » (٤) .

ولذلك كان مسلم يحس بقوة هذا المذهب ونفاذه في عصره ويفخر بشعره وعندما سمع قول أبي العتاهية :

---

(١) الموازنه ٢/ ١٠ .

(٢) معجم الشعراء ص ٣٧ .

(٣) طبقات ابن المعتز ص ٢٣٥ .

(٤) الموازنه ١/ ١٣ - ١٤ .

الحمدُ لله والنعمةُ لك   والملكُ لا شريكَ لكْ

لبيكَ إن الملكَ لكْ

قال : والله لو كنت أرضى أن أقول مثل قولك - يعنى هذا البيت - لقلت في اليوم عشرة الاف بيت ، ولكني أقول :

موفٍ على مهجٍ في يومِ ذي رَهَجٍ   كأنه رجلٌ يسعى إلى أملِ (١)

فهو (مذهب يعتد بقوة الرصف وفخامته ، وجزالته ، وضخامته ، وهو مذهب مسلم بل هو مذهب جمهور الشعراء في مدائحهم الرسمية منذ بشار ومعاصريه ، وقد مضوا ينمون ماوجدوه عند القدماء من تشبيهات واستعارات ، وجناسات ومقابلات حتى إذا ظهر مسلم جعل هذه المحسنات جزءاً لايتجزأ من جوهر شعره ، وأطلق عليها لأول مرة اسم « البديع » (٢) .

فإذن كان مسلم يحتل مكانة مرموقة بين النقاد وبين شعراء عصره ، ولذلك يحس القاريء لآراء النقاد عن طريقته بأنهم كانوا يشعرون بالهيبة أمام شعره ، ويعلون من مكانته ، وربما فضلوه على غيره ، يقول الآمدى : « . . . وعلى أنى لاأجد من أقرنه به لأنه ينحط عن درجة مسلم لسلامة شعر مسلم ، وحسن سبكه وصحة معانيه ، ويرتفع عن سائرمن ذهب هذا المذهب ، وسلك هذا الأسلوب لكثرة محاسنه ومدائحه واختراعاته » (٣) .

بذلك أصبح مسلم أستاذاً لأشهر شعراء عصره ، وهو أبوتمام وكلام الآمدي هنا يؤكد حذق مسلم لمذهبه ، وأنه انتزع مذهبه من متعدد المذاهب الشعرية الأخرى فحفظ كثيراً من نماذج الشعر العربي وتمثلها في شعره ، يقول الدكتور

---

(١) الأغاني ٤/ ٢٧ بتصرف .

(٢) البلاغة تطور وتاريخ ، شوقي ضيف ص ٢٧ - ٢٨ .

(٣) الموازنه ١/ ٥ .

شوقي ضيف : (ولعل القرن الثاني لم يعرف شاعراً جهد نفسه في صنع البديع كما جهدها مسلم ، فقد أقبل يتمثل نماذج الشعر القديم : جاهليِّه وإسلاميه بكل معانيه، وصوره وأساليبه ، وأضاف إلى هذا التمثل تمثلاً لايقل عنه عمقاً ولا دقةً لنماذج الشعر العباسي عند بشار ومعاصريه ، وبذلك التأم القديم والجديد في نفسه وعاش ينفق حياته الفنية في المزج بينهما مفكراً في كل التراث الشعري الذي سبقه ناقداً ومحللاً مستنبطا ، وهداه ذلك منذ أول الأمر إلى أن يستكشف في وضوح أدوات البديع والتصنيع من جناس وطباق ، ومشاكلة وتصوير وأن يجعلها أساساً في صنع شعره واعترف له القدماء بذلك حتى قالوا إنه « أول من قال الشعر بالبديع، وهو الذي أعطاه لقبه ») (١) .

وهكذا كان مسلم رائداً لمذهب البديع في الأدب العربي ، وقد مهد الطريق لظهور مذهب أبي تمام الذي أمعن في استعمال البديع وأغزر مما أدى إلى ازدياد تلك الخصومة بين القدماء والمحدثين .

أبو تمام والتجديد :

لقد أحدث أبو تمام ضجةً كبرى في الفن الشعري ، جعلت النقاد ، واللغويين يقفون من فنه مواقف شتى ، ولعل الصولي قد يضيء لنا السبيل في جلاء هذا الأمر عندما انبرى للدفاع عن هذا الشاعر ، ورد كيد المتآمرين عليه ، فيقول : (. . . وعجبت من افتراق آراء الناس فيه ، حتى ترى أن أكثرهم ، والمقدم في علم الشعر ، وتمييز الكلام منهم ، والكامل من أهل النظم والنثر فيهم ، يوفيه حقه في المدح ، ويعطيه موضعه من الرتبة ، ثم يكبر بإحسانه في عينه ويقوى بإيداعه في نفسه ، حتى يلحقه بعضهم بمن يتقدمه ، ويفرط بعضٌ فيجعله نسيج وحده ، وسابقاً لا مساوي له . وترى بعد ذلك قوماً يعيبونه ، ويطعنون في كثير من شعره ، ويسندون ذلك إلى بعض العلماء ، ويقولونه بالتقليد والادعاء ، إذْ لم

---

(١) العصر العباسي الأول ص ٢٦١ .

يصح فيه دليل ولا أجابتهم إليه حجة ، ورأيت مع ذلك الصنفين جميعاً ، ومايتضمن أحد منهم القيام بشعره ، والتبيين لمراده ، بل لايجسر على إنشاد قصيدة واحدة له . . »(١) .

ولقد أصبح هذا الشاعر ظاهرة فريدة في الشعر العربي ، فلم يحظ شاعر عربي آخر بمثل ماحظي به من الدراسات النقدية على مر عصور هذا الشعر العربي ، ترى ماأسباب تلك الضجة التي أشرنا إليها ، ولماذا ميز شعره بمثل تلك الآراء النقدية المبثوثه في ثنايا كتب النقد القديمة منها والحديثه ؟؟ يقول أحد الدارسين المعاصرين : « لعل الرنة الشعرية الخاصة في نتاج أبي تمام تكون أكثر الظواهر التي يقف عندها الباحث عند تعرضه لدراسة هذا الشاعر ، هذا المنحى الخاص في شعره هو ماجعله نموذجاً شديد الواقعية للرغبة في الانطلاق من أسر القديم - وبغض النظر عن مدى تحققها في شعره - فإن هذه الرغبة كانت دافعاً لخصوم التجديد لكي يطلقوا عليه سهامهم ، فينبري أنصاره للدفاع عنه ، وثارت خصومة شديدة حول شعره »(٢) .

وكان أبو تمام واسع الثقافة متعدد الجوانب ، والمواهب ، وقف على كثير من ثقافات عصره ونال منها الشيء الكثير ، يقول الدكتور شوقي ضيف : «كان أبوتمام يأخذ نفسه بثقافة واسعة حتى قالوا إنه عالم ، وقالوا إن شعره يعجب أصحاب الفلسفة والمعاني ، ويظهر أنه كان يحذق علم الكلام ، وأصوله ، وفروعه ، كما كان يحذق كثيراً من الثقافات الفلسفية ، والتاريخية والإسلامية واللغوية ، حتى العقائد والنحل المختلفة . . »(٣) وقد ظهر أثر تلك المعارف المتعددة في شعره ، واستطاع أن ينفرد - كما يقول صاحبه - « بمذهب اخترعه ،

---

(١) أخبار أبي تمام ، للصولي ، ت مجموعة من المحققين ، دار إحياء التراث ص ٤-٥ .

(٢) أبوتمام بين ناقديه قديماً وحديثاً ، د . عبدالله المحارب ص ١٠٣ .

(٣) الفن ومذاهبه ص ٢٢١ .

وصار فيه أولاً وإماماً متبوعاً ، وشهر به حتى قيل مذهب أبي تمام ، وطريقة أبي تمام، وسلك الناس نهجه ، واقتفوا أثره . . » (١) .

ومما يميز أبا تمام هو إخلاصه لمذهبه ، وشغفه بشعره ، قال الآمدي : « . . إن أبا تمام كان مغرماً مشغوفاً بالشعر ، وانفرد به ، وجعله وكده ، وألف فيه كتبا ، واقتصر من كل علم عليه ، فإذا أورد المعنى المستغرب لم يكن ذلك منه ببدع . . »(٢) فهو شاعر عالم بالصنعة ذاتها ، متبصرٌ بروايتها « والشاعر العالم أفضل من الشاعر غير العالم » (٣) .

قضية عمود الشعر :

ارتبط مذهب أبي تمام وتجديده بما سماه الآمدي « عمود الشعر » ، وقامت على إثر ذلك خصومات شديدة بين القدماء والمحدثين حول أبي تمام والبحترى ، ويعتبر الآمدي الذي افترض هذه الخصومة أول من وضع نظرية « عمود الشعر » هذه ، خدمةً لمذهب البحتري كما يقول الدكتور إحسان عباس ، وأدت هذه النظرية إلى إبعاد الموازنة عن الإنصاف (٤) .

وهذا الكلام يؤكده قول الآمدي عن البحتري بأنه « أعرابي الشعر مطبوع وعلى مذهب الأوائل ، ومافارق عمود الشعر المعروف ، وكان يتجنب التعقيد ومستكره الألفاظ ، ووحشي الكلام ، فهو بأن يقاس بأشجع السلمي ، ومنصور النمري وأبي يعقوب المكفوف (الخريمى) وأمثالهم من المطبوعين أولى » (٥) .

---

(١) الموازنة ١/ ١٣ .

(٢) نفسه ص ٢٤ .

(٣) نفسه ص ٢٥ .

(٤) تاريخ النقد الأدبي عند العرب ص ١٦٢ .

(٥) الموازنه ١/ ٤ – ٥ .

أمـا أبو تمام في نظر الآمـدي « شـديد التكلف صـاحب صنعـة ويسـتكره الألفاظ، والمعاني، وشعره لايشبه شعر الأوائل، ولا على طريقتهم لما فيه من الاستعارات البعيدة، والمعاني المولدة » (١).

وكلام الآمدي هذا يؤكد بالفعل ماذهب إليه إحسان عباس من أن مصطلح «عمود الشعر» ربما يكون من وضع الآمدي حيث أراد من ورائه نصرة البحتري، على أن الآمدي لم يشرح المقصود بعمود الشعر! ، وماهي الأسس التي قام عليها هذا المصطلح، ولذلك ظل النقـاد من بعده يتخبطون حـول تحديد نشأته، ومتى استعمل، حتى غدا من الظواهر التي يصعب تحديد بدايتها، وكما يقول الدكتور حسين نصار « من أصعب الأمور البحث عن منشأ ظاهرة أو تعبير ما، والاهتداء إلى أول وجود له، وتزداد هذه الصعوبة في الأمر الذي ندرسه لعلتين :

العلة الأولى : أننا ندرس تعبيراً لغـوياً، والتعبيرات تجري على الألسنة أولاً، ثم تدونها الأقـلام على الورق، ولا سـبيل إلى الوصول إلى الاستعـمال الشفوي، وعلينا أن نكتفي بالاستخدام، وهنا تبدأ العلة الثانية، فاللغة العربية لم تعرف المعاجم التاريخية بعد، ولم تستخدم الآلات الحاسبة « الألكترونية في بحوثها اللغوية ... » وهنا يرى حسين نصار أنه لابد من الاعتماد على النفس، وعلى « الصدفة، والحظ »، وهذا مزلق عقدي خطير، فالاعتماد يجب أن يكون على الله أولاً، ثم على الجهد الشخصي فيما بعد، أما الصدفة والحظ، فليس لهما مكان في حياتنا العلمية أو سواها، فكل الأمور بيد مصرفها عز وجل، وما على العبـد إلا بذل السبب، ولذلك إن قبلنا من حسين نصـار الجـزء الأول من نظريتـه هذه فلن نقبل منه تخـبيـصـه هذا، فإن هذا الكلام لايقـوله إلا شـاك مضطـرب.

---

(١) الموازنة ١/ ٤ - ٥ .

ولعلّ ما جرّه إلى القول بهذا الكلام هو ذلك الكم الهائل من المصنفات العربية التي يصعب على المتعلم قراءة كل ماجاء فيها « وخاصة أن المكتبة العربية من الثراء بحيث لايستطيع أحد أن يدعى أنه قرأ كل ماأصدر القدماء في أحد العلوم أو الفنون ، يضاف إلى ذلك أن كثيراً من تراثنا مازال مخطوطاً بعيداً عن أيدي المحتاجين ، وأن كثيراً منه مازال مجهول الوجود ، وأن كثيراً منه ضاع أو أضاعته الأيدي الأثيمة ، ولذلك اعتقد أن معظم مانقول في الأوليات إن لم يكن كله ، آراء آلية مرحلية قد تغيرتغيراً تاماً أو جزئياً ، عندما « نصل(*) إلى » أثر أو آثار جديدة ليست بين أيدينا الآن » (١) .

ومن هنا فمصطلح « عمود الشعر » لايمكن تحديده بدقة ، وإنما يفهم معناه من سياق كلام النقاد ، بأنه « يعني عند الآمدي اقتفاء آثار الأوائل ، والنسج على منوالهم ، والتزام السنن الذي درجوا عليه في شعرهم » (٢) .

وممن استعمل هذا المصطلح صاحب الوساطة ، وجعله هدفاً منشوداً لدى الشاعر ، إذ يقول : « وكانت العرب إنما تفاضل بين الشعراء في الجودة والحسن بشرف المعنى وصحته ، وجزالة اللفظ واستقامته وتسلم السبق فيه لمن وصف فأصاب ، وشبه فقارب ، وبده فأغزر ، ولمن كثرت سوائر أمثاله ، وشوارد أبياته ، ولم تكن تعبأ بالتجنيس والمطابقة ولا تحفل بالابداع والاستعارة إذا حصل لها عمود الشعر ، ونظام القريض . » (٣) .

(*) الذي بين القوسين الصغيرين ليس من كلام نصار ، لأنه قال : « عندما تسعفنا الصدفة والحظ » ونحن لن نقول بذلك بإذن الله .

(١) من مقال في مجلة « الأقلام » العراقية ، للدكتور حسين نصار ، ص ٤٣ ، عدد ١١ / ١٩٨٠م ، نقلاً عن كتاب « القضايا الأدبية والفنية » في شرح المرزوقي لديوان الحماسة ، دار المعارف بمصر ١٤٠٤هـ ، ص ٢٦٢ - ٢٦٣ .

(٢) نفسه ص ٢٦٥ .

(٣) الوساطه ص ٣٤ .

وقد حدد المرزوقي (١) « عمود الشعر » ، وبين سبب تحديده فيقول : «فالواجب أن يتبين ماهو عمود الشعر المعروف عند العرب ، ليتميز تليد الصنعة من الطريف ، وقديم نظام القريض من الحديث ، ولتعرف مواطيء أقدام المختارين فيما اختاروه ، ومراسم إقدام المزيفين على مازيفوه ، ويعلم أيضاً فرق مابين المصنوع ، والمطبوع ، وفضيلة الأتيِّ السمج على الأبيّ الصعب » (٢) .

فهذا النص على قلة ألفاظه ومحدوديته ، فإنه يوحي بقضايا كثيرة شغلت النقاد فترة من الزمن ، فكونه ينص على أن هذا العمود معروف عند العرب ليؤكد طريقة العرب التي يعهدها الشعراء ، وبمعرفة هذه الطريقة يستطيع بعد ذلك الحكم على أصالة الشعر ، من حيث القدم والحداثة ، ومن حيث الطبع والصنعة ، ويؤكد المرزوقي مسألة اختيار الشاعر أو الناقد لأن اختيار الرجل جزء من عقله كما هو معروف .

وكأنه يمقت من طرف خفي الشعر السهل القياد الذي يأتي دون معاناة ويفضل القريحة القادحة المتأبية الصعبة التي لاترضى بكل ماورد عليها ، وإنما يحكك صاحبها شعره ويبديء النظر ويعيده فيه حتى يطمئن إليه فيخرجه للناس ، وعلى هذا حدد المرزوقي عمود الشعر في سبعة أبواب فقال : « إنهم يحاولون شرف المعنى ، وصحته ، وجزالة اللفظ واستقامته ، والإصابة في الوصف - ومن هذه الأسباب الثلاثة كثرت سوائر الأمثال وشوارد الأبيات - والمقاربة في التشبيه ، والتحام أجزاء النظم ، والتئامها على تخير من لذيد الوزن ، ومناسبة المستعار منه للمستعار له ، ومشاكلة اللفظ للمعنى وشدة اقتضائهما للقافية حتى لا منافرة بينهما - فهذه سبعة أبواب هي عمود الشعر ، ولكل باب منها معيار » (٣) ثم أخذ

---

(١) اخترنا المرزوقي لأنه أول من تكلم في قضية عمود الشعر ، وفصل القول فيها .

(٢) شرح ديوان الحماسة ١/٨-٩ ، نشر أحمد أمين ، عبدالسلام هارون ، القاهرة ١٣٨٧هـ ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر .

(٣) نفسه ١/ ٩ .

بعد ذلك في سرد معايير هذه الأبواب والتدليل عليها من أصيل الشعر العربي ، وأكد على التزامها بقوله : « فهذه الخصال عمود الشعر عند العرب ، فمن لزمها بحقها، وبنى شعره عليها ، فهو عندهم المغْلق المعظَّم ، والمحسن المقدم ، ومن لم يجمعها كلها فبقدر سهمته منها يكون نصيبه من التقدم والإحسان ، وهذا إجماع مأخوذ به، ومتبع نهجه حتى الآن » (١) .

ولا يغيب عن الذهن مانقله ابن قتيبة عن منهج القصيدة العربية من خلال استقرائه كلام أهل الأدب ، والذي يقول فيه : « وسمعت بعض أهل الأدب يذكر أن مقصد القصيد إنما ابتدأ فيها بذكر الديار ، والدمن والآثار ، فبكا وشكا ، وخاطب الربع ، واستوقف الرفيق ، ليجعل ذلك سبباً لذكر أهلها الظاعنين عنها» إذ كان نازلة العمد في الحلول ، والظعن ، على خلاف ماعليه نازلة المدر لانتقالهم من ماء إلى ماء ، وانتجاعهم الكلأ ، وتتبعهم مساقط الغيث حيث كان، ثم وصل ذلك بالنسيب ، فشكا شدة الوجد وألم الفراق وفرط الصبابة ، والشوق ليميل نحوه القلوب ، ويصرف إليه الوجوه وليستدعي به إصغاء الأسماع إليه ، لأن التشبيب قريب من النفوس لائط بالقلوب لما قد جعل الله في تركيب العباد من محبة الغزل وإلف النساء فليس يكاد أحدٌ يخلو من أن يكون متعلقاً منه بسبب ، وضارباً فيه بسهم حلال أو حرام ، فإذا علم أنه قد استوثق من الإصغاء إليه ، والاستماع له عقب بإيجاب الحقوق ، فرحل في شعره ، وشكا النصب والسهر وسرى الليل ، وحر الهجير ، وإنضاء الراحلة ، والبعير ، فإذا علم أنه قد أوجب على صاحبه حق الرجاء ، وذمامة التأميل ، وقرر عنده مناله من المكاره في المسير ، بدأ في المدح ، فبعثه على المكافأة ، وهزه للسماح وفضله على الأشباه ، وصغّر في قدره الجزيل » (٢) .

---

(١) المصدر السابق ص ١١ .

(٢) الشعر والشعراء ١/ ٧٥ .

فهذا المنهج الذي ذكره ابن قتيبة يفهم منه أنه خاص بقصيدة المدح التي غلبت على معظم الشعر العربي ، وقد جعله مقياساً لجودة الشاعر فهو يقول : «فالشاعر المجيد من سلك هذه الأسالب ، وعدل بين هذه الأقسام ، فلم يجعل واحداً منها أغلب على الشعر ، ولم يطل فيمل السامعين ولم يقطع وبالنفوس ظمأ إلى المزيد . »(١) .

إذاً فإبن قتيبة تحدث عن مضمون هذه القصيدة العربية ، والقضايا التي شغلت الشاعر فجعلته يلتزم في مديحه على وجه الخصوص بهذا الأسلوب .

أما طريقة المرزوقي التي ارتئاها بالنسبة لعمود الشعر ، فهي قضية فنية خالصة ، وضحت الشكل أو الهيئة التي جاءت عليها القصيدة ، وبينت طريقة الشاعر التي لجأ إليها كي يجد شعره استحساناً وقبولاً في عيون النقاد ، وتخليداً في آثار الدارسين ، وكأن ذلك لايحصل له إلا باستحضاره لهذه الأبواب السبعة ، فهي ماثلة أمامه كلما أراد قول الشعر .

وأبو تمام على الرغم من ولعه بالشعر وشغفه به ، قد صنف خارج هذه الدائرة ، وقد أوجعه الآمدي نقداً وإبعاداً عن مذاهب العرب ، ثم تأثر به كل من أتى بعده ، لايرعون فيه إلا ولاذمة ، مع أن أبا تمام لم يكن إلا مطوراً لمذهب مسلم ابن الوليد الذي آثره الآمدي على مذهب أبي تمام ، وقد كان أبوتمام نفسه يعترف بعبادته لديوان مسلم ، وعكوفه عليه أربعين يوماً لايقرب الصلاة حتى يحفظه .

وشاعرٌ كأبي تمام له هذه العبقرية النادرة ، وهذه الثقافة الواسعة بشهادة الآمدي نفسه (٢) ؛ كيف يمكن أن يظل واقفاً عند النقطة الأولى للشعر العربي ، دون تطوير لها أو تحديث ؟ ، وكيف يشهد الآمدي بسعة معارفه ، ثم ينتقص منه مناصرةً للبحتري ؟ وإذاً فالمسألة لاتعدو التعصب والتحامل ليس أكثر كما يقول

---

(١) الشعر والشعراء ١/ ٧٦ .

(٢) ينظر الآمدي ، الموازنة ١/ ٥٩ ، وص ٤٤ من هذا البحث .

صاحب أبي تمام المزعوم : « . . . لئن أسرفتم في الذم وبالغتم على صاحبنا في الطعن ، وتجاوزتم الحد الذي يقف عنده المتحجج المناظر إلى مذهب المتسقط المغالط ، والمتعصب المتحامل - فلسنا ندفع أن يكون صاحبنا قد أوهم في بعض شعره ، وعدل عن الوجه الأوضح في كثير من معانيه ، وغير منكر لفكر نتج من المحاسن مثل مانتج وولّد من البدائع مثل ماولد - أن يلحقه الكلال في الأوقات ، والزلل في الأحيان ، بل من الواجب لمن أحسن إحسانه أن يسامح في سهره ، ويتجاوز له عن زلله ، فما رأينا أحداً من شعراء الجاهلية والإسلام سلم من الطعن ولا من أخذ الرواة عليه الغلط والعيب . . . » (١) .

وهذا شيء غير خاف على أحد بأن أباتمام كان يجهد نفسه في عدم التسليم بما عند القدماء ، لأن رجلاً له تلك القدّرة الفذّة على حفظ الشعر العربي وتصنيفه إنما يصدر ذلك منه عن ذكاء حاد « استخدمه استخداماً واسعاً في تمثل الشعر العربي الذي سبقه من قديم وحديث ، فقد وعى وعياً دقيقاً صورة الشعر العربي بجميع خطوطها ، وألوانها ، وكل مايجري فيها من أضواء وظلال ، وانتحى ناحية مسلم في تصنيعه ، إذ كان ذوقه ذوق متحضرين ، يغرم بالتصنيع والزينة حتى في ثيابه ومطعمه ، بل كان ذوقه ذوق نحات أصيل ، فهو يقيم قصائده وكأنه يرفع تماثيل باذخة ، ولذلك لانعجب حين نجده يتمسك بالإسلوب الجزل الرصين ، فهو الذي يلائم مايريد من ضخامة البناء ومتانته وقوته ، وقد تحولت عنده معاني الشعر إلى مايشبه جذاذات العلماء ، فهو يتناولها ممن سبقوه ، ويخرجها إخراجاً جديداً يستعين فيه بدقة فكره ، وروعة خياله مضيفاً إليها كثيراً من دقائق ذهنه وبدائع ملكاته ، ونحس كأن الشعر أصبح تنميقاً ، وزخرفاً خالصاً ، فكل بيت في القصيدة إنما هو وحدةٌ من وحدات هذا التنميق ، والزخرف ، وهو ليس زخرفاً لفظياً فحسب ، بل زخرف لفظي ومعنوي ، يروعنا فيه ظاهره وباطنه ، ومايودعه

---

(١) الموازنة ١/ ٣٧ .

من خفيات المعاني ، وبراعات اللفظ ، وبذلك انتهى عنده مذهب التصنيع إلى غايته ، وهو يقف فيه علماً شامخاً لا تتطاول إليه الأعناق . » (١) .

وخلاصة القول فإن أبا تمام فرض نفسه بشعره على الساحة النقدية ، وجاء بما يذهل النقاد ، ولم يعبأ بما يقال عنه ، فكان يدافع عن شعره فيقول :

وغَرَائِبٌ تأتيكَ إلا أنَّها لِصَنيعكَ الحَسَنِ الجميلِ أقاربُ(٢)

ويروي الآمدي أن أبا تمام قصد أبا سعيد الضرير وأبا العميثل الأعرابي ليعرض عليهما قصيدته التي مدح بها عبدالله بن طاهر وأولها :

هنّ عَوَادي يوسُفٍ وصواحبُه فعزماً فقِدماً أدركَ النَّجْحَ طالِبُه(٣)

فلما سمعا هذا الابتداء أعرضا عنه ، وأسقطا القصيدة ، حتى عاتبهما أبوتمام ، وسألهما استتمام النظر فيها . . . ولما أوصلا إليه الجائزة ، قالا له : لم لاتقول مايفهم ؟ فقال لهما : لم لاتفهمان مايقال ؟ » (٤) . قال الأمدي : « فكان بهذا مما استحسن من جوابه »(٥) ، يقول الدكتور يوسف خليف : « وهي رواية تمثل تمثيلاً قوياً ذلك الصراع العنيف الذي كان يدور حول مذهبه ، فالناس يرون فيه شيئاً مستغلقاً عليهم مستعصياً على أفهامهم لايستطيعون فهمه ، وأبوتمام يرى أنهم لايفهمون شعره لا لأنه غامض ، وإنما لأنهم لم يصلوا من الثقافة والمعرفة واتساع الأفق إلى المستوى الذي وصل إليه . . » (٦) .

---

(١) الفن ومذاهبه ، د. شوقي ضيف ص ٢٢٣ .

(٢) الديوان ١/ ١٧٤ .

(٣) الديوان ١/ ٢١٦ .

(٤) الموازنة ١/ ٢٠ - ٢١ .

(٥) نفسه ص ٢١ .

(٦) تاريخ الشعر العباسي ص ١٢٠ .

وعلى كل لايعنينا ماخاض فيه النقاد من الكلام على شعر أبي تمام بقدر مايعنينا التعرف على أبرز خصائص مذهبه التي أجمع أهل العلم بالأدب أنه صاحب مذهب جديد متميز في تاريخ الشعر العربي ، يجتمع فيه الطبع والصنعة ، ولذلك وصفه صاحب الأغاني بقوله : « . . شاعر مطبوع لطيف الفطنة ، دقيق المعاني ، غواص على مايستصعب منها ، ويعسر متناوله على غيره . وله مذهب في المطابق هو كالسابق إليه جميع الشعراء وإن كانوا قد فتحوه قبله ، وقالوا القليل منه ، فإن له فضل الإكثار فيه والسلوك في جميع طرقه . والسليم من شعره النادر شيء لايتعلق به أحد » (١) ؛ وهذا يؤكد ماذهبنا إليه سابقاً من أن السابقين لايرون أن البديع ينافي الطبع .

وشعر أبي تمام ينطبق عليه قول ابن رشيق « . . وقال غير واحد من العلماء الشعر مااشتمل على المثل السائر ، والاستعارة الرائعة والتشبيب الواقع ، وماسوى ذلك فإنما لقائله فضل الوزن » (٢) .

وخلاصة القول في فن أبي تمام : أنه فنٌ ينطلق فيه صاحبه من حرصه على المعنى فكان « يطلب المعنى ولا يبالي باللفظ حتى لو تم له المعنى بلفظة نبطية لأتى بها»(٣) . ولذلك « قال بعض من نظَّر بين أبي تمام وأبي الطيب : وإنما حبيب كالقاضي العدل : يضع اللفظه موضعها ، ويعطي المعنى حقه بعد طول النظر ، والبحث عن البنية ، أو كالفقيه الورع يتحرى في كلامه ويتحرج خوفاً على دينه»(٤) ، فهذا شأن أبي تمام « إذا وجد المعاني التي يبغيها فنظمها ورتبها ، انقلب إلى إبرازها في ألفاظ يرصها في تؤدة وينمقها في اطمئنان ، فيلائم بين أجراسها

(١) الأغاني ١٦/ ٣٨٣ .

(٢) العمدة ١/ ١٢٢ .

(٣) نفسه ١/ ١٣٢ .

(٤) نفسه ص ١٣٣ .

وألوانها ، ويقابل بين الفكرتين ويراعي اللفظ وقسيمه ، وهو يسير فيها بفكرة واضحة يكمل البيت ماسبقه إليه أخوه ، فما يكاد يفرغ من القصيدة حتى يكون قد أخرج للناس موضوعاً متماسكاً تجري فيه فكرة واحدة » (١) .

وقد اشتهر أبوتمام بالغوص وراء المعاني لدرجة أنه اتهم بمخالفة قواعد اللغة، وماذلك إلا لأنه أتى على أشياء لم تعرف عن القدماء ، ولذلك كثر الطعن على شعره ، وتوسع النقاد في عد عيوبه وسرقاته ، وقليل منهم من أنصفه كابن الأثير الذي قال عنه : « وقد قيل إن أباتمام أكثر الشعراء المتأخرين ابتداعاً للمعاني ، وقد عُدَّتْ معانيه المبتدعة ، فوجدت مايزيد على عشرين معنى ، وأهل هذه الصناعة يكبرون ذلك ، وماهذا من مثل أبي تمام بكبير » (٢) .

وكان أبوتمام عندما يأتي بالشيء الجديد الطاريء ، يذهب النقاد فيه كل مذهب ، ويوازنوه بكلام العرب ، فعندما وصف الحلم بقوله :

رقيقُ حواشي الحلمِ لو أنَّ حِلْمَه بكفّيكَ ماماريتُ في أنَّه بردُ

فقد علق الآمدي عليه بقوله : « والخطأ في هذا ظاهر لأني ماعلمت أحداً من شعراء الجاهلية والإسلام وصف الحلم بالرقة إنما يوصف الحلم بالعظم والرجحان والثقل والرزانة ونحو ذلك . »(٣) وكذلك وصفه البرد أيضاً بالرقة يقول الآمدي : « وأيضاً فإن البرد لايوصف بالرقه ، وإنما يوصف بالمتانة والصفاقة ، وأكثر مايكون ألواناً مختلفة . » (٤) .

فهو بالفعل استطاع أن يعجز ناقديه عندما جاءهم بما لم يتعودوا سماعه من شعرائهم ، يقول طه حسين : « هذا البيت لم يفهمه المتقدمون لأنهم لم يألفوا هذه

---

(١) أبوتمام ، نجيب البهبيتي ص ٢١٥ .

(٢) المثل السائر ص ١٩٢ .

(٣) الموازنه ١ / ١٤٣ .

(٤) نفسه ص ١٤٦ .

الصورة ، صورة الحلم بالكفين ، وتشبيهه بالبرد ، وإنما كانوا يشبهون الحلم بالجبال في مثل هذا البيت :

أحلامُنا تزنُ الجبالَ رزانةً وتخالُنا جِنّاً إذا ماجُهلُ

فالرجل الحليم هو الثقيل ، فأما هذا الحلم الذي يوصف بأنه رقيق الحواشي فهذا شيء لم تعرفه العرب » (١) . وخلاصة القول فإن ماقيل حول شعر أبي تمام لايمكن إحصاؤه ، وليس من طبيعة بحثنا الإفاضة في هذا الموضوع بقدر مايعنينا الوقوف على منهجه وطريقته ، ولعل ماكتبه الدكتور نجيب البهبيتي في أغلب شعر أبي تمام يضع القوس في مرماه ، فهو يقول : « وأبوتمام محافظ في أكثر قصائده إذا نحن نظرنا إلى نهجها ، فهو يبدأ أكثر مدائحه بمخاطبة الأطلال ، والتحسر لمرآها ، ثم ينتقل من ذلك إلى غزل يختلف طولاً ، وقصراً ، يصف فيه حبيبته وصفاً جسمانياً أو معنوياً ، ثم يخرج من هذا إلى وصف الرحلة إن كان قد رحل إلى ممدوحه ، فإن لم يكن رحل إليه لم يعرج عليها ، ثم يخرج من هذا إلى ممدوحه ، فيأخذ في مدحه ثم يأخذ في طلب عطائه طلباً سافراً أو متوارياً ، وكثيراً مايختم قصيدته بوصف شعره ، والفخر به ، هذا هو النمط الغالب على قصائده ، وهو لايختلف فيه إلا قليلا ، عن نمط القصيدة العربية التقليدي ، وقد يحيد عن هذا شيئاً فيبدأ بوصف الخمر أو الطبيعة، وقد يجمع بين هذين النمطين ، في قصيدة واحدة في أبيات متقاربة»(٢) .

ووصف الدكتور البهبيتي لهو من أفضل ماوصف به شعر أبي تمام وطريقته .

أما موقف النقاد من شعره بسبب الادعاء القائل أنه جانب عمود الشعر المعروف ، فهو يعد نفسه أكبر من ذلك ، ولذا لم يلتزم بمناسبة المستعار للمستعار

---

(١) من تاريخ الأدب العربي ، طه حسين ٢/ ٢٤٨ .

(٢) أبوتمام ، البهبيتي ص ٢٢٥ .

له، ولا مقاربة التشبيه ، بل كثيراً مايقلب التشبيه ، أضف إلى ذلك الاسراف في البديع الذي لم يكن بهذه الصورة عند القدماء ، وإنما كان يرد عفواً في أشعارهم غير مقصود ولا متعمد ، وهذا نوع من التمرد والخروج على طريقة الأوائل .

وقضية « عمود الشعر » هذه بأبوابها السبعة ، لو أردنا تطبيقها على شعر أبي تمام ستكون نظرتنا له لاتخرج عن حالتين :

- إما أن ننظر بعين البصيرة لهذا الشاعر ، مبعدين أنفسنا عن نظرة التحامل التي عرفناها عند خصومه ، ونقول بأن أباتمام لم يتجاف عن عمود الشعر تجافياً مطلقاً ، بل أتاه حيناً ، وجانبه حيناً آخر .

- وإما أن ننظر بذات النظرة الضيقة التي نظر من خلالها النقاد الأوائل ممن عدوا أنفسهم أوصياء على الشعر العربي ، كابن الأعرابي ، الذي كان يقول عن شعره « إن كان هذا شعراً فما قالته العرب باطل » وقول بعضهم : « شعره لايشبه أشعار الأوائل ، ولا على المألوف » و « يخرج إلى المحال » وقولهم : «عدل في شعره عن مذاهب العرب ، إلى الاستعارات البعيدة المخرجة الكلام إلى الخطأ والإحالة » ، إلى آخر ماقيل مما يوحى بشدة العصبية ضده ، والتحامل عليه ، مع أن مذهبه ليس فيه سوى أربع ظواهر جاءت من منطلق عصره ، وثقافته ، وعدم رضاه ، بما لدى الآخرين وهي : الغموض ، الصورة الجديدة التي لم يألفها العرب ، والمعاني أيضاً غير المعهودة ، ونقله اللفظ عن معناه المعروف إلى معنى آخر وهذا الأخير شيء مستساغ في البلاغة العربية .

ونختم المطاف عن المحدثين ، ومذاهبهم بتأكيد الثراء النقدي الذي وجد بسبب تلك الخصومات والخلافات حول هؤلاء الشعراء ، وإن كان جلّ تلك الخصومات نابعاً من الحسد الدفين ، لأن كلاً من أبي نواس وأبي تمام له من الشهرة ماجعله يخمل ذكر من عاصره ولاسيما في مجالس الخلفاء ، وكيف القول بمن جاء بعدهم ، وملأ الدنيا وشغل الناس ، وهو من استقر المذهب على يده ، إذ كان

وسطاً بين القدماء والمحدثين حتى أصبح يقال له رائد الاتجاه القديم المحدث ، وكان قد أحدث من الخصومات مالم يحدثه سابقاه وهو أبو الطيب المتنبي .

والحقيقة فإن « الخصومات في تاريخ الشعر العربي قد قامت حول ثلاثة من الشعراء يمثلون اتجاهات قوية . إما لأنهم قد أتوا بمذاهب جديدة ، أو تشبه الجديدة، أو لأنهم قد صدروا عن طبع أصيل ، فأبو نواس وأبو تمام قد أحدث كل منهما في الشعر العربي حدثاً : جدد أبو نواس من روح الشعر ومن بناء القصائد أحياناً ، وخرج أو حاول الخروج على تقاليد العرب الفنية والخلقية ، فأثار ضجة نسبية ، واتخذ أبو تمام من البديع مذهباً أصبح رأسا له ، وإن ظل « يرقص في السلاسل القديمة » كما يقول ناقد غربي ، أو « يطرز على ثياب خلقه » كما قال الآمدي . وجاء « المتنبي » فسار في أول حياته على نهج أبي تمام ، وأخذ بمذهبه ، وتتلمذ له ، كما لاحظ الجرجاني نفسه في الوساطة ، حتى استوت ملكته الشعرية التي صدر عنها ، فإذا به يأتي بنغمات جديدة فيها من القوة والقدرة على التصوير والايحاء مايجعله شاعراً أصيلاً ، وكان له حتى اليوم في الأدب العربي أبلغ الأثر»(١) .

تلكم هي قصة المحدثين الشعراء ، وتلكم هي الملامح العامة لاتجاهاتهم ، ولقد جعلناها منطلقاً للبحث عن أثر هؤلاء الشعراء في شعرائنا بالأندلس ، ونحسب أننا أجلينا الحقيقة في معرفة مذاهب الشعر في المشرق ، وإن أطلنا فيها ، فلعل لنا العذر في ذلك ، لأنها بمثابة الكشاف الذي نستضيء به في دراستنا لصدى حركتهم الأدبية والنقدية بين الشعراء بصقع الأندلس .

---

(١) النقد المنهجي عند العرب ، محمد مندور ، دار نهضة مصر ١٩٧٢م ، ص ١٦٤-١٦٥ .

الفصل الأول

علاقة الأندلس بالمشرق

تمهيد

تمهيد :

قضية العلاقة بين الأندلس والمشرق علاقة ذات وشائج قوية وثقها دين الإسلام الذي جاء ليؤلف بين الشعوب ويقرب بين مجتمعاتها ، وهذه القضية ليست قضية غامضة ، ولا تخضع للوهم والاسترسال مع الخيال والاستغراق مع الأحلام في وضح النهار ، ولم تكن ملتبسة على من أرادها ، فإن الأمة التي ارتضت دين الإسلام منهجاً لها في تصريف شئونها تدرك لا محالة حكمة ربها إذ جعل الناس أجناساً متعددة . تلك الحكمة التي تتمثل في قول الله سبحانه : **﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلنكم شعوباً وقبائل لتعارفوا .. الاية ﴾**(١) .

وهذه الشعوب وتلك القبائل إنما خلقها الله لعمارة الأرض والاستخلاف فيها ، وكان لابد لهذه الأمم المستخلفة من السعي في الأرض قال سبحانه : **﴿ فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه .. الاية ﴾**(٢) فحفلت حياة هذا الكائن بالتنقل والترحال ، تلبية لرغبات العقل والبدن واتصلت الشعوب ببعضها منذ فجر تاريخ البشرية ، وفي تاريخ العرب خاصة ما يؤكد ذلك فرحلة الشتاء والصيف التي حدثنا عنها القرآن الكريم والتي كانت تقوم بها قبيلة قريش من أجل كسب العيش والسياحة في الأرض نموذج حي لتلك الصلات الوثيقة بين الشمال والجنوب ، وكم من القبائل السامية التي حدثنا عنها التاريخ قد انتقلت من شبه جزيرة العرب إلى حوض دجلة والفرات ، وكذلك ماكان من هجرة قبائل المغول وغيرها من القبائل التي كانت تهاجر للغزو طمعاً في سلب ونهب خيرات تلك البلاد .

---

(١) الحجرات ، آية (١٢) .

(٢) سورة الملك ، آية (١٥) .

وتاريخ هذه الأمة التي شرفها الله بدين الإسلام وكلفها بالدعوة إليه حافل بالهجرات والغزوات البرية والبحرية من أجل نشر هذا الدين ، وتوحيد الصفوف تحقيقاً لعالمية الرسالة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة والتسليم .

وعندما انتشر الإسلام ورسخ في شبه جزيرة العرب انطلق المسلمون جنوداً فاتحين في شتى أنحاء المعمورة ، وكان من بين تلك البلدان التي شملها الفتح الإسلامي العظيم أفريقية والاندلس . وتحدثنا المصادر عن هذا الفتح فتذكر أقوالاً أربعة يرويها ابن عذاري في كتابه المشهور (١) « البيان المغرب » تحت عنوان : « ذكر دخول المسلمين إلى الأندلس وانتزاعها من أيدي الكفار » :

أحدها : أن الأندلس أول من دخلها عبدالله بن نافع بن عبد القيس وعبدالله بن الحصين الفهريان من جهة البحر في زمن عثمان رضي الله عنه سنة ٢٧هـ .

وثانيها : أن موسى بن نصير افتتحها عام ٩١ هـ .

وثالثها : أن طريفاً (٢) دخلها وفتحها عام ٩١ هـ .

ورابعها : أن طارقاً أول من دخلها سنة ٩١ ودخل موسى بعده سنة ٩٢ .

والمهم من ذلك أن الأندلس فتحت ودخلها الإسلام وأصبحت ولاية تابعة للدولة الإسلامية في المشرق تنعم بحكم الإسلام يتعاقب عليها الولاة من قبل الخليفة الأموي في المشرق .

ومرت الأندلس بفترات متقطعة من الفتن والحروب بسبب سوء تصرف

---

(١) البيان المغرب ١/ ٤ .

(٢) هو طريف بن مالك ، وقيل طريف بن ملوك يكنى أبا زرعة يغلب أنه عربي ، ويبدو أنه كان رجلاً قادراً حازماً » ينظر البيان المغرب ٢/ ٥ ، وفجر الأندلس ص ١٦ . حسين مؤنس ، هامش ٤ .

بعض الولاة ، ونشبت حرب ضروس بين عرب الأندلس وبربرها وبين الأمويين والشاميين ، يقول «ابن القوطية» في تاريخه :

« وبقي عرب الأندلس وبربرها يحاربون الأمويين والشاميين ويتعصبون لعبدالملك بن قطن الفهري ويقولون لأهل الشام : بلدنا يضيق بنا فاخرجوا عنا ، فكانت الحرب تدور بينهم في « الكُدى » وعندما بلغ ذلك هشام بن عبدالملك وأحسّ بالنكبة التي أصابت أفريقيا والأندلس شاور أخاه العباس بن الوليد وكان أحلّه في الشورى محل أخيه مسلمة بعد في هذا الأمر ، فقال له : يا أمير المؤمنين ، ليس يصلح أخر هذا الأمر إلا بما صلح به أوله فاصرف نظرك وحسن رأيك إلى هذه القحطانية فقبل منه ، ووافق ذلك ورود أبيات كتب بها أبو الخطار الكلبي من إفريقية إلى هشام : يقول فيها :

أفأتم بني مروان قيساً دماءنا — وفي الله إن لم تنصفوا حكم عدلُ

كأنكم لم تشهدوا مرج راهطٍ — ولم تعلموا من كان ثَمَّ له الفضل(١)

فكانت سبباً في تولية الشاعر على الأندلس ، ولم تهدأ الفتن بالأندلس بسبب ميل أبي الخطار هذا إلى قبيلته اليمنية وتعصبه على المضرية مما أدى إلى نشوب الفتنة بينه وبين الصميل بن حاتم الكلابي والتي انتهت بقتل أبي الخطار»(٢).

وظلت الأندلس على هذه الحال يتعاقب عليها ولاة بني أمية حتى ضعف حكم هذه الدولة بدمشق بعد ملك دام إحدى وتسعين سنة وتسعة أشهر وخمسة

---

(١) تاريخ ابن القوطية ٤٢ .

(٢) بتصرف من المصدر ذاته ٤٢٠ .

أيام منها أيام ابن الزبير : تسع سنين واثنان وعشرون يوماً ، ثم تفرقت بنو أمية هرباً بأنفسهم، وهرب عبدالرحمن بن معاوية بن هشام بن عبدالرحمن بن معاوية بن هشام بن عبدالملك إلى الأندلس فبايعه أهلها وتجددت بهم دولة استمرت إلى بعد الأربع والعشرين والأربعمائة . . » (١) . وكان هؤلاء الحكام فاتحة خير على الأندلس يقول ابن حزم : « فسار منهم عبدالرحمن بن معاوية إلى الأندلس وملكها هو وبنوه وقامت بها دولة بني أمية نحو الثلاثمائة سنة فلم يك في دول الإسلام أنبل منها ولا أكثر نصراً على الشرك ولا أجمع لخلال الخير ، وبهدمها انهدمت الأندلس إلى الآن ، وذهب بهاء الدنيا بذهابها » (٢) .

تلك خلاصة يسيرة لتاريخ العرب بالأندلس المرتبط بالفتح الإسلامي جعلناها مقدمةً بين يدي البحث لتكون منطلقاً لتحديد الصلات الثقافية والعلمية بين الأندلس والمشرق ، والتي قويت بفضل هذا الدين ، حيث هاجر الكثير من القبائل العربية إلى الأندلس إبان الفتح الإسلامي واستقرت هناك ، وساعد ذلك على اصطباغ هذا الشعب بالصبغة العربية ، وقد بحث الدكتور مصطفى أبوضيف في كتابه « القبائل العربية في الأندلس » هذه القضية وأكد أن الفتوحات العربية الإسلامية قد « اتسمت بصفة الموجات القبائلية المتعاقبة فما أن تصل موجة منها إلى مداها حتى تتولد من نهايتها موجة جديدة » (٣) .

وقد لقي دخول هذه القبائل العربية إلى الأندلس عناية كبيرة من المؤرخين ، ومنهم على سبيل المثال «محمد بن موسى الرازي» صاحب كتاب (٤) « الرايات »

---

(١) البيان المغرب ٢/ ٣٩ .

(٢) المصدر السابق ٢/ ٣٩ .

(٣) القبائل العربية في الأندلس / الدار البيضاء - ١٩٨٣م ، د. أحمد أبوضيف ص٢٩ .

(٤) هذا الكتاب ليس موجوداً بين أيدينا الآن ولا يعرف عنه إلا مانقله المؤرخون عنه من معلومات تشير إلى وجوده ومن ذلك ماذكره صاحب « الرسالة الشريفية إلى الأقطار ==

تحدث عن القبائل التي دخلت الأندلس مع موسى بن نصير ومن قبل مع طارق ، وكذلك القبائل التي دخلت إبان فتح إفريقية بقيادة عبدالله بن سعد بن أبي سرح في عهد عثمان رضي الله عنه ، وقد « حاول ابن حزم في دقة والتزام عقد صلة بين القبائل العربية النازحة إلى الأندلس والمغرب وبيوتات الحكم والولاية والسلطان منهم وبين أجذامها وأصولها المشرقية التي انحدرت منها ، وانسابت متشعبة في بلادها الجديدة » (١) .

والحقيقة أن المتتبع والمدقق الفاحص لأعداد تلك القبائل التي هاجرت إلى الأندلس واستقرت بها لا يخالجه أدنى شك في عربية الشعب الأندلسي ولو أعدنا النظر في جمهرة أنساب العرب لابن حزم لنقرأ مابين السطور لأذهلنا بالفعل ماذكره من أبناء تلك القبائل العربية التي توغلت في الأندلس وبقي لهم عقب فيها على حد تعبير ابن حزم .

وقد عُني الدكتور مصطفى أبوضيف في كتابه المذكور سابقاً بالتعريف ببعض القبائل العربية التي استوطنت الأندلس وذكر أن مايقرب من عشرين ألف مقاتل دخلوا هذه البلاد وهم من « القبائل العربية التي تقطن حول المدينة مثل بني هاشم وبني عدي ، وبني أسد وبني سهم وبني زهرة وبني عامر ، وبني هذيل ، وبني مهرة ، وبني عنث ، وميدعان من الأزد ، وبني جهينة ، وبني أسلم ، وبني مزينة ، وبني سليم وبني الديل ، وبني مرة ، وبني غفار ، وبني كعب » (٢) .

== الأندلسية » قوله إن محمداً بن مزين وجد في خزانة بأشبيلية سنة ٤٧١هـ أيام الراضي بن المعتمد سفراً صغيراً من تأليف محمد بن موسى الرازي سماه بكتاب الرايات ذكر فيه دخول الأمير موسى بن نصير وكم من راية دخلت الأندلس معه من قريش والعرب . . . الخ » . ينظر : القبائل العربية في الأندلس د. مصطفى أبوضيف .

(١) مقدمة الأستاذ عبدالسلام هارون لجمهرة أنساب العرب لابن حزم .

(٢) القبائل العربية في الأندلس ص ٢٩ .

وكل هؤلاء انتقلوا جنوداً فاتحين ، تبعهم عدد كبير من المهاجرين فطاب لهم البقاء بالأندلس التي ظلت تنعم بحكم الإسلام نحواً من ثمانية قرون وكانت حياتهم حافلة بحلقات العلم والأدب الذي نقلوه معهم من المشرق وظلوا متشبثين به داعين إليه وفاءً لحضارتهم العريقة .

ومن هذه القبائل وغيرها ممن وجد بالأندلس من الأجناس الأخرى غير العربية تشكل الشعب الأندلسي واصطبغ بصبغة واحدة ، وقد تحدث المستشرق «ليفي بروفنسال» عن هذا الشعب فقال : « هذا الشعب الأندلسي بدأ عفوياً يحس بأصالته الذاتية والواقعية في مطامحه السياسية ، وأشد من ذلك وأقوى منه حياته الثقافية ، ومع ذلك لم يلبث المتعلقون بالإسلام وشريعته ومثله الديني الأعلى تعلقاً ودوداً وشديداً أن تميزوا على نحو واضح في أهم مظاهر حياتهم اليومية . . . » (١) وذلك ماجعل «القس البرو» يصرخ صرخته المشهورة يتحسر فيها على إهمال الشبان المسيحيين في إيبيريا للغة آبائهم اللاتينية الدارجة وازدرائهم لما ألف فيها من كتابات مسيحية بينما يقبلون في شغف على تعلم العربية واتخاذها أداةً للتعبير عن أفكارهم ومشاعرهم نثراً وشعراً (٢) . وهذا يؤكد أن جميع الأجناس في الأندلس كادت تنصهر في الحضارة الاسلامية لا يستثنى من هؤلاء اليهود فإن منهم شعراء بالعربية وفلاسفة أشهرهم موسى بن ميمون الذي كتب بالعربية ، ولكن بحروف عبرية ، وكان تلميذاً لابن رشد(*)

مما سبق يتبين للبحث أن الحضارة الإسلامية كانت عاملاً قوياً في دعم المجتمع الأندلسي وإظهاره على مسرح الحياة في هيئة متجانسة ويتبين أيضاً اصطباغ هذا المجتمع بالصبغة العربية نظراً لكثرة تلك الموجات القبائلية المهاجرة إليها ، وكل ذلك يؤكد قوة العلاقة بين الأندلس والمشرق .

---

(١) الحضارة العربية في اسبانيا : ترجمة الطاهر مكي « ١٩ » .

(٢) شوقي ضيف : عصر الدول والأمارات ص ٦ .

(*) من تعليقات المشرف .

المبحث الأول
روافد الثقافة الأندلسية

أقبل أهل الأندلس على تعلم القرأن الكريم وعلومه والسنة النبوية وشروحها ، وحفظ الأشعار العربية وروايتها ، مما جعل الأندلس تزخر بحركة علمية واسعة ، فقل الجهل فيهم وفشا العلم بينهم . يقول «المقرى» عن أهل الأندلس : « وأما حال أهل الأندلس في فنون العلم فتحقيق الإنصاف في شأنهم في هذا الباب أنهم أحرص الناس على التمييز ، فالجاهل الذي لم يوفقه الله للعلم يجهد أن يتميز بصنعة ، ويربأ بنفسه أن يرى فارغاً عالةً على الناس لأن هذا عندهم في نهاية القبح ، والعالم عندهم معظم من الخاصة والعامة يشار إليه ويحال عليه وينبه قدره ، ويعظم عند الناس ويكرم في جوار أو ابتياع حاجة ، وما أشبه ذلك . . . فالعالم عندهم بارع لأنه يطلب ذلك العلمٍ بباعث من نفسه يحمله على أن يترك الشغل الذي يستفيد منه ، وينفق من عنده حتى يعلم » (١) ولذلك أسست بمساجد الأندلس مدارس لطلبة العلم في كل من قرطبة ، واشبيلية ، وغيرهما من مدن الأندلس ، مما ساعد على تقبل روافد الثقافة المشرقية .

وروافد هذه الثقافة تنبع من هذه المقدمة عن تاريخ الأندلس من حيث دخول العرب المسلمين إليها ، وتثبيت أسس قامت عليها حضارة لعرب المسلمين هنالك ، وهذه الأسس هي : الدين الإسلامي ، اللغة العربية ، العلوم والمعارف المنطلقة من هذين المصدرين ، وما روى من أشعار العرب ، ومأثور أقوالهم وحكمهم المنثورة .

---

(١) النفح ١/ ٢٢٠ .

وعلى ضوء هذه الأسس يمكن تحديد روافد الثقافة الأندلسية :

وأول هذه الروافد : الفتح الإسلامي وماتبعه من دخول تلك القبائل التي أشرنا إليها آنفاً والتي انتشرت في المدن الكبرى أمثال قرطبة واشبيلية وإلبيرة وغيرها(١) ، ودخول أولئك النفر القليل من التابعين (٢) الذين ذكرهم عبدالواحد

---

(١) ذكر الدكتور إحسان عباس ثبتاً ببعض القبائل العربية التي استوطنت الأندلس نقلاً عن «جمهرة أنساب العرب» لابن حزم ، وتوزعها في مدن الأندلس على هذا النحو :

١ – بنو صخر من غطفان : بناحية قرمونه .

٢ – بنو مرة : بإلبيرة ، ولهم بإشبيلية بيت واحد وهم بنو عوف بن مرة .

٣ – بنو منذر بن الحارث بن ثقيف : بباجة .

٤ – بنو سلول : جماعة منهم بالوسطة من عمل لبلة .

٥ – بنو نمير : بالبراجة .

٦ – بنو قشير : بجيان ، ومنهم بالبيرة عدد .

٧ – بنو عقيل : بمنتيشه ، وجيَّان ، ووادي آش .

٨ – النمر بن قاسط : بحصن وضاح من عمل ريَّة .

٩ – عك : في الجوف شمالي قرطبة .

١٠ – دوس : بتدمير .

١١ – بجيلة : بجهة أربونة .

١٢ – خثعم : بشذونة ، ومنهم بألبيرة قوم .

١٣ – همدان : بألبيرة .

١٤ – بنو الأشعر : برية .

١٥ – طيء : ببسطة وتاجلة وغليار .

وهناك قبائل أخرى استوطنت مدناً كثيرة بالأندلس . مما يدل على انتشار العنصر العربي هنالك . ينظر الجمهرة ص٤٦٣ ، وتاريخ الأدب الأندلسي لاحسان عباس ١/ ١٥-١٦ .

(٢) ذكر من الداخلين إلى الأندلس من الصحابة صحابي يقال له : المنيذر الإفريقي . ينظر ==

المراكشي في « المعجب » (١) وذكرهم صاحب نفح الطيب أيضاً (٢) .

الرافد الثاني : (استعداد أهل الأندلس لقبول الثقافة الإسلامية) ، وصف ابن غالب في كتاب « فرحة الأنفس » الأندلسيين فقال : « أهل الأندلس عرب في الأنساب والعزة والأنفة وعلو الهمم وفصاحة الألسن ، وطيب النفوس وإباء الضيم وقلة احتمال الذل والسماحة بما في أيديهم ، والنزاهة عن الخضوع ، وإتيان الدنية ، هنديون في إفراط عنايتهم بالعلوم وحبهم ، وضبطهم لها وروايتهم ، بغداديون في نظافتهم وظرفهم ، ورقة أخلاقهم ونباهتهم ، وذكائهم ، وحسن نظرهم وجودة قرائحهم ولطافة أذهانهم ، وحدة أفكارهم ونفوذ خواطرهم. . . »(٣) .

ولذلك اشتهرت بعض الأسر الأندلسية ذات الأصول المشرقية بالأدب والشعر أمثال أسرة آل سعيد التي تعود في أصلها إلى عبدالله بن سعد بن عمار بن ياسر ذكره المقرى في الداخلين إلى الأندلس من المشرق وقال إنه «جد بني سعيد أصحاب القلعة الذين منهم عدة رؤساء وأمراء وكتاب وشعراء ومنهم صاحب

= النفح ٣/ ٥ . وذكر عبدالواحد المراكشي أن من التابعين الذين دخلوا الأندلس للجهاد والرباط : محمد بن أوس بن ثابت الأنصاري ، يروي عن أبي هريرة ، ومنهم حنش بن عبدالله الصنعاني يروي عن علي بن أبي طالب وفضالة بن عبيد ، ومنهم : عبدالرحمن بن عبدالله الغافقي يروي عن عبدالله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما ، ومنهم : يزيد بن قاسط يروي عن عبدالله بن عمرو بن العاص ، ومنهم موسى بن نصير الذي ينسب الفتح إليه يروي عن تميم الداري . أنظر/ المعجب في تلخيص أخبار المغرب/ ت/ محمد سعيد العريان، القاهرة ١٣٨٣هـ، ص٣٧.

(١) المصدر المذكور ص ٣٧.

(٢) المصدر المذكور ١/ ١٣٣ .

(٣) نفح الطيب ٣/ ١٥ .

«المغرب» وغير واحد ممن عرفنا بهم في هذا الكتاب ومن مشاهيرهم أبوبكر محمد بن سعيد بن خلف صاحب أعمال غرناطة في مدة الملثمين » (١) .

الرافد الثالث : (الشعراء الذين برزوا في الأندلس منذ الفتح)

في بداية فتح الأندلس لم يكن ثمة شعراء ولا كتاب من أهلها وأغلب الشعراء من الذين انتقلوا إلى الأندلس في أثناء الفتح وبعده، حيث كان الشعراء يحضون الفرسان بشعرهم على الجهاد ويثيرون الحماسة في صدورهم عند ركوب الأهوال .

وكان بعض الولاة الذين وُلو أمر الأندلس شعراء ، عبروا بأشعارهم عن انتصاراتهم أو البأس الذي تعرضوا له ، ومن هؤلاء الشعراء أبوالخطار الكلبي الذي كان شعره النابض بالحماسة والشجاعة المصور لمواقف الظلم التي تعرض لها وقومه عاملاً مهماً في عوامل توليه الولاية، فقد بعث أبياتاً معدودة إلى الخليفة يبين فيها الظلم الذي تعرضوا له من القيسيين في « مرج راهط » وهذا الشاعر كان فارساً ولذلك لقب بعنترة الأندلس، وكان كثير الفخر في شعره، ولا شك أن شعره قد أثر على نحو لا بأس به في الحياة الأدبية بالأندلس . وقد وجد أيضاً في هذه الفترة شاعر مشهور ينسج على مذهب الأوائل، وهو أبوالأجرب جعونة بن الصمة الكلابي وهو من «واضعي أسس الموروث الشعري في الأندلس»(٢) وقد امتدحه أبو محمد بن حزم في رسالته «فضائل أهل الأندلس» الواردة في نفح الطيب

---

(١) المصدر السابق ٣/ ١٦ .

(٢) تاريخ الأدب الأندلسي ، إحسان عباس ١/ ٤٥ .

بقوله : « ونحن إذا ذكرنا أبا الأجرب جعونة بن الصمة الكلابي لم نباه به إلا جريراً والفرزدق لكونه في عصرهما ، ولو أنصف لاستشهد بشعره فهو جار على مذهب الأوائل لا على مذهب المحدثين » (١) . فهذان الشاعران كانا في عصر الولاة ، وهناك شعراء غيرهما، يقول الدكتور احمد هيكل : « ومن المحقق أنهما لم يكونا وحدهما اللذين عرفا بقول الشعر في تلك الفترة وإنما كان هناك آخرون نسيت أسماؤهم وضاعت أشعارهم ، مع الكثير مما نسي وضاع من تراث الأندلس وخاصة في هذه الحقبة المتقدمة المضطربة من تاريخها » (٢) .

وأما الشعراء من أمراء الدولة الأموية بالأندلس ، فكانوا من أهم روافد الثقافة المشرقية بل من المؤسسين لها ، ولعلي أستأنس بما ذكره الأستاذ مصطفى صادق الرافي - رحمه الله - إذْ يقول : « قال الجاحظ في موضع من كتابه : «البيان» : زعم رجال من مشيختنا أنه لم يقم أحد من بني العباس بالملك - أي إلى زمنه - إلا وهو جامع لأسباب الفروسية ، فلو زعم أحد أنه لم يقم أحد من أمراء الأندلس وخلفائها إلى آخر القرن الخامس إلا وهو جامع لأسباب الأدب لكان حقيقاً في زعمه بالتصديق ، ولولا أدبهم لما نفق الأدب عندهم ولا بلغ مبلغه ذلك، فإن نفاق السوق جلاب » (٣) . وفي سير هؤلاء الأمراء مايؤكد ذلك، وفي مقدمتهم مؤسس دولتهم «عبدالرحمن الداخل» الذي قال عنه المراكشي : « وكان عبدالرحمن بن معاوية من أهل العلم ، وعلى سيرة جميلة من العدل . . وله أدب

---

(١) نفح الطيب ٣/ ١٧٧ .

(٢) احمد هيكل ص ٦٣ . « وقد ذكر شاعر يدعى بكر الكناني من الشعراء الذين كانت لهم شهرة في المشرق ، وممن سأل عنهم أبونواس عباس بن ناصح عندما رحل إلى المشرق». ينظر طبقات النحويين ، للزبيدي ص ٢٦٢ .

(٣) تاريخ آداب اللغة ٣/ ٢٦٩ .

وشعر . . »(١) وأبياته التي يتشوق فيها إلى معاهده بالشام مذكورة مشهورة وذكر له ابن الأبار في «الحلة السيراء» نحو ثلاثين بيتاً ، وذكره غير واحد من مؤرخي الأندلس كالحميدي وابن عبدربه في «عقده »وابن الخطيب في «أعمال الأعلام» من بين الأمراء الشعراء الذين كانوا من واضعي النواة الأولى للشعر العربي في الأندلس .

ومن شعراء بني مروان : الحكم الأول بن هشام بن عبدالرحمن الأول الملقب بالربضي ، وقد وصف بأنه شاعر مطبوع ذكر له شعر في كل من : العقد ، والمغرب لابن سعيد ، والحلة السيراء وغيرها من المصادر .

ومنهم : أبوبكر عبدالله بن عبدالعزيز بن محمد بن عبدالعزيز بن أمية بن الحكم المرواني القرشي الملقب بالحجر ، كان أديباً شاعراً ، أورد له ابن أبي عون في «التشبيهات» شعراً جيداً ، وكذلك الحميدي في «الجذوة» ، والضبي في «البغية» ، وذكر له ابن الأبار في الحلة مايقرب من سبعة وثلاثين بيتاً .

ومن الشعراء المروانيين المطبوعين عبدالرحمن الثاني بن الحكم ، ومحمد بن الأمير المنذر بن محمد بن عبدالرحمن ، وعبدالله بن محمد بن عبدالرحمن وقد ألف كتاب « العليل والقليل » في أشعار العباسيين ، وعبدالعزيز بن عبدالرحمن الناصر ، وأبو عبدالله محمد بن عبدالملك بن الناصر ، وعبدالرحمن الخامس المستظهر بن هشام الذي خلع وقتل بعد سبعة وأربعين يوماً من حكمه وصف بأنه كان على قدر كبير من العلم والأدب ، ومنهم : الرجل الشهير الذي فر من الشام إلى الأندلس بعد أن غلب عليها الداخل ألا وهو عبدالملك بن عمرو(٢) بن مروان بن الحكم الأموي ، وقد أكرمه الداخل ونوه به وولاه إشبيلية لأنه كان قُعْدد بني أمية وكان شجاعاً تولى قيادة جيش لمحاربة أهل غرب الأندلس عندما زحفوا لقتال عبدالرحمن الداخل ومن مأثور قوله لأهل بيته : « طردنا من الشرق إلى أقصى هذا

---

(١) المعجب ص ٤١ .

(٢) ينظر نفح الطيب ٣/ ٥٨ .

الصقع ونحسد على لقمة تبقي الرمق ، اكسروا جفون السيوف فالموت أولى أو الظفر ، ففعلوا وحملوا ، وتقدمهم ، فهزم اليمانية وأهل إشبيلية » (١) . وقد ذكر له المقرى شعراً قاله عندما رأى نخلةً منفردةً بأشبيلية ، فتذكر موطنه الأصلي بالشام وقال :

يا نخلُ أنتِ فريــدةٌ مثلي　　في الأرضِ نائيةً عن الأهلِ

وهي قريبة من قصة عبدالرحمن الداخل أيضاً مع نخلته الشهيرة التي تبدت له من وسط الرصافة .

الرافد الثالث : « الرحلات العلميـة بين الأندلس والمشرق » : وهذه الرحلات على نوعين : رحلات أهل الأندلس إلى المشرق ، ورحلات علماء المشرق إلى الأندلس .

وهذا الرافد من أقوى الروافد تأثيراً على الحياة العلمية والأدبية بالأندلس ، وعن هذين النوعين يحدثنا المقري في « نفحه » ويرصد لنا عدداً كبيراً من العلماء الذين قاموا بتلك الرحلات المتبادلة بين المشرقين .

وأبدأ بالنوع الثاني وهو رحلات علماء المشرق إلى الأندلس لكونه ذا صلة قوية بالرافد الثالث ، وفي هذا النوع نجد المقري يفرد باباً في كتابه « نفح الطيب » بعنوان « الباب السادس في ذكر بعض الوافدين على الأندلس من أهل المشرق » .

يقول في مقدمة هذا الباب : « إعلم أن الداخلين للأندلس من المشرق قوم كثيرون لا تحصر الأعيان منهم ، فضلاً عن غيرهم ، ومنهم من اتخذها وطناً وصيرها سكناً إلى أن وافته منيته ، ومنهم من عاد إلى المشرق بعد أن قضيت أمنيته»(٢) وعدد هؤلاء الوافدين حينذاك يصل إلى ستة وثمانين وافداً ، وهم من

---

(١) نفح الطيب ٣/ ٥٩ .

(٢) نفح الطيب ٣/ ٥ .

العلماء الجلة الذين حملوا معهم علوم المشرق ونشروها بين أوساط المتعلمين بالأندلس ، وسنقصر حديثنا هنا على أولئك الذين لهم مساس باللغة والأدب ، حتى نعرف فيما بعد مدى تأثيرهم .

فمن أوائل من رحل إلى الأندلس من الأدباء - ولعله من المغمورين - عبدالخالق بن إبراهيم الخطيب (١) يكنى «أباالقاسم» ، قال ابن الأبار : لا أعرف موضعه من بلاد المشرق ، وكان أديباً قوى العارضة مطبوع الشعر ، مديد النفس ، ومن شعره من قصيدة صنعها في وقت رحلته إلى الأندلس قوله :

على الذل أو فاحلل عقال الركائب ... وللضيم أو فاحلل صدور الكتائب

فإما حياة بعد إدراك منية ... وإما ممات تحت عز القواضب

فما العيش في ظل الهوان بطيبٍ ... وما الموت في سبل العلاء بعائب

ومن أبرز وأهم الشخصيات الأدبية واللغوية التي وفدت على الأندلس : «أبو علي القالي» حيث « وفد على الأندلس أيام الناصر أمير المؤمنين عبدالرحمن»(٢) وقد كان له أثر بارز في نقل جزء كبير من أدب المشرق إلى الأندلس ، وكان من حسن طالعه أن يكون قدومه الأندلس في فترة كان للعلماء الوافدين من المشرق مكانة لا تعدلها مكانة ولذلك استقبل «أبوعلي» استقبالاً كبيراً من قبل الحكم بن الناصر الذي كان وزيراً لأبيه حيث أمر « عاملهم ابن رماحس أن يجيء مع أبي علي إلى قرطبة، ويتلقاه وفد من وجوه رعيته ينتخبهم من بياض أهل الكورة، تكرمة لأبي علي، ففعل، وسار معه نحو قرطبة في موكب نبيل، فكانوا يتذاكرون الأدب في طريقهم ، ويتناشدون الأشعار»(٣) .

ولقي أبو علي من اهتمام هذا الأمير شيئاً لم يكن يحلم به لو ظل بالمشرق، ولذلك طرز كتابه «الأمالي» باسم «الناصر» .

---

(١) المصدر السابق ١/ ٦٤ .

(٢) المصدر نفسه ٣/ ٧٠ .

(٣) المصدر نفسه ٣/ ٧٠ .

وذكر من الأشعار التي أدخلها أبوعلي : شعر ذي الرمة، وشعر عمرو بن قميئة، وشعر جميل، وشعر أبي النجم العجلي، وشعر معن بن أوس المزني، وشعر النابغة الذبياني، وشعر الشماخ بن ضرار الثعلبي، وشعر الأعشى «ميمون بن قيس»، وشعر عروة بن الورد، وشعر المثقب العبدي، وشعر مالك بن الريب، وشعر النابغة الجعدي، وشعر كبير بن عبدالرحمن الخزاعي، وشعر القطامي عمير ابن شميم. . . ، وغير هؤلاء ممن لانستطيع حصرهم.

ومن الشعراء المحدثين: ذَكَرَ شعر أبي نواس، وشعر أبي تمام «حبيب بن أوس»(١).

---

(١) ارتبط الأندلسيون بتراثهم العربي في المشرق ارتباطاً وثيقاً ذلك لأنهم في الغالب ينتمون إلى أصول عربية ، ولم ينفصل الأندلس عن المشرق في علمه وأدبه وظلت نظرية ابن خلدون ماثلة أمام أدبائهم تلك النظرية التي يقول فيها : « إن أصول علم الأدب وأركانه أربعة دواوين ، وهي أدب الكاتب لابن قتيبة ، وكتاب الكامل للمبرد ، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ ، وكتاب النوادر لأبي علي القالي البغدادي » المقدمة ص ٥٥٣ .

ولذلك لا عجب أن نجد « الحركة الأدبية في الأندلس ، قد صيغت صياغة على شكل الحركة الأدبية في المشرق ، وكتب الأدب تنهج في اسلوبها نهج كتب الأدب في المشرق ، نلمس ذلك في عقد ابن عبدربه وتأثره بكتاب عيون الأخبار لابن قتيبة ، وكتاب الحدائق لابن فرج يصاغ على ضوء كتاب الزهرة لمحمد بن داود الظاهري ، وابن بسام يتأثر في ذخيرته بيتيمة الدهر ، وإن كان للبيئة خاصة سيطرة في منهجها على مؤلفات عدة مشرقية ومغربية .

وليس هذا النهج يخص أدباء الأندلس ومؤلفيهم ، بل إن المشارقة أنفسهم يحتذون بعضهم في ذلك ، فنجد أحيانا كتاباً في التفسير مثلاً ينقل عن سابقه نقلاً حرفياً، ويجعل أبواب رسالته مطابقة تماماً لسابقه ، والأمثلة على ذلك لا حصر لها ، وليس المجال مجال ذكرها .

وفي الحقيقة إن أثر أبي علي يستحق من البحث وقفةً متأنية ذلك أن أباعلي دخل الأندلس حاملاً معه تلك المؤلفات العظيمة ودواوين الشعر الكثيرة، وهو من هو في فضله وعلمه، ذكر ابن خلكان وذكر غير واحد فضل أبي علي على تلك البلاد، وكان قدم إليها في العقد الثالث من القرن الرابع الهجري بدعوة من عبدالرحمن الداخل الذي اشتهر بشدة حرصه على العلم ورفع مكانة العلوم والفنون بالأندلس، وأدخل فيها مفاخر كل جهة وزينة كل بلد، فكان يحترم العلماء ويجلهم ويقدرهم أعظم تقدير، وعندما سمع بشهرة أبي علي في اللغة والأدب كتب إليه ورغبه في الوفود عليه لنشر علمه والاستفادة من معارفه وعلومه، فلبى دعوته(١).

وبدأ أبوعلي هناك يبث علمه ويملي أماليه بين طلاب العلم، وكتابه «الأمالي» قد حوى شيئاً كثيراً من العلم والأدب، يقول عن كتابه هذا: «لما رأيت العلم أنفس بضاعة، أيقنت أن طلبه أفضل تجارة، فاغتربت للرواية، ولزمت العلماء للدراية، ثم أعملت نفسي في جمعه، وشغلت ذهني بحفظه، حتى حويت خطيره، وأحرزت رفيعه ورويت جليله، وعرفت دقيقه، وعقلت شارده، ورويت نادره، وعلمت غامضه، ووعيت واضحهُ... فأمللت هذا الكتاب من حفظي في الأخمسة بقرطبة، وفي المسجد الجامع بالزهراء المباركة، وأودعته فنوناً من الأخبار، وضروباً من الأشعار، وأنواعاً من الأمثال، وغرائب من اللغات، على أني لم أذكر فيه باباً من اللغة إلا أشبعته ولا ضرباً من الشعر إلا اخترته، ولا فناً من الخبر إلا انتخلته، ولا نوعاً من المعاني والمثل إلا استجدته..»(١) ولذلك أحدث هذا الكتاب أثراً كبيراً في علماء الأندلس وأدبائها.

---

(١) ينظر مقدمة الأمالي.

(٢) مقدمة الأمالي، وكذلك الجذوة ص ١٦٤ ترجمة رقم ٣٠٣.

وقد صدرت دراسة وافيه معاصرة لأثر أبي علي في الدراسات اللغوية والأدبية بالأندلس من الباحث عبدالعلي الودغيري في رسالة نال بها درجة الدكتوراة بكلية الآداب والعلوم الإنسانية - بفاس ، وأفصح عن أثر «أبي علي» في علماء ذلك الصقع وبين أن تأثيره اتخذ عدة مسارات ، حيث أثر بواسطة مؤلفاته ، وأثر بواسطة تلاميذه ، وأثر بواسطة الكتب التي أدخلها الأندلس ، وما حوته من أشعار وأخبار(١) .

وندع أبا علي مؤقتاً ، ونستكمل الحديث عن الوافدين من علماء المشرق ، فمنهم : أبو العلاء صاعد بن الحسن بن عيسي البغدادي الموصلي الربعي نسبة إلى ربيعة بن نزار ، حيث ذكر الحميدي أن صاعداً « ورد من المشرق إلى الأندلس أيام هشام بن الحكم المؤيد ، وولاية المنصور بن أبي عامر محمد بن أبي عامر في حدود

---

(١) وذكر ابن خير أيضاً من الكتب المشرقية التي رواها عن شيوخه الشيء الكثير ، فذكر منها مصنفات في اللغة والنحو والأدب فقال : «ومن كتب الأنحاء واللغات والشروحات وأشعار العرب والمحدثين ومايتصل بذلك من نوعه .

ومن كتب الأدب التي رواها وتأثر بها الأندلسيون فيما بعد : كتاب الكامل لأبي العباس المبرد ، وكتاب النوادر لأبي علي ، وما لحقه من الشروح والمآخذ ، وكتاب اللآليء في شرح الأمالي ، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ ، وكتاب أدب الكتاب لابن قتيبة ، وكتاب الأنواء ، وكتاب الأخبار ، والأشعار للزبير بن بكار ، وكتاب المعارف لابن قتيبة ومعاني الشعر ، وكتاب طبقات الشعراء لابن النحاس ، وكتاب زهر الآداب للحصري ، وكتاب النقائض بين جرير والفرزدق لأبي عبيدة ، وكتاب الخمسين مقامة من انشاء الشيخ الامام أبي محمد القاسم بن علي بن محمد الحريري البصري ، وكتاب الحماسة اختيار أبي تمام حبيب بن أوس ، وكتاب الحماسة للنمري ، وكتاب شرح أشعار الستة الجاهليين للأعلم ، وكتاب أشعار هذيل رواية الأصمعي ، وديوان الأشعار المفضليات . بتصرف من فهرسة ابن خير الأشبيلي .

الثمانين وثلاثمائة . . » وقال عنه : « وكان عالماً باللغة والآداب والأخبار سريع الجواب حسن الشعر ، طيب المعاشرة ، فكه المجالس ممتعاً فأكرمه المنصور ، وزاد في الإحسان إليه ، والإفضال عليه . . » (١) وقد جعله منافساً لأبي علي وعرض عليه أن يؤلف كتاباً على غرار الأمالي « فثار كبرياء صاعد وقال للمنصور باستطاعتي أن أملي على كُتَّاب دولتك كتاباً أجل منه وأعظم لا أورد فيه خبراً مما ذكره أبو علي » قال الحميدي يقول أبو حيان : « وجمع أبو العلاء للمنصور محمد بن أبي عامر كتاباً سماه « الفصوص في الآداب والأشعار والأخبار » قال : « وأمره المنصور أن يسمعه الناس بالمسجد الجامع بالزاهرة في عقب سنة خمس وثمانين وثلاثمائة واحتشد له من جماعة أهل الأدب ووجوه الناس أمة » (٢) . وقد أعجب المنصور بصاعد بالرغم من الحسد الذي ناله من ابن العريف وغيره « وظل على حبه إياه وإعجابه به ولابد أن يكون لرجل هذا شأنه ، وهذه ثقافته أثر كبير في ثقافة البلد الذي يعيش فيه ، أجل لقد أثار حركة علمية واسعة النطاق في اللغة والنحو ، والأخبار وغير ذلك ، ووجدت بسببه (*) حركة نقدية كبيرة ، فأثر في الذوق الأدبي بما يروي لكبار شعراء المشرق وما يتباهى به من شعرهم ، وأوجد نهضة أدبية شعرية عظيمة لمنافسة الشعراء في مختلف المجالس في قول الشعر بديهةً وارتجالاً ، وعن روية واستعداد ليس هذا فحسب بل إنه أدخل طريقةً جديدة في تدريس الشعر ، إذْ يقرأ النص الشعري لتلاميذه ، فيكتبونه أولاً ، ويضبطونه بالشكل ثم يشرح لهم معاني الألفاظ العربية لفظاً لفظاً ، فإذا انتهى من ذلك شرح لهم المعنى العام . . »(٣) .

---

(١) الصلة ص ٢٣٧ ترجمة رقم ٥٤١ القسم الأول .

(٢) الصلة القسم الأول ٢٣٨ .

(*) لفظ صاحب المقال : « خلق » ولا أود اثباتها لأن الخلق خاص بالله عز وجل .

(٣) ينظر مقال للدكتور جواد احمد علوش بمجلة كلية الآداب جامعة بغداد ع ٢٠ / ١٩٧٦ بعنوان « صاعد البغدادي » .

ومما سبق يتضح ماكان لصاعد من أثر كبير في الحياة العلمية والأدبية بالأندلس بما أملاه على تلاميذه من أخبار وأشعار أضافت إلى ما اكتسبوه من أمالي أبي علي قبله الشيء الكثير مما كان له دور بارز في تشكل رؤاهم الفنية والذوقية فيما بعد .

وممن كان له أثر كبير من الداخلين إلى الأندلس الأديب البارز والمغني المشهور زرياب ، قال المقري : « ومن الواردين على الأندلس من المشرق رئيس المغنين أبو الحسن على بن نافع الملقب بزرياب مولى أمير المؤمنين المهدي العباسي . قال في « المقتبس » : زرياب لقب غلب عليه ببلاده من أجل سواد لونه، مع فصاحة لسانه ، وحلاوة شمائله ، شبه بطائر أسود غرد عندهم ، وكان شاعراً مطبوعاً » قال : « وكان من خبره في الوصول إلى الأندلس أنه كان تلميذاً لإسحاق الموصلي ببغداد ، فتلقف من أغانيه استراقاً ، وهدي من فهم الصناعة وصدق العقل مع طيب الصوت ، وصورة الطبع إلى مافاق به إسحق ، وإسحق لا يشعر بما فُتح عليه إلى أن جرى للرشيد مع إسحق خبره المشهور في الاقتراح عليه بمغن غريب مجيد للصنعة لم يشتهر مكانه إليه فذكر له تلميذه هذا . »(١) وحظيَ زرياب لدى الرشيد - إن صحت الرواية - بمكانة مرموقة حتى حسده شيخه اسحق الموصلي يقول المقري : « فسقط في يد إسحق ، وهاج به من داء الحسد ماغلب صبره فخلا بزرياب وقال : يا علي ، إن الحسد أقدم الأدواء وأدواها ، والدنيا فتانة، والشركة في الصناعة عداوة ، لا حيلة في حسمها ، وقد مكرت بي فيما انطويت عليه من إجادتك ، وعلو طبقتك ، وقصدت منفعتك ، فإذا قد أتيت نفسي من مأمنها بإدنائك ، وعن قليل تسقط منزلتي ، وترتقي أنت فوقي وهذا ما لاأصاحبك عليه، ولو أنك ولدي ، ولولا رعيي لذمة تربيتك لما قدمت شيئاً على أن أذهب نفسك ،

---

(١) النفح ٣/ ١٢٢ .

يكون في ذلك ماكان فتخير في ثنتين لابد لك منهما : إما أن تذهب عني في الأرض العريضة لا أسمع لك خبراً بعد أن تعطيني الأيمان الموثقة ، وأنهضك لذلك بما أردت من مال وغيره ، وإما أن تقيم على كرهي ورغمي مستهدفاً إلي ، فخذ الآن حذرك مني فلست والله أبقى عليك ، ولا أدع اغتيالك باذلاً في ذلك بدني ومالي فاقض قضاءك . فخرج زرياب لوقته ، وعلم قدرته على ماقال واختار الفرار قدامه ، فاعانه إسحق على ذلك سريعاً ، وراش جناحه فرحل عنه ، ومضى يبغي مغرب الشمس ، واستراح قلب إسحق منه .) (١) واستقر المقام بزرياب في الأندلس التي قدمها في بداية عهد عبدالرحمن الثاني سنة ٢٠٦هـ حيث أحله منه مكانة مرموقة ، ذلك أن زرياباً ليس مجرد مغن فحسب لأن كثيراً من الدارسين اهتموا بهذه القضية ، بينما مكانة زرياب كشاعر هي التي جعلته يحظى بتلك السمعة في المشرق والمغرب ، ولذلك كان له تأثير كبير في الشعر الأندلسي وفي إبتكار فن الموشحات والزجل ، والغناء لا يقوم أصلاً إلا بالشعر وكان زرياب لايتكيء في غنائه على أشعار الآخرين إلا في النادر ، وإنما كان يغني شعره الذي يلهمه وكما تشير الروايات ، من أنه كان يتصل بالجن إذ « كانت تعلمه كل ليلة مابين نوبة إلى صوت واحد ، فكان يهب من نومه سريعاً فيدعو بجاريتيه غزلان وهنيدة فتأخذان عوديهما ويأخذ هو عوده فيطارحهما ليلته ، ثم يكتب الشعر ، ثم يعود عجلاً إلى مضجعه ، وكذلك يُحكى عن إبراهيم الموصلي في لحنه البديع المعروف بالماخوري أن الجن طارحته إياه ، والله تعالى أعلم بحقيقة ذلك » (٢) .

ولا يقف تأثير زرياب في الأندلس عند الشعر والغناء فحسب ، بل كان «عالماً بالنجوم وقسمة الأقاليم السبعة واختلاف طبائعها وأهويتها وتشعب بحارها

---

(١) النفح ٣/ ١٢٣ - ١٢٤ .

(٢) النفح ٣/ ١٢٦ .

وتصنيف بلادها وسكانها ، مع ماشح له من فك كتاب الموسيقى ، مع حفظه لعشرة آلاف مقطوعة من الأغاني بألحانها » (١) .

وأما النوع الأول الذي أرجأت الحديث عنه فهو لايقل أهمية عن النوع الثاني الذي أسلفت الحديث عنه وذلك أن الراحلين من الأندلس إلى المشرق كانوا شديدي الحرص على النفع والإفادة من علوم المشارقة واستجلابها إلى الأندلس ، ولذلك جاء أثر هذه الرحلات قوياً في علوم أهل الأندلس وآدابهم ، وقوياً أيضاً في توثيق عرى تلك الصلات بين البلدين ، ولعلّ البحث يجول جولة متأنية في هذه القضية من خلال مصدر موثوق ترجم لعلماء أندلسيين تكبدوا مشاق السفر إلى المشرق بغية التحصيل وطلب العلم ، وهذا المصدر هو « طبقات النحويين واللغويين » للزبيدي ، فقد ترجم من ضمن ماترجم لعلماء رحلوا إلى المشرق وعادوا مثقلين بروائع الثقافة المشرقية . ومن أوائل هؤلاء « أبو موسى الهواري » وهو « أول من جمع الفقه في الدين ، وعلم العرب بالأندلس ، ورحل في أول خلافة الإمام عبدالرحمن بن معاوية - رضي الله عنه - فلقي مالكاً ونظراءه من الأئمة ، ولقي الأصمعي وأبا زيد الأنصاري ونظراءهما ، وداخل الأعراب في محالها » (٢) .

ومنهم : « الغازي بن قيس الذي كان ملتزماً للتأديب بقرطبة أيام دخول الإمام عبدالرحمن بن معاوية . . . ثم رحل إلى المشرق وشهد تأليف مالك للموطأ وأدرك من رجال اللغة الأصمعي ونظراءه » (٣) .

---

(١) المصدر السابق ص ١٢٧ .
(٢) ص ٢٥٤ .
(٣) ص ٢٥٤ .

ورحل كذلك العالم النحوي جودي بن عثمان إلى المشرق ولقي الكسائي والفراء وغيرهما (١) .

ومن أبرز الراحلين إلى المشرق عباس بن ناصح الجزيري « وكان من أهل العلم والأدب، ومن ذوي الفصاحة في لسانه وشعره، ومذهبه في شعره مذهب العرب الأوائل في أشعارهم »(٢) وهذا يدل على تمرس الأندلسيين بالشعر العربي ومعرفتهم بمذاهبه ، ولعباس بن ناصح ولع بشعر المحدثين وبأبي نواس خاصة على الرغم من قولهم : بأنه على مذاهب العرب ، وتحدث ابنه «عبدالوهاب» عنه فقال : « كان أبي لايقدم من المشرق قادم إلا كشفه عمن نجم في الشعر بعد ابن هرمة حتى قدم رجل من التجار فأعلمه بظهور حسن بن هاني وارتحاله من البصرة إلى بغداد ، والمحل الذي حله من الأمين وبني برمك ، فأتاه من شعره بقصيدتين إحداهما قوله :

جَرَيْتُ مع الصِّبَا طلقَ الجَموحِ

والثانية :

أما تَرى الشّمسَ حَلَّت الحَمَلا

فقال أبي : هذا أشعر الجن والإنس ، والله لا حبسني عنه حابس فتجهز إلى المشرق ، قال فأخبرني ، قال : لما حللت بغداد نزلت منزلة المسافرين ، ثم كشفت عن منازل الحسن ، فأرشدت إليه ، فإذا بقصر على بابه حفدة وخدام ، فدخلت مع الداخلين فوجدت الحسن جالساً في مقعد نبيل ، وحوله أكثر متأدبي بغداد يجري بينهم المثل والتمثل ، والكلام في المعاني فسلمت وجلست حيث انتهى بي المجلس ، وأنا في هيئة السفر فلما كان المجلس ينقضي قال لي : من

---

(١) ص ٢٥٦.

(٢) ص ٢٦٢ .

الرجل ؟ قلت : باغي أدب ، قال : أهلاً وسهلاً ، من أين تكون ؟ من المغرب الأقصى ، وانتسبت إلى قرطبة ، فقال لي : دار القوم ؟ قلت : نعم ، قال لي : أتروي من شعر أبي المخشي شيئاً الذي قال عندكم ؟ قلت له : نعم ، قال : فأنشدني ، فأنشدته شعره في العمى فلما بلغت :

كنتُ أباً للذُرى إلا الدُرا   مافقأتْ عينيَّ إلا الدُّنا

قال : هذا الذي طلبته الشعراء فأضلته ، ثم قال : فأنشدني لأبي الأجرب فأنشدته، ثم قال : أنشدني لبكر الكناني ، فأنشدته ، قال شاعر البلد اليوم : عباس بن ناصح ؟ قلت نعم . فأنشدني له ، فأنشدته :

فأدتُ القَريضَ ومن ذا فَأَدْ

قال لي : أنت عباس ؟ قلت : نعم ، فنهض إلي فتلقيته فاعتنقني إلى نفسه، وانحرف إلى مجلسه ، فقال له من حضر المجلس : من أين عرفته -أصلحك الله- في قسيم بيت ؟ فقال : إني تأملته عند إنشاده لغيره ، فرأيته لايبالي ماحدث في الشعر من استحسان أو استقباح ، فلما أنشدني لنفسه استبنت عليه وجمه ، فقلت: إنه صاحب الشعر ، قال عباس : ثم أتممت الشعر فقال : هذا شعر الغرب، ثم نقلني إلى نفسه ، فكنت في ضيافته عاماً » (١) .

وهذه القصة الطريفة تؤكد حرص الأندلسيين على تتبع أشعار المحدثين تتبعاً تاريخياً واعياً ، ومعروف أن إبراهيم بن هرمة آخر من وقف الاحتجاج والاستشهاد بالشعر عنده ، وماجاء بعده إلا رواد الاتجاه الجديد من المحدثين كـ«أبي نواس و«أستاذه بشار بن برد» ، وكأن هذه القصة تشير من طرف خفي إلى أن الشعر القديم الذي سبق ابن هرمة قد شبع الأندلسيون منه ، وإنما يتطلعون إلى

---

(١) المصدر السابق ص ٢٦٣ .

معرفة الشعر الجديد الذي قيل من قبل معاصريهم من العباسيين ، ولذلك وقع شعر أبي نواس من نفس عباس موقعاً تجاوز الاعجاب إلى الرحيل إليه والبحث عنه ، هذا من جانب ، ومن جانب آخر : حرص البارزين من المشارقة كأبي نواس على متابعة نظرائهم من المجيدين من شعراء الأندلس ، وتقديرهم والاعتراف بإحسانهم في الشعر كما صنع أبو نواس مع عباس بن ناصح . ونذكر في هذا المقام إعجاب المتنبي بابن عبدربه ووصفه بـ«مليح الأندلس» ، وعندما سمع شعره صفق بيده وقال : لقد تأتيك العراق حبواً يابن عبدربه(١) .

وتدلنا أيضاً قصة عباس مع أبي نواس على تميز الشعر الأندلسي بدليل أن أبا نواس عندما سمع شعر عباس قال : هذا شعر الغرب . وتفيدنا هذه القصة أيضاً: فائدةً تتصل بحبهم للشعر المحدث والتعرف عليه في منبعه الأصلي ، ونقله إلى الأندلس ، وذلك بإقامة عباس في ضيافة الحسن بن هانيء عاماً كاملاً اتّسم بالتلمذة عليه والتعرف على مذهبه عن كثب .

وممن تجشم الصعاب ورحل إلى المشرق أيضاً « عثمان بن المثنى » حيث رحل ولقي رائد البديع « حبيب بن أوس فقرأ عليه شعره وأدخله الأندلس ، ولقي جماعة هنالك منهم ابن الاعرابي » (٢) .

ويذكر ابن الأبار أن عثمان بن المثنى « جمعه مركبٌ في بحر القلزم مع حبيب بن أوس أبي تمام الطائي فأنشده شعره الذي يقول فيه :

اللهُ أكبرُ جاءَ أكبرُ مَنْ مشى ... فتعثّرتْ في كُنهِهِ الأَوهامُ

وكان هذا البيت مبتدأ الشعر فقال له ابن المثنى : شعر حسن لولا أنه لا

---

(١) سنتحدث عن ذلك في تأثيرات التمتنبي ، إن شاء الله .

(٢) طبقات النحويين واللغويين ص ٢٦٦ .

ابتداء له ، فوقذت في نفس حبيب وابتدأ الشعر بقوله :

دِمَنٌ أَلَمَّ بها فقال سلامُ كَمْ حلَّ عُقْدَةَ صَبْرِه الإلمامُ

ثم أنشده في اليوم الثاني بهذا الابتداء إلى تمامه ، فقال له ابن المثنى : أنت أشعر الناس ، فعظم في نفس حبيب ، ثم لقيه في إنصرافه وحبيب قد عظم قدره ، وجلّ خطره ، فكان يؤثره ، ويعرف له فضله وكان أول من أدخل شعره ، ويقال إن كثيراً من غزل حبيب له » (١) ويعلق الدكتور محمد بن شريفة على هذه القصة الطريفة فيقول : « وهذا الخبر يصور الصلة بين الرجلين على أنها صلة شاعر بشاعر أو ناقد بشاعر ، وهو خبر له أشباه ونظائر . . . ثم قال : « وتشير هذه الأخبار إلى مواقف بعض الأدباء الأندلسيين تجاه أضرابهم في المشرق وتذكر شيئاً من الحوار الأدبي الذي كان يجري بين الطرفين ولهذا فإننا لا نستبعد ماورد في الخبر المذكور ، ولا نستكثر على ابن المثنى انتقاده أبا تمام ، فقد كان أَسَنَّ من الشاعر الطائي ، ويفهم من الخبر أن ابن المثنى لم يخرج من الأندلس إلا بعد أن تمكن من أدوات الشعر والنقد ، وتزود بحظ جيد من الأدب وتجدر الإشارة إلى أن البيت الذي انتقده ابن المثنى كمطلع انتقده فيما بعد أبو الطاهر السرقسطي وصالح بن شريف الرندي أما الجزء الأخير من الخبر وهو المذكور بصيغة التمريض والمتعلق بنسبة كثير من غزل أبي تمام إلى ابن المثنى ، فقد يكون محل نظر ، ومع ذلك فإن النقاد الأقدمين – ومنهم ابن شرف وابن رشيق – ذكروا أنا أبا تمام كان ضعيفاً في النسيب ولم يكن حسن التغزل (« وإنما يقع له من ذلك التافه اليسير في خلال القصائد»)(٢).

---

(١) التكملة ص ١٠ - ١١ .

(٢) أبوتمام وأبوالطيب في أدب المغاربة والأندلسيين ، دار الغرب الاسلامي ط١/ ١٩٨٦م ص١٢-١٣ .

وكانت الأندلس لا تغيب عن ذهن حبيب ، ففيما يذكر الدكتور «محمد بن شريفه» (١) أن أبا تمام ذكر . . . الأندلس في شعره مرتين : إحداهما في قصيدته التي مدح بها خالد بن يزيد الشيباني ومطلعها :

يا مـوضِعَ الشَّـدَنيَّـةِ الوجْناءِ ومُـصَـارِعَ الإدلاجِ والإسْـرَاءِ

إلى أن قال :

مـاسَـرَّني بِخِـدَاجِـهـا من حُـجَّـة مـابينَ أندلُـسٍ إلى صَنْعَـاءِ (٢)

قال : وذكرها مرة ثانية في قصيدته في مدح المعتصم :

الحقُّ أبلَـجُ والسيـوفُ عـوارٍ فـحَـذارِ من أسـدِ العـرينِ حَـذارِ

إلى أن قال :

فـالصينُ منظومٌ بأندلـسٍ إلى حـيطانِ رُومـيـةٍ فَمُلْكِ ذمـارِ (٣)

وممن رحل كـذلك إلى المشرق محـمـد بن عـبـدالله الغـازي « وجلب الى الأندلس علماً كثيراً من الشعر والعربية ، والأخبار ، وعنه روى المشايخ الأشعار المشروحات كلها » (٤) .

وممن رحل أيضـاً من الأدباء : محـمـد بن عـبـدالسلام الخشني إلى المشرق ولقي المازني ، وأبا حـاتم الرياشي وغيرهما من العـراقيين ، وغير خـاف على دارس ماكان من عباس بن فرناس حينما وجهه عبدالرحمن الأوسط إلى المشرق وسبب ذلك ماحكاه الزبيدي عن « محمد بن عمر بن عبدالعزيز قال : أخبرني ابن لبابة قال : جلب بعض التجار كتاب المثال من العروض للخليل ، فصار إلى الأمير عبدالرحمن ، فأخبرني أبو الفرج الفتى قال : كان ذلك الكتاب يتلاهى به في

---

(١) بتصرف من كتاب «أبوتمام والمتنبي في أدب المغاربة والأندلسيين» / للمولف المذكور .

(٢) ديوان أبي تمام ١/ ١٥-١٦ تحقيق محمد عبده عزام، دار المعارف بمصر ط٣.

(٣) المصدر نفسه ٢/ ٢٠٩ .

(٤) طبقات النحويين واللغويين ص ٢٦٨ .

القصر ، حتى إن بعض الجواري كان يقول لبعض : صيّرَ الله عقلك كعقل الذي ملأ كتابه من « مَمَامِمَّا » فبلغ الخبر ابن فرناس فرفع إلى الأمير يسأله إخراج الكتاب إليه ، ففعل فأدركَ منه علم العروض وقال : هذا كتاب قبله ما يفسره ، فوجه به الأمير إلى المشرق في ذلك فأتى بكتاب الفرش فوصله بثلثمائه دينار وكساه . »(١) .

الرافد الرابع : النهضة العلمية الواسعة في عهد الناصر وابنه الحكم :

اهتم الأندلسيون منذ الفتح الإسلامي بالتعلم والتفقه في الدين ، فافتتحت الكتاتيب كما ذكرنا ذلك سابقاً ، ونريد هنا أن نشير إلى النهضة العلمية التي حصلت في عهد عبدالرحمن الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ) وابنه الحكم (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ) على أن الحركة العلمية قد بدت خطواتها الأولى منذ عهد الأمير «هشام بن عبدالرحمن الداخل» (١٧٢ - ١٨٠ هـ) فكان الدارس في ذلك الوقت بعد أن يتخرج في الكتاتيب « يتحول إلى حلقات الشيوخ في المساجد ليتسع في دروس العربية إن شاء أو ليتزود من هذا العلم أو ذاك من العلوم الدينية » (٢) وقد أشار ابن خلدون إلى اهتمام أهل الأندلس بالأشعار والرسائل الأدبية فقال : « وأما أهل الأندلس فأفادهم التفنن في التعليم وكثرة رواية الشعر والرسائل ، ومدارسة العربية من أول العمر حصول ملكة صاروا بها أعرف الناس في اللسان العربي»(٣) وكان الأمير «هشام» يحفز أهل الأندلس على الرحيل إلى المشرق لأخذ العلم من ينابيعه الأولى ، وقد ذكرنا بعض الراحلين لهذا الخصوص في الرافد الثالث .

وفي عهد الحكم الربضي (١٨٠ - ٢٠٦ هـ) الذي كان كما يقول المقري «يشبه بأبي جعفر المنصور من خلفاء بني العباس في شدة الملك وتوطيد الدولة

---

(١) السابق ص ٢٦٩ .

(٢) عصر الدول والامارات « الأندلس » ، د. شوقي ضيف ص ٦٢ .

(٣) مقدمة ابن خلدون ص ٢ - ١٢ .

وقمع الأعداء » (١) وذكر أنه كان يقرب الفقهاء والعلماء والصالحين » (٢) وقال عنه ابن سعيد « عني أبوه بتعليمه وتخريجه في العلوم الحديثة والقديمة » (٣)، لذلك كان من أسباب النهضة العلمية بالأندلس، حيث « وجه عباس بن ناصح إلى العراق في التماس الكتب القديمة فأتاه بالسند هند » وغيره منها وهو أول من أدخلها الأندلس وعرف أهلها بها ونظر هو فيها » ووصف بأنه من أهل التلاوة للقرأن والاستظهار للحديث ، وأطنب في ذكره في سائر العلوم وأنه كان يداخل كل ذي علم في فنه » ومما قيل عنه : « كان مكرماً لأصناف العلماء محسناً لهم ، وكان يخلو بكبير الفقهاء يحيى بن يحيى الليثي كثيراً ويشاوره»(٤) .

وجاء بعد الحكم ابنه عبدالرحمن المعروف بالأوسط « وكان عالماً بعلوم الشريعة والفلسفة وكانت أيامه أيام هدوء وسكون » (٥) وكان قدوم « زرياب » المغني في أيامه حيث إزدهرت الحركة الشعرية وورثت كثيراً من الشعر العراقي الذي كان يقوم بتلحينه زرياب .

وجاء بعده ابنه محمد بن عبدالرحمن حيث كان « محباً للعلوم مؤثراً لأهل الحديث ، عارفاً حسن السيرة » ومما يذكر له ذلك الموقف الذي حصل لبقي بن مخلد عندما أدخل إلى الأندلس « مصنف ابن أبي شيبة » أنكر عليه جماعة من أهل الرأي ما فيه من الخلاف ، واستشنعوه وبسطوا العامة عليه ، ومنعوه من قراءته ، إلى أن اتصل ذلك بالأمير محمد ، فاستحضروه واستحضر الكتاب كله ، وجعل يتصفحه جزءاً جزءاً إلى أن أتى على آخره - وقد ظنوا أنه يوافقهم في الانكار

---

(١) النفح ١/ ٣٤١ .

(٢) المصدر السابق ١/ ٣٤٢ .

(٣) المغرب ١/ ٤٥ .

(٤) النفح ١/ ٣٣٩ ومابعدها

(٥) المصدر السابق ص ٣٤٧ .

عليه- ثم قال لخازن الكتب هذا كتاب لاتستغني خزانتنا عنه فانظر في نسخه لنا ، ثم قال لبقي بن مخلد ، انشر علمك وارو ماعندك من الحديث واجلس للناس حتى ينتفعوا بك ، ونهاهم أن يتعرضوا له (١) .

فهذه القصة تؤكد حرص الخلفاء بالأندلس على تشجيع العلوم المنقولة من المشرق وتدل أيضاً على اهتمام بالغ منهم بإنشاء خزائن للكتب والحرص على تزويدها بكل تالد وطريف من الثقافة المشرقية وغيرها .

وأما عهد عصر عبدالرحمن الناصر ، فهو العصر الذهبي لهذه الدولة إذ هو أول من لقب «بأمير المؤمنين» في الأندلس ولقب نفسه بالناصر لدين الله قال ابن عذاري : « والناصر هذا هو أول من تسمى منهم بأمير المؤمنين ، وتلقب بأحد الألقاب السلطانية وهو الناصر ، ثم تسمى منهم من كان بعده بامرة المؤمنين وآثر اللقب السلطاني ، وذلك حين هاجت الخلافة العباسية ، وضعفت وظهرت الدولة التركية والديلمية ، فصارت إمرة المؤمنين لائقة بمنصبه وكلمة باقية في عقبه»(٢) حتى أصبح كما يقول ابن الأبار : « أعظم بني أمية سلطاناً وأضخمهم في القديم والحديث شأنا ، وأطولهم في الخلافة ، بل أطول ملوك الإسلام قبله مدةً وزمانا . . . فكانت إمارته وخلافته خمسين سنة وستة أشهر وثلاثة أيام . » (٣) لذلك أصبح لخلافته شأن عظيم في عين الملوك الروم وغيرهم ، قال المراكشي : « وهابته ملوك الروم فأرسلوا الرسل والهدايا يخطبون وده ويطلبون مهادنته ، وكان فيمن قدم عليهم رسل صاحب القسطنطينية وذلك سنة ست وثلاثين وثلاثمائة ، فاحتفل الناصر لقدومهم في يوم مشهود وارتجل بين يديه في ذلك اليوم أبو الحكم منذر بن سعيد البلوطي خطبته التي ملأت الأسماع وبهرت القلوب » (٤) .

---

(١) المعجب ص ٤٩ .

(٢) البيان المغرب ٢/ ١٥٧ .

(٣) الحلة السيراء ١/ ١٧٩ ، ت/ حسين مؤنس .

(٤) المعجب ص ٥٥ .

وخليفةٌ هذه صفته لاشك أن بلداً يحكمه سيكون ذا نهضة علمية فائقة ، يقول الدكتور جودت الركابي : « فقد بلغت الأندلس في زمنه أوج مجدها ، واحتلت مكانة سياسية ، ومدنية عظيمة في نظر المسيحية والعالم الإسلامي نفسه ، ونهضت الآداب والعلوم نهضةً مباركة ونافست قرطبة بغداد في أعظم أيامها » (١) ولذلك أصبحت قرطبة « جديرةً بأن تكون حاضرة الخلافه في الأندلس » - وصفها الحجاري فقال : « وكانت قرطبة في الدولة المروانية قبة الإسلام ومجتمع علماء الأنام الأعلام ، وبها استقر سرير الخلافة المروانية ، وفيها تمخضت خلاصة القبائل المعدية واليمانية ، وإليها كانت الرحلة في رواية الشعر والشعراء ، إذ كانت مركز الكرماء ومعدن العلماء ، ولم تزل تملأ الصدور منها والحقائب ، ويباري فيها أصحاب الكتب أصحاب الكتائب ، ولم تبرح ساحاتها بحر عوالي ، ومجرى سوابق ، ومحط معالي وحمى حقائق وهي من بلاد الأندلس بمنزلة الرأس من الجسد ، والزور من الأسد . . » (٢) .

كل ذلك كان تمهيداً لقيام الحكم المستنصر بعد أبيه الناصر الذي كانت سيرته امتداداً لسيرة أبيه من حيث محبته للعلماء ، والحرص على اقتناء الكتب ، قال المقري : « ولما توفي الناصر لدين الله تولى الخلافة بعده ولي عهده الحكم المستنصر بالله فجرى على رسمه ولم يفقد من ترتيبه إلا شخصه »(٣) ، وقال المراكشي « قال أبو محمد بن حزم : أخبرني تليد الخصي ، وكان على خزانة العلوم والكتب بدار بني مروان - أن عدد الفهارس التي فيها تسمية الكتب أربع وأربعون فهرسة ، وفي كل فهرسة عشرون ورقة ليس فيها إلا ذكر الدواوين لاغير ، وأقام للعلم سوقاً نافقه

---

(١) « في الأدب الأندلسي » جودة الركابي ، دار المعارف بمصر ، ط٢/ ١٩٦٦ ، ص١٩-٢٠ .

(٢) النفح ٣/ ١٥٣ .

(٣) المصدر نفسه ٣/ ٣٨٢ .

جلبت إليها بضائعه من كل قطر . » (١) إذاً هو فعلاً كما وصفه المقري وغيره بأنه : « كان محباً للعلوم ، مكرماً لأهلها ، جماعاً للكتب في أنواعها بما لم يجمعه أحد من الملوك قبله » (٢) .

وقيل عنه إنه : « كان يبعث في الكتب - أي في شرائها - إلى الأقطار رجالاً من التجار ويرسل إليهم الأموال لشرائها حتى جلب منها إلى الأندلس مالم يعهدوه ، وبعث في كتاب « الأغاني » إلى مصنفه أبي الفرج الأصفهاني . . . وأرسل إليه فيه بألف دينار من الذهب العين ، فبعث إليه بنسخة منه قبل أن يخرجه إلى العراق »(٣) واستمر على هذا الحال « يجمع فيه الكتب ما لا يحد ولا يوصف كثرةً ونفاسة حتى قيل إنها كانت أربعمائة ألف مجلد ، وإنهم لما نقلوها أقاموا ستة أشهر في نقلها . . . وكان يستجلب المصنفات من الأقاليم والنواحي باذلاً فيها ماأمكن من الأموال حتى ضاقت عنها خزائنه ، وكان ذا غرام بها ، قد آثر ذلك على لذات الملوك ، فاستوسع علمه ودقّ نظره ، . . . . وقلما يوجد كتاب من خزائنه إلا وله فيه قراءة أو نظر في أي فن كان ، ويكتب فيه نسب المؤلف ومولده ووفاته ، ويأتي من بعد ذلك بغرائب لا تكاد توجد إلا عنده لعنايته بهذا الشأن » (٤) .

ومن إكرامه للعلماء اختصاصه بأبي علي القالي حين قدم من المشرق في عهد أبيه قال المراكشي عن استقبال الحكم لأبي علي : « . . . فتلقاه بالجميل وحظي عنده وقرب منه ، وبالغ في إكرامه ، ويقال : إنه هو كان قد كتب إليه ورغبه في الوفود عليه وذكر أنه طرز كتاب الأغاني باسمه »(٥) . وقد كان لوجود هذا

---

(١) المعجب ص ٥٩ .

(٢) النفح ٣/ ٣٨٥ .

(٣) المصدر نفسه ٣/ ٣٨٦ .

(٤) المصدر نفسه ٣/ ٣٩٥.

(٥) ينظر ص ٧٣ من هذا البحث .

العالم أثر كبير في الثقافة الأندلسية أشرنا إليه في صفحات سابقة عند الحديث عن الوافدين على الأندلس .

تلكم هي أبرز الروافد الثقافية التي ساعدت على دخول كثير من علوم المشرق وآدابها إلى الأندلس ، حتى أصبح جزءاً لايتجزأ من العالم المشرقي في دينه وعلومه ، وآدابه ، وما ذلك إلا لأن الدماء العربية والحماسة الإسلامية تجري في عروق ابناء تلك البلاد النائية اقليماً ، والقريبة ديناً وعرقاً ، والمتصلة ثقافةً وعلماً حتى أصبحت قرطبة بحق « بلد العلم والكتب ، قال ابن سعيد : « وقد جرت مناظرة بين يدى منصور بني عبدالمؤمن ، بين الفقيه العالم أبي الوليد بن رشد ، والرئيس أبي بكر بن زهر ، فقال ابن رشد لابن زهر في كلامه : ما أدري ماتقول ، غير أنه إذا مات عالم بأشبيليه فأريد بيع كتبه حملت إلى قرطبة حتى تباع فيها ، وإذا مات مطرب بقرطبة فأريد بيع تركته حملت إلى إشبيلية » (١) واشتهر أهل قرطبة عامة بذلك حكاماً ومحكومين ، حتى بلغ من اعتنائهم بالكتب أنهم كانوا يتجملون بها كما يتجمل الناس اليوم باقتناء السجاجيد والخزف والطرف الأثرية ، وقد ذكر أن الأمبراطور البيزنطي وجد أن خير هدية يمكن أن يهديها لعبدالرحمن الناصر هي كتاب يوناني أحسن تجليده وزخرفته وتجميله (٢) .

---

(١) النفح ١/ ٤٦٣ .

(٢) بتصرف من كتاب مصادر الأدب ، الطاهر مكي ص ٢٧٥ .

المبحث الثاني

علاقة الأندلسيين بالشعراء العباسيين
واهتمامهم برواية أشعارهم

إن الحديث عن علاقة شعراء الأندلس بالشعراء العباسيين (١) ليس حدثاً جديداً في تاريخ الأدب العربي ، فهذا الأدب سلسلة لاتنقطع ، تمتد جذوره منذ العصر الجاهلي حتى يومنا هذا ، وقد قامت كتب النقد لتبين للأجيال صلة الشعراء ببعضهم منذ ذلك العصر ومنذ أول كلمة شعرية طرحت على الساحة النقدية لتميز الشاعر الفحل من غيره ، بغض النظر عن نوع تلك الأحكام النقدية ، من حيث وقوفها على النص شكلاً ومضموناً .

والشعر العربي في الأندلس هو شعر عربي قيل وكتب بلغة عربية ، فهو جزء لايتجزأ من أدبنا العربي وإن بعدت به الشقة ، وقد عرضت لهذه القضية في رسالتي للماجستير(٢) ، وبينت تعسف الدارسين المتقدمين منهم والمتأخرين .

ولذلك فالحديث عن صلة الشعر العربي في الأندلس بنظيره العباسي يعد من بدهيات النقد ، ذلك أن الشعرين متعاصران ، ولن تخفى على الأندلسيين تلك المعركة النقدية التي شهدها القرن الرابع والتي صبت جام غضبها على الشعراء المحدثين العباسيين ، وقد وصلت أصداء هذه المعركة إلى الأندلس ، والشعر الأندلسي حينئذ في بداية تكونه ، حيث يؤكد الدكتور إحسان عباس أن الشعر

---

(١) في البداية ارتبط تاريخ العرب في الأندلس بالدولة العباسية ، ولم تنفصل عنها إلا عندما ضعف الحكم العباسي في المشرق ، وأصبحت خلافة مستقلة في عهد عبدالرحمن الناصر . ينظر البيان المغرب ٢/ ١٥٦ .

(٢) ينظر « تجديدات الأندلسيين في النثر العربي » ص ١٣ .

الأندلسي : لم يبدأ بالظهور إلا في حدود سنة ٢٠٠ هـ ، وهذه حقيقة مهمة في نشأة ذلك الشعر وفي النماذج التي احتذاها والمجالات التي كان يرودها ، فهو من الناحية الزمنية أخذ يتكون حين كان الشعر المشرقي يشهد تجديد بشار وأبي نواس ، ويقف على مفترق الطريق بين مذهبي أبي تمام والبحتري ، ولما كان الأندلسيون حينئذ يلتفتون في كل شيء إلى المشرق فقد اتخذوا شعر المحدثين مثالاً يقلدونه ومناراً يهتدون به ، أي أن الشعر المحدث لاشعر العرب الأوائل هو الأنموذج الأعلى الذي استوحوه في أشعارهم ، وليس معنى هذا أنهم لم يعرفوا شعر العرب الأوائل ، ولكن نماذج الشعر المحدث نالت القسط الأكبر من إعجابهم ، وكانوا على وعي مستمر بأن الشعر العربي الذي وصلهم من المشرق يمثل مذهبين : المذهب القديم ، والمذهب المحدث (١) وظلت صلة شعراء الأندلس بالشعراء العباسيين وثيقة روابطها بسبب تلك الصلات الثقافية التي بسطنا القول فيها في الفصل السابق كالرحلات المتبادلة بين الشعراء ، واتصال بعضهم ببعض ، وهذا يؤكد عربية أدباء الأندلس منذ هجرة هذا الأدب إلى تلك الأصقاع ، إلا أنهم لم ينفصلوا عن تراثهم العتيق في المشرق ، وفي ذلك يقول الأستاذ عباس محمود العقاد : « فالجاليات تنطلق من قيود العادات والتقاليد التي فارقتها ولا تلبث أنها تغيرت باختيارها ، وعلى الرغم منها ، وأنها تستريح إلى هذا التغيير أحياناً ، وتتبرم به أحياناً أخرى ، ولكنها لاتنسى أصولها ، ولاتزال تناظرها من بعيد مناظرة الند للند ، والشريك للشريك ، وتود لو أنها سبقتها في صيانة النسب ، وزادت عليه بالنسب المكتسب ، فلا يقال عنها إنها فرع منقطع عن أرومتها بل يقال عنها : إنها جذور الشجرة نبتت في التربة الجديدة فجادت بالثمره التي لا تجود بها في تربتها » (٢) ، ويؤيد هذا ماذهب إليه الدكتور بدوي طبانه عندما يقول : « إن

---

(١) تاريخ الأدب الأندلسي « عصر سيادة قرطبة » ١/ ٤٧ - ٤٨ .

(٢) شاعر أندلسي وجائزة عالمية ، عباس العقاد ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٦٠م ، ص ٨٦ .

الإنسانية مهما تتجدد حياتها ، وأساليب تفكيرها لم تستطع أن تتخلص من الماضي ولا أن تغمض عينيها عن القديم من السنن والتقاليد التي تشدها إليها ، وتجعلها تديم التلفت إلى الوراء ، والاهتمام بالروائع التي خلدها الإنسان في شتى مراحل رحلته الطويلة على وجه الأرض لتفيد من المثل الصالحة في الفكر ، وفي الفن التي خلفتها الأجيال المتعاقبة وتوائم بينها وبين ماينفعها في حياتها المتجددة . »(١) .

والشواهد السابقة تؤكد بالفعل واقع الحياة الأدبية في الأندلس ومدى حرصهم على الارتباط بالمشرق العربي ولاسيما تلك النهضة الأدبية الشاملة التي شهدها العصر العباسي الذي هو زبدة الحقب بالنسبة للعصور الأدبية ، ولذلك تجد أهل الأندلس يحرصون دائماً على تتبع آثار الشعراء المحدثين ونقل أشعارهم وروايتها بالأندلس لتشيع بين المتلقين .

وتتلخص مظاهر هذا الاهتمام في النقاط التالية :

أولاً: حرص الأندلسيين على تغذية آدابهم بما يصل إليهم من أدب المشرق عامة ، والعباسي بصفة خاصة حتى أحدث ذلك ضجة في الأوساط العلمية جعلت بعض الأدباء والنقاد كابن بسام ينفرون منه ويتبرمون بكل ماورد من المشرق، وإن كان ذلك متأخراً ، فيقول ابن بسام : « . . . إلا أن أهل هذا الأفق أبوا إلا متابعة أهل المشرق يرجعون إلى أخبارهم المعتادةرجوع أهل الحديث إلى قتادة حتى لو نعق بتلك الآفاق غراب أو طنّ بأقصى الشام والعراق ذباب لجثوا على هذا صنما ، وتلوا ذلك كتاباً محكماً . »(٢) .

ويؤكد ذلك الأستاذ مصطفى صادق الرافعي رحمه الله بقوله : « إن الأدب الأندلسي لا يبزه في التاريخ إلا الأدب العراقي ، ولقد يكون في الأندلس ماليس في العراق من بعض فروع الحضارة والصناعة » (٣) .

---

(١) السرقات الشعرية ، بدوي طبانه ، دار الثقافة ، بيروت ، ط٣ ، ص ٣١ .
(٢) الذخيرة ق ١ / ١٢ ، ت إحسان عباس .
(٣) تاريخ آداب العرب ١/ ٣٥٤ .

وفي المصادر الأندلسية بصفة عامة مالا حصر له من الأدلة على اهتمام أهل الأندلس بآداب المشرق ولاسيما العصر العباسي ، يروى لنا الزبيدي(١) في طبقاته أن الشاعر عباس بن ناصح الجزيري كان حريصاً على تتبع الحركة الأدبية في المشرق، وكان يسأل دائماً عمن نجم هنالك بعد الشاعر إبراهيم بن هرمة ، ومعروف أن بداية شعر المحدثين تبدأ بعد هذا الشاعر الذي وقف الاحتجاج بالشعر عنده في منتصف القرن الثاني الهجري ، وقد جاء بعده بشار أبو المحدثين الذي تسلم الريادة بعده أبو نواس ، وهو الشاعر الذي أثار حماسة عباس عندما كان يسأل القادمين من المشرق فذكر له أبو نواس ونماذج من شعره ، فلم يتردد في الهجرة إليه للتلمذة عليه ونقل مذهبه وشعره إلى الأندلس ، وبالفعل حصل له ذلك ، وانتقل شعر أبي نواس إلى الأندلس وشاع بين طلبة العلم « ومالبث هؤلاء أن تمثلوه وانتجوا مايشبهه بل ما يفوقه في بعض الأحايين ، وبهذا ظهرت تلك الأشعار المحدثة التي أخذت اتجاها جديداً بجانب الاتجاه القديم . »(٢) . هذا ويحدد كثير من الدارسين فترة انتقال هذا المذهب بفترة الأمير عبدالرحمن الأوسط الذي تولى الحكم من سنة ٣٠٠ هـ إلى سنة ٣٥٠ هـ ، وهو العصر الذهبي لدولة بني أمية في الأندلس من حيث السياسة والنهضة الأدبية ، بله في شتى المجالات حتى نافست قرطبة بغداد .

وقد ظل الأندلسيون يتابعون ما استجد من العلوم ومن نبغ من الشعراء في المشرق العباسي حتى وصل بهم الأمر إلى رواية أشعارهم وتدريسها في حلقات الدرس بالأندلس ، وهذا هو المظهر الثاني من مظاهر هذا الاهتمام .

---

(١) أورد الزبيدي هذه القصة في ترجمة عباس وقد أوردتها عندما تحدثت عن الصلات الثقافية والرحلات العلمية بين المشرقين .

(٢) الأدب الأندلسي ، أحمد هيكل ، ص ١٢٨ .

ثانياً : الحرص على رواية أشعار المحدثين ، واقتناء دواوينهم ، وهذه القضية من الأهمية بمكان فهي تدخل الشعر الأندلسي في خضم الشعر العباسي من أوسع أبوابه وتبين قوة سريان هذا التيار ، وشدة تمسكهم به .

فهناك أولاً المصنفات الكبيرة التي تحوي في مجملها شيئاً كثيراً عن أخبار هؤلاء المحدثين وأشعارهم ، وفي ذلك يؤكد المقري : أن أمهات كتب الأدب التي تؤلف بالعراق كانت تروى في الأندلس بالسند إلى مؤلفيها على تفاوت بين الأسانيد قوة وضعفاً ، ومن ذلك قول الأمير الحكم المستنصر : لم يصح كتاب الكامل عندنا من رواية إلا من قبل ابن أبي قلاعة ، وكان ابن جابر الاشبيلي قد رواه قبل بمصر ، وماعلمت أحداً رواه غيرهما ، وكان ابن الأحمر القرشي يذكر أنه رواه ، وكان صدوقاً ، ولكن كتابه ضاع ولو حضر ضاهى الرجلين المتقدمين(١) .

ومن أبرز كتب الأدب التي توسعت في الترجمة للشعراء المحدثين وغيرهم والتي وصلت الأندلس فيما يقال قبل ظهورها في المشرق : كتاب «الأغاني» لأبي الفرج الأصبهاني وقد أشرنا إلى ذلك في الصفحات السابقة .

وغير خاف علينا شهرة كتاب اليتيمة الذي كان له أكبر الأثر في انتشار شعر المحدثين بالأندلس ّلاسيما وأنه قد اشتمل على تراجم لشعراء أندلسيين مشاهير ، وقد أثر هذا الكتاب بذاته في مناهج التأليف بالأندلس ؛ فصاحب الذخيره يصرح بأنه حذا فيه حذو أبي منصور في اليتيمة ، وتأثر به كذلك ابن سعيد في المغرب ، وألف أمية بن أبي الصلت كتاب الحديقة على غراره(٢) .

---

(١) النفح ٣/ ٤٧٨ .

(٢) ينظر ماكتبه/ محمد أشهبار بعنوان « كتاب يتيمة الدهر ، وأثره في منهج التأليف الأدبي» بمجلة كلية الآداب بفاس - جامعة محمد بن عبدالله ، عدد ٧ / ١٩٨٣-١٩٨٤ .

وبالرجوع إلى كتب الفهرسات كفهرسة ابن خير وكتب برامج العلماء كبرنامج ابن أبي الربيع وبرنامج الرعيني يتبين لنا ذلك الكم الهائل من الكتب والدواوين الشعرية التي نقلت إلى الأندلس ، إضافة إلى ماجلبه أبو علي البغدادي عندما رحل إلى الأندلس واستوطن بها كما أشرنا إلى ذلك .

فمما ذكره ابن خير الاشبيلي في فهرسته من كتب الأدب والبلاغة مالا يمكن حصره في هذه المقدمة ، وإنما نرصد من ذلك مانعتقد أنه يمس شعر المحدثين نقلاً أو نقداً .

فمن تلك المصنفات : كتاب البيان والتبيين لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، قال ابن خير : « حدثني به شيخنا أبو عبدالله جعفر بن محمد بن مكي رحمه الله عن أبي مروان عن عبدالملك بن سراج قراءةً عليه عن الوزير أبي القاسم الإفليلي ، ولم تكن له فيه رواية ، وحدثني به أيضاً ذو الوزارتين الكاتب أبوعبدالله بن أبي الخصال الغافقي رحمه الله سماعاً عليه . . . » (١) وذكر ابن حيان في المقتبس مايتعلق بهذا الكتاب قوله : « ان فرج بن سلام من أكابر الأدباء والعلماء بقرطبة . . . كان ذا عناية شديدة بعلم اللغة ورواية الشعر وحفظ الأخبار والأنساب ، وكان على ذلك يتطبب ويشارك في الحكمة ، وله حظ جزيل من البلاغة ، ورحل إلى المشرق فأوغل فيه ، ودخل العراق أجمع مكان للعلم والأدب فلقي عمرو بن بحر الجاحظ ، وأخذ كتاب البيان والتبيين تأليفه فأدخله إلى الأندلس رواية عنه ، وخف على قلب الجاحظ فاستكثر منه وكتب كثيراً من مصنفاته ورسائله ، فكان أول من أدخلها إلى الأندلس » (٢) .

---

(١) الفهرسة ص ٣٣٢ .

(٢) المقتبس ، ص ٦٤ .

ومن الكتب التي أوردها ابن خير : كتاب أدب الكتاب(*) لأبي محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري رحمه الله ، قال : حدثني به الأستاذ أبوالقاسم عبدالرحمن بن محمد بن عبدالرحمن بن الرماك النحوي رحمه الله قراءةً مني عليه . »(١) .

وكذلك كتاب اليتيمة ، وقد سبق الحديث عنه ، يقول ابن خير : « كتاب اليتيمة لأبي منصور الثعالبي حدثني به الحافظ أبو الطاهر السلفي »(٢) . وكتاب طبقات الشعراء لابن قتيبة . وكتاب عيون الأخبار ، وكتاب معاني الشعر ، وكتاب زهر الآداب لأبي اسحق الحصري .

ومن كتب الشعر : كتاب الحماسة ، اختيار أبي تمام حبيب بن أوس الطائي، وتفسير أبي الفتوح : ثابت بن محمد الجرجاني ، وكذلك شرح معاني أبيات الحماسة للنمري ، وكتاب شرح أشعار الحماسة لأبي بكر عاصم بن أيوب البلوي النحوي .

وأتبع ذلك بما جاء به أبو علي من كتب الشعر ودواوين الشعراء عندما وصل الأندلس ، ومنها : شعر أبي نواس وجزء من شعر أبي تمام ، و«الشعران» أي شعر أبي تمام وطرق روايته وشعر أبي الطيب وطرق روايته(٣) .

ومن الكتب أيضاً التي تتعلق بالمحدثين : كتاب الآداب لابن المعتز(٤) .

ومن الأشعار : شعر الصنوبري متصل الرواية به (٥) .

(*) المعروف أنه أدب الكاتب لابن قتيبة .

(١) الفهرسة ، ص ٣٣٣ .

(٢) نفسه ، ص ٣٧٠ .

(٣) نفسه ، ص ٤٠٢ – ٤٠٣ .

(٤) نفسه ، ص ٤٠٥ .

(٥) نفسه ، ص ٤٠٨ .

وكذلك : كتاب سقط الزند لأبي العلاء ، وبعض شروحه ، وكتاب ترسيل أبي العلاء وسائر شعره في لزوم مالايلزم وغيره وجميع تواليفه(١) .

فهؤلاء أغلب الشعراء المحدثين بل مشاهيرهم وصلت أشعارهم الأندلس، واشتهرت ، كما اشتهر قبل ذلك شعر أستاذ المحدثين بشار عندما قام التجيبي بشرح « كتاب : المختار من شعر بشار » .

وممن كان له اهتمام بأشعار المحدثين وساعد في نقلها إلى الأندلس : الرحالة البغدادي أبو اليسر ابراهيم بن احمد الرياضي « الذي جاب بلاد الإسلام شرقاً وغرباً ، وأدخل إلى أفريقيه والأندلس أشعار المحدثين وأخبارهم ، ومنها شعر أبي تمام » (٢) ، وقد لقي شعر أبي تمام عناية خاصة من أهل الأندلس ، فتعددت طرق رواياته ، وكثرت شروحه ، وقريء في حلقات الدرس المتعددة ببلاد الأندلس .

ذكر ابن الفرضي أن : « عثمان بن المثنى النحوي قد قرأ على حبيب شعره وأدخله الأندلس رواية عنه . » (٣) .

ولم يقف الاهتمام بشعر أبي تمام عند هذا الحد ، فقد ذكر ابن سعيد في المغرب أن شاعر قرطبة الفحل : مؤمن بن سعيد رحل إلى المشرق فلقي أبا تمام الطائي وروى عنه شعره ، وكان يقرأ عليه بالأندلس وقرأ عليه يوماً أحد المتعلمين قول حبيب :

أرض خلعت اللهو خلعي خاتمي ... فيها وطلقت الســـــرور ثلاثا

---

(١) ص ٤١١ - ٤١٢ .

(٢) أبو تمام وأبو الطيب في أدب المغاربة ص ١٠ .

(٣) تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي ، ص ٣٠٢ .

فقال له : من سرور هذه أصلحك الله ؟ ، فقال : هي امرأة حبيب وقد رأيتها ببغداد » (١) .

وهكذا عُني أهل الأندلس بشعر المحدثين وقد عرفنا اهتمامهم بشعر بشار وشعر الحسن بن هاني والصنوبري شاعر الطبيعة والمعري وغيرهم من الشعراء المحدثين الذين سيكون لهم أبلغ الأثر على شعراء الأندلس .

ثالثاً : ومن مظاهر اهتمام الأندلسيين بشعر المحدثين العباسيين : محاولة الجمع لأشعارهم وإعداد الشروح عليها ، ونذكر على سبيل المثال : ماقام به عبدالرحمن الناصر عندما أحضر عدداً من الأدباء وأمرهم بعمل نسخة من شعر أبي تمام حيث « أحضر محمد بن أرقم الذي كان مؤدباً لأمير المؤمنين نفسه «وأحضر معه جماعةً من الأدباء ، منهم : موسى بن محمد الحاجب ومحمد بن يحى القلفاط وابن فرج المعروف بالبلساري وكان ابن فرج من أهل العلم بالعربية ، وكان لايناظر الحكيم والقلفاط من أهل الزمان غيره ، فشاورهم أي القصائد يقدم في صدر الكتاب فقال ابن أرقم : إنما يفضل الشعر ويقدم لغرابته ، وحسن معناه ، وشعره الذي فيه وصف القلم لم يتقدمه عليه متقدم ، ولا لحقه فيه متأخر ، فدفعوا جميعاً عليه ، وقالوا الوضيع يتعصب للوضيع - يعنون ابن الزيات - فأخجلوه فبينما هم كذلك إذ استؤذن لأبي عبدالله الغابي ، فأذن له ، فلما استوى في المقعد سئل عما جرى من القول ، فقال : أخبرني أبوالحسين المغني أن أهل بغداد لايفضلون على شعره اللامي الذي ذكر فيه القلم شيئاً لغرابة معناه - والغابي يعلم شيئاً من اختلافهم في ذلك ، وإنما سئل عما يجب تقديمه - فاستطال ابن أرقم على أصحابه ، فقال مثلي مع هؤلاء ماقاله حبيب :

كلابٌ أغارت في فريسةِ ضيغَمٍ طروقاً وهامٌ أَطْعمتْ صيدَ أجدَلا

وإنما يغمني أن أكون في بلد يتحكم علي فيه من لايعرف ما أقول . »(٢) .

---

(١) المغرب ١/ ١٣٢ .

(٢) طبقات الزبيدي ، ص ٢٨٢ - ٢٨٤ .

هذا وقد حظي شعر أبي تمام بغير قليل من الشروح من قبل علماء الأندلس «ولعلّ أقدم هذه الشروح هو شرح أبي العباس ، وليد الطبيخي المتوفى سنة (٣٥٢) الذي وصل إلينا شرحه لشعر مسلم بن الوليد إلا أن شرحه لشعر أبي تمام قد ضاع مع الأسف كما يقول الدكتور محمد بن شريفة وهو شرح «أخذه عنه الناس»(١) .

ويخطر بالبال في هذا المجال العالم الكبير أبوالحجاج يوسف بن سليمان الشهير بالأعلم الشنتمري شارح أشعار الشعراء الستة الجاهليين فقد ذكر صاحب إنباه الرواة أنه : « كان حافظاً للأشعار قائماً عليها عظيم السلطان على شعر حبيب الطائي وأبي الطيب المتنبي كثير العناية بهما خاصة » (٢) . وقد أحدث اهتمام بعض علماء الأندلس بشعر هذين الشاعرين ردود فعل قوية في نفوس بعض أدبائهم .

يروي ابن سعيد أن أبا جعفر احمد بن طلحة عز عليه هذا الاهتمام بهما وإهمال شعراء الأندلس ، وقال في محفل : « تقيمون القيامة بحبيب والمتنبي وفي عصركم من يهتدي إلى ما لم يهتدوا إليه » (٣) .

رابعاً : ومن مظاهر اهتمامهم بالمحدثين تسمية النابهين من شعرائهم بأسماء الشعراء المحدثين على سبيل المقارنه وإظهار مكانتهم ، وفي ذلك يقول ابن حزم بلغة التحدي : « ونحن إذا ذكرنا أبا الأجرب جعونة بن الصمة الكلابي في الشعر لم نباه به إلا جريراً والفرزدق لكونه في عصرهما ، ولو أنصف لاستشهد بشعره فهو جارٍ على مذهب الأوائل لا على طريقة المحدثين . » (٤) .

---

(١) أبو تمام وأبوالطيب في أدب المغاربة ص ١٤ .

(٢) إنباه الرواه ٤/ ٦٥ – ٦٦ .

(٣) إختصار القدح المعلى ، ص ١١٤ .

(٤) نفح الطيب ٣/ ١٥٦ ومابعدها.

ثم قال في موطن آخر « ولو لم يكن لنا من فحول الشعراء إلا أحمد بن دراج القسطلي لما تأخر عن شأو بشار وحبيب والمتنبي » (١) . فقرنه بثلاثة شعراء في مقدمتهم رائد المحدثين بشار بن برد . وهذا يؤكد وعي الأندلسيين بمذاهب الشعر في المشرق .

ونظراً لشهرة هؤلاء المحدثين ، وتمكنهم من مذاهبهم التي أحدثوها في المشرق فهيمنت مكانتهم على نفوس الأندلسيين حتى سموا شعراءهم بأسمائهم إثباتاً لمكانتهم ، فكانوا يقولون في الرصافي البلنسي : إنه ابن رومي الأندلس ، ومروان بن عبدالرحمن : ابن معتز الأندلس ، وابن زيدون : بحتري الأندلس وابن دراج متنبي الأندلس . وكانوا يقولون في ابن دراج وابن هاني : إنهما نظيران لحبيب والمتنبي وكثيراً ماتجد علماءهم كابن سعيد يوازن بين شاعر أندلسي وآخر عباسي ، فقد وازن بين عبدالله بن محمد بن غالب الاستجي وأبي عبادة البحتري»(٢) وكانوا يتعصبون لهؤلاء الشعراء . ذكر الزبيدي أن أبا حفص عمر بن يوسف الخيطي (ت ٣٣٨) أحد أهل العلم بمعاني الشعر كان يتعصب للبحتري » . قال الدكتور إحسان عباس معقباً على ذلك « فأما أن العصبية لهذا أو ذاك من شعراء المشرق موجودة فأمر واضح من أخبار عن إعجاب هذا بأبي تمام واعجاب ذاك بأبي نواس ، وعن احتذاء بعض الشعراء الأندلسيين لطريقة مشرقية دون أخرى »(٣) .

خامساً : المحاكاة التي كان يعمد إليها أهل الأندلس للشعراء المشارقة ، وبالذات محاكاة المحدثين ، وهم بهذا لايجدون غضاضة في أنفسهم من هذه المحاكاة لأنهم إنما أرادوا إثبات براعتهم وأنهم يقفون صفاً إلى جانب الشعراء المحدثين، فتجد أحياناً التطابق التام بين شاعرين كالغزال وأبي نواس، وكان الشاعر

---

(١) المصدر السابق ٣/ ١٥٦ ومابعدها .

(٢) اختصار القدح المعلى ، ص ١٢٨ .

(٣) إحسان عباس ، عصر سيادة قرطبة ص ٤٧ - ٤٨ .

الأندلسي يفخر عندما يقارن شعره بشاعر عباسي ، وفي الوقت نفسه يظهرون مكانة شعرائهم وأنهم أصبحوا في مصاف الشعراء الكبار من المحدثين وغيرهم ومن ذلك قولهم عن الشاعر أبي عمر يوسف بن هارون الرمادي معاصر المتنبي : «فتح الشعر بكندة وختم بكندة» يعنون امرأ القيس والمتنبي ويوسف بن هرون .

ولا يقف إعجابهم أو فخرهم في كلا الحالين عند هذا الحد ، بل تجد الشاعر الفحل منهم يجاذب الفحول من المشارقة ويخص المحدثين منهم بوقفة خاصة يستعرض فيها قدرته أمام أشعارهم ، فهذا ابن شهيد الأندلسي صاحب الرسالة الخيالية العظيمة ، يعارض جملة من الشعراء ليس فيهم من الجاهليين إلا شاعرين فقط ، وبقيتهم من زعماء الاتجاه المحدث في العصر العباسي ، وسنقف عند هذه المعارضة بإذن الله . عند الاستشهاد في الأغراض الشعرية .

الفصل الثاني

مظاهر التأثر في غرض المديح

المبحث الأول

قصيدة المدح منذ العصر الجاهلي حتى نهاية العصر العباسي

يجدر بنا ونحن نتحدث عن شعر المديح في الأندلس ومدى تأثره بشعر المديح في الشعر العباسي ، أن نستعرض في إلماعة سريعة الأطوار التي مر بها هذا الغرض ، حتى يتبين لنا مكانة الشعراء المجددين بالنسبة لهذا الغرض ، الذي كثر الحديث حوله متردداً بين رفضه وقبوله غرضاً مستقلاً .

وغرض « المديح » من الأغراض الأساسية في الشعر العربي ، وملتصق به إلتصاقاً يفوق الخيال ، وذلك لأنه يعانق الفطرة العربية ، ويجاذب الطبائع البدوية ، ويبرز الأمجاد القبلية حينما يتداخل مع « الفخر » ، ومعروف أن القبائل العربية كانت تفرح أشد الفرح إذا نبغ فيها شاعر ، وتحتفل به ، وتشد من أزره ليصبح اللسان الناطق بمآثرها ، والمفاخر بأنسابها ، والمادح لحلفائها ووجهائها .

وكان المدح في بدايته المبكرة لايعدو الثناء الحسن والاعتراف بالجميل وذلك عندما تفد قبيلة على أخرى طالبةً جوارها ، فتحسن تلك القبيلة وفادتها وحمايتها ومنعها من أعدائها ، وهنا يبرز شاعرها مشيداً بحسن هذا الجوار ، وكرم هذه الوفادة ، ومسدياً كلمة الشكر لها .

وإذا كان الشاعر العربي في الجاهلية هذا شأنه فهو نبيل المقصد معترف لأهل الفضل والمنة بحقوقهم ، وليس وراء هذا المدح من مأرب ينتظر مما عرف عن شعراء المديح فيما بعد ، والمديح على هذا النحو يتداخل كثيراً مع الفخر ، ومن ذلك معلقة عمرو بن كلثوم المشهورة ، وقصائد امرىء القيس التي مدح بها القبائل

التي حلّ بها ضيفاً في رحلاته ومستنجداً بها بعد مقتل أبيه ، ومن مدائحه تلك : «قصيدته في مدح المعلى بن تميم بن ثعلبة الطائي» ، عندما أجاره من المنذر بن ماء السماء وفيها يقول : (١)

كـأنِّي إذْ نزلـتُ علـى المُعَلَّـى ... نزلتُ على البَواذِخِ من شَمَامِ
فـمـا مَلِكُ العـراقِ على المعلّى ... بِمُقْتَـدِرٍ ولا الملِكُ الشّـآمي

فهذا المدح لم يرُد به امرؤ القيس التكسب والطمع في عطايا ممدوحه ، لأنه يمثل إباء الشاعر العربي الأول الذي يتعَفف عن هذا التكسب الدنيء الذي يتنافى مع أنفة العربي والطبع البدوي .

على أن هناك من الشعراء من وقعوا في حبائل الطمع فمدحوا الملوك والوزراء وتقربوا إليهم ، وتفننوا في مدائحهم ، وصبغوا عليهم هالة من الأوصاف المثالية ، ورأوا عندهم مايشجع على الكسب والترف والنعيم ، فعاش شعراؤهم على مقربة منهم ، يتناولون من هداياهم ويتناولون بشعرهم عطايا هؤلاء الممدوحين وجوائزهم .

وقد فتح هؤلاء الممدوحون قصورهم للشعراء ، ورغبوهم في الاتجاه إليهم بالمدح وأغروهم بالهبات ، حتى أصبح الشعر وسيلة للتكسب الذي كان ممقوتاً عند العرب ، يقول ابن رشيق : « . . . كانت العرب لا تتكسب بالشعر ، وإنما يصنع أحدهم مايصنعه فكاهة أو مكافأةً عن يد لا يستطيع أداء حقها إلا بالشعر إعظاماً لها . . . حتى نشأ النابغة الذبياني فمدح الملوك وقبل الصلة على الشعر ، وخضع للنعمان بن المنذر ، وكان قادراً على الامتناع منه بمن حوله وعشيرته أو من سار إليه من ملوك غسان ، فسقطت منزلته ، وتكسب مالاً جسيماً حتى كان أكله وشرابه في صحاف الذهب والفضة ، وأوانيهما من عطايا الملوك » (٢) .

---

(١) شرح ديوان امريء القيس ، حسن السندوبي ، ط ٥ ، القاهرة ، ص ٢٠٣ ، القصيدة ٨١ .
(٢) العمدة ، تحقيق محمد قرقزان ١/ ١٨٠ ، دار المعرفة ، بيروت ، ط١ ١٤٠٨هـ .

وغير خاف علينا مدائح زهير بن أبي سلمى لهرم بن سنان ، مع نبل الهدف الذي كانت تحمله تلك المدائح ، وقد اختص زهير بهرم حتى أصبح رمزاً للمواقف النبيلة في عينه ، وكان يناله من عطاياه الشيء الكثير ، « روي عن الأصمعي أن عمر رضي الله عنه قال لبعض ولد هرم بن سنان : أنشدني مدح زهير أباك ، فأنشده ، فقال : ونحن والله إن كنا لنحسن إليه العطاء ، فقال : ذهب ماأعطيتموه، وبقي ماأعطاكم ، قال : وبلغني أن هرم بن سنان كان قد حلف أن لايمدحه زهير إلا أعطاه ، ولا يسأله إلا أعطاه ، ولا يسلم عليه إلا أعطاه عبداً أو وليدة أو فرساً ، فاستحيا زهير مما كان يقبل منه . » (١) .

وذكرت بعض المصادر أن ابنة هرم عندما وفدت على عمر رضي الله عنه ، فقال لها : ماكان الذي أعطى أبوك زهيراً حتى قابله من المديح بما قد سار فيه ، فقالت : أعطاه خيلاً تنضى ، وإبلاً تتوى ، وثياباً تبلى ، ومالاً يفنى ، فقال عمر : لكن ما أعطاكم زهيرٌ لا يبليه الدهر ، ولا يفنيه العصر . . . » (٢) .

ويخطيء من يعتقد أن زهيراً كان يعمد إلى مدح هرم رغبةً في الغنى والرياش لأن زهيراً جعل من مدحه سجلاً حافلاً لمآثر سادات العرب الذين كان لهم مكان مرموق في الحياة الجاهلية ، وأثرٌ واضح في الصلح بين القبائل .

وهكذا كان لشعر المديح رسالة عظيمة في تسجيل أمجاد القبائل في عصرٍ لايعرف سواها ، فهذا زهير - كما أسلفنا - يختص بمدح من عرفت عنهم الشهامة، وحسان يختص «بالغساسنة» الذين ضرب بهم المثل في الكرم وحسن الوفادة ، والنابغة اختص بالنعمان بن المنذر مع الاختلاف في مآربهم ، حتى «انتهى هذا الفن إلى الأعشى فأصبح حرفةً خالصة للمنالة والتكسب ، إذ لم يترك

---

(١) شرح المعلقات ، الشنقيطي ، ص ٥٥ - ٥٦ . لم يشر إلى المصدر .

(٢) شرح أشعار الستة الجاهليين ، لجنة إحياء التراث ، دار الآفاق ، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، ص٢٧٠ .

ملكاً ولا سيداً مشهوراً في أنحاء الجزيرة إلا قصده ومدحه ، وفخم شأنه معرضاً بالسؤال»(١) .

وظلّ هذا المنهج سنةً متبعةً لدى الشعراء حتى جاء الإسلام ، و«صار المديح الإسلامي يدور حول قيمة هداية الرسالة وصلتها بالله وبالإيمان بقيادة الرسول ﷺ ، والعدل في السيرة والالتزام بالحق والمساواة بين الناس والصدق والدعوة ، وتبليغ الرسالة ، وتطبيق أحكام القرآن » (٢) . وبهذا تحولت رسالة الشعر إلى الجهاد ، وتثبيت الجيوش عن لقاء العدو ، وبث روح الحماس فيهم ، ولذلك اختفت ظاهرة التكسب بالشعر ، وأصبح هذا التكسب هو الطمع في نيل الأجر والمثوبة من الله سبحانه . . . واستمر الأمر على هذا الحال في عهد الخلفاء الراشدين ، ولم يكن للمديح في حياتهم شأن يذكر .

أما في العصر الأموي وبعد أن اتسعت رقعة الدولة الإسلامية واختلفت مفاهيم الناس « وأصبح قصر الخليفة بدمشق محاطاً بأبهة الملك وعظمة السلطان ، وظهر شعراء القصور في صورة أقوى وأوضح من مظهرهم الأول ، وأصبح شاعر كالأخطل هو شاعر القصر الأموي » (٣) ، وبان الطمع والتكسب على أشعاره ، وكذلك الفرزدق مدح خلفاء بني أمية معجباً بشجاعتهم فهم أبطال منصورون وكرماء مشهورون . . . وظل يلتمس دلواً من دلاء ممدوحه ، وخيراً من خيراته ينعم بها مع الأهل إذا أجدبت الأرض وقل الرزق . . . (٤) .

وبمقدار ماكان يطمع هذا الشاعر في استدرار عطايا هؤلاء الخلفاء بقدر ماكان لهذا الشعر من الدور الكبير في بيان مكانة الدولة والاشادة بعدلها .

---

(١) العصر الجاهلي ، شوقي ضيف ، ص ٢١٢ .

(٢) دراسات في الأدب الإسلامي ، محمد أحمد خلف الله ، عن كتاب «التيار الإسلامي في شعر العصر العباسي الأول» ، د. مجاهد بهجت ص ٢٦ ومابعدها .

(٣) التوجيه الأدبي ، طه حسين وآخرون ، ص ١٦٩ .

(٤) بتصرف من فن المديح ، سامي الدهان .

وهكذا يتضح لنا أن العصر الأموي قد أعاد للشعراء حياة التسكب التي اختفت في العصر الإسلامي . وكثر الشعراء حول الولاة أيضاً في هذا العصر ، وعلى رأسهم جريرُ والفرزدق ، وكُثَيِّر ، وغيرهم ممن جعلوا الاستجداء نصب أعينهم ، وتنافسوا في ذلك حتى طغى هذا الموضوع على أغلب الموضوعات الأخرى .

وإذا تركنا هذا العصر ، وتجاوزناه إلى العصر العباسي « ألفينا المديح يتبوأ المكان الأعظم في الشعر العربي كله ، حتى أصبحت الأبواب الأخرى صغيرة إلى جانبه ، بل أصبح بعض الأبواب مثل النسيب والغزل والوصف لايطرقه الشاعر - غالباً - إلا في أثناء المدائح ، وبهذه الطريقة استطاع الشاعر أن ينوع الموضوعات في قصائده ، دون أن يخرج عن الغرض الأول الذي يقصده ، وهو التماس الحظوة عند أمير أو عظيم . » (١) . وإن كان وجد إلى جوار ذلك شعر الزهد والمجون والخمر ، لكن المديح كان الغالب على الشعر حتى عند شعراء هذه الأغراض ، أمثال أبي نواس ومسلم وأبي العتاهية

وعلى أية حال ، فقد ظلّ المديح من بين الموضوعات الأخرى مسيطراً على الشعر العربي لايصلح إلا به ، على اختلاف طرائق الشعراء في تناوله بحسب عصورهم وزادهم الثقافي ، ففي العصر الجاهلي لم يخرج المديح عن أربعة أشياء ذكرها النقاد القدماء ، وهي « العقل ، والشجاعة ، والعدل ، والعفة » (٢) ، بل ربما حجروا على الشاعر المادح واعتبروه مخطئاً إذا خرج عنها ، وهذه الأمور الأربعة تعتبر هي « المثالية الخلقية الرفيعة التي تقدرها الجماعة » (٣) ، وربما استمر المدح وفق هذه المثالية المحددة في العصر الإسلامي ، والعباسي فترةً من الزمن إبقاءً

---

(١) التوجيه الأدبي ، ص ١٧٠ .

(٢) بتصرف من نقد الشعر ، لقدامة ، تحقيق كمال مصطفى ، ط٣ ، ١٣٩٨ ، حلوان - مصر ، ص ٦٦ .

(٣) العصر العباسي الأول ، ص ١٦٠ .

للشخصية الموروثة للشعر العربي ، إلا أن العباسيين حاولوا التجديد فيها نظراً لاتساع الثقافات في عصرهم ، وهو تجديد لاينفصل بحال من الأحوال عن صورته في العصر الجاهلي ، يقول الدكتور شوقي ضيف : « وقدْ اضطرمت هذه الغايات للمدحة في العصر العباسي إذ نرى الشعراء يعيدون ويبدئون في تصوير المثل الخلقية صوراً حية ناطقة ، ويعدو الحصر ما استنبطوه من معان طريفة في السماحة والكرم والحلم والحزم والمروءة والعفة ، وشرف النفس ، وعلّو الهمة والشجاعة والبأس ، وقد جسموها في الممدوحين تجسيماً قوياً حتى لتصبح كأنها تماثيل قائمة نصب أعين الناس كي يحتذوها ويحوزوا لأنفسهم مجامع الحمد والثناء . وبذلك ظلت المدحة تبث في الأمة التربية الخلقية القويمة حافزةً لها على الفضائل والمكارم الرشيدة ، والذي لا ريب فيه أنها تحمل خصالنا وخصائصنا النفسية ، وقد أشعل الشعراء العباسيون جذوتها في النفوس بما رفدوها به من عقولهم الخصبة وأخيلتهم البارعة . » (١) .

وهكذا كان الشاعر العباسي يحتفظ للشعر العربي بطابعه الموروث مع شيء من التجديد والتغيير ، حتى في منهج القصيدة الذي حدده النقاد سيظل الشاعر العباسي محافظاً عليه ، ومجدداً في بعضه ، فالمدحة قديماً كانت « تشتمل على مقدمات تصف الأطلال وعهود الهوى بها ومايلبث الشاعر أن يستطرد إلى وصف الصحراء ناعتاً مايركبه من بعير أو فرس ، ومايراه فيها من حيوان وحشي ، وقد يعرض لوصف مشهد الصيد ، وكثيراً مايضمنها حكماً توسع مدارك السامع ، وتبصره بأطراف من سنن الحياة . وكل ذلك استبقاه شاعر المدحة في العصر العباسي ، ولكن مع إضافات كثيرة حتى يلائم بينه وبين عصره » (٢) .

وهذه الإضافات تعتبر ميزةً للشاعر العباسي لأن هذا الشاعر أصبح يعيش حياةً مترفة ، فهو يعيش بين الواقع والخيال ، فعندما يتحدث عن القصور الحاضرة ،

---

(١) العصر العباسي الأول ، ص ١٦٠ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٦٣ .

أو الرياض الجميلة في عصره يتمثل واقعه تماماً ، وإذا ما جنح به خياله وعاد إلى الوراء قليلاً تمثل التراث والتزم المقدمات الطللية ، فحين تأتي لشاعر كمسلم اتصل بكبراء الدولة العباسية ووجد نفسه أمام شخصيات تتمتع بأنبل الصفات العربية مثل الشجاعة والفروسية والكرم كيزيد بن مزيد الشيباني الذي اشتهر بالندى ، والبأس والذي كثيراً مامدحه دون اللجوء إلى هذه المقدمات الطللية ، تجده يحن إلى هذه المقدمات فيقول في مدحه لبني جبريل :

هلا بكيت ظعائناً وحمولا ترك الفؤاد فراقهم مخبولا

إلى أن قال بعد مقدمة طويله :

لو أن قوماً يخلقون منيةً من بأسهم كانوا « بني جبريلا »

بينما يمدح يزيد بن مزيد منطلقاً في مدحه دون مقدمات فيقول له :

لولا سيوف « أبي الزبير » وخيله نشر « الوليد » بسيفه « الضحاكا »

رضيت سيوفك عنك يوم لقيتهم وأجبت داعي الموت حين دعاكا

وكأن ليث الغاب في إقدامه يوماً رآك تريده فحكاكا

ومن قبله بشار بن برد أبو المجددين في هذا العصر كان في مديحه تراثياً من رأسه حتى أخمص قدمه ، فشعر المديح إضافة إلى بدئه بالمقدمات الطللية كان يستلزم جزالة المعنى ، ومتانة اللفظ ، وتحاشي الابتذال ، ومادرج على ألسنة العامة حينذاك ، كل ذلك تمثله بشار في شعره ، وكان يفخر بقصائده التي تحمل هذه الصفات ، ومن ذلك : قصيدته المشهوره « ياطلل الحي بذات الصمد » فقد عمد إلى الاكثار من ذكر الغريب على غرار أراجيز رؤبة ، وهذه الأرجوزه ذكرها (١) صاحب الأغاني في مدح عقبة بن سلم عندما كان والياً على البصرة من قبل أبي جعفر المنصور ، وليس في مدح سلم بن قتيبة كما وهم (٢) الدكتور شوقي ضيف . أما القصيدة التي مدح بها سلم فهي قوله :

---

(١) ٣/ ١٧٥ .

(٢) العصر العباسي الأول ص ٢٠٩ .

بكِّرا صاحبي قَبْلَ الهجيرِ   إن سرَّ ذاك النجاح فِي التبكيرِ

وقد فخر بشار بهذه لا بتلك كما ظن الدكتور شوقي خطأ - وقال بشار بأنه بناها أعرابية وحشية ، ولذلك أثارت إعجاب النقاد من أصحاب الغريب كخلف الأحمر ، وخلف بن أبي عمرو بن العلاء (١) .

ومدائح بشار تتأرجح بين القديم والجديد ، فبقدر ماكان يحرص على إرضاء ممدوحه بالتزام المقدمة الطللية ، كان يستهلُّ بعض قصائده بالنسيب ، ويحاول الابتعاد بعض الشيء عن وصف الفيافي والقفار إشباعاً لرغبات نفسه وتأكيداً لاتجاهه .

وعندما جاء أبو نواس الشاعر المجدد ، وهاجم المقدمة الطللية التي لا تنسجم مع العصر الذي نشأ فيه ، اصطدم ببعض الخلفاء الذين ألفوا منهج المدحة العربية ، الذي جعل المقدمة الطللية ضربة لازب ، ولهذا وجد أبو نواس نفسه مضطراً إلى البدء بها في بعض قصائده ، ومن ذلك مدحته المشهورة للخصيب البغدادي حيث افتتحها بقوله :

أجارةَ بيتَيْنا أبوكِ غيورُ ... البيت

وكذلك قوله :

يادارُ مافعلت بكِ الأيامُ ... البيت

وعلى الرغم من ذلك فإن أبا نواس قد أصرَّ على الخروج على هذه المقدمة ، حتى أنه صارح بعض الخلفاء بذلك ، وعندما دخل على الأمين وهنأه بالخلافة انتقد طريقة شعراء الملوك الذين شببوا بالمدر والحجر ، والشاء والبقر ، فهؤلاء كما يقول لا بصر لهم بمدح الخلفاء واستأذنه في الإنشاد وبدأ قصيدته بوصف الخمر (٢) .

---

(١) القصة مذكورة في الأغاني ٣/ ١٩٠ .

(٢) بتصرف من كتاب اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني ، د. مصطفى هدارة ، دار المعارف ، ط٣، ص ٤٩٨ ومابعدها.

وكأن هؤلاء الشعراء كما يقول الدكتور مصطفى هدارة « أحسوا ببعد قصائد المديح عن رغبتهم في التعبير عن نفوسهم وأحاسيسهم ، ولهذا كانوا يستغلون هذه القصائد في إظهار مشاعرهم ، والتعبير عنها لدرجة أنهم كانوا في بعض الأحيان يستغرقون أكثر القصيدة في عرض مشاعرهم الذاتية وأقلها في المدح»(١) .

ولم تثبت القصيدة العباسية لتلك الجزالة التي عرفت من قبل ، بل لوحظ عليها من حيث الشكل تطورٌ بسبب تأثرها (ببعض العوامل التي أدت إلى رقة الأوزان والألفاظ على السواء مع أن قصائد المديح على وجه الخصوص كان لها أساسها في العصر الجاهلي والإسلامي الذي يعتمد على الجزالة والفخامة وقوة أسر الألفاظ ، وفخامة التعبير ، حتى لو نظرنا في قصائد المديح قبل القرن الثاني لوجدنا غالبيتها في بحر الطويل والبسيط لأنهما يحققان الغاية المبتغاه من شعر المديح كما أوضحناها ، ولكن على النقيض من ذلك كانت أشهر قصائد المديح في القرن الثاني أرقها لفظاً وأخفها وزنا»(٢) .

وهكذا نجد المدحة العباسية تتردد بين القديم والجديد ، فهي عند أبي نواس قديمة من حيث جزالة اللفظ وقوة سبك المعاني ، وجديدة عندما يصبغها برقته الحضرية ، وروحه الشفافة التي غرقت في الترف والمجون ، ولم تستطع التخلص منه إلا تكلفاً .

وإذا مضينا إلى أبي تمام لنتعرف على مدائحه ، ألفيناه « يحتفظ كذلك بالمقدمة الطللية ، ومايتصل بها من التشبيب والنسيب » (٣) في أغلب مدائحه ، على أن الشئ الذي يجعل مديح أبي تمام ثرياً خصباً هو سعة ثقافته ومعرفته بقبائل

---

(١) اتجاهات الشعر العربي في القرن القاني ، ص ٣٩٨ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٣٩٩ .

(٣) العصر العباسي الأول ، ص ٢٧٩ .

العرب ، وأنسابهم ، وأمجادهم ، يقول الدكتور شوقي ضيف : « وشعر أبي تمام زاخر بما يدل على أنه انقض على معارف عصره انقضاضاً حتى تمثلها تمثلاً دقيقاً ، وخاصة التاريخ وعلم الكلام ، ومايتصل به من الفلسفة والمنطق ، أما التاريخ فيتضح في كثير من جوانب مديحه ، وخاصة حين يعرض لقبيلة الممدوح ووقائعها وأمجادها في الجاهلية والإسلام » (١) .

وكان أبو تمام يجعل من مديحه منطلقاً لأغراض كثيرة ، ولذلك جاءت مدائحه مثالاً رائعا لابراز المثل الأعلى لإنسان هذا الكون .

وأما بالنسبة للبحتري وابن المعتز فقد كفاني الحديث عنهما في غرض المديح الدكتور عبدالله التطاوي في رسالته : « قضايا الفن في قصيدة المدح العباسية» مطبقاً دراسته على شعر البحتري وابن المعتز ، وقد توصل فيها إلى وجود حالة عامة تشمل أغلب قصائد المدح الموجودة في العصر العباسي ، وأوضح أن المقدمة عند الشاعر المادح هي « إما مقدمة غزلية أو طللية أو هي في تصوير الطيف أو ذكرى الشباب أو الشكوى من الشيب ، أو شكوى الدهر أو حديث الظعن أو غيرها . . . » (٢) .

وهذه الأقسام لا تخفى على دارسي الأدب قديماً أو حديثاً ، فقد ذكرها ابن قتيبة من خلال استقرائه لكلام أهل الأدب ، ولذلك يجب أن نعرف مدى سيطرتها على الشعر العربي وبالذات شعر المديح ، فهل كل شاعر مادح لابد أن يقف وينسب ، ويذكر رحلته ، ثم ينطلق إلى المدح ، أم أن الأمر يختلف من شاعر لآخر ؟ يقول الدكتور التطاوي : « على أن فهمنا لهذه الأقسام لايحتم علينا أن نبحث عنها جميعاً في كل قصيدة مدح أو عند كل شاعر على الاطلاق ، إذ قد يقف

---

(١) العصر العباسي الأول ، ص ٢٧٦ .

(٢) المصدر المذكور ، نشر دار الثقافة ، القاهرة ، ١٩٨١م ، ص ٤٦ .

الشاعر على بعضها تاركاً البعض الآخر ، وقد ينفرد منها جميعاً ليدخل في المدح مباشرة . . . وقد يخرج الشاعر عما انتهى إليه النمط البنائي عند ابن قتيبة منذ البداية ، فيبدأ باكياً شبابه أو ذاكراً أيام لهوه فيه أو قد يشكو الدهر مصوراً ماجناه كل منهما عليه ، وقد يستطرد في الرحلة فيقف منها موقف القصاص فيطيل في عرض صور حيوانات الصحراء المختلفة ، وقد يوجز فيها ، وقد يمتد به الحوار الفني حول تصوير تجارب خاصة أو خلاصة مواقف حياتية عاشها الشاعر ليصوغها في شكل حكم ، وربما صور موقفه مفتخراً بنفسه أو شعره أو حتى بقومه ليدخل في بنية المدحة شيئاً من الفخر . . » (١) .

ويصل الدكتور التطاوي إلى أن الأسس التي نقلها ابن قتيبة عن النقاد لم تصمد أمام طموحات الشعراء ، وبالذات في عصر أولع أصحابه بكل جديد كالعصر العباسي الذي يضم عباقرة الشعر العربي ، ويعتبر زبدة العصور الأدبية .

وهكذا نجد قصيدة المدح مرت بأطوار متقاربة حيناً ، ومتباعدة حيناً آخر في الشعر العربي ، واستقرت عند شعراء العصر العباسي متخذةً أنماطاً شتى اتبعها الشعراء في مقدماتهم .

ومما سبق يتبين لنا أن قصيدة المدح سارت وفق مراحل معينة متبعةً إسلوباً معيناً يمكن إيجازها فيما يأتي :

المرحلة الأولى : في الجاهلية المبكرة : وكان غرض المديح فيها ضئيلاً ، وإن وجد فليس لذات المديح أو للتكسب ، وإنما هو تعبير عن شكر ممتن أو صاحب فضل على الشاعر أو قبيلته .

المرحلة الثانية : في الجاهلية المتأخرة : أعني عصر النابغة ، وزهير والأعشى إذ أصبح هدف المدح التكسب في أغلب المواقف .

---

(١) المصدر السابق ، ص ٤٧ .

المرحلة الثالثة : في العصر الإسلامي : وقد وجد المدح لغرض نبيل إما لتوضيح موقف حصل للشاعر كموقف كعب بن زهير رضي الله عنه ، أو لبيان قوة الإسلام ، وفضل صاحب الرسالة السماوية ﷺ على أمة كانت تتخبط في ظلمات الجهل ، أو لتثبيت القادة والجيوش في أثناء الحروب وتشجيعهم ، والاشادة بمواقفهم بعد الفتح .

وأما عصر الدولة الأموية فهو لاينفصل عن العصر الإسلامي ، وإن كان قد عاد غرض المديح كما كان قبل الإسلام ، حيث طغى التكسب بالشعر على شعراء أعلام أمثال الأخطل ، وجرير ، والفرزدق ، وكُثيِّر ، وغيرهم .

المرحلة الرابعة : في العصر العباسي : وهو العصر الذي احتدمت فيه المذاهب والاتجاهات ، ووجد الشاعر نفسه بإزاء حضارات متعددة جعلته يستجيب لمتطلباتها شاء أم أبى . فبالإضافة إلى هدف التكسب والطمع في عطايا الممدوحين ، أصبحت قصيدة المدح تحمل هدفاً تاريخياً للأمة ، في تسجيل انتصاراتها وفتوحاتها ، كقصيدة فتح عمورية المشهورة ، التي صورت نخوة الخليفة المسلم ، وعزته بالإسلام ، وكذلك قصيدة البحتري في وصف بركة المتوكل ، وقصائد المتنبي أشهر من أن تذكر في هذا الميدان .

ولسنا نظلم هؤلاء الشعراء عندما نذكرهم بالتكسب بأشعارهم فالمصادر الأولى التي فصلت القول في أغراض الشعر ، لم يتورع أصحابها عن ذكر تلك المكاسب المغرية التي أباحها الشعراء لأنفسهم من جراء مديحهم للملوك ومن هذه المصادر كتاب العمدة لابن رشيق ، فقد تحدث عن المجددين في الكسب بالشعر والحظوة عند الملوك ، وذكر منهم : « سلم الخاسر ، مات عن مائة ألف دينار ، ولم يترك وارثاً ، وأبو العتاهية صنع :

تعالى اللهُ باسلمُ بن عمرٍو أذلّ الحرصُ أعناقَ الرجالِ

قال : « وكان صديقه جداً ، فقال سلم : ويلي من ابن الفاعلة ، جمع القناطير من الذهب ، ونسبني إلى ماترون من الحرص ! ولم يرد ذلك أبو العتاهية ، لكن دعاه تعجبه كما يفعل الصديق مع صديقه . » . ثم قال : « ومروان بن أبي حفصة : أعطي مائة ألف درهم مرات عدة وكان لايقابل إلا بالكثير ، وهو لعمري - من ذوي البيوتات ، والمعرقين في الكسب والشعر ، وكان أبو نواس محظوظاً ، لا يُدري ماوصل إليه ، لكنه كان متلافاً ، وكان يتساجل في الانفاق ، هو وعباس بن الأحنف وصريع الغواني ، وكان البحتري مليئاً قد فاض كسبه من الشعر ، وكان يركب في موكب من عبيده (وأما أبو تمام) فما وُفِّي حقه مع كثرة ماصار إليه من الأموال ، لأنه تبذل وجاب الأرض وكذلك أبو الطيب . » (١) .

فهذه القصة على طرافتها تؤكد مدى ماوصل إليه الشعراء في العصر العباسي من الغنى والرياش ، بسبب مدائحهم ، لأن هؤلاء الشعراء كانوا يعنون عناية فائقة بهذا الغرض من حيث اختيار ونقاوة ألفاظه ، والبعد عن الابتذال ، وكان يوصي بعضهم بعضاً بعدم الإطالة في المدح كوصية جرير لحفيده بقوله : «إذا مدحتم فلا تطيلوا الممادحة فإنه يُنسى أولها ، ولا يحفظ آخرها . » (٢) .

وكذلك يجب مراعاة شخص الممدوح ومكانته قال ابن رشيق : « فإن كان الممدوح ملكاً لم يبال الشاعر كيف قال فيه ، ولا كيف أطنب ، وذلك محمود وسواه المذموم » (٣) .

وأما الكاتب أو الوزير فـ« ينبغي أن يكون قصد الشاعر في مدح الكاتب والوزير ما اختاره قدامة وغيره ، وكذلك ماناسب حسن الروية ، وسرعة الخاطر بالصواب وشدة الحزم ، وقلة الغفلة ، وجودة النظر للخليفة ، والنيابة عنه في

---

(١) بتصرف طفيف من العمدة ج ٢ ، ت / د. محمد قرقزان ص ٨٦٩-٨٧٠ .

(٢) العمدة ٢/ ٧٧٢ ، ت قرقزان .

(٣) العمدة ٢/ ٧٧٣ .

المعضلات بالرأي أو بالذات . . . ، وبأنه محمود السيرة ، حسن السياسة ، لطيف الحس ، فإن أضاف إلى ذلك البلاغة والحظ ، والتفنن في العلم ، كان غاية . »(١) .

ثم قال : « وأفضل مامدح به القائد : الجود ، والشجاعة ، وما تفرع منها نحو التخرق في الهبات ، والإفراط في النجدة ، وسرعة البطش ، وماشاكل ذلك . . ويمدح القاضي بما ناسب العدل والإنصاف ، وتقريب البعيد في الحق ، وتبعيد القريب ، والأخذ للضعيف من القوي ، والمساواة بين الفقير والغني ، وانبساط الوجه ، ولين الجانب ، وقلة المبالاة في إقامة الحدود ، واستخراج الحقوق ، فإن زاد إلى ذلك ذكرَ الورع ، والتحرج وماشاكلهما ، فقد بلغ النهاية . » (٢)

فهذه الطرائق للمدح قد استنبطها ابن رشيق من نماذج الشعر العربي واستشهد لها بما يناسبها من أشعار أبي نواس ، والبحتري ، وغيرهما ، ولذلك قال : « ورأيت عمل البحتري - إذا مدح الخليفة - كيف يقل الأبيات إذا مدح خليفة ، ويبرز وجوه المعاني ، فإذا مدح الكتاب عمل طاقته وبلغ مراده . »(٣) .

وبعد ، فمما سبق يتضح لنا ذلك الإسلوب المعين الذي أشرنا إليه من حيث طرائق الشعراء في قصيدة المدح العربية التي سيطرت عليها فكرة البدء بذكر الأطلال والتشبيب وذكر المدر والحجر ، والحديث عن الرحلة ثم التخلص إلى المدح . . . . حتى جاء العصر العباسي ، عصر التحرر والانفتاح - إن صح التعبير - فلم يك يسوغ لشعراء هذا العصر التقليد المطلق ، فتجدهم يلتزمون نهج القصيدة العربية إرضاءً للوسط الذي يحيط بهم ، وخوفاً من ممدوحيهم الذين ألفوا

---

(١) المصدر السابق ، ص ٧٨٣ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٧٨٤ .

(٣) المصدر نفسه ، ٧٨٤ .

الشكل المعروف لقصيدة المدح العربية ، بينما تجدهم تنحوا عنه في أغلب قصائدهم استجابة لتبعة التجديد التي نافحوا من أجلها ، واستجابة لأحاسيسهم ومشاعرهم .

وخلاصة القول فإن الشعراء العباسيين كانوا يسيرون في مدائحهم على النحو التالي :

أولاً : الالتزام بالمقدمة الطللية في أغلب قصائدهم الرسمية .

ثانياً : الافتتاح بالنسيب فقط ثم الشروع في الهدف الذي جاؤا من أجله والاشادة بذكر محاسن الممدوح .

ثالثاً : استبدال المقدمتين السالفتين بالمقدمة الخمرية إذا أمنوا ممدوحيهم كما فعل أبو نواس مع الأمين .

رابعاً : الشروع في المدح دون مقدمات كما حصل في بعض قصائد مسلم وأبي تمام .

وبعد هذه المقدمة المستفيضة عن قصيدة المدح في الشعر العربي ، يمكننا أن نتلمس تأثير الشعراء العباسيين في هذا الغرض ، والوقوف على طرائق الشعراء الأندلسيين في مدائحهم التي لاتبعد كثيراً عن طرائق إخوانهم المشارقة ، وبالذات العباسين الذين عاصروهم وتناقلوا أخبارهم ، ورووا أشعارهم بشتى الوسائل والطرق التي تحدثنا عنها في الفصل الأول من هذا البحث .

وقبل أن نتحدث عن أثر المحدثين العباسيين في هذا الغرض لدى شعراء الأندلس ، يجب أن نؤكد حقيقة لاتخفى على المنصفين ممن درسوا الأدب العربي في الأندلس وسبروا غوره ، وهي أنه يجب أن يكون في الاعتبار أن الأدب العربي في الأندلس بشعره ونثره هو شعر أدب أمة واحدة ، دينها واحد ، ولغتها واحدة ، وأنه « جزء لايتجزأ من الأدب العربي في المشرق . . . ومن ثم فإن التقاليد الفنية

التي تحكم الأدب في مصر والشام والعراق ، والجزيرة العربية ، وبلاد ما وراء النهرين هي نفس التقاليد التي تحكم الأدب في الأندلس ، يؤكد ذلك ماحصل من ظهور بعض التقاليد الفنية الجديدة في الأدب العربي بالأندلس ، وتسللت إلى العراق والشام ومصر والجزيرة العربية وبلاد ماوراء النهرين ، ومن ذلك : فن الموشحات الذي نجمت تقاليده بأرض الأندلس ، وكتبت نوتته الموسيقية بمصر ، وذاع أمره في سائر الأصقاع .

وأعود إلى تقرير تلك الحقيقة التي كتبتها في رسالتي السابقة ، بأنه ليس هناك أدب أندلسي ، ولكن هناك : أدب عربي في الأندلس ومن ثم فإن من يتصدى لدراسة قضية من قضايا الأدب العربي في الأندلس عليه أن يدرسه في سياق الأدب العربي العام (١) .

ودراستنا له في ضوء تأثير الأدب العربي العباسي فيه لايخرج عن هذا الإطار ، ولذلك فإن هذه التأثيرات تؤكد إنتماء هذا الأدب وصلته الحميمة بالأدب العربي العام . وأنه امتداد طبيعي له ، وليس منفصلاً عنه .

---

(١) ينظر في هذه القضية ماتناولته في رسالتي للماجستير « تجديدات الأندلسيين في النثر العربي» المدخل بعنوان « الأدب العربي في الأندلس بين الاتباع والابتداع » ، من ص ١٥ - ٥٦ .

المبحث الثاني

شعر المديح في الأندلس

في ضوء التأثير العباسي

وغرض المديح في الشعر العربي في الأندلس لايختلف كثيراً عنه في الشعر العربي في المشرق ، فقد ارتبط شعر المديح بالسياسة أينما كانت وحيثما حلت ، فكان على الشاعر المادح أن يجهد نفسه في تفهم طبائع الحكام ، والتمرس بتقلبات أمزجتهم، ليتمكن من خدمة أهدافهم السياسية بمدائحه .

وكان الحكام أنفسهم يعون أثر الشعر الإعلامي في نشر سياساتهم وبطولاتهم، فأخذوا يقربون الشعراء ويغدقون عليهم ، مما حدا بهم إلى التنافس على بلاطهم ، والتفنن في مدائحهم ، حتى أصبح لكل بلاط شعراؤه الذين عرفوا به .

وقد أتى على الشاعر حين من الدهر وهو يعد نفسه أحد جنود السلطان يدافع عنه ويشيد بمآثره ، حتى أصبح غرض المديح مستولياً على أغلب قصائد الشعر في الأندلس ، ولعلّ السبب في ذلك يعود إلى أنه واكب قيام دولة جديدة ، وكان لابد من وسيلة إعلامية تشيد بمركزها وتقوى مكانتها ، وتشهر نفوذها بين الأمم .

وقد انطلق الشعراء في الأندلس يمدحون الملوك والأمراء وفق دوافع وأهداف خاصة بهم ، وأخرى اقتضاها العصر الذي نشأوا فيه ، ولن نطيل سفر الكلام عن هذه الدوافع والأهداف بشقيها ، لأننا تحدثنا عنها قبل ذلك عند حديثنا عن خط سير شعر المديح في الأدب العربي ، وإنما نود التأكيد على أن الشاعر الأندلسي لم يخرج في دوافع مديحه وأهدافه عن صنوه الشاعر العربي المشرقي بصفة عامة ، والعباسي بصفة خاصة .

ولعل أبرز دوافع المديح الحظوة لدى الممدوح والرغبة في عطاياه ، وهو مايسمى بالتكسب بالشعر ، حتى عدّ غرض المديح فنّاً نفعياً خالصاً « من حيث إنه الوسيلة المباشرة لما يستهدفه الشاعر المتكسب من وراء شعره من الكسب والمنفعة من ناحية ، ومن حيث إنه الغرض المباشر الذي يتطلع إليه من بيدهم المال والعطاء من ناحية أخرى » (١) .

ومما يؤكد ظاهرة التكسب بالشعر العربي في الأندلس ماذكر من أن للشعراء أيام المنصور بن أبي عامر ديواناً يرزقون منه على مراتبهم ولايخلون بالخدمة بالشعر في مظانها حتى أن الشاعر المشهور بالسرقة من شعر الآخرين «لايستحق أن يثبت في ديوان العطاء وكان المنصور هذا يقرب الشعراء ويسمع منهم ويمد لهم في الهبات ، فقد جاء إليه ابن دراج وأجرى عليه اختباراً في الشعر على إثر تهمة وجهت إليه من حساده ، فبرز وسبق وزالت التهمة عنه، فوصله بمائة دينار ، وأجرى عليه الرزق وأثبته في جملة الشعراء . ولعل هذا التشجيع هو ماجعل الشعراء يتاجرون بأشعارهم ، حتى أن أحد الشعراء في عصر ملوك الطوائف بلغ به مارآه من منافستهم في أمداحه أن حلف ألا يمدح أحداً منهم بقصيدة إلا بمائة دينار ، وأن المعتضد بن عباد على ما اشتهر من سطوته وإفراط هيبته كلفه أن يمدحه بقصيدة فأبى حتى يعطيه ما شرطه في قسمه (٢) .

وشعراء المديح في الأندلس كثر ، فمنذ قيام الدولة الأموية بها والشعراء يغدون إليها من المشرق ، ومن المغرب ، ومن أبرز الشعراء في هذا العصر ، مؤمن

---

(١) ظاهرة التكسب وأثرها في العربي ونقده ، درويش الجندي ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر ١٩٧٠م ، ص ٨٠ .

(٢) ينظر فيما سبق نفح الطيب ٣/ ١٩٠ .

ابن سعيد ، وطاهر بن حزم ، وعباس بن فرناس ، وكلهم من شعراء المديح ، وقد سجل لنا أبو حيان في المقتبس بعض هؤلاء الشعراء الذين اشتهروا بالمديح لدى أمراء معينين ، فهذا ابن عبدربه وعبيد الله بن يحي بن ادريس من شعراء الأمير محمد، وقد أورد هذه الأسماء في المقتبس (١) الخاص بالأمير عبدالله ، وفيما عرف باختصاص كل شاعر بأمير من الأمراء ، فابن شخيص شاعر الناصر ، وابن دراج شاعر المنصور بن أبي عامر ، وكذلك عبادة بن ماء السماء ، وأبوزيد عبدالرحمن بن مقانا الأشبوني ، وابن زيدون من شعراء المعتضد بن عباد ، وابن اللبانة شاعر المعتمد بن عباد فهذه الشهرة تقابل شهرة الشعراء العباسيين المحضيين لدى الحكام كالمتنبي شاعر سيف الدولة ، وأبو تمام لدى المعتصم ، وأبو نواس لدى المأمون ، وهكذا .

والشاعر الأندلسي كما ذكرنا سابقاً لم يختلف عن الشاعر العباسي بل كان يسير على سنن الشعر العربي في المشرق مقلداً ومعارضاً ومنافساً وكانت الفكرة الأساسية - كما يقول الدكتور شوقي ضيف - عند الشاعر الأندلسي عندما يريد أن يكتب شعراً أن يكون شعره على نمط الشعر عند المشارقة من القدماء أو العباسيين»(٢) ، وهذا شيء طبيعي من شعراء لغتهم هي لغة المشارقة ودينهم هو دين المشارقة ، ولذلك إذا كان بحثنا هذا يتصدى لتتبع التأثيرات العباسية في الشعراء الأندلسيين فإن ذلك لايعني أن هذا الشعر شيءٌ منفصل عن الشعر العربي في المشرق بل هو جزء منه ، وامتداد طبيعيٌ له ، ولسنا نطالب الشاعر الأندلسي بالتميز المنفصل ذلك لأنه يكتب شعراً عربياً بلغة عربية .

والذي يعنينا من البحث في غرض المديح أو غيره من الأغراض التقليدية المعهودة في الشعر العربي ، هو معرفة تأثير الشعراء العباسيين المحدثين والمجددين في الشعر الأندلسي .

---

(١) المقتبس في تاريخ الأندلس عهد الأمير عبدالله بن محمد بن عبدالرحمن بن الحكم بن هشام، لابن حيان، تحقيق الدكتور اسماعيل العربي، منشورات دار الآفاق الجديدة، المغرب، ط١/ ١٤١١هـ، ص ٦٢ ومابعدها.

(٢) الفن ومذاهبه ، ص ٤١٧ .

وهذا الأثر نلمسه كثيراً في شعراء فطاحل أمثال يحي بن حكم الغزال ، وابن عبدربه وابن هاني ، وابن دراج ، وتتفاوت درجات هذا التأثير في الشعراء الأندلسيين ، وتختلف أيضاً طرقه ، فقد يأتي على هيئةمعارضة لقصائد مشهورة للشعراء المحدثين ، أو يتأثر الشاعر بالمنهج السائد لقصيدة المدح في الشعر العربي ، وإن اختلفت بعض الشيء لدى الشعراء المحدثين من حيث استبدال المقدمة الطللية بالنسيب أو الخمر ، أو حديث الشاعر عن معاناته الذاتية .

وقد يأتي هذا التأثر من قبل الشاعر الأندلسي في بيت أو بيتين يأخذ المعنى منها ، أو تضميناً لبعض الأبيات أو الأشطار في القصيدة ، وخير مصدر حفل بعرض هذه التأثيرات هو الذخيرة لابن بسام الشنتريني ، وغيرها من المصادر الأندلسية التي تأثرت بمنهج أبي منصور الثعالبي في كتابه اليتيمة .

والتأثير في المعاني شيءٌ يلقانا عند أبرز الشعراء الأندلسيين فابن هانيء على شهرته فإن معانيه لاتكاد تختلف عن تلك المعاني التي (نلقاها في الشعر العربي عند العباسيين) (١) .

ومن أبرز الشعراء العباسيين الذين وضح تأثيرهم على شعراء الأندلس ، أبو تمام ، والمتنبي لشهرتهما ، وقوة انتشار أشعارهما على ألسنة الناس وهما قد برّزا في غرض المديح بصفة خاصة ، على أننا لانغفل أثر أبي نواس ومسلم ، وابن الرومي ، والبحتري وابن المعتز ، وإن كانوا أقل تأثيراً من الشاعرين السابقين .

وهذا الأثر إنما نتج عن قراءة وحفظ لأشعار هؤلاء الشعراء العباسيين ، فكان الشاعر الأندلسي يحرص أشد الحرص على تتبع كل ما استجد في المشرق ، فيجلبه ويعكف عليه حفظاً ودرساً ، حتى يؤصل ثقافته الأدبية من منبعها الصافي في المشرق ، حتى أصبح الشاعر الأندلسي لايقل وعيه بمذاهب الشعر في المشرق عن الشاعر الذي يقطن في بغداد أو البصرة أو أي بلد مشرقي ، ونأخذ مثالاً لذلك

---

(١) الفن ومذاهبه ، ص ٤٢٠ .

ابن شهيد الأندلسي كان ملماً بكثير من اتجاهات الشعر العربي ، فقد عرف اتجاه بشار من خلال شعره ، وعرف أبا نواس واحتذاه ، وتأثر بمذهب أبي تمام وبالغ في الثناء عليه ، واعجب بالمتنبي ، وكان يحمل له الكثير من معاني التقدير في نفسه ، وأما البحتري فقد صرح بأنه كان من أساتذته ، كل ذلك بسطه ابن شهيد في ثنايا رسالته الموسومة بـ« التوابع والزوابع » ، وقد ظهر أثر ثقافته هذه على شعره إما بمعارضتهم أو أخذ بعض معانيهم ، وكان على مكانته لا يعبأ بما يقال لأنه كان يمتلك حساً نقدياً مكنه من طرق الأخذ والمعارضة .

مظاهر التأثير في قصيدة المدح :

إن الأطوار التي طرأت على قصيدة المدح في المشرق ، نجدها في الأندلس، فكان المنهج الذي ذكره ابن قتيبة - كما عرفنا سابقاً - مصيطراً إلى حد كبير على قصائد الشعر العربي حتى عند المحدثين أنفسهم ، بالرغم من خروجهم على عمود الشعر المعروف ، واستمر كذلك هذا المنهج مع الشعراء الأندلسيين بل ربما يكون الذوق الأندلسي أشد تمسكاً بذلك ، يروى أن الشاعر هلال البياني عندما مدح ابن حمدين قاضي قرطبة بقصيدة أولها :

عَرِّج على ذاك الجنابِ العالي ... واحكُم على الأموالِ بالآمالِ

فيه ابنُ حمدينَ الذين لِنوَالِه ... من كلِّ أرضٍ شَدُّ كلّ رحالِ

فقال له القاضي : ماهذا الوثوب على المدح من أول وهلة ! ، ألا تدري أنهم عابوا ذلك ، كما عابوا الطول أيضاً وأن الأولى التوسط » (١) .

وليس ببعيد عنا تلك القصة التي جرت بين أبي تمام وعثمان بن المثنى في بحر القلزم عندما أنشده قوله :

اللهُ أكبرُ جاءَ أكبرُ مَنْ مَشَى ... فتعثرتْ في كُنهِهِ الأوهامُ

---

(١) نفح الطيب ٣/ ٥٣٨ .

وكان هذا البيت مبتدأ الشعر ، فقال ابن المثنى : شعر حسن لولا أنه لا ابتداء له (١) .

ويلتقي الشاعر الأندلسي مع القدماء في تعدد موضوعات مدائحه ، وربما خالفهم في نوعيتها ، لأن لكل زمان موضوعاته التي بها يستطيع الشاعر استمالة ممدوحه ، ونيل الحظوة عنده(٢) ، ونظرا لسيطرة المنهج التقليدي على قصيدة المدح في الأدب العربي بصفة عامة ، ولأن أغلب الحكام لايحبون الشاعر الذي يخرج عن ذلك المنهج ظل الشاعر الأندلسي أسيراً لهذا المنهج في بدايته على الأقل ، وهو بهذا لم يخرج عن شعراء بني العباس الذين هم زعماء التجديد ، فكانوا يسعون إلى إرضاء ممدوحيهم بالتزام ذلك المنهج التقليدي ، في بعض قصائدهم.

وقد يخرج الشاعر الأندلسي عن منهج القدماء ، إلى جعل وصف الطبيعة أو الغزل ، أو الحديث عن الشراب ، أو الشكوى من الزمان في مقدمة قصيدته المدحية ، وكل ذلك سبق إليه الشعراء المحدثون في المشرق أمثال أبي نواس الذي تجرأ على إحلال المقدمة الخمرية مكان المقدمة الطللية حتى أصبحت مثالاً احتذاه الشعراء من بعده ، واحتذاه الشعراء الأندلسيون ، وكذلك أبي تمام الذي أفتتح كثيراً من قصائده المدحية بوصف الطبيعة . ، وغير خاف على أهل العلم بالشعر ماكان يفعله أبوالطيب المتنبي من افتتاحه قصائده بالشكّوى من الزمان ، وكلا الشاعرين كان لهما أبلغ الأثر على شعراء عباسيين أتو بعدهما ، وكذلك وصل أثرهما إلى الأندلس كما أشرنا سابقاً .

وقد برع الشعراء الأندلسيون في المزج بين الرثاء والمدح يمثل هذا المنهج كل من الشاعرين عبدالكريم الحاجب ، وطاهر بن حزم . وإن كانت براعتهم في المزج

---

(١) تكملة ابن الأبار ، ص ١٠ ، ١١ ، نقلاً عن ابن شريفة ، ص ١٢ في كتابه الموسوم بـ«أبوتمام والمتنبي في أدب المغاربة والأندلسيين» .

(٢) بتصرف من كتاب الأدب العربي في الأندلس ، د. عبدالعزيز عتيق ، ص ١٨٥ .

بين المدح ووصف الطبيعة لايجاريهم فيها شعراء المشرق ، وخير من يمثل ذلك ابن عبدربه الأندلسي ، وقد تجد الشاعر الأندلسي يخلط ألفاظ النسيب بالمدح ، كما فعل الشاعر القزاز عندما مدح المعتصم بن صمادح أحد ملوك الطوائف بقصيدة يقول فيها :

نفى الحبُّ عن مُقْلَتَيَّ الكرى كما نفى عن يَدَيَّ العَدَمْ
فقد قرَّ حبُّك في خاطري كما قرّ في راحتَيْكَ الكَرَمْ(١)

ودأب الشاعر الأندلسي على إهداء قصيدته إلى الممدوح مشبهاً إياها ببكرٍ حسناء أو روضة غناء ، كما قال ابن عمار للمعتضد :(٢)

وإليكَها كالروضِ زَارَتْه الصَّبا وحنى عليه الطَّلُّ حتى نَوَّرا

ذلكم منهجٌ عام لقصيدة المدح في الأندلس ، وسنتبين في الصفحات القادمة مدى استجابة الشاعر الأندلسي للتأثير العباسي في قصيدة المدح من خلال النماذج الشعرية التي ظهر فيها هذا التأثير .

ولا يقتصر هذا التأثير للمحدثين على شاعر معين ، بل فتح الشاعر الأندلسي لنفسه الباب على مصراعيه يتأثر بمن شاء من المحدثين على اختلاف مناهجهم ، ويأتي أبو نواس في مقدمة الشعراء المحدثين المؤثرين جداً على الشعراء الأندلسيين في قصيدة المدح وغيرها ، وينبع تأثيره من مكانة أبي نواس نفسه في الأدب العربي عامة ، وريادته للشعراء المجددين في العصر العباسي بصفة خاصة ، ويتجلى هذا التأثير من خلال اهتمامهم بشعره ، رواية ودرساً ، وهو كما يقول هنري بيرس إنه « أكثر الشعراء المحدثين قراءةً وأقربهم ذوقاً إلى الأندلسيين »(٣) .

---

(١) نفح الطيب ٤/ ١٠٣ .

(٢) نفسه ١/ ٦٥٦ .

(٣) الشعر الأندلسي في عصر الطوائف، هنري بيرس ، ترجمة الطاهر مكي ، ص ٣٨ .

وما من شك في أن أبا نواس احتلّ مكانة عظمى في نفوس الأندلسيين وأثر عليهم بخمرياته كما سنعرف فيما بعد إن شاء الله ، وبقدر إعجابهم بشعره كانوا يتعاملون مع شعره بحذر لأنه في نظر بعض أمرائهم يضعف النفوس ، أورد ابن القوطية رواية تؤكد هذه النظرة ، وهي أن أمية بن عيسى بن شهيد وزير الخليفة محمد بن عبدالرحمن « خطر بدار الرهائن المجاورة لباب القنطرة ، ورهائن بني قسيٍ ينشدون شعر عنترة ، فقال لبعض الأعوان : إيتني بالمؤدب ، فلما نزل في فراش المدينة ، وأتاه المؤدب ، فقال له : لولا أني أعذرك بالجهل لأدبتك ، تعمد إلى شياطين قد شجى الخلفاء بهم ، فترويهم الشعر الذي يزيدهم بصيرة في الشجاعة كف عن هذا ولا ترويهم إلا خمريات الحسن بن هانيء وشبهها من الأهزال»(١) . وهذا الموقف ، وإن بدا أنه استخفاف بشعر أبي نواس إلا أنه يؤكد وعي الأندلسيين التام بالشعر العربي بعامة ، والشعر العباسي بخاصة . وقد كان لشعر أبي نواس رواجاً كبيراً في الأندلس ، ولاسيما الطبقة العليا من الأمراء والوزراء كانوا يحرصون على سماع شعره ، ويدعون شعراءهم لمعارضته .

وقد انطلق شعراء الأندلس يتابعون شعر أبي نواس ويرددونه في مجالسهم، مذ نقله إليهم الشاعر الفحل عباس بن ناصح(٢) إثر عودته من المشرق .

أما تأثر الشعراء في الأندلس بشعره فقد جاء على هيئات متعددة فتارةً يعارضونه على سبيل الاعجاب والتحدي ، وتارة أخرى يغيرون على معانيه ويأخذونها في ثنايا قصائدهم .

ومن أبرز المعارضين لأبي نواس شاعر الأندلس الكبير ابن دراج القسطلي ،

---

(١) تاريخ افتتاح الأندلس ، ابن القوطية ، دار الكتاب المصري ، دار الكتاب اللبناني ، الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م ، ص ١٠٦ .

(٢) ينظر طبقات الزبيدي ص ٢٦٢ .

فقد أنشأ رائية ممتازة على غرار رائية أبي نواس ، وكلاهما في غرض المديح ، فأبونواس يمدح الخصيب بن عبدالله العجمي البغدادي فيقول : (١)

أجارة بيتينا أبوك غيــــور   وميسور مايرجى لديك عسير

وابن دراج يمدح المنصور بن أبي عامر فيقول في مطلعها : (٢)

ألم تعلمي أن الثواء هو النوى   وأن بيوت العاجزين قبــورُ

وابن دراج لم تكن معارضته تقليداً ، بل هي معارضة براعة واثبات قدرة لأنه ليس شاعراً مبتدئاً ، عديم التجربة والثقافة ، فقد وصفه ابن شهيد فقال : « . . . والفرق بين أبي عمر وغيره : أن أبا عمر مطبوع النظام ، شديد أسر الكلام ، ثم زاد بما في أشعاره من الدليل على العلم بالخبر واللغة والنسب ، وماتراه من حوكه للكلام وملكه لأحرار الألفاظ ، وسعة صدره ، وجيشة بحره ، وصحة قدرته على البديع وطول طلقه للوصف ، وبغيته للمعنى وترديده ، وتلاعبه به وتكريره وراحته بما يتعب الناس ، وسعة نفسه فيهما يضيق الأنفاس » (٣) وقد قال عنه الثعالبي : « بلغني أن أبا عمر القسطلي كان عندهم بصُقع الأندلس كالمتنبي بصُقع الشام ، وهو أحد شعرائهم الفحول هنالك وكان يجيد ماينظم » (٤) .

وقصيدة أبي نواس التي عارضها ابن دراج ، قد حظيت بمكانة مرموقة لدى شعراء الأندلس بصفة عامة ، وقد أدرك المنصور بن أبي عامر شدة تأثيرها على ابن دراج ، وكان المنصور يعجب بها حتى أنه في إحدى جلساته أنشدها بحضرة صاعد البغدادي ثم عرض عليه أن يعارضها فأبى صاعد إجلالاً لأبي نواس ، فعزم عليه المنصور ، فأنشده متمثلاً :(٥)

---

(١) ديوان أبي نواس ، ص ٤٨٠ .

(٢) الذخيرة ق ١ ، م ١ ، ص ٨٢ .

(٣) الذخيرة ق ١ ، م ١ ، ص ٦١ .

(٤) اليتيمة ٢/ ١٠٤ ، الذخيرة ق ١ ، م ١ ، ص ٦٠ .

(٥) الذخيرة ق ١ ، م ١ ، ص ٢٢ .

إني لَمُسْتَحْيِي عُـــــلا ك من ارتجالِ القولِ فيهِ
من ليس يُدْرِكُ بالرويـــــّـــةِ كيف يُدْرِك بالبديهِ

قال ابن بسام : « فلم ينفعه ذلك عنده ، ومكث فيه بقيه يومه وليلته ، وجاء بعد من الغد فأنشده قصيدته التي أولها :

خِدالَ البُرى إني بِكُنَّ بَصيرُ طَوَّتكُنَّ عني خُلْسَةٌ وقتيرُ (١)

وهذا أبو الخطاب عمر بن أحمد بن عبدالله بن عطيون التُجيبي الطليلطلي يعارض أبا نواس بقصيدة هائية في مدح المتوكل بن المظفر صاحب بطليوس المعروف بابن الأفطس ، وهذا الشاعر وصفه غير واحد من علماء الأندلس بالجودة والبراعة الشعرية ، يقول ابن بسام إنه : « . . . أحد بحور البراعة ، ورؤوس الصناعة ، نفث هاروت على لسانه بسحر إلا أنه حلو حلال وتفجرت البلاغة من جنابه ببحر . . . » (٢) . وترجم له ابن سعيد في المغرب فقال : « . . . جيد الصناعة ، وكان أبيَّ النفس ، غير متكسب بالشعر وكان في جلة الفضلاء الذين وفدوا على المتوكل بن الأفطس . . . » (٣) وقد عارض أبا نواس برائية يقول فيها : (٤)

عاكفٌ جَفْني على سهرِهِ سَيْفُ جَفْنٍ سُلّ من حَوَرِه

فهذه القصيدة كما يؤكد الدكتور محمد محمود نوفل(٥) هي معارضة

---

(١) الذخيرة ق ٤/ م ١ ص ٢٢ - ٢٣ ، وورد في نفح الطيب ٣/ ٩٧ هكذا «إني لأستحيي. . ».

(٢) الذخيرة ق ٣ ص ٧٧٣ .

(٣) المغرب ٢/ ١٦ .

(٤) تاريخ المعارضات في الشعر العربي ، ص ١١٩ .

(٥) الديوان ، ص ٤٢٧ .

لقصيدة أبي نواس التي مدح بها العباس بن عبيدالله بن جعفر المنصور ، وفيها يقول : (١)

أيها المنتابُ عن عُفُـــرِه لستُ من لَيلي ولا سَمرِه

إلى آخر القصيدة .

ولن نطيل القول في تأثير أبي نواس في شعر المديح ، لأنه سيصحبنا في التأثير في الغزل ووصف الخمر الذي يعد زعيمه ، وتبعه فيه شعراء الأندلس .

أما أبرز شاعرين تأثر بهما الأندلسيون في غرض المديح فهما أبوتمام والمتنبي ، لأنهما برعا في هذا الفن .

وقد اهتم الأندلسيون بشعر أبي تمام ، وأقرؤوه لطلاب العلم هناك ، وقامت حوله حركة نقدية . منطلقة من ذلك الصراع الذي ظهر في المشرق حول الطائيين ، وقد عرف نقاد الأندلس أبا تمام بأنه شاعر الصنعة كما كان كذلك يعرف عند المشارقة ، وهذه الصنعة فسرها ابن حزم بـ« التأليف الجانح للاستعارة في الأشياء والتحليق على المعاني والكناية عنها إلى أن قال ورب هذا الباب من المتقدمين زهير بن أبي سلمى ، ومن المحدثين : حبيب بن أوس » (٢) ، وتحدث غير واحد من شعراء الأندلس ونقادهم عن أبي تمام وألفت الرسائل والشروح على شعره ، حتى أصبح له أنصار ومعارضون - كما هو الشأن في المشرق ، يقول الدكتور محمد بن شريفة : « وعلى مستوى النقد الأدبي عرفت الأندلس وبلدان المغرب شيئاً من الحركة النقدية حول أبي تمام وانتهى إليها بعض ذلك الصراع الأدبي

---

(١) الديوان ص ٤٢٧ .

(٢) التقريب لحد المنطق ، لأبي محمد بن حزم ، ت / إحسان عباس ، منشورات دار مكتبة الحياة ، ص ٢٠٧ .

الذي ظهر في المشرق حول الطائيين ، فكان لأبي تمام أنصاره ، ونستطيع أن نعد منهم أولئك الذين عنوا بنشر شعره وشرحه من أمثال عثمان بن المثنى ، ومؤمن بن سعيد وأبي عبدالله الغابي وأبي عبدالله بن الأصفر وغيرهم . »(١) .

وقامت الموازنات بين أبي تمام والمتنبي كما فعل ابن رشيق ، وعلى غرار ذلك وازن الأندلسيون بين شعرائهم الذين شبهوا بالشاعرين كابن قزمان ، ومدغليس(٢) ، قال المقري : « وكان أهل الأندلس يقولون : ابن قزمان في الزجالين بمنزلة المتنبي في الشعراء ، ومدغليس بمنزلة أبي تمام بالنظر إلى الانطباع والصناعة ، فابن قزمان ملتفت إلى المعنى ، ومدغليس ملتفت إلى اللفظ»(٣) .

وكان اهتمامهم بهذين الشاعرين كبيراً ، فقد ألف احمد بن لبال الشريشي رسالة سماها « روضة الأديب في التفضيل بين المتنبي وحبيب » قام بإخراجها الدكتور محمد بن شريفة .

فمن ذلك يظهر ماكان لشعر أبي تمام من هيمنة على نفوس شعراء الأندلس ونقادهم ، فقد ظلوا يتمثلونه ، ويرددنه في مجالسهم ، ويعارضونه إعجاباً به ، وإثباتاً لبراعتهم في مجاذبة الفحول .

ومعارضة أبي تمام من قبل شعراء الأندلس ، أكثر من أن تحصى ، فنجد كبار شعراء الأندلس يعارضونه في قصائد المديح وفي غيرها ، يقول الدكتور محمد بن شريفة إن هذه المعارضة التي جاءت نتيجة لانتشار شعر أبي تمام في الأندلس حتى غدا مألوفاً في البيئة الأندلسية « قد بدأت مع جيل ابن عبدربه فقد حذا هو وشعراء الناصر حذو أبي تمام في بناء قصيدة المدح التي يشتمل القسم الأخير منها على نعت القصيدة ، ومدحها »(٤) .

---

(١) أبوتمام وأبو الطيب في أدب المغاربة والأندلسيين ، ص ٥٢ .

(٢) هو أبو عبدالله بن الحاج المعروف بـ(مدغلّيس) صاحب الموشحات . النفح ٣/ ٣٨٥ .

(٣) النفح ٣/ ٣٨٥ .

(٤) أبوتمام وأبوالطيب في أدب المغاربة ، محمد بن شريفة ، دار الغرب الإسلامي ص٥٦ .

ومن أبرز قصائد أبي تمام التي عارضها شعراء الأندلس ، بائيته المشهورة التي امتدح فيها المعتصم بالله محمد بن هارون الرشيد ، ويذكر حريق عمورية وفتحها (١) ، وكان لهذه القصيدة مكانة عظيمة في نفوس الأندلسيين فقد تداولها شعراؤهم ، ووزراؤهم ، وكتابهم ، وأوردوا نماذج منها في رسائلهم وكانت كتب الفتوح تبدأ بأحد أبياتها المشهور :

فتحُ الفتوحِ تعالى أن يحيطَ به   نظمٌ من الشعرِ أو نثرٌ من الخُطبِ

ومن ذلك ماذكره ابن صاحب الصلاة في الكتاب الذي أنشأه الكاتب أبو الحسن عبدالملك بن عياش ، يذكر فيه خبر انتصار الموحدين والعرب على العجم وهزم ابن مردنيش هزيمة ساحقة ، وقال فيه : « . . . ويوم كيوم ذي قار انتصف فيه الموحدون والعرب من العجم ، ولمن سار لهم في الزي والكلم ، وتمسك منهم بسبب . . . » (٢) ثم ذكر بيت أبي تمام الآنف الذكر .

وقد تمثل المعتمد بن عباد بمطلع هذه القصيدة مفتخرا بشعره فقال :

فهاكها قطعةً تَطوى لها حسداً   (السيفُ أصدقُ أنباءً من الكتبِ) (٣)

فالتضمين دلالة الاعجاب ، وأسلوب مدح الشعر هو نهجٌ تمامي ولاشك ، والقصيدة نفسها معارضة لقصيدة العمورية ، وإن اختلف الغرض ، فهو يقول فيها :

لو أستطيعُ على التزويدِ بالذهبِ   فقلتُ لكنّ عداني طارقُ النُّوبِ
ياسائلَ الشعرِ يجتابُ الفلاةَ بهِ   تزويدُك الشعرَ لايُغني عن السغَبِ

أما المعارضة الصريحة المتفقة في الغرض والروى فهي معارضة الشاعر المرواني المسمى بـ«الطليق» التي مدح بها الخليفة عبدالمؤمن بن علي يقول فيها :

---

(١) الديوان ج١ رقم ٣ ، ص ٤٠ ش . خ

(٢) تاريخ المن بالإمامة ، ت/ عبدالهادي التازي ، دار الأندلس ، بيروت ص ٢٧٧ .

(٣) الذخيرة ق ٢ ، ١ ص ٦٨ .

(٤) المصدر نفسه الصفحة نفسها .

مـا للعـدا جنةٌ أوفى من الهـرَبِ كـيفَ المفـرُّ وخـيلُ اللهِ في الطَلَبِ
لو بدلوا قَـدَماً زلت بِقَادِمـــــةٍ لأصبحَ الكلُّ طيـاراً من الرُّعُبِ(١)

وهذه القصيدة كما يقول الدكتور محمد بن شريفة « . . هي مثل العمورية جواً ومناسبةً ولا تقصر عنها حوكاً وجودةً ، وقد توارد فيها بحكم الموضوع والقافيه مع أبي تمام في بعض القوافي » (٢) .

ولم يقف تأثير هذه البائية عند التضمين ، بل أخذ طابع التخميس ، فهذا الشاعر المترسل عبدالله بن أبي الخصال الذي كان يمثل القدرة على « التأثر بين الشعر والموشح » (٣) ، ومن تفننه كما يقول د. إحسان عباس : « بناؤه القصيدة على أشطار قصيدة أخرى لشاعر مشهور كقصيدة أبي تمام في فتح عمورية :

الحمدُ لله أضحى الدينُ معتليـــــاً وباتَ سيفُ الهدى الضمآنُ قد رَويا
إن كنت ترتاحُ للأمرِ الذي قُضـيا فـسلْه نـشراً ودَعْ عنكَ الذي طُويا
فالسيفُ أصدقُ أنباءً من الكتب(٤)

ومن أطرف ماعورضت به هذه القصيدة ، معارضة لسان الدين بن الخطيب بقصيدة يهجو بها خصمه أبا الحسن النباهي المالقي يقول فيها :

ياكوكبَ النحسِ قَرِّب على الحِقَـب تلك الذُنابى أتتّ بالحـــرْب والحرَب
لما رأيناك حـقّـقْنا الذي وصـفُـــوا للنـــاسِ من حـدثَانٍ جـاءَ في الكُتُبِ

---

(١) تاريخ المن بالإمامة ، ص ١٦٠ .

(٢) أبو تمام وأبو الطيب في أدب المغاربة ، ص ٥٧ .

(٣) تاريخ الأدب الأندلسي/ عصر الطوائف والمرابطين، إحسان عباس، ص٢٤٧ .

(٤) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

إذ قَالَ شَاعِرُ طيٍّ في قصيدتِه   وهو المقلَّدُ في علمٍ وفي أدبِ
«وخوفوا الناسَ من دهياءَ مظلمةٍ   إذا بدا الكوكبُ الغربيُّ ذو الذَنَبِ»(١)

فكما ترى أن الشاعر أفصح عن إعجابه وحبه لأبي تمام ، ولم يكتف بالمعارضة بل ضمن قصيدته مستشهداً بأحد أبيات « العمورية » .

وممن عارضه في غرض المديح الشاعر المشهور أبو اسحق ابن خفاجة بقصيدة مدح بها الأمير أبا يحي بن إبراهيم ويسأله تشكر القائد الأعلى أبي عبدالله ابن عائشة عن بره به وإجماله معه يقول فيها :

سمحَ الخيالُ على النوى بمزارِ   والصبحُ يمسحُ عن جبينِ نهارِ
فرفعتُ من نارِي لضيقِ طارقٍ   يعشُو إليها من خَيالٍ طارِ(٢)

فهو يعارض رائية أبي تمام التي مدح بها المعتصم مشيداً بنصره على «الأفشين» خيذر بن كاوس ، ومطلعها :

الحقُّ أبلجُ والسيوفُ عوارِ   فحذارِ من أسد العرينِ حذارِ

ولا تقل سينية أبي تمام « ما في قوفك ساعة من باس » عن البائية وكلاهما في مدح المعتصم ، وقد كانت من الشهرة بمكان في الأندلس يقول الدكتور محمد ابن شريفة بأن المحدث ابن دحية « قد ساقها من حفظه في كتابه النبراس »(٣) ، ثم أشار إلى معارضة ابن عبدربه لها عندما وقف يستمنح أبا العباس القائد فقال :

اللهُ جرَّدَ للندى والباسِ   سيفاً فقلدّه أبا العباسِ(٤)

---

(١) نثير فرائد الجمان ، ص ٢٥٢ .

(٢) الديوان ، ت/ د. سيد غازي ، ط٢ ، الاسكندرية ، ص ٣٣ .

(٣) أبو تمام وأبو الطيب ، ص ٦٤ .

(٤) العقد ١/ ٢٦٩ .

وعارضها الأعمى التطيلي بقصيدة يمدح فيها (أبا العباس صاحب الأحباس) يقول فيها :

شعري وجودُك يا أبا العباسِ مثلان قد سَارا بِنا في الناسِ(١)

فهذه النماذج تؤكد مالأبي تمام من مكانه مكينه في نفوس الأندلسيين ، يقول ابن اللبانة :

حبيبٌ إلى قلبي حبيبٌ لقولِـهِ « عسى وطنٌ يدنُو بهم ولعلَّما »

ولا ننسى الشاعر المبدع أبا الوليد بن زيدون ، فقد تأثر بأبي تمام في قوله :

بني جـهـورٍ أحـرقـتمُ بجـفـائِكم جناني فـمـا بـالُ المدائـح تَعْـبَقُ

تعدونني كالمنـدل الرطـب إنما تطيبُ لكم أنفاسُه حين يُحْرَقُ (٢)

قال ابن بسام : « إنه أخذ هذا من قول أبي تمام :

لولا اشتعالُ النارِ فيما جاورَت ماكان يُعرفُ طيبِ عرفِ العودِ »(٣)

وكذلك قوله :

ومحاسنُ تندى رقائقُ ذكرِها فتكادُ توهِمُكَ المديحَ نسيبا

مأخوذ من قول أبي تمام :

طابَ فيه المديحُ والتذَّ حتى فاقَ وصفَ الديارِ والتَّشْبيبا(٤)

وممن تأثر به في شعر المديح كذلك حازم القرطاجني الشاعر الناقد في مقصورته التي يقول فيها :

---

(١) الديوان ، ت/ إحسان عباس ، نشر دار الثقافة ، بيروت ، ص ٧٤ .

(٢) الذخيرة ق ١ م ١ (٣٥٤)

(٣) ق ١ ، م ١ (٣٧٧) .

(٤) ق ١ ، م ١ (٣٨٢) .

جيش جيوش الرعب من قدامه   تسرى وتغز وقبله من قد غزا(١)

فهذا كما يقول شارح المقصورة من قول أبي تمام :

لم يغز جيشاً ولم ينهد إلى بلد   إلا تقدمه جيش من الرعب(٢)

ويؤكد الدكتور محمد بن شريفة بأن حازماً لابد وأن يتأثر بشعر أبي تمام لأنه كان متملئاً من شعره ، ويظهر أثر محفوظه على لسانه من حين لآخر في مقصوراته بصفة خاصة(٣) .

وأما التأثيرات في نقل معاني شعره إلى أشعارهم فهي كثيرة جداً ، وقد كشف ابن بسام النقاب عن أكثرها ، لأنه أخذ على نفسه ألا يمر ببيت فيه تأثير لشاعر مشرقي إلا ذكره مبيناً إلمام الشاعر المتأخر بالمتقدم(٤) ، بل كان يشنع على صاحبه إذا تجاهل صاحب المعنى الأصلي ومن ذلك تعليقه على بيت في المديح لابن حصن يقول فيه :(٥)

جزيل التقى يمشي الهوينا تواضعاً   ويهتز إعظاماً له كل خُنْبجُ (٦)

قال ابن بسام : « وهذا المعنى مما ركب فيه ابن حصن رأسه وحكم هواه والمعنى مشهور في من وصف بالنسك ومدح بالانسلاخ عن أبهة الملك ، ومن ذلك ماقال أبو تمام :

---

(١) أبوتمام وأبو الطيب ، محمد بن شريفة ص٧٠ نقلاً عن رفع الحجب المستورة.

(٢) الديوان ١/ ٥٩ .

(٣) بتصرف من كتاب أبوتمام وأبوالطيب لابن شريفة ص ٧٠ .

(٤) الذخيرة ق ٣ ، م ٢ ، ص ٥٩٢ ، وانظر تاريخ المعارضات ، د. نوفل ، ص ١٢٤-١٢٥.

(٥) ديوان أبي تمام بشرح الخطيب ، ج٢ رقم ٧٢ ، ص ١٩٨ .

(٦) الذخيرة ، ق ٢ م ١ ص ١٧٠ .

يقول فيُسمِعُ ويمشي فيُســرِعُ ويضربُ في ذاتِ الإلهِ فيوجعُ (١)

وكأن أبا تمام كان متمثلاً لقول عائشة رضي الله عنها في عمر رضي الله عنه عندما رأت رجلاً ناسكاً يداني الخطى ويخفض الصوت فقالت : مابال هذا ؟ قيل : هو ناسك ، قالت : عمر والله كان أنسك منه ولكنه كان إذا مشى أسرع ، وإذا تكلم أسمع ، وإذا ضرب في ذات الله أوجع (٢) .

وممن تأثر ببعض معاني أبي تمام الشاعر عبدالجليل بن وهبون ، فعندما مدح المعتمد بالله جاء ببيت يقول فيه :

ذنبي إلى الدهرِ إنْ أبدى تَعَنُّتَهُ ذنبُ الحسامِ إذا ما أحجمَ البطلُ

قال ابن بسام : « قوله : ذنب الحسام إذا ما أحجم البطل » أشار إلى قول حبيب :

وقـد يكهمُ السيفُ المسمَّى منيـةً وقـــد يرجعُ المرءُ المظفَّرُ خـائبـا

فــآفـةُ ذا ألا يصــادفَ مــضـرِبـاً وآفــــةُ ذا ألا يصــادفَ ضــاربا

ثم تعاقب الشعراء على هذا المعنى من أندلسي وغيره ، فقال ابن بسام «وأخذه البحتري ، فقال :

وعذرتُ سيفي في نُبوِّ غِراره إني ضَرَبْتُ فلم أقَع بالمضربِ

وامتدح ابن بسام شاعراً أندلسياً آخر نقل المعنى نفسه « وزاد فيه حسن النقل وبراعة التشبيه ، كما يقول ، وهو أبو الفضل بن شرف في قوله :

تقلدتْني الليالي وهي مدبرةٌ كأنني صارمٌ في كفِّ منهزمِ (٣)

ولعلنا نكتفي بهذا القدر من تأثيرات أبي تمام التي لاتحصى في شعراء الأندلس ، وننتقل إلى أثر أبي الطيب في غرض المديح على شعراء الأندلس ، فهو لم يكن بأقل شأناً في أعينهم من الطائي .

---

(١) نفسه ص ١٧١ .

(٢) نفسه بتصرف ص ١٧١ .

(٣) ينظر فيما سبق الذخيرة ق ٢ م ١ مع بعض التصرف ص ٤٩٢ .

أثر المتنبي في شعر المديح

لم يكن أثر أبي الطيب بأقل حظاً من أثر أبي تمام ، فهو شاعر العرب الأكبر غير مدافع « ولو أن هناك من يرى فيه نظاماً أثرياً مات شعره في جانب منه قلّ أو كثر ، ويمكن أن يشرح أو يدرس فحسب ، أو يحفظ في المكتبات ، أو يفهم عقلياً أو جمالياً داخل إطاره التاريخي ، والحق أنه شاعر كلاسيكي حقيقي آخر يتيح لكل جيل جديد أن يفسره ويفهمه على طريقته الخاصة ، ويقاوم في شدة أن يتحول إلى مجرد أثر أدبي . . » (١) .

وعندما نتحدث عن أثر المتنبي في شعر المديح على شعراء الأندلس ، فإن ذلك لابد أن يكون ، لأن شهرة المتنبي في شعر المديح قد بلغت الآفاق واشتهر بمداح سيف الدولة ، وغلب هذا الغرض على شعره ، وظل الشعراء والأدباء في مشرق الأرض ومغربها يقتفون أثره ، فليس ببدع أن يكون له أثر في شعراء الأندلس . يقول ابن شرف القيرواني : « . . . وأما المتنبي فقد شغلت به الألسن ، وسهرت في أشعاره العيون الأعين ، وكثر الناسخ لشعره ، والآخذ لذكره ، والغائص في بحره ، والمفتش في قعره ، عن جمانه ودرره ، وقد طال فيه الخلف ، وكثر عنه الكشف ، وله شيعة تغلو في مدحه ، وعليه خوارج تتعايا في جرحه ، والذي أقول : إن له حسنات وسيئات ، وحسناته أكثر عدداً وأقوى مدداً ، وغرائبه طائرة، وأمثاله سائرة وعلمه فسيح ، وميزه صحيح ، يروم فيقدر ويدري مايورد

---

(١) مع شعراء الأندلس والمتنبي إميليو جارثيا جومث ، ترجمة د . طاهر مكي ، ص ٤٦ .

ويصدر»(١) ، وهذا بلا شك تأكيد لقول ابن رشيق في العمدة « ثم جاء المتنبي فملأ الدنيا وشغل الناس » (٢) .

ومن يتصفح المصادر الأندلسية ذات العناية بالشعر والنقد ودواوين الشعر يجد اسم المتنبي يلمع بين آونة وأخرى ، وهذا يدل على شغف غير عادي مما جعل بعض الدارسين يقول إن الأندلس « لم يتخلف عن بقية العالم العربي في عبادته(*) للمتنبي ، ولقد حدث هذا الأمر في زمن مبكر جداً - كما يقرره بعض الباحثين - بل يمكن القول إنه حدث والشاعر نفسه على قيد الحياة » (٣) ، يؤكد ذلك حرص الأندلسيين على نقل الشعر المشرقي بما فيه شعر الشعراء المحدثين المعاصرين لهم بشتى الطرق والروايات المتعددة ، ذلك لأن « من سمات الثقافة العربية الإسلامية القديمة على العموم والمغربية على الخصوص عناية أهلها بالرواية واهتبالهم بالأسانيد ولم تكن الرواية عندهم من متعلقات الحديث وغيره من العلوم الدينية فحسب ، وإنما أخذوا بها في سائر العلوم النقلية تقريباً . » (٤) .

ويكفينا في ذلك ماذكرناه مسبقاً فيما يتعلق بالصلات الثقافية بين المشرق والأندلس ، وما أشارت إليه كتب الفهارس (٥) والمشيخات وبرامج العلماء من حرص الأندلسيين على « توثيق الكتب بأسانيد متصلة بمؤلفيها » (٦) .

---

(١) رسائل الانتقاد لابن شرف ، ت / حسن حسني عبدالوهاب ، دار الكتاب الجديد ، بيروت ص ٣٥ .

(٢) العمدة ، طبعة الدكتور محمد قرقزان ، دار المعرفة ، بيروت ١ / ٢١٢ .

(*) هذه اللفظة « صدرت من المستشرق « جارثيا جومث » ، وهي ربما تعني هنا المبالغة في الإعجاب ، واقتفاء أثر المتنبي بالنسبة لشعراء الأندلس .

(٣) مع شعراء الأندلس والمتنبي ص ٤٦ .

(٤) أبو تمام وأبو الطيب في أدب المغاربة والأندلسيين ، محمد بن شريفه ، ص ٩٤ .

(٥) ينظر مثلاً : فهرسة ابن خير الإشبيلي ، وبرنامج ابن جابر الوادي آشي : نشر جامعة أم القرى ، وبرنامج ابن أبي الربيع والرعيني ، نشر معهد المخطوطات ، مقال الدكتور عبدالعزيز الأهواني ، العدد الأول ، المجلد الأول .

(٦) أبو تمام وأبو الطيب ، ابن شريفة ، ص ٩٤ .

ويبرز من بين تلك الكتب والمؤلفات دواوين الشعر العربي التي كانت من أهم مايحرص الأندلسيون عليه ولاسيما أشعار المحدثين العباسيين ومن ضمن تلك الدواوين : ديوان المتنبي الذي انتقل إلى « جزيرة صقلية بوساطة ابن رشيق وابن شرف وغيرهما من هواة الأدب في بلاط القيروان الذين هاجروا إلى صقلية بعد الفتح العربي . . . ومن المؤكد على كل حال أن هجرة العلماء الأفريقيين إلى الأندلس الذين قضوا – كابن شرف – بعض الوقت في صقلية ، ساعدت إلى حد ما في توسع الدراسات « المتنبئية » في البلاطات الأندلسية ، ولم ينتظر ديوانِ المتنبيً قدوم بعض المثقفين الصقليين ليكون معروفاً في الأندلس العربية ، فقد لقي منذ زمنٍ بعيد في قرطبة خصوصاً أرضاً مواتية لانتشاره بعد أن صارت عاصمة خلفاء المغرب مركز حضارة مماثلاً لمركز بغداد في أوج تألقها » (١) ، وهذا يؤكد بالفعل بأن أفريقيا التي قاعدتها القيروان كانت المنطلق الأول لمعرفة البيئة الأندلسية لشعر المتنبي لأنها من « أقدم البيئات اتصالاً بشعر المتنبي ويدلنا على ذلك قصيدةٌ في ديوان الشاعر محمد بن هاني الذي أدرك زمن المتنبي ، والقصيدة تتحدث عن نسخة من شعر أبي الطيب ، وصلت إلى القيروان في حياته . » (٢) ، وذكر البديعي في « الصبح المنبي » حكاية تشير إلى أن ابن هانيء قد التقى بأبي الطيب المتنبي ، وإن كانت المقولة غير واضحة السند ، وربما نقض آخرها أولها ، وهي تُلْمع إلى أن ابن هاني كان يحرص على أن يبزَّ المتنبي بشعره ، وهو متأثر به ولاشك .

وحول معرفة الأندلسيين لديوان المتنبي ، والاهتمام به يقول بعض الدارسين : « ظهر المتنبي فملأ اسمه الآفاق العربية ، وشغل الناس شغلهم في البيئات العلمية والأدبية القريبة منه ، وشغلهم في البيئات البعيدة عنه ، وكانت

---

(١) المتنبي ، بلاشير ، ص ٤٠٨ ، ٤٠٩ .

(٢) أبو تمام وأبو الطيب ، د. بن شريفة ، ص ٩٤ .

الأندلس وهي أبعد البيئات الإسلامية عن الشرق العربي - من أهم البيئات اهتماماً بشعر المتنبي ، ومشاركة في شرح ديوانه . . . وكانت الأندلس في القرن الخامس خاصة قد استكملت شخصيتها العلمية والأدبية ، وبلغت من العلو الثقافي ماجعلها تنافس بغداد ، وتحاول جاهدةً أن تنتزع منها الصدارة ، فإذا شغل علماء المشرق العربي وأدباؤه بالمتنبي ، فالأندلس جديرة أن تشغل به ، وتُشارك في فهم شعره . » (١) .

ومن الأدلة المؤكدة لمعرفة أهل الأندلس بشعر أبي الطيب ، ماذكره ابن الفرضي : من أن زكريا بن بكر بن أحمد الغساني المعروف بابن الأشج(٢) ، كان ممن « رحل إلى المشرق ، ولقي بمصر أحمد بن الحسين المتنبي الشاعر ، وأخذ عنه ديوان شعره رواية » (٣) وكان المتنبي يعيش يومئذ في كنف « كافور » ، يصبغ عليه ألوان المديح منتظراً ولاية بمصر ، ولذلك سيكون سماعه لشعر المديح منه مباشرةً ، وذكر بعض المتأخرين أن ابن الأشج هذا سمع من المتنبي « شرحاً لبعض قصائده مما أحدث في ذهنه أثراً عميقاً ، ولما عاد إلى قرطبة شرح للجمهور ماحفظ من شعر شاعره المفضل » (٤) ، وهذا الكلام قد يكون فيه شيءٌ من الصحة ، إذا صح أن تلميذي ابن الأشج ، وهما ابن الفرضي ، ومنذر بن سعيد قد درسا شعر المتنبي بعناية - كما يقول بلاشير (٥) - .

وذكر ابن خير الاشبيلي أن أحد الراحلين إلى المشرق ، وهو محمد بن أحمد بن محمد بن قادم بن زيد القرطبي ، إلتقى بالمتنبي مشافهة بمصر وأدخل

(١) مقدمة المحققين لشرح المشكل من شعر المتنبي ، مصطفى السقا ، د. حامد عبدالمجيد ، الهيئة المصرية ، ص ٥ ومابعدها .

(٢) ترجمته في بغية الملتمس رقم ٧٤٤ .

(٣) تاريخ العلماء والرواه بالأندلس ١/ ١٧٩ .

(٤) المتنبي ، بلاشير ، ولم يشر إلى مصدر هذا الكلام ، ص ٤٠٩ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٤٠٩ .

شعره الأندلس ، وربما يكون هذا صحيحاً لأن العلم الذي اشتهر به هذا الرجل ، وينسب إليه كما يقول ابن الفرضي : « علم الشعر والأدب » (١) ، ووصفه بأنه «كان شاعراً محسناً ، وحافظاً للأخبار » (٢) .

ويبدو من كلام ابن خير ، أن أصح الروايات التي وصل عن طريقها شعر المتنبي إلى الأندلس هي رواية ابن قادم وابن الأشج ، ورواية ابن العريف (*) أبي القاسم الحسين بن الوليد ، قال ابن خير « . . كُلُّهم عن أبي الطيب المتنبي ، قال أبوبكر المصحفي ، أما ابن قادم وابن الأشج فعن المتنبي ، وأما ابن العريف فعن أبي بكر الطائي عن المتنبي » (٣) ومن هنا يظهر أن رواية ابن الأشج ، وابن قادم هي أشهر الروايات ، وليست رواية ابن العريف ، ولست أدري علام اعتمد الدكتور محمد بن شريفة على جعلها أشهر الروايات مع أن كلام ابن خير صريح في رواية الأوَّلَيْن عن المتنبي مباشرة ، وأغلب النصوص تؤكد شدة اهتمامهما بشعره أكثر من ابن العريف .

ولقي ديوان المتنبي إهتماماً كبيراً في الأوساط العليَّة في الأندلس ، فكان المعتمد بن عباد صاحب اشبيلية ، يهتم برواية شعر المتنبي ، ويستشهد بأبياته ، ويستحسنها ، مما أحدث ثورةً في نفس عبدالجليل بن وهبون ، ومن ذلك استحسانه لقوله :

---

(١) تاريخ علماء الأندلس ، لابن الفرضي ١/ ١٣٥ ، وابن خير ، ص ٤٠٣ - ٤٠٤ .

(٢) المصدر نفسه .

(*) وَهِمَ بلاشير في اسم ابن العريف ، فكتبه ابن العارف ، وأغلب المصادر التي ترجمت له : على أنه « ابن العريف » وليس ابن العارف ، ومنها على سبيل المثال : جذوة المقتبس، للحميدي ، ص ١٩٤ ، والفهرست ، لابن خير ، ص ٤٠٣ ، وتاريخ العلماء ، لابن الفرضي ١/ ١٣٥ .

(٣) فهرسة ابن خير ، ص ٤٠٣ - ٤٠٤ .

إذا ظفرتْ منك المطِيُّ بنظرةٍ　　أثابَ بها مُعْيِي المَطِيِّ ورازِمُه

فارتجل عبدالجليل بن وهبون :

لئن جادَ شعرُ ابنِ الحسينِ فإنما　　تجيدُ المطيُّ واللُّهى تفتح اللَّها

تنبأَ عُجْباً بالقريضِ ولو درى　　بأنَّك تَروِي شعرَه لتألَّها (١)

وممن درس ديوان المتنبي دراسة فاحصة ابن زيدون الشاعر حيث كان يستشهد كثيراً بشعره في رسائله .

ومن فوائد الاهتمام بشعر المتنبي ، أنه كان يُحتج به في تحديد أماكن بعض المدن ، ومعرفة أسمائها ، فعل ذلك البكري فيما يقال في كتابه « معجم مااستعجم » .

وأما فيما يتعلق باحتضان شعره والانكفاء عليه درساً وحفظاً ، وشرحاً ، فقد توفر على ديوانه عدة شروح أندلسية حيث ذللت صعوبته وأبهمت مجمله ، ليسهل على الدارسين تناوله ، وقد كثرت الشروح على هذا الديوان ، يقول ابن خلكان : « . . . واعتنى العلماء بديوانه فشرحوه وقال لي أحد المشايخ الذين أخذت عنهم : وقفت له على أكثر من أربعين شرحاً مابين مطولات ، ومختصرات، ولم يُفعل هذا بديوان غيره ، ولاشك أنه كان رجلاً مسعوداً ، ورزق في شعره السعادة التامة . » (٢) .

ويأتي في أوائل شارحي (٣) ديوانه الأديب اللغوي أبو عبدالله محمد بن

---

(١) نفح الطيب ٣/ ١٩٤ .

(٢) وفيات الأعيان ، ت إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ١/ ١٢١ .

(٣) ذكر ذلك صاحب هدية العارفين جـ٦ م ٢ ص ٤٤ ، مع أن ابن الفرضي لم يذكر ذلك ، وكل الذي ذكره : أنه كان عالماً بالعربية واللغة حافظاً للأخبار ، والأنساب والأيام ، والمشاهد والتواريخ .

أبان القرطبي أحد معاصري المتنبي ، فقد شرح شعره ولم تمنعه المعاصرة من ذلك ، وذكر أنه توفي في السنة التي توفي فيها المتنبي وهي سنة ٣٥٤ هـ .

أما الشرح المشهور فهو شرح ابن الأفليلي ، وقد فخر به ابن حزم في رسالته عن فضائل أهل الأندلس عندما تحدث عن المؤلفات التي أُلفت في الشعر فقال : « . . ومما يتعلق بذلك شرح أبي القاسم إبراهيم بن محمد بن الإفليلي لشعر المتنبي ، وهو حسن جداً » (١) ، وابن الأفليلي هذا عالم كبير من أهل قرطبة ، قال عنه ابن خلكان : « كان من أئمة النحو واللغة ، وله معرفة تامة بالكلام على معاني الشعر وشرح « ديوان المتنبي » شرحاً جيداً وهو مشهور » (٢) ، ومن أعجب الأمور أن يكون شرح الأفليلي مرجعاً لشراح مشارقة لهم شأنهم في حراسة الشعر والقيام عليه أمثال أبي البقاء العكبري صاحب « التبيان في شرح الديوان » ، وقد صرح بإفادته منه ومن غيره ، فقال : « . . وجمعت كتابي هذا من أقاويل شراحه الأعلام معتمداً على قول إمام القوم المقدم فيه ، الموضح لمعانيه ، المقدم في علم البيان أبي الفتح عثمان ، وقول إمام الأدباء ، وقدوة الشعراء أحمد بن سليمان أبي العلاء ، وقول الفاضل اللبيب إمام كل أديب أبي زكريا يحي بن على الخطيب ، وقول الإمام الأرشد ، ذي الرأي المسدد ، أبي الحسن على بن أحمد ، وقول جماعة كأبي علي ابن فورجه ، وأبي الفضل العروضي ، وأبي بكر الخوارزمي ، وأبي محمد الحسن ابن وكيع ، وابن الافليلي ، وجماعة » (٣) ، فهذا النص يفيدنا فائدتين :

الأولى : المكانة الكبيرة التي حظي بها ديوان المتنبي في المغرب والمشرق فأُلفت حوله هذه الشروح التي استقى منها العكبري .

الثانية : إفادة المشارقة من الأندلسيين على عكس ماهو متوقع ، فهاهو

---

(١) نفح الطيب ٣/ ١٧٢ .

(٢) وفيات الأعيان ١/ ٥١ .

(٣) مقدمة التبيان في شرح الديوان .

العكبري يصرح بشرح أبي القاسم الافليلي ، من ضمن الشروح التي قامت على هذا الديوان ، وقد أفاد منها .

هذا وتذكر المصادر أن هناك شرحاً مكملاً لشرح ابن الافليلي وضعه الأعلم الشنتمري ، يقول الدكتور محمد بن شريفة بأنه « خاص بقصائد الصبا من شعر أبي الطيب المتنبي ، هكذا سماه الأعلم في مقدمة شرحه على حماسته ، وسماه كذلك البديعي في الصبح المنبي » (١) ، والبديعي أشار إلى كتابين للأعلم فسمي الثاني قصائد الصبا للأعلم ، ولم يسم الأول ، وإنما اكتفى بقوله : وكتاب أبي الحجاج يوسف بن سليمان الأعلم في أثناء تعدده لشروح ديوان المتنبي(٢) ، والأعلم هو تلميذ ابن الافليلي ، ذكر ابن خلكان مايشير بأن شرحه لديوان المتنبي لايعدو أن يكون تتمة أو مساعدة لشيخه ، فهو يقول : « وساعد شيخه ابن الافليلي . . . على شروح ديوان المتنبي . . » (٣) ثم عقب على ذلك بقوله : « وغالب ظني أنه شرح الحماسة فقد كان عندي (شرح الحماسة) للشنتمري في خمس مجلدات . . . الخ » (٤) .

ولايفوتنا ونحن نختم الحديث عن بعض شروح شعر المتنبي ، أن نذكر شرح (٥) أبي الحسن علي بن سيدة صاحب كتاب المحكم ، والمخصص ، وهو شرحٌ « ذو قيمة خاصة من حيث التفاته إلى ظاهرة في شعر المتنبي أسماها الأقدمون : مشكل أو مشكلات شعر المتنبي ، ويمكن أن نطلق عليها ظاهرة الغموض في شعره . . . » (٦) .

---

(١) أبوتمام وأبوالطيب ، ص ١١١ .

(٢) ينظر في ذلك الصبح المنبى ، ص ٢٦٨ - ٢٦٩ .

(٣) وفيات الأعيان ٧/ ٨١ - ٨٢ .

(٤) المصدر السابق ٧/ ٨٢ .

(٥) طبع الكتاب بتحقيق مصطفى السقا ، وحامد عبدالمجيد بمصر ، وله طبعات أخرى بسوريا والعراق .

(٦) أبوتمام وأبوالطيب ، ابن شريفة ، ص ١١٩ .

ولست بصدد رصد الكتب والشروحات التي ألفت على ديوان المتنبي لأن هذا الأمر ليس هيناً أن نستقصى هذه الشروح والتي قال عنها البديعي ، بعد أن ذكر الكثير منها (. . . سوى الشروح التي لم نسمع بذكرها) إلى أن قال : (ولم يسمع بديوان شعر في الجاهلية ولا في الإسلام شرح هكذا مثل هذه الشروح الكثيرة سوى هذا الديوان ، ولا تداول على ألسنة الأدباء في نظم ونثر أكثر من شعر المتنبي) (١) ، وأنا إنما أردت أن أقف على شيء من هذه الشروح لأدلل على عظم هذا الشاعر وتأثيره في شعراء الأندلس .

هذا ولم يكن أبو الطيب المتنبي نفسه يجهل الأندلس وشعراءها ، فعلى الرغم من حرص الأندلسيين على نقل أشعاره ودراستها ، فقد عرف المتنبي بعضهم وأثنى عليهم ، مما يدل على أنهم لم يكونوا نكرات ، بل وصلت شهرتهم إلى المشرق ، وقد ذكر الفتح بن خاقان في كتابه : مطمح الأنفس ، مايؤكد ذلك بقوله « أخبرني بعض العلية أن الخطيب أبا الوليد بن عيال ، - أو عباد - حَجَّ فلما انصرف تطلع إلى لقاء المتنبي ، واستشرف ورأى أن لقياه فائدة يكتسبها ، وحلة فخر لا يحتسبها ، فصار إليه فوجده في مسجد عمرو بن العاص ففاوضه قليلاً ، ثم قال أنشدني لمليح الأندلسي ، ويعني ابن عبدربه ، فأنشده :

يا لؤلؤاً يَسبي العقولَ أنيقَا ... ورشاً بتَقْطيعِ القلوبِ رفِيقَا

ماإن رأيتُ ولا سمعتُ بمثلِه ... دُرّاً يعودُ من الحياءِ عَقِيقَا

وإذا نظرتَ إلى محاسنِ وجهه ... أبصرتَ وجهَك في سناه غَرِيقا

يا من تقطّع خصرُه من رقةٍ ... مابالُ قلبِك لا يكونُ رقِيقَا

---

(١) الصبح المنبي ، ص ٢٦٩ .

فلما أكمل إنشاده استعاده منه ، وقال : يا ابن عبدربه لقد تأتيك العراق حبواً » (١) ، وهذا موقفٌ شجاع أن يشيد شاعر عظيم مثل المتنبي بمكانة شاعر أندلسي ، وهناك ماهو أعجب من هذا ، يقول ابن بسام : « وحكي أن أبا الطيب المتنبي على قلة رضاه عن شعر أحد فإنه على ماذكر عنه أنشد لجملة من شعراء الأندلس حتى أنشد قول ابن هذيل :

إذا حبستُ على قلبي يدي بيدي وصحتُ في الليلةِ الظلماءِ واكبدي
ضَجَّتْ كواكبُ لَيلي في مطالِعها وذابتِ الصخرةُ الصماءُ من كَبدي

فقال أبو الطيب : هذا أشعر أهل المغرب » (٢) .

وورد البيتان كلاهما في موطن متقدم من الذخيرة على هذا النحو : (٣)

لما وضعتُ على قلبي يدي بيدي وصحتُ في الليلةِ الظلماءِ واكبدي
ضَجّتْ كواكبُ ليلي في مطالِعها وذابتِ الصخرةُ الصماءُ من جَلَدي

فإتيانه هنا بلفظة « وضعت » أليق بالمعنى من « حبست » ، وذوب الصخرة من شدة الصبر والجلد أفضل ، مما يفهم منه معاناة الكبد لأنه يبعد المعنى ويغربه عن الأفهام ، وفي هذه الرواية أشار ابن بسام إلى أن المتنبي قد أعجب بها : وقال : «هذا أشعر القوم » (٤) . ولفظة القوم هنا يجب ألا تمر مرّ الكرام ، فهي ذات مغزى بعيد يدرك بقليل من التأمل والرجوع إلى قصة وفود(٥) الشاعر عباس بن ناصح الجزيري على زعيم المحدثين في المشرق العربي أبي نواس ، وقد دار بينهما حديث طريف ، وعندما سأله : من أين تكون ؟ فأجابه عباس ، بأنه من المغرب

---

(١) مطمع الأنفس ، للفتح بن خاقان ، ت/ محمد علي شوابكة ، ط مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ص ٢٧٣ .

(٢) الذخيرة ق٢/ م١ ، ص ٣٤٧ .

(٣) المصدر السابق ص ٥١٤ .

(٤) الذخيرة ق٢/ م٢ ، ص ٥١٤ .

(٥) ينظر طبقات النحويين واللغويين للزبيدي ص ٢٦٢ .

الأقصى من قرطبة ، فقال أبو نواس : دار القوم ! ؟ (١) ثم طلب منه أن ينشده لشعراء بلده ، فأعجب بهم إعجاباً شديداً ثم استنشده لنفسه ، فزاده إعجاباً وكأنه يقول :

وحدثتنا ياسعدُ عنها فزدْتنا جنوناً   فزدْنا من حديثك ياسعدُ(٢)

فلنتأمل لفظة القوم في الموضعين ، فقد جاءت « بأل العهدية » ، وأل العهدية هذه لها مدلول نحوي ولغوي ، يقول ابن هشام رحمه الله : (٣) «فالعهدية إما أن يكون مصحوبها معهوداً ذكرياً نحو : **﴿ كما أرسلنا إلى فرعون رسولا ، فعصى فرعون الرسول ... الاية ﴾**(٤) . . . أو معهوداً ذهنياً نحو : **﴿إذ هما في الغار ... الاية ﴾**(٥) .

والشيء المراد بيانه من إفادتنا من « أل » في « القوم » هو أن بالأندلس رجالاً هم مناط الثريا ، في أعين النابغين من الشعراء المحدثين ومعهودين بالنسبة لهم ، وهذا يؤكد أن ثمة صلة حميمة بين المشرق والأندلس ، ليست صلة عابرة بل هي صلة معرفة ، وإعجاب وتقدير من الطرفين ، وقد بسطنا القول في ذلك في الفصل الخاص بالصلات الثقافية بين المشرقين .

وللمتنبي مكانة كبيرة في نفوس الأندلسيين إذ كانوا يربطون بينه وبين النابغين من شعرائهم أمثال يوسف بن هارون الرمادي فكانوا يقولون : « فتح الشعر بكندة وختم بكندة ، يعنون إمرأ القيس والمتنبي ويوسف بن هارون الرمادي وكانا متعاصرين » (٦) وكلاهما من شعراء المديح .

---

(١) بتصرف من طبقات الزبيدي ، ص ٢٦٢ ، وقد مرت بنا في فصل سابق .
(٢) البيت قيل إنه لعباس بن الأحنف ، وفيات الأعيان لابن خلكان ٣/ ٢٠ .
(٣) المغني ١/ ٧٢ ، دار الفكر ، ط ٥ ، ت/ نخبة من الأساتذة .
(٤) المزمل ٧٣/ ١٥ - ١٦ .
(٥) التوبة ٩/ ٤٠ .
(٦) جذوة المقتبس ، ص ٣٧٠ .

وهكذا كان المتنبي يشغل حيزاً واسعاً في حياة أهل الأندلس لايمكننا الإلمام به في هذه الوقفة العجلى ، ولولا مقتضيات البحث العلمي ولوازمه لما أعنتُّ نفسي بالبحث عن هذه الأدلة والبراهين ، لأننا بإزاء شاعر قيل عنه « وجاء المتنبي فملأ الدنيا وشغل الناس » (١) فكيف لايشغل أهل الأندلس الذين أولعوا أشد الولع بتتبع أخبار الشعراء المحدثين ، وتسمية شعرائهم بأسمائهم ومعارضتهم حيناً ، والنسج على منوالهم حيناً آخر ، اعتزازاً وافتخاراً ، فابن هاني شبه بالمتنبي ، والرمادي يتصل به نسباً ، وابن دراج قال عنه أبو منصور الثعالبي « كان بصقع الأندلس كالمتنبي بصقع الشام ، وهو أحد الفحول ، وكان يجيد ماينظم ويقول»(٢).

ومن الشعراء الفخورين بالتلمذة على الشعراء المحدثين ابنُ شهيد الأندلسي فعندما التقى في رحلته إلى وادي عبقر بشيطان المتنبي « حارثة بن المغلس » وصفه بأوصاف تدل علي عظم مكانته عنده ، فلم يستنشده إكباراً وإجلالاً ، وأراد أن ينشده ليسمع رأيه في شعره ، وقد جرى بينهما حوار طريف أورده ابن شهيد في رسالة «التوابع والزوابع» على هذا النحو : « فقال لي زهيرُ(٣) ومن تريد بعد ؟ : قلت له : خاتمة القوم صاحب أبي الطيب ، فقال : اشدد له حيازيمك وعَطِّر له نسيمك ، وانثر عليه نجومك ، وأمال عنان الأدهم إلى طريق فجعل يركض بنا ، وزهير يتأمل آثار فرس لمحناها هناك . فقلت له : ماتتبعك لهذه الآثار ؟ قال : هي اثار فرس حارثة بن المغلِّس صاحب أبي الطيب ، وهو صاحب قنص ، فلم يزل يتقراها حتى دفعنا إلى فارس على فرس بيضاء كأنه قضيب على كثيب ، وبيده قناة قد أسندها إلى عنقه ، وعلى رأسه عمامة حمراء قد أرخى له عذبةً صفراء ، فحياه

---

(١) العمدة ١/ ٢١٢ .

(٢) اليتيمة ٢/ ١٠٣ ، ط/ الشيخ محي الدين ، الطبعة الأولى ، عام ١٩٤٧م/ ١٣٦٦هـ.

(٣) زهير : هو زهير بن نمير ، شيطان ابن شهيد ، نسجه من خياله .

زهير ، فأحسن الرد ناظراً من مقلة شوساء ، قد ملئت تيهاً وعجباً ، فعرفه زهير قصدي ، وألقى إليه رغبتي ، فقالَ : بلغني أنه يتناول ، قلت : للضرورة الدافعة ، وإلاَّ فالقريحة غير صادعة ، والشفرة غير قاطعة ، قال : فأنشدني ، وأكبرته أن استنشده ، فأنشدته . . . إلخ » (١) . فهذه القصة الطريفة تؤكد حرص الشاعر الأندلسي على الافادة والتلمذة على الشاعر المشرقي ، وتؤكد ما للمتنبي من مكانة في نفوس هؤلاء الشعراء ، وقد جعله ابن شهيد خاتمة القوم ، وهذا يؤكد القول السابق « ختم الشعر بكندة » .

بعد كل هذا يمكن لنا أن نستعرض أبرز تأثيرات شعر أبي الطيب في أشعار الأندلسيين ، لتتضح مكانته أكثر ، وليبرز الشاعر الأندلسي بإزاء شاعرٍ عظيم من شعراء المديح في العصر العباسي .

وقبل أن نخوض في هذه التأثيرات يجب أن نشير إلى أن شهرة المتنبي في الأندلس قد صحبتها تلك المعركة النقدية(*) التي قامت حوله كما قامت من قبل

---

(١) رسالة التوابع والزوابع ، ت / بطرس البستاني ، ص ١١١ - ١١٢ .

(*) أشارت بعض المصادر إلى أن الأندلس قد حظيت بشيء كبير من « التراث الذي أسفرت عنه المعركة النقدية حول المتنبي سواء فيه ماألفه خصومه أو ماكتبه أنصاره » (أبو تمام والمتنبي ، ص ١٢٩) ، فمن هذه الكتب : المنصف لابن وكيع التنيسي .

واستشهد بكلامه الشريشي في شرح المقامة الشعرية فقال « وتقسيم الحريري السرقة في قوله . . . . يدخل تحت أحكام السرقات التي عدّها أبو محمد الحسين بن علي بن وكيع رحمه الله تعالى في كتابه المترجم بالمنصف في الدلالات على سرقات المتنبي . . . » (شرح مقامات الحريري للشريشي ، ت/ محمد أبوالفضل إبراهيم ، نشر المؤسسة العربية الحديثة ، القاهرة ، ٣/ ٨١ . ولم يسلم كتاب « المنصف » من النقد ، بل إنه لم يحز على رضا نقاد الأندلس ، فابن دحية يقول عنه في المطرب : « . . . وكم من مظلوم بريء نسب باتفاق خاطره وخاطر غيره إلى التلصص والإغارة نحو ماألفه ابن ==

المعركة النقدية المشهورة بين الطائيين ، ووصلت إلى الأندلس حتى قامت حركة شبيهة بها .

والمعركة كانت حول المتنبي أشد ، لأن المتنبي يعد « ظاهرة جديدة »(١) في الشعر العربي ذلك لأنه « شاعر يجمع بين القديم والحديث ، يجيء بالجزالة والقوة والبيان على خير ماكان يجيء به القدماء ، ويغوص على معاني الحياة الإنسانية غوصاً بعيداً ، ويضمن شعره فلسفة حياة وثقافة تنتمي إلى القرن الرابع . . »(٢)

وإذا كانت هذه الخصومة النقدية حول أبي الطيب قد انتقلت إلى الأندلس فمعنى ذلك أنه سيتجلى تأثير هذا الشاعر من خلال المعجبين به والمدافعين عنه ، وليس ببعيد عنا إعجاب المعتمد بن عباد بقول المتنبي :

أزورُهم وسوادُ الليل يشفعُ لي وأنثني وبياضُ الصبح يُغري بي (٣)

وكذلك قوله :

إذا ظفرتْ منكَ العيونُ بنظرةٍ أثابَ بها مُعْيِي المطيِّ ورازمُه (٤)

مما أغضب ذلك ابن وهبون ، وقد أشرنا إليه في موطن سابق . ومن المعجبين به أيضاً : المظفر بن الأفطس (أديب ملوك الأندلس غير مدافع ولا منازع - كما يقول

== وكيع عن المتنبي في كتابه الذي سماه « المنصف » ، وهو فيه أجور من قاضي سدوم » (المطرب ، لابن دحية ، ت/ الأبياري وزميلاه ، ص ٦٩ .

ونجد في المصادر الأندلسية بعامة إشارات نقدية لدى ابن بسام على سبيل المثال والأعلم وابن سيدة ، تدل على تأثرهم ، بكتب النقد التي قامت حول المتنبي وأبي تمام كالوساطة للجرجاني ، والموازنة للآمدي ، وغيرها .

(١) العبارة لإحسان عباس مع بعض التصرف ، تاريخ النقد الأدبي ، ص ٢٥٣ .

(٢) تاريخ النقد الأدبي ، د. إحسان عباس ، ص ٢٥٣ .

(٣) الديوان ، مطبعة هندية بالموسيكي بمصر ، سنة ١٣٤٢هـ ، ط/ ٢ ، ص ٣٣٩ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١٩٨ .

ابن بسام – وهو صاحب « التصنيف الرائق والتأليف الفائق ، المترجم «بالتذكرة » ، والمشتهر اسمه أيضاً بـ « كتاب المظفر » . . . . كان ينكر الشعر على قائله في زمانه . . .) قال ابن بسام : « حدثني من سمعه يقول : « من لم يكن شعره مثل شعر المتنبي أو شعر المعري فليسكت ، ولا يرضى بدون ذلك » (١) .

وكان ذكر المتنبي يتردد كثيراً في مجالس أمراء الأندلس ، ومن ذلك ماذكره ابن بسام من أن أبا عبدالله بن شرف : « قال ، يوماً للمأمون بن ذي النون أيام خدمته إياه ، واستشفافه صبابة عمره في ذراه ، وقد أجروا ذكر أبي الطيب ، فذهبوا في تأبينه كل مذهب : إن رأى المأمون – لا فارق العزة والعلاء – أن يشير إلى أي قصيدة شاء من شعر أبي الطيب حتى أعارضه بقصيدة تنسي اسمه ، وتُعَفِّي رَسْمَه ، فتثاقل ابن ذي النون عن جوابه ، علماً بضيق جنابه ، وإشفاقاً من فضيحته وانتشابه ، وألح أبو عبدالله حتى أحرج ابن ذي النون وأغراه ، فقال له : دونك قوله : « لعينيك مايلقى الفؤاد ومالقي » فخلا بها ابن شرف أياماً فوجد مركبها وعراً ، ومر يرتها شزراً ولكنه أبلى غدراً ، وأرهق نفسه من أمرها عسراً ، فما قام ولا قعد ، ولا حل ولا عقد ، وسُئل ابن ذي النون بعدُ : أي شيءٍ أقصده إلى تلك القصيدة ؟ فقال : لأن أبا الطيب يقول فيها :

بلغتُ بسيفِ الدولةِ النورَ رتبةً ... أنرتُ بها مابين غَرْبٍ ومَشْرِقِ

إذا شاءَ أن يلهو بلحيةِ أحمقٍ ... أراهُ غباري ثم قال له : الحقِ(*)

قال ابن بسام : « وهذه غريبة ولو صدرت عن أبي العباس المأمون » (٢) وفيما بعد ترتب على إعجابهم بشعر المتنبي قيام خصومة نقدية ، ألفت فيها الكتب وأفردت لها الرسائل ، فمن هؤلاء أبو القاسم ابن عبدالغفور وضع كتاب « الانتصار لأبي

(١) الذخيرة ق٢/ م٢ ، ص ٦٤١ بتصرف .

(*) البيتان في : الديوان ، ص ٢٦٤ ، الطبعة ٢ ، مصر ١٣٤٢هـ ، مطبعة أمين هندية .

(٢) الذخيرة ق٤/ م١ ، ص ٢٣ – ٢٤ .

الطيب » ، وهو كما يقول الدكتور محمد بن شريفة « مفقود ، وعنوانه يدل على موضوعه واتجاهه » (١) .

وألف ابن لبال الشريشي رسالة سماها « روضة الأديب في التفضيل بين المتنبي وحبيب » (٢) ، جاء في مقدمتها : « . . . فصنفت في التفضيل بينهما هذا الدفتر الذي رسمت فيه ماقيدت عن شيوخي وقلدت ، وأثبتته من حفظي في صحفي وخلّدت مع ماتكلم فيه العلماء ، وأثبته في تواريخهم المتأخرون والقدماء ، فأول ماأذكره ماقال الأستاذ النحوي أبو الحسن علي بن مسلم عندما سألناه قراءتنا عليه شعر حبيب وأبي الطيب ، قلنا له : يا أستاذ : بالذي يبقيك للعلم ترفع شرائعه وتملك عَصيَّه وطائعه أيهما أطيب شعراً ، وأنفس دراًّ ؟ فقال : حبيب أصنع وأبو الطيب أطبع » - ثم عقب على كلام شيخه بقوله : « وهذا لعمري فرقٌ بيِّنٌ دالٌ على أن المتنبي أشعر ، لأن ماكان من الشعر طبعاً لا تكلفاً جاء أحسن ، وماكان منه تكلفاً جاء أصعب وأخشن . . » (٣) فهذا النص يؤكد أن الأندلسيين قد شُغلوا بما شُغل به أهل المشرق من قضايا الطبع والصنعة في الشعر ، وأنهم ربما فضَلوا الشاعرَ المطبوع على صاحب الصنعة ، وإن كان أبو تمام قد أخذ قسطاً من إعجابهم وأثر في شعرائهم .

ولا يغفل البحث أبا الحسن علي بن بسام الشنتريني صاحب الذخيرة ، فقد كان في ذخيرته حكماً عدلاً ينصف المتنبي ظالماً ومظلوماً ، فكثيراً مايقف عند

---

(١) أبوتمام وأبوالطيب في أدب المغاربة ص ٩٥ .

(٢) حقق الرسالة الدكتور محمد شريفة وأخرجها ضمن كتابه الموسوم بـ(أبوتمام وأبوالطيب في أدب المغاربة .

(٣) روضة الأديب في التفضيل بين المتنبي وحبيب ، نشر محمد بن شريفة ضمن كتاب (أبوتمام وأبوالطيب في أدب المغاربة) ، ص ١٩٩ .

معانيه ذاكراً سبقه ، وعجز الشعراء عن اللحاق به ، وكان يجله عن الولوج في باب الفلسفة ، والمنطق ، وكلام الأطباء ، مما يبعد الشعر عن الذوق العربي .

وعلى الرغم من ولع الأندلسيين بشعر المتنبي وإعجاب نقادهم به فإنه قد أوجد في نفوس بعض الشعراء شيئاً من الغيرة على أنفسهم ، ومن ذلك ماذكرناه سابقاً عن عبدالجليل بن وهبون عندما سمع المعتمد بن عباد يشيد بشعره ويردده ، فغضب وقال بيته المشهور :

لئن جادَ شعرُ ابنِ الحسينِ فإنما تجيدُ المطيُّ واللُّهى تفتحُ اللَّها(١)

وكان أديب الأندلس أبو بحر بن صفوان بن إدريس يمتدح شعره ويرى أن المتنبي يعجز أن يجود بمثل قوله في إحدى قصائده :

لو جادَ فكرُ ابنِ الحسينِ بمثلها صَحَّتْ نُبوَّته لدى الشعراءِ (٢)

وفي رسالة الشقندي في « الدفاع عن أهل الأندلس » امتدح ابن دراج مستشهداً بكلام الثعالبي بأنه بالأندلس كالمتنبي بصقع الشام ثم أورد له أبياتاً من رائيته المشهورة في معارضة أبي نواس وعلق عليها قائلاً « وأنا أقسم بما حازته هذه الأبيات من غرائب الآيات ، لو سمع هذا المدح سيد بني حمدان لسلا به عن مدح شاعره الذي ساد كل شاعر ، ورأى أن هذه الطريقة أولى بمدح الملوك من كل ماتفنن فيه كل ناظم وناثر » (٣) ، ويكثر القول في هذا الباب أعني مفاخرة شعراء الأندلس شعراء المشرق ، وهذا إنما جاء من أنفتهم المتأخرة من أن يظلوا أسرى التبعية والتقليد التي أنف منها ابن بسام في مقدمة كتابه «الذخيرة» .

---

(١) النفح ٣/ ١٩٤ .

(٢) زاد المسافر ، ابن شريفه ص ١٣٨ .

(٣) نفح الطيب ٣/ ١٩٥ .

ويأتي في مقدمة المتأثرين بشعر المتنبي منافسه المعاصر له «ابن هاني» الأندلسي الذي جعل أغلب شعره في المديح ، بل إن ديوانه الذي لايتجاوز الثلاث والستين قصيدة « منها خمس وخمسون قصيدة في المدح وحده ومعظم مدح الشاعر في المعز لدين الله الفاطمي » (١) وهذا شيء يحتم تأثره بأبي الطيب من جانبين :

الجانب الأول : الحياة التي كان يحياها في كنف المعز ، يقابلها حياة المتنبي في كنف سيف الدولة .

الجانب الثاني : كثرة قصائد المديح هذه ، لن يجد الشاعر فيها مندوحة من احتذاء معاني أبي الطيب ، ومعارضته في بعض قوافيه ، والذي يؤكد ماذهبنا إليه هنا : حرصُ ابن هاني على متابعة أخبار المتنبي والتعرف على ديوانه ، يفهم ذلك من قصيدته التي يقول فيها :

تنبأ المتنبي فيكم عصراً ولو رأى رأيكم في شعره كفرا (٢)

وكانت هذه القصيدة على إثر حكاية تتعلق بديوان المتنبي (مفادها أن الشاعر استعار من أديب أفريقي نسخة من ديوان المتنبي مصحوبة بشرح ، ولكنه أبْطأ في إرجاعها وماطل ، فغضب صاحبها واقتضاه بلهجة عنيفة ، فنظمَ الشاعر الأبيات ، يلومه على إساءة الأدب ويتهكم بقصوره عن فهمٍ شعر المتنبي فضلاً عن شرحه » (٣) .

---

(١) ابن هاني الأندلسي ، متنبي الغرب ، أبوالقاسم محمد كرّو ، الدار العربية للكتاب ١٩٨٤م، ص ٣١.

(٢) الديوان ، طبعة دار صادر ، ص ١٧٢ ، بيروت .

(٣) ابن هاني المغربي الأندلسي ، د. محمد اليعلاوي ، نشر دار الغرب الإسلامي ، ص ٣٣٥ .

وتؤكد بعض أبيات القصيدة ان ابن هاني عندما لم يعجبه شرح الأديب الأفريقي قد سهر الليالي في دراسة شعر المتنبي يفهم ذلك من قوله يذم الشرح المذكور :

أصمّ أعمى ، ولكني سهرت لـه   حتى رددت إليـه السمع والبصرا

كانت معانيه ليلاً فامتعضــت له   حتى إذا مابهرن الشمس والقمرا(١)

وقد علق على هذه القصيدة الدكتور محمد اليعلاوي قائلاً : « . . . وعلى كل حال فإن ابن هاني يعترف بأنه درس هذا الديوان مدةً طويلة وسهر عليه وعالجه ظاهراً وباطناً ، وفي هذه الممارسة ماقد يفسر الشبه الكثير الذي يلاحظ في شعر الشاعرين ، أي يؤكد فكرة التأثر بالمتنبي ، إن لم نقل تقليد المتنبي » (٢) .

ويتأرجح الدكتور اليعلاوي في مسألة تأثر ابن هاني بالمتنبي ولعله لايود التصريح بذلك ، حتى يهضم ابن هاني لكونه محسوباً في رأي بعض المتأخرين على المغرب ، - فنجده في موضع لاينفي فكرة التقليد بينما هو يتردد في الجزم بها في موطن آخر ، فيقول : « ليس من السهل أن نبت في مسألة تأثر ابن هانيء بالمتنبي ، فما يلاحظ من تشابه في شعرهما ليس بالضرورة نقلاً أو تقليداً أو محاكاةً وإنما هو في بعض القصائد تشابه في المعاني والأغراض تولد عن تشابه في الظروف والحالات ، كالقصائد الجهادية مثلاً : فالخصم هو الرومي هنا وهناك ، والدافع هو الجهاد ، والرمز هو التوحيد أو الشرك ، على أن السلاح قد يختلف : فإبن هاني يلح في وصف الاسطول والنار الاغريقية ، أما التشابه في الافتخار بالشاعرين والشكوى من الحساد ، فليست هذه معاني خاصة بالشاعرين . . . إلخ » (٣) .

---

(١) الديوان ، ص ١٧٣

(٢) ابن هاني الأندلسي، ص ٣٣٦ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٣٣٧ .

ثم بعد ذلك يعود الدكتور اليعلاوي ويثبت التأثر من قبل ابن هاني إثباتاً يدحض قوله السابق في نفي فكرة التقليد ، فهو يقول : « لكن لايسعنا إلا أن نتساءل ، عندما نقف على مماثلة شبه تامة لا في المضمون فقط ، بل وفي العبارة أيضاً كاستخدام صيغة « فعول » في الأكل والشرب وإسنادها إلى العدو . عند الشاعرين . . . »(١) .

والمتأمل لكلام الدكتور اليعلاوي يلمس منه لغة دفاعية عن ابن هاني يقابلها هيبة من شهرة المتنبي تجعله يتردد هذا التردد في الجزم بتأثر ابن هاني بالمتنبي ، وكان عليه أن ينظر إلى أن التأثر سنة متبعة في تاريخ الشعر العربي كله ، فمن خلال دراستنا عن المحدثين عرفنا تأثر أبي نواس والحسين بن الضحاك بالوليد بن يزيد ، وعرفنا تأثر أبي تمام بمسلم وأبي نواس ، وكم تحدث النقاد عن سرقات المتنبي من حبيب ، ولم ينقص من قدرهم ذلك شيئاً ، ثم بعد ذلك ألا يمكن لشاعر كابن هاني عاصر شاعراً له تلك الأهمية الكبيرة في الأندلس والمغرب فضلاً عن المشرق أن يتأثر به ، وأكثر القرائن تدل على ذلك ، وأقواها القصيدة الحادية والعشرون التي تحدث فيها عن المتنبي وعن ديوانه .

وعلى الرغم من كل ذلك ، فإن ماذكر لاينقص من مكانة ابن هاني في الأدب العربي ، وليس ثمة داعٍ للحساسية المفرطة من كلام قضية التأثير بين الشاعرين أو سواهما .

ولنا أن نستعرض لامية المتنبي في مدح سيف الدولة ، ولامية ابن هاني في مدح المعز العبيدي ، والدكتور اليعلاوي نفسه تعرض لها ووازن بينهمامثبتاً تأثر ابن هاني بالمتنبي ، وقد نقلنا كلامه سابقاً .

---

(١) المصدر السابق ، ص ٣٣٧ .

وبشيء من التأمل اليسير في القصيدتين(١) ، نجد التأثر فيهما واضحاً من حيث الرويّ والقافية ، وكلا القصيدتين غرضهما واحد هو المديح ، بل موضوع القصيدتين برمته هو الانتصار على الروم بالنسبة لكل من الممدوحين ، فالمتنبي يقول في قصيدته :

ليالىَّ بعد الظاعنينَ شُكولُ   طوالٌ وليلُ العاشقين طويلُ

إلى أن قال :

ويوماً كأن الحسنَ فيه علامةٌ   بعثتِ بها والشمسُ منكِ رسولُ
وماقبلَ سيفِ الدولةِ إثّار عاشقٌ   ولا طُلِبَتْ عند الظلامِ ذُحول
أغركم طولُ الجيوشِ وعرضُها !   عليٌّ شروبٌ للجيوشِ أكُولُ

وابن هاني يقول :

يومٌ عريضٌ في الفَخارِ طويلُ   ما تنقَضِي غُرَرٌ له وحجولُ
ينجابُ منه الأُفْقُ وهو دُجُنَّةٌ   ويَصِحُّ منه الدهرُ وهو عليلُ

وقوله :

حتى إذا ارتعصَ القنا وتلمَّظت   حَرْبٌ شَرُوبٌ للنفوسِ أكُول

والمتنبي يقول :

لعلك يوماً يادمستقُ عائدٌ   فكم هاربٍ مما إليه يؤولُ

وابن هاني يقول :

قل للدمستقِ مُوردِ الجمعِ الذي   ما أصدرتْهُ له قناً ونُصولُ

وقال المتنبي :

لمن هوّنَ الدنيا على النفسِ ساعةً   وللبيضِ في هامِ الكماةِ صليلُ

وقال ابن هاني :

---

(١) ينظر ديوان المتنبي ٣/ ٩٥ ، وديوان ابن هاني ، ص ٢٥٦ .

ولتُدرِكَنَّ المشرفيّةُ فيهِمِ ما يَثْني عن دَركِهِ التأميلُ
وليُسْمَعَنَّ صَليلُها في هامِهِم إن كان يُسمَعُ للسيوفِ صَليلُ

فهذا هو التأثر واضح بين الشاعرين معنىً ومبنىً ، والفرق بينهما أن المتنبي افتتح قصيدته بالنسيب وذكر ديار الأحبة ، وابن هاني إنطلق في غرضه ، مباشرة دون مقدمات ولعلّ ذلك يعود إلى اختلاف التفكير ، واختلاف المعتقد بين الشاعرين ، وقد أكد ذلك الدكتور محمد اليعلاوي في دراسته عن ابن هاني فقال : « . . على أن هناك فرقاً أساسياً بين الشاعرين : ابن هاني شاعر عقيدة ومذهب آمن بالدعوة الإسماعيلية ، فسخر لها طاقاته ، ولم يسخرها لغيرهما . أما المتنبي فشاعر أمراء وملوك متعددين مختلفين ، طلب النفوذ والجاه وسخر عبقريته لمدح من هم دونه طمعاً في الوصول إلى مبتغاه فلا قوة تحركه غير النفوذ الشخصي»(١) ، وكل هذا لاينفي إعجاب ابن هاني وتأثره الشديد بالمتنبي ، بل إن بعض الدارسين يرى أن (ابن هاني كان يفتخر بلقبه ، متنبي الغرب أو متنبي الأندلس . . . »(٢) ولذلك فلقبه بمتنبي المغرب لايقلل من شأنه بل هو كما يقول أحد الباحثين المتعصبين لشخصية ابن هاني « لقبٌ يكفي وحده للدلالة على المكانة التي وضعه فيها نقاد الأدب القدامى ، وقد اتفقت كلمة هؤلاء مع مؤرخي الأدب على أن شاعرنا من شعراء الطبقة الأولى ، ومن أشعر شعراء المغرب والأندلس » (٣) .

وفي حقيقة أمر الشاعرين « المتنبي وابن هاني » أن نقاط التشابه بينهما قوية جداً ، لظروف جعلت شخصية ابن هاني تقترب كثيراً من شخصية المتنبي ، فالمتنبي « شاعر يجمع بين القديم والحديث يجيء بالجزالة والقوة والبيان على خير ماكان يجيء به القدماء » (٤) ولذلك اعتبره بعض الدارسين رائد الاتجاه المحافظ الجديد ،

---

(١) ص ٣٣٨ .

(٢) ابن هاني الأندلسي متنبي المغرب ص ٥٣ .

(٣) نفسه ص ٥٣ .

(٤) تاريخ النقد ، إحسان عباس ، ص ٢٥١ .

وهذا الاتجاه كما يقول الدكتور احمد هيكل هو ذلك « الاتجاه الشعري الذي كان قد ظهر في الشرق كرد فعل للاتجاه المحدث الذي تزعمه أبو نواس ، والذي خرج بالشعر العربي عن كثير من تقاليده ، فجاء هذا الاتجاه المحافظ الجديد ليعيد الشعر العربي إلى طبيعته العربية ، وذلك بالاقتراب من تقاليد الشعر المأثورة ، والتخفيف من تلك الثورة المتمردة التي لجأ إليها المحدثون . » (١) .

وابن هاني كان يحفل في شعره بالغريب ، متأثراً كما يقال بقراءة الشعر الجاهلي ، مع أن شعراء الأندلس لم يكن يشد انتباههم إلا الشعر المحدث ، وإذا كان الأمر كذلك فابن هاني كان بلا شك يمثل منهج المتنبي ، يؤكد ذلك الدكتور احمد هيكل فيقول : « وشعر ابن هاني يسير في الاتجاه المحافظ الجديد الذي كان على رأسه بالمشرق في تلك الفترة أبو الطيب المتنبي ، بل إن ابن هاني قد تأثر كثيراً بأبي الطيب حتى كان الأندلسيون يقارنونه به » (٢) . وهذا لايعني إن ملكة ابن هاني الشعرية قاصرة دون شعر المتنبي فقد يتأثر به ويفوقه في بعض الأحيان ، وقد يعارضه إعجاباً أو تحدياً ، وكل هذا يؤكد أصالة ابن هاني ووضوح انتمائه التراثي ، والشاعر الجيد كما يرى ابن طباطبا هو من « يديم النظر في الأشعار » الجيدة لتقوى ملكته و « لتلتصق معانيها بفهمه ، وترسخ أصولها في قلبه وتصير مواد لطبعه ويذوب لسانه بألفاظها ، فإذا جاش فكره بالشعر أدى إليه نتائج مااستفاده مما نظر فيه من تلك الأشعار ، فكانت تلك النتيجة كسبيكة مفرغة من جميع الأصناف التي تخرجها المعادن ، وكما قد اغترف من واد قد مدته سيول جارية من شعاب مختلفة ، وكطيب تركب عن أخلاطٍ من الطيبٍ كثيرةٍ فيستغرب عيانه ، ويغمضً مستنبطه » (٣) .

---

(١) الأدب الأندلسي ، احمد هيكل ، ص ١٩٤ - ١٩٥ .

(٢) الأدب الأندلسي ، احمد هيكل ، ص ٢٣٥ .

(٣) عيار الشعر ، أبو الحسن محمد بن طباطبا العلوي ، ت/ د. عبدالعزيز المانع ، دار العلوم للطباعة والنشر ، الرياض ، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م ، ص ١٤ .

ولعلّ معارضة ابن هانيء أو غيره من شعراء الأندلس لأبي الطيب المتنبي تؤكد ماذهب إليه ابن طباطبا ، وتوقفنا معارضاتهم هذه على المناحي التراثية وطرق الابتكار لديهم ، وفي هذا الشأن يقول الدكتور عبدالله التطاوي : « ففي النماذج المعارضة يتوقف الدارس أمام وحدات الأصالة ومعالمها موزعةً بين التراث والابتكار لعله يترصد حقيقة علاقة الشاعر بالتاريخ الأدبي أو التاريخ السياسي ، وكذا يتبين علاقاته المتداخلة في مجالات المعارف السائدة في عصره أو السابقة عليه، بما يكفي لدراسة عصرين في آن واحد ، وكذا دراسة شاعرين وتجربتين وقصيدتين . . » (١) .

وللمتنبي دور بارز في استقطاب معارضات أبرز شعراء الأندلس لنماذج كثيرة من شعره ، ويأتي شاعرنا محمد بن هاني في مقدمتهم ، فقد عارض المتنبي في قصيدته التي مدح بها أبا القاسم علي بن أحمد بن عامر الأنطاكي أحد المقربين من عضد الدولة ابن بويه ، والتي يقول فيها : (٢)

أُطاعنُ خيلاً من فَوارِسِهَا الدَّهــرُ ... وحيداً ، وماقَوْلي كَذَا وَمَعِي الصَّبْرُ
وَأَشْجَعُ منِّي كلَّ يـومٍ سَلامَتِي ... ومـا ثَبَـتَتْ إلاّ وَفِي نفسِهَـا أَمْرُ

إلى أن قال :

وليـلٍ وصَـلْناهُ بيوم كـأنَّمـا ... على مـتْنِه من دَجنِه حُلَلٌ خُـضـرُ
وغيثٍ ظَنَنّـا تحتَـهُ أَنَّ عامـراً ... عَلا لَـم يَمُتْ أو في السَّحَابِ لهُ قبرُ
أو ابنَ ابنِهِ البـاقي عليَّ بن أَحمـدٍ ... يجـودُ بِهِ لَوْ لَمْ أَجُـزْ وَيدِي صِـفـرُ

إلى آخر القصيدة .

---

(١) المعارضة الشعرية بين التقليد والإبداع، دار الثقافة، الفجالة، مصر، ١٩٨٨م ، ص١٢١ .

(٢) الديوان ، طبعة هندية ، ص ١٤٧ ، وشرح العكبري ، ١٤٨/٢ .

ومحمد بن هاني الأندلسي وقف عند هذه القصيدة وقفة المتأمل فأعجب بموسيقاها ، وقافيتها ، وحركة رويها ، ولم يجد بداً من معارضتها بقصيدة بلغت مائة بيت يمدح بها المعز العبيدي يذكر فيها فتحه لمصر ، فقال : (١)

تقولُ بنو العباسِ هل فُتِحتْ مِصرُ ... فقلْ لبني العباسِ قد قُضِيَ الأمرُ
وقد جاوزَ الاسكندريةَ جوهَرٌ ... تطالعُه البُشْرَى وَيَقْدُمُهُ النصر
وقد أَوْفَدَتْ مصرٌ إليه وُفُودَها ... وزِيدَ إلى المعقودِ من جِسرِها جسرُ
فما جاء هذا اليومُ إلا وقد غَدَتْ ... وأيديكُمُ منها ومِنْ غَيْرِها صِفْرُ

والقصيدة كما ذكرنا طويلة ، وواضح تأثير قصيدة المتنبي فيها ولسنا بصدد الموازنة بين القصيدتين ، ومعرفة مواطن أخذه من لفظ المتنبي ، ومدى سيطرة المعجم الشعري لدى المتنبي على ابن هاني ، فذلك مجاله الدراسة الفنية إن شاء الله .

والمتنبي هو أحد الفحول الذين جاذبهم ابن شهيد ، ونظر إليهم من خلال التقائه بتوابعهم في زعمه نظرة اكبار فلم يستنشدهم ، يقول ابن شهيد : « . . . فقال لي فاتك (٢) بن الصقعب : فهل جاذبت أحداً من الفحول ؟ قلت : نعم ، قال : قول أبي الطيب :

أأخلعُ المجدَ عن كَتِفي وأطلبُه ... واتركُ الغيثَ في غِمْدِي وأنتَجِعُ (٣)

فهذا يدل على أن نظرة أهل الأندلس للمتنبي ليست نظرتهم لأي شاعر ، وإلا لماذا لم يختر ابن شهيد شاعراً جاهلياً ، من الذين يحملون فحولة الشعر بكل ماتحمل هذه الكلمة من معاني ، . . ويستمر ابن شهيد في مجاذبته هذه للمتنبي فيقول له الجني : بماذا ؟ قلت « أي ابن شهيد » : بقولي :

---

(١) ديوان ابن هاني ص ١٣١ .

(٢) هو أحد نقاد الجن الذين سماهم ابن شهيد في رسالته ، وهو يقصد نفسه .

(٣) مطلع قصيدة مدح بها سيف الدولة . الديوان، ص ٢٣٧ ، وشرح العكبري ٢/ ٢٢٠ .

ومن قبةٍ لايدرِكُ الطرفُ رأسَها　　تزلُّ بها ريحُ الصَّبا فتحدَّرُ
إذا زَاحَمَتْ منها المخارِمَ صَوّبَت　　هُوِيّاً على بعدِ المدى ، وهي تجأَرُ

إلى أن قال :

فذا جَدْوَلٌ في الغِمدِ تُسقى به المُنى　　وذا غُصُنٌ في الكفّ يُجنى فيُثمِرُ

والقصيدة في مدح يحي المعتلي ، وقصيدة المتنبي في مدح سيف الدولة . وكما نلاحظ أنه لم يعارضه في الوزن والقافية ولكنه طبق نظريته التي ذكرها في مجلس نقاد الجن بشأن السرقات وهي قوله : « إذا اعتمدت معنى قد سبقك إليه غيرك ، فأحسن تركيبه وأرقَّ حاشيته ، فاضرب عنه جملة ، وإن لم يكن بدٌّ ففي غير العروض التي تقدم إليها ذلك المحسن ، لتنشط طبيعتك وتقوى مُنّتُك » (١) .

ومن إعجابه بالمتنبي ماذكره في المجلس نفسه من تذاكرهم لما تعاورته الشعراء من المعاني ومن زاد فأحسن الأخذ ، ومن قصر ، فذكر بيتاً للأفوه الأودي وهو يفخر بأن الطير تتبعهم لتشبع نهمها من جثث القتلى ، ثم أتبعه بأبيات للنابغة في المعنى نفسه ، وانصرف إلى المحدثين على اطراد فأنشد لكلٍ من أبي نواس وصريع الغواني ، وأبي تمام ، وكلهم - كما يقول على لسان أحد نقّاد الجن يدعى شمردل السحابي - : « قصر عن النابغة لأنه زاد في المعنى ، ودل على أن الطير إنما أكلت أعداء الممدوح ، وكلامهم كلهم مشترك يحتمل أن يكون ضد مانواه الشاعر» ثم قال : « وإن كان أبا تمام قد زاد في المعنى ، وإنما المحسن المتخلصُ المتنبي حيث يقول(*) :

له عسكرا خيلٍ وطيرٍ إذا رمى　　بها عَسْكَراً لم تبقَ إلاّ جماجِمُهُ

---

(١) رسالة التوابع والزوابع ، ص ١٣٧ ، ت البستاني .

(*) ديوان المتنبي ص ٢٠٠ ، والبيت من قصيدة يمدح فيها سيف الدولة بعد انصرافه ظافراً بحصن بردويه وعودته إلى انطاكية ، الديوان ، ص ١٩٧ .

ثم استفاد ابن شهيد من المعنى فقال (*) :

وتدري سباعُ الطيرِ أنّ كماتَه   إذا لقيَت صيدَ الكُماةِ سباعُ (١)

وقد علق على هذا البيت بلسان الجني شمردل السحابي فقال : «ولكن الذي خلص هذا المعنى كله بلفظة واحدة على مادل عليه شعر النابغة وبيت المتنبي ، من أن القتلى التي أكلتها الطير أعداء الممدوح فاتك بن الصقعب في قوله :

وتدري سباعُ الطير ... البيت » (٢)

وابن شهيد بهذا يريد أن يثبت أن له حضوراً أدبياً بجوار الشعراء الفحول ، وأنه وإن تأخر زمانه عنهم فسيأتي بما لم تستطعه الأوائل ، وحتى البيت السابق الذي جاذب فيه أبا الطيب في قوله :

« أأخلعُ المجدَ ... البيت »

عقب على أبياته على لسان الجني بقوله : « والله لئن كان الغيث أبلغ ، فلقد زدت زيادة مليحة طريفة ، واخترعت معاني لطيفة » ثم سأله فاتك هل جاذب المتنبي في غير هذا البيت ؟ فذكر قول أبي الطيب في مدح كافور :

وأظما (٣) فلا أُبدي إلى الماءِ حاجةً   وللشّمسِ فوق اليَعْمَلاتِ لعابُ

فقال له : بماذا ؟ قال ابن شهيد : بقولي :

ولم أنسَ بالنّاوُوس أيّامَنَا الأُلى   بها أيّنا محبُوبُها وحَبَابُها (٤)

(*) من قصيدة يمدح بها شخصاً غير معروف ، الديوان ص ١٢٣ ، ت/ يعقوب زكي ، ص ١٢٣ .

(١) بتصرف من المصدر نفسه ، ص ١٣٣ - ١٣٤ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٣٤ .

(٣) رواية الديوان « وأصدى » ، الديوان بشرح العكبري ١/ ١٩١ .

(٤) رسالة التوابع والزوابع ، ص ١٣٨ .

إلى أن قال :

إذا الشمسُ رامتْ فيه أكلَ لُحومِنا   جرى جَشَعاً فوقَ الجِيادِ لعابُها(١)

وهو هنا يفخر في هذا البيت ، والمتنبي وإن كان يمدح كافور فإنه كعادته يفخر بنفسه في كثير من مدائحه .

ويستمر ابن شهيد في إيراد نماذج من مدائح المتنبي ، يدل على عظمة المتنبي في عينه ، ولنستمع لهذا الحوار الذي جرى بينه وبين ناقد من نقاد الجن يدعى «فرعون بن الجون» إذ قال له : أعطنا كلاماً يرعى تلاع الفصاحة ويستحم بماء العذوبة والبراعة ، شديد الأسر جيد النظام ، وضعه على أي معنى شئت ، قلت : بأي كلام ؟ قال : ككلام أبي الطيب :

نزلْنا على الأكوارِ نَمشِي كرامةً   لمن عنه ، أن نُلِمَّ به رَكْبا

نَذُمُّ السحابَ الغُرَّ في فِعْلِها به   ونُعرِضُ عنها كلّما طَلَعتْ عَتْبا »(٢)

وهذه الأبيات هي من قصيدة يمدح بها المتنبي سيف الدولة يشهد لها ابن شهيد بأنها من جيد النظام ، وأن بها كلاماً يرعى تلاع الفصاحة ، فجاذبها مع غيرها من شعر أبي الطيب ومن ذلك أبيات من قصيدته التي مدح بها أبا الفضل ابن العميد والتي مطلعها :

« بادٍ هواكَ صبرتَ أم لمْ تَصْبِرا ... » (٣)

وذكر من هذه القصيدة قوله :

أرأيتَ أكبرَ همّةً من ناقتي   حَمَلَتْ يداً سُرُحاً وخُفّاً مُجْمرا

تَركَتْ دخانَ الرِّمْثِ في أوطانِها   طَلَباً لقومٍ يوقدُون العَنْبَرا

(١) التوابع والزوابع ، ص ١٣٨ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٣٩ .

(٣) الديوان بشرح العكبري ٢/ ١٦٠ .

وتكرّمَتْ ركبانُها عن مَبْرِكٍ   تقَعانِ فيه ، وليس مِسْكاً أذْفَرا
فأتتكَ داميةَ الأظَلِّ كأنّما   حُذِيَتْ قوائمُها العقيقَ الأحمَرا(١)

وذكر قوله من قصيدة يمدح بها سيف الدولة :(٢)

على كلِّ طاوٍ تحت طاوٍ كأنّما   من الدّم يُسقى أو مِنَ اللحم يُطعمُ
لها تحتَهُم زِيُّ الفوارسِ فوقَها   فكلُّ حِصانٍ دارعٌ مُتلثّمُ
وما ذاك بُخلاً بالنفوسِ على القنا   ولكنَّ صدْمَ الشرِّ بالشرِّ أحْزَمُ

قال ابن شهيد بعد سماعه هذه النماذج من شعر أبي الطيب : « فأدنى والله مما قرع به سمعي ، وقلت له : أي ماء لو كان من جمامك ، واستهلّت به عيونُ غمامك ! » ثم أنشده أشعاراً جاذب فيها المتنبي كما يزعم : نذكر منها قوله في مدح عبدالعزيز « المؤتمن بن عبدالرحمن بن عامر » :

ولربَّ ليلٍ للهُمُوم تهدّلَتْ   أسْتارُه فمَحا الصُّوى بستُوره
كالبحرِ يَضْرِبُ وجْهَهُ في وَجهِهِ   صَعْبٌ على العبَّارِ وجهُ عُبُوره
طاولْتُه من عَزْمَتي بِمُصَبَّرٍ   أثْبَتُ هَمّي في قَرارةِ كُوره
وعليّ للصبرِ الجميلِ مُفاضَةٌ   تَلقَى الرّدى ، فتَكِلُّ دون صَبُوره

إلى أن قال :

حتى بَدا عبدُالعزيزِ لناظري   أمَلي فمَزّقْتُ الدُّجَى عَنْ نُورِه(٣)

---

(١) البيت الأول هكذا أورده ابن شهيد وهو في الديوان هكذا :

أرأيت همة ناقتي في ناقة   نقلت يداً سرحاً وخفاً مجمرا

الديوان طبعة هندية ، وكذلك العكبري ، وهو في نظري أليق بذوق المتنبي مما رواه ابن شهيد محرفاً .

(٢) الديوان ص ٣٥٩ والقصيدة مطلعها : (إذا كان مدح فالنسيب المقدم) .

(٣) التوابع والزوابع مص ١٤٠ - ١٤٦ .

ثم أنشد أكثر من مقطوعة ليثبت للجني الناقد فرعون بن الجون أنه فاق المتنبي ، فانظر إلى طول هذه الوقفة عند شعر المتنبي ، ألا تدلنا على دراسة ابن شهيد للديوان ، ومعرفته بدقائق معانيه ، حتى تأثر بها تأثراً ملموساً ، يؤيده هذه النماذج الحية التي أوردها لأبي الطيب ، ودعته لأن يقول أشعاراً يبرز فيها شاعريته بإزاء شاعرية المتنبي .

وأما معارضات شعر المتنبي في الأندلس فهي أكثر حضوراً في ذاكرة الشعر الأندلسي من التأثر بمعانيه ، ونذكر من هذه المعارضات : معارضة كل من ابن عبدربه ، وابن دراج القسطلي ، وابن حزم ، وكل واحد من هؤلاء يعد علماً بارزاً في الشعر الأندلسي ، ونقده ، وقد احتفى هؤلاء الشعراءً بشعر أبي الطيب احتفاءً يكاد يذيبهم في خضم شهرة شعره بينهم ، وجريانه على لسان العامة والخاصة ، وحسبنا من شعر المتنبي الرائية المشهورة التي قالها (١) في مدح ابن العميد ، وقد رأينا كيف تأثر بها ابن شهيد ، واعتبرها من جيد النظم ، ووصفها بالكلام الذي يرعى تلاع الفصاحة ، والقصيدة كما يقول الدكتور محمد محمود نوفل «من روائع شعر المتنبي خاصة ، والشعر العربي بصفة عامة . . . » (٢) وقد حظيت باعجاب ابن عبدربه الملقب بمليح الأندلس فعارضها برائية مدح بها الأمير محمد بن عبدالرحمن بن الحكم بن هشام وهي كما يقول ابن حيان « . . لأول انبعاثه في قول الشعر » (٣) مطلعها :

ألما على قصر الخليفة فانظـــرا   إلى منية زهراء شيدت لأزهرا (٤)

---

(١) مطلعها : **باد هواك صبرت أم لم تصبرا   وبكاك إن لم يجرد معك أو جرى**

(١) تاريخ المعارضات في الشعر العربي ، د. محمد نوفل ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٤٠٣هـ ، ط/ ١ ، ص ١٣٢ .

(٣) المقتبس ، لابن حيان ، ت د. محمود على مكي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ١٣٩٣هـ ، وكذلك ديوان ابن عبدربه ص ٤٠ ، ت ابن تاويت .

(٤) المقتبس ص ٢٤٢ ، وتاريخ المعارضات ص ١٣٢ .

وعارضها كذلك الشاعر الفحل احمد بن دراج القسطلي الذي قال عنه الثعالبي « هو بصقع الأندلس كالمتنبي بصقع الشام » وكانت معارضته بقصيدة يمدح فيها المنذر بن يحي (صاحب سرقسطة الملقب بذي الرياستين) منها : (١)

لَبيّكَ أسْمَعَنا نداكَ ودونَنا ... نوءُ الكَواكبِ مُخْوياً أو مُمطِرا

وهو كما يقول إحسان عباس : هو في هذا يعارض المتنبي في قصيدة مدح ابن العميد ويتتبع سياق تلك القصيدة في مثل قوله :

ولتعلمِ الأملاكُ أنِّي بعدَهـم ... ألفيتُ كلَّ الصيدِ في جوفِ الفَرا»(٢)

ومن قبل أشار ابن بسام بعد إيراده نماذج منها ، إلى هذه المعارضة فقال : «أراه احتذى في هذه الأبيات الأخيرة حذو أبي الطيب في ابن العميد حيث يقول : (٣)

من مُبلغُ الأعرابِ أنّي بعدَهم ... جالستُ رَسْطَاليسَ والاسكَنْدَرا

ولقيتُ بطليمُوسَ دارِسَ كُتبِه ... مُتَبَدِّياً في مُلْكِهِ مُتَحَضِّرا

ولقيتُ كلَّ الفاضِلين كأنَّما ... ردَّ الإلهُ نفوسَهم والأَعْصُرا

ولعلنا نورد بعض أبيات ابن دراج ليتضح التأثر والاحتذاء الذي أشار إليه ابن بسام ، يقول ابن دراج :(٤)

كلا وقد آنستُ من هودٍ هدىً ... ولقيتُ يَعرُبَ في القُيُولِ وحِمْيرا

وأَصَبْتُ في سبأٍ مُوَرَّثَ مُلْكِها ... يَسبي الملوكَ ولا يَدِبُّ لها الضَّرا

إلى أن قال :

---

(١) ديوان ابن دراج ، ت/ محمود علي مكي ، ط١ ، دمشق ١٣٨١هـ، ص ١٢٥ .

(٢) تاريخ الأدب الأندلسي/ عصر سيادة قرطبة، ص ٢٥٠ .

(٣) ديوان المتنبي بشرح العكبري ٢/ ١٦٠ ومابعدها .

(٤) الذخيره ق ١/ م١ ص ٧٤ - ٧٥ .

ولقيتَ زيــدَ الخيلِ تحتَ عَجَاجةٍ ... يَكْسُو غلائلَهـا الجيادَ الضـمرا
وَعقَــدتُ فـي يمــنٍ مواثقَ ذمــةٍ ... مشدودةَ الأسبابِ مُوثَقَةَ العُرى
وأتيت مــجـدك وهـــو يرفـع منبـرا ... للدين والدنيـا ويخـفض منبـرا

إلى آخر الأبيات .

وابن دراج يعد أحد الشعراء المحدثين وإن كان مطلعه الغرب لأنه في رأي بعض النقاد « إليه انتهت الطريقة التي اختارها الأندلسيون وارتضوها بعد الغزال ، وعنده بلغت آخر الشوط في تطورها وتعقدها والتوائها ، لأنه جمع بين أبي تمام والمتنبي ، وحاول أن يبذ كل من تقدمه في المعاني والصياغة ، مازجاً كل ذلك بجلبة ابن هاني مطيلاً إطالة ابن الرومي . . . » (١) .

وممن أعجب بهذه القصيدة وشدت انتباهه فعارضها ، الوزير الكاتب أبوالمغيرة عبدالوهاب بن حزم ، وهو كما وصفه ابن حيان ممن « اعتلت طبقته في النظم والنثر . . » (٢) ، وقد عارض قصيدة المتنبي السابقة الذكر بقصيدة مدح فيها المنصور ابن أبي عامر ، وأشاد فيها بابنه ، وهي كما يقول الدكتور محمد نوفل : «أقرب إلى قصيدة المتنبي من قصيدة ابن عبدربه بكثير فقد أصاب بها روح المعارضة التامة واستعمل الكثير من ألفاظه بأثواب جديدة تنم عن مدى تعلقه بآثار المتنبي»(٣)

إلا ترى المنصـــورَ تحــتَ لوائِه ... تَلْقَ ابنَه طلقَ الجـــبينِ مُظَفَّـــرا
أو لا تجِدْ في الحفلِ عـاقِدَ حبـوةٍ ... هــــوداً فـإنا قد وَجَدْنا حِـمْيَـرا
أو تَفْتَقِدْ صمصامَ عمرٍو في الوغى ... فلقـــــد سَلَلْنا ذا القفارِ مُذَكَرا

---

(١) عصر سيادة قرطبة ، د. إحسان عباس ص ٢٦٠ .
(٢) الذخيرة ق ١ ، م ١ ص ١٣٢ .
(٣) تاريخ المعارضات ، د. نوفل ص ١٣٤ .

لا غروَ جئتَ البحرَ إذ أجلَى الحَيَا ورأيتُ يَحي حِـينَ لـم أرَ مُنْذِرَا

الأبيات .

وقد علق ابن بسام على هذه القصيدة ، في بعض أبياتها وقال : قوله : «أو نفتقد صمصام عمرو . . . » البيت ، لفظ حبيب ومعناه نقله أبو المغيرة :

أو نفتقدْ ذا النونِ في الهيَجَا فقد جلّى الإلهُ لَنا عن الصَمْصَامِ » (١)

فكما تلاحظ أشار ابن بسام إلى أخذه من أبي تمام ، وفاته أن يشير إلى كون القصيدة بأكملها معارضة لقصيدة المتنبي الرائية التي مدح بها ابن العميد ، وعلى أية حال فإننا نفيد من كلامه أن الشاعر الأندلسي كانت ذاكرته مثقلة بما حفظ من أشعار المحدثين ، واستحضاره للغتهم الشعرية فضلاً عن معارضته لهم ، والنسج على منوالهم .

وممن عارض هذه القصيدة الشاعر ابن عمار الأندلسي بقصيدة في مدح المعتضد عباد والد المعتمد ، وهي كما يقول المقري « الرائية المشهورة » (٢) ، يقول فيها : (٣)

أدرِ المدامةَ فالنسيمُ قـدِ انبـرى والنجْمُ قد صرفَ العنانَ عن السُّرى
والصبحُ قـد أهدَى لنا كـافُورَه لما استردَّ الليـلُ منـا العنبَـرا

إلى أن قال :

عبـادٌ المخضـرَّ نائلُ كفِّـهِ والجـوُّ قـد لبسَ الرداءَ الأغبـرا
ملكٌ إذا ازدَحَـمَ الملـوكُ بمَوْردٍ ونحـاه لايرَدُون حـتى يَصْدُرا

إلى آخر القصيدة

---

(١) الذخيرة ، ق ١/ م١ ص ١٧٩ ومابعدها ، والبيت لأبي تمام ، ينظر الديوان ٣/ ٢٠٥ بشرح الخطيب التبريزي ، تحقيق محمد عبده عزام .

(٢) النفح ١/ ٦٥٥ .

(٣) نفسه .

قال ابن شريفة : « وقد ذاعت معارضة ابن عمار هذه وأصبحت هي نفسها نموذجاً للمعارضة » (١)

ولا تقل يائية المتنبي التي مدح بها كافور الإخشيدي عن القصائد الماضية شهرةً في الأندلس ، وهذه القصيدة حملت شيئاً من تاريخ حياة الشاعر في العصر العباسي ، فبعد تركه حلب عندما رأى إعراض سيف الدولة عنه ، اتجه إلى الشام ومنه إلى الرملة ، وبعد تردد ذهب إلى مصر ، وكان يمني نفسه بأنه سيتسنم ذرى المجد لكونه جاء بطلبٍ من كافور نفسه ، فطمع أن يوليه ولاية يغيظ بها حاسديه فقال : (٢)

أبا المسكِ أرجو منكَ نصراً على العِدَى ... وآمـلُ عزاً يخضُبُ البيضَ بالدمِ
ويومـاً يغيـظُ الحاسـدين وحـالةً ... أُقيمُ الشقَـا فيـها مـقامَ التنعُّمِ

ومن أوائل قصائده في مصر هذه اليائية المشار إليها ومنها قوله : (٣)

كفى بكَ داءً أن تَرى الموتَ شافيا ... وحسـبُ المنايـا أن يكنَّ أمانِيَـا
تمنَّيْتَهَـا لمـا تمنيتَ أن تـرى ... صـديقـاً فأعْـيا أو عـدواً مُداجِـيا
إذا كنتَ ترضَـى أن تعيش بذلـةٍ ... فـلا تستَعِـدَّنَّ الحسـامَ اليمـانِيـا

إلى أن قال يذكره بطلبه إياه الوفادة عليه :

أبا المسكِ ذا الوجهُ الذي كنتُ تائقاً ... إليـهِ وذا الوَقتُ الذي كنتُ رَاجِيا
أبا كلِّ طيبٍ لا أبا المِسْكِ وَحـده ... وكلِّ سـحَـابٍ لا أُخُصُّ الغَـوادِيا
إذا كَسَـبَ الناسُ المعَـاليَ بِالنَّـدى ... فـإنَّكَ تُعْطي في نَدَاكَ المعَـالِيـا

---

(١) أبو تمام وأبو الطيب ص ١٤٣ .

(٢) الديوان ٤/ ١٣٨ شرح العكبري .

(٣) الديوان ٤/ ٢٨١ ، ومعجز أحمد ٤/ ١٧ .

وغيرُ كثيرٍ أن يزورَكَ راجلٌ　　فيرجعَ مَلْكاً للعِراقيْنِ واليا(١)

وكعادة الشاعر العربي في الأندلس يحب أن يبرز شاعريته من خلال اعجابه ومعارضته للشعر العربي في المشرق ، فقد عارض هذه القصيدة بعض شعراء الأندلس ، ومنهم أبو محمد عبدالمجيد بن عبدون الفهري النابُرى قال عنه ابن بسام : « وأبو محمد هذا في وقتنا سر الدهر المكتوم ، وشرف فهر الحديث والقديم ، لسان صدقها في الآخرين ، وقمر أفقها الذي ملأ الصدور والعيون ، وديوان علمها المذال والمصون ، ومسترق كلمها المنثور والموزون أعجوبة الليالي ، وذروة المعالي ، ذو لسان يغري ظبة السيف . . . » (٢) ورُوي أن ابن بسام نفسه كان « يعتقد أن المتميزين من كتاب عصره أربعة : كلاعيان ، وفهريان ، فالكلاعيان هما ابن القصيرة وابن عبدالغفور ، والفهريان أبو القاسم ابن الجد ، وأبو محمد بن عبدون » (٣) ، وهو يلتقي مع المتنبي في كون مدحه « متصل بحياته أشد الاتصال ، وهو يرسم لنا جوانب مهمة من حياته أغفلها الذين ترجموا له ، فلقد تجاوب مدحه مع عزه ومجده ومع اضطرابه وأفول نجمه » (٤) .

ويبدو أن شاعرنا هذا قد ثقف نفسه ثقافة أصيلة تتصل بثقافة المشرق العربي ، ولذلك كما يقول محقق الديوان : « كان من الطبيعي أن يتأثر ، ككل الشعراء الأندلسيين بشعراء المشرق عامةً ، وأبي الطيب المتنبي خاصة ، فيقتدي بآثارهم ويستعير من معانيهم ويتميز عن غيره بالمحافظة على طابعه الذاتي ونكهته الأندلسية » (٥) .

---

(١) المصدر نفسه .

(٢) الذخيرة ٢/ ٢/ ٦٦٨ .

(٣) من كلام المحقق في هامش الذخيرة نقلاً عن كتاب « إحكام صنعة الكلام » ، الذخيرة ق٢/ م٢ ص ٦٦٨ .

(٤) مقدمة محقق الديوان ص ٥٦ .

(٥) المصدر نفسه ص ٨٠ .

وقد وقف ابن بسام عند شعره كثيراً وبين مدى تأثره بشعراء المشرق وعلى الأخص المتنبي ، فعندما أورد له نماذج من شعره في مدح الرشيد ، منها قوله :

إليكَ أبا الحسينِ ركبتُ عزْماً   يضيقُ برحبِ مسعاهُ الطِّلابُ

إلى أن قال

هفتْ بي والدُّجى يهفُو حَشَاه   كما كَسَرَتْ على خُزَزٍ عُقابُ

فقال ابن بسام : « قول أبي محمد :

« وسرتُ ومن كواكبه حُليٌّ ... البيت »

سلك فيه سبيلاً من البديع لاتسلك ، واستولى منه على غاية من الكلام المطبوع قلما تُدرك . وأما قوله :

« كما كَسَرَتْ على خُزَزٍ عُقابٍ »

فما أولاه عليه بالعقاب إذ نسخ لفظ أبي الطيب كما تراه وقصر أكثر مما شاء عن معناه ، وهو :

يهزُّ الجيشَ حولَكَ جانِبَيهِ   كما نَفَضَتْ جناحيها العُقابُ (*)

على أن أبا الطيب إنما تطرَّف قول طرفة :

بكتائبٍ تردي كمـا   تردى إلى الجِيَفِ النسورُ

ولكن المتنبي طار في السمـاء مع العقـاب ، وترك طرفـة في الأرض على التراب»(١) ، وتأثره بأبي الطيب يتسق مع شخصيته الشبيهة بشخصية المتنبي ، فهو وشعره كما يقول محقق الديوان « يقدم لنا . . . شاعراً مداحاً متكسباً ينظر إلى الحظوة والرعاية ، وآخر وجدانياً ينظر إلى الذات » (٢) ثم يشير إلى مسألة خروجه

(*) البيت في ديوان المتنبي ١/ ٧٦ بشرح العكبري .

(١) النص من الذخيرة ق٢/ م١ ص ٧٠٩ .

(٢) مقدمة محقق ديوان ابن عبدون ص ٨٣ .

من بطليوس « بعد أن لعبت ، على مايبدو السعايات والوشايات المعروفة في البلاطات دورها في الإيقاع بينه وبين المنصور بن المتوكل » (١) فاستوحش منه كما يقول ابن بسام ولحق بأشبيلية ، وعندما خرج عن بطليوس مستوحشاً قال : (٢)

أخِلاَّئِي وفي قُرْبِ الصدُورِ ظِباً تَقْضِي على قممِ الدُّهورِ
وقد ضَمَّتْ جوانحُنا قلوباً أَبَتْ غيرَ القصورِ أو القُبورِ

والمتأمل لظروفه هذه يجد الظروف نفسها التي أحاطت بالمتنبي ، وقال تلك الأشعار في كافور ، و« من هنا كان التشابه في مضمون قصائد الشاعرين اللذين مزجا الشعر ، وخاصة المديح بالاستمناح والشكوى والفخر . » (٣) .

هذا ونعود إلى معارضته ليائية المتنبي ، بيائية قالها في مدح المتوكل (٤) عمر بن المظفر بن الأفطس أمير بطليوس ، ومنها :

مضوا يظلمونَ الليلَ لا يلبَسُونه وإن كان مسكيٌّ الجلابيبِ ضافيا
يؤُمون بيضاً في الأَكِنَّةِ لم تَزَلْ قلوبُهم حُبّاً عليها أداحيا
وأغربَةُ الظلماءِ تنفُضُ بينهم قوادِمَها مبلولةً والخوافيا(٥)

الأبيات

فابن بسام أورد أبياتاً من هذه القصائد في سياق مدائح ابن عبدون للمتوكل، وكان يشير أحياناً كعادته إلى ما أخذه الشاعر عن الشعراء العباسيين أو غيرهم ، وهذه القصيدة ذكرها دون أدنى تعليق ولم تسترع انتباهه ، في كونها

---

(١) المصدر نفسه ص ٤٨ .

(٢) الذخيرة ق٢/ م٢ ص ٧١٠ – ٧١١ .

(٣) مقدمة محقق الديوان ص ٨٣ .

(٤) هذا ماذكره صاحب الديوان ، وفيما يبدو أن الدكتور نوفل وهم وأشار في الهامش بأنها في مدح وزير أندلسي يدعى « عمرو بن مذجح » ص ١٣٦ ، تاريخ المعارضات .

(٥) الديوان ص ١٨٨ .

معارضة لقصيدة المتنبي ، وحتى محقق الديوان عقد فصلاً لخصائص شعره ، وتحدث كثيراً عن تأثره بالمتنبي ، ولم يشر إلى معارضته لليائية ، وقد تعرض لليائيتين الدكتور محمد محمود نوفل واستنتج من خلال الموازنه بين شخصية الشاعرين ، وما أولعوا به من شعر المديح ، ووجد أن ابن عبدون بصفة عامة «قد أغرم بمعارضة الشعراء في الدولة العباسية شأنه في ذلك شأن معظم شعراء الأندلس كابن هاني وابن دراج وابن عبدربه ، وغيرهم . . . » (٢) وفي هذا مايزيد طمأنينتا بأن الشاعر العربي في الأندلس ظل عربياً مشرقياً وإن نأت به الديار .

على أن تأثر ابن عبدون بأبي الطيب لم يقف عند هذه اليائية ، فقد عارضه في قصائد أخرى نذكر منها أبياته التي يقول فيها :

أذَهَبْنَ من فَرقِ الفراقِ نُفُوسا ونثرنَ من دُرِّ الدموعِ نَفِيسا

وهذه السينية عبارة عن مقطع لايتجاوز خمسة أبيات ، ترى كأنها من استطرادات المقرى ، فعندما أتى بها ليس لها بابٌ في الكتاب تأوى إليه وإنما جاء ضمن ماذكر من كلام بلغاء الأندلس ذوي الأقدار ، وأخذ يستعرض عدة مقطعات منها هذه الأبيات الخمسة لابن عبدون ، ويرى أيضاً أنها معارضة لقصيدة سينية من قصائد المتنبي ، إلا أن هذه الأبيات الخمسة في ظاهرها لا تدلنا على أنها في غرض المديح ، اللهم إلا إذا كان هناك تتمة لها ، لأن المقرى يقول « وهي طويلة » ، والأبيات هي نسيب مما يقدم به للمديح ، ولكن يكفي أن نشير إلى ماذكره صاحب الديوان من أنها معارضة لقصيدة المتنبي التي امتدح بها محمد بن زُريق الطرسوسي يقول فيها : (٣)

هذي برزتِ لنا فهجتِ رَسِيسَا ثـم انْثنَيتِ وما شَفَيْتِ نَسِيسا

---

(١) الذخيرة ٢/ ٢/ ٦٨٧ - ٦٨٩ ، والديوان ص ١٨٨ ، ت/ سليم التنير .

(٢) تاريخ المعارضات ، د. نوفل ص ١٣٨ .

(٣) الديوان ، طبعة هندية ٣٩ ، ٢/ ١٩٣ .

ولا يفتأ ابن عبدون يذكر المتنبي ويعارضه في مدائحه ، ففي قصيدته التي مدح بها المعتمد بن عباد ، معارضة واضحة لأبي الطيب وتأثر بقاموسه الشعري ، فهو يقول : (١)

ساروا وَمسكُ الدياجي غيرُ منهوبِ   وطُـرَّةُ الشرقِ غُفْلٌ دونَ تذهيبِ

....

إلى أن قال :

هيهاتَ لا أَبْتغي منكمُ هوًى بهـوى   حسبي أكونُ مُحِّباً غيرَ مَحْبُوبِ

قال ابن بسام « قوله حسبي أكون محباً غير محبوب » لفظ أبي الطيب :

أَنتَ الحبيبُ ولكنني أعوذُ بـه   مِنْ أَن أكونَ مُحِّباً غيرَ مَحْبُوبِ(٢)

فهذه القصيدة من أولها إلى آخرها نقرأها وقصيدة المتنبي ماثلة أمام أعيننا ، وهي القصيدة المشهورة التي مدح بها سيف الدولة ، ومطلعها : (٣)

من الجآذرُ فـي زِيِّ الأَعـارِيبِ   حمـرِ الحُلى والمطَايا والجلابيبِ

ومما يدلك على اهتمامه بشعر المتنبي ، أنه في هذه القصيدة - أي ابن عبدون- يأخذ ألفاظاً للمتنبي من قصيدة أخرى نحو قوله : (٤)

ولا أُصالحُ أيامي على دخَـنٍ   ليس النفاقُ إلى خُلقي بمنسُوبِ

يقول ابن بسام إنه لفظ المتنبي أيضاً (٥) ، ويقصد قول أبي الطيب :

فـلا أحـاربُ مـدفوعـاً إلى جَـدَرٍ   ولا أصـالحُ مَـغْرُوراً على دَخَنِ

---

(١) الذخيرة ق٢/ م٢ ص ٦٩٨ .

(٢) الذخيرة ق٢/ م٢ ص ٦٩٨ ، والديوان ص ٣٣٩ .

(٣) ديوان المتنبي ص ٣٣٩ .

(٤) الذخيرة ق٢/ م٢ ص ٦٩٩ .

(٥) المصدر نفسه ص ٦٩٩ .

من قصيدة يمدح بها « أبا عبدالله محمد بن عبدالله بن محمد الخطيب الخصيبي وهو يومئذ يتقلد القضاء بأنطاكيه » (١) ومطلعها :

أفاضلُ الناسِ أغراضٌ لدَى(*) الزمنِ يَخلو من الهمِّ أخلاهُم من الفِطَنِ(٢)

ونختم الكلام عن ابن عبدون بمعارضته لبائية المتنبي التي امتدح بها شجاعة سيف الدولة عندما « أحدث بنو كلاب حدثاً بنواحي بالس وسار سيف الدولة خلفهم وأبو الطيب معه فأدركهم بعد ليلة بين ماءين يُعرفان بالغبارات ، والخرارات فأوقع بهم وملك الحريم فأبقى عليه . . ، فقال أبو الطيب بعد رجوعه من هذه الغزوة : (٣)

بِغَيرِك راعياً عَبِثَ الذِّئابُ وغَيرِك صَارماً ثَلَمَ الضِّرابُ
وتَملكُ أنفَسَ الثَّقلَينِ طُرّاً فكيفَ تحوزُ أنفُسَها كِلابُ

الأبيات

ولما كان عبدالمجيد بن عبدون حريصاً على متابعة المتنبي لم يجد بداً من أن يضيف إلى معارضاته السابقة معارضة هذه البائية بأخرى مدح بها الحسين الرشيد عبيدالله بن محمد بن عباد بن محمد بن سعيد بن عباد اللخمي ولي عهد والده المعتمد ، فقال فيها : (٤)

عَزِيمٌ لا يُسَدُّ عليه بابُ وقلبٌ لا يُفَلُّ له ذُبابُ
مضى في نَائباتِ الدَّهْرِ صلْداً فلم يُثْلَمْ وقد طَالَ الضِّرابُ

---

(١) الديوان ، طبعة هنديه ص ١٣١ .

(*) وهو بلفظ « لذا الزمن » .

(٢) الديوان ١٣١ ، وفي العكبري ٤/ ٢٠٩ .

(٣) الديوان ص ٢٨٧ ، والعكبري ١/ ٧٥ .

(٤) الذخيرة ٢/ ٢ ص ٧٠٨ ، والديوان ص ١٠٦ .

إلى أن قال :

إليكَ أبا الحسينِ ركبتُ عَزْماً ... يضيقُ برحْبِ مَسْعَاه الطِّلابُ
هفتْ بي والدُّجَى يَهفُو حَشَاه ... كَما كَسَرَتْ على خُزَزٍ عُقَابُ

وقد مر بنا تعليق ابن بسام على هذا البيت الأخير وأنه (نسخ لفظ أبي الطيب . . وقصر أكثر مما شاء عن معناه وهو :

يهز الجيش حولك جانبيه ... كما نفضت جناحيها العقابُ » (١)

وبعدُ . فلعل في هذه النماذج من متابعات ابن عبدون لشعر أبي الطيب والتأثر به ، مايؤكد تشبث الأندلسيين بشعر أبي الطيب ، ولا يقفون عند معارضته فحسب ، بل منهم من يعارضه على هيئة المداخلة كما فعل أبو محمد عبدالغفور فقد « أنشد له قوله في معارضة المتنبي ومداخلته : « وهي في مدح الأمير أبي بكر يحي بن سير من أمراء المرابطين » :

سِرْ حيثُ شِئتَ تَحلّه النُّوّارُ ... وأرادَ فيكَ مُرادَكَ المِقْدَارُ
وإذا ارْتَحَلْتَ فَشَيَّعتْكَ سَلامةٌ ... وغَمامةٌ بل دِيمَةٌ مِدْرَارُ
تَنْفِي الهجيرَ بظلّها وتُنِيمُ بالـ ... رَّشِّ القَتامَ وكيف شِئتَ تُدَارُ
وقضى الإلهُ بأَنْ تعودَ مظفَّراً ... وقَضَتْ بِسَيْفِكَ نَحْبَها الكفارُ » (٢)

وواضح ماتكنه هذه المداخلة من هيمنة شعر أبي الطيب على أهل هذا الصقع ، فالبيت الأول هو مطلع قصيدة المتنبي التي مدح بها « سيف الدولة سنة سبع وثلاثين وثلاث مئة » (٣) ، والشطر الأول من البيت الثاني كذلك هو شطر

---

(١) المصدر نفسه ص ٧٠٩ .

(٢) المغرب لابن سعيد ، ت د. شوقي ضيف ، دار المعارف ، ط ٣ ، ١٩٦٤م ، ١/ ٢٤٢ ، وكذلك خريدة القصر ، وجريدة العصر للعماد الأصفهاني ، ت نخبة من الأساتذة ٣/ ٤٣١ .

(٣) ديوان المتنبي بشرح العكبري ٢/ ٨٦ .

بيت المتنبي ، الذي يقول فيه :

وإذا ارتحلتَ فشيعتكَ سلامةٌ حيث اتجهتَ وديمةٌ مِدْرارُ

بل إنه مازاد على أن استبدل لفظ « حيث اتجهت » بلفظ « وغمامةٌ بل ديمةٌ » وقد أشار هو إلى ذلك بقوله : « هذا ماتمناه الولي لا ماتمناه الجعفى » (١) ، وكأن الدكتور محمد بن شريفة يبدي إعجاباً بهذا الصنيع حيث يقول : « فقد اقتبس مطلع شعرٍ للمتنبي في مدح سيف الدولة وتصرف في بعض لفظه » (٢) .

وكان الشاعر الأندلسي ينقل مايعجبه من معاني أبي الطيب إلى شعره وإن اختلف الغرض ، فابن خفاجة على عظم مكانته كان يلجأ إلى أساليب المتنبي ويصرح بها ، ومن ذلك على سبيل المثال قوله في مقدمته : « . . . أم ذلك فيما يشوق ، ويهزّ ويروق من لف الغزل بالحماسة ، وهي من أساليب أبي الطيبِ»(٣) ومن ذلك قول ابن خفاجة في قصيدة غزلية ، نقل في بعض أبياتها معنى من قصيدة لأبي الطيب مدح بها سيف الدولة وهي قصيدته البائية التي يقول فيها :

« فديناكَ مِنْ ريعٍ وإن زِدْتَنا كَرَبا » (٤)

وقصيدة ابن خفاجه يقول فيها :

فلويتُ أعناقَ المطيِّ معرجاً ونزلتُ اعتنقُ الأراكَ مُسَلِّما

قال محقق الديوان : « قوله في هذه القصيدة :

« ونزلتُ أعتنقُ الأراكَ مُسَلِّما » (٥)

---

(١) هامش الخريدة ص ٤٣١ ، وكذلك المتن ص ٤٣٢ ، والجعفي هو « المتنبي » .

(٢) أبو تمام وأبو الطيب ص ١٤٦ .

(٣) مقدمة ابن خفاجة ، الديوان ص ١٦ .

(٤) الديوان ١/ ٥٦ .

(٥) الديوان ص ٢٨٣ .

ينظر إلى قول أبي الطيب المتنبي :

نَزَلْنا عن الأكوارِ نمشي كَرامةً لمن بانَ عنه أنْ نُلِمَّ به رَكْبا (١)

وعلق ابن خفاجة على البيت فقال : « وفي بيت المتنبي لفظة تغض من شرفه ، وهي لفظة « من » . وهي هاهنا مستجفاة لا مستحلاة ، ولو أنه قال :

نزلنا عن الأكوارِ نمشي كَرامةً لأَهْلِيه أن نَغْشَ رسُومَهُمْ رَكْبا » (٢)

فكما نراه يعمل حسه وذوقه النقدي فيما ينقل عن المحدثين ، وهذا ليس بغريب على شاعر ناضج كابن خفاجة .

وعلى أية حال فإن أثر المتنبي في شعراء الأندلس قد تكلُّ العزائم ، وتجف الأقلام إذا ما رمنا تقصيه وتتبعه ، ولو أردنا أن نقصر حديثنا على ما تتبعه ابن بسام من تأثيراته ، ووقفاته عند أغلب ماأخذه شعراء بلده من أبي الطيب ، ومن غيره ، فقط لكان ذلك كفيلا بأن يعطي صورةً مشرقة لهذا التأثير الدال على أن الشاعر الأندلسي لايعدو أن يكون شاعراً عباسياً يعيش في الأندلس ، ولا يعيبه ذلك في شيء .

ولعلي لا أختم حديثي عن أثر أبي الطيب حتى أستعرض شيئاً مما ذكره ابن بسام متفرقاً في أخذ الشعراء الأندلسيين من أبي الطيب ، وكأني به يسعى لتأصيل أدب أهل هذا البلد ، الذي أبى شعراؤه إلا متابعة أهل المشرق على حد تعبيره ، يقول الدكتور حسين يوسف خريوش : « على أن الدعامة القوية في منهجه ، بل الأساس الذي قام عليه الكتاب هو أن يستجلي صورة ماهو في شعر أهل أفقه وبيان موضوعاته وابراز خصائصه بالنظر إلى الشعر المشرقي في مقطوعاته ، وقصائده . »(٣) ، فعندما نتأمل تعليقاته نجد فيها حرصه على ابراز شعراء الأندلس

---

(١) ديوان المتنبي ١/ ٥٦ .

(٢) الديوان ص ٢٨٤ .

(٣) ابن بسام وكتاب الذخيرة ، دار الفكر للنشر والتوزيع ، عَمَّان ص ٥٦ .

في حلبة فرسان الشعر في المشرق ، وسنعرض نماذج من ذلك لنرى تعليق ابن بسام عليها فيما يتعلق بأثر المتنبي في الشعراء الأندلسيين في المديح .

ومن تلك النماذج ، قصيدة الوزير الكاتب حسان بن المصيصي عندما مدح المعتمد بن عباد ، وأولها :

مَنِ استطالَ بغيرِ السيفِ لم يطُلِ ولم يخِبْ من نجاحٍ سائلُ الأسَلِ

فأثبت جودة الشاعر بقوله :

جرَّ الذيولَ ولكن من جحَافِلِـه على القَتادِ ولكن من شبا الأسَلِ

قال ابن بسام : « وهذا البيت . . . مما برز في لفظه ومعناه وأراده كثير من الشعراء فأعياه » (١) . وفي موضع آخر نقده نقداً لاذعاً عندما قال :

كأن أبا بكرٍ أبو بكر الرضي وحسّانُ حسّانٌ وأنتَ محمدُ

فقال ابن بسام : « فأراد أن يعرب فأعجم ، وأحب أن يضيء فأظلم ، ونعوذ بالله من الخطل في القول ، ونبرأ إليه من القوة والحول » (٢) .

وعندما وقف عند بيت لحسان نفسه يقول فيه :

من مُبْلغٌ يَدَه أني نَظمتُ لهـا شكراً جعلتُ قوافيه من القُبَلِ (٣)

قال ابن بسام : « وقول ابن المصيصي كقول ابن عبدون :

« وبَلّغ عن فمي يدَه سلاما ... البيت » (٤)

وظل ابن بسام يسعى خلف ابن المصيصي حتى وصل شعره بمصادره الشرقية حيث

---

(١) الذخيرة ق ٢ م ١ ص ٤٣٨ .

(٢) المصدر نفسه ص ٤٤١ .

(٣) المصدر نفسه ص ٤٣٩ من قصيدة يمدح فيها المعتمد .

(٤) نفسه ص ٤٤٢ .

يقول : « وقول حسان : ويلبس تقوى الله في الحلل » لفظ أبي الطيب : « كساني الدرع في الحلل » »(١) .

وقال أبوبكر بن عمار يمتدح المعتمد :

وماهو إلا لثمُ كفِّ مُحمدٍ   وتمكينُ كَفِّي من نواصي المظالمِ

قال ابن بسام : « وقوله : وتمكين كفي من نواصي المظالم » مُغْتصبٌ من قول أبي الطيب :

كأنَّ رَحِيلي كان من كفِّ طاهِرٍ   فأثبتَ كُورِي في ظهورِ المَوَاهِبِ »(٢)

ولابن عمار نفسه – من قصيدة أخرى في المعتمد – :

ومَا أَخَّرَتْنيَ عنكَ النجومُ   ياغُرَّةَ القمرِ اللائِحِ

ولا النهرُ لم يثْنِني عن ورودِ   ندى بحرِك الزَّاخِرِ الطَّافِحِ

قال ابن بسام : « وهذا البيت الأخير كأنه إلى قول أبي الطيب يشير :

« قواصدُ كافورٍ تَوارِكُ غيرِه   ومن قَصَدَ البحرَ استقلَّ السَّوَاقِيا » (٣)

وكذلك ابن حصن الاشبيلي عندما قال مادحاً :

يروقُكَ من خلقةٍ وخليقةٍ   متى شِئْتَ إطراءً أَرَتْك بما تُطري

فقال ابن بسام : « وهذا مما ذهب به مذهب أبي الطيب وقصر عنه :

وأخلاقُ كافورٍ إذا شئتُ مَدْحَه   وإن لم أَشأْ تُملي عليَّ وأكتبُ » (٤)

---

(١) المصدر نفسه ص ٤٤٢ .

(٢) المصدر نفسه ص ٣٨٠ ، وديوان المتنبي ١/ ١٥٢ .

(٣) الذخيرة ق٢/ م١ ص ٣٨٦ ، وديوان المتنبي ٤/ ٢٨١ شرح العكبري .

(٤) الذخيرة ق٢/ م١ ص ١٦٧ ، وديوان المتنبي ١٨١ ، شرح الكبري .

وأعجب من ذلك تعليقه على أبياتٍ للوزير أبي العلاء زهر بن عبدالملك وبخاصةٍ قوله :

ما أثّرَ العضبُ الحسامُ بِذَاته　　إلا بِأَنْ سُـــمِّيتَ من أسمائه

فقال ابن بسام : « . . . البيت من مليح المدح في حسن التعرف بجنس السيفية ، وأبو الطيب ممن اتخذ سبباً إلى سمائها وعرج ، وقرع بابها حتى دخل كيف شاء وخرج ، كقوله :

لقد رفــعَ اللــهُ مــن دولـــةٍ　　لها مِنْكَ يا سَيْفَها مُنْصُلُ

وكقوله :

لولا سَميٌّ سيوفِهِ ومضاؤُه　　لما سُلِلْنَ لكنّ كالأجفانِ

وكقوله :

تُسمي الحسامَ وليستْ من مشابهةٍ　　وكيف يَشْتَبِهُ المخدومُ والخدمُ

وقال :

قلّــد اللــهُ دولةً سيــفُهــا أنـ　　ـت حُســامــاً بالمكرمــاتِ مُحلّى

فــإذا اهتــزَّ للندى كــان بحــراً　　وإذا اهتــزَّ للوغـــى كــان نصــلا

وقال :

وإنّ الذي ســـمّى علياً لمنصفٌ　　وإنَّ الذي سـمَّــاه سـيــفــاً لظالِمُهُ

ومــاكُلُّ سيفٍ يقطعُ الهــامَ حَــدُّه　　وتقطـــعُ لَزْباتِ الزمــانِ مكارمــه

وقال :

إن الخليفــةَ لم يسمِّك سيـفَـه　　حــتى بلاك فكنتَ عــينَ الصــارمِ

وإذا تتــوَّج كنتَ درَّةَ تاجِــــهِ　　وإذا تـخــتَّمَ كنتَ فصَّ الخــــاتمِ

وقال :

من للسيوفِ بأن يكون سَمِيَّها في أصلِهِ وفرندِه ومضائِه
طُبِعَ الحديدُ فكان من أجناسه وعليٌّ المطبوعُ من آبائِه » (١)

. . . إلى آخر ماقال ابن بسام .

وأختتم كلامي عن أثر أبي الطيب المتنبي في شعراء الأندلس في هذا الغرض بما قال ابن بسام : « واستقصاء ذكر هذا الباب ، مما يضخم حجم الكتاب»(٢) ، ولأن هذه التأثيرات لايمكن الاحاطة بها لكثرتها ، وتعدد أساليبها ، ولم تك هذه التأثيرات مقصورةً على الفن الشعري فحسب ، بل تعدته إلى الفن النثري ، فالمتأمل في رسائل ابن زيدون مثلاً ، يجد أنه يستحضر الشيء الكثير من شعر أبي الطيب في رسائله ، وغيره من أدباء الأندلس كانوا يجدون متعةً في تمليح نثرهم بأشعار أبي الطيب .

فذلكم هو المتنبي ، وحاله مع شعراء الأندلس ، وهذا شيء من تأثيره عليهم في غرض المديح عله أن يفي بالمطلوب ، مع أن له تأثيرات في سائر الأغراض ، وإنما اكتفينا في هذا البحث بأثره في هذا الغرض ، لأنه ما برز فيه وتبعه من جاء بعده من الشعراء مشارقة وأندلسيين .

---

(١) الذخيرة ق٢/ م١ ص ٢٢٦ ، ٢٢٧ .

(٢) نفسه ص ٢٢٥ .

الفصل الثالث

مظاهر التأثر في غرض الغزل

المبحث الأول

الغزل منذ العصر الجاهلي
حتى نهاية العصر العباسي

إن الحديث عن غرض الغزل في الشعر العباسي وبيان أثره في الغرض نفسه في الشعر الأندلسي ، يستدعي التعرف على هذا الغرض من حيث مدلوله اللغوي ، والتعرف على هذا الغرض على مرّ العصور الأدبية في إلماعة وجيزة نعرف من ورائها موقف الشاعر الأندلسي من تراثه في المشرق العربي .

والغزل هو ذلك النوع من الشعر الذي هيمن على أغراض الشعر العربي ، لارتباطه بعاطفة الحب التي تجذب الأرواح إلى بعضها . وفي الحديث : « الأرواح جنود مجندة ماتعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف»(١) ولن نتعجل القول في تفصيلات هذا الموضوع قبل أن نقف على المعاجم العربية ، لتعطينا تعريفه وارتباطه بغيره من المسميات ، كالنسيب ، والتشبيب ، وغير ذلك .

فالغزل هو : تحديث الفتيان للجواري ، وهو اللهو مع النساء ، ومغازلتهن : محادثتهن ومراودتهن . وقد غازلها مغازلةً ، والتغزل : التكلف لذلك وقد تغزل بها (٢) ، وغازلها مغازلةً ، وفي المثل « هو أغزل من امرىء القيس » لأنه كان كثير الحديث والتغزل بالنساء وذكر أيامه الصاخبة معهن .

والغزل ، والنسيب ، والتشبيب ، استعملها النقاد بمعنى واحد ، وإن كانت هناك فروق طفيفة بين هذه الألفاظ ، وقد نقل ابن سيدة عن غير واحد من أئمة اللغة قوله : « . . . نسب بالنساء ينسبُ ، وينسُب نسباً ، ونسيباً : تغزل بهن في الشعر ، وعن أبي عبيدة ، شبب بهن كذلك . »(٣) .

---

(١) الحديث رواه البخاري ومسلم وأبوداود وغيرهم . ينظر روضة المحبين لابن القيم ص٧٣ .

(٢) ينظر : المخصص ١/ ٠ ، ٤/ ٥٤ ، ٥٥ ، واللسان ، والصحاح مادة (غزل) .

(٣) المخصص ١/ س ٤ ص ٥٥ .

ولأبي الفرج قدامة بن جعفر توسع في معاني الغزل ، والنسيب يقول : « . . . إن النسيب ذكر خلق النساء وأخلاقهن ، وتصرف أحوال الهوى به معهن . . . » . وعن الفرق بين النسيب والغزل يقول : « والفرق بينهما : إن الغزل هو المعنى الذي اعتقده الإنسان في الصبوة إلى النساء نسب بهن من أجله ، فكأن النسيب ذكر الغزل ، والغزل : المعنى نفسه . » ، ثم قال : « والغزل : إنما هو التصابي والاستهتار بمودات النساء . » (١) .

وذهب ابن رشيق إلى ماذهب إليه قدامة ، وقال إن : النسيب والغزل والتشبيب كلها بمعنى واحد ، ثم قال : وأما الغزل فهو إلف النساء والتخلُّق بما يوافقهن . . . فمن جعله (*) بمعنى التغزل فقد أخطأ ، وقد نبه على ذلك قدامة وأوضحه في كتابه : نقد الشعر . » (٢) .

ويقول صاحب كتاب « المصطلح النقدي » : « إن لفظة الغزل قد وردت في الشعر القديم في قول الأعشى ميمون بن قيس :

من كلِّ ذلك يومٌ قد لهوتُ به ... وفي التَّجارِب طولُ اللَّهو والغَزَلِ

قال : « وهذا المعنى هو الذي شاع في الاصطلاح النقدي منذ أقدم عصور الأدب ، وكثيراً ماكان النقاد قديماً يستعملون مفردات أخرى تفيد نفس معنى الغزل مثل النسيب والتشبيب ، ومن ثم اعتبرت هذه التسميات الثلاث مرادفات ، من هؤلاء النقاد ابن سلام والجاحظ ، وابن قتيبة وثعلب » (٣) .

---

(١) نقد الشعر ، ت محمد عبدالمنعم خفاجي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ص ١٣٤ .

(*) لعل الضمير يعود إلى النسيب ، وليس إلى الغزل ، ص ١١٧ .

(٢) العمدة ٢/ ١١٧ ط محي الدين .

(٣) المصطلح النقدي في نقد الشعر ، إدريس الناقوري ، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والاعلان ، طرابلس ، ليبيا ، ط ٢/ ١٣٩٤هـ - ١٩٨٤ م ، ص ٣٥٣ .

ولا نود إطالة الكلام حـول المدلول اللغـوي لهـذه الألفـاظ لأن ذلك لايعنيني، بقدر مايعنيني الاستعمال الشائع لأيٍ منها ، وفيما يبدو أن لفظة «الغزل» أكثر شيوعاً مما سواها .

وغرض الغزل كما يقول الدكتور شكري فيصل : « يشغل . . . من الإرث الشعـري الذي خلفه لنا العصـر الجاهلي مكاناً واسعاً حتى ليكاد أن يكون الجزء الأكبـر من ثروتنا الأدبية في هذا العصـر . . . وأن الأغـراض الأخرى تكاد تكون مقصورة على الغزل أو متصلةً به بسبب ، وأن الأغراض الأخرى جميعاً من الفخر والمدح والهجاء ، والرثاء لاتعدو أن تكون قسيماً لشعر الغزل » (١) .

ومما يحسن بالبحث وأنا أتتبع أثر الشعراء العباسيين في شعراء الأندلس في هذا الغرض ، أن أتعرف على القصيدة الغزلية منذ مهدها ، لأن عاطفة مثل هذه لايمكن أن تنفصل في عصر من العصور أو بلد دون بلد لتبدو مستقلةً عن التأثيرات المتتابعة التي تربط حاضر الأمة بماضيها ، فالإنسان هو الإنسان والحب هو الحب ، وإنما يتجلى الفرق في نوعية التعامل مع هذه العاطفة بالنسبة لهذا الإنسان ، وبالبحث عن تطور قصيدة الغزل ، وكيف عالجها الشاعر العربي منذ العصر الجاهلي حتى العصر العباسي ، يستطيع البحث أن يحدد موقع القصيدة الغزلية في الأندلس من القصيدة العربية بعامة والعباسية بخاصة . وهذا النوع من التتبع يوقفنا على « مدى التقليد والأصالة ومواطن القديم والجديد ، ومظاهرها » (٢) ، على أن ظاهرة التقليد والمطابقة والأخذ والسرقة ، كل ذلك لايعنى به البحث إذا أُريد منه مسخ الشخصية الشاعرة في الأدب العربي في الأندلس ، لأن فكرة السرقات الشعرية قد أخذت من اهتمام النقاد قديما أكثر مما يجب ، وأصبحت مطيةً يمتطيها الناقد ليجرد الشاعر الفحل من قدراته الإبداعية ، ويسلخه من رؤى صاغها خياله ،

---

(١) تطور الغزل ، د. شكري فيصل ، ط/ دار العلم للملايين ، ص ٢٣ .

(٢) اتجاهات الغزل ، د. بكار ، ص ١٣ .

وكأن ليس له إلا النظم ، وهذا منهج ربما ساد في زمنه وليس له مجال في دراستنا هذه .

ومادمنا بصدد دراسة التأثر بين الشعراء في المشرق والمغرب فيجب أن ندرس القضية بحذر شديد ، لأن « بين التقليد والمطابقة العرضية دوماً منطقة واسعة غير محددة » كما يقول « ريبيرا » ، وأن التقليد وإن كان تابعاً لقابلية التأثر ، فإن هذه تتعلق بدورها بقابلية الاستشهاد » ، ويعني بذلك « تلك الجاذبية التي تمارسها حضارة على أخرى ، وهذا يعني العودة إلى استنطاق عقلية المقلد لكي نكتشف الوشائج الاختيارية التي استطاعت شدَّه إلى غرض تقليده . » (١) .

ونحن وإن كنا نبحث عن تأثر الشاعر الأندلسي بصنوه العباسي فإننا يجب أن نضع في اعتبارنا أن الشاعر الأندلسي وإن بدا تأثره بالعباسي واضحاً ، فإن معرفة هذا الشاعر بمذاهب الشعر العربي لاتقل عن معرفة الشاعر العباسي لها ، والعباسي نفسه لم يمتلك الجدة بكل مقوماتها ، فهو لم يخرج عن الشعر القديم إلا في نطاق محدود ، وغرض مثل الغزل سيكون تشبث الشعراء بمن قبلهم فيه أشد مما سواه ، ذلك أن شعر النسيب له من السيرورة على الألسن ماليس لغيره من الأغراض ، وبمعرفة خط سير قصيدة الغزل في الشعر العربي نتبين عمق تأثر الشعراء بسابقيهم على مدى العصور والأزمان ، وهذه القضية ليست بالقليلة أو اليسيرة ، إذا وضعت على مائدة الدرس والبحث ، ولست بصدد تقصيها ، وإنما سأوجز القول فيها تمهيداً لدراسة الغزل عند الأندلسيين ومدى تأثره بغزل العباسيين .

والتطور عادة يحدث لوجود شيء سابق ، فهو « لايحدث انطلاقاً من العدم » (٢) . وهذه قضية عني بها الدكتور شكري فيصل رحمه الله عندما درس

---

(١) الغزل عند العرب ج -ك - فاديه / ترجمة ابراهيم كيلاني ص ٣ .

(٢) المصدر نفسه ص ٣ .

الغزل وتطوره بين الجاهلية والإسلام ، وبين أن غرض الغزل يطل دائماً في مطلع القصيدة العربية ، وأن أغلب الأغراض لاتعدو أن تكون قسيماً لشعر الغزل ، وماذلك إلا لأن شعر الغزل كان يمثل جزءاً من حياة هذه القصيدة ، بل من حياة صاحبها ، فيقول الدكتور شكري : « إن الثروة الشعرية كالقطعة الذهبية ذات الوجهين نقش الجاهليون على صفحتها الأولى عواطفهم التي ابتعثها فيهم الحب ، وما يؤدي إليه هذا الحب من وصل أو هجر ، ومن سعادة أو شقاء ، ومن لذة أو غصة ، وصوروا هذه العواطف ، وأفنوا في تصويرها ملكاتهم ومواهبهم ، أما الصفحة الأخرى فقد جمعوا عليها كل أغراضهم الأخرى ، ونثروا في أطرافها كل الفنون والأغراض الثانية كائنة ماكانت هذه الفنون والأغراض » (١) .

وظل الشاعر في مديحه أو رثائه أو هجائه مرتبطاً بهذا الغزل ، فتلك ظاهرة من أبرز ظواهر الشعر العربي ، وهي « ظاهرة ابتداء القصائد - أو أكثرها - بالغزل . . . حتى لاتكاد تخلو قصيدة من ذلك ، في صورة غزل أو حنين أو أطلال»(٢) ، وهذه القضية لم تغب عن ذاكرة النقد القديم ، فنجدها عند كل من ابن قتيبة ، وابن رشيق ، وقدامة وغيرهم ، فقد جعلت أساساً لمنهج القصيدة العربية ، ومجمل آرائهم لايتجاوز ماذكره الدكتور شكري فيصل من أن «الأغراض الأخرى التي عرض لها الشعراء الجاهليون لم تكن في كثير من الأحيان، مقصوداً لها قصداً ، ولا متعمدة تعمداً . . . كانت روح الحب وعواطف الهوى هي التي تبتعثها ، وهي التي تكمن وراءها » (٣) . وظل هذا النهج سنةً متبعة سار على إثرها الشعراء ، جيلاً إثر جيل ، حتى المحدثين الذين جنحوا عن منهج القصيدة العربية ، كان يعاودهم الحنين إلى هذا المنهج فافتتحوا الكثير من قصائدهم بالغزل

---

(١) تطور الغزل ، ص ٢٣ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٨ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٢٥ .

لأنه يعبر عن حالة الشاعر الذاتية ورغائبه النفسية . وقد نقل ابن رشيق عن الحاتمي قوله : « . . من حكم النسيب الذي يفتتح به الشاعر كلامه أن يكون ممزوجاً بما بعده من مدح أو ذم متصلاً به غير منفصل منه ، فإن القصيدة مثلها مثل خلق الإنسان في اتصال بعضه أعضائه ببعض فمتى انفصل واحد عن الآخر ، وباينه في صحة التركيب غادر وبالجسم عاهة تتخون محاسنه وتعفي معالم جماله ، ووجدت حذاق الشعراء وأرباب الصناعة من المحدثين يحترسون من مثل هذه الحال احتراساً يحميهم من شوائب النقصان ، ويقف بهم على محجة الإحسان » (١) .

وكان الشاعر الفحل يعُدُّ الغزل مفتاحاً للشعر ، يقول ابن رشيق : « سئل ذو الرمة : كيف تفعل إذا انقفل دونك الشعر ؟ ، فقال : كيف ينقفل دوني وعندي مفتاحه ، قيل له : وعنه سألناك ، ماهو ؟ قال : الخلوة بذكر الأحباب » قال ابن رشيق : فهذا لأنه عاشق ، ولعمرى إنه إذا انفتح للشاعر نسيب القصيدة فقد ولج من الباب ، ووضع رجله في الركاب . . » (٢) .

وإذا كان الأمر كما ذكر ابن رشيق ، فإن الغزل كان تعبيراً رمزياً - كما يرى بعض الدارسين - يقدم به الشاعر لقصيدته ، يقول الدكتور البهبيتي : « فهو كذلك لايقصد به الشاعر إلى موضوعه وإنما يقصد به إلى غير ذلك مما يهم الشاعر أمره ، ويأخذ عليه نفسه ومن هنا يأخذ ذلك الاستفتاح الغزلي للقصيدة الجو الذي يعيش فيه الشاعر والذي يملي عليه شعره » (٣) ، ولذلك قلّ أن تجد شاعراً يعد في طبقة الفحول يقصر شعره كله على غرض الغزل ، وهذا ماجعل ابن رشيق يقول عن ذي الرمة : « . . . على أن ذا الرمة لم يكن كثير المدح والهجاء ، وإنما كان واصف أطلال ، ونادب أظعان ، وهو الذي أخرجه من طبقة الفحول » (٤) .

---

(١) العمدة ٢/ ١١٧ ط/ محي الدين .

(٢) العمدة ١/ ٣٧٤ ، طبعة قرقزان .

(٣) تاريخ الشعر ص ١٠٠ .

(٤) العمدة ١/ ٣٧٤ ، الطبعة السابعة .

هذا وقد سارت قصيدة الغزل في اتجاهات متعددة بحسب العصر الذي نشأ فيه الشاعر ، فالشاعر الجاهلي كما رأينا كانت المقدمة الطللية أو الغزلية ، جزءٌ من شعره لايحيد عنه ، وقد قسم بعض (١) الدارسين الغزل الجاهلي إلى حسي وهو : الوصف المباشر للمرأة ، قد يفحش فيه الشاعر أحياناً فيصف مفاتن المرأة ، وجسدها ، ويصف مغامراته معها ، والتقائه بها ، وماناله منها مما يتطلع إليه ، وهذا كما يقول الدكتور يوسف بكار « هو النوع السائد في الغزل الجاهلي » (٢) .

ونوع يسمى الغزل العفيف ، وهو ولاشك كان قليلاً بالنسبة للنوع الأول ، إلا أن هذا التقسيم قد لايخضع للتجربة الواقعية إذا مافحصنا القصائد العربية ، لأن الشاعر الجاهلي كان يعيش في وسط بيئة بدوية ليس من السهل أن يظفر فيها الشاعر الماجن بحرة ، ليفعل معها مايريد كما يفعل مع الأمة المبتذلة ، ولذلك تجد الشاعر إن وصف الحرة الأبية كان شعره عفيفاً ، فينصب وصفه على ذكر منازلها ، وما بقي من الأطلال الدوائر ، وربما وصف أخلاقها ، وامتدح نسبها ، وأما إذا وصف قينة من القيان فإنك ستجد وصفاً مفحشاً يخرج عن دائرة الغزل الحقيقي ، فهو هنا يصف مغامراته الفاضحة ليس لها سمة النسيب المعروف في الشعر العربي ، وفي أغلب الظن أن ماقيل عن مغامرات امرىء القيس ، وما فعله في يوم دارة جلجل ، هو ضرب من الأساطير والحكايات الشعبية ، على الرغم مما اشتهر به هذا الشاعر من فحش وتعهر في شعره .

وقد جرت سنة الشعر العربي بصفة غالبة أن يكون للمقدمة الغزلية وجه الصدارة ، ولذلك تجد الغزل والتشبيب عندهم يأتي على هيئات متعددة مرتبطاً بأغلب الأغراض ، وقلّ أن نجد شاعراً جعل شعره كله وقفاً على الغزل ، وربما عدّ ذلك عيباً ، كما عاب ابن رشيق ذا الرمة (٣) .

---

(١) ينظر على سبيل المثال ماكتبه الدكتور شكري فيصل في تطور الغزل ، وماكتبه الدكتور يوسف بكار في : اتجاهات الغزل في القرن الثاني .

(٢) ينظر د. بكار ، ص ١٣ .

(٣) ينظر ص ١٩٦ من هذا البحث .

فمن خلال استقراء النصوص الشعرية ، وتعليقات النقاد عليها أمثال ابن قتيبة ، وابن سلام ، وغيرهما ، ومن خلال كلام الدارسين المعاصرين نخرج من كل ذلك بأن الغزل في الشعر القديم لم يكن مستقلاً عن الأغراض الأخرى ، وكان يأتي من الشاعر على هيئات متعددة ، منها : أن يقف الشاعر على الأطلال ، ويناشدها ويبكي عليها متلمساً آثار الحبيب ، ثم يذكر ارتحاله من هذه الأطلال واصفاً مشاهد التحمل والارتحال (١) .

ومنها : أن يتغزل الشاعر تغزلاً فاضحاً يصف فيه محاسن المرأة الجسدية كما فعل أمرؤ القيس ، والأعشى في بعض قصائدهما ، ومن الشعراء من يتغزل غزلاً يتسامى فيه عن ذلك ، فيكون غزله معبراً عن بطولاته ، وإثبات وجوده كما فعل عنترة .

ومنهم من كان يتغزل متحدثاً عن الحب ، وحرقة الصبابة وشدة وقعها على نفسه ، ومن هي المرأة بالنسبة له ، وهذا النوع يقترب من الحب العذري الذي عرف فيما بعد .

---

(١) كان ابن قتيبة أول من التفت إلى منهج القصيدة العربية ، وأن مقصد القصيد لابد أن يتحدث عن ديار الحبيبة ويقف بأطلالها ، ويصف رحلته تمهيداً لغرضه ولذلك يرى بعض الدارسين بأن هذه المقدمة كانت بمثابة « آصرة وجدانية بين المبدع والمتلقي ثم من حيث هي ضرب من التقاليد تتجلى من خلاله صيرورة كليهما إلى ميراث من الأعراف الشعرية المشتركة ، ومن ثم يمكن القول بأن مقدمة القصيدة رغم مايبدو من ذاتية مصدرها في نفس المبدع هي في التحليل الأخير مشتركه وجماعية من حيث عموم الإحساس بها » مقالة : توظيف المقدمة في القصيدة الحديثة / محمد فتوح احمد ص٣٩ مجلة فصول مجلد (ع ٤ / ٩٨) وعلى هذا فابن قتيبة كما يقول مانرو « يؤكد أن القصيدة يجب أن يكون لها ثلاثة أجزاء : النسيب ، الرحيل ، والموضوع الحقيقي ، وأن الشاعر يجب علاوة على ذلك أن يحتفظ بتوازن بين كل جزء والجزء التابع له » . نقلاً عن كتاب عناصر الوحدة والربط في الشعر الجاهلي/ سعيد الأيوبي ، مكتبة المعارف ، الرباط ١٩٨٦ ، ص ٣٢٥ .

وفكرة الوقوف بالأطلال صاحبت الشعر الجاهلي جلّه ، فكانت مبعث الشوق لدى الشاعر ، حتى لو لم يقف حقيقة ، وهذا يعود لمتابعة الشعراء لمن سبقهم ، وذاع صيته في العشق والغزل ، وليس بالضرورة أن ينطلق في وصفه للأطلال من عاطفة صادقة ، وإنما يود أن يجري على سنن متبعة كما قال امروء القيس :

عوجا على الطَّللِ المُحيلِ لعلَّنا ... نبكي الديارَ كما بكى ابنُ خُذَامِ

ولذلك ألفيناه كما قال ، فقد وقف في كثير من قصائده ، فناشد الربع وبكى واستبكى ، ومعلقته المشهورة تنبيء عن ذلك .

ولو تتبعنا أبرز قصائد الشعر العربي لوجدنا أن أغلب الشعراء كان يقتفي إثر من سبقه ، فنجده يردد المعاني نفسها ، والألفاظ كذلك ، وقد يغير في الوزن والقافية ، وربما وافقه في القافية أو حرف الروي ، فنقرأ لامريء القيس قوله :

وقوفاً بها صحبي عليَّ مطيَّهم ... يقولون لا تهلِكْ أسىً وتجمَّلِ

ونقرأ لطرفة :

وقوفاً بها صحبي على مطيُّهم ... يقولون لا تهلِكْ أسَىً وتجلّدِ

ويقول امرؤ القيس كذلك :

ترى بعر الآرام في عرصاتها ... وقيعانها كأنه حبٌّ فلفلِ

فيأتي زهير بن أبي سلمى فيقول :

بها العينُ والآرام يمشين خِلْفَةً ... وأطلاؤُها ينهضْنَ من كل مجثم

ثم يأتي لبيد بن ربيعة العامري فيقول :

والعينُ ساكنةٌ على أطلائِها ... عوذاً تأجَّل بالفضاءِ بهامُها

ونقرأ لبشامة بن الغدير :

لمن الديارُ عفونَ بالجِزْعِ ... بالدم بينَ بحارَ فالشَّرعِ

ونقرأ للحارث اليشكري :

لمن الديارُ عفَون بالجِزْعِ ... آياتُها كمهارقِ الفُرسِ

وهكذا دواليك نجد تأثر الشعراء ببعضهم واضحاً ، لأن العاطفة واحدة ، واللغة واحدة ، وثقافة الشاعر لاتعدو ما حفظه من هذا الشعر العاطفي الذي وصفه الدكتور شكري فيصل بقوله : « . . . إن هذا الشعر الذي وقف فيه الجاهليون على الأطلال ينطوي على فيض من العاطفة فهو إذن في أول صفاته شعر عاطفي ، وحسبنا من تصوير هذه العاطفة أننا لانزال حتى اليوم ، وبيننا وبين هذا الشعر خمسة عشر قرناً في الزمان ، وبيننا وبينه مثيل هذه القرون في البعد الحضاري ، وفي اختلاف البيئات لانزال حتى اليوم على كل هذه الأبعاد والآماد ، نرى فيه رياً لعواطفنا نحن وتعبيراً عن مشاعرنا نحن ، ونحس حين نقرؤه ونفهمه هذه الاستجابة له ، وهذا التأثير به ، والأمر يعود دون شك إلى هذه الشحنات العاطفية القوية التي تكمن فيه . . » (١) وإذاً فكيف بمن كان قريب العهد به ، فلابد أن يتأثر به ، وينسج على منواله هذا النسج المتتابع ، حتى في غير هذا الموضوع ، ولنا في كلام ابن الأعرابي شاهد على ذلك ، أنه « لم يصف أحد قط الخيل إلا احتاج إلى أبي دؤاد ، ولا وصف الخمر إلا احتاج إلى أوس بن حجر ، ولا وصف أحد نعامةً إلا احتاج إلى علقمة بن عبدة ، ولا اعتذر أحدٌ في شعره إلا احتاج إلى النابغة الذبياني » (٢) .

وصلة أصحاب هذا الشعر العاطفي ببعضهم قديماً وحديثاً ، تؤكد ذلك وإلا فما بال جميل بثينة يقول :

قد ماتَ قَبلي أخو نَهْدٍ ، وصاحبُه مُرَقِّش ، واشتفَى من عروةَ الكَمدُ
وكُلُّهم كانَ من عشقٍ منيتُّهُ وقد وَجَدْتُ بها فوقَ الذي وَجدُوا
إني لَأَرْهَبُ أو قد كِدْتُ أَعلمُه أن سوفَ توردُني الحوضَ الذي وَرَدُوا

---

(١) تطور الغزل ص ٦١ .

(٢) الأغاني ١٦/ ٣٧٥ .

وما بال كثير يقول :

وعــروةُ لـم يلْقَ الـذي لقــيتُــه بعــفــراءَ، والنهــديُّ مــا اتفـــجّعُ

ومابال قيس بن ذريح يقول :

وفي عروةَ العُذريِّ إن متُّ أُسوةٌ وعمـــرو بنُ عَجْلانَ الذي قَتَلَتْ هندُ

وبي مثـــل مـانَابَه غيـرَ أنني إلـــى أجلٍ لـــم يأتني وقتُـه بعدُ

وهذا يؤكد أن الشعر العربي كان مرتبطاً ببعضه أشد الأرتباط ، وكأن الشاعر العربي عندما يريد القول في غرض من الأغراض فإنه يضع نصب عينيه شاعراً اشتهر بذلك ، يقول أحد الباحثين المعاصرين « كانت هناك صيغ وقوالب يتداولها الشعراء ، وهم يرسمون الأبعاد الواضحة للصورة الشعرية التي يقصدون إليها ، بحيث نجد أن كل الشعراء يترسمون شكلاً منهجياً واحداً ، وأن طبيعة البناء الفني تفرض عليهم أسلوباً واحداً مما يحدونا إلى القول بأن الشعر الجاهلي تكاد تنتظمه وحدة كلية عامة على مستوى الشكل - الأسلوب - أو مستوى البناء وعلى مستوى المضمون . » (١) .

وخلاصة القول فإن المقدمة الطللية هي الرمز الموحي والمعبر عن وجدان الشاعر تجاه المرأة في العصر الجاهلي لأنها : « هي مصدر اللذة الكبرى ولذا كان يفديها بكل مايملك ، ويركب الأهوال ويعرض نفسه للأخطار من أجلها ، ويشعل حرباً في سبيلها ، فالمرأة هي موضوع العاطفة الصادقة في الغزل الأصيل . . . . وهذا يدل على أن « الشاعر العربي أول مالهج بالشعر لهج بقصيدة الغزل التي موضوعها المرأة . . . » (٢) وظلت هذه المرأة رمز الجمال عنده لايتصور جمال الدنيا من حوله إلا في صورتها ، فهي « جماع مظفر الجمال وصوره فهو لايشهر

---

(١) عناصر الوحدة والربط في الشعر الجاهلي / سعيد الأيوبي ، ص ٢٧١ .

(٢) مقدمة لقصيدة الغزل العربية / د. عبدالحميد جيدة ، ص ٨ .

غيرها في حياته الرتيبة ، وهي تكاد تكون لذلك محور اهتماماته النفسية ، ووثباته العاطفية . . . إنها في صورة أخرى من صور التعبير لغة الجمال المشتركة بين هؤلاء الجاهليين يلتقون عندها ، ويشتركون جميعاً فيها ويتحدثون بها ، ويجيدون الحديث ، كل بالحظ الذي قدر له » (١) .

ولو انتقل بنا الحديث إلى عصر صدر الإسلام ، فإن الشعر بصفة عامة لن يكون ذلك الشعر الجاهلي الذي لا هم لصاحبه إلا إرضاء لذاته ، والفخر بقبيلته ، وسيكون شعر الغزل بصفة خاصة يسير وفق معان سامية ، يرضاها الإسلام ، لأن شاعراً عاش في بيئة جاهلية علمه الشعر وليس له علم غيره كما قال ابن سلام ، لن يكون مثل شاعر وجد في القرآن الكريم علماً وفكراً ومنهجاً لحياته كلها ، ذلك أن لهذا القرآن الكريم هيمنة على النفوس ، لاسيما وقد نزل بلغتهم العربية التي أنشدوا أشعارهم بها ، ولذلك وعى الشعراء المخضرمون دورهم في الإسلام فأصبح شعرهم ينطلق من « قيم الإسلام الروحية التي آمنوا بها وخالطت شغاف قلوبهم . » وخير دليل على ذلك ماحفظه لنا التاريخ وكتب السير من أشعار حسان وعبدالله بن رواحة وكعب بن زهير رضي الله عنهم ، وغيرهم من شعراء الدعوة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام .

إذاً فنحن بإزاء مرحلة انتقال جديدة في حياة عرب الجزيرة العربية مرحلة غيرت مجرى حياتهم كلها ، فوجد الشاعر نفسه مرتبطاً بمقاييس أخلاقية جديدة لابد أن ينطلق منها ، فقد بدأ يتأثر بالقرآن الكريم ، ووجد في معانيه مايساعده على الانطلاق في شعره ليدافع عن الإسلام كما فعل حسان وعبدالله بن رواحة عندما هجوا كفار قريش الذين تصدوا للدعوة الإسلامية وحاربوها أشد المحاربة . على أن هناك من الدارسين من يرى أن بعض الشعراء المخضرمين لم يتأثروا بالإسلام كبير تأثر مثل الحطيئة وهو أحد الشعراء الفحول الذين كانوا يعتنون بأشعارهم يقول

---

(١) تطور الغزل ، ص ١٧٨ .

شوقي ضيف : « وقد كان على شاكلة زهير يُعنى بشعره وتجويده عناية شديدة ، وقد أثر عنه أنه كان يقول : « خير الشعر الحولي المحكك ، فهو ممن كانوا يتأنون في شعرهم ، ويعيدون النظر فيه حتى تخرج جميع الأبيات مستوية في الجودة والروعة . . . ونراه في مطولاته يشبب ويصف الصحراء وحيوانها الوحشي والأليف ، ومدائحه لاتقل عن مدائح زهير جودة . . » (١) لكن هذا الثناء على الحطيئة لم يكن ليعفيه من عدم امتثاله أوامر الدين التي ذعن لها غيره من الشعراء ، ولذلك ظل الحطيئة صورةً لحياة الشاعر الجاهلي « فمضى يمدح ويهجو ويتكسب بشعره مستغلاً بعض الخصومات القبلية التي كانت ماتزال سائدة حينذاك ، وبذلك لم يتأثر تأثراً واضحاً بروح الإسلام أو أسلوب القرآن أو لغة « العصر » التي كانت قد بدأت تجري على ألسنة الشعراء والخطباء . »(٢) .

وكان كعب بن زهير رضي الله عنه في قصيدته اللامية المشهورة على نهج الشعر الجاهلي من حيث الافتتاح بالمقدمة الغزلية ، والتشبيب المعروف عند العرب ، على الرغم من وجود بعض المعاني الإسلامية فيه في مدحه للنبي ﷺ ، وهذه القصيدة هي اللسان الناطق والمعبر عن توبة كعب الصادقة ومع ذلك فقد جاءت معبرةً في أغلب أبياتها عن عواطف الشاعر الذاتية ، وهي ربما تبعد الشاعر بعض الشيء عن التأثر بالمعاني الإسلامية التي برزت في شعر حسان رضي الله عنه . ونلمس في هذه القصيدة رقة الغزل الذي « يجمع بين شرف الاحساس في تصويره لجمال صاحبته ولوعة الحرمان التي نجدها فيما بعد عند الشعراء العذريين»(٣) وانطلق من هذه المقدمة الغزلية إلى وصف ناقته كما هو الشأن بالنسبة للشعر الجاهلي ، ثم دخل في غرضه الذي جاء من أجله وهو الإبانة عن توبته ومدح رسول الله ﷺ ، وعلى هذا ليس في غزل كعب تطورٌ أو تغيير في منهج القصيدة في الشعر الجاهلي ، وهذا يعود لكون كعب حديث عهد بالجاهلية .

---

(١) العصر الإسلامي ، ص ٩٨ .

(٢) في الشعر الإسلامي والأموي ، د. القط ، ص ١٥ .

(٣) المصدر نفسه ص ٣٠ .

وشعر الغزل في صدر الإسلام أصبح ضئيل الكم والعاطفة ، ولن نجد شاعراً غزلاً بالقدر الذي ألفيناه لدى الشاعر الجاهلي ، وكان الشاعر المسلم إذا راوده الهوى وأحب أن يتغزل فكر فيما يناله من العقوبة الدنيوية والأخروية ، فهذا أبومحجن الثقفي ، روى أنه أحب « امرأةً من الأنصار يقال لها شموس ، فحاول النظر إليها بكل حيلة فلم يقدر عليها ، فآجر نفسه من عامل يعمل في حائط إلى جانب منزلها فأشرف من كوة البستان فرآها فأنشأ يقول :

ولقد نظرتُ إلى الشُّموسِ ودونَها حَرَجٌ من الرحمنِ غيرُ قَلِيـــلِ

فاستعدى زوجها عمر بن الخطاب فنفاه إلى حضوضي . » (١) .

فإذا هؤلاء الشعراء « كانوا يحسون الحرج الذي يعانونه في هذا التناقض بين سلوكهم ، وبين السلوك الذي تفترضه الحياة الإسلامية ، وأنهم كانوا يأتون ماأتوا وقلوبهم وجلة ، وكانوا يعتذرون عن ذلك بما ركب في طباعهم واستقر في نفوسهم . » (٢) .

وممن برز في شعر الغزل في صدر الإسلام الشاعر حميد بن ثور الهلالي الذي وجد نفسه في مجتمع محافظ لايسمح له أن ينطلق في غزله كما يحلو له ، وقد عاش في عصر عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي توعد الشعراء الذين لايتورعون عن التشبيب بالنساء بالجلد ، ولذلك لم يكن بد أمام حميد بن ثور من أن يستعمل الرموز والكنايات البعيدة في غزله حتى لايقع في المحظور ، وكان يستعمل إسلوباً قصصياً ، لعله مهد الطريق لشعر عمر بن أبي ربيعة فيما بعد ، وإن كان شعر عمر أقرب إلى شعر امريء القيس الذي سبق غيره إلى الجانب القصصي في الشعر ، وعلى الرغم من ذلك فإن شعر حميد يعد تطوراً لقصيدة الغزل في العصر الإسلامي ، وهكذا كان شأن حميد يستخدم رمزاً لحياته العاطفية يبث من

---

(١) الأغاني ٢١ ص ١٣٨ .

(٢) ينظر تطور الغزل ص ٢٢٩ ومابعدها .

خلاله صبابته ، يصف الشجرة ويتخذها رمزاً لحبيبته ، نجده يصف الحمامة من هذا المنطلق ويصورها إنسانة رقيقة ، يتخذها رمزاً آخر يجد فيه الوفاء وهي تغني بصوتها الجميل فيقول (١) :

وما هَاجَ هذا الشَّوقَ إلا حَمَامَةٌ ... دَعَتْ سَاقَ حُرٍّ ترحةً وترنُّما

مُطَوَّقَـــةٌ طوقاً وَلَيْسَتْ بِحِلْيَةٍ ... ولا ضَرْبَ صَوَّاغٍ بِكَفَّيْهِ دِرْهَما

تَبَكَّى على فَرْخٍ لها ثُمَّ تَغْتَدِي ... مُوَلَّهَةً تبغي لَهُ الدَّهْرَ مَطْعَمَا

تُؤَمِّلُ منه مُؤْنِساً لانفِرادِها ... وتَبْكى عليه إن زَقَا أو تَرَنَّمَا

عَجِبْتُ لها أَنَّى يكونُ غناؤها ... فَصيحاً ولم تَفْغَرْ بِمَنطِقِها فَما

فلم أر مَحْزُوناً لـه مثلُ صَوتها ... ولا عَرَبِيّاً شَاقَهُ صوتُ أعْجَما

كمثلي إذا غَنَّت ، ولكنَّ صوتَها ... له عَوْلَةٌ لو يَفْهَم العودُ أرْزَما

وقد شاع في شعر حميد الجانب القصصي ، فأصبح غزله متميزاً فهو يصور عاطفته بإسلوب جديد ، وقصيدته التي يقول فيها :

خليليّ إِني مُشْتَكٍ ما أَصَابَنِي ... لِتَسْتَيْقِنا ما قَد لقيتُ وتَعْلَما

خير دليل على بروز اتجاه جديد في الغزل مهد الطريق لعمر بن أبي ربيعة فيما بعد، وإن كان قد سبقهما إلى ذلك امرؤ القيس - كما ذكرنا سابقاً - ، في سرده لقصته في يوم دارة جلجل، وغيرها .

وعلى هذا يمكن القول بأن الغزل في العصر الإسلامي اتخذ طريقاً جديداً يبعده عن الاسفاف الممقوت الذي عرف عن شعراء الجاهلية ، كما أن ظاهرة الوقوف بالأطلال اختفت إلى حد كبير ، وكذلك ما ألفه الشعراء من وصف المفاتن والمحاسن الظاهرة لم يعد شيئاً ممكناً بالنسبة لهم في صدر الإسلام .

---

(١) ديوان حميد بن ثور الهلالي ، ت/ عبدالعزيز الميمني ، دار الكتب، ١٩٥١م، ص٧.

أما الغزل في العصر الأموي ، فقد اتخذ مسلكين ، فهو إما غزل حافظ أصحابه على الآداب الإسلامية ، وظلّوا يشببون بالمرأة بعيداً عن وصف مفاتنها ، وكأنه ينظر إلى الحب نظرةً تبعده عن الحسية المعروفة في الشعر العربي .

وإما غزلٌ شعراؤه لم يقو الايمان في قلوبهم ، فظلوا على سنن الشعر الجاهلي ، من حيث الجرأة في وصف مفاتن المرأة ومحاسنها الجسدية ، كما هو الشأن بالنسبة لعمر بن أبي ربيعة .

وهناك طائفة كبيرة من الشعراء ، نهجت نهجاً تقليدياً ألفته القصيدة العربية ، من حيث ابتداء القصائد بالنسيب ونحو ذلك ولا يعتبر الغزل غرضاً مستقلاً ، وإنما هو أحد أجزاء القصيدة أياً كان غرضها .

وإذاً فالغزل في العصر الأموي قد جاء على أنماط ثلاثة :

الأول : الغزل التقليدي : وهو ذلك النوع الذي يجري على ألسنة كثير من الشعراء دون قصد إليه ، ولعلّ أبرز من يمثله شعراء النقائض الذين شغلتهم الأهواء السياسية عما سوّاها .

الثاني : الغزل العذري : وهذا النوع قد شُغل به الدارسون من حيث نشأته وولادته ، وهو ظاهرة من الظواهر التي وجدت في الشعر العربي ، ومعروف أن من أعقد الأمور تحديد نشأة الظواهر الفنية ، وأقرب القول في الغزل العذري أنه يُنسب إلى قبيلة عذره التي تنزل وادي القرى في الجزيرة العربية .

والغزل العذري : هو ذلك النوع الذي امتزجت فيه الغريزة الجنسية بالعاطفة الدينية فجاء الغزل على هذا النحو من السمو والترفع عن النزوات البهيمية ، وظل متلبساً بلباس العفة والطهر .

إذاً فالشاعر العذري ، عبر عن عواطفه وعن عشقه للمرأة من منطلق العفة ، مقيداً بقيودها ، فمنعته من الفحش وبذاءة القول . ولذلك اكتفى شعراء هذا النوع بالحديث عن عواطف المرأة ومشاعرها ، وانسانيتها ، ولم يذكروا مفاتنها ، ولعل أصحاب هذا المنهج أقرب إلى الالتزام بتعاليم الدين واحترام الأعراض ، وأبرز شعراء هذا الاتجاه جميل بثينة وكثير عزة ، ومجنون ليلى .

الثالث : الغزل المتحرر : وهو الغزل الفاحش الذي يصف مفاتن المرأة الجسدية ، وقد وجدت له جذور في الغزل الجاهلي عند امريء القيس والأعشى ، ويمثله في العصر الأموي عمر بن أبي ربيعة .

وهذان النوعان الأخيران انصرف شعراؤهما عن أغراض الشعر الأخرى كالفخر والمديح ونحو ذلك ، ووقفوا شعرهم على الغزل وحده ، يقول الدكتور طه حسين : « . . . فقد رغب جميل عن المديح وانصرف عمر عن الوصف والفخر والمديح ، فكان إذا احتاج إلى الوصف ، فوصفه سبيل إلى الغزل أو في معرض الغزل ، وإذا احتاج إلى الفخر فإنما ليظهر لصاحبته ولصواحبها من حولها مكانته ومكانة قومه . » (١) ، ولذلك اعتبر الدكتور طه حسين أن فن الغزل هو صنيعة العصر الأموي من حيث هو غرض مستقل ، فيقول : « نشأ في العصر الأموي فن جديد في الشعر هو فن الغزل يُقصد لنفسه ، إنه فن الحب من حيث هو حب ، وكان هذا الفن الجديد مختلفاً متنوعاً باختلاف الشعراء ، واختلاف ضروب الحياة التي كانوا يحيونها ، وكان هناك شعراء لايقصدون إلى وصف اللذات وما تستتبعه ، وإنما يقصدون إلى وصف العواطف الحارة الصادقة التي تعذب صاحبها دون أن تتيح له لذة مادة ما ، وإنما اللذة الوحيدة التي يجدها هي لذة الألم بأنه يحب ويحب من لا سبيل له إلى وصله أو التقرب إليه ، وزعيم هؤلاء الشعراء جميل الذي أمضى حياته ، وقصر شعره على حب بثينة ، فكان يجد في هذا الألم والعذاب لذةً ، وكان يطمع في أن تحس صاحبته مايدخر لها من حب ، ومايلقى في سبيلها من ألم . . . كان جميل زعيم المتغزلين العذريين . . » (٢) .

وأما عمر بن أبي ربيعة فكان زعيم مدرسة فن الغزل الإباحي في العصر الأموي ، ولذلك عده الدارسون رأس مدرسة مستقلة ربما كانت تمهيداً للغزل في

---

(١) من تاريخ الأدب العربي ، دار العلم للملايين ، ١/ ٤٧٨ .

(٢) العرجي وشعر الغزل في العصر الأموي ، وليم نقولا شقير ، ص ٥٥٦ ، نقلاً عن مقال نشر في جريدة السياسة عدد ٢٠ سنة ١٩٢٢ م .

العصر العباسي ، وكان عمر يختلف في طريقته الغزلية عن جميل ، لأن جميلاً وقف شعره على بثينة ولم يتغزل بسواها « أما عمر بن أبي ربيعة . . . فهو يتنقل بين النساء يتغزل بهذه ثم بتلك ، لا يريد منهن غير متعة ساعة . » (١) .

وهذان الشاعران كان بينهما تأثر متبادل وقف عنده الرواة ، وقد شُغل جماعة من أهل الأدب بالمفاضلة بين الشاعرين ، ومن ذلك مارواه أبو الفرج في أغانيه من أن « الوليد بن يزيد بن عبدالملك قال لأصحابه ذات ليلةً : أي بيت قالته العرب أغزل ؟ فقال بعضهم قول جميل :

يموتُ الهوى منِّي إذا مالقيتُها ويحيا إذا فارقتُها ، فيعودُ

وقال آخر قول عمر بنِ أبي ربيعة :

كأنني حينَ أُمسي لا تُكَلِّمُني ذو بُغيةٍ يَبْتَغِي ماليسَ مَوْجُودا

فقال الوليد : حسبك والله بهذا . » (٢)

والقصة الأخرى أكثر دلالةً على إعجاب الشاعرين ببعضهما وتأثر كل منهما بالآخر ، وهي أن عمر ، وجميل « قد اجتمعا بالأبطح فأنشد جميل قصيدته التي يقول فيها :

لقد فَرِحَ الواشونَ أَنْ صرَمَتْ حَبْلي بُثَيْنَـــةُ أو أَبَدَتْ لنا جانبَ البُخْلِ

يقـولـــون مـهلاً ياجـمـيلُ وإننـــي لأقـسمُ مـالي عن بثينةَ من مـهلِ

حتى أتى على آخرها ، ثم قال لعمر يا أبا الخطاب ، هل قلت في هذا الروي شيئاً . قال نعم ، قال فأنشدنيه ، فأنشده بقوله :

جـرى ناصحٌ بالـــودِّ بيني وبينَهـــا فَـقَرَّبَني يومَ الحِصَـابِ إلى قَتْلي

---

(١) مقدمة ديوان جميل ، حسين نصار .

(٢) الأغاني ١/ ١١٤ .

فقال جميل : هيهات يا أبا الخطاب ! لا أقول والله مثل هذا سجيس الليالي ، والله لايخاطب النساء مخاطبتك أحد ، وقام مشمِّراً . قال أبو عبدالله بن الزبير قال عمي مصعب : كان عمر يعارض جميلاً فإذا قال هذا قصيدة قال هذا مثلها ، فيقال : إنه في الرائية والعينية أشعر من جميل ، وأن جميلاً أشعر منه في اللامية»(١) .

من كل ذلك نخلص إلى القول بأن الغزل في العصر الأموي كان له طابعه الخاص الذي ميزه من بين العصور الأدبية لأنه غزلٌ خالص كما وصفه طه حسين ، وأنه لم يوجد مرتين في الأدب العربي وإنما وجد مرةً واحدة في أيام بني أميه ، ولم يكن له قبل الإسلام وجود مستقل ، ولم يكن الشعراء الجاهليون يعنون به إلا على أنه وسيلة شعرية إلى ماكانوا يذهبون فيه من مذاهبهم الشعرية المختلفة » (٢) .

وخلاصة القول أن شعر الغزل في هذا العصر يعد رائداً للشعر في هذا الغرض بزعامة عمر بن أبي ربيعة . . والسؤال الذي يطرح نفسه الآن ، هل سيتكرر هذا النوع من الغزل في العصر العباسي أم أن الأمر سيختلف تماماً عنه في العصر الأموي الذي تميز فيه الغزل بصدق العاطفة ، وصفاء السجية التي كان يجري عليها الشاعر ، ولذلك لن نقول شيئاً متعجلاً عن العصر العباسي حتى نعرف ملابسات الغزل فيه ، وكيف عالج الشعراء العباسيون هذا الغرض .

فمن المؤكد أن العصر العباسي هو زبدة الحقب ، بالنسبة للعصور التي مرت بالأمة الإسلامية على مر التاريخ ، وقد التقت فيه ثقافات متعددة ، وتلاقحت فيه الأفكار على اختلاف أنواعها وأجناسها ، ولا يتجافى التاريخ عن دور الأمة الفارسية ، والتركية في البلاط العباسي وماترتب عليهما من دخول عناصر جديدة ، بثقافة لم تكن معروفة للعرب من قبل ، كل ذلك أدى إلى التأثير

(١) الأغاني ١/ ١١٤ ومابعدها .

(٢) من تاريخ الأدب ، طه حسين ١/ ٥٩٢ .

على الحياة العامة والخاصة في هذا العصر ، يقول الدكتور صالح آدم : « . . . كان للثقافات الأجنبية الوافدة تأثير على حياتنا العامة في فترة زاهية من تاريخنا . . . الذي امتد من قيام دولة بني العباس عام ١٣٢هـ حتى استيلاء البويهيين على بغداد عام ٣٣٤هـ . . . وكان لهذا التأثير صداه القوي على أدبنا في عصره الذهبي »(١) .

إذن فنحن بإزاء حياة جديدة لها سماتها ، ومميزاتها التي أبعدتها عن سماة ومميزات حيوات سابقة عليها ، وفي الوقت نفسه غير منفصلة عنها ، وعن التأثر بها ، « ففي أوائل القرن الثاني وأواخر الأول نلاحظ أن تطوراً جديداً دخل على الحياة العربية ، وأن عصراً جديداً للأدب قد أخذ يظهر ، وأهم مظاهره هو انصراف الشبان عن الحياة الأدبية التقليدية . . . »(٢) فهذا الانصراف مما فرضته عليهم ظروف العصر وأحداثه والبدوات اليسيرة التي وجدوها في آخر عصر بني أمية ولاسيما عصر الوليد بن يزيد آخر خلفائهم ، فضلاً عما شهده العصر من « وجوه التغيير على المستويات السياسية ، والاجتماعية والاقتصادية والفكرية ، انعكست جميعها بشكل ملحوظ في الطراز الحضاري لحياة المجتمع ، وفي نتاجه الفكري والروحي على السواء » (٣) ، على أن ذلك الانصراف عن تقاليد الشعر السابقة لم يكن على إطلاقه ، لأن الأغراض الشعرية المعهودة ظلّت مستمرةً في جميع العصور الأدبية ، وقد فصلنا القول في ذلك في غرض المديح ، وحديثنا عن غرض الغزل في العصر العباسي لايخرج عما قلناه في غيره من الأغراض ، من حيث ارتباط الشاعر العباسي بالشعر القديم ، وإفادته منه ، ومحاولة صبغه بصبغة جديدة تتلاءم مع بيئته التي يعيشها .

---

(١) الثقافات الأجنبية في العصر العباسي / المقدمة .

(٢) من تاريخ الأدب العربي ، طه حسين ١ / ١٢ .

(٣) في الشعر العباسي ، الرؤية والفن ، د. عزالدين اسماعيل ، ص ٣١٧ .

وإذن فأول مانواجهه عند الشاعر العباسي في غرض الغزل : هو المنطلق الأساسي الذي انطلق فيه من موروثه الشعري القديم في العصرين الجاهلي والأموي، وكان الشاعر الفحل إذا تغزل افتخر بتقليده لشاعر سبقه وذاع صيته في هذا الفن ، ومن ذلك ماروى عن بشار بن برد أنه قال :

جَفَتْ عيني من التَّغماضِ حتى كأنَّ جفونَها عنها قِصارُ
يُرَوِّعُه السِّرارُ بكلِّ فَجٍ مخافةَ أن يكون به السِّرَارُ

فلما قيل له : قلت أحسن بيت ثم أفسدته بالبيت الثاني ، وأنشده البيتين ، فقال بشار : أردت أن ألحق قول المجنون :

كأنَّ القلب ليلةَ قِيلَ يُغْدى بليلى العامريةِ أو يُراحُ
قَطاةٌ غرَّها شَرَكٌ فباتَتْ تُجَاذِبُه وقَدْ عَلِقَ الجَنَاحُ

فلم أحسن أن أقول كذلك . » (١)

فإذا كان « أستاذ المحدثين الذي عنه أخذوا ومن بحره اغترفوا وأثره اقتفوا . . » - كما يقول المرزباني - اعترف بمحاولته تقليد المجنون وعجزه عن اللحاق به ، فكيف بالشعراء من بعده ، ولذلك لو أراد باحث ما أن يضع الأمور في نصابها ، فليس له أن يجعل من شعر المحدثين إلا ذلك النمط الذي عرف التراث وتبعه ولبى حضارة عصره التي فُرضت عليه ، وسنجد في هذا العصر من انقطع للغزل دون غيره كالعباس بن الأحنف ومع ذلك لم يسلم من التشبه بغيره ممن تقدمه، كما قال عبدالله بن المعتز بأنه كان « يشبه في عصره بعمر بن ربيعة المخزومي في عصره . »(٢) ، وابن المعتز إنما يقول ذلك مدحاً له ، وليس عيباً فيه ، ولنا معه وقفة بعد الحديث عن غزل بشار وأبي نواس لأن لهما فضل السبق عليه ، ولأن لغزلهما أثراً كبيراً في غزل شعراء الأندلس .

(١) الموشح ص ٣١٤ .
(٢) طبقات ابن المعتز ص ٢٥٤ .

وللغزل في العصر العباسي أساليب متعددة تبعاً لأهواء الشعراء وتبعاً لحياتهم المترفة المضطربة ، وقد كثر هذا النوع من الشعر في هذا العصر كثرةً مفرطة ، وتنوع إلى أنواع لم تكن معهودة من قبل ، إلا أنه لم يشكل مدرسة مستقلة ، وإنما تابع في جانب منه نهج المدرسة الغزلية التي عرفت في العصر الأموي ، ولهذا فشعراؤه في الأغلب مقلدون تقليداً تلقائياً لمن سبقهم لكثرة حفظهم لأشعارهم التي نقلها الرواة إليهم ، وفيما ذكرناه عن بشار دليل على ذلك عندما رام تقليد المجنون ، وهذا نمط من التقليد غير الممقوت لدى أولى العلم في هذا الميدان ، لأنه «ظاهرة طبيعية في كل عصر مهما كانت خصائصه وكثرت فيه مظاهر التجديد ، والجديد ، فلا يخلو منه عصر من العصور الأدبية ، وعند أية أمة منه »(١) .

وموضوع الغزل هو أحد الفنون الأدبية التي يقول عنها برونتير بأنها «تشبه الأشخاص الحية من حيث خضوعها لأحوال الزمان والمكان ، وألوان السياسة والاجتماع فهي تنتقل في العصور التاريخية الأدبية مصطبغة بأصباغ تلك العصور حاملةً في طياتها جميع ماأحاط بها من مؤثرات »(٢) .

ولذلك ظل الشاعر العباسي مرتبطاً بكثير من موروثه الشعري من حيث مبدأ القصيدة وطابعها العام ، فالمقدمة الطللية قد استحوذت على أغلب قصائد المديح ، ولم يتخفف منها إلا شعراء اتهموا في عقائدهم وصفاء عربيتهم . وبصفة غالبة فإن شعراء هذا العصر لم يخرجوا عن أساليب القدماء ، لأن قوة التأثير كانت تجذبهم وإن اختلفت بيئتهم عن بيئة أولئك المتقدمين ، مع أنهم حاولوا ماأمكنهم ابتكار طرق جديدة ، ولاسيما في مطالع قصائدهم ، فاستفتحوها بمطالع «مختلفة كل الاختلاف عن مطالع الجاهليين ، ولكنهم مع هذا لم يهملوا الأساليبَ والمواقف القديمة »(٣) .

---

(١) اتجاهات الغزل ، د. بكار ص ٦١ .

(٢) الغزل في تاريخ الأدب العربي ، احمد الشايب ، دار المعارف ، تونس ص ٩ .

(٣) التوجيه الأدبي ، طه حسين وآخرون ص ١٧٠ .

وتأثير الشعر الأموي كان واضحاً ، فأشعار عمر بن أبي ربيعة ، وجميل ، وكثير قد أشاعها المغنون والمغنيات الذين وجدوا في تلك الفترة في آخر العصر الأموي، إذ وجد نوع من الغناء يسمى الحداء وهو ترديد الشعر وتلحينه بصوت حسن يطرب له السامع ، وكان المسافر يتسلى به ليقطع الطريق وما حديث أنجشة عنا ببعيد عندما قال له رسول الله ﷺ عندما كان يحدو رويدك يا أنجشة رفقاً بالقوارير يقصد النساء ، فهذا هو الغناء المعروف قديماً ، أما الغناء بالأدوات الموسيقية كما يقول الدكتور شوقي ضيف ، فقضية يعوزها الدليل ، لأن المجتمع الإسلامي في ذلك الحين لم يكن مجتمعاً منحلاً كما صوره بعض المؤرخين، ومؤلفي الموسوعات الأدبية ، بل هو مجتمع اسلامي ظل أبناؤه مشغولين بالجهاد لرفع راية الإسلام ، وإن وجد شيءٌ من الغناء الذي ذكرنا فهو عند بعض الفئات عندما ظهر أمثال عمر بن أبي ربيعة وكثير عزة وغيرهما . وقد قام كتاب الأغاني بأكمله على تسجيل الأصوات الغنائية واعتمد عليه الدارسون في التأريخ لهذه القضية ، ونحن نتعامل مع هذا الكتاب كمصدر أدبي ، ولكنه ليس مصدراً موثوقاً به في كل مايورد .

والقضية التي نحن بصددها هي تأكيد أثر الشعر الأموي في لاحقه العباسي، وأن الغناء لعب دوراً بارزاً في انتقال شعر الحجاز إلى « العراق مع الحياة المتحضرة ، التي أغرقت جوانب المجتمع . . والتي لم تكن تساويها الحياة المترفة في الحجاز »(١) .

فالغزل في العصر العباسي خضع لمؤثرات تراثية ، ومستجدات اقتضاها العصر نفسه ، فكانت القصيدة عند بعض الشعراء صورة مكررة لقصائد الشعر الجاهلي من حيث افتتاحها بالمقدمة الطللية تمهيداً للغرض الذي يعالجه الشاعر .

---

(١) اتجاهات الشعر في القرن الثاني ، د. هدارة ص ٥٠١ .

وعندما ازداد اختلاط العرب بالعنصر الفارسي ، ودخلت ثقافات متعددة على هذا المجتمع بدأت طائفة من الشعراء تتنصل من تلك القيود التي فرضتها عليهم القصيدة الجاهلية ، واستبدلوا المقدمات الطللية بمقدمات أخرى قد تحكي واقع العصر الذي ينتمون إليه .

ومن شعراء الغزل البارزين في هذا العصر بشار ، وأبو نواس ، وهما رواد هذا العصر ، وقد اعترى شعر الغزل على يديهما ضرب من التغيير والتبديل ، وإن كانا في الأغلب لم يتميزا بالكلية عن شعراء الغزل في العصرين السابقين لهما .

ولعلنا في عجالة سريعة نقف على طريقة كل منهما في معالجة قصيدة الغزل ، وما الجديد الذي أحدثه فيها .

فبشار بن برد كان ينطلق في غزله من تصوره للمرأة بأنها مجرد متاع يتلذذ به في أي وقت شاء ، ولذلك عندما سئل : « أي متاع الدنيا آثر عندك ؟ فقال : طعام مز ، وشرابٌ مرّ ، وبنت عشرين بكر » (١) فهو لم يكن يعنيه من المرأة رقتها ولطفها ، وحسن رونقها ، وإنما كان يعبد شهوته ولذته ، لايختلف عن أي حيوان هائم ، يؤكد ذلك مارواه صاحب الأغاني من أنه « سمع كلام امرأة . . . فعلقها قلبه ، وراسلها يسألها أن تواصله ، فقالت لرسوله : وأيَّ معنى فيك لي أو لك فيّ ! وأنت أعمى فتعرف حسني ومقداره وأنت قبيح الوجه فلا حظّ لي فيك ! ، فليت شعري لأي شيء تطلب وصال مثلي ! وجعلت تهزأ به في المخاطبة ، فأدى الرسول الرسالة . » (٢) ثم أمر رسوله أن يعود إليها بشعر يصف فيه متاعه ، وهذا يؤكد عدم إدراك بشار لقداسة الحب ، واحترام الأعراض ، وإن كان ليس غريباً على شاعر كبشار إذ كان قائد الشعراء في عصره إلى الزندقة والمجون التي غرق فيها حتى أذنيه ، ولذلك جاء غزله حسياً فاضحاً يسعى إلى إثارة الغرائز وانتشار الزنى ،

---

(١) الأغاني ٣/ ٢٠١ .

(٢) نفسه ٣/ ٢٠٢ .

فقد هيأ بيته للمغنيات من الجواري وبنات الهوى ينشدهن أشعاره ليتغنين بها ، يقول أبو الفرج : « كان لبشار مجلسان : مجلس يجلس فيه بالغداة يسميه «البردان» ، ومجلس يجلس فيه بالعشي إسمه « الرقيق » فأصبح ذات يوم فاحتجم ، وقال لغلامه : أمسك عليّ واطبخ لي من طيب طعامي ، وصفِّ نبيذي ، قال : إنه لكذلك إذْ قُرِع الباب قرعاً عنيفاً ، فقال : ويحك ياغلام ! أنظر من يدق الباب دق الشرط ، قال : فنظر الغلام ، فقال نسوة خمسٌ بالباب يسألن أن تقول لهن شعراً ينحن به ، فقال : أدخلهن ، فلما دخلن نظرن إلى النبيذ مصفى في قنانيِّه في جانب بيته . . . فقالت واحدة منهن : هو خمر ، وقالت الأخرى : هو زبيب وعسل ، وقالت الثالثة : نقيع زبيب ، فقال : لست بقائل لكن حرفاً أو تطعمن من طعامي ، وتشربن من شرابي . . . الخ » (١) ثم ذكر أبو الفرج بأنه قال لهن شعراً غناه رجل يقال له يحيى المكي (٢) .

وغزل بشار هو عبارة عن قصص يحكيها عن مجونه واستهتاره بمودات النساء ، وليس غزلاً عفيفاً ، وإن استولى هذا الغرض على معظم شعره ، ففي ديوانه مايربو على مائة وثلاثين قصيدة في النسيب والغزل عدا المقاطع التي أوردها المحقق في الجزء الرابع من الديوان وهي كما يقول : « مما تناقلته رواة الأدب ، إذ كانت مما يتمثل به الأدباء في منتدياتهم من كل حدب . »(٣) ، ومع كل ذلك فلم يكن لبشار مدرسة مستقلة في الغزل ، ولانستطيع أن ننسبه لأي من مدرستي الغزل التي عرفهما العصر الأموي ، وكون الدكتور يوسف خليف يرى أن غزله «شيئاً جديداً في تاريخ الغزل العربي » وأنه يختلف في كثير من جوانبه عن غزل الشعراء السابقين حتى شعراء الغزل اللاهي من أمثال امريء القيس وعمر بن أبي ربيعة»(٤)

---

(١) الأغاني ٣/ ١٦٩ - ١٧٠ .

(٢) نفسه .

(٣) الديوان ٤/ ٥ .

(٤) الشعر العباسي « نحو منهج جديد » ص ٤٠ .

فإن ذلك لايثبت عند الدرس والتمحيص ، وكل مايمكن أن يقال عن غزل بشار إنه غزلٌ لاينتمي لأي من المدرستين الآنفتي الذكر .

وننتقل إلى غزل أبي نواس ، ولن نطيل القول فيه ، فكل ماذكرناه عن بشار يمكن أن ينطبق عليه ماعدا جانباً شاذاً اشتهر به أبونواس ، وخرج فيه عن المألوف ، وقد سبق القول عن اتجاهه الشعري بصفة عامة ، ومايعنينا هنا هو التعرف على قصيدته الغزلية وطريقته التي عرف بها ، فهو أول شاعر تمرد على المقدمة الطللية ، واستبدلها بالمقدمة الخمرية ، وانتقد المتمسكين بهذه المقدمة لأنها لاتمثل العصر الذي نشأ فيه الشاعر ، فهو لايصف واقعه وإنما يحاكي من سبقه من الأعراب ولذلك قال :

عاجَ الشَــقِيُّ على رسم يُسائِلُه   وعُجْتُ أَسأَلُ عن خَمَّارةِ البَلَدِ

ولأبي نواس منطلق عجيب في شعره الغزلي فكان لايعنى بوصف النساء إلا ماكان من علاقته مع « جيان » التي تعلق بها وتغزل بها كثيراً ، وإنما الشيء الذي عني به واشتهر بوصفه هو «حب الغلمان» وهو نمط شاذ من الغزل حدث في هذا العصر على يد الحسين بن الضحاك وأبي نواس ، الذي كانت لحياته الأولى وتلمذته على يد والبه بن الحباب دافعاً قوياً إلى هذا النوع من العهر والفجور ، وكان قد جلس إلى أصحاب الكلام ، فتعلم منهم ، ثم عاشر الملوك (١) ، وكل ذلك دعاه إلى المجون والزندقة وعشق الغلمان ، فصور حياتهم وماكانوا يصطنعونه من تقليد الجواري في أزيائهن ، وزينتهن في سلوكهن ، وماكانوا يعملون عليه من نشر الانحراف واشاعة الشذوذ بين شباب هذا المجتمع الظاميء للهو في أي صورة من صوره (٢) .

وقد شاعت هذه الظاهرة في العصر العباسي بشكل منقطع النظير ليست على يد أبي نواس فحسب ، بل هناك من وقف شعره كله على الغزل بالمذكر

---

(١) بتصرف من كتاب : مختار الأغاني ، لابن منظور ٣/ ١١ .

(٢) ينظر/ تاريخ الشعر في العصر العباسي، يوسف خليف ، ص ٦٢-٦٥.

كالحسين بن الضحاك ، وذكر أن حماد عجرد كان له شغف بالغلمان حتى إن بشاراً هجاه بذلك . واشتهر كذلك في هذا النوع يوسف بن الحجاج الثقفي ، وسعيد بن وهب ، وبكر بن خارجة الذي عشق غلاماً نصرانياً ، ولعل سبب انتشار ذلك النوع من العشق كثرة العنصر الفارسي وكثرة الجواري - كما يرى الدكتور هدارة - في هذا العصر مما أشاع التهتك والخلاعة بينهن ، وتيسر الحصول عليهن بأهون سبيل ، كل ذلك دفع بعض الرجال إلى الزهد في المرأة ومحاولة اقتناص اللذة من سبيل آخر يرضي شهواتهم التي تؤججها مظاهر الترف والفراغ ووفرة الثراء في مجتمعهم ، يضاف إلى ذلك أن مجالس الشراب التي شاعت في مختلف الطبقات كان سقاتها من غلمان الفرس والروم الذين دربوا على هذا العمل خير تدريب وكانوا على جانب كبير من الجمال والخلاعة في الوقت ذاته ، وحينما كانت الخمر تسور في رؤوس الشاربين كانوا يتغزلون في أولئك السقاة » (١) وقد تطور هذا النوع من الغزل على يد أبي نواس واشتهر به ، على الرغم من نبذ المجتمع له ، ولعلّ السبب الذي ألجأه لهذا الغزل الشاذ هو إخفاقه في حب معشوقته « جنان » التي أحبها حباً شديداً ولكنها لم تكن تعبأ به مع أنه لم يصدق كما يقال في حب إمرأة غيرها ، ومع ذلك لم يفلح في إستمالتها ، وعندما يئس انصرف إلى أبناء جنسه ، ولم تعد ثمة صلة تربطه بالمرأة فكما يقول محقق الديوان « فقد أجهزت هذه التجربة على كل صلة تربط أبا نواس بالمرأة ، فلم يحس بهذا العطف الغريزي الذي يكون بين الرجل والمرأة ، ولما كان هذا العطف ضرورياً للإنسان ضرورة الماء والهواء ، والطعام فقد تلمّسه أبونواس ولكن في جنسه ووجد في طبيعة العصر الذي يعيش فيه كل المبررات التي يتعلل بها ويستند إليها في تجشم هذا السبيل ، ومن هنا يتضح لقاريء غزله سببُ تفضيله الغلمان على النساء ، ويتضح له أيضاً لماذا كان شعره فيهم أكثر من شعره فيهن . . » (٢) .

---

(١) اتجاهات الشعر ، د. هدارة ص ٥١٧ .

(٢) الديوان ص ع المقدمة .

من خلال ماسبق يتبين لنا أن غزل أبي نواس مرّ بمرحلتين : مرحلة تكاد تكون عذرية لكونه تغزل بامرأة واحدة وأحبها حباً شديداً ولم يهو غيرها ، ومرحلة اليأس منها، والبحث عن الغلمان تعويضاً لما فقده من المرأة حين فقد حبيبته «جيان» .

وأما شاعرا الغزل الحق في هذا العصر ، فهما : العباس بن الأحنف ، وربيعة الرقي ، فالأول كما ذكرنا شبهه ابن المعتز بعمر بن أبي ربيعة(١) ، والثاني ذكره ابن المعتز فقال عن شعره « . . فأما شعره في الغزل فإنه يفضل على أشعار هؤلاء من أهل زمانه جميعاً ، وعلى كثير ممن قبله ، وما أجد أطبع ولا أصح غزلاً من ربيعة . . »(٢) ، إلا أنه لم ينقطع مثل العباس بن الأحنف لشعر الغزل لكنه شاركه في إحياء الغزل الخالص الذي كان في عصر بني أمية ، ولم يكن لشعره ذلك الشيوع على ألسنة الناس كشعر العباس ، لأن شعره كما يقول ابن المعتز « يروى بكل أرض عند الخواص . . . ولم يكثر في أيدي العوام » (٣) ، ومن ثم فضله على شعر أبي نواس في الغزل فقال : « كان ربيعة أشعر غزلاً من أبي نواس ، لأن في غزل أبي نواس برداً كثيراً ، وغزل هذا سليم عذب » (٤) .

وخلاصة القول فإن الغزل في العصر العباسي لايعدو أربعة أنماط :

الأول : غزل في مقدمات القصائد يرتبط بسائر الأغراض .

الثاني : غزل فاضح لا هم لصاحبه إلا تلبية رغباته وشهواته يصل إلى العهر والفحش .

الثالث : الغزل بالمذكر وهو نتيجةً لترف العصر ، وكثرة العنصر الفارسي .

الرابع : غزل خاص يقرب من مدرسة عمر بن أبي ربيعة ، في العصر الأموي ، وقد ظهر على يد العباس بن الأحنف ، ويقرب منه غزل ربيعة الرقي .

---

(١) ينظر ص ٢٣٩ من هذا الفصل .

(٢) طبقات الشعراء ص ١٥٩ .

(٣) طبقات الشعراء ١٦٥ .

(٤) الأغاني ١٦/ ٢٥٥ .

المبحث الثاني

شعر الغزل في الأندلس

في ضوء التأثير العباسي

إنْ يكن أثر الشعر العباسي على الشعر العربي في الأندلس واضحاً في غرض المديح الذي أسلفنا القول عنه في المبحث الثاني من الفصل الثاني ، فإنه في غرض الغزل سيكون أشد وضوحاً ، لما كان لهذا النوع من ذيوع على ألسنة الخاصة والعامة . وقد عرفنا مدى تأثير مدارس الغزل التي اشتهرت في العصر الأموي على شعراء الدولة العباسية أمثال بشار ، والعباس بن الأحنف وغيرهما ممن سيكون لهم أثر على شعراء الأندلس .

والشعر الأندلسي كغيره من الفنون وثيق الصلة بتراثه ، يتلقاه من أفواه الرواة ، ثم يصوغه فناً جديداً . وغرض الغزل في الشعر الأندلسي هو نموذج حي لجميع أنواع الغزل الذي رأيناه في المشرق ، وقد كان لحضارة العصر العباسي ونهضته العلمية والأدبية دور عظيم في إثراء الساحة الأدبية ، لأن الشاعر الأندلسي كان يترقب مايرد إليه من تلك البقاع التي هي رمز أصالته ، وما كان شعراءُ الأندلس يعدون أنفسهم شيئاً مستقلاً عن أمتهم العربية والإسلامية في المشرق ، بل يعدون « أنفسهم فرعاً لتلك الدولة الشرقية ، فلابد أن يتأثروها في المذاهب الأدبية والعلمية » (١) ، ولذلك تجدهم يقرنون جماعة من شعرائهم « بشعراء المشرق منافسةً وفخراً . »(٢) .

وقبل أن نخوض في بيان أثر الشعراء المجددين العباسيين في هذا الغرض، نود أن نتعرف على دواعي الغزل ، واهتمام الأندلسيين به عامتهم وخاصتهم ، والعوامل التي ساعدت على فشو الغزل العباسي بين عرب الأندلس .

يشكل غرض الغزل جزءاً كبيراً من أشعار هؤلاء القوم ومن حضارتهم،

---

(١) الغزل في تاريخ الأدب العربي ، احمد الشايب، دار المعارف - تونس، ص ١٠٢ .

(٢) ينظر كتاب الأندلس والناصر ، على محمد راضي ، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، ١٩٦٧/ ص ٢٩ .

لأن دواعيه تكمن في طبيعة بلادهم وجمالها، إذ ساعدت على صفاء قرائح أصحابها وتقوية الحس العاطفي لديهم، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ماكان من حركة الغناء التي نشطت بقدوم «زرياب» ومن صاحبه من تلامذته من المغنين والمغنيات، في عهد عبدالرحمن الأوسط الذي كان بدوره أديباً يحب الأدباء ويقربهم من بلاطه، وكان لزرياب عنده مكانة كبيرة وهو الذي تحولت بوجوده وتبدلت بعض العادات في الأندلس، ويعتبر نقطة تحول عجيبة في المجتمع الأندلسي، ومعروفٌ من سيرة زرياب أنه كان تلميذاً لإسحق الموصلي المغني، لكنه بزّ أستاذه في حذق الغناء فحسده واقترح عليه الخروج من بغداد حفاظاً على الودّ .

فخرج من المشرق ، واستقر به المقام في الأندلس، وعند وصوله لقي حفاوة بالغة من الأمير عبدالرحمن بن الحكم « فتلقاه بأعلى المحل وفوض إليه أكثر أموره في العقد والحل، وذلك لهجرته وحسن غنائه وتناهيه في الاطراب وغنائه»(١) وهو كما يقول عنه ابن دحية «يجري مجرى أستاذه الموصلي في الغناء، وله طرائق أخذت عنه وأصوات استفيدت منه»(٢) .

ومن المؤكد أن زرياباً الذي ترك بغداد في عهد الرشيد، والشعر العباسي المحدث في أوج ازدهاره، سينقل كثيراً من شعر الغزل كي يغنيه أمام الأمير عبدالرحمن، وسيعرض زرياب موهبته النادرة في فن الغناء إذْ له «حذق كامل بأفانينه، يعزف على آلات الغناء ويجدد فيها وكان في الوقت نفسه عالماً وأديباً يحفظ من شعر الغناء مايربو على العشرة الآلاف مقطوعة بألحانها»(٣) ، وذلك

---

(١) المطرب ، لابن دحية ، ت/ الأستاذ إبراهيم الأبياري وزملائه، دار العلم ، شارع سوريا، ١٣٧٤هـ ، ص ١٤٧ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٥٣ .

(٣) الأندلس والناصر ، ص ٢٩ .

عامل قوى ساعد على انتشار أشعار المحدثين وغزلهم في قرطبة، وقد أحدث وجود زرياب ضجة كبيرة في هذه البلاد، وحسده بعض الشعراء الغزليين لأنه سلخ مكانتهم عند الخليفة، فالشاعر يحيى بن حكم الغزال تأذى من وجوده وهجاه هجاءً مقذعاً، فشكاه زرياب للسلطان « فأمر . . . بنفيه من الأندلس، فكلمه فيه أكابر أهل دولته فتركه، ثم إن الغزال لم يطب نفساً بالمقام في الأندلس فرحل إلى العراق، وذلك بعد موت الحسن بن هاني بمدة يسيرة»(١)، وله موقف طريف مع جماعة من المعجبين بشعر أبي نواس سنُلّم بطرف منه فيما بعد بمشيئة الله، ويقول ابن دحية : «وأقام الغزال في رحلته تلك مدة يتجوّل في ديار المشرق، وماانفك في كل قطر منه من غريبة يطلعها، وطريقة يبدعها، ثم إنه رجع إلى نفسه وحن إلى مسقط رأسه، وانصرف إلى الأندلس. . . »(٢).

هذا وماكنت لأطيل سفر الكلام في سيرته لو لا أني شعرت بأن في رحلته هذه ورجعته إلى الأندلس ذخائر ستدخل الأندلس لتقوى تلك الصلة الوثيقة بين القطرين. وجولته هذه في بلاد المشرق لابد أنها قد أطلعته كما أشار ابن دحية على طرائف المشرق، وابداعات شعرائه المحدثين، ولذا لاننكر عليه عندما ألفيناه متأثراً بفن الخمر الذي ابتكره أبونواس وثلّته.

وإذاً فحركة الغناء، مع هذه الهجرات المتتابعة ثم العودة إلى الأندلس من أكبر العوامل التي ساعدت على فشو شعر الغزل العباسي في الأندلس، وقد أفضنا في الحديث عن ذلك في الفصل الخاص بالصلات الثقافية من هذا البحث ، وهنا أؤكد القول على أن حركة الغناء هي - كما يقول إحسان عباس - (من أكبر العوامل التي مكنت للنماذج المشرقية في البيئة الأندلسية، فإن التفاعل بين الموسيقى والشعر ذو قدرة على توجيه الشعر، وتحديد قوالبه، وقد كاد اعتماد الأندلس يكون

---

(١) المطرب ، ص ١٤٨ .

(٢) المصدر نفسه، ص ١٤٩ .

كلياً على التلاحين المشرقية، وكان أمراؤهم يؤمنون بتفوق الجواري المشرقيات في هذه الناحية، ويبذلون في استقدامهم الأموال الكثيرة.»(١).

ولذلك لاغرابة إنْ وجدنا غزل المجددين العباسيين يتردد صداه بين قصائد الغزل الأندلسي، فمن المؤكد أن جواري الحكم قد غنين أصواتاً كثيرة من أصوات الشعراء المحدثين، ولعلّ في بحث الدكتور إحسان عباس الذي نشره في مجلة الأبحاث حول الغناء والمغنين بالأندلس مايؤكد ذلك، حيث ذكر من الأصوات التي عدها أربعة أصوات لابن الرومي، وصوتين لأبي تمام، وصوتاً لشعراء آخرين منهم أبوعبادة البحتري، ومسلم بن الوليد(٢).

وكل هذه العوامل أدت إلى وجود عامل أساسي ساعد على التغزل والعشق وهو اتصال المرأة بمجالس الأدب، حتى أصبح الشاعر يدخل أبواب الغزل من أي باب شاء، وأصبح للحديث عن المرأة وجود في شتى الموضوعات الشعرية، فـ«نجد المرأة في وصف الطبيعة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بكل مايضفي الجمال على الحدائق والمياه الجارية، وزهرة أو جوهرة يمكن أن تقودنا بالضرورة إلى تشبيهها بفم الحبيبة أو خدها أو عينيها أو خصالها، وحتى الألوان، وبخاصة الأحمر، والأصفر من بينها، تبدو دائماً، وكأنها تحكم العشاق ومن يحبون: فالأصفر يرمز للحبيب الشاحب يضنى شكّاً وطول سهاد، على حين يرمز الأحمر إلى العذراء اللعوب تتلذذ بعذاب حبيبها، واللون الأصفر يشير إلى القلق، كما أن الأحمر يعني الحياء.»(٣).

---

(١) تاريخ الأدب الأندلسي ١/ ٥٣ .

(٢) نشر هذا البحث في مجلة الأبحاث، السنة ١٦، ج ١، اذار ١٩٦٣م، ينظر المصدر المشار إليه ص ٥٥ .

(٣) الشعر الأندلسي، هنري بيرس، ت/ الطاهر مكي، دار المعارف، ط١/ ١٤٠٨هـ، ص٣٤٧.

وقد شغل موضوع « الحب » في الأندلس حيزاً كبيراً من شعرهم ، وفكرهم حتى إن بعض علمائهم صنف مؤلفات خاصة به ، فابن فرج الجياني يؤلف كتاب «الحدائق» على غرار كتاب «الزهرة» لمحمد بن داود الظاهري ، ومهد السبيل لابن حزم كي يؤلف كتابه الموسوم بـ« طوق الحمامة » في الألفة والألاف ، متحدثاً فيه عن قداسة الحب التي لايعرفها إلا القلة من الناس ، فيقول في مقدمة كتابه هذا : «الحب - أعزك الله أوله هزل وآخره جد ، دقت معانيه لجلالتها عن أن توصف إلا بالمعاناة»(١) ، وأخذ يفصل القول في القضية تفصيل العارف بدقائقها والمتفرس لأصحابها الذين كابدوا قسوتها ، وشعروا بلذتها ، متلمساً لهم الأعذار في مابتلوا به ، ثم أورد شواهد من أشعارهم ، وبعض قصصهم التي رواها عنهم ، وأن هذا النوع من الحب «ليس بمنكر في الديانة ، ولا بمحظور في الشريعة ، إذ القلوب بيد الله عز وجل ، وقد أحب من الخلفاء المهديين ، والأئمة الراشدين كثير»(٢) ، وشرع يسمى بعض هؤلاء الخلفاء بأسمائهم دون مواربة مشيراً إلى عفتهم التي منعتهم من الوقوع في المحظور ، وكأنه بهذا يضع حداً للحب العذري ونشأته بالأندلس . ونجد ابن حزم يتحدث عنه في هذه القصص الواقعية ، ثم يصوغها بشعره ، لأنها وافقت شيئاً من عفته ، وحسن معاملته للمرأة ، وكان الغزل ينساب على لسانه انسياباً ينسيك جميلاً وعمر ، والعباس بن الأحنف ومن إليهم من شعراء الحب العذري .

ولقد احتل «شعر المحدثين» في فن الغزل مكانة كبيرة في كتاب «الطوق» يقول أبومحمد بن حزم متحدثاً عن الطيف ذاكراً بعض الشعراء المحدثين : « . . وللشعراء في علة مزار الطيف أقاويل بديعة ، بعيدة المرمى مخترعة ، كل سبق إلى معنى من المعاني ، فأبواسحق النظام رأس المعتزلة جعل علة مزار الطيف خوف

---

(١) طوق الحمامة ، ت/ صلاح الدين القاسمي ، دار بوسلامة للطباعة والنشر ، تونس ١٩٨٠م ، ص ٢٧ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢٧ .

الأرواح من الرقيب المرقب، على بهاء الأبدان، وأبوتمام حبيب بن أوس الطائي جعل علته أن نكاح الطيف لايفسد الحب، ونكاح الحقيقة يفسده، والبحتري جعل علة إقباله استضاءته بنار وجده، وعلة زواله: خوف الغرق في دموعه ؛ وأنا أقول من غير أن أُمثِّل شعري بأشعارهم، فلهم فضل التقدم والسابقة، إنما نحن لاقطون وهم الحاصدون، ولكن اقتداءً بهم وجرياً في ميدانهم وتتبعاً لطريقتهم التي نهجوا وأوضحوا أبياتاً بينت فيها مزار الطيف مقطعة :

أغارُ عليكِ من إدرَاكِ طَرْفي وأشفقُ أن يذيبكِ لَمْسُ كَفِّي»(١)

ولابن حزم معرفة قوية بالشعراء المحدثين، كما أن لغيره بهم معرفة كذلك، تؤكد عمق الصلة بينهم، حتى دقائق من أخبارهم يذكرونها ربما لم تكن دونت وانتشرت من قبل في المشرق نفسه، فحديث ابن حزم عن غزل أبي نواس بالمذكر، وذكره قصة هيامه بمحمد بن هارون الرشيد المعروف بابن زبيدة يؤكد ماذهبنا إليه، يقول ابن حزم: « ويحكى عن الحسن بن هانيء أنه كان مغرماً بحب محمد بن هارون المعروف بابن زبيدة وأحس منه ببعض ذلك فانتهره على إدامة النظر إليه فذكر عنه أنه قال: إنه لايقدر أن يديم النظر إليه إلا مع غلبة السكر على محمد، وربما كان سبب الكتمان ألا ينفر المحبوب أو ينفر به . . »(٢).

ومن دلائل معرفة الأندلسيين بالغزل العباسي ماذكره أبومحمد بن حزم من قصة حبه لجارية نشأت في دارهم وكانت تتقن الغناء لما وهبها الله من صوت حسن، وذات يوم هام بها وظل يتابعها، وكانت تغني أبياتاً لشاعر عباسي له مدرسة في الغزل على غرار مدرسة العذريين في الحجاز، ذلكم هو العباس بن الأحنف، يقول ابن حزم «فأخذت العود وسوته بخفر وخجل لا عهد لي بمثله،

---

(١) المصدر السابق ص ١٦١ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٦١ .

وإن الشيء يتضاعف حسنه في عين مستحسنه، ثم اندفعت تغني بأبيات للعباس ابن الأحنف حيث يقول :

إني طَرِبتُ إلى شمسٍ إذا غَرَبَتْ كانت مغارِبُها جَوْفَ المقَاصِيرِ

يقول ابن حزم: « فلعمري لكأن المضراب إنما يقع على قلبي ومانسيت ذلك اليوم ولا أنساه إلى يوم مفارقتي الدنيا، وهذا أكثر ماوصلتُ إليه من التمكن من رؤيتها وسماع كلامها. » (١) فهذه القصة على طرافتها أظهرت عفة الحب العذري بين ابن حزم والجارية، وتردد شعر المحدثين بينهم في هذه الصورة التي غنى فيه شعر العباس، يؤكد أن أغلب ماحدث في المشرق من غزل وغناء وجد صداه في الأندلس، وبلغ من شدة تأثيره فيهم حفظ الجواري له، وكأنه أحد الشعراء الأندلسيين الذين يعيشون بين ظهرانيهم، وتدل القصة على مبلغ إعجاب ابن حزم بغزل العباس بن الأحنف، وينشد متأثراً به فيقول:

لاتَلُمْها على النِّفَارِ ومَنْعِ الوَصْـ ـلِ ماهــذا لها بِنَكِيــرِ
هل يكونُ الهلالُ غيرَ بعيــدٍ أو يكونُ الغزالُ غيرَ نَفُورِ

ويقول في مقطوعة أخرى ذاكراً العباس مع حبيبته فوز التي ملكت شغاف قلبه في بغداد:

منعتِ جَمَالَ وَجْهِكِ مُقْلَتَيّا ولفظُكِ قد ضَنَنْتِ به عَليَّا
أراكِ نَذَرتِ للرحمنِ صَوْمــاً فلســتِ تُكلّمِينَ اليَوْمَ حَيّا
وقد غَنَّيْتِ للعباسِ شِــعْراً هنيئاً ذا العبــاسِ هَنيّــا
فلو يلقاكِ عبــاسٌ لأَضْــحَى « لفوزٍ » قَالياً وبِكُم شَجِيَّا »(٢)

---

(١) الطوق، ص ١٧٧ .

(٢) المصدر نفسه، ص ١٧٨ .

فهذه واحدة من أبرز مظاهر تأثير فن الغزل العباسي في شخصية من أقوى الشخصيات تعصبا لشعراء بلده ورجالها، وممن كان له باع كبير في دراسة الحب العذري، وأشعاره في الأندلس.

وقد نتجاوز ابن حزم إلى غيره من علماء الأندلس ممن اهتموا بشعراء بلدهم، ومع ذلك مافتئوا يذكرون بجوارهم شعراء المشرق غيرة عليهم وإشادة بما حظي به شعراء تلك البلاد، من ذيوع أشعارهم، فعندما أورد ابن دحية الكلبي أبياتا غزلية من روائع شعر يحيى بن الحكم الغزال، علق عليها بقوله: « وهذا الشعر لو روي لعمر بن أبي ربيعة، أو لبشار بن برد، أو العباس بن الأحنف، ومن سلك هذا المسلك من الشعراء المحسنين لاستغرب له، وإنما وجب أن يكون ذكره منسيا إن كان أندلسياً وإلا فما له أخمل وما حق مثله أن يهمل. »(١).

وأول مايطالعنا في الأندلس من الغزل هو المنهج العذري الذي ساد في الحجاز، وتأثر به بعض شعراء بني العباس كما أشرنا، وماحديثنا عن كتاب الزهرة ببعيد إذ اعتبره «ماسينيون»: « أول محاولة لوضع منهج شعري للحب الأفلاطوني»(٢) وانتقل تأثيره إلى الأندلس ولاسيما من غلبت عليه العفة منهم في شعره كابن فرج الجياني الذي اشتهر بشعره الأخلاقي العفيف الذي يقول فيه:

وطائعةِ الوصالِ عَففْتُ عنها ... وما الشيطانُ فيها بالْمطَاعِ
بَدَتْ في الليلِ سافرةً فباتت ... دياجي الليلِ سافرةَ القِناعِ
وما من لحظةٍ إلا وفيها ... إلى فِتَنِ القُلوبِ لها دَواعِي
فَمَلَّكْتُ النُّهَى جمحاتُ شوقي ... لأَجْرِي في العفافِ على طِبَاعِي

---

(١) المطرب لابن دحية، ص ١٤٥، ت/ ابراهيم الأبياري وصاحبيه، دار العلم، سوريا ١٣٧٤هـ.

(٢) الشعر الأندلسي، إميليو غرسيه غومس، ت/ حسن مؤنس ص ٧٩.

وبتّ بهـا مَبيتَ السقْبِ يَظْمَـا فيـمنَعُـه الكَعَامُ من الرّضَـاعِ (١)

واشتهر المذهب العذري في الأندلس ، ولكن كان نزوع الأندلسيين إلى أدب العراق جعلهم يخلطون بين جميع المذاهب الأدبية ، فهذا شاعر يميل إلى مدرسة جميل وطريقته العذرية فيقول :

أَنَاصبٌّ كمـا تشـاءُ وتَهْـوَى شـاعـرٌ مـاجـدٌ كـريمٌ جـوادُ
سُـنّةٌ سَنّهـا قـديماً جَمِـيلٌ وأتى المحدثون مِـثْلي فـزادُوا (٢)

فشعراء الأندلس حذوا حذو شعراء بغداد في التغني بالحب العذري في بداية أمرهم، حتى تغيرت الأحوال ، وتبدلت ، وأصبح شعر العراق ينحو منحى حسيا في أغلبه ماعدا شعر العباس بن الأحنف، وربيعة الرقي، ومن سار على هذا المذهب . وقد انتقل تأثير الغزل الحسي إلى الأندلس بعد أن كان مقيداً بضروب(٣) أخلاقية، متمثلين مقولة الزبير بن بكار في الشعر بأنه «يحل عقدة اللسان، ويشجع قلب الجبان، ويطلق يد البخيل، ويحض على الخلق الجميل»(٤) وكذلك مقولة معاويه لعبدالرحمن بن الحكم - وكان شاعراً - « إياك والتشبيب بالنساء، فإنك تعر الشريفة في قومها والعفيفة في نفسها . . »(٥) ، والأدب الأندلسي شأنه شأن أي أدب يمت للأدب العربي بصلة فهو « لم يكن بدعاً في الآداب، لأنه جزء من الأدب العربي العام من جهة، ومتأثر بالأدب المشرقي تأثراً عميقاً فما يقال عنه لايعني

---

(١) الذخيرة ق ٢/ م١ص١٤٢ .

(٢) نفح الطيب ٢/ ٦٠٩ ، والأبيات تنسب لمطرف الغرناطي . .

(٣) ينظر مقال للدكتور إحسان عباس بعنوان : الشعر الأندلسي والأخلاق ، نشر ضمن أبحاث طبعت باسم دراسات في الأدب الأندلسي بالاشتراك مع وداد القاضي والبير مطلق ، ليبيا - تونس ، ١٣٩٨هـ ، الدار العربية للكتاب .

(٤) العمدة ١/ ٣٠ .

(٥) العقد الفريد ١/ ٢٨١ .

إفراده بالمسئولية - إن كان ثمة مسئولية - إذ يمكن أن يقال عن الأدب العربي كله دون تمييز كبير، ولكن الاستقلال الجغرافي والسياسي ، وبعض الاستقلال الحضاري، ومكانة الحضارة الأندلسية بخاصة، هي الأمور التي تجعلنا نفرده بالنظر. »(١).

وبعد أن انتقل تأثير الغزل الحسي إلى الأندلس ، بدأوا يصفون المرأة، ومواطن الفتنة فيها، فتجدهم يصفون استقامة عودها مظهرين «التباين بين الردف الثقيل ، والخصر النحيل الذي هو من أكبر مواضع جمال الجسد الأنثوي عند شعراء الأندلس»(٢).

وكثر الغزل الحسي في شعرهم مما أبعدهم عن الغزل العذري، وازداد قربهم من شعر المحدثين في العصر العباسي، فلو تأملنا أبياتا لشاعر أندلسي شُبِّه بابن المعتز في ملاحة شعره وحسن تشبيهه كما يقول صاحب جذوة المقتبس(٣)، وهذا الشاعر هو أبوعبدالملك مروان الطليق، وقد اشتهر بوصف الخمرة، وفاخر به الشقندي في ذلك أهل المشرق، وقال: «وهل منكم من وصف ماتحدثه الخمرة من الحمرة على الوجنة بمثل قول الشريف الطليق:

أصبحتْ شمسا وفوه مغربا ... ويَدُ الساقي المحيّي مشرقا

وإذا ما غربتْ في فمه ... تركتْ في الخَدِّ منهُ شفقا

ثم قال بمثل هذا الشعر فليطلق اللسان ، ويفخر كل إنسان»(٤) ، فهذا من أشد أنواع النزوع إلى مذهب المحدثين، ولاسيما مذهب الحكمي في شعر الخمر الذي فخر الشعراء باحتذائه ، وسنعرض له في آخر الباب لما له من صلة بالغزل بالمذكر .

---

(١) دراسات في الأدب الأندلسي ، إحسان عباس وزملاؤه ، ص ٨-٩ .

(٢) الشعر الأندلسي ، قارثيا غومس ، ت/ طاهر مكي، ط٢، القاهرة ١٩٥٦م، ص٨٥.

(٣) ص ٣٢١ .

(٤) نفح الطيب ٣/ ١٩٧ من رسالة الشقندي في فضائل أهل الأندلس .

ونعود إلى قصيدة الطليق ووصفه المرأة وصفا حسياً، ونذكر منها قوله :

غُصُنٌ يهتزُّ في دِعْصٍ نَقَا   يَجْتَني منه فؤادي حُرَقا
فَتَناهى الحسنُ فيه إنما   يحسُن الغُصْنُ إذا ما أوْرَقا
رَقَّ منه الغُصْنُ حتى خِلْتُه   من نحُولٍ شَفَّه قد عَشِقَا
وكأن الرِّدفَ قَدْ تيَّمَه   فغدا فيه مُعَنَّى قَلِقَا
نَاحِلاً جاورَ مِنْه نَاعِماً   كحبيبي ظَلَّ لي مُعْتَنِقَا

إلى أن قال :

وكأنَّ الوردَ يعلوه الندى   وجنةُ المعشوقِ تَنْدى عَرَقَا (١)

ولقد يبرز أثر المحدثين في غرض الغزل ولاسيما في مقدمات القصائد ذلك الجانب الذي لم يستطع المحدثون التخلص منه، وتبعهم في ذلك الأندلسيون الذين اهتموا ببداية القصيدة على نسق عمود الشعر العربي، وما قصة أبي تمام مع عثمان ابن المثنى النحوي إلا خير شاهد على ذلك، عندما اجتمع بأبي تمام في بحر القلزم فأنشده قوله :

اللهُ أكبرُ جاء أكبرُ من مشى   فتَعَثَّرَتْ في كُنْهِهِ الأوهامُ

وكان هذا البيت مبتدأ الشعر، فقال له المثنى : شعر حسن لولا أنه لا ابتداء له، فوقذت في نفس حبيب، وابتدأ الشعر بقوله :

دِمَنٌ ألمَّ بها فقال سلامُ   كم حلَّ عُقْدَةَ صَبْرِه الإلْمَامُ

ثم أنشده في اليوم الثاني الشعر بهذا الابتداء إلى تمامه، فقال له ابن المثنى : أنت أشعر الناس . . . الخ القصة (٢).

---

(١) الذخيرة ق١/ م١، ص ٥٦٦ .

(٢) التكملة لابن الأبار ١٠-١١، وتاريخ الأدب الاندلسي ١/ ٥، احسان عباس (بتصرف).

فهذا شاهد قوى على اهتمام الأندلسيين بالمنهج التقليدي للقصيدة العربية حتى أنهم ألزموا منه شاعراً من أعظم الشعراء المحدثين وأكثرهم خروجاً على عمود الشعر العربي، ولهذا لانستطيع إخراج الغزل الأندلسي (عن الاطار العام للغزل العربي، فقد جاء غزلهم غزلاً تقليدياً، تتردد فيه تلك المعاني والأفكار التي ترددت في الشعر في المشرق فوقفوا على الأطلال، وبكوا الديار»(١). وسنعرض من ذلك نماذج تؤكد أن المقدمة الطللية ظلت مصاحبةً للشعر الأندلسي حتى في فترات التجديد، فتجد شاعراً كابن الزقاق البلنسي عاش فترة التجديد، يقول:

حَنِنْتُ إلى الديارِ ولي حنينٌ ... إلى الأَحْبَابِ ليس إلى الرُّبُوع

ولو أني أُحِنُّ إلى مغاني ... أَحِبَّائِي حَنِنْتُ إلى ضُلُوعي (٢)

وهذا يذكرنا بقول المجنون:

أَمُرُّ على الديارِ ديارِ ليلى ... أُقَبِّلُ ذا الجدارَ وذا الجدارا

وما مِنْ حُبِّ الجدرانَ لكن ... مَحَبَّةُ من سكنَ الديارا(٣)

ولن نستطيع الجزم بتأثر الشاعر الأندلسي بالمجنون أو بغيره، لأن الشعراء أفاضوا في ذكر الديار، حتى إنك لتجد أشدهم محاربة لذلك أبا نواس يقف على الأطلال ويقول:

---

(١) اتجاهات الشعر الأندلسي، نافع محمود، دار الشئون الثقافية، بغداد، ١٩٩٠م، ص١٩٥.

(٢) المنازل والديار، أسامة بن منقذ، ت/ مصطفى حجازي، القاهرة، ١٤١٢هـ، ص٦٦.

(٣) المنازل والديار ص ٨٣، ويروى على النحو التالي:

وماحب الديار شغفن قلبي ... ولكن حب من سكن الديارا

لمن الديارُ تسربلتْ بِبلاهــا أنْسَتْكَ رُؤيتَهـا ومـا تنْسَاها
لاتكْذِبَـنَّ فمـا أراكَ بمُنْتَهٍ عنهـا وإن خبّرتَ أنْ ستناهى(١)

وقال أشد من ذلك :

لقـد طَالَ في رسم الديارِ بُكائِي وقـد طال تِرْدَادِي بهـا وعَنَائِي
كأنّي مُـريغٌ في الديارِ طريدةً أراهَـا أمـامي مَـرَّةً وورائي
فلمّا بـدا لي اليـأسُ عدّيْتُ ناقتِي عن الدارِ واستولَى عليَّ عزائي(٢)

بل أين نذهب من قوله : « حَيِّ الديارَ إذا الزمانُ زمانُ(٣) ... البيت» .

فكل هذه الشواهد تؤكد أن سنة الوقوف بالأطلال سيطرت حتى على المجددين أنفسهم ، ولذلك لاعجب إن وقف بها شاعرٌ أندلسيٌ كيحى الغزال في قوله :

رِيْعَ قَلْبي لما ذكـرتُ الدِّيارا وتنوّرتُ بالنُّخَيْـلاتِ نارا
وازدهتِني ذاتُ السَّـنا بِبُروقٍ من لظاها فمـا أُطيقُ اصطبـارا ....
والقريحُ الفـؤادُ يـزدادُ للنـا رِ وميضَ السَّعيرِ منها استِعارا (٤)

أو يقف أبو القاسم بن هانيء فيقول :

قَـدْ مَـررنا على مَـغَـانيكِ تلكِ ورأينا فـيـهـا مـشـابهَ مِنْكِ
عـارضَتْنَا المهـا الخوذِلُ أسْـرا باً بأجْـراعِـهـا فلـم نَسْلُ عَنْكِ

(١) الديوان ص ٤٩٦ .

(٢) الديوان ص ٤٠٢ .

(٣) الديوان ص ٤٠٤ .

(٤) الديوان ، ت/ رضوان الداية ص ٧٢ .

لا يُــــرَعْ للمَــهَــا هنالك سِــرْبٌ   فلقــد أَشْــبَــهَــتْكِ إن لم تَكُنْكِ
مُـسعِـدِي عُجْ فـقـد رأيـتَ مَعـاجي   يومَ أبكي على الدِّيارِ وَتبكِي(١)

وهذا يذكرنا بقول البحتري :

إِبكيا هذه المغاني التي أَخْلَــ   ـقَها بُعْدُ عَهْدِها بالغَواني(٢)

وأغلب هذه المطالع لو تأملتها لوجدتها في غرض المديح ، وذلك مالأحد فيه فضل على أحد سوى السبق والتقدم ، والمحدثون أنفسهم عندما جاروا القدماء في ذلك لم يكن يعنيهم إلا رضا فئة من الناس ، وكذلك الشعراء في الأندلس ظلوا متمسكين بالمقدمة الطللية حتى في إبان نضج الشعر هناك وتميزه ، فتجد شاعراً عاش في القرن السادس مثلاً ، كأبي عبدالله محمد بن غالب الرصافي البلنسي المتوفى سنة اثنتين وسبعين بعد المائة الخامسة ، عندما مدح الوزير الوقشي ، ابتدأ قصيدته بقوله :

أَلِأَجْــرع تَحْــتَلُّه هنــــدُ   يَنْدى النســـيمُ ويأرَجُ الرَّنْدُ
ويطيــبُ واديـــه بِمَوْرِدِهــا   حتى ادَّعَى في مـائه الوَرْدُ(٣)

ولو كان لأحد أن يحد من الوقوف على الأطلال ، لكان شعراء هذا العصر أولى ، ومن الجدير بالذكر أن هذا الشاعر المذكور آنفاً كان يشبه بابن الرومي لما له من « المحاولات لتوليد المعاني الجديدة وحسن التقليل وابراز الصور المبتكرة »(٤) فضلاً عن كونه ينتمي لمذهب جديد في الشعر ابتكره ابن الزقاق وخاله ابن خفاجة ، وهذا المذهب كما يقول إحسان عباس «منذ عهد ملوك الطوائف بالأندلس قد أخذ يقيم

---

(١) الديوان ، دار صادر ، بيروت ، ص ٢٤٩ .

(٢) الديوان ٢/ ٣١١ .

(٣) ديوان الرصافي البلنسي ، ص ٥٣ ، ت/ إحسان عباس .

(٤) مقدمة ديوان الرصافي البلنسي ، ت/ إحسان عباس ، ص ١٦-١٧ .

خطا فاصلاً بين المقطوعة والقصيدة»(١). وهكذا نرى الشاعر الأندلسي يسير وفق خط سير الأدب العربي في المشرق، ولاسيما المحدث منه.

ولايقتصر التأثر على ماذكرنا، بل إن التأثر الذي لايغفل جانبه، هو ماكان من فن المعارضات الشعرية، إذ كان من التقاليد الأدبية عند شعراء الأندلس والمغرب محاكاة النماذج الشعرية السائدة ومعارضة القصائد المشهورة.

وقد كثرت معارضات الشعراء المحدثين خصوصاً مما يؤكد ذلك الأثر القوي لهم في شعراء هذا القطر، على الرغم من بعد المسافات بينهم، ولم تؤثر النزعات السياسية في ذلك، فعندما نظفر بمعارضة لأحد أمراء الأندلس يعارض أميراً عباسياً، فإن ذلك يؤكد أن الأدب لايعرف الحدود التي تحدها السياسة.

فمن المعارضات البارزة في هذا الشأن معارضة الخليفة الأموي الأندلسي سليمان المستعين بالله للخليفة العباسي هارون الرشيد - إن صحت نسبة الأبيات إليه(*) - وسليمان المستعين هذا يقول عنه ابن بسام: «ممن مدت له في الأدب غاية كبادونها أهل الآداب ورفعت له في الشعر راية مشى تحتها كثير من الشعراء والكتاب»(٢) وقد ذكر أنه ظفر له (بقطعة عارض بها هارون الرشيد فتشعشعت بها الكؤوس، وتهادتها الأنفاس والنفوس» وهاهما القطعتان كما اثبتهما ابن بسام «ليرى الفرق، ويعرف الحق، قال هارون الرشيد:

ملك الثلاث الآنسات عناني ... وحللن من قلبي بكل مكاني

مالي تطاوعني البرية كلها ... وأطيعهن وهن في عصياني

---

(١) المصدر السابق ص ١٦.

(*) يقول الدكتور إحسان عباس «وقد نسبتها المصادر للرشيد إلا أنها أدرجت في ديوان العباس بن الأحنف، ينظر الذخيرة ق١م١ ص ٤٦.

(٢) الذخيرة ق ١/ م١ ص ٤٦، ت/ إحسان عباس.

ماذاك إلا أنَّ سُلطانَ الهوى - وبه قوين - أعزُّ من سُلطاني(١)

فقال سليمان المستعين (٢) :

عَجَباً يهابُ الليثُ حَدَّ سِنَاني وأهابُ لحظَ فواترِ الأَجْفَانِ
فأُقَارِعُ الأهوالَ لا مُتَهَيِّباً منها سوى الإِعْرَاضِ والهِجْران
وَتَملَّكَتْ نفسي ثلاثُ كالدُّمى زُهْرُ الوجوهِ نواعمُ الأَبْدان

ومن أبرز الذين علا صيتهم في النسيب وكانت لهم معارضات لشعراء مشارقة ابن زيدون الذي قال عنه عبدالواحد المراكشي : « كان إذا نسب أنساك كثير عزة، وإذا مدح أزرى بزهير، وإذا فخر أناف على امريء القيس»(٣)، وقال عنه ابن بسام : «له شعر ليس للسحر بيانه ولا للنجوم الزهر اقترانه»(٤)، وعلى الرغم من كل ذلك فقد سعى لينال شهرة تضاهي شهرة البحتري ، وعارضه بنونية طبقت شهرتها الآفاق وفاقت نونية أبي عبادة في الصور والأخيلة وطول النفس ، على فضل أبي عبادة وإحسانه، قال ابن بسام ممتدحاً هذه النونية «وهذه القصيدة بجملتها فريدة، وقد عارضه فيها جماعة قصروا عنه منهم أبوبكر بن الملح»(٥).

ووصفها ابن أيبك الصفدي بقوله : « . . . التي سارت في البلاد . . . وطارت في العباد، وقد أشتهرت حتى صارت محذورة، فيقال إنه ماحفظها أحد إلا مات غريبا، وعارضها الناس في حياته وبعد موته وأظن أن ابن زيدون عارض بها البحتري في قوله :

---

(١) المصدر نفسه .

(٢) المصدر نفسه ص ٤٧ .

(٣) المعجب، لعبدالواحد المراكشي، ت/ محمد سعيد العريان، القاهرة ١٣٨٣هـ ، ص١٦٢ .

(٤) ابن زيدون ص ١٦٢ ، شوقي ضيف ، ص ٣٧ .

(٥) الذخيرة ق١م، ٢/ ٣١٢ .

يَكَادُ عَاذِلُنَا فِي الحبِّ يُغرِينَا فما لِجَاجُكَ في قَوْلِ المحِبِينا
نَلْحَى على الوَجْدِ من ظُلْمٍ فَدَيْدَنُنا وَجْدٌ نُعانِيهِ أو لاحٍ يُعنِّينا »(١)

ونقل ابن أيبك عن بعض الأدباء قوله: «من لبس البياض، وتختم بالعقيق، وقرأ لأبي عمرو، وتفقه للشافعي، وروى قصيدة ابن زيدون، فقد استكمل الظرف.»(٢).

وأما المعارضة في الشعر التقليدي الذي يبدأ بالغزل، وينتهي إلى غرض آخر، فأكثر من أن تحصى، وذخيرة ابن بسام قد احتوت شيئاً لا بأس به من ذلك، ومن هذه المعارضات، معارضة الوزير أبي بكر محمد بن زهر لأبي فراس الحمداني في قصيدته الرائية المشهورة التي يقول فيها:

أراكَ عصيَّ الدّمْعِ شِيمَتُكَ الصَّبْرُ أما لِلْهوى نَهْيٌ عليكَ ولا أَمْرُ(٣)

وقصيدة أبي بكر يقول فيها(٤):

وليلٍ كَهَمِّ العاشقِينَ قَمِيصُه رَكِبْتُ دَياجِيهِ، ومركَبُها وَعْرُ
سَرَيْتُ وأصحَابِي يُميلُهُمُ الكَرَى فهُمْ منه في سُكْرٍ وما بِهِمُ سُكْرُ
رميتُ بِجِسمي قلبَه فَنَفَذْتُه كما نَفَذَ الإصباحُ إذْ فُتِقَ الفجرُ

ويصلنا الحديث بأبي الطيب المتنبي الذي شغل ديوانه أهل الأندلس كما شغل صاحبه الناس وملأ الدنيا، فقد عورض كثيراً كما رأينا في غرض المدح.

---

(١) تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون لخليل بن أيبك الصفدي، ت/ محمد أبوالفضل إبراهيم، بيروت، بدون تاريخ، ص ١٢. وعبث الوليد ص ٢٢٦، ت/ المدني، الرياض.

(٢) تمام المتون ص ١٢.

(٣) ديوان أبي فراس ص ١٥٧.

(٤) الذخيرة ق ٢ م ٢ ص ٨١٥.

ونظراً لأن قصيدة المديح تبدأ بمقدمة غزلية فلابد من الوقوف عندها، فممن عارضه ابن عبدون اليابري صديق ابن زيدون، بقصيدة سينية على غرار قول المتنبي :

هَذي برزتِ لنا فهجتِ رسَيسَا ثم انثنيتِ وما شَفيتِ نَسَيْسَا
وجعلتِ حَظِّي منكِ حظي في الكَرَى وتركتني للفرْقَدين جَليسا

وقصيدة ابن عبدون مطلعها :

أَذَهبْنَ من فَرَقِ الفراقِ نفوسا وَنثَرْنَ من دُرِّ الدُّموع نَفيْسَا
فَتَبِعْتُها نَظَرَ الشَجِّي فحدَّقَتْ رُقَباؤُها نحوي عيوناً شُوسَا(١)

ومن أقوى الشعراء الأندلسيين شاعرية وأبرزهم، أبوعامر أحمد بن عبدالملك بن شهيد شاعر الدولة العامرية بالأندلس، فقد تأثر بالشعراء العباسيين، وحاكى أكثرهم، وأخذ من معانيهم ما أخذ كما أشار ابن بسام، وهاهو يعارض أباعبادة البحتري في قصيدته البائية المشهورة التي يقول فيها :

ماعلى الرَّكْبِ من وقُوفِ الرِّكَابِ في مَغَاني الصِّبا، ورَسْم التَّصَابي
أينَ أهلُ القِبَابِ بالأَجْرَع الفَرْ دِ تَوَلَّوْهُ لا أين أهلُ القِبابِ
سَقَمٌ دونَ أَعْيُنٍ ذَاتِ سُقْمٍ وعَذابٌ دون الثَّنَايا العِذَابِ
عَرِّجُوا فالدُّموعُ إن أَبْكِ في الرَّبْع دُموعي، والاكْتِئَابُ اكْتئَابي(٢)

وقال ابن شهيد الأندلسي قصيدةً، أولها :

هذه دارُ زينبَ والربابِ

---

(١) نفح الطيب ٤/ ٣٠٥ .

(٢) ديوان البحتري ٢/ ١٨٦ .

والقصيدة في الفخر ، ويبدو أن مقدمتها الغزلية قد ضاعت ولم يستطع محقق الديوان إتمام البيت، وإنما اكتفى بما وجده في اليتيمة ، لكن شاهدنا منها لايزال قائما ألا وهو معارضته للبحتري في القصيدة المذكورة، إذ ذكر ابن شهيد في «توابعه وزوابعه» عندما التقى بأبي الطبع شيطان البحتري وطلب منه أن ينشده، فأنشده (ماعلى الركب من وقوف الركاب) حتى أكملها، ثم قال : هات إن قلت شيئاً، فأنشده ابن شهيد « هذه دار زينب والرباب » (١) .

وممن كان له حضور واضح بين شعراء الأندلس وكلفوا بتقليده ومعارضته أبوالبديع في الشعر العربي مسلم بن الوليد، فقد كان للاميته التي قالها مادحا هارون الرشيد، بعد مقدمة خمرية وغزلية رائعة، يقول فيها :

أديرا عليَّ الراحَ لا تَشْرَبا قَبْلي ... ولا تطلبا مِنْ عندِ قاتِلَتي ذَحْلي

سأنقادُ للذاتِ مُتَّبِعَ الصِّبا ... لأُقْضِي هَمِّي أو أصيبَ فتىً مِثْلي

إلى أن قال :

هل العيشُ إلا أن تروحَ مع الصِّبا ... وتغدو صَرِيعَ الراحِ والأَعينِ النُّجْلِ

وعلى إثر هذا البيت سماه الرشيد : صريع الغواني .

وقد عارض هذه اللامية الأديب الأندلسي أبوالحسن المعروف بالفكيك البغدادي، بقصيدة يقول فيها(٢) :

لأيةِ حالٍ حالَ عن سِنَةِ الكَرَى ... ولم أُصْغِ يوماً في هواه إلى العذْلِ

ولا خَطَرَتْ ذِكْرَى سُلوٍّ بخاطرى ... ولا طَمِعَتْ نَفْسِي لما عنهُ لي يَسْلِي

ومنها قوله :

---

(١) بتصرف من التوابع والزوابع ص ١٠٣ .

(٢) الذخيرة ق ٤ م ١ ص ٣٧٢ ، والنفح ٣/ ١٢٠ .

كَأنَّ بقاءَ الطَّلِّ فـــوقَ جُفونِهـــا دُموعُ التصَابي حِرْنَ في الأَعْيُنِ النُّجْلِ

فكما هو واضح هي معارضة وتأثر في اللفظ والمعنى .

ويطل علينا أبوعمر شهاب الدين احمد بن عبدربه الأندلسي صاحب كتاب العقد، فقد أدلى بدلوه في متابعة الشعراء العباسيين وعارض مسلماً في قصيدته المذكورة آنفاً ، وابن عبدربه لم يكن ليقلد أو يحاكي شعراء المشرق، فهو يعد نفسه فوق كل ذلك، لأنه يورد في عقده أشعاراً كثيرة ويعمل فيها رأيه وفكره ونجده كان يخرج في معارضته عن التقليد، فلقد أورد أشعاراً في رقة التشبيب لشعراء من المشرق، منهم العباس بن الأحنف، وجميل بن معمر، وعمر بن أبي ربيعة، وقال عن بعضها إنها من الشعر المطبوع الذي يجري مع النفس رقة ويؤدي عن الضمير إبانة(١) ، وكان شديد الفخر بمعارضاته للشعراء فهو يعدد مثلاً أبياتاً في النسيب لأمثال كثير وجميل، وعمر بن أبي ربيعة ثم يعقب قائلاً : «ومن قولنا في رقة النسيب والشعر المطبوع الذي ليس بدون ماتقدم ذكره . . . »(٢) ثم يذكر ماجادت به قريحته وعندما عارض مسلماً قال : «ومما عارضت به صريع الغواني في قوله :

أديرا على الراح لا تشـربا قـبلي ولا تطلبـا من عنـد قـاتلتي ذحلي

فـيـاحـزني أني أمـوت صـبـابة ولكـــن على من لايحل له قـتلي

فقلت على رويه :

أَتقْتُلُني ظُلماً وتجحـــدُني قَتْلِـــي وقد قَامَ من عينَيْكِ لي شاهدا عَدْلي

أطلابُ ذَحْلِي ليس بي غيرُ شَـادِنٍ بِعَيْنَيْهِ سِحْرٌ فاطلبوا عِنْدَهُ ذَحْلِي »(٣)

---

(١) ابن عبدربه وعقده / جبرائيل جبور ص ١٨٣ .

(٢) العقد ٥/ ٣٩٧ .

(٣) العقد ٥/ ٣٩٨ .

وعلق على ذلك بقوله : « فمن نظر إلى سهولة هذا الشعر مع بديع معناه ورقة طبعه، لم يفضله شعر صريع الغواني عنده إلا بفضل التقدم ولاسيما إذا قرن قوله في هذا الشعر :

كتمتُ الذي أَلقَى من الحبِّ عاذِلي ... فلم يَدْرِ مابي فاسترحتُ من العَذْلِ

بقولي في هذا الشعر :

وأحببتُ فيها العَذْلَ حُبّاً لذكرِها ... فلا شيءَ أَشْهى في فُؤادِي من العَذْلِ

كَتَمْتُ الهوى جَهْدِي فَجَرَّدَهُ الأَسى ... بماءِالبُكا هذا يخُطُّ وذا يُمْلِي

أقولُ لقلبي كلما ضَامَهُ الأسى ... إذا ماأبيتَ العِزَّ فاصبرْ على الذل»(١)

وليس بغريب علينا أن نسمع مثل هذا الاعتداد والفخر من ابن عبدربه بشعره، فقد سبق أن مر بنا ماكان بين المحدثين والنقاد في طلب مقارنة أشعارهم بشعراء الجاهليين، ولعلنا نذكر ماقرأناه عن أحد الشعراء العباسيين وهو محمد بن مناذر الذي طلب من خلف الأحمر أن يقيس شعره بأشعار الجاهليين فغضب منه وكفى عليه المرق(٢) ، فهذا يؤكد رغبة الشاعر في الوقوف إلى جانب الفحول، فابن عبدربه هنا إنما يفخر بمعارضة مسلم، لأنه لم يعارض شاعراً مغموراً أو هزيل الشعر.

ومن هنا يبدو أن من حسن المعارضة وجواز قبولها عند الناس شهرة الشاعر المعارض لتتم عملية المنافسة والتحدي، وليس بالضرورة أن يكون الشاعر المعارض مغموراً، فابن زيدون على علو قدره وشهرته لم يستنكف من معارضة المتنبي، بل من كثرة الاستشهاد بشعره في رسائله النثرية، فهاهو يعارضه بقصيدة يقول فيها متغزلاً :

---

(١) المصدر نفسه ٣٩٩ .

(٢) ينظر أخبار أبي تمام للصولي .

هل تَذْكُرونَ غَريباً عاده شَــجَنُ — من ذِكْرِكُم — وجَفَا أَجْفَانَه الوسَنُ
يُخْفِي لواعِجَه والشوقُ يفْضَحُه فقد تســاوى — لديه — السرُّ والعلنُ

ثم يأتي في الآخر ويضمن بيتاً للمتنبي فيقول :

إن كان عادَكُم عيدٌ فُــرُبَّ فتىً بالشوقِ قَد عادَهُ — من ذِكْرِكُم — حَزَنُ
وأَفْــرَدَتْهُ الليــالي من أَحِبَّـتِـهِ فــبــاتَ يُنْشِدُها — مما جنى الزمنُ —
« بمِ التعلُّلُ ؟ لا أهلٌ ولا وطــنٌ ولا نــديمٌ ! ولا كأسٌ ولا سكنُ »(١)

والتضمين لايقع إلا بقوة التأثر، وليس بتوارد الخواطر ووقوع الحافر على الحافر كما يقول ابن بسام .

فكما نرى أن هذا البيت هو مطلع قصيدة المتنبي التي منها(٢) :

أريدُ من زَمني ذا أَنْ يُبلِّغَنِي ماليسَ يَبْلُغُه في نَفْسِه الزمنُ

ومنها :

مما أضرَّ بأهلِ العشقِ أنهمُ هووا وماعَرَفُوا الدنيا ومافَطِنُوا

ولأبي بكر يحيى بن بقي الأندلسي القرطبي «الشاعر المشهور صاحب الموشحات البديعة — كما يقول ابن خلكان(٣) — » قصيدة عارض بها أبا الطيب، يقول فيها :

بأبي غــزالٌ غــازلَتْــهُ مُــقْلَتِيَ بين العــذَيْبِ وبين شَطَّيْ بارِقِ(٤)

---

(١) ديوان ابن زيدون، ص ١٦٢، وديوان أبي الطيب ٤/ ٢٣٣ .

(٢) ديوان المتنبي ٤/ ٢٣٣ .

(٣) وفيات الأعيان ٦/ ٢٠٣، وقلائد العقيان، ت/ الشيخ ابن عاشور، الدار التونسية ١٩٩٠م، ص ٦٦٩ .

(٤) وفيات الأعيان ص٢٠٣

عَاطَيْتُه والليلَ يسحبُ ذَيْلَـــــه   صَهْباءَ كالمسكِ الفتيقِ النَاشِقِ(١)

وقصيدة المتنبي أولها :

تذكرتُ مابينَ العُذَيْبِ وبَارِق   مَجَرّ عوالينا ومجَرَى السوابِقِ(٢)

فهي لم تكن مجرد معارضة فحسب ، بل تأثر حتى في استخدام الأمكنة التي استخدمها الشاعر العباسي ، مع أن أبا بكر لم يذكر بين الراحلين إلى المشرق حتى يقف مباشرة بالعذيب وبارق، ولعل بيت المتنبي كان فتحا عليه في هذه القصيدة.

ولعلنا نكتفي بما ذكرنا من معارضات في هذا الغرض، وننطلق إلى نوع آخر من التأثير، حرص نقاد الأندلس، ومؤرخوا الأدب هنالك على إبرازه، وهو أخذ الشعراء لمعاني المحدثين والمامهم بها، ويأتي كتاب الذخيرة في مقدمة هذه المصادر، ولاعجب إن عولنا عليه كثيراً فهو في نظري من أفضل المصادر لتجرد صاحبه وانصافه ، مع شدة تعصبه لأهل بلده، وكأنه يرى أن تقليد أهل بلده شر لابد منه ، ولذلك يقول: «إلا أن أهل هذا الأفق أبو إلا متابعة أهل المشرق. . .»(٣)، وعلى ضوء ذلك رأى أنه من الإنصاف الإشارة إلى هذه المتابعة، وإعادة ماأخذه شعراء بلده من غيرهم، وهذا مركب صعب لايقدر عليه إلا أولى العزم من الرجال، وإنه ليؤكد ماله من «اقتدار . . . ونفاذ بصيرة في مايكون من صلات قوية بين طبيعة الحياة الأدبية في الاقليم الواحد، وبينماينتجه من علم وأدب، فهذا يدل على دقة ملاحظة ابن بسام وحذقه، وعلى أنه فقه أدب عصره في تطوره وازدهاره»(٤) . فالأحكام النقديه تتطلب الفراسة والتمرس لتصدر عن رؤية غير خاضعة للحدس والتخمين.

(١) المطرب ص ١٩٨ .

(٢) ديوان المتنبي ٢/ ٣١٧ .

(٣) الذخيرة ق١م١ ص ١٢ .

(٤) ابن بسام وكتابه الذخيرة ، د. حسن خربوش ، دار الفكر ، عمان ، الأردن ، ص ١١٨ .

هذا وقبل أن نشرع في عرض نماذج التأثر الجزئية هذه، أود التأكيد على أن هذا البحث ليس من قبيل تتبع ماأسماه النقاد بالسرقات الشعرية، وإن أجازها ابن بسام، فالملكة الشعرية لاينقص من قدرها تضمين حكمة، أو أخذ معنى، أو لفظ، لأن هذا النهج بات لازمةً من لوازم الشعر العربي، بل أصبح مجالاً لابراز قدرة الشاعر على اختيار تلك الحكم والمعاني وتوظيفها في شعره، ويؤكد كذلك سعة ثقافته ومعارفه، وهذا ماذهب إليه ابن طباطبا العلوي عندما قال: «وإذا تناول الشاعر المعاني التي سبق إليها فأبرزها في أحسن من الكسوة التي عليها، لم يعب، بل وجب له فضل لطفه، واحسانه فيه.»(١)، ولذلك لم ينقص قدر أبي تمام عندما عول على ديواني مسلم وأبي نواس واعترف بأنه يراهما كاللات والعزى يعبدهما كما يقول منذ أربعين سنة(٢)، ولو كان الأمر مجرد سرقة أو اهتدام لأخرجنا من الإبداع أعظم شاعر عرفه العصر العباسي أبا الطيب المتنبي، عندما ألفت في سرقاته بعض المؤلفات، وأكدت أنه أغار على كثير من معاني أبي تمام، ولست هنا بصدد الدفاع عن شعراء الأندلس والتماس المبررات لهم، فأقصى مايمكن القول عنهم: إنهم شعراء عرب، اتبعوا سبل أسلافهم المشارقة مثل مايأخذ شعراء الشام عن شعراء العراق أو شعراء مصر عن شعراء الشام.

ونستأنف القول في مانحن بصدده من استخراج هذه التأثيرات من بطون أمهات المصادر، ونعرض لهذه النماذج من خلال ماعرضه ابن بسام كما أشرنا إلى ذلك، ومن خلال بعض المصادر الأخرى إن تسنى لنا ذلك، ككتاب قلائد العقيان، ومطمح الأنفس، والمغرب لابن دحية الكلبي وغيرها من المصادر الأندلسية، على أننا لانلزم أنفسنا بكل هذه المصادر.

ونبدأ بابن زيدون الذي يقول عنه صاحب المعجب إن أبياته الغزلية تنسينا كثير عزه، وهي كذلك تبز مديح زهير بن أبي سلمى، وعندما يبسط زهوه وخيلاءه

---

(١) عيار الشعر ص ١٢٣.

(٢) ينظر طبقات ابن المعتز ص ٢٨٤.

يحلق فوق امريء القيس(١)، ومع ذلك فهو لايخرج كثيراً عن الشعراء المحدثين.

يقول ابن زيدون:

لو كانَ أَمْرِيَ في كتمِ الهوى بِيَدِي ماكان يَعْلَمُ مافي قلبيَ البدنُ

فهذا البيت قال عنه بعض النقاد إنه « من النسيب السائر الغريب الطيار الخفيف الروح » ولكنه « إلى معنى صريع الغواني يشير :(٢)

فقلتُ قَلْبي مُكَاتِمٌ جَسَدِي ولو دَرَى لم يُقِمْ به السِّمَنُ(٣)

ونقل قول العباس بن الأحنف شاعر الغزل في العصر العباسي:

تالله ماشطَّت نوى ظاعِنٍ سارَ من العَيْنِ إلى القَلبِ(٤)

إلى قوله:(٥)

غَريبٌ بأرضِ الشَّرْقِ يَشْكرُ للصَّبا تحَمُّلها منى السلامَ إلى الغَرْبِ
وماضَرَّ أنفاسُ الصَّبا في احتمالِها سلامُ فتى يُهدِيه جِسْمٌ إلى قَلْبِ

وله من قصيدة يقول فيها :(٦)

سأحبُّ أعْدَائِي لأنَّك منهمُ يامَنْ يُصِحُّ ـ بمُقْلَتَيهِ ـ ويُسْقِمُ

---

(١) المعجب ص ١٦٢ .

(٢) الذخيرة ١م ١/ ٣٧٣ .

(٣) ديوان مسلم ص ١٧٦ وهو في الديوان هكذا :

أحب قلبي ومادرى جسدي ولو درى لم يقم به السمن

(٤) الذخيرة ق١م١/ ٣٧٤ .

(٥) ديوان ابن زيدون ص ١٥٣ .

(٦) المصدر نفسه ص ١٨١ .

أصبحتَ تُسْخُطني فأمنحكَ الرضا — محضا — وتظلمني ، فلا أتَظَلّمُ
يامن تألّف ليلُه ونهارُه فالحسنُ بينهما مضيءٌ مظلمُ
قد كان في شكوى الصَّبَابَةِ راحةٌ لو أنني أشكو إلى من يَرْحَمُ

فقوله : « يامن تألف ليله ونهاره . . . البيت » مقتضب من قول أبي الطيب :

الحزنُ يُقْلِقُ والتجلدُ يردَعُ والدمعُ بينهما عَصِيٌّ طَيِّعُ »(١)

وقد يأخذ معنى لشاعر غير مشهور شهرة المتنبي كأبي الشيص محمد بن عبدالله بن زرين أحد شعراء عصر الرشيد، فبيت ابن زيدون الأول، يذكر بقول الشاعر المذكور :

أشبهتِ أعدائي فصرتُ أحبُّهم إذ كان حظي منكِ حظّي منهمُ

وهو من قصيدة لأبي الشيص أولها :(٢)

وقفَ الهوى بي حيثُ أنتِ فليسَ لي متأخرٌ عنه ولا متقدِّمُ

ولابن زيدون كذلك بيت استوقف بعض النقاد، يقول فيه :

تِهْ أَحتَمِلْ واستطل أَصْبِر وعزأَهُن وَوَلِّ أُقبل وقُل أَسمع ومُر أَطِع(٣)

قال ابن بسام « أراه احتذى في هذا البيت مذهب أبي العميثل الأعرابي :(٤)

---

(١) الذخيرة ق ١ م ١ ص ٣٧٥ .

(٢) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ، ت/ أحمد أمين وعبدالسلام هارون ، بيروت ، ط١/ ١٤١١هـ ، ص ١٣٧٣ .

(٣) ديوان ابن زيدون ص ١٧٠ .

(٤) الذخيرة ق ١ م ١ ص ٣٧٢ .

فاصدُق وعفّ وفِهْ وأنصِفْ واحْتَمِلْ   واصْفَحْ ودارِ وكافِ واحْلَمْ واشْجَعِ
والْطُفْ ولِنْ وتأنَّ واحْلَــمْ واتَّـِدْ   واحـزِمْ وجدَّ وحامِ واحـمل وادفعِ

وكقول ديك الجن :

أُحلُ وامْرُرْ وضرَّ وانفع ولن واخـ   شُن ورِشْ وابْرِ وانتدِبْ للمعالي

وعلق ابن بسام بقوله : « وهذا البـاب صنعه المولـدون وعدوه تقسيمـاً ، وتقطيعا، وتبعهم المتنبي فقال :

أَقِلْ أَنِلْ أقطعِ احمل علِّ سلِّ أَعِدْ   زِدْ هُشْ بُشْ تفضل أدنِ سُرَّ صِلِ»(١)

ولنتأمل هؤلاء الشعراء كلهم عاشوا في عصر واحد، ومنهم من لايبلغ شاعرية المتنبي، ولكنه جاراهم في هذا التقسيم، وما الشاعر الأندلسي إلا واحد من هؤلاء، وقد فاقهم في تقسيمه ودفع بالحديث في صدر القديم على حد قول ابن بسام(٢).

وقد حاز أبوالطيب النصيب الأوفر في التأثير على ابن زيدون في شعر الغزل مع أنه من المتوقع أن يكون تأثير أبي نواس والعباس وبشار من شعراء الغزل المشهورين أشد من تأثيره ، لكن المتنبي كان حاضرا بشعره بين النقاد فتجدهم يستحضرون معانيه عند سماع أشعار شعرائهم، وقد شغل ابن بسام باستقراء وتتبع هذه التأثيرات ، ونال ابن زيدون النصيب الأكبر من هذا الاستقراء فلم يترك له «بيتاً التقط معناه أو لفظه من شعر غيره إلا نبه عليه، وهو في العادة يعرض القصيدة الجيدة من قصائده ثم يعود إليها بالتصفح، فكلما وجد معنى أو لفظا مشتركا بينه وبين من سبقوه دل على موضع أخذه وموطن استعارته»(٣) ، فتأمل

---

(١) المصدر نفسه والبيت في ديوان المتنبي ٣/ ١٨٣ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) ابن زيدون، الدكتور شوقي ضيف، دار المعارف، سلسلة نوابغ الفكر، ط١١، ط٣٨.

هذه الفائية التي يقول فيها :

وما ولعي بالراحِ إلا توهمٌ　　لظلمٍ به الراحُ لوُ يترَشَّفُ

قال ابن بسام : « قوله وما ولعي بالراح . . . البيت » أراه قلب قول أبي الطيب :

وما شَرَقي بالماءِ إلا تذكراً　　لماءٍ به أهلُ الحبيبِ نزولُ

ولايظن ظان أو يتوهم متوهم ، أن هذا الضرب من التأثر يعني التقليل من شأن ابن زيدون ، بل إن ذلك ليؤكد ماله من قدرة فائقة على طبع «فنه بالطوابع العربية الأصيلة ، فقد أخذ نفسه على مايظهر بثقافة واسعة للشعر الذي سبقه من العصر الجاهلي إلى عصره ولم يدخر وسعا في قراءة دواوينه ، والوقوف على أسراره، وكأنه يشعر شعوراً قوياً بأن الشعر ينبغي ألا ينفصل قديمه عن حديثه، ففزع إلى جداوله المختلفة ينهل منها ويعب محتذيا بأمثلة سابقيه غير خارج ولا تأثر على قواعدهم وقوالبهم الفنية المرسومة . وكأنما حفزه ماقرأه لكبار الشعراء أمثال البحتري ، وأبي نواس وأبي تمام، وابن المعتز والمتنبي وأبي العلاء»(١) وظهر ذلك جليا في نثره وشعره، ولا يعيبه مافعله ابن بسام من التنبيه على مآخذه واستعاراته .

وليس ابن بسام وحده في هذا الميدان، أعني تتبع التأثيرات والإشارة إليها، فابن دحية الكلبي كان ممن حاول التنبيه على مآخذ شعراء كتابه الموسوم بـ«المطرب» وإن كان لم يبلغ مابلغه ابن بسام، فيذكر لنا ابن دحية أن أحمد بن فرج الجياني قد تأثرِ بالمتنبي في ذكر الطيف في قوله :

وبأيِّهما أنا في الشكرِ بادي　　بشكرِ الطَّيفِ أم شُكرِ الرُّقَادِ
سَرى فأرَادَه أمَلي ولكنْ　　عَفَفْتُ فلم أنَل منه مُرادي

قال ابن دحيه : (. . . لكن أخذه من قول المتنبي :

---

(١) المصدر نفسه ص ٣٨ .

يَرُدُّ يداً عن ثَوْبِها وهو قَـــادِرُ ويَعْصي الهوى في طَيْفِها وهو راقِدُ)(١)

وهو من قصيدة أولها :

عَواذِلُ ذاتِ الخال فيَّ حواسدُ وإن ضَجِيعَ الخُـودِ منـي لماجـــدُ(٢)

وليس المقصد هنا تقصي أثر أبي الطيب والتوسع فيه وإنما المراد معرفة أثر المحدثين عامة، وقد يطغى أثرشاعر كالمتنبي على غيره لأنه فرض نفسه على كل شاعر يمت إلى العربية بصلة ، في ذلك العصر ، وقد وصل ديوانه الأندلس في فترة باكرة، وشرحه العالم اللغوي أبوالقاسم الافليلي، وقد أشرنا إلى ذلك في الصلات الثقافية .

وممن راج شعره بين الأوساط العلمية والأندية الأدبية في الأندلس أبوعبادة البحتري ، وكان له أثر واضح على الشعراء هنالك كما كان له أثر من قبل على شعراء المشرق أنفسهم، يقول أحد الدارسين المعاصرين : « إن يكن أثر البحتري في الشعراء الشرقيين يتفاوت عمقا وسطحية فهو في الشعراء الأندلسيين عميق موغل في العمق» (٣)، فأبوالوليد ابن زيدون كان يلقب ببحتري الأندلس لقرب شعره من طبيعة شعر أبي عبادة ، وابن شهيد كان يعرف مذهب البحتري أشد ماتكون المعرفة حتى أنه أطلق على تابعه أبا الطبع كما مر بنا ، وفكرة التمسك بعمود الشعر العربي في الأندلس إنما هي جزء من طريقة البحتري ، وقد أكد ابن بسام القول في ذلك عندما امتدح أهل الأندلس فقال « . . . فقلما رأيت فيهم ناثراً غير ماهر ، ولا شاعراً غير قاهر، دعو حر الكلام فلبى وأرادوه فما تأبى، وطريقتهم في الشعر الطريقة المثلى التي هي طريقة البحتري في السلاسة

---

(١) المطرب ، ص ٥ - ٦ .

(٢) ديوان المتنبي ١/ ٢٦٨ .

(٣) الرمزية في شعر البحتري، الدكتور موهوب مصطفاي، سلسلة الدراسات الكبرى، الجزائر، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م، ص ٤٢١ .

والمتانة، والعذوبة والرصانة»(١). ولذلك تجدهم يفاخرون شعراءهم بشعره، فالشاعر عبدالجليل بن وهبون فخر يوما بشعره وتطاول حتى كاد يمس رأسه السماء، فقال لأحد أصحابه: قد أتيت ببيت فلم أزد وما أحب حسنه لأحد وأنشده فقال له جليسه: فأين أنت من قول أبي عبادة:

تَنَصَّبَ البرقُ مختالاً فقلتُ له لو جُدْتَ جُودَ بني يزدانَ لم تَزِدِ(٢)

قال: فبدا عبوسه، وتضاءل حتى كدت أدوسه، وقال: كسرتني والله لو خطر هذا على بالي ماقلت ذلك(٣).

ولاننسى ماكان لابن الرومي من تأثير على شعراء الأندلس في الغزل والطبيعة، وكذلك ابن المعتز، مما لايمكن عرضه في هذا الباب، ولذلك آثرنا تأجيله إلى الباب الخاص بالتأثيرات في وصف الطبيعة.

وقبل أن أختم غرض الغزل أود أن أشير إلى نوعين من الأغراض إشارة سريعة ظهر أثر المحدثين فيهما، ولهما صلة بهذا الغرض، أما أحدهما فهو الغزل بالمذكر، وأما الآخر: فشعر الخمر الذي تطور على يد أبي نواس.

فالغزل بالمذكر مني به العصر العباسي لما كان لهذا العصر من اختلاط بأجناس متعددة، ولاسيما العنصر الفارسي، وحب الجنس نمط يخالف الفطرة أساساً، ولكن الترف الذي كثر في المشرق حينذاك، وكثرة مجالس الشراب واللهو، وتعدد الجواري، وابتذالهن، كل ذلك ساعد على وجود هذه الظاهرة، وربما عوامل أخرى تتعلق بالشاعر نفسه، كما هو الحال بالنسبة لأبي نواس من حيث تربيته الأولى، وفشله في حبه لجنان، فتزاهد في حب المرأة، وانصرف يطلب

---

(١) الذخيرة ق ١ م ١ ص ١٢.

(٢) بتصرف من المصدر المذكور.

(٣) ديوان البحتري، ت/ الصيرفي، ص ٦٥٩.

لذته في سقاة الخمر من الروم والفرس الذين جيء بهم ليمارسوا هذه الخدمة، وكان هؤلاء الغلمان على جانب كبير من الجمال والخلاعة في الوقت ذاته، وحينما كانت الخمر تسور في رؤوس الشاربين كانوا يتغزلون في أولئك السقاة ويجشمونهم ويحاولون مواصلتهم بأي سبيل، ولهذا نجد كثيراً من شعر الغزل بالمذكر يدور حول هؤلاء السقاة(١) ، وقد حاول بعض الدارسين أن يولي غزل أبي نواس هذا عناية كبيرة ، فالأستاذ عبدالرحمن صدقي في كتابه «ألحان الحان» حيث كتب عن الظاهرة مايقرب من عشرين صفحة، واعتبر هو وغيره من الداسين المتأخرين أن هذا نمط من التنفيس عن مشاعر مكبوته وأنه عندما فشل في حبه للمرأة نظراً لما فيه من الغلامية الواضحة على شخصيته، أخذ يتلمس حبه في جنسه ووجد في طبيعة العصر الذي يعيش فيه كل المبررات التي يتعلل بها، ويستند إليها في تجشم هذا السبيل . . . ومن هنا يتضح للقاريء غزله وسبب تفضيله الغلمان على النساء . » وأصبح أبونواس رائداً في هذا الفن إضافة إلى فنه الخمري الذي طوره وأصبح رائداً فيه، وشعره في الغزل الشاذ يعتبر من «أرق أشعار الغزل في الشعر العربي . . » وكان شديد الفخر به حتى أنه كان « يعيب على الأعراب أنهم لم يعرفوا هذا النوع من العشق» ، ويتضح ذلك من قصيدته التي يقول فيها :

أمـــا واللهِ لا أشـــراً حلفـــتُ بـهِ ولا بَطِرا
لو أن مُـــرقّـــشا حيّ تعلّـــقَ قلبُـــه ذَكـــرا
وأيقـــن أن حـــبَّ المُـــر دِ يُلفى سَـهْلَه وعَرِا(٢)

ولانود إطالة القول في تفاصيل حب أبي نواس للغلمان، وبيان أسبابها وكيف عالجها، وإنما نريد أن نقول : إنها ظاهرة من ظواهر الشعر في العصر

---

(١) ينظر اتجاهات الشعر في القرن الثاني، مصطفى هدارة ص ٥١٧ .

(٢) ينظر فيما سبق : مقدمة الديوان ، واتجاهات الشعر للدكتور هداره ، ومحمد النويهي في نفسية أبي نواس، وكتاب الحان الحان ، صدقي .

العباسي انتشرت « انتشاراً واسعاً ظهر صداها في الشعر العربي بطبيعة الحال، حتى إن هذا اللون الشاذ من التغزل أصبح نوعاً جديداً في تاريخ الشعر العربي»(١).

ولم يكن أبونواس الشاعر الوحيد الذي انفرد بهذا اللون من الغزل، بل ذكرت المصادر أن الحسين بن الضحاك، وحماد عجرد، وبكر بن خارجة، ويوسف بن الحجاج الثقفي كل هؤلاء كان لهم ميول غلامية ظهرت في أشعارهم(٢).

ونظراً لما كان لأهل الأندلس من تعلق بالمشرق عندما تأثروا بهم في أغلب الأغراض الشعرية كما مر بنا في الصفحات السابقة، فكذلك انتقلت ظاهرة التغزل بالغلمان إلى الأندلس، ووجدت صداها هناك، وقد ساعد على فشوها تلك الحياة المترفة الشبيهة بالحياة في بغداد، إذ كانت « البواعث التي هيأت لظهوره في المشرق هي تقريباً نفس البواعث التي هيأت لظهوره في الأندلس وكان من أهمها سريان موجة من التهتك والمجون في بعض البيئات، وانتشار الحانات، ودور اللهو، وكثرة مجالس المجان والخلعاء، واختلاط الأندلسيين بالبيئة المسيحية التي تعج باللهو وحيث يكثر غلمان الفرنج بما فيهم من ملاحة وجمال»(٣).

وقد كثر الحديث عن اللذائذ والمتع في الأندلس في مجالس الخلفاء، ماقد يصل إلى الأدب المكشوف، وقد نشط هذا الغرض الشعري نتيجة لشيوع التحلل في المجتمع الأندلسي وميله إلى اللهو، واقباله على المتع الحسية من شراب ورقص واقتناء الجواري الحسان ممن كثر سبيهن ضمن ماكان يسبى في الانتصارات الحربية الكثيرة، والحب الشاذ كان مألوفاً بين كثير من الأندلسيين، حتى لنرى الغزل

---

(١) اتجاهات الشعر، د. هداره ص ٥٢٠.

(٢) من تلك المصادر، الأغاني ٢٠/ ٨٧، وكذلك طبقات الشعراء لابن المعتز ٧/ ١٧٠.

(٣) الشعر الأندلسي في عصر الموحدين، فوزي سعد عيسى ١٩٧٩م.

بالمذكر لايقتصر على مجالات اللهو والمجون فيحسب ، بل يتعدى ذلك إلى أكثر المجالات وقاراً واصطناعاً للجد، وهو مجال مدح الخليفة(١) .

وقد وجد في الأندلس من الشعراء من تفرغ لهذا النوع من الغزل الشاذ ولم يهتم بالغزل العفيف، ولا الغزل بالمرأة أيا كان نوعه، يحدثنا الدكتور حسن الوراكلي عن ابن صارة الشنتريني فيقول بأن « الغزل الذي قال فيه ابن صارة أشعاره ليس غزلاً بالنساء، وإنما هو غزل شاذ، أنشأه صاحبه في الغلمان والمردان الذين كانت تبهره ملاحتهم ويأسره جمالهم، ومثل هذا الغزل عند ابن صارة وعند سواه من شعراء عصره يدل على شيوع آفة خطيرة في المجتمع الأندلسي يومئذ هي آفة الشذوذ الجنسي »(٢) .

ويرى بعض الدارسين أن هذا اللون مهما شاع وكثر في الأندلس إلا أنه لم يصل إلى ماوصل إليه في المشرق من اسفاف وافحاش ولم يكثروا منه كثرة أبي نواس مثلاً، ففي ديوانه باب خاص بوصف الغلمان يسمونه «الغزل بالمذكر» فيه نحو ألف بيت(٣) .

وقد اشتهر في الأندلس شعراء بارزون أيضاً في هذا الميدان، فابن شهيد الأندلسي كان له غزل في المذكر جاري فيه أبا نواس ، فأبياته البائية التي يقول فيها :

وغمامٍ باكرتنا عينُه   تَتْرَعُ الأُفْقَ بدمعِ حبيبِ

جاء على طريقة النواسي من حيث وصف الخمرة والدير والساقي على نمط الطريقة الغزلية القصصية التي شاعت في شعر أبي نواس، وبشار وغيرهما من المحدثين .

---

(١) الأدب الأندلسي ، أحمد هيكل ص ٢٧٤ .

(٢) ابن صارة الشنتريني ، د. حسن الوراكلي ، ص ١٨٨ ، تطوان ١٩٨٦م .

(٣) الأدب العربي في الأندلس ، د. عبدالعزيز عتيق ص ١٧٣ .

وكذلك ابن عمار الأندلسي اشتهر بتغزله بغلام رومي ، وأما ابن سهل الاسرائيلي فقد اشتهر بغلام اسمه موسى تردد كثيراً في شعره، وهو غلام يهودي يقول الدكتور إحسان عباس : «فكان أكثر شعره في هذا الدور من حياته غزلاً فيه، ويكاد الشعر الذي كان يشارك فيه أصدقاء في وصف المنازه وأيام المتع والمسرات أن يكون هو الجانب اللاهي العابث من فنه الذي تخلقه المناسبة العارضة، ويقال لملء الفراغ، أما شعره الجاد الذي يريد أن يعرفه به الناس شاعراً قديراً فذلك هو غزله في موسى ، وقد ظن بعض المتأخرين أن موسى قد يكون رمزاً أوجده الشاعر ليعبر به عن مشاعر دينية أو قومية . . »(١) . . وما يقال عن شخصية ابن سهل عن ولعه بهذا الغلام قريب مما يقال عن أبي نواس ، نفهم ذلك من كلام الدكتور إحسان عباس عندما قال : « . . إلا أن ابن سهل أمعن في غزله وأكثر منه، وكان غزله هذا في حقيقته صورة لإخفاقه في أن يتحول إلى إنسان طبيعي في حبه مثلما كان صورة لاخفاقه في الحب . »(٢) ومن شعره فيه قوله : (٣)

ولماعَزَ منا ولم يبقَ من ... مصانعةِ الشوقِ غيرُ اليسيرِ
بكيتُ على النّهرِ أُخفِي الدموعَ ... فَعرّضَها لونُها للظُّهورِ

إلى أن قال :

ومنَّ الفراقُ بتَوْدِيعه ... فشبَّهتَ ناعِي النوَى بالبشير
وقبّلتُ وجنتَه بالدّموعِ ... كما التُقِطَتْ وردةٌ من غَدِير
أموسى تَمَلَّ لذيذ الكَرى ... فَلَيْلِيَ بعدكَ ليلُ الضَّرِير

هذا وقد صرح ابن سهل بأنه كأبي نواس في مجونه وغزله يقول من قصيدة له :

أنا في الحبِّ صادِقٌ ... أنا صبٌّ بِشَاهِدَين

(١، ٢) مقدمة إحسان عباس للديوان ص ١٧ – ١٨ .

(٣) الديوان ص ١٥٢ .

فـــإذا رمتُ ســــلوةً حــــيلَ مـــابيننا بذَينِ
وأنــا كــابنِ هانــيءٍ في الصِّبــا حلفُ سَكَرَتين
قــام عُــذْرِي بحـسنِ مَـنْ هِمْتُ فيــه من غـيـرِ مَيْنِ

ولعل فيما أوردنا من هذه النماذج دون الوقوف عند الجزئيات تغني عن الاطالة، وتبين أنه ماظهر مذهب أو لون أدبي في المشرق إلا وجد صداه في الأندلس.

ومن الألوان الأدبية التي شاعت في المشرق على يدى أبي نواس والحسين بن الضحاك، شعر الخمرة، وانتقل تأثيرها إلى عدوة الأندلس، ولذلك قل أن تجد شاعراً في الأندلس وصف الخمر ولم يظهر عليه روح أبي نواس، وطريقته فيها، يقول الدكتور إحسان عباس معلقاً على أبيات للشريف الطليق يقول فيها: (١)

رب كـأسٍ قـد كـستْ جُنْحَ الدُّجى ثَـــوبَ بردٍ مــن سناها يَقِـقَا
قـام يسـقـيـهـا رشـاً في جَـفْنِه ســنةٌ تُـورِثُ عَـيْني أرَقَــا
أشرقتْ في ناصِـــعٍ مــن كفِّــهِ كشـــعاعِ الشمسِ وافي الفَلَقَا

وفي وصف الخمر ومايتصل بها، وقصة المغامرة مع الندمان في زيارة الحان، يستأثر أبونواس بمعان وتوليدات إذا اقتبسها غيره أعلنت عن نفسها، فإن نورانية هذه الخمر وسر روحانيتها التي خفيت وهي ظاهرة، ثم هذه الصورة التي تجعل منها شمسا تغرب في الفم بعد أن تطلع من المشرق - الذي هو يد الساقي - لاتزال تستمد من شعر أبي نواس الشيء الكثير.»(٢)

ولأبي نواس هيبة عظيمة في نفوس شعراء الأندلس ولا أدل على ذلك من قصة ابن شهيد عندما التقى بشيطانه «حسين الدنان» بدير حنة بذات الأكيراخ،

---

(١) الذخيرة ق ١ م ١ ص ٥٦٥.

(٢) تاريخ الأدب الأندلسي ١/ ١١٣ - ١١٤.

ووجده في سكرة عميقه منذ أيام عشرة كما يقول، ولم يصح إلا بعد أن قرع أذن نشوته بإحدى خمرياته فصاح به يقول:

وَلَرُبَّ حانٍ قد أدرتُ بِدَيْرِه   خمرَ الصِّبا مُزِجَتْ بِصَفْوِ خُمورِه(١)

ثم سمع منه قوله - بعد أن أفاق من سكرته - :

ياديرُ حَنّـةَ من ذاتِ الأُكَيْراحِ   من يَصْحُ عَنْكِ فإني لستُ بالصَّاحي(٢)

ثم استمر ابن شهيد يحادثه، حتى أنشد أبياتا تنبيء تماماً عن اعجابه بأبي نواس وتأثره به يقول فيها(٣):

أَصَـبَـاحٌ شِـيْمَ أم برقٌ بدا   أم سَنا المحـبـوبِ أورى أَزْنُدا
هبَّ من مـرقَـدِهِ مُنْكَسِـرا   مُـسْـبِـلاً للكُمِّ مُـرْخٍ للرِّدا
يمسحُ النَّعْسَـةَ من عَيْنَي رَشَا   صـائـدٍ فـي كُلِّ يومٍ أَسَـدا

ثم طلب منه أن ينشده من مجونياته: فأنشده قوله:

وناظرةٍ تحتَ طَـيِّ القِنَـاعِ   دعـاها إلى اللهِ والخـيـرِ داعِ

ثم قال بيتا اهتز له صاحب أبي نواس وقام يرقص به ويردده وهو قوله:

فَوَلَّت وللمسكِ من ذيلهـا   على الأرضِ خَطٌّ كَظَهْرِ الشُّجَاعِ(٤)

---

(١) التوابع والزوابع ص ١٠٦ .

(٢) ديوان أبي نواس ص ١٠٨ ، وهو على هذا النحو :

حتى تغنى وقد مالت سوالفه   « يادير حنة من ذات الأكيراح »

(٣) التوابع والزوابع ص ١٠٩ .

(٤) المصدر السابق ص ١١١ .

ونختم القول في شعر الخمر وولع الشعراء الأندلسيين فيه بطريقة أبي نواس بما رواه صاحب الجذوة من أن ابن شبلاق الاشبيلي قال : رأيت في النوم كأني في مقبرة ذات أزاهير ونواوير، وفيها قبر حواليه الريحان الكثير، وقوم يشربون ، فكنت أقول لهم : والله مازجرتكم الموعظة، ولا وقرتم المقبرة، قال : فكانوا يقولون لي : أو ماتعرف قبر من هو ؟ فكنت أقول لهم : لا ، قال : فقالوا لي : هذا قبر أبي علي الحكمي الحسن ابن هانيء قال : فكنت أولي ، فيقولون والله لاتبرح أو ترثيه، قال : فكنت أقول :

جَادَكَ ياقبرُ نَشَاصُ الغَمَامْ ... وعادَ بالعفْوِ عليك السلامْ
ففيكَ أضحى الظَّرفُ مستودَعاً ... واسْتَرَتْ عنا عيونُ الكلام(١)

وكذلك مانقلته الينا المصادر من أن الشاعر يحيى بن الحكم الغزال كان مولعاً بطريقة أبي نواس الخمرية ، حتى أنه هاجر إلى العراق ليعب من معينه، وإن كان ذلك حصل بعد موته، يقول صاحب المطرب : « . . . ثم إن الغزال لم يطب نفساً بالمقام بالأندلس فرحل إلى العراق ، وذلك بعد موت الحسن بن هانيء بمدة يسيره، فوجدهم يلهجون بذكره ولا يساوون شعر أحد بشعره، فجلس يوما مع جماعة منهم فأزروا بأهل الأندلس، واستهجنوا أشعارهم، فتركهم حتى وقعوا في ذكر الحسن، فقال لهم: من يحفظ منكم قوله :

ولما رأيتُ الشَّرْبَ أَكْدَتْ سماؤُهم ... تَأَبَّطْتُ زِقِّي واحْتَسَبْتُ عَنَائِي
فلما أتيتُ الحانَ ناديتُ ربَّه ... فهبَّ خفيفَ الروحِ نَحوَرِدَائِي
قَليلُ هجوعِ الليلِ إلا تَعِلَّةً ... على وجلٍ مني ومِنْ نُظَرَائِي
فقلتُ أَذِقْنِيها فلما أذاقني ... طَرَحْتُ إليهِ رَيْطَتِي ورِدَائِي
وقلت أَعِرْنِي بِذلة أَستَتِر بها ... بَذَلْتُ له فيها طلاقَ نِسَائِي

---

(١) الجذوة ، ص ٢٧٤ .

فـوالله مـابرت يميني ولا وفـــت له غـيـر أني ضـامن بوفـائي
وأبت إلى صـحـبي ومـاكنت آئبـا فكـل يفـديني وحق فـدائي

فأعجبوا بالشعر وذهبوا في مدحهم له كل مذهب ، فلما أفرطوا قال لهم : خفضوا عليكم فإنه لي . فأنكروا ذلك ، فأنشدهم قصيده الذي أوله :

تداركت في شرب النبيذ خطائي وفارقت فيه شيمتي وحيائي »(١)

فكما نلاحظ أن هذا الحديث عن المغامرة في الحانات هو اتجاه نواسي كما يقول الدكتور إحسان عباس : لاينازع فيه صاحبه متقدم عليه(٢)، وما قصيدة الغزال هذه إلا « محاكاة متعمدة لأبي نواس . » ، وبتأمل يسير للقصيدة المذكورة نجد فعلاً طريقة أبي نواس مسيطرة على شعر الغزال الخمري، بل المعارضة الصريحة، فنذكر قول أبي نواس :

يارب مجلس فنيان سموت لـــه والليل محتبس في ثوب ظلماء(٢)
لشـرب صـافيـة من صدر خـابيـة تغـــشى عيون نداماها يلألاء

أو قوله :

أكـســر بمائك سـورة الصـهـبـاء فـإذا رأيت خـضـوعـهـا للمـاء
فاحبس يديك عن التي بقيت بها نفس تشـاكل أنفس الأحـياء(٣)

أو قوله :

لا تبك بعد تفرق الخلطاء واكسر بمائك صورة الصهباء (٤)

---

(١) المطرب / لابن دحية ص ١٤٨ .

(٢) تاريخ الأدب الأندلسي ١/ ١١٤ .

(٣) الديوان ص ٧٠٢ .

(٤) الديوان ص ٧٠٤ .

وهكذا نجد شعر الخمر في الأندلس جزءاً لايتجزأ من خمريات أبي نواس هو أبو هذا الفن في المشرق، وكذلك ماذكرناه من أثره الواضح على شعراء الأندلس في الغزل بالمذكر فنجد الشاعر يستعير بعض معاني أبي نواس، احساساً منه بما لهذا الشاعر من قدرة بارعة في وصف الخمر، يقول الدكتور احسان عباس «فمن المعاني التي اقتبسوها : إن الكأس تكون ثقيلة فإذا صبت فيها الخمر خفت قال إدريس بن اليمان : - أحد شعراء الجذوة - :

ثَقُلَتْ زجاجاتٌ أتتنا فُرَّغَا حتى إذا مُلِئَتْ بصرفِ الراحِ
خَفَّتْ فكادَت أن تَطِيرَ بما حَوَتْ إن الجسومَ تَخِفُّ بالأرواحِ(١)

والأمثلة على ذلك كثيرة ونكتفي بهذا القدر. ولعلنا في شعر الطبيعة نقف على الشيء المفيد من هذه التأثيرات بمشيئة الله .

---

(١) تاريخ الأدب الأندلسي ١/ ١١٥ ، والجذوة ص ١٦٠ .

الفصل الرابع

مظاهر التأثر في شعر الطبيعة

المبحث الأول

شعر الطبيعة منذ العصر الجاهلي
إلى نهاية العصر العباسي

إن الحديث عن شعر الطبيعة ، هو حديث عن غرض جوهري يتصل بفنٍّ الوصف ، ذلك الغرض الذي حاز قسطاً كبيراً من مخزون الشعر العربي ، يقول ابن رشيق « الشعر إلا أقله راجع إلى الوصف ، ولا سبيل إلى حصره واستقصائه»(١) ، ويقول الأستاذ مصطفى صادق الرافعي : « الوصف جزء طبيعي من منطق الإنسان لأن النفس محتاجةٌ من أصل الفطرة إلى مايكشف لها من الموجودات ، ومايكشف للموجودات منها ، ولا يكون ذلك إلا بتمثيل الحقيقة وتأديتها إلى التصور في طريق من طرق السمع والبصر ، والفؤاد ، أي الحس المعنوي ، فالأمم الطبيعية هي أصدق الأمم في الوصف طبيعة ، لأنه سبيل الحقيقة في ألسنتها ، ولأن حاجتها الماسة إليه تجعل هذا الحس فيها أقرب إلى الكمال » (٢) . و«الطبيعة الجميلة مهوى أفئدة الناس مهما تفاوتت بيئاتهم وثقافاتهم ، والإنسان بفطرته كلف بالطبيعة يفزع إليها في أشجانه ليجد في أحضانها العزاء والسلوى ، ويهرع إليها في مسراته ليلتمس في كنفها تعبيراً عن غبطته ومشاركته في أفراحه . »(٣) .

وقد استوقف فنُّ الوصف بعض المستشرقين ، ولفت أنظارهم إليه ، يقول بلاشير : «يدهش الباحث تجاه النصوص الجديده باستحضار حالة الشعر القديم حتى

---

(١) العمدة ٢/ ٢٩٤ ، ط محي الدين عبدالحميد .

(٢) تاريخ آداب العرب ٣/ ١١٩ /

(٣) الصنوبري شاعر الطبيعة ، د. عبدالرحمن عطية ، الدار العربية للكتاب ، ليبيا - تونس ١٩٨١م ، ص ٦٩ .

حوالي سنة (٥٠هـ/ ٦٧٠م) للمكانة التي يحتلها الوصف ، فإن الشاعر يبدو قبل كل شيء بصرياً حاساً بالأشكال والألوان وخصائص المخلوقات ، والأشياء ، قليل الاهتمامٍ مقابل ذلك بما يتصل بحاستي السمع والشم ، فقد صور إذاً على طريقته العالم الذي يتحرك فيه ، وكل مايعيش فيه عيشةً مألوفة سواء أكانت مصادقةً أم مناوئة . . »(١).

والشعر الذي يصف الطبيعة إنما يصفها لأنها تشكل جزءاً من مَلَكة صاحبه ولذلك يرى الدكتور محمد حسين هيكل أنها : « هي الملهم(*) الأول لكل كاتب وشاعر ، بل هي الملهم الأول لكل فن من الفنون ، كذلك كانت ، وكذلك لاتزال ولن تزال » (٢) .

وقد تعلق العربي ببيئته وهام بها ، وتغنى بها في أشعاره ، لأنها منحته صفاءها وجمالها ، فمنحها فكره وعقله ، ومن ثم قوى التمازج بينهما حتى كادت تُهيمن على جزء كبير من تجاربه ، فهو ينتمي إلى قبيلة عربية ، والعرب كما يقول ابن طباطبا : «أهْلُ وبرٍ صحونهم البوادي ، وسقوفهم السماء ، فليست تعدو أوصافهم مارأوه منهما وفيهما ، وفي كل واحدة منهما فصول الزمان على اختلافها : من شتاء ، وربيع ، وصيف ، وخريف ، من ماء ، وهواء ، ونار ، وجبل ، ونبات ، وحيوان ، وجماد ، وناطق ، وصامت ، ومتّحرك ، وساكنٍ ، وكل متولد من وقت نشوئه ، وفي حال نموه إلى حال النهاية فضمنت أشعارها من التشبيهات ماأدركه من ذلك عيانها وحسها إلى مافي طبائعها ، وأنفسها من محمود

---

(١) تاريخ الأدب العربي ، الدار التونسية للنشر ، والمؤسسة الوطنية للكتاب ، ١٩٨٦م ، الجزائر ١/ ٤٨٤ .

(*) نحن نعلم من منظور ديننا الحنيف أن الملهم الأول هو الله سبحانه ثم مايهيئه الله من الأسباب كالبيئة والثقافة ونحو ذلك ، ولهذا قد نقبل بكلام هيكل مع التجوز وحسن الظن .

(٢) مقدمة هيكل لكتاب شعر الطبيعة للدكتور نوفل .

الأخلاق ومذمومها ، في رخائها وشدتها ، ورضاها ، وغضبها ، وفرحها وغمها، وأمنها وخوفها ، وصحتها وسقمها . . . »(١) فهذه مهيئات غرض الوصف الذي حظي بأغلب الشعر العربي ، ومن خلال كلام ابن طباطبا يتبين اعتماد الشاعر على مايشاهده فيصفه وصفاً ظاهرياً يعتمد فيه على التشبيه ، والاستعارة » (٢) فهما من « أهم الطرق التي يستخدمها الشعراء في أداء المعاني » ولذلك كان الشاعر في الجاهلية « يكتشف العالم بالمقابلة والتشابه ، وهذا مايسمى بالتجريد أي انتزاع ميزة عامة من أشياء كثيرة مختلفة . » (٣) .

هذا ويؤكد الدكتور بهيج القنطار في دراسته لشعر الطبيعتين الحية والصامتة في العصر الجاهلي : أن الشاعر ألف صوره الشعرية من تلك الطبيعة التي يعيش فيها فجاءت مصادر هذه الصور على هذا النحو :

- الإنسان : بيئته ، طعامه ، شرابه ، ملابسه ، أنواع الزينة ، ألعابه ، لهوه ، وملذاته ، أدواته المنزلية ، صفاته وأخلاقه .
- الحيوان ، والطيور ، والحشرات ، والزواحف .
- السماء ، والأرض ، ومافيهما من ظواهر طبيعية : الشمس ، والقمر ، النجوم، النور ، الظلام ، الأطلال ، الصحراء ، الجبال ، الصخور ، الرمال ، الماء ، المطر ، السحاب ، الرعد ، البرق ، النبات ، الأشجار ، الخشب ، النار، الريح .
- المعدات الحربية : الدرع ، الرمح ، السيف ، السهم ، القوس ، البيضة ، السوط .
- متنوعات : كالجن ، الغول ، المرض ، الدواء ، الشفاء (٤) .

---

(١) عيار الشعر ص ١٥ ، ت/ د. عبدالعزيز المانع .

(٢، ٣) الطبيعتان الحية والصامته في الشعر الجاهلي ، دار الآفاق ، بيروت ، ١٤٠٦ هـ ، ط/ ١ ، ص ٤٢ .

(٤) الطبيعتان ، الحية والصامته ص ٤٥ .

وهذه المصادر كفيلة بأن تخرج لنا أدباً ، وصفياً تنتجه قرائح شعراء ليس لهم من ميادين المعرفة إلا هذا الشعر ، الذي تغذيه هذه الطبيعة بصورها وأشكالها فطفقوا يصفونها ، ويصفون كل مشاهدها ومناظرها ، والعرب قد وصفوا كل شيء وقعت عليه أعينهم في صحرائهم ، وفي العادة يذكرون ذلك بعد غزلهم وتشبيبهم ، إذ يخرج الشعراء إلى وصف رحلاتهم في الصحراء ، فيتحدثون عن قطعهم للمفاوز البعيدة ، فوق إبلهم ، ويأخذون في وصفها وصفاً مسهباً على نحو ماهو معروف عن « طرفه » في وصفه لناقته بمعلقته وقد كاد أن لايترك فيها عضواً ولا جزءاً دون وصف وتصوير (١) .

وموقف الشاعر العربي من الطبيعة بهذه الطريقة لم يرق لبعض الشعراء والدارسين المعاصرين ، ومن هؤلاء أبوالقاسم الشابّي شاعر تونس ، فقد اتهم شعر الطبيعة في العصرين الجاهلي والأموي بأنهما « كانا خاليين أو كالخاليين من هذا الشعر الذي يتغنى بمحاسن الكون ويشبب بجمال الطبيعة إلا بعض المقارنات القصيرة بين الحبيبة في جمالها والروضة في نضارتها ، أو بعض الأوصاف السريعة للبرق ، والمطر قد لا تخلو من أناقة وطرافة » إلا أنها « صور متتابعة يعرضها الشاعر عرضاً أميناً ، ولا نسمع فيها صوتاً من أصوات القلوب » (٢) وقد صرح بأشهر شعراء الجاهليين مستعرضا نماذج من أشعارهم ثم قال بأنهم وقفوا من الطبيعة « وقفة الأخرس الذي لاينطق والأعمى الذي لايبصر أضواء النهار » (٣) وهو يعزو ذلك إلى طبيعة مناخهم وأرضهم كما يتصوره هو لا كما يتصوره الشاعر العربي ، ولذلك لم يكن الشابي يرى في جزيرة العرب إلا مجرد « قطعة قاحلة

---

(١) ينظر / العصر الجاهلي ، الدكتور شوقي ضيف ، ص ١٧-١٨ .

(٢) أشتات في اللغة والأدب والنقد ، محمد اليعلاوي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط١ / ١٩٩٢ م ، ص ٣١٨ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٣١٧ بتصرف .

لايعترض العين فيها غير الموامي المقفرة الموحشة والصحاري الضامية المترامية»(١).

ورأي الشابي هذا كما يقول الدكتور اليعلاوي هو نتيجة لايمانه « بنظرية الوسط الطبيعي » التي جعلها الناقد الفرنسي « هيبوليت تين » ركيزة مذهبه النقدي فقرر أن عناصر الوسط الجغرافي ، والبيئة الاجتماعية ، والانتساب الملي تتضافر مع الظرف التاريخي فتوجه الإبداع الأدبي وتكيف الخلق الفني . بسط هذه الآراء في كتابه « فلسفة الفن » إلا أن الشابِّي لم يتعرض إلا إلى تأثير الوسط الطبيعي»(٢) فقال : « على حسب مافي الإقليم من جمال وروعة تكون شاعرية الأمة . . . وعلى حسب طلاقة الجو أو قطوبه تكون نفسيات الأمم والشعوب ، فإن كان الجو طلقاً ضحوكاً كان روح الأمة مفراحاً مَرِحاً . وإن كان الجو جهماً عبوساً كان روح الأمة داجياً مكتئباً » (٣) ولم يسلم رأيَ الشابِّي هذا من النقد والطعن عليه ، وقد كان الأستاذ المنجي الشملي محقاً عندما « رأى أن حكمه على الأدب القديم « حكم قاسي كأشد ماتكون القسوة ، حاد في غير مراعاة لظروف التخفيف » (٤) . وفي حقيقة الأمر هذا تحامل من الشابِّي لم يكن متوقعاً من شاعر غذي شعرُه بلبان الشعر الجاهلي ، ولو استقرأنا شعره لألفيناه عول على كثير منه ، فهذا التحامل لامبرر له إلا ماذكره الدكتور اليعلاوي من أن هناك دافعين أساسيين يمثلان نفسية الشابِّي ، ويكيفان شاعريته : الدافع الأول : هو الإعجاب المطلق بشعراء المدرسة الرومنطقية الغربية الذين كان وصف الطبيعة عندهم يسمى « الشعور بالطبيعة » بما في هذا المصطلح من معاني « الإحساس العميق ، والعاطفة الحادة ، ونظرة الحي الخاشع

---

(١) نفسه .

(٢) نفسه بتصرف .

(٣) نفسه بتصرف .

(٤) السابق بتصرف .

إلى الحي الجليل الذي يترنم بوحي السماء » . والدافع الثاني : هو الاعتقاد الراسخ بأنَّ هذه الطبيعة المؤلهة المعبودة ينبغي أن ينظر إليها نظرة التقديس والخشوع ، فهي أسمى من أن نقرنها بلذة البطن أو العين أو الفرج ، فالشاعر الذي يصف الروضة الغناء بمناسبة مجلس شراب مع ندمائه ، أو يذكر الشجرة فيشيد بثمارها وفاكهتها ، إنما ينتهك حرمة الطبيعة ، وينزل بها من علياء المعبد إلى حضيض المادية ، فعلينا أن ننزهها عن كل نظرة نفعية ، وحتى عن اتخاذها إطاراً مناسباً للفرحة والأنس .

وعلينا أن نتجنب وصفها بالطريقة التي نفصِّل بها مزايا الموصوفات العادية من حيوان ، كالناقة والفرس ، أو أوان كالكأس ، والأباريق أو مبان كالقُبة أو الإيوان ، فلا عجب والشروط هذه أن يَختم الشابِّي فصله بتفضيل قاطع لنظرة الغربيين إلى الطبيعة على نظرة العرب إليها . فتلك « رنة عميقة داوية » يمثلها « لامارتين » الفرنسي ، والألماني « جوته » و « أوسيان » السكتلندي ، وقد استشهد الشابي بفقرات طويلة من كلامهم ، وهذه « رنة ساذجة بسيطة » لأن العرب « كانوا ينظرون إلى الطبيعة نظرتهم إلى رداء منمق وطراز جميل » (١) ، وهذا مزلق خطير يتصل بعقيدتنا الإسلامية ، التي تنظر إلى الطبيعة على أنها أحد المخلوقات الكونية التي أوجدها الله ، وأمرنا بالتفكر فيها ، والتدبر لها في محكم تنزيله فقال عز من قائل : **﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لايات لأولي الألباب . ﴾**(٢) ، وقوله سبحانه : **﴿أفلم ينظروا إلى السماء كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج . والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج . تبصرة وذكرى لكل عبدٍ منيب . ونزلنا من السماء ماءً مباركاً ، فأنبتنا به جناتٍ وحب الحصيد . والنخل باسقاتٍ لها طلع نضيد . رزقاً للعباد وأحيينا به بلدةً ميتاً كذلك الخروج ﴾**(٣) .

---

(١) المصدر السابق ، ص ٣١٩ .

(٢) آل عمران ، آية (١٩٠) .

(١) سورة ق الآيات (٦ – ١١) .

وفي الحقيقة ليس من طبيعة موضوعي التعرض لهذه القضايا العقدية ، لكنني رأيت لزاماً علي ووفاء لديني أن أقف عندها بعد أن أيقظني بحث الدكتور اليعلاوي لها ، ولأن أغلب الدارسين يعزو السبب في وجود هذا المصطلح المسمى بشعر الطبيعة إلى الآداب الأوروبية ، وكان منطلقهم تأليه الطبيعة لأنهم تجاهلوا معرفة خالقهم ومنشئهم عز وجل ، وظلّ شعراؤهم ومفكروهم يتخبطون في بيداء مظلمة ، بسبب تلك المدرسة الرومنتيكية ، التي ظل الشابِّي بدوره « متشبعاً بمبادئها . . . ، وهي المدرسة التي شغلت أوروبا - من قبل - منذ مستهل القرن التاسع عشر » (١) . . وجعلتها عاجزةً عن تفسير مظاهر هذا الكون ، وربط الأسباب بالمسببات ، بل بلغ بهم من الوهم والجهل أن ربطوا نواميس الكون - مما جعله الله من آياته الدالة على وجوده - ربطوا ذلك بالعقل ، وربطوا مظاهر الطبيعة بما في مخيلة الشاعر من صخب ، وماتحمله روحه من يأس وقنوط ، وقد أُعجب الشابِّي بما في شعر هؤلاء - أمثال « أوسيان » و « جان جاك روسو » ومن قبل « لامارتين ، وجوته » - من روح قانطة « تلك الروح الكئيبة . . . التي تتفاعل مع الطبيعة العاصفة القاتمة ، ويلذ لها أن تجد في الغيوم المخيمة على البحيرات المظلمة ، والغابات الكثيفة الواجمة ، والرياح الهوجاء ، والرعود المدوية ، صدىً لآلام الشاعر وتعاطفاً مع أحزانه » (٢) .

ويؤكد الدكتور اليعلاوي إعجاب الشابِّي بما ورد عن شعراء هذه المدرسة عندما أورد نصاً منسوباً إلى « أوسيان » الشاعر القاص ، واعتبره نموذجاً لعبقرية غير موجودة في شعراء العرب ، يقول في هذا النموذج : « هبي يارياح الخريف هبي ، واعصفي فوق سهول الخلنج العابسة واصدمي أيتها العواصف رؤوس السنديان ! ، ودوي ياسيول الغابة وتقدم أيها القمر خلال الغيوم الممزقة ، واحسر

---

(١) معجم المصطلحات العربي في اللغة والأدب ، مجدي وهبة وكامل المهندس ، مكتبة لبنان ، ١٩٨٤م .

(٢) أشتات في اللغه والأدب والنقد ، ص ٣٢٠ - ٣٢١ .

عن وجهك الشاحب فترة بعد فترة ، وأعد إلى ذاكرتي تلك الليلة المروعة ، ليلة دعا داعي الموت ولدي فسقط . . . » (١) ، فهذا نمط ملأ عين الشابي اعجاباً ، وجعله يتحامل على القدماء ينظر إليهم « بمنظار الرومنطيقية » (٢) وقد دعاه إلى الموازنة بين أدبين بعدت بينهم النجعة « الأدب العربي القديم ، والأدب الأوروبي الحديث » . انطلق في تلك الموازنة – التي انحاز فيها انحيازاً تعسفياً إلى ما أعجب به – انطلاقاً ينمُّ عن « ضيق إحاطة بمختلف وجوه شعر الطبيعة في الأدب العربي»(٣) .

ومصطلح شعر الطبيعة في الأدب العربي كما يقول الدكتور نوفل : «اصطلاح طريف . . . دخل إليه من الآداب الأجنبية ، لكن هل يلتقي رأي الدكتور نوفل برأي الشابي ويؤيده أم يخالفه ؟؟ ذلك ماسنعرفه من خلال عرض آرائه .

الذي يبدو من كلام الدكتور نوفل أنه يعتبر المصطلح هو الجديد ، أما الشعر فهو موجود في أدبنا القديم منذ نشأته ، ولذلك يقول : « فمن الخير الإلمام بمعناه عند الغربيين ، في غير قصد إلى إكراه الأدب العربي على الخضوع لمقاييس أجنبية ، أو تعريف فنٍ من فنونه بما ليس من طبيعته ، ففي هذا القصد خطرٌ على البحث الفني ، ومباعدة بين الفن وتاريخه من ناحية وبين حاضره وماضيه من ناحية أخرى . لكن الفن العربي إذا استطاع مسايرة الفنون العالمية ومشاركتها المعايير والمقاييس في غير عناء ولا عنت كان ذلك عوناً له وللمشتغلين به من نقاد وأدباء ، على التبريز وبلوغ

---

(١) نفسه ، ص ٣٢١ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٢١ .

(٣) من مقال للأستاذ المنجي الشملي نشر بمجلة الفكر سنة عدد ٨١ « ٧ ابريل ١٩٦٦م » بعنوان «الخيال الشعري عند العرب ، عقيدة أدبية واجتماعية ، سياسية » وذكره اليعلاوي في أشتات اللغة والأدب والنقد ص ٣١٩ هامش ١ .

الكمال . . . فالإفادة من تجارب الغير لازمة مادامت طبيعة البيئة والحياة الخاصة مرعية ، ومادام تقدير العوامل المختلفة في نمو الفنون والآداب ملحوظاً . . »(١) .

وأكد الدكتور نوفل بأن هذا الاصطلاح ليس قديماً في الآداب الغربية وإنما أطلقه النقاد على الشعر الذي ساد لأواخر القرن الثامن عشر في حركة «الرومنتسزم» وكان من أهم مظاهرها . » ، وهي : تفيد معنى الديمقراطية في الأدب بعد الارستقراطية فيه ، أو بدء السيادة العقلية للفرد وزوال العبودية أو كما قال فكتور هوجو « الحرية في الأدب » (٢) . وذلك يعني التبرم بما ورثوه عن القدماء في العصر الكلاسيكي الذي من سماته العبودية ، وكان شعره لايخرج عن « سنن القدماء من يونان ولاتين » (٣) ، ولقد اتهم بـ«ضيق الخيال ، وخمود العاطفة ، وتمثيل المدنية والطبقات بآدابها وجدلها وسياستها والبعد عن تصوير العامة ، والمشاهد الريفية ، ونبذ كل مايتصل بالعصور الوسطى من آداب وفروسية ، وحماسة دينية ، ثم كانت إلى جانب هذه المميزات العامة في الأدب الأوروبي مميزات خاصة ببعض البلاد » (٤) . وأبرز شعراء الطبيعة كان منطلقه تلك الحرية التي نادى بها أصحاب حركة « الرومنتسزم » فـ« كيتس » Keats شاعر الطبيعة يصيح قائلاً « يجب أن تحرر عبقرية الشعر نفسها ، فهي لاتستطيع بلوغ الكمال بقانون وسنن ، بل بالشعور ، والملاحظة الذاتية ، والمبدع يجب أن يبدع نفسه»(٥) . وظل شعر الطبيعة متصلاً بالمدرسة الرومنسية يسير معها جنباً إلى جنب لأن شعراء أمثال « وردزورث » شاعر الطبيعة اعتبروا الريف ميداناً فسيحاً لحرية العمل . . . ونمو العواطف الانسانية ، وكانت متصلة بماضيها اتصالاً وثيقاً ،

---

(١) شعر الطبيعة في الأدب العربي ، د. سيد نوفل ، دار المعارف بمصر ، ط ٢ ، ص ١٧ .

(٢) نفسه ، الصفحة نفسها .

(٣) نفسه ص ١٧ .

(٤) نفسه ص ١٨ .

(٥) نفسه ص ١٨ .

«بل كانت في الواقع إحياءً له ، ولهذا قالوا : « بعث الماضي الرومانتيكي » و «إحياء شعر الطبيعة » . . » (١) .

ومن الأشعار التي اهتموا باحيائها مما له صلة بمبدأ الحرية ، وصدق العاطفة تلك الأشعار « الطبيعية القديمة التي تتغنى بالريف وحياة الراعي ، وتردد أغاني البلابل في الربيع ، وتصف الجبال والضباب والسحاب » (٢) .

وبعد كل هذا ألا يجدر بشعرنا العربي أن يتمسك بآثاره القديمة منذ الجاهلية ولاسيما شعر الطبيعة ، وكيف يعاب على شعرائنا التقليد والاتباع لماضيهم بينما شعراء الرومانتيكية يفخرون بماضيهم ، ويرجعون أصالة شعر الطبيعة عندهم إلى «أقدم الآثار اليونانية »(٣) فكما يؤكد الدكتور نوفل أن « هناك قطعاً قديمه مجهولة المنشأ تمثل الطبيعة فتانة بزهرها ومائها تفيض على الكون والحياة . . . وقد شهد « جوته » لليونان شهادة قاطعة في هذا الباب إذ قرر أن الطبيعة قد بلغت أبهى الجمال في أدبهم ، وأعجب « كيتس » شاعر الطبيعة بأدبهم إعجاباً كبيراً ، بل كان شعراء الطبيعة كـ « شلي » ، وسوينبرن ، وأرنولد ، يستمدون وحيهم من اليونان . »(٤) . وهكذا يبرز شعر الطبيعة في الآداب العالمية على أنه « قسمة بين جميع العصور » (٥) .

على أننا نحن في منظورنا لشعرنا العربي ، ولشعر الطبيعة منه على وجه الخصوص لا نطالب الشاعر أن ينطلق في شعره من منطلق الرومانسيين الذين

---

(١) ص ١٩ .

(٢) ص ١٩ .

(٣) ص ١٩

(٤) ص ٢٠ .

(٥) ص ٢٢ .

أفرطت الحساسية في نفوسهم ، وتبرموا بما ورثوه من العقل والحكمة حتى أحاطت بهم أزمات « الارادة والقلق والإفراط في الاهتمام بالذات وحدة الانفعالات والرغبة في الهروب من الواقع الحاضر » (١) وكما هو معروف من سمات ذلك المذهب الثورة على المباديء الموروثة كما ثار « فرردريك شليجل » على مباديء «أرسطو» ، وكما ثار «كولردج ، وورودزورث» (على الأوضاع الارسطوطالية الشائعة في الأدب الانجليزي . . . ، مما أدى إلى « تحرير الشعر من القوافي الجامدة ، ومن الافراط في استعمال المحسنات البلاغية وجعل الأدب أداة للتعبير عن نفسية الكاتب تعبيراً صادقاً ، والاهتمام بالطبيعة الخارجية في الوصف الشعري . . . وقد أثرت هذه النزعة الرومانتيكية في أدباء العرب في العصر الحديث ، وثاروا على تقاليد الوزن والقافية وظهر ذلك في كتابات المازني ، وشعر أحمد رامي ، وعلى محمود طه ، وغيرهم(٢) .

ولا أود الاطالة في هذه القضايا ، وإنما وجدتني مضطراً للوقوف عندها لما ألمسه من الهجوم على شعراء العربية الذين اقتفوا أثر شعرائهم السابقين من الجاهليين وغيرهم ، اعتزازاً بذلك الموروث العتيق ، الذي انتقل إليهم عبر العصور .

وشعر الطبيعة في الأدب العربي متصل بحياتهم الريفية والرعوية ، في الجزيرة العربية ، وغيرها من البيئات المجاورة ، فـ « المأثور من الأدب المصري القديم وهو من أقدم الآداب المأثورة ، يبين أن أصول شعر الطبيعة موجودة في أقدم فنون الشعر المصري ، فقد حفل ذلك الأدب في عصره الأول ببذور شعر الطبيعة ، كان الرعاة المصريون يسوقون الأغنام ، عقب الفيضان فوق التربة اللينة لتحرث الأرض

---

(١) معجم المصطلحات العربية .

(٢) المصدر السابق .

بحوافرها الحادة ، وينشدون في ذلك الأناشيد المطردة ، وكان صيادو السمك يغنون وهم يشدون الشبكة من الماء ، بما يشبه حداء الإبل عند العرب الجاهليين من بعد . . » (١) .

كيف تناول شعراء العربية وصف الطبيعة

انطلق الشاعر الجاهلي من بيئته ، فأخذ يصف حياته من خلالها ، ونمط القصيدة العربية المعروف ، يؤكد صلة الشاعر بالطبيعة حيةً أو صامته ، وإذ قد عرفنا أن شعر الطبيعة وصف ، فإن هذا الأمر سيحيل جميع الأغراض إلى أوصاف تتصل بحياة الشاعر ، وحياة من يحيطون به ، « فالمديح وصف لمحاسن الناس ، والهجاء وصف مساويهم ، والنسيب وصف جمال المرأة ، وما يثيره في النفس من عاطفة . . » (٢) وهكذا يبدو الشعر العربي في أغلبه وصفاً ، وإن كان هذا المسلك لا ينفي وجود غرضٍ منفرد لفن الوصف بعيداً عن الأغراض الأخرى .

ووصف الطبيعة بخاصة كان وثيق الصلة بحياة الشاعر العربي القديم ، فلم يكن أمامه إلا هذه الطبيعة « يتأمل فيها ويبثها آلامه ، وينسى عندها أحزانه . . . ويصورها كما امتثلتها نفسه ، تثير الأطلال شجونه ، وتملك عليه الناقة والبعير والفرس فؤاده ، وتستهويه الصحراء بحيوانها ، ورمالها . . . وآبارها ، وواحاتها، ونجومها ، وبرقها ، ومطرها . » (٣) .

ومن دراستنا لحياة بعض الشعراء في مجالسهم وأنديتهم كانوا يتبارون بأحسن أوصافهم ، في مظاهر الطبيعة ، روت بعض المصادر أن عبيدَ بن الأبرص(٤) لقي أمرأ القيس ، فقال له عبيد : كيف معرفتك بالأوابد ؟ فقال ألق

---

(١) شعر الطبيعة ، د. سيد نوفل ، ص ٢٥ .

(٢) التوجيه الأدبي ، طه حسين وآخرون ص ١٨٢ .

(٣) شعر الطبيعة ، نوفل ، ص ٢٤ .

(٤) بدائع البدائه ، لعلي بن ظافر ، ت أبوالفضل ابراهيم ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٧٠م، ص ١٣ .

ماأحببْت ، فقال عبيد :

مـاحـبّـةٌ . مَـيْـتَـةً أحيت بِميّـتِـهـا   دَرْدَاءَ مـا أنبـتتْ سنّاً وأضْـراسَـا

فقال امروء القيس :

تلك الشعيرة تُسْقَى في ســـنابلها   فأخرجتْ بعد طُولِ المكثِ أكداسَا

فقال عبيد :

ماالسُّودُ والبيضُ والأسماءُ واحدةٌ   لايســـتطيعُ لهنّ النّاس تَمْسَاسَا

فقال امرؤ القيس :

تلك السَّحابُ إذا الرّحمن أرســلها   روَّى بها من مُحُولِ الأرض أيبَاسَا

فقال عبيد :

مامُرتجاةٌ على هـــوْلٍ مراكبُهـــا   يَقْطَعْنَ طولَ المدى سيراً وإمرَاسا

فقال امرؤ القيس :

تلك النجوم إذا حانت مطالعهـــا   شبهتها في سواد الليل أقبـاسا

فقال عبيد

ما القاطعاتُ لأرضٍ لا أنيسَ بهـــا   تَأْتي سراعاً وما ترجعَن أنكاسا

فقال أمرؤ القيس :

تلك الرياحُ إذا هبّتْ عـواصـفُهـا   كفى بأذْيالِها للتُّرْبِ كَنَّاسـا

يدلك هذا على قوة سيطرة البيئة على الشاعر العربي ، ومدى استمداد صوره الشعرية ، بل مادته الأساسية من بيئته الطبيعية . فالشاعر إذا وقف بالأطلال فإنما يستعين بهذه الطبيعة على عواطفه ، كيما يستطيع إخراجها في قالب شعري

غذاه بخياله الواسع ، وإذا امتدح انساناً بالكرم ربط ذلك الجود بجود الطبيعة كأن يصفه بالبحر أو النهر ، كما فعل النابغة الذبياني عندما مدح النعمان بن المنذر – في معلقته المشهورة – بقوله : (١)

فما الفراتُ إذا جاشتْ غواربُه ترمي أُواذِيُّه العَبْرَين بالزبَدِ
يمدُّه كلُّ وادٍ مُترعٍ لَجِبٍ فيه ركامٌ من الينبوتِ والخَضَدِ

وإذا وصف ممدوحه بالشجاعه ربطه بصفة الأسد كما قال زهير : (٢)

فشدّ ولم تفزعْ بيوتٌ كثيرةٌ لدى حيثُ ألقتْ رَحْلَها أمُّ قَشْعَمِ
لدى أسدٍ شاكي السلاحِ مُقَذّفٍ له لِبَدٌ أظفارُه لم تُقَلَّمِ

وإذا وصف صاحب الخلق الحسن المتحلى بآداب وشيم اكتسبها من مؤدبه القائم على شئونه ، استعار له صورةً من الطبيعة ، كما قال صالح بن عبدالقدوس : (٣)

وإنَّ مَنْ أَدَّبْتَهُ في الصِّبا كالعودِ يُسقى الماءَ في غرْسه
حتى تراه مُونِقاً ناضراً بعد الذي أبصرتَ من يُبْسِه

قال الخطيب القزويني : « فإن تشبيه المؤدَّب في صباه بالعود المسقي أوان غرسه فيما يلزم كل واحد من كون المؤدب في صباه مهذب الأخلاق ، حميد الفعال لتأديبه المصادف وقته ، وكون العود المسقي أوان غرسه مونقاً بأوراقه ونضرته لسقيه المصادف وقته من تمام الميل وكمال الاستحسان بعد خلاف ذلك»(٤) .

---

(١) ديوان النابغة الذبياني ، شرح وتقديم عباس عبدالساتر ط ١ ، بيروت ، ١٤٠٥هـ .

(٢) الإيضاح للقزويني ، ت عبدالمنعم خفاجي ، ص ٣٧٢ .

(٣) نفسه ص ٣٧٢ .

(٣) الايضاح ، ص ٣٧٢ .

ومن أبلغ ما جاء في ذلك - مما يؤكد ربط الشاعر صوره الشعرية بما يشاهد من مظاهر بيئته - ، قول أبي تمام : (١)

صَدفْتُ عنه ولم تَصْدِفْ مواهبُه عنِّي ، وعاوده ظَنِّي ، فلم يخِبِ
كالغيث إن جئته وافاك رَيِّقُه وإن تَرَحَّلْتَ عنه لجَّ في الطلبِ

وإذا افتخر الشاعر لم يخرج في وصفه نفسه عما ألفه في بيئته فطرفة بن العبد عندما فخر بنفسه قال :(٢)

أنا الرجلُ الضربُ الذي تعرفونَه خشاشٌ كرأسِ الحيةِ المُتَوَقِّدِ

والوقوف بالأطلال نموذج حي لارتباط الشاعر بالطبيعة الحية والصامته في آن واحد ، فالشاعر عندما يصف الأطلال الداثرة ، يستعين بمشاهد الطبيعة في تصويرها ، فنجد قصيدته هي عبارة عن رحلة يمر فيها بمسميات عبر صحراء قاحلة، يجسدها خياله واقعاً ينبض بالحياة ، فالمرقش الأكبر عندما وصف رحلته قال :(٣)

ودويةٍ غبراءَ قد طال عهدُها تَهالكَ فيها الوردُ والماءُ ناعسُ
قطعتُ إلى معروفِها مُنكَرَاتِها بعَيْهَامةٍ تَنْسَلُّ والليلُ دامسُ
تركتُ بها ليلاً طويلاً ومنزلاً وموقدَ نارٍ لم تُرِمْهُ القوابِسُ
وتسمع تِزْقاءً من البُوم حَوْلَنا كما ضَرَبَتْ بعدَ الهدوءِ النواقِسُ

فتأمل حاله في هذه البيداء القفر والإبل تسرع الخطو ، في غياهب الليل

---

(١) ديوان أبي تمام ١/ ١١٣ .

(٢) أشعار الشعراء السته الجاهليين ، للأعلم الشنتمري ، ٢/ ٥٤ .

(٣) المفضليات ، بعناية كارلوس يعقوب لايل ، مطبعة الآباء اليسوعيين ، بيروت ، ص ٤٦٤ - ٤٦٥ .

الدامس ، لايسمع فيها إلا صياح البوم من حوله وهي تنعق نعيقاً متقطعاً كجرس النواقس .

ثم يجلس هنيهة ليرتاح من عناء هذه الرحلة وسط السكون الهائل . . . ويتناول شيئاً من الطعام ، فيشعل النار في مكان غير آهل بالبشر ، ويشرع في شواء مانحره من حيوان ، ويأتي الذئب على رائحة الشواء يلتمس فضلاً منه فيلقى إليه المرقش قطعة من شوائه ، فيعود بها الذئب جذلان فرحاً كأنه فارس عاد بغنيمته(١)، ووصف الذئب ورد كثيراً في الشعر العربي ، وهو نموذج حيٌّ لشعر الطبيعة ، في الشعر الجاهلي ، وهو ليس وصفاً مجرداً لتصوير هيئة الذئب بل يشكل نمطاً من التعامل مع هذا الحيوان ، ومخاطبته كأنه إنسان يفهم مايقال ، فتراه يمد يده طالباً من الشاعر العطف عليه ، فينبذ إليه قطعة من اللحم مستحيياً منه أن يردها فارغة ، مكبراً فيه شجاعته التي ادخرها - كما يدخر الشجاع - قدرته وبأسه - لوقت حاجتها ، يقول :(٢)

ولما أضأنا النار عند شوائنا عرانا عليها أطلس اللون بائسُ

نبذت إليه حزة من شوائنا حياء وما فحشى على من أجالس

فآض بها جذلان ينفض رأسه كما آب بالنهب الكمي المجالس

فهنا يبرز التفاعل مع الطبيعة ، يستمد الشاعر منها صوره ، ومادته الشعرية حتى إنه يكاد لايدع حيواناً أو مشهداً دون أن يصوره ويشبهه بأشياء في بيئته تقع عليها عينه أو تتلمسها يداه ، ولو أخذنا الناقة - مثلاً - لوجدنا الشعراء

---

(١) ينظر ديوان بني بكر في الجاهلية ، دكتور عبدالعزيز نبوي ، ص ٢٨٩ .

(٢) ديوان المفضليات بعناية كارلوس يعقوب لايل ، مطبعة الاباء اليسوعيين ، بيروت ، ١٩٢٠ ، ص ٤٦٢ ، وكذلك المصدر السابق ص ٢٨٩ .

يبدعون غاية الابداع في وصف كل شيء فيها حساً ومعنىً ، فعندما يمتطي ظهرها ، ويشق طريقه عبر الصحراء ، تبدأ هذه النّاقة في إرسال زفراتها ، فيقف الشاعر رأفةً بها ، ثم تداعى في نفسه معاني الغربة ، والحنين إلى الديار ، ويشعر بالوحشة ، وليس له أنيس إلا هذه الناقة تنسيه همومه وآلامه في رحلته ، يقول طرفه بن العبد : (١)

وإني لأُمْضِي الهمّ عندَ احتِضَـارِه ... بعوجاءَ مِرْقالٍ تروحُ وتَغتَدِي
أَمونٍ كألواحِ الإران نسأتُها ... على لاحبٍ كأنه ظهرُ بُرْجدِ
جماليةٍ وجناءَ تُردِي كأنَّها ... سفنْجةٌ تَبْري لأزعرَ أربدِ

فالشاعر هنا يصف الناقة لأنها شيءٌ ثمين في حياته « وهي عنده من أعظم المخلوقات التي يتعامل معها ، لما تقدمه إليه من خدمة وخير » (٢) .

ولم يقف وصف الناقة عند الناقة لذاتها ، بل الأمر أعم من ذلك ، فكان للإبل مكانة كبيرة عند العرب ، لأنها وسيلة لنقل أمتعتهم ، وأنيسة لهم في أسفارهم بحنينها الذي ارتبط بالشعر العربي الذي قال عنه المصطفى (ﷺ) مامعناه « لن تدع العرب الشعر حتى تدع الإبل الحنين » ، قال أبو العلاء المعري : « والإبل أكثر أفتناناً في الأصوات ، لأن من أصواتها الحنين ، والأصيط ، والسجع ، والتحوب والعجيج والجرجرة والهدر وأصنافه وهي : الفحيح والكتيت ، والكشيش والقصف والقرقرة والزغد ، والشحشحة والقلخ من أصواتها الرغاء والبغام » (٣) ، ولابد لهذه الأصوات من معان سامية في نفس الشاعر عندما يمتطى هذه الراحلة . وقد صاحبت الناقة الشعر العربي عبر تاريخه الطويل ، فكما وصفها

---

(١) أشعار الشعراء الستة الجاهليين ، ص ٤٢ ، ٤٣ .

(٢) الوصف في مدرسة عبيد الشعر ، ص ١١٦ .

(٣) الحيوان في الأدب العربي ، شاكر هادي شكر ، عالم الكتب ، ط١/ ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م ، ص٥١ .

طرفة وعدّه النقاد أبلغ وصاف لها، وصفها من المحدثين كثر، منهم ابن المعتز، وديك الجن (عبدالسلام بن رغبان) وأبو عبادة البحتري ، وابن حمد يس ، وقبلهم ذو الرمة والأخطل وعمر بن أبي ربيعة ، وأغلب هؤلاء ربط وصف الناقة برحلته الوجدانية في عالم الحب فهو يناجيها ليبثها مشاعره وأحاسيسه ، ولينفس عن شوق برح به ، وكذلك وصف الخيل ، وغيره من سائر الحيوان الذي يعتز به العربي ، وقد اشتهر بعض الشعراء الوصافين بنوع دون آخر من هذه المخلوقات وبرزوا في وصفها ، يقول الأستاذ مصطفى صادق الرافعي : « أما مشاهير الوصافين في تاريخ الأدب جاهلية وإسلاماً ، فهم وإن كانوا يجيدون أكثر الأوصاف ، لكنهم اشتهروا بأنواع غلبت عليهم الإجادة فيها ، فاشتهر من نعات الخيل امرؤ القيس ، وأبو دؤاد ، وطفيل الغنوي ، والنابغة الجعدي ، ومن نعات الإبل طرفة ، وأوس بن حجر ، وكعب بن زهير والشماخ ، وإن كان أكثر القدماء يجيدون وصفها لأنها مراكبهم ، وكان عبيد بن الراعي النميري أوصف الناس لها، ولذلك سمي راعياً ، وأما الحمر الوحشية والقسي والنبل ، فأوصف الناس لها الشماخ ، ولقد أنشد الوليد بن عبدالملك شيئاً من شعره في الحمر فقال : ماأوصفه لها ! إني لأحسب أن أحد أبويه، كان حماراً . . . . . واشتهر أبو نواس وابن المعتز أيضا بصفة الصيد والطرد . . . وكان ذو الرمة أوصف الناس لرمل وهاجرة ، وفلاة وماء ، وقراد وحية ، . . . وقد اشتهر بوصف الطبيعة الوحشية أيضاً عبيد بن أيوب العنبري ، وكان نافراً من الإنس جوالاً في مجهول الأرض فاستغرق ذلك شعره » (١) .

وهكذا كان وصف الطبيعة آخذاً بلب الشاعر العربي فهو يصف النبات والسماء والنجوم ، والسهول والوديان ، والغيث والرياح ومايشاهده من مخلوقات حية ، لأنها سر شاعريته ، وهي التي تمده بالصور والأخيله وهو يستريح لها ويأنس بها ، بعيداً عن الاحن والنزعات القبلية ، فهي المخرج والمتنفس من

---

(١) تاريخ آداب العرب ٣/ ١٢٤ .

ضيق الحياة وعنائها ، فنجد شاعراً عشق مظهراً من مظاهر هذه الطبيعة حتى أصبحت شغله الشاغل ، والمستولية على شعره كذي الرمة الذي عشق الصحراء وأخذ يتأمل طولها وعرضها وماحوته من وحوش ، ومن نبات ، وأخذ يصف حياتها فيها وهو يعبرها فيسمع « أصوات الفلوات إذا جن الليل ، أصوات أصدائها التي تتجاوب فيها ، وماكانوا يتوهمونه من جنٍ وغير جن » (١) . فيرسل صوته قائلاً :

وَدَوِّيَّةٍ مثلَ السماءِ اعْتَسَفْتُها وقد صبَّحَ الليلُ الحصى بسوادِ
بها من حَسِيسِ القفر صوتٌ كأنه غناءُ أناسي بهٍ وتَنَادِي
إلى أن يَشُقَّ الليلَ وردٌ كأنه وراءَ الدُّجى هادى أَغَرّ جوادِ(٢)

وهو يعشق الصحراء أشد من عشقه لمية حبيبته التي يتغزل بها دائما في شعره إلا أن عشقه للصحراء طفا على سائر شعره « وكأنما كان يرى في الصحراء إطار مية فأحبها كما أحب ميه » (٣) .

هذا ويعتبر ذو الرمة صاحب مذهب منفرد في هذا الجانب ، يقول الدكتور شوقي ضيف : « وذو الرمه في هذا الجانب فريدٌ في الشعر العربي القديم ، حقاً الشعراء من قبله ومن حوله كانوا يصفون الصحراء ، وكل مافيها ، ولكن ذا الرمة انفرد منهم بعشقه لها ، فهو يصفها لا وصف الشاعر الذي يشاهدها ويعجب بها ، ولكن وصف الشاعر الذي يندمج فيها ويغني » (٤) . وهو عندما يصف الصحراء ومابها من حيوان ، يصف حياة هذا الحيوان ، حركاته ، تنقلاته ، فعندما يصف الظبية فيقول :

---

(١) التطور والتجديد في الشعر الأموي ، د. شوقي ضيف ، دار المعارف بمصر ، ط ٥ ، ص ٢٥٠ .

(٢) الديوان ص ٢٨٥ .

(٣) التطور والتجديد ص ٢٥٠ .

(٤) نفسه ص ٢٥٠ .

إذا استَوْدَعَتْهُ صَفْصَفاً أو صَرِيمَةً ... تَنَحَّتْ وَنَصَّتْ جيدَها بالمناظرِ
حِذاراً على وَسنانَ يصرَعُهُ الكَرى ... بكُلِّ مقيلٍ عن ضعافٍ فواترِ
وَتهجُرُهُ إلا اختِلاساً نهارَها ... وكم من محبٍّ رهبةَ العينِ هاجرِ
حذارَ المنايا رَهْبَةً أن يفُتْنَها ... به وَهْيَ-إلا ذاك-أضعفُ ناصرِ(١)

نلمس أنه يدرك عاطفتها على صغيرها ، وحتى تتركه برهة ، وترقبه من بعيد وإن زارته في خلسة من النهار ، تظل ترقب الوحوش لئلا تعدو عليه فتلتهمه وهذه المعايشة لحيوان الصحراء جانب لم يسبق إليه ذو الرمة لأنك تجده يتحدث عن الظبية وكأنه يستشعر مابداخلها من عاطفة قوية تجاه وليدها ، ولذلك فإن ذا الرمة يرسم لنا لوحات ناطقة قلّ أن نجدها في شعر غيره ، يصور فيها شيئاً استكنهه بنفسه من حياة هذا الحيوان من صفات لاتوجد في حياة غيره من المخلوقات .

فهذا الشاعر نذر شعره لوصف الطبيعة صامته ، وحية ، وقد جذب الشعراء من معاصرين له ، ومتأخرين عنه إلى تقليده ، والاهتمام برواية شعره ، وشرح بعض قصائده ، ولا أدلّ على ذلك من شرح الصنوبري شاعر الطبيعة المعروف في العصر العباسي لها ، فقد استهوته بائية ذي الرمة المشهورة التي يقول فيها : (٢)

مابَالُ عينِك منهَا الماءُ ينسَكِبُ ... كأنّها من كُلىً مَفْريَّةٍ سَرِبُ
والعيسُ من عَاسِجٍ أو واسجٍ خَبَباً ... يُنحَزْن من جَانِبَيْها وهي تَنْسَلِبُ
لاتشتَكِي سَقْطَةً منها وقد رَقَصَتْ ... بها المفاوزُ حتَّى ظهرُها حَدِبُ
كأنّ رَاكِبَها يَهْوَى بِمُنخَرَقٍ ... من الجنُوبِ إذا مَارَكْبُهَا نَصَبُوا...

---

(١) الديوان ٣/ ١٦٧٤ .

(٢) شرح بائية ذي الرمة ، لأبي بكر احمد بن محمد الصنوبري ، ت د. محمود مصطفى حلاوي ، مؤسسة الرسالة ، ط ١ ، ١٤٠٦هـ ، بيروت ، ص ٥٣ .

والقصيدة كما هو معروف من عيون الشعر العربي في فن الوصف ، فهاهو يصف العيس ، في وسط الصحراء ، ومايعتريها من النصب والتعب وشدة العطش ، الذي تصبر عليه ، ومع ذلك فهي مستمرة في سيرها مسرعة في عدوها لاتشتكي سقطةً ولا فترة مع أنها « قد هزلتها المفاوز طول سيرها حتى احدودبت من الهزال . » (١) ، وهي في الحقيقة مزدحمة بما في الصحراء من صور وحيوان وهاجرة ، وكل مايشاهد في الصحراء ، يؤكد عشقه وحبه لهذه الصحراء ، وهذه القصيدة لها مكانة كبيرة في نفوس معاصريه ، تشير المصادر أن هشام بن عبدالملك كان معجباً بها حتى أنه قال : « لو أدركتها العرب في الجاهلية لسجدت لها » (٢) ، وكانت من أحب الشعر إلى صاحبها ، روى أنه قال « من شعرى ماطاوعني فيه القول وساعدني ، ومنه ماأجهدت نفسي فيه ، ومنه ماجننت به جنوناً ، أما ماجننت به جنوناً فقولي : مابال عينك منها الماء ينسكب » (٣) .

ولذلك لا غرابة أن يتوفر شاعرٌ من أبرز شعراء الطبيعة على شرحها ، ولابد لها من التأثير على شعره ، فيما بعد ، وقد تحدث المحقق عن اهتمام الصنوبري وغيره بهذه القصيدة فقال : « ولم يكتف العلماء والمعجبون بشرح القصيدة البائيه ضمن الديوان بل أفردوا لها في قراطيسهم وذاكراتهم حيزاً خاصاً كالذي أفردوه في نفوسهم وقلوبهم . . . وهاهو ذا الصنوبري الشاعر ينبري لهذه القصيدة بعد أن قرأها على أبي الحسن علي بن سليمان الأخفش ، فينظر فيما فسر العلماء من غريبها ، ويقتصر منه على ماليس بالقصير المخل ، ولا الطويل الممل ، ثم يخلطه بشيء من تفسير المشكل من معانيها وإعرابها ، وكأنه بهذا لم يكتف

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٥٤ .

(٢) ديوان ذي الرمة ، ت/ عبدالقدوس أبوصالح ١/ ١٥ .

(٣) نفسه ، الصفحة نفسها .

بقراءتها على الأخفش بل أراد أن يدلو بدلوه فيها ، ويكون له حظٌ في تفسير المشكل من معانيها واعرابها ، وينفرد شرح الصنوبري للبائيه بقيمة خاصة تميزه عن باقي الشروح التي قام بها العلماء من رواة ولغويين ، فالصنوبري شاعر ، يشرح قصيدة شاعر آخر وينظر إليها لا بعين العالم الناقد ، واللغوي والمفسر ، فحسب ، بل يضيف إلى كل ذلك إحساسه الشعري ، ومشاركته خاصية الشاعر صاحب القصيدة ، وهذا مايجعل شرحه ذا نكهة خاصة . » (١) .

ولا يقتصر حب ذي الرمة للطبيعة وعشقه إياها على هذه القصيدة فحسب بل هناك قصائد أخرى استوقفت النقاد ، والدارسين ، وليس المجال مجال حصر لهذه الآراء ، وإنما أردنا أن نتعرف على منهج شاعر انفرد به دون سائر الشعراء في عصره مع أنه « يكاد يكون منسياً » (٢) ، وكان يمكن أن يكون في دراسة شعره مجال للرد على بعض المتهمين لشعر الطبيعة في الأدب العربي بالقصور ، وأنه مجرد وصف للمتع واللذائذ التي يأتيها الشاعر من خلال الطبيعة ، دون أن يتأمل فيها ، وينفعلَ بما يشاهده من مظاهر حية تصنع من الشاعر مفكراً مبدعاً ينقل المتلقي إلى عالم آخر يحلم به كلما وقف عند جانب من جوانب شعره ، وهذه لاتتأتى إلا لشاعر يحس بمظاهر الطبيعة ، كما رأينا ذلك في شعر ذي الرمة الذي « أقبل على ألوان الطبيعة وصورها في الشعر العربي فامتثلها امتثالاً ، ثم أداها في صدق وانفعال ظاهرين ، فبدت جديدة ممتلئة حياةً ونشاطاً ، تملك على القاري حسه وتستوليَ على شعوره ، لكنه يأخذ في تحليلها بعد تأثره وإعجابه بها » (٣) .

---

(١) شرح بائية ذي الرمة ص ٢٩ - ٣٠ .

(٢) فن الشعر ، إحسان عباس ، ص ٢١٩ .

(٣) شعر الطبيعة ، د. نوفل ، ص ١٥٠ .

وصف الطبيعة في العصر العباسي

من المعروف أن العصر العباسي هو عصر التجديد بكل ماتحمله الكلمة من معان ، وقد بلغ فن الوصف على أيديهم شأواً كبيراً خرجوا فيه عن القدماء إلى معانٍ وموضوعات لم تكن معهودة من قبل نظراً لما شهده العصر من حياة متحضرة غيرت الأذواق وأنماط التفكير ، وإن كانت أوصافهم في الغالب لم تخرج تماماً عما ورثوه من الجاهليين والإسلاميين ، وهكذا تكون سنة التجديد تنطلق غالباً من الموروث القديم ، وهذا مايؤكده الدكتور شوقي ضيف بقوله : «ظل العباسيون ينظمون في الموضوعات القديمة من المديح وغير المديح مما كان ينظم فيه الجاهليون والإسلاميون ، وبذلك أبقوا للشعر العربي على شخصيته الموروثة ، وقد مضوا يدعمونها دعماً بما لاءموا بينها وبين حياتهم المتحضرة المرهفة ، فإذا هي تتجدد من جميع أطرافها تجدداً لايقوم على التفاضل بين صورة هذه الموضوعات الجديدة ، وصورتها القديمة ، بل يقوم على التواصل الوثيق » (١) .

والأدب الجاهلي على وجه الخصوص انفرد بقوة التأثير على مسار الأدب العربي بصفة عامة ، وهذا ماذهب إليه الدكتور مصطفى ناصف حيث يقول : «إن دراسة الأدب الجاهلي عمل ممتع ، لأن الأدب الجاهلي أكثر الآداب تأثيراً في مجرى الأدب العربي . لقد مر الأدب العربي بحيوات مختلفة نسميها بأسماء ذات طابع تاريخي فنقول إسلامي وأموي وعباسي وحديث ومعاصر ، قد يكون الأدب متجاوباً مع الظروف المختلفة التي أحاطت به أو متفاعلاً معها ، وهذه سنة من السنن المعهودة لا غرابة فيها ، وقد تلاحظ وجود تطور خاص في حياته ، وما اختلف عليه من سمات ، ولكن الأدب العربي - مع ذلك - ذو صفة ثابته ، وذو أصالة عريقة ، وهذه الأصالة أو الثبات من المقومات المهمة التي يلاحظها بعض الباحثين »(٢) .

---

(١) العصر العباسي الأول ص ١٥٩ .

(٢) قراءة ثانية لشعرنا القديم ، د. مصطفى ناصف ، منشورات الجامعة الليبية ، كلية الآداب، بدون تاريخ ص ٤١ .

وكثيرٌ ممن أفاضوا في وصف العصر العباسي بالتجديد كانوا يدركون تماماً أن هذا الجديد لن يتنكر للقديم لأن الاحساس بالتراث يجري في عروق هؤلاء الشعراء هذا من جانب ، ومن جانب آخر كانوا يخشون الرقابة الملحة من سدنة اللغة من النقاد واللغويين الذين جعلوا نصب أعينهم حماية القرآن الكريم والحفاظ على هذه اللغة سليمة من الشوائب والعيوب (١) ، ولذلك حرص هؤلاء النقاد على أن يجدوا في شعر المحدثين صورة مماثلة للشعر القديم ولا بأس من « أن يجري دم زهير وامريء القيس والنابغة في دماء المحدثين . » (٢) .

ولهذا سنلفي فن الوصف لدى شعراء العصر العباسي يسير وفق نمط ذلك الشعر ، مع مسحة ذكية من التغيير والتبديل ، تضفي عليه طابع الجدة ورواء الحداثة(*) فجعلت الوصف يمتد « إلى آفاق أكبر مما عند القدماء » (٣) ، ولكن هل تلاشت كما يرى بعض (٤) الدارسين ، أوّ انكمشت بعض الموضوعات القديمة كوصف الناقة والجمل ، ومظاهر البيئة الصحراوية ؟؟

فهذا سؤال لو سلم البحثُ به جدلاً قد يفسد ماذهبنا إليه مسبقاً من أن الحديث وثيق الصلة بالقديم ، ولايمكن فصله عنه حتى في أضيق الحدود لأنه بمثابة

---

(١) ينظر مدخل الرسالة « القدم والحداثة في الأدب العربي » .

(٢) قراءة ثانية لشعرنا القديم ص ١٣ .

(*) استخدم الثعالبي اللفظ نفسه في كتاب اللطف واللطائف ، وإن وجدت حساسية سطحية من اللفظ نظراً لوروده على ألسنة طائفة من ذوي الفكر المنحرف وأصحاب الاتجاهات المناقضة لعقيدتنا الاسلامية ، ولكنه لفظ فصيح بله أحد المشتقات اللغوية من مادة « حدث » .

(٣) الحداثة في تراث العرب الأدبي والنقدي ، د. نبيل رشاد نوفل ، منشأة المعارف ، مصر ص٥١ .

(٤) نفسه ص ٥١ .

الجذع من الشجرة لو قطع هذا الجذع لسقطت أفرع هذه الشجرة وأغصانها ، وذبلت ، وانقطعت عنها الحياة ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن الحضارة التي عاشها العصر العباسي ظلت وسائل نقلها هي الناقة ، والفرس ، والجمل ، وكل أنواع الحيوان التي استخدمها العرب في العصر الجاهلي والإسلامي ، وربما يجوز أن يقال : إن استخدامها قلّ لأن الحياة تكاد تكون مستقرةً في هذا العصر ، لقلة التنقل والترحال كما هو معهود في حياة البدو الرحل ، مع أننا نجد المقدمة الطللية مصاحبة لشعر أبرز الشعراء المحدثين في هذا العصر كمسلم بن الوليد ، ومن ذلك قوله : (١)

هــلّا بكيت ظعائناً وحَمُـــولا ... ترك الفـؤادَ فـراقُـهم مَـخْبُـولا

فـإذا زجـرتَ القلبَ زاد وَجِـيْبُـه ... وإذا حـبـستَ الدمعَ زاد هُمُـولا

فكما نلاحظ من ذكر الظعائن ، وهي النساء في داخل الهوادج ، والهودج لايكون إلا على ظهر الجمل ، عندما يهم العربي بالترحال عبر الصحراء فإنه يعمد إلى صنع هذا الهودج ، ولذلك ليس العجب في ترك هؤلاء المحدثين لأسلوب الشعر القديم بل العجب كما يقول الدكتور شوقي ضيف « . . . لاستبقاء هؤلاء الشعراء المتحضرين لعناصر الأطلال ورحلة الصحراء البدوية ، غير أنهم اتخذوها رمزاً ، أما الأطلال فلحبهم الداثر ، وأما رحلة الصحراء فلرحلة الإنسان في الحياة ، وقد استغلوا ماكان يصحب الأطلال من حنين لذكريات حبهم ومعاهده لايزال يترقرق في أشعارهم . » (٢) . وربما يكون في ذلك شيء من التكلف والمجاراة للأوائل دون حاجة إلى القول فيه بالمعنى الذي كان عليه القدماء ، وقد لمس ذلك ابن رشيق فقال : « . . . وليس بالمحدث من الحاجة إلى أوصاف الإبل ونعوتها ، والقفار ومياهها ، وحمر الوحش والبقر ، والظلمان والوعول ما

(١) شرح ديوان صريع الغواني «مسلم بن الوليد الأنصاري»، ت/ت. سامي الدهان، دار المعارف، ط٣ ، ص ٥٣ .

(٢) العصر العباسي الأول ص ١٦٣ .

بالاعراب وأهل البادية لرغبة الناس في الوقت عن تلك الصفات ، وعلمهم أن الشاعر إنما يتكلفها تكلفاً ليجري على سنن الشعراء قديماً ، وقد صنع ابن المعتز وأبو نواس قبله ومن شاكلهما في تلك الطرائق ماهو مشهور في أشعارهم : كرائية الحسن في الخصيب، وجيمية ابن المعتز ، . . . »(١) .

ونمضي لندرس شعر الطبيعة عند العباسيين دراسة موجزة ، لنعرف طرائق تناولهم لهذا الفن الوصفي الذي طالما دندن الدارسون بكثرته في هذا العصر وارتباطه بأغراض الشعر الأخرى ، وأن هذا النوع من الشعر هو الذي أحدث ضجة في أوساط الأدب والنقد ، يقول الدكتور سيد نوفل : « . . وهذا التنازع بين القديم والحديث يبدو على أشده في شعر الطبيعة . » (٢) وكأنه يرمي إلى ما انحرف به أبو نواس وأبو تمام وغيرهما من خروج على تقاليد الشعر العربي ، وعلى رأسها المقدمة الطللية التي تعد بحق في أوليات موضوعات الطبيعة عند القدماء ، وإن كان هذان الشاعران قد عاودهم الحنين إلى المعاهد والديار ، حتى قال أولهم : (٣)

يا دارُ ما فعلت بكِ الأيامُ

وأما أبو تمام فصلته وثيقة بهذه المقدمة ، وإن وجد عنده قصائد خالية منها كالعمورية – مثلاً – ، فإن ذلك مما اقتضاه الموقف من الحماسة والفخر .

على أن الشاعر العباسي قد جعل من الوصف موضوعاً مستقلاً بعد أن كان الوصف يرد ضمن موضوعات أخرى يطرقها الشاعر ، ليعبر فيها عن حياة خاصة جعلته يصف كل ماشاهده في صحرائه من مناظر طبيعية ، ولعلّ سرّ استقلالية الوصف لدى الشاعر العباسي ماهيئته له البيئات الحضارية ، وما فتحت له من آفاق

---

(١) العمدة ٢/ ٣٩٥ .

(٢) شعر الطبيعة في الأدب العربي ص ٢٤ .

(٣) ديوان أبي نواس ص ٤٠٧ .

جديدة للوصف (١) ، ومن ذلك مانجده عند أبي نواس من وصفه للطبيعة في إطار الخمر ، لأن هذه الخمرة لم تصنع إلا من بعض عناصر الطبيعة التي فتن بها أبونواس ، يقول الدكتور حسين خريس : « كان أبو نواس مفتوناً بالطبيعة وقد انعكست فتنته هذه على مجالسه الخمرية حين ضمنها الكثير من أوصاف الزهور والمياه الجارية والجنائن والأطيار في صور مبتكرة وتماثيل بديعة موافقة أهواء نفسه ورغائبه إلى الدرجة التي فيها لايصبح فنه الخمري فنه الأول لو جردناه من عنصر الوصف ، فملكة الوصف النواسية لاتظهر على حقيقتها وفي قوتها في غير الخمر من فنونه الأخرى ، لأن الطبيعة عنده تمثل الاستعداد الفطري ، كما مثلت الخمر الرغبة والجموح . » (٢) . وكان من دواعي شعره الجيد الجلوس في البساتين المؤنقة ، وقد قال عن جيد شعره : « لا أكاد أقول شعراً جيداً حتى تكون نفسي طيبةً وأكون في بستان مونق وعلى حال أرتضيها من صلة أو وصل بها أو وعد بصلة وقد قلت وأنا على هذه الحال أشعاراً لا أرضاها . » (٣) .

وقد كان أبو نواس من شدة عشقه للخمر والطبيعة ، يصف العنب الذي هو المادة الأصلية للخمرة ويربطه بموسم انعقاده وخروجه من العدم كما روى ذلك ابن منظور (٤) من أن أبا نواس قد قال قصيدة أُعجب بها الأصمعي ، وفضله بها على شعراء زمانه وهي التي يقول فيها :

---

(١) بتصرف من كتاب : في الأدب العباسي ، د. عزالدين اسماعيل ، دار النهضة ، بيروت، ١٩٧٥م ، ص ٤٠٥ .

(٢) حركة الشعر العباسي في مجال التجديد « بين أبي نواس ومعاصريه » ، د. حسين خريس ، ج ٢ ، دار النشر ، الأردن ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٤١٤هـ ، ط ١ ، ص٢٠٧ .

(٣) أخبار أبي نواس ، لابن منظور ١/ ٥٥ .

(٤) نفسه .

أمـا تَرى الشـمسَ حلّتِ الحَـمَـلا   وطَابَ وقْتَ الزمـانِ واعْـتَـدَلا
وغَنّـتِ الطيـرُ بعـد عُجْمَتِهـا   واستوفتِ الخمرُ حولَها كَمَلا (١)

فوقف ابن منظور عند قوله : « واستوفت الخمر حولها كملا » وقال بأن هذا المعنى مختلف فيه ، « فقيل إنه أراد أن الكرْم (٢) أول مايعقد ويخرج إلى الوجود إنما هو في شمس الحمل ، ثم إن الخمر إنما يكمل طيبها ونضجها وتعصر في آخر الأسد وأول السنبلة ، ثم إنها تبقى في الدنان والأوعية إلى أن تشرب ، فإذا شربت في نزول الشمس برج الحمل فقد استوفت سنةً بهذا الاعتبار ، وقد لعب أبونواس أيضاً بذلك في قوله :

قد جَرَى في عودِك الما   ءُ فأجرِى الخمرُ فينا

فالماء أول مايجري في عود الكرْم هو الذي يصير ماءً في العنب بعينه ، ثم هو الذي يعتصر خمراً بعينه ، فهو من أول جريه في العود إلى أن يصير عنباً إلى أن يعصر إلى أن يشرب يستكمل سنةً عند حلول الشمس الحمل » (٣) . وهكذا كانت مظاهر الطبيعة التي خلقها الله بنجومها وأبراجها ، وخضرتها تشكل جزءاً كبيراً في قصائد أبي نواس ، ولذلك لم تكن الطبيعة عنده مجرد مناظر عابرة ، يصفها ، ويستمد منها مادته الشعرية وحسب ، بل كانت مصدراً للذته ومتعته ، لأن عشقه

---

(١) الديوان ص ٦٣ .

(٢) هذا اللفظ استخدمه أهل الأدب من الشعراء والنقاد ، وهو في حقيقة الأمر استخدام منهى عنه بنص الحديث النبوي ، فقد روى مسلم في صحيحه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لايقولن أحدكم للعنب الكرم ، الكرم الرجل المسلم ، وفي رواية « إنما الكرم قلب المؤمن ، وفي رواية « لاتقولوا الكرم ، وقولوا : العنب والحبلة » أخرجهما مسلم، نقلاً عن كتاب : زاد المعاد ، لابن القيم ٤/ ٣٦٨ ، ط مؤسسة الرسالة ، بيروت .

(٣) مختار الأغاني ٣/ ٢١٣ ومابعدها .

للخمر استغلق أغلب أشعاره ، فهو عندما يصف العنب يصفه لأنه يعطيه المادة الأصلية للخمر ، ولهذا جعل وصفها أولى من وصف الأطلال :

صفةُ الطلولِ بلاغةُ الفَدْمِ ... فاجعلْ صفاتِك لابنةِ الكرْمِ (١)

ويقول فيها أيضاً :

سليلة كرْمٍ لم يُفضَّ ختامُها ... ولم يَلتذِعْها في بطونِ المَراجِلِ(٢)

وقد قال أبو نواس أجمل قصائده في وصف الطبيعة مرتبطة بوصف الخمر ومن ذلك قوله :

وخيمةِ ناطورٍ برأسِ مُنيفةٍ ... تَهُمُّ يدا من رامَها بِزَلِيل

إذا عارضتْها الشمسُ فاءت ظِلالُها ... وإن واجَهَتْها آذنَت بِدُخُولِ

حطَطْنَا بها الأثْقَالَ فَلَّ هَجِيرةٍ..... ... عَبُورِيَّةٍ تُذْكَى بغَيرِ فَتِيلِ

تَأيَّتْ قليلاً ثمَّ جادت بِمَذْقَةٍ ... من الظلِّ في رثِّ الأَباءِ ضَئيلِ

كأنَّا لديها بين عِطفَى نعامةٍ ... جفا زَوْرُها عن مَبْرَكٍ ومَقِيلِ (٣)

فتأمل روعة هذه الأبيات التي قيل عنها : « لو قال قائل إن أبياته هذه لايدانيها نظم في معناها بنفسها وصنعتها لصدق . » (٤) ، فهو يصف متعلقات الخمرة والجو المحيط بها ابتداءً بحارس نبتها الأصلي ، وهو يقبع داخل خيمته في تلك الهضبة المرتفعة المنيفة ، ثم يصف الشمس عندما تعارضها ، فتفيء ظلالها ، يقول ابن منظور مستعرضاً جمال هذه الأبيات : « يصف هذه الخيمة بأنها على

---

(١) الديوان ص ٥٧ .

(٢) الديوان ص ١٨٥ .

(٣) الديوان ص ١٦ .

(٤) مختار الأغاني ، ابن منظور ٣/ ٢١٦ .

شاهق جبل وليست بمستوى من الأرض فهي متجافية كنعامة مستوفزة باركة في مثل هذا المكان ، وقد تجافت عنه لوعره ولقلة تمكنها فيه والخيمة أيضاً لم يحكم بناؤها فظلها متقلص لم يستر ستراً كافياً . » (١) وعندما وقف عند قوله :

« تأبّت قليلاً ثم جادت بمذقة ... البيت »

قال : - أي ابن منظور - « وقوله تأبّت قليلاً ، يعني الشمس أي توقفت في الجو عند زوالها ، وذلك وقت للشمس تقدّر فيه كالمتحيرة ثم تزول وهو مثل قول ذي الرمة :

والشمسُ حَيرَى لها في الجوِّ تَدْوِيمُ (٢)

وقوله : ثم جادت بمذقة : أي الشمس دخلت عليهم من خلل هذه الخيمة الخلقة التي بنيت على الأباء الضعيف من القصب الرث ، فلم تقو الشمس عليهم ولم تمنعهم الخيمة بستر قوي فيصير ظلاً ، ولكنه شمس وظل ، فشبهت بمذقة أي الممذوق من اللبن أي الممزوج . . . » (٣) وقل اتصل شعر أبي نواس ببيئته اتصالاً وثيقاً حتى قيل إنه لايقول الشعر إلا حين تكون حوله الرياحين والزهور ، فتضفي على مخيلته حساً ومعنى جديدين يصوغ قصائده حولهما ، وقد ذكر صاحب العقد أن أبا العتاهية لقي أبا نواس « فقال له : أنت الذي لاتقول الشعر حتى تؤتي بالرياحين والزهور فتوضع بين يديك ؟ قال : وكيف ينبغي للشعر أن يقال إلا على هكذا ؟ قال : أما إني أقوله على الكنيف . قال : ولذلك توجد فيه الرائحة»(٤) .

وقد وجد أبو نواس في وصفه للروض بديلاً انحنى فيه بالشعر العربي عن وصف الأطلال الداثرة التي لم تكن تناسب عصره ، وهي وإن كانت نموذجاً لشعر

---

(١) مختار الأغاني ص ٢١٦ .

(٢) البيت في ديوان ذي الرمة وأوله : « معرورياً رمض الرضراض يركضه » ، ١/ ٤١٨ .

(٣) مختار الأغاني جـ٣ ص ٢١٦ .

(٤) العقد ٥/ ٣٢٦ .

الطبيعة الذي ساد في العصر الجاهلي والإسلامي لكنها لا تشكل كل الطبيعة ، وشاعر كأبي نواس بموهبته الفذة سوف يجد مجالات كثيرة يصف من خلالها الطبيعة في مجالس شربه وصخبه ، يقول الدكتور حسين خريس : « ولقد جرّ وصف الطبيعة في مجالسه الخمرية إلى الاستعاضة بها عن وصف الرسوم والأطلال بما يتفق وماهو آخذٌ فيه من اللهو والقصف ، ففي إحدى خمرياته التي يصف النخيل يستهلها بالانصراف عن الديار والرسوم والإبل والبيد المقفرة لأنه لم يخالطها ولا صلة لها بحياته » (١) ، وهكذا نجد وصف الطبيعة يتطور على يد أبي نواس وينحو منحاً جديداً لم يكن معهوداً من قبل ، فعندما يربط بين عشقه للخمرة، وهيامه بها ووصف النخلة ، يجعل للنخلة مذاقاً خاصاً، وأن خمرها يختلف عن أي نوع من أنواع الخمر ، فيقول :

لنا خمرٌ وليس بخمرِ نَحْلٍ ... ولكن من نِتَاجِ الباسقات
كَرائِمُ في السَّماءِ ، زهَينَ طولاً ... ففاتَ ثمارُها أيدِي الجُنَاةِ
قَلائِصُ في الرؤوسِ لها ضُروعٌ ... تدِرُّ على أكفِّ الحالباتِ

إلى أن قال :

فحين بدالك السَّرطانُ يتلُو ... كَواكِبَ كالنِّعاج الراتِعَاتِ
بَدا بين الذوائبِ في ذُراهَا ... نباتٌ كالأكفِّ الطالعاتِ (٢)

فتأمل وصفه لها من حيث مظهرها الخارجي ، واهتمامه بموسم حصادها وربط ذلك ببرج السرطان ، كل ذلك يؤكد أن شعر أبي نواس كان يخرج من صميم الطبيعة ، ولولا جمال هذه الطبيعة لكان وصف أبي نواس للخمرة لايتجاوز

---

(١) حركة الشعر العباسي في مجال التجديد ص ٢٠٧ .
(٢) الديوان ص ٢٠٩ .

الساقي ، والغانيه ونحو ذلك ، مما يصف حياةً لاهية مملةً ، وصوراً متكررة لاتعدو العبث والمسامرات الماجنة التي تدور في القصور ، وبعض مجالس أهل الأدب ، ولذلك يعتبر شعره في فن الخمر مديناً للطبيعة بما أودع الله فيها من فواكه وأعناب استغلها الشاعر لصناعة خمره ، وأخذ في وصفها ، والحديث عنها ، مما ساعد على تميز شعره في هذا الميدان ، يقول أحد الدارسين : « إن الطبيعة أثرت خمريات أبي نواس ، لا يباشر الخمر الشعريه إلا في محيطها الجميل من الطبيعة الجميلة مابين الرياض المونقة ، ومابين الحدائق والكروم والجداول الرقراقة . » (١) .

على أن أبا نواس لم يقف وصفه للطبيعة عند الخمر ومايتصل بمادتها ، فحسب ، وإنما وصف نماذج أخرى من مظاهر الطبيعة مما يعتبر شيئاً جديداً في موضوعه في الشعر العربي ، ومن ذلك وصفه للسفن التي كان الأمين يمتطيها في أثناء تنزهه وسياحته في نهر دجلة ، فقد وصف هذه السفن بالمطايا المسخرة تسخيراً لم تسخر فيه لسليمان بن داود عليه السلام وإن كان أبو نواس قد أثم بمبالغته هذه ، لأن سليمان قد وهبه الله ملكاً لاينبغي لأحد من بعده ، وهذه المطايا ، وقد وضعت بأسماء منها الليث والعقاب والدلفين ، لأنها ربما تحمل صور هذه الحيوانات ، وسرعتها في خيال الشاعر ، يقول :

سَخَّرَ اللهُ للأمينِ مطَايا ... لم تُسَخَّرْ لصاحِب المحرابِ
فإذا ما رِكَابُه سِرْنَ بَرّاً ... سارَ في الماءِ راكباً ليثَ غابِ
أَسَداً باسطاً ذِرَاعيهِ ، يَعْدُو ... أهْرَتَ الشِّدْقِ كَالحَ الأَنْيَابِ
لايعانيه باللجامِ ولا السو ... طِ ولا غَمْزِ رِجْلِهِ في الرِّكَابِ
عَجِبَ النَّاسُ إذا مارأوه على صو ... رةِ ليثٍ يمرّ مرَّ السحابِ
سبَّحُوا إذ رَأَوْكَ سِرتَ عليه ... كيفَ لو أبصروك فوقَ العقابِ

---

(١) حركة الشعر العباسي في مجال التجديد ، د. حسين خريس ص ٢٠٨ .

ذاتُ زَوْرٍ ، ومِنْسَرٍ وجناحيْـ ـن ، تَشُقُّ العبَابَ بعد العُبَابِ

تَسْبِقُ الطيرَ في السماءِ إذا ما اسْـ ـتعْجَلوهَا بِجَيْئَةٍ وذِهَابِ(١)

وقد أثر أبو نواس في الشعراء الذين أتوا بعده في وصف الطبيعة ، وهذا ماجعلنا نبدأ به مع إنه ليس من شعراء الطبيعة المشهورين أمثال ابن الرومي وابن المعتز والصنوبري ، ولا نغفل البحتري فقد كان له باع طويل في فن الوصف ، وكان أحد وصافي الطبيعة في العصر العباسي ، وقد نجد له أثراً بارزاً على شعراء الأندلس ، في وصف الربيع ، ووصف الذئب ، وغير ذلك من الأوصاف ، وكان بعض الدارسين يرى أن البحتري سيكون أشعر من ابن الرومي وغيره في وصف الطبيعة لأنه (شاعر سليقي ينكر التكلف والانحراف بالطبع عن مجراه ، أو تقييده بحدود من القواعد والقوانين . . . » (٢) .

لكنه كما يُرى قد أخذ بمنهج أبي نواس في وصف الخمر في جو الطبيعة ومن ذلك همزيته المشهورة ، التي يقول فيها :

أَخَذَتْ قصورُ الصَّالِحِيَّةِ زينةً عَجَباً من الصَّفْراءِ والحمراءِ

نَسَجَ الربيعُ لرَبْعِها دِيباجَةً مِنْ جَوهَرِ الأنوارِ بالأَنواءِ (٣)

ثم قال في الخمر :

فاشْرَبْ على زَهْرِ الرياضِ يشُوبُه زَهَرُ الخدودِ وزهرةُ الصَّهباءِ

ولن نقف طويلاً عند البحتري ، وإنما أردنا أن نعرف مكانته من بين شعراء الطبيعة ، لأنه حظي بمكانة بين شعراء الأندلس في أغراض أخرى ، ولذلك لاغرابة إذا رأينا أثره يشمل وصف الطبيعة ، لأن الشاعر الأندلسي كان يفخر

---

(١) الديوان ص ٤١٤ .

(٢) شعر الطبيعة ، سيد نوفل ص ١٨٣ .

(٣) الديوان ١/ ٦ بتحقيق حسن كامل الصيرفي، دار المعارف ، ط٣.

بمجاراة شاعر هذا شأنه ، وقد وصف البحتري شتى مظاهر الطبيعة الساحرة « في الرياض والبساتين سواءٌ في الشام أو في العراق ، والخيل الجياد والذئب والأسد والقصور البديعة التي شيدها المتوكل ، والمعتز ، والمعتمد، وأطلال إيوان كسرى، وتعرض كذلك لوصف البحر ومايجري فيه من معارك . » (١) .

فأما ابن الرومي فهو شاعرٌ صرف جزءاً كبيراً من شعره لوصف الطبيعة «فكانت تستأثر بكل مشاعره ، وعواطفه ، مما جعله يكلف بها كلفاً شديداً»(٢) وقد ترك خياله يسبح في مناظرها الجميلة ، فاصطبغ فنه بألوانها ، وتأثر « بكل مظهر من مظاهر الجمال والقبح ، فإذا بحواسه متيقظة ، متنبهة ، ناشطة ، تلتقط أدق المؤثرات ، وإذا بخياله يتناول هذه المؤثرات ليؤلف بينها في ابتكار عجيب ، وإذا بعقله المثقف يعمق معانيه ، وتلونها العاطفة » (٢) .

وقد اعتبر ابن الرومي من القلة الشعراء الذين صاحبهم الوصف بشتى طرقه في أغلب أشعاره ، يقول الدكتور فوزي عطوي : « لا نجانب الحقيقة إذا قلنا إن من المتعذر علينا ذكر غرض من الأغراض الشعرية في قصائد ابن الرومي التي بلغ بعضُها الثلاثمائة بيت ، بينما لم يتجاوز بعضها الآخر بيتين فقط ، إلا وكان الوصف سمة بارزة لكل من تلك الأغراض ، فابن الرومي هو في الأدب العربي شاعر الوصف بلا منازع . » (٣) .

وقد جاء وصفه للطبيعة على وجه الخصوص متميزاً بالنسبة لغيره من الشعراء لأنه لايصفها ليبين جمالها ، ولكنه كان يعشقها ويكلف بها ، يقول الأستاذ عباس العقاد : « وقد كان ابن الرومي يحب الطبيعة على هذا النحو ،

---

(١) الرمزية عند البحتري ، د. موهوب مصطفاي ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، ١٤٠١ هـ - ١٩٨٨م ، ص ٣٦١ .

(٢) العصر العباسي الثاني ، شوقي ضيف ص ٣٢١ .

(٣) مقدمة المحقق للديوان ١ / ٩ .

ويستروح من محاسنها نفساً تتصبى الناظر إليها ، وتتبرج له « تبرج الأنثى تصدت للذكر » ويرى وراء هذه السنة التي تبدو على وجهها عاطفة من عواطف العشق تتعلق بها العفة والشهوة تعلقها بالعاطفة الإنسانية الشاعرة . . . ويصف الطبيعة الوصف الذي يقتضيه ذلك الشعور ، ويمليه ذلك التصور فيشفُّ وصفُه لها عن شغف الحي بالحي ، وشوق الصاحب إلى الصاحب ، وتسمع من تشبيبه بها رنة طرب أو شجو لاتخرج إلا من نفس مفعمة بأصداء الطبيعة قد نفذت إلى طويتها ، وشاركتها فيما تتخيله لها من حزن وسرور ، فهو يحيا مع الشمس الغاربة حين تضع على الأرض « خداً أضرع » من دهشه الفراق وهو يحي مع النوار حين تخضع بالدمع عيونه ، وتهبط مع الليل شجونه ، وهو يحيا مع الذباب المغرد ، والطير الساجع في ساعة الغروب التي يمتزج فيها الحنان الذائب بالشوق الخَفيض ، وهو ينتظم ذلك كله في أنشودة واحدة لم تدع مزيداً لفن اللون والحركة ، ولا مزيداً لوحي الخيال والسليقة . . . »(١) .

ويضيف باحث آخر حول موقف ابن الرومي من الطبيعة قوله : « . . . إلا أن لابن الرومي شعراً آخر في الطبيعة ، يقف فيه لا موقف المتذوق المفتون بجمالها، بل موقف الإنسان الشاعر الذي يجد في الطبيعة صور نفسه فإذا بهذه الطبيعة الباردة الجامدة قد تحولت إلى كائنات حية تختلج بشتى العواطف الإنسانية . »(٢) . ويذهب إيلياحاوي إلى أن ابن الرومي في وصفه للطبيعة لم تطغ عليه النزعة التقليدية ، أو ما يسمى بالمحاكاة بالمعنى الذي وجد عند غيره من الشعراء ، فقال : « ولقد طغت نزعة المحاكاة على الشعر العربي منذ الجاهلية ، تقع عليها في شعر امريء القيس ، وفي وصف طرفة لناقته ، وعبر مدائح زهير ،

---

(١) ابن الرومي ، حياته من شعره ، عباس العقاد ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ص ٣٠٠.

(٢) الديوان ، مقدمة المحقق عبدالأمير علي مهنا ١/ ١٠ .

ووصفيات أوس بن حجر ، وعبيد بن الأبرص ، وسلامة بن جندل ، ولبيد بن ربيعة ، وسواهم . ، واستكملت تلك النزعة غايتها في شعر الشماخ وسحيم عبد بني الحساس ، وأبي ذؤيب الهذلي . . . الخ » ثم قال : « ولقد تحدرت تلك النزعة إلى ابن الرومي ، فتطورت في شعره واتخذت حدوداً واضحة ، كما أنها ولجت إلى وعي الشاعر الذي غدا يتمرس بالوصف المقتصرة غايتُه على ذاته ، الشاخص إلى الطبيعة مُتمالكاً روعه ، متخلصاً من المواقف الغامضة الدلالة الصماء ، فالطبيعة في شعر ابن الرومي هي أدنى إلى وجدان الإنسان وأكثر تألفاً مع نفسه لاتقع فيها على قساوة الطبيعة في الجاهلية ، ولا على هولها ، ووعورتها ومشقة ارتيادها ، والتنازع معها . » (١) . فاستمع إليه إذ يصف فواكه شهر أيلول وليله، وطيب نفسه بذلك :

لولا فواكهُ أيلولٍ إذا اجْتَمَعتْ ... من كلِّ نَوْعٍ وَرَقَّ الجوُّ والماءُ
إذاً لما حَفَلَتْ نَفْسِي متى اشْتَملتْ ... عليَّ هائلةُ الجالَيْنِ غَبْراءُ
ياحَبَّذَا ليلُ أيلولٍ إذا بردتْ ... فيه مَضاجِعُنا ، والريحُ سَجْواءُ
وجَمَّشَ القُرُّ فيه الجلدَ فائتلفتْ ... من الضَّجيعينِ أحشاءٌ فأحشاءُ
وأَسْفَرَ القمرُ الساري فصفحتُه ... ريّالها من صفاءِ الجوِّ لألاءُ
ياحبذا نفحةٌ من ريحهِ سَحَراً ... تأتيكَ فيها مِنَ الرَّيحَانِ أنباءُ
قلْ فيه ماشِئتَ من شهر تَعَهَّدُهُ ... في كلِّ يوم يدٌ للهِ بيضاءُ (٢)

فكما نلحظ من جوّ هذه القصيدة وما اشتملت عليه من صور بديعة في ليلة يسطع فيها ضوء القمر ، وقد أنعشت ابن الرومي ، وأيقظت أحاسيسه ومشاعره

---

(١) ابن الرومي ، إيليا حاوي ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ط ٢ ، ١٩٦٨م ، ص ٣٩-٤٠.

(٢) الديوان ١/ ٢٩ بعناية عبدالأمير على مهنا ، دار مكتبة الهلال ، بيروت ١/ ٢٩ .

وأصابته نشوةٌ نسى فيها كل شيء حوله ، حتى أنه لم يكن يبالي متى وسد التراب ، فبرودة المضجع أذهب عنه حرارة الهموم والأحزان ، في شهر تعهدته أنعم الله وخيراته . وكثيراً ماكان ابن الرومي يربط بين المرأة والخمر ، فعندما يصف الربيع بقوله :

أصبحتِ الدنيا تروقُ من نَظَرْ ... بمنظرٍ فيه جلاءٌ للبصرْ

واهًالَهَا مُصطنعا لمن شكر ... أثنت على الله بآلاءِ المطرْ

فالأرض في روضٍ كأفواف الحِبَرْ ... نَيِّرَةُ النوارِ زَهْراءُ الزهرْ

تبرَّجت بعد حياءٍ وخَفَرْ ... تَبَرُّجَ الأنثى تَصَدَّت للذَّكَرْ(١)

يشعرك بحياة الوامق الذي يتصور الجمال في أنثاه أينما رآها ، وحيثما وقعت عينه على أي صورة منها ، وقد صور لنا جمال الأرض وزينتها بعد هطول المطر عليها ومنظر الروض فيها بغادة حسناء ، تجملت بكامل زينتها ، وهيأت نفسها للأنس والسمر .

وكان ابن الرومي يعيش مع الطبيعة معايشة الصديق الحميم يأنس به إذا جالسه ، ويفتقده ويحن إليه إذا غاب عنه ، وللربيع في نفس ابن الرومي زهو خاص لأن الفتوة والشباب كامنة فيه ، ولذلك إذا جاء موسمه أحس بعودة الشباب إليه فيقول :

يُذَكِّرُني الشباب صدًى طويلٌ ... إلى بَرَدِ الثّنايا والرُّضابِ

وشحُّ الغانيات عليه إلَّا ... عن ابن شَبيبةٍ جَونِ الغُرابِ

تُفَيِّءُ ظِلَّهَا نفحاتُ ريحٍ ... تَهُزُّ متونَ أغصانٍ رطابِ

إذا مَاسَتْ ذوائِبُها تداعت ... بواكي الطَّيرِ فيها بانْتِحَابِ

---

(١) الديوان ٣/ ٩١ .

يذكــرني الشــبــابَ رياضُ حَــزْنٍ ترنَّم بينهـا زُرْق الذبـــابِ
إذا شـــمسُ الأصائلِ عارضَتهـــا وقد كَرَبَت تُوارَى بالحجابِ(١)

ماذا فعلت الطبيعة بابن الرومي ؟ أليست هذه الأيام المواضي عادت في نفس ابن الرومي من جديد ، فرق غزله وجاء في أبدع صورة ، ألم يظمأ ويعطش ليبل هذا الظمأ بريق الحسان ، ألم يتمتع ببياض الثنايا في اللحظات الباسمة ؟ ثم يثني على الطبيعة يغازلها كما كان يغازل الحسان ، فيصف ذوائبها وكأنها خصل الشعر في جبهة الحسناء عندما تحركها الرياح ، فتتداعى الطيور مغردة بأصواتها الجميلة ، فتذكره بالشباب ، وإذا رفع ناظريه إلى الأرض الجبلية سمع ترنم النحل ، وذباب الزهور ومنظرها الخلاب إذا اختلط بحمرة الشمس إذا دنت للغروب ، كل ذلك يذكي في نفسه ذكريات شبابه وأيام سعادته .

فذلكم هو ابن الرومي ، الذي أخلص في شعره للطبيعة ، واخلصت له الطبيعة بتلك الصور والأخيلة البديعة ، فصور كل شيء فيها ، تعويضاً لما فاته في شبابه فكانت تحقيقا لأمانيه ، يقيم فيها « أعراساً للذاته وأفراحه حيث يجتمع له فيها الجمال والغناء والشراب » (٢) .

ومن الشعراء البارزين في وصف الطبيعة ، والتعلق بمباهجها ، الأمير العباسي عبدالله بن المعتز ، لأنه كان « ينفق كثيراً من أوقاته في اللهو والمجون والصيد وينظم في ذلك كله أشعاره » (٣) ، وكان في قصائده التي وصف فيها الطبيعة يربطها بوصف الشراب مما عرفناه عند أبي نواس قبل ذلك ، إلا ان ابن المعتز كان يتأثر كثيراً بالبحتري لما عرف من تلمذته الباكرة له ، وإن كان لا يصل شعره في جزالته وصياغته إلى ماعرف عن شاعر كأبي عبادة ، ولعلّ في وصف أبي

(١) الديوان ١/ ٢٨٠ .

(٢) ابن الرومي ، إيليا حاوي ص ٤٢ .

(٣) العصر العباسي الثاني ، شوقي ضيف ص ٣٣٦ .

الفرج الأصفهاني لشعر ابن المعتز مايعطي صورة واضحة عن أسلوبه وطبيعة شعره، يقول أبو الفرج : « . . . وشعره إن كان فيه رقة الملوكيه وغزل الظرفاء ، وهلهلة المحدثين ، فإن فيه أشياء تجري في أسلوب المجيدين ولاتقتصر عن مدى السابقين ، وأشياء ظريفةً من أشعار الملوك في جنس ماهم بسبيله ، ليس عليه أن يتشبه فيها بفحول الجاهلية ، فليس يمكن واصفاً لصبوح ، في مجلس شكل ظريف، بين ندامى وقيان ، وعلى ميادين من النور والبنفسج ، والنرجس ، ومنضود من أمثال ذلك إلى غير ماذكرناه من جنس المجالس وفاخر الفرش ومختار الآلات ، ورقة الخدم ، أن يعدل بذلك عما يشبهه من الكلام السبط الرقيق الذي يفهمه كل من حضر إلى جعد الكلام ووحشيه وإلى وصف البيد والمهامه ، والظليم والناقة والجمل ، والديار والقفار والمنازل الخالية المهجورة . » (١) . فهو شاعر حضريٌ مثل روح عصره ، فنجد في ديوانه أشعاراً كثيرة تمثل ذلك الترف الذي عاشه ، ولاسيما شعره في وصف الخمر والطبيعة ، يقول الدكتور شوقي ضيف : « كان ينفق – على شاكلة أبناءه القصور – كثيراً من أوقاته في اللهو والخمر ، وديوانه طافح بكئوسها ودنانها وسقاتها وأديرتها . » (٢) ، والمتتبع لشعر ابن المعتز الخمري يجد أن وصف الطبيعة عنده يندرج في خمرياته ، وكأنه يجد فيهما مزيجاً من التكيف الحسي والمعنوي فينسى همومه وآلامه السياسية ، إذا عبّ من هذا الشراب، وتأمل مناظر الطبيعة ، ومن ذلك قوله :

وصفراءَ باكرْتُها والنجو ... مُ خافقةٌ كقلوبٍ تَجِبْ
كأنَّ الحباب إذا صفَّقَتْ ... ثمارٌ من الدُّرِّ فوق الذَّهبْ
وتحسبُها قَبَسًا مُزْعِجًا ... إذا جَرَشَتْه الرِّياحُ التَهَبْ (٣)

---

(٣) الأغاني ١٠/ ٢٧٤ .

(٢) العصر العباسي الثاني ص ٣٤٢ .

(١) الديوان ٢/ ٣٠٣ .

وقد أثر أسلوب أبي نواس على أسلوب ابن المعتز ، من حيث وصف الخمر منذ كانت عنباً في عناقيدها يحرسها حارسٌ يقظ ، وهي تسقى بماء الفرات العذب ، ولعلْ قصيدته هذه أبرز مثال على تأثره بالمنهج النواسي ، يقول :

وكأسٍ حَيْرِيةٍ شَكّت بِمَبْزَلِهَا ... أحشاءَ مُشْعرةٍ بالقارِ جوفاءِ
أَجَادتْ بها حُفَّلَ الأثمارِ يانعةً ... بطيرِ ناباذٍ أو كوشٍ وسوراءِ
تَرّفوا الظلالُ بأغصانٍ مُقرّطَةٍ ... سودِ العناقيدِ في خضراءَ لفّاءِ
أجرى الفراتُ إليها من سَلاسِلِهِ ... نهراً تمشّى على جرعاءَ ميثاءِ
وطافَ يكلؤها من كلِّ قاطفةٍ ... راعٍ بعينٍ وقلبٍ غيرِ نَسَّاءِ (١)

وحتى وصف النخل ونبيذه مما عرفناه عند أبي نواس ، قد كان لابن المعتز دورٌ بارزٌ فيه ، وأما وصف الربيع فقد كثر في شعره الخمري ، ذلك أن للطبيعة في أيام الربيع جاذبية خاصة ، فجمال أثمار الربيع ، وهطول أمطاره ، كل ذلك مما يجعل نفس الشاعر مشرئبة ، فيجد للشراب لذةً لا تعدلها لذةٌ في موسم آخر .
وخلاصة القول فإن ابن المعتز لايقل في عشقه للطبيعة وهيامه بها ، ووصفه للربيع ، والروضيات عن شعر ابن الرومي أو البحتري ، أو غيرهما ، وقد اتصلت الطبيعة بسائر أغراضه فنجده في إحدى مدائحه يقدم لها بوصف مايتصل من الطبيعة ، بجود الممدوح ، فيصف البرق والسحاب ، والرياح والأمطار ، لأنها رمز الجود والعطاء ، فالغيث يحي الأرض بإذن ربها ، فينبت فيها الكلأ والعشب ، وهكذا فإن ممدوحه المعتضد كان على جانب رفيع من السخاء والبذل ، فيبدأ القصيدة بقوله :

عَرفَ الدارَ فحيّا ونَاحَا ... بعدما كان صحا واستَراحا
ظَلّ يلحاني العذولَ ويأبَى ... في سبيلِ العذْلِ إلا جِمَاحا

---

(١) الديوان ٢/ ٢٠٨ .

ثم وصف البرق فقال :

من رأى برقاً يضيءُ التماحا ... ثقبَ الليلُ سناه فلاحا
أين برقٌ لهائميٍّ سقاهُ ... ظُنَّ ماشئتَ نوىً وانتزاحا
وكأنَّ البرقَ مُصحَفُ قارٍ ... فانطباقاً مرةً وانفتاحا
في رُكامٍ ضاقَ بالماءِ ذَرْعاً ... حيثُ مامالتْ به الريحُ ساحا
لم يزلْ يلمعُ في الليلِ حتى ... خِلْتَه نبّه فيه صَبَاحا
وكأنَّ الرعدَ فحلُ لقاحٍ ... كلما يُعْجِبُه البرقُ صاحا
لم يدعْ مَحْلاً من الأرضِ إلا ... جادَ أو مدَّ إليهِ جناحا(١)

واستمر ابن المعتز على هذا النحو يصف مشاهد الطبيعة كي يربطها بصفات المعتضد وجوده وكرمه فقال :

جُمِعَ الحقُّ لنا في إمامٍ ... قَتَل البُخْلَ وأحيا السماحا
إن عفا لم يلغِ للهِ حقّاً ... أو سَطا لَمْ يَخْشَ فينا جُناحا

وهكذا فإن ابن المعتز قد استغل مظاهر الطبيعة الحية والصامته ، ووظفها في أشعاره بما أوتي من خيال واسع وحس وقاد ، فجاءت صوره بديعة ، تنم عن ذوق مترف وشفافية خاصة ، وكان مغرماً بالتشبيهات حتى قال عنه ابن رشيق : «إن ابن المعتز يغلب عليه التشبيه »(٢) ، وقد امتدحه ابن شرف القيرواني بأنه «ملك النظام كما ملك الأنام ، له من التشبيهات المثلية والاستعارات الشكلية ، والاشارات السحرية، والعبارات المجرية، والوصف الحسن الفائق . . »(٣)، وفيما يروى ابن رشيق في العمدة أن ابن الرومي قد سئل على وجه اللوم « لم لا تشبه

---

(١) القصيدة في الديوان ١/ ٤٦٦ .

(٢) العمدة ٢/ ٢٣٦ .

(٣) رسائل الانتقاد ، دار الكتاب الجديد ، بيروت ، ت/ حسن حسني عبدالوهاب .ص ٣٣

تشبيه ابن المعتز وأنت أشعر منه ؟ فقال أنشدني شيئا من قوله الذي استعجزتني في مثله ، فأنشده في صفة الهلال :

فانظرْ إليهِ كزَوْرَقٍ مِنْ فِضَّةٍ قَدْ أَثْقَلَتْهُ حَمولةٌ من عَنْبَرِ

فقال زدني ، فأنشده

كـأنَّ آذريونَهـا والشمسُ فِيها كَالِيَة
مَدَاهِنٌ مِن ذَهَبٍ فيها بَقَايا غَالِيَة

فصاح : واغوثاه ، يالله لايكلف الله نفسا إلا وسعها ، ذلك إنما يصف ماعون بيته ، لأنه ابن الخلفاء ، وأنا أي شيء أصف . . . إلخ القصة . »(١) .

وعلى أية حال فإن التشبيه عند ابن المعتز في أشعاره الطبيعية هو وسيلة فنية موفقة للتعبير عن إحساسه بجمال الطبيعة ، إذ خرج بها عن وجودها الواقعي الخالص ، يبث فيها من الإيحاء ، ويلقي عليها من الظلال مايكسبها دلالات جديدة ، ومعاني نفسية ترمز إلى وجدان الشاعر ، كما ذهب إلى ذلك الدكتور عبدالقادر القط عندما كتب عن الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر وأكد أن شوقي وغيره من شعراء العصر لم يستطيعوا أن يأتوا بمثل تلك التشبيهات إلا ضمن « أسلوب تقريري لايفصح كثيراً عن أحاسيس الشاعر » (٢) ، تلك الأحاسيس التي لمسناها عند ذي الرمة عندما كان يصف الظبية ، وهي تضع وليدها ، ثم تحيطه بعنايتها بعد ذلك ، فتغيب عنه حيناً من النهار ، ثم تأتي خلسة لتطمئن عليه حتى لاتمتد إليه أيدي الطامعين من ذئاب الصحراء ووحوشها .

---

(١) العمدة ٢/ ٢٣٦ ، ٢٣٧ .

(٢) الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر ، د. عبدالقادر القط ، دار النهضة ، بيروت، ط ٢ ، ١٤٠١ هـ ، ص ٧٢ .

ولايزال الحديث موصولاً بطريقة ابن المعتز ، في استخدامه منهج أبي نواس في مزج الطبيعة بالخمر ، والذي يبدو أن هذا الاسلوب قد ساد في ذلك العصر ، وأولع به الشعراء ، حتى بات ظاهرة لفتت أنظار الدارسين إليها ، وقد كتب باحث معاصر بحثاً بعنوان : الخمر والطبيعة عند الخالديين (١) أبي بكر محمد وأبي عثمان سعيد ابني هاشم ، وهما من شعراء اليتيمة (٢) .

ومهما يكن من ذيوع شعر الطبيعة على ألسنة من ذكرنا من الشعراء في هذا العصر أو قبله فإن أحداً منهم لم يكن ليفرغ لها ، ويعتني بوصفها كأبي بكر الصنوبري ، فهو شاعر الطبيعة الأول غير مدافع ، وإن تحفظ بعض الدارسين على طريقته وأسلوبه ، من حيث سلاسته أو تكلفه فيه ، أقول ذلك لأني ألفيت بعض الدارسين يرى في شعره وشعر غيره من معاصريه أمثال كشاجم ، والسري الرفاء ، وبعض من سبقهم كابن المعتز ضعفاً ، وممن قال بذلك الدكتور محمد اليعلاوي في بحثه المشار إليه في مقدمة هذا الفصل حيث يقول : « وهناك نوع ضعيف من شعر الطبيعة ازدهر في العصور المتأخرة ابتداءً من القرن الرابع . . . » (٣) وذكر ابن المعتز وكشاجم والصنوبري ، وهذا الحكم غير دقيق مع احترامنا للدكتور اليعلاوي، فقد أدخل ابن المعتز ضمن شعراء القرن الرابع ، مع أن ابن المعتز لم يدرك هذا القرن لأنه عاش مابين سنة ٢٤٧ وسنة ٢٩٦ هـ .

وأما أبوبكر الصنوبري ، فليس من الميسور الحكم على شعره بالضعف وخصوصاً وصفه للطبيعة ، لأن هناك من العلماء والدارسين من عدّه من الرواد في هذا الميدان ، ووُصف بتفرده بالجودة ، وملاحة التشبيه ، وفي مقدمة هؤلاء ابن شرف القيرواني فقد قال عنه : « وأما الصنوبري ، ففصيح الكلام غريبه مليح

---

(١) نشر هذا البحث بمجلة كلية الآداب بجامعة بغداد / ع ١٥ ، ١٩٧٢م ، ص ١٦٢ .

(٢) ٢/ ١٨٣ ط ١ ، ١٩٤٧م / ١٣٦٦هـ ، ت الشيخ محمد محي الدين .

(٣) أشتات في اللغة والأدب والنقد ، د. اليعلاوي ص ٣٣٦ .

التشبيه عجيبه ، مستعمل لشواذ القوافي ، يغسل كدرتها بمياه فهمه الصوافي ، فتجلو ، وتدق وتعذُب وترق ، وهو وحيد جنسه في صفة الأزهار ، وأنواع الأنوار . وكان في بعض أشعاره يتخالع ، وفي بعضها يتشاجع ، وقد مدح وهجا ونثر وشجا ، وأعجب شعره وأطرب . . . » (١) .

ومن الدارسين المعاصرين محقق ديوانه الدكتور إحسان عباس ، فقد وصفه بقوله : « . . إن أكثر شعره يتصل بوصف الرياض والأنوار ، والتغني بجمال الطبيعة . . . إذ هو الجانب الذي يلفت إليه الأنظار ، ويميزه بين شعراء عصره . » (٢) . وهذا الشاعر في حقيقة أمره كان أحد المقربين من سيف الدولة الحمداني ، وكان يرود مدرسة مستقلة في وصف الطبيعة من شعرائها ، كشاجم ، والسري الرفاء ، وأبو الفرج الببغاء ، فبان أثره عليهم ، وعلى الذين أتوا بعده ممن كان لهم ولع بالطبيعة ، وأوصافها ، يقول الدكتور شوقي ضيف : « وقد مضى معاصروه من حوله ومن خلفهم في العصور التالية لا في المشرق وحده بل أيضاً في المغرب والأندلس يسيرون على هديه فيه حتى ضرب المثل بروضياته ، وحقاً كان ابن الرومي مشغوفاً بالطبيعة ، ووصف الرياض في الربيع ، ولكنه لم يعش لهذا الموضوع معيشة الصنوبري ، ولا اتخذ له بستاناً يزرع فيه الورود والرياحين ، والأزهار ، ويتعهدها تعهد المحب الوامق كما صنع الصنوبري . » (٣) .

ويبدو من نشأة هذا الشاعر ، والجو الذي تربى في أحضانه مايؤكد أنه قد توافر له من الأسباب مايجعله مبرزاً في وصف الطبيعة ، يقول الدكتور سيد نوفل : « أما أبوبكر محمد بن احمد الصنوبري ، فقد اجتمعت له المقومات ليكون شاعراً

---

(١) رسائل الانتقاد « في نقد الشعر والشعراء » ، ابن شرف القيرواني ، ت حسن حسني عبدالوهاب ، دار الكتاب الجديد ، بيروت ، نشرت عام ١٩١١م ، ص ٣٤ .

(٢) مقدمة الديوان ، بقلم إحسان عباس ، ص ٥ .

(٣) العصر العباسي الثاني ، ص ٢٦٣ .

ممتازاً في الطبيعة . . » (١) وقد ذكر من هذه المقومات مولده بأنطاكية وسط سهل خصب جميل ، وأنه نشأ في بيئة ثقافية تتغنى بالطبيعة ، حتى أن بعض الدارسين قد جعله أول شاعر للطبيعة في العربية كما فعل آدم ميتز في كتابه الموسوم بالحضارة الإسلامية في القرن الرابع » (٢) .

ولا نذهب بعيداً في تفسير مذهبه ، لأن الشاعر قد كملت نشأته وعاش فترة نضجة في مدينة « حلب » ، تلك المدينة الجميلة التي حباها الله بطبيعة يعجز الوصف عن تصويرها ، وقد وصفها ياقوت بأنها « مدينة عظيمة كثيرة الخيرات طيبة الهواء ، صحيحة الأديم والماء » (٣) . ولذلك لاغرابه أن تكون هذه البقاع الجميلة قد « خلفت في نفس الشاعر المولعة بالجمال انعكاساً رائعاً جعلته كلفاً بالرياض يهيم بها حباً فيصفيها أرق مشاعره ويمحضها خالص وده ، ويصفها ممتزجة بنفسه ، وتجيء « روضياته » صورة لاحساساته ، فيها وصف لسحر الرياض وجمالها ، وفيها تصوير لمشاعره حيالها ، ولئن أثارت في نفسه أعذب المتع فقد أغدق عليها أنبل العواطف ، إنه كلف بالروض المليح ، وهل يكلف بالروض إلا أملح الناس . » (٤) ومن روائع قصائده في ذلك هائيته التي يصف فيها حلب ، وماحوته من أنهار فياضة كنهر قويق ، وماصاقبها من قرى صغيرة ، فيقول :

احبِسَا العِيسَ احبِسَاهَا وسلا الدارَ سَلاها
واسألا أينَ ظباءُ الدَّا رِ أم أينَ مهَاهَا
حبّذا الباءاتُ باءا تُ قُويقٍ ورُبَاهَا

---

(١) شعر الطبيعة ، د. سيد نوفل ، ص ٢٠٤ .

(٢) ينظر المرجع المذكور ، والجزء الرابع من الحضارة الإسلامية لآدم ميتز ، ص ٤٣٠ .

(٣) معجم البلدان ٣/ ٣١١ .

(٤) الصنوبري شاعر الطبيعة ، عبدالرحمن عطيه ، ص ٧٤ .

بانَقُوسَاها بهــا بـا هى المبُـاهي حينَ باهي
وببَـا صَـفْـرا وَبابِـلاً زَنَا مِـثْلِي وتاها

وهذه القصيدة هي من مطولات الصنوبري ، وجميع صورها مستمدة من مناظر حلب الجميلة التي عشقها وفخر بجمالها فقال :

أنا أَحْـمِي حلبــاً دا راً وأحــمي حِـمَـاهـا
أيَّ حُسْنٍ مـاحـوته حلـبُ أو مـاحَـواهـا
بسطَ الغـيثُ عليـهـا بسطِ نـورٍ مـاطـواهـا
وكسـاها حُللاً أبـدعَ فـيـهـا إذْ كـسـاها
حللاً لحمـتُها السُّوسـن والوردُ سُـداها(١)

وهكذا فإن الصنوبري له من اسمه نصيب فهو يقف في طليعة وصافي الطبيعة والمفتنين بجمالها ، وماحوته من صور جذابة تجعل الشاعر فناناً « يتملى الجمال حيث يكون ، وتنفذ بصيرته إلى أعماق الكائنات لتلمح مواطن الجمال فيها . »(٢) .

ولعل الصنوبري وهو بهذه المكانة سيحتل النصيب الأكبر من بين الشعراء المجددين الذين سرى تأثيرهم في شعرائنا بالأندلس في وصف الطبيعة والتغني بمباهجها ، ولا نبالغ إذا قلنا إن هذا التأثير ليس سوى تأكيد لودٍّ مكنون في نفوس الشعراء الأندلسيين لإخوانهم المشارقة ، والحرص على أن يمشوا في ركابهم ، وإلا فطبيعتهم ستكون أغنى وأحفل بالصور الحسية والمعنوية ، وهكذا يظل المبدع في الأندلس رهين رضا أناس وهبهم حبه وتقديره ، وكم حنَّ إلى منبع أصالته بالمشرق، فهذا أبو محمد بن حزم يصور هذا الموقف بقوله :

---

(٢) الديوان ، ص ٥٠٤ ، ٥٠٨ .

(١) الصنوبري شاعر الطبيعة ، عبدالرحمن عطيه ، ص ٧٤ .

أنا الشمسُ في جوِّ العلومِ منيرةً ولكنَّ عيْبَي أن مطلَعِي الغربُ
ولو انني في جانبِ الشرقِ طالعٌ لجدَّ على ماضاعَ من ذِكْرِىَ النهبُ
ولي نحو أكنافِ العراقِ صبابةٌ ولا غَرْوَ أن يَسْتَوْحِشَ الكَلِفُ الصبُّ
فإن ينزلِ الرحمنُ رَحْلِي بينهم فحينئذٍ يبدُ التأسفُ والكَرْبُ(١)

(١) ديوان ابن حزم ، ت د. صبحي رشاد عبدالكريم ، دار الصحابة للتراث ، مصر ، ط ١ ، ١٤١٠هـ ، ص ٧٧ .

المبحث الثاني

شعر الطبيعة في الأندلس

في ضوء التأثير العباسي

مدخل

ينطلق هذا النوع من الشعر في أساسه من طبيعة تلك البلاد الجميلة التي شغلت العلماء والشعراء ، فألفت فيها المصنفات وقيلت فيها قصائد لا تعد ولاتحصى ، فهذا المقريُّ في كتابه « نفح الطيب » يعقد باباً كاملاً يستغرق الجزء الأول من هذا الكتاب في « وصف جزيرة الأندلس وحسن هوائها ، واعتدال مزاجها ووفور خيراتها ، واستوائها ، واشتمالها على كثير من المحاسن ، واحتوائها، وكرم بقعتها التي شقتها سماء البركات بنافع أنوائها » (١) .

وقال الوزير لسان الدين بن الخطيب - رحمه الله تعالى - « خصّ الله تعالى بلاد الأندلس من الرَّيْع وغدق السقيا ، ولذاذة الأقوات ، وفراهة الحيوان ، ودرور الفواكه ، وكثرة المياه ، وتبحر العمران ، وجودة اللباس ، وشرف الآنيه ، وكثرة السلاح ، وصحة الهواء ، وابيضاض ألوان الإنسان ، ونبل الأذهان ، وقبول الصنائع ، وشهامة الطباع ، ونفوذ الإدراك ، وإحكام التمدن والاعتمار بما حرمه الكثير من الأقطار مما سواها . » (٢) ، وقد ألف ابن سعيد كتاباً سماه «المغرب في حلى المغرب » تحدث عنه المقري وذكر بأنه أبدع فيه أيما ابداع ، وكانت مسمياته تدل على عشق أهل الأندلس لبلادهم ، فمن أبواب هذا الكتاب « كتاب

---

(١) نفح الطيب ١/ ١٢٥ .

(٢) المصدر نفسه .

وشي الطرس ، في حلى جزيرة الأندلس » واستمر يقسمه إلى كتب على هذا النحو يختار لها أجمل الأسماء الشاعرية في نغمة إيقاعية ، تتسق مع لفظ الأندلس كقوله : « حلي العرس في حلى غرب الأندلس » ، وقوله : « الشفاه اللعس في حلى موسطة الأندلس » ، وقوله : « الفردوس في حلى مملكة بطليوس » (١) ، وهكذا يستمر ابن سعيد في وصف بلاده مبرزاً جمالها في حلة قشيبة ، يقرؤها أهل المشرق فيشتاقون لرؤيتها ، ويتمنون استنشاق هوائها ، والاستمتاع بمناظرها ، يقول ابن سعيد : « وميزان وصف الأندلس أنها جزيرة قد أحدقت بها البحار فأكثرت فيها الخصب ، والعمارة من كل جهة ، فمتى سافرت من مدينة إلى مدينة لاتكاد تنقطع من العمارة مابين قرى ومياه ومزارع ، والصحاري فيها معدومة ، ومما اختصت به أن قراها في نهاية من الجمال لتصنُّع أهلها في أوضاعها ، وتبييضها لئلا تنبو العيون عنها ، فهي كما قال الوزير ابن الحمارة فيها :

لاحَتْ قُراها بين خُضْرَةِ أيكِهَا ... كالدُّرّ بين زبرجدٍ مَكْنونِ (٢)

وظل الشاعر الأندلسي مولّهاً بطبيعته ، يتنقل بين حدائقها وبساتينها ويتغنى بمباهجها ، فلا عجب أن يقول شاعرهم :

للهِ أَنْدَلسٍ وما جَمَعتْ بها ... من كلِّ ماضَمَّتْ لها الأهواءُ

فكأنما تلك الديارُ كواكبٌ ... وكأنما تلك البقاعُ سماءُ

وبكل قُطْرٍ جدولٌ في جَنَّةٍ ... وَلِعَتْ بها الأفياءُ والأنداءُ (٣)

وأن يقول آخر :

---

(١) نفح الطيب ١/ ٢٢٤ .

(٢) المصدر نفسه ١/ ٢٠٥ .

(٣) نفح الطيب ١/ ٢٢٧ - ٢٢٨ .

في أَرْضِ أندلسٍ تلتـــذُّ نعـــمـــاءُ ... ولا يفــارقُ فـــيـــهـــا القلبَ ســـراءُ
وليس في غـــيـــرِها بالعـــيشِ مُنْتَـــفَعٌ ... ولا تقـــومُ بحقِّ الماءِ صَـــهْـــبَـــاءُ
وأين يُعْـــدَلُ عن أرضٍ تَحُضُّ بهـــا ... على الشـــهـــادةِ أزواجٌ وأبناءُ
وأين يُعْـــدَلُ عن أرضٍ تَحُثُّ بهـــا ... على المُدَامَـــةِ أفـــيـــاءُ وأنداءُ
وكـيف لا تُبْـهِجُ الأبصـارَ رؤيتُـهـا ... وكلُّ أَرْضٍ بهـــا في الوَشْيِ صنعـــاءُ
أنهـــارُها فـــضـــةٌ والمسكُ تُرْبَتُـــهـــا ... والخـزُّ رَوْضَـتُـهـا والدُّرُ حَـصْـبَـاءُ
ولـلهـــواءِ بهـــا لطفٌ يرقُّ به ... من لا يرقُّ ، وتَبْـــدُو منه أهـواءُ
ليس النسيمُ الذي يهفُـو بهـا سَحَـراً ... ولا انتـــشـــارُ لآلي الطلِّ أنداءُ
وإنما أَرَجُ الند اســـتـــشَـــارَ بهـــا ... في مـــاءِ وردٍ فطابت منه أرجـــاءُ
وأين يبلغُ منهـــا مـــا أُصَنِّفُـــه .... وكـيف يحـوي الذي حـازته إحـصـاءُ
قد مُيِّزَت من جهـات الأرض ثم بدت ... فـــريدةً ، وتولَّى مَـــيْـــزَهَا الماءُ
دارت عليـهـا نطاقـاً أبْحُـرٌ خَـفَـقَت ... وَجْـــداً بهـــا إذ تبـــدّت وهي حـــسناءُ
لذاك يَبْسِمُ فــيــهــا الزهرُ من طرَبٍ ... والطيرُ يشدو ، وللأغـصـانِ إصـغـاءُ
فــيــهــا خلعتُ عِذاري مـابهـا عِـوَضٌ ... فهي الرياضُ ، وكلُّ الأرضِ صَحراءُ (١)

فتلك هي طبيعة الأندلس ، وتلك مشاعر أهلها من أدبائها وعلمائها تجاهها وحق لهم ذلك . والكلام في هذا يطول ولا نقول إلا كما قال المقري : « ولنمسك العنان في هذا الباب ، فإن بحر الأندلس طويل مديد » (٢) ، وإن ماتميزت به هذه البيئة أعقبه تميز

(١ ، ٢) نفح الطيب ١/ ٢٢٧ - ٢٢٨ . تنسب هذه الأبيات لابن سفر المريني .

للشاعر الأندلسي عن الشاعر المشرقي ، فقد كان ينظر كما يرى « هنري بيرز » « إلى العالم المادي ، والمكان البارز الذي تحتله الطبيعة المحيطة به من فكره » (١) ، ولن يجد مايشبع هذا الفكر إلا في هذا البلد ، وقد قال ابن سعيد إنه لم ير « مايشبه رونق الأندلس في مياهها وأشجارها إلا مدينة فاس بالمغرب الأقصى ، ومدينة دمشق بالشام ، وفي حماة مسحة أندلسية » (٢) .

وقد أنتجت تلك التربة الخصبة شعراء غلبت على أشعارهم الموضوعات المستوحاة من الطبيعة على غيرها في الشعر الأندلسي (٣) ، وقد أبدعوا في وصف مظاهر هذه الطبيعة ، فظهرت على أيديهم ، مسميات موحية ، كالنوريات ، والروضيات ، والزهريات ، ووصفوا الحدائق تحت المطر ، وفي الجو الصافي ، ووصفوا الزهور بجميع أنواعها : زهرة الآس ، والأقحوان ، والبنفسج ، والبهار الذي يطلق عليه « نرجس الشعراء » (٤) ، والنرجس الأصفر ، والشقائق ، ونحو ذلك مما يتصل بحدائق الأندلس ، وقد لايوجد في غيرها كـ« النرجس القادوسي »(٥) ، وسنجد كل ذلك مبثوثاً في الأوصاف التي جمعها أبو الوليد الحميري في كتابه « البديع في وصف الربيع » (٦) .

وكل ذلك يؤكد أن وصف الطبيعة من أكثر الموضوعات التي انكفأ عليها الشعراء، وكأنهم وجدوا فيها مسلاة عما حل بهم من محن، وفتن بسبب

---

(١) الشعر الأندلسي في عصر الطوائف ، هنري بيرز ، ترجمة الطاهر مكي ، ص ١٠٧ .

(٢) نفح الطيب ١/ ٢٠٩ .

(٣) الشعر الأندلسي ، هنري بيرز « بتصرف » ، ص ١٠٧ .

(٤) المصدر نفسه ص ١٥١ .

(٥) المصدر نفسه .

(٦) عني بإخراج البديع للحميري الدكتور عبدالله عسيلان ، دار المدني – جدة، ط١/ ١٤٠٧هـ.

الحروب ، فلجؤوا إلى الطبيعة لتشملهم بعطفها وتحنو عليهم حنوّ المرضعات على الفطيم ، ولهذا يقول إحسان عباس إن هذا الموضوع من « الموضوعات الكبرى التي سيطرت على الشعر في هذه الفترة . » (١) .

ومما يؤكد صحة ذلك تلك الكتب التي ألفت ليعرض فيها وصف الطبيعة ، فمنها : كتاب الحدائق (*) الأنسية لأبي عمر بن احمد بن عبدالعزيز بن فرج القرطبي (ت ٤٠١) ، وكتاب « البديع في وصف الربيع » لأبي الوليد اسماعيل بن محمد بن عامر بن حبيب الحميري الأشبيلي المتوفي قريباً من سنة (٤٤٠ هـ) ، وكتاب : الارتياح بوصف الراح لابن مسلمة ، وكتاب : التشبيهات (٢) من أشعار أهل الأندلس ، لأبي عبدالله محمد بن الكتاني الطبيب المتوفي نحو «عشرين وأربعمائه» (٣) ، ومما ذكره الدكتور إحسان عباس أيضاً ، كتاب بعنوان : الفرائد في التشبيهات لعلي بن الحسين القرطبي (٤) ، عدا ماحوته أمهات المصادر الأندلسية ، كالذخيرة ، والمغرب ، ونفح الطيب ، وأزهار الرياض ، وما إلى ذلك ، من أشعار عجيبة في وصف تلك الطبيعة البهيجة .

وقد برع بالأندلس شعراء يشار إليهم بالبنان ، حاولوا التجديد والابتكار ما أمكنهم ذلك ، إلا أن سنة الشعر العربي المألوفة تأبى إلا أن يظل هذا الأدب العربي

---

(١) تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة ، ص ١٠٦ .

(*) هكذا وصفه إسماعيل باشا في « ذيل كشف الظنون » نشر مكتبة المثنى ، بغداد ، ٣/ ٣٩٤ ، وهو مشهور بـ « الحدائق » ، وقد أشار إليه فؤاد سوزكين ٥/ ٣١ ، طبع جامعة الامام محمد بن سعود ، الرياض .

(٢) حقق الكتاب د. إحسان عباس ، نشر دار الشروق ، بيروت – القاهرة .

(٣) الكتاب المذكور ص ١٣ .

(٤) عصر سيادة قرطبة ، ص ١٠٦ .

سلسلة متصلة ، لايمكن فصل جزء منه عن الأصل ، ولهذا فقد أدرك شعر الطبيعة بالأندلس حظاً لا بأس من التأثر بشعر المحدثين العباسيين ، وربما تأثر بغيره ، لكنه في الغالب لم يخرج عن شعر المحدثين على الأقل في بداية أمره .

وهذا التأثر لايقلل من شأن شعر الطبيعة في الأندلس ، لأنه ليس غريباً في أدب شعراؤُه ينتمون إلى أرومة واحدة وينطقون بلغة واحدة ، وقد رأينا من قبل من الشعراء العباسيين أنفسهم ، من كان له صيت ذائع في التجديد ، ولم يكن لشعره رواج بين النقاد إلا بعد أن ثقف نفسه بأشعار الجاهليين والاسلاميين وظهر صداها في شعره ، بل ربما تأثر شاعر عباسي بآخر عباسي ، كما تأثر البحتري بأبي تمام ، وتأثر ابن المعتز بأبي نواس في شعر الطبيعة والخمر ، وهذا يؤكد طبيعة هذا الأدب ، الذي يعد حلقة وصلٍ مفرغةً لا يُدرى أين طرفاها .

ويأتي الشاعر العربي في الأندلس ، فيجد نفسه أمام منهجٍ متبعٍ وسنة مُحياة ، وكان بوسعه أن يستقلَّ بعض الشيء ولاسيما في وصف الطبيعة لأنَّ قدرته ، وموهبته لا تقل عن ذلك الشاعر المشرقي إلا ماهو من سنن الله من تفضيل بعض الناس على بعض . ولذلك كان الشاعر الأندلسي يتناول معاني السابقين مع سبق الاصرار والترصد ، والتماس المبررات ، كما فعل ابن شهيد الأندلسي عندما التقى بتابعة أبي الطيب وقال له : « بلغني أنه يتناول » فكان جوابه : « للضرورة الدافعة وإلا فالقريحة غير صادعة ، والشفرة غير قاطعة » (١) .

ولعلّ من دواعي تأثر الشاعر الأندلسي بالعباسي الحياة التي عاشها الشاعر الأندلسي ، وهي شبيهة بتلك الحياة التي عاشها الشاعر العباسي في بغداد ، ولذلك يرى الدكتور جودت الركابي أن جمال الطبيعة لم يكن وحده هو الذي أدى إلى ازدهار هذا الشعر في الأندلس « بل إن الحياة اللاهية نفسها التي أشرنا إليها ،

---

(١) التوابع والزوابع ، ص ١١٢ .

والتي عاشها الشعراء كانت سبيلاً لهذا الإزدهار ، إذ كانت الطبيعة مسرح حياة الشاعر اللاهية ، وفي أحضانها استسلم للهوه ، وحبه ، وخمره ، وعكف يصور هذا اللهو وهذا الحب ، وهذه الخمر في إطار الطبيعة مقدماً لنا لوحات فيها العبير والأصباغ والألوان » (١) . ولذلك قلّ أن تجد وصف الطبيعة يستقل عن غيره من الأغراض ، فهم كما قال عنهم المقري : « إذا تغزلوا صاغوا من الورد خدوداً ، ومن النرجس عيوناً ، ومن الآس أصداغاً ، ومن السفرجل نهوداً ، ومن قصب السكر قدوداً ، ومن قلوب اللوز وسُرَر التفاح مباسم ، ومن ابنة العنب رضاباً»(٢) . ونجد وصف الطبيعة يصاحب الشعر الأندلسي في أغراض المدح والرثاء ، والفخر ، والعتاب ، وغير ذلك ، مما يدل على تغلغل طبيعة الأندلس في أغراض الشعر كما يرى الدكتور عمر الدقاق (٣) ، وذلك يعود إلى أن النقاد القدامى لم يخصوا هذا الموضوع بعناية لأنهم كانوا يعدونه أحد العناصر المكونه لأغراض الشعر ، وهي ظاهرة غريبة على حد قول بعض الدارسين ، وكأنهم يعتقدون ألا ضرورة لإفراده في غرض مستقل ، إذ المديح نوع من وصف خصال الممدوح والرثاء ضربٌ من وصف مناقب الفقيد ، والغزل نمط من وصف محاسن المرأة(٤)، وهذا مما تميز به الشاعر الأندلسي ، يقول الدكتور شوقي ضيف : «ويمزج الشاعر الأندلسي في كثير من غزله بين حبه وبين عناصر الطبيعة مزجاً لا نعرفه عند المشارقة إلا نادراً ، إذ نراه يشرك تلك العناصر معه في مشاعره وأحاسيسه » (٥) .

---

(١) في الأدب الأندلسي ، جودت الركابي ، دار المعارف بمصر ، ط ٢ ، ١٩٦٦م ، ص ١٣٠ .

(٢) نفح الطيب ١/ ٣٢٣ .

(٣) ملامح الشعر الأندلسي ، الدكتور عمر الدقاق ، دار الشروق العربي ، بيروت ، ص ٢٠٥ .

(٤) بتصرف من المرجع السابق ، ص ٢٠٥ - ٢٠٦ .

(٥) فصول في الشعر ونقده ، د. شوقي ضيف ، ص ١٥٤ .

ولعلنا فيما مضى وقفنا على كيفية تعامل أهل الأندلس مع طبيعتهم ، وأدركنا أن الشاعر الأندلسي ظل أسيراً لطبيعته « الرائعة الخلابة التي عبرت فيها الأرض عن نفسها أجمل تعبير بما أطلعته على سطحها ونثرته في شتى أرجائها ، من طيب التربة وخصب الجناب . . . هذه البقعة الكريمة من الأرض ، والغنية بشتى المناظر ، والمشاهد التي تأسر الطرف ، وتستهوي الأفئدة ، وتستثير المشاعر والعواطف ، وتستصبي الخيال ، كان لها الأثر القوي في عقول أبنائها وأخلاقهم ، وأمزجتهم ورهافة حسهم ، وصفاء أخيلتهم . » (١) .

وسندرس في هذه الصفحات ان شاء الله هذا الشعر بين العباسيين والأندلسيين على نحو قد يختلف عن طريقة تناولنا لسابقيه ، لأن لكل غرض من هذه الأغراض ظروفه وملابساته التي تفرض نفسها على البحث دون أن يتكلفها الباحث ، وستتعرف على أبرز الشعراء الذين برعوا في وصف الطبيعة متأثرين ، ومجددين .

وهذا الأثر بين الشعرين أثبته كثير من الباحثين ، بل أثبته من قبل علماء الأندلس في موسوعاتهم الأدبية كالذخيرة لابن بسام ، والمطرب لابن دحيه ، والمغرب لابن سعيد ، وخريدة القصر للعماد الأصفهاني ، ونفح الطيب للمقري ، وغير ذلك من أمهات المصادر الأندلسية ، ولا يعنينا الآن حصر هذه المصادر أو الدراسات الحديثة لأنها سترد في أثناء الدراسة ، والاستقراء .

فأما الشعراء الذين كان لهم دور بارز في وصف الطبيعة فهم كثر ، ولربما يكلّ الجهد لو أردنا إحصاءهم ، ولو قلنا إن أغلب شعراء الأندلس شعراء طبيعة لم نجانب الحقيقة العلمية ، ولذلك سنقف عند أشهرهم ، وأكثرهم اهتماماً بمبارزة العباسيين ومعارضتهم ، والتأثر بطرقهم .

---

(١) الأدب العربي في الأندلس ، د. عبدالعزيز عتيق ، ص ٢٩١ .

وهم على ثلاثة أصناف ، صنف وصفو الطبيعة ، ولم يشتهروا بها ، لغلبة الأغراض الأخرى على شعرهم ، على الرغم من وجودها في بعض مقدمات مدائحهم ، ومن هؤلاء ابن عبدربه ، وابن هاني ، وابن شهيد ، وابن دراج ، ومؤمن بن سعيد .

وصنف منهم ، يُعدّ من الجيل اللاحق ممن أدركوا القرن الخامس ، وهؤلاء اشتد ولعهم بالطبيعة ، فكثرت في أشعارهم ، وفتحوا الطريق لمن بعدهم ، أمثال ابن برد الأصغر ، وابن زيدون ، وابن عمار ، وابن الحداد ، والأعمى التطيلي ، وغيرهم .

ويطلّ علينا في القرن السادس جيل يعتبرون هم شعراء الطبيعة الحقيقيين ، وهم من أمثال : ابن حمديس ، وابن عبدون ، وابن خفاجة ، وابن وهبون ، وابن سهل الاسرائيلي ، وهؤلاء - كما يرى بعض المختصين - قد جمعوا بين الجدة والابتكار (١) .

ونحن لن ندرس كل هؤلاء الشعراء ، وإنما ندرس نماذج من أشعارهم ظهر تأثير المحدثين في أشعارهم بصورة جلية ، لنؤكد شدة التماسك بين فروع أدبنا العربي ، حتى لا نتجنى على أدباء هذا الصقع ، ونصمهم بما وصمهم به بعض الدارسين ، بألفاظ الاحتذاء ، والتقليد ، والتكرار دون إنصاف لهم ، كما فعل «هنري بيرس» عندما قال : «إن شعراء الأندلس يكررون أنفسهم ، ولا يستحقون أن يذكروا في هذا الجانب في عداد الأصلاء أو المجددين ، فقد سبقهم الشرق في تناول هذا النوع ، ونجده عند معظم شعراء العصر العباسي من القرن الثامن حتى العاشر ، وبخاصة البحتري وابن المعتز ، والصنوبري»(٢) ، فهذه قسوة في غير

---

(١) ينظر شعر الطبيعة ، د. سيد نوفل ، ص ٢٥٠ .

(٢) الشعر الأندلسي في عصر الطوائف ، ترجمة طاهر مكي ، ص ١٤٥ .

موضعها من مستشرق ربّما لم تؤهله مداركه إلى استكناه نصوص شعر الطبيعة الأندلسية ، ووعي طرائق الشعر العربي بصفة عامة ، وأن الشاعر العربي دوماً متعلق بتراثه الذي يعتبر كالمعين بالنسبة له ، ولا يستطيع الخروج على تقاليده إلا بالقدر الذي يفرضه عليه العصر الذي نبغ فيه ، ومع ذلك فقد استطاع الشاعر الأندلسي التميز والابتكار ، وقد أشاد بذلك « بيرس » نفسه ، فقال : « وإذا لم يكن الغرب الإسلامي قد أبدع شيئاً في هذا المجال ، فقد تميز على الأقل بتعبيرات أكثر جدية ، وأقرب إلى ما هو طبيعي . . » (١) .

وإذا كان شعر الطبيعة هو ذلك « الشعر الذي يمثل الطبيعة ، وما اشتملت عليه في جوٍّ طبيعي يزيده جمالاً خيال الشاعر ، وتتمثّل فيه نفسه المرهفة وحبه لها واستغراقه بمفاتنها » (٢) فإن شعر الطبيعة في الأندلس وجد ذلك الجو مفعماً بأزهى ألوان الطبيعة يصوغه خيال شعراء لا تقل ملكتهم عن ملكة الشعراء العباسيين وإن تأثروا بهم ، فشعر الطبيعة كما يقول الدكتور شوقي ضيف هو « أهم موضوع برع فيه الأندلسيون . . . وقد أعانهم فيه جمال المناظر في إقليمهم ، ولهم فيه روائع كثيرة ، وهي روائع كانت تستمد من كنوز الشعر العباسي ، مضيفةً إليها أخيلةً دقيقة كثيرة » (٣) .

وهذا الرأي فيه إنصاف إلى حدٍّ ما ، وإن كان شوقي ضيف ، قد أجحف في حقهم عندما قال : « فقد استقر في أذهان الشعراء أن خير عصور الشعر ،

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٤٩ .

(٢) الطبيعة في الشعر الأندلسي ، جودت الركابي ، مكتبة أطلس ، دمشق ١٣٩٠هـ-١٩٧٠م ، ص ١٣ .

(٣) الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، د. شوقي ضيف ، ص ٤٣٣ . وممن أشاد بتفوق الأندلسيين في وصف الطبيعة أستاذنا الدكتور عبدالعزيز الكفراوي في كتابه « الشعر العربي بين الجمود والتطور » ، ص ١١٣ .

وأزهاها هو العصر العباسي ، وما ينطوي فيه من شعراء عظام أمثال أبي نواس ، وأبي تمام ، والبحتري ، وابن الرومي ، وابن المعتز ، والمتنبي ، فذهبوا يقرؤون هؤلاء الشعراء وأمثالهم ، ثم يحاكونهم دون أن يفهموا مذاهبهم فهماً واضحاً أو يعرفوا مابين هذه المذاهب من مفارق واسعة ، وكأني بالأندلسيين انتهوا إلى التقليد ، وارتضوه لأنفسهم ، فعاشوا في الشعر العربي هذه المعيشة التقليدية التي نرى آثارها الآن عند ابن برد ، وغيره من الشعراء » (١) .

فهذا الكلام منه ما هو مقبول مستساغ ، ومنه ما هو مردود غير مقبول .

فأما الأول : وهو اهتمام الأندلسيين بمعرفة أشعار العباسيين ، والحرص على روايتها ، والانكباب عليها قراءة وحفظا ، فنحن معه في ذلك ، وقد بينا شيئاً من ذلك في الفصل الخاص بعلاقة الأندلسيين بالعباسيين والميل إلى رواية أشعارهم، وتلقف أخبارهم من أفواه الرواة ، وممّن رحل إلى المشرق وعاد إلى الأندلس .

وأما الثاني أي المردود وهو كونهم يحاكون العباسيين دون فهم لمذاهبهم ، فهذا الكلام تنقضه النصوص النقدية المبثوثة في أمهات الكتب الأندلسية كالذخيرة، وطبقات النحويين ، وما حواه نفح الطيب من نقول ، ولاسيما في الرسائل الأندلسية التي ولدتها الخصومات بين المشرق والأندلس كرسالة ابن حزم، ورسالة ابن سعيد ، ورسالة الشقندي ، وكلها لتخليد مآثر أهل الأندلس وشعرائها، وكتابها (٢) ، والرد على كل من اتهم أهل الأندلس بقلة علومهم ،

---

(١) الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، الدكتور شوقي ضيف ، ص ٤٣٣ .

(٢) ينظر هذا الكلام مبسوطاً في مدخل رسالة الماجستير « تجديدات الأندلسيين في فن النثر العربي » للباحث ، جامعة أم القرى ، كلية اللغة العربية ١٤٠٧ - ١٤٠٨هـ.

وضعف ثقافتهم ، ومن أكبر الدلائل على معرفة الأندلسيين بمذاهب الشعر في المشرق ، ماذكره ابن حزم من ذكر الشاعر الأندلسي بإزاء الشاعر المشرقي وتحديد مذهبه ، ومن ذلك على سبيل المثال قوله : « ونحن إذا ذكرنا أبا الأجرب جعونة ابن الصمة الكلابي في الشعر لم نباه به إلا جريراً والفرزدق لكونه في عصرهما ، ولو أنصف لاستشهد بشعره ، فهو جار على مذهب الأوائل لا على طريقة المحدثين . . . ، . . . ولو لم يكن لنا من فحولِ الشعراء إلا أحمد بن دراج القسطلي لما تأخر عن شأو بشار بن برد وحبيب والمتنبي » (١) ، وعندما ذكر البلغاء أشاد بابن شهيد وأن له من التصرف في وجوه البلاغة ، وشعابها مقداراً يكاد ينطق فيه بلسان مركب من لساني عمرو وسهل . » (٢) . ومما يؤكد أيضاً معرفتهم بمذاهب العباسيين قول العالم اللغوي أبي عبدالله بن معمر من أعيان « مالقة » مخاطباً ابن شرف الجذامي أديب أفريقية :

قولوا لشاعرِ بَرَجة هل جاءَ من ... أرضِ العراقِ فحازَ طبعَ البحتري
وافى بأشعارٍ تَضِجُّ بكفّهِ ... وتقول هل أُعْزَى لمن لم يَشْعرِ
ياجعفراً رُدَّ القريضَ لأهلِه ... واترك مباراةً لتلك الأبْحُرِ
لا تزعمنْ مالم تكنْ أهلاً له ... هذا الرُّضَابُ لغير فيك الأبْخَرِ (٣)

ولابن شهيد كلام يؤكد معرفة أهل الأندلس بمذاهب المحدثين معرفة دقيقة يقول فيه : « وكذلك الشعراء انتقلوا عن العادة في الصنعة بانتقال الزمان ، وطلب كل ذي عصر مايجوز فيه ، وتهش له قلوب أهله ، فكان من صريع الغواني وبشار

---

(١) نفح الطيب ، ٣/١٥٦ .
(٢) المصدر نفسه .
(٣) المصدر نفسه ٣/ ٣٩٧ .

وأبي نواس ، وأصحابهم في البديع ماكان من الزيادة في تفريع فنونه ، ثم جاء أبوتمام فأسرف في التجنيس ، وخرج عن العادة وطاب ذلك منه ، وامتثله الناس فكل شعر لايكون اليوم تجنيساً أو يشبهه تمجه الأذان ، والتوسط في الأمر أعدل ، ولذلك فضل أهل البصرة صريع الغواني على أبي تمام لأنه لبس ديباجة المحدثين على لامة العرب ، فتركب له من الحسن بينهما ما تركب » (١) .

ولم أكن لأطيل الكلام في الرد على الدكتور شوقي ضيف ، ومن ذهب مذهبه ممن تقدمه كالأستاذ أحمد أمين (٢) ، أو تأخر عنه من الدارسين المتأخرين كالأستاذ عبداللطيف عبدالحليم ، عندما كتب بحثاً (٣) وازن فيه بين المتنبي وابن دراج ، وتحامل على ابن دراج تحاملاً ينم عن سوء طوية ، وعدم روية ، وكأنه يودُّ بذلك إرضاء الشيخ محمود شاكر ، إلا لما وجدت من اندفاعهم واسرافهم في هذا المسلك . ونحن في هذا البحث نرفض هذا المسلك من المعاصرين ، ونرفضه كذلك من المتقدمين أمثال ابن حزم ، والشقندي ممن تولوا الدفاع عن أهل الأندلس بدافع العصبية الاقليمية على الرغم من كونها ردود فعل لما وجه إلى أهل الأندلس من اتهامات باطلة بالضعف والتقصير .

وأما المعاصرون أمثال أحمد أمين وشوقي ضيف ومن تقيلهم واتبع سبيلهم وأسبغ على الأدب الأندلسي وابلاً من التهم ، فكان منطلقهم العصبية العلمية للمشرق وشعرائه ، وهي تدل على تعصب ، وتسرع في الأحكام وهم ينطلقون في نظرتهم هذه حول أدبنا العربي في الأندلس من واقع

---

(١) الذخيرة ق ١/ م ١ ص ٢٣٨ .

(٢) ينظر : ظهر الاسلام ، الجزء الثالث ، ص ٢٥٨ ، وفيض الخاطر ، ص ١٠٤ - ١٠٥ .

(٣) كتب هذا البحث ضمن المجموعة المهداة إلى أديب العربية الكبير محمود شاكر بمناسبة بلوغه السبعين . ينظر دراسات عربية وإسلامية ، ص ٣٦١ ، القاهرة ١٤٠٣هـ - ١٩٨٢م .

« نظرية الناقد الفرنسي « هيبوليت تين » التي تعالج درس الآداب العالمية ، وفق ثلاثة عوامل تتركز على أساسها خصائص الشعوب الثقافية ، وهي عامل الجنس ، وعامل الزمان ، وعامل المكان ، فهذه العوامل جعلت أكثر الدارسين المعاصرين يجزم بأن الأدب في الأندلس ماهو إلا صدى للأدب في المشرق . . . » (١) ، وأين هؤلاء من الدكتور احمد ضيف الذي أنصف الأدب الأندلسي في كتابه الرائد « بلاغة العرب في الأندلس » ، فقد أشاد « ببراعة أدباء تلك البلاد ومكانتهم في الأدب العربي »(٢)، فقال « كان لعرب الأندلس أدب رائع وشعر بليغ ، ونثر بديع وسعة في الخيال ، وقدرة على الابتكار » (٣) وقال في موطن آخر : « على أن شعر الأندلسيين يمتاز في جملته عن الشعر العربي بما فيه من المعاني المبتكرة الجميلة ، التي كان يعالجها الشعراء هناك ، فبينما ترى الشاعر يصبو إلى ذكر بلاده الأولى من حياته البدوية ، تجده يذكر الرياض والبساتين والأزهار والأنهار والمياه الجارية ، وظلال الأشجار ، والنسيم العليل » (٤) .

وعلى أية حال ، فإن هذا البحث لا يُنكر التأثير العباسي ، على شعراء الأندلس ، إنْ في وصف الطبيعة أو سواه ، بل يُثبته ناظراً إليه بعين الانصاف ، كما سبق أن أثبتناه في الغرضين السابقين من هذا البحث ، فهانحن نثبته ونقدم سلفاً أنه امتداد لذلك الأدب العتيق في المشرق العربي ، وما كنت أود الإطالة في هذه الردود لكن رأيت لزاماً عليَّ أن أنصف هذا الأدب حتى ينبلج وجه الحق لمن أراده، وحتى يصبح مانثبته من التأثيرات ليس من قبيل ماذهب إليه أولئك الدارسون ، لكن من قبيل وضع الشعر الأندلسي في مكانه الصحيح من الأدب العربي بعامة ، وسيتضح ذلك جلياً إن شاء الله من خلال استقرائنا لنصوص متنوعة من هذا الشعر الأصيل ، ومن خلال كيفية تناول الأندلسيين لها ، ونتبين مدى التأثير الذي حصل فيها .

---

(١) تجديدات الأندلسيين في النثر العربي ، رسالة الماجستير للباحث ، ص ٤١ .

(٢) بلاغة العرب في الأندلس ، ص(د) .

(٣) بلاغة العرب في الأندلس ، أحمد ضيف ، ص (د) ط ١ سنة ١٣٤٢ هـ .

(٤) المصدر نفسه ص ٣٦ .

كيف تناول شعراء الأندلس وصف الطبيعة :

وصف الأندلسيون أغلب مظاهر الطبيعة الحية والصامتة ، وقد برعوا في ذلك « براعةً لا تجارى ، لتأثير الحضارة وجمال الطبيعة في نفوسهم وانغماسهم في الترف ، فوصفوا كل شيءٍ وقع عليه نظرهم وجال بخاطرهم ، وكان ذلك من مميزات الشعر في الأندلس ، ومن أظهر خصائصه » (١) ، وقد ارتبط جزء كبير من شعر الطبيعة بالحنين إلى الديار والحديث عن الغربة ، وهو نمط عرفه الشعر العربي القديم ، فعندما نجد شاعراً أبعدته الظروف عن مسقط رأسه ، وألفى نفسه بين عشية وضحاها في بلد لايمت له بصلة ، كعبدالرحمن الداخل مؤسس الدولة الأموية بالأندلس ، فلا غرابة أن يقف أمام تلك النخلة الغريبة بين الأشجار ، فيخاطبها بقوله :

تَبَدَّتْ لنا وسطَ الرَّصافةِ نخلةٌ ... تناءَتْ بأرضِ الغَرْب عن بلد النَّخْلِ
فقلتُ شبيهي في التَّغرُّب والنَّوى ... وطولِ التَّنائي عن بَنِيَّ وعن أهلِ
نشأتِ بأرضٍ أنتِ فيها غريبةٌ ... فمِثْلُك في الاقصاء والمنتآى مثلِ (٢)

ومما ينسب له أيضاً قوله :

يانخلُ أنتِ غريبةٌ مِثْلي ... في الغَربِ نائيةٌ عن الأَصْلِ
فابْكي وهل تَبكي مُكبسةٌ ... عجماءُ لم تطبع على خبلي
لو أنها تَبْكي إذاً لبَكتْ ... ماءَ الفراتِ ومَنبِتَ النَّخلِ

---

(١) المفصل في تاريخ الأدب العربي ، أحمد الإسكندري ، أحمد أمين ، على الجارم ، عبدالعزيز البشري ، أحمد ضيف ٢/ ١٠٠ .

(٢) الحلة السيراء ١/ ٣٧ .

لكنَّها ذُهِلَتْ وأذهَلَنِي بُغْضِي بني العباسِ عن أهلي(١)

فهذه الأبيات والتي قبلها لم تكن النخلة فيها إلا رمزاً تذكر من خلاله مُلْكَه العتيق بالمشرق ، ولم يستطع مُلكه الجديد بالأندلس أن ينسيه ذلك الملك ، وظل يبكي ماء الفرات ، ولكن بغضه لبني العباس جعله ينسى كل شيء هناك . وكما نلاحظ من ديباجة هذه الأبيات فهي مشرقية خالصة في معانيها ، وفي أسلوبها ، وحتى النخلة المخاطبة ليست مما ينبت في أرض الأندلس الباردة ، وإنما هي منتقلة مع العرب « إلى تلك الديار النائية القاصية البعيدة » (٢) .

ومن هنا فإننا نجد في الأندلس أغلب مذاهب المشارقة في وصف الطبيعة لأنهم كما يرى الدكتو شوقي ضيف (*) بنقلهم للنخلة « نقلوا إلى أشعارهم كل العناصر البدوية النجدية من أطلال وغير أطلال ، ونقلوا ما استحدثه العباسيون في وصف الطبيعة ، وسكبوا عليه من بيئتهم ، وأخيلتهم ما بث فيه الحياة والحيوية . »(٣) .

وقد ظل بعض الشعراء بالأندلس متمسكاً بالمنهج القديم إلى جوار منهج المحدثين ، كابن شهيد الأندلسي ، يقول عنه الدكتور سيد نوفل : « ولعلّ ابن شهيد الأندلسي يمثل هذا الاتجاه أوضح تمثيل . . . . يقلد القدماء كما يقلد المحدثين ، وكان يعيش بأدبه في عصور مختلفة ، ويشترط الغريب للشعر كما يشترط الطبع ، ويعجب بامريء القيس وزهير وعنترة ، كما يعجب بأبي تمام وأبي

---

(١) المصدر السابق ص ٣٧.

(٢) عصر الدول والإمارات ، ص ٢٩٤ .

(*) ملحوظة : في هذا الكتاب المشار إليه يبدو أن الدكتور شوقي ضيف رجع عن كثير من آرائه التي بثها في « الفن ومذاهبه » .

(٣) السابق ، ص ٣٩٤ .

نواس والشريف الرضي ، ويفاخر القدماء في معانيهم ، كما يفاخر المحدثين ، وإذا وصف الأطلال والبادية وما إليهما من معاني القدماء وصف كذلك الطبيعة في جو الخمر ، والنجوم والليل على الطريقة الحديثة . . . » (١) .

ويبدو أن ابن شهيد كان يجد في اللجوء إلى الطبيعة ومعاقرة الخمرة متنفساً بسبب الضغوط السياسية التي وقعت عليه ، وبسبب اتخاذه من طائفة كبيرة من الأدباء والنقاد أعداءً له ، وقد عبر عن ذلك في موقفه من أبي القاسم الافليلي ، في رسالة التوابع والزوابع ، يقول الدكتور أحمد هيكل : « ولم يكن ابن شهيد يعاني من كراهية أكثر الحكام فحسب ، وإنما كان يعاني من كراهية كثير من رجال العلم والأدب ، وخاصة من عُرفوا منهم بالمحافظة . ولعلَّ من أهم أسباب كراهية هؤلاء لابن شهيد ، تحرره البالغ ، وانطلاقه الزائد ، ومجونه المعربد ، ولسانه اللاذع وجرأته الجارحة » (٢) ، وكانت حياته قريبة جداً في عبثه ومجونه من حياة أبي نواس ، فكان له مجلس يحضره المجان ، وبعض مرتادي الحانات ، ذكر الفتح بن خاقان في « المطمح » أن الوزير أبا الحسين بن سراج قال عن ابن شهيد : « كنا نحضر مجلس شرابه ، ولا نغيب عن بابه ، وكان له بباب الصومعة من الجامع موضع لايفارقه أكثر نهاره ، ولا يخليه من نثر درره وأزهاره ، فقعد فيه ليلة سبع وعشرين من رمضان في لمة من إخوانه ، وأئمة سلوانه وقد حفوا به ليقطفوا نخب أدبه ، وهو يخلط لهم الجدَّ بهزْل ، ولا يفرِّط في انبساط مشتهر ، ولا انقباض جزل ، وإذا بجارية من أعيان أهل قرطبة معها من جواريها من يسترها ويواريها ، وهي ترتاد موضعاً لمناجاة ربها ، وتبتغي منزلاً لاستغفار ذنبها ، وهي متنقبة ، خائفة ممن يرقبها مترقبة ، وأمامها طفل كأنه غصن آس ، أو ظبي يمرح في كناس ،

---

(١) شعر الطبيعة في الأدب العربي ، ص ٢٥١ .

(٢) الأدب الأندلسي ، أحمد هيكل ، ص ٣٧١ .

فلما وقعت عينها على أبي عامر ، ولت سريعة وتولت مروعة خيفة أن يشبب بها أو يشهرها باسمها ، فلما نظرها قال قولاً فضحها به وشهرها :

وناظـــــرةٍ تحـتَ طيِّ القنـاعِ ... دعـــاها إلى اللهِ والخـيــرِ داعِ
سـعتْ خُـفْـيَـةً تبْـتَـغِي منزلاً ... لوصــــلِ التَبـتُّلِ والانْقِطَـاعِ
وجَـالَـتْ بموضِـعِـنَـا جولـــةً ... فـحلّ الربيعُ بِتِلْكَ البِـقَـاعِ » (١)

فهذه القصة تدل على الشبه الكبير بين أبي نواس وابن شهيد ، فكان أبونواس يرتاد مجلسه عصابة المجان ، وكان النساء يخشين لسانه ، وكان لا يأبه بشعائر ولا عبادات ، فإذا كانت ليلة السابع والعشرين من رمضان عند ابن شهيد ليلة مرح وشراب ، وغزل ، فكيف بحياة أبي نواس ، وما أشبه الليلة بالبارحة فأبونواس سمع داعي « الفلاح » يدعو فقال :

لاحَ إشــراقُ الصــبــاحِ ... فــاطــرد الهــمَّ بــــراحِ
لستُ بالتـــــاركِ لذا ... تِ النَّدَامى للصــــلاحِ
قُلْ لِمَنْ يبـغي صَـلاحِي ... بعتُ رُشْـدِي بِطَلاحِي(٢)

وابن شهيد كان يحتذي في شعره المذاهب الشعرية قبل احتذاء الشعراء ، فعندما يقف بالأطلال لم يقصد إلى تقليد شاعر بعينه ، وإذا وصف الطبيعة والخمر ، فلعلمه أن مذهباً قد ساد في عصر بني العباس سار على هذا النحو ، وما

---

(١) مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس ، تأليف أبي نصر الفتح بن خاقان الاشبيلي ، دراسة وتحقيق محمد علي شوابكه ، دار عمار ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط ١ - ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م ، ص ١٩١ - ١٩٢ .

(٢) خمريات أبي نواس ، الدكتور نجيب عطوى ، دار مكتبة الهلال ، بيروت ، ط١-١٩٨٦م ، ص ١١٨ .

هو إلا أحد شعراء العربية الذين أباحوا لأنفسهم التنقل بين مذاهب الشعر واتجاهاته، كما كان المتنبي كذلك عندما دخل الشعر من أوسع أبوابه ، وسطا على من يريد من الشعراء ، وهو شاعر العربية العظيم .

وطريقة أبي نواس في وصف الطبيعة والخمر ، قد احتذاها شعراء العصر العباسي كما عرفنا ، ثم انتقلت إلى الأندلس ، فأثرت على الشعراء هناك ، وابن شهيد الذي يقول الشعر في جميع الأغراض ، لابد أن يكون للطبيعة والخمر في شعره أوفر الحظ والنصيب ، ومما عرف عنه أنه « لم يلزم اتجاهاً معيناً ، وإنما سار في كل الاتجاهات حسب الأغراض والملابسات والمواقف ، وإن كان أميل إلى الاتجاهين المحدث والمحافظ الجديد . » (١) .

وبنظرة سريعة في قصيدته الميمية المشهورة التي مطلعها :

أما الرياحُ بِجَوِّ عاصِمْ فَحَلَبْنَ أَخْلافَ الغَمائِمْ(٢)

نجد أنه في هذه القصيدة جمع بين وصف الروض ، والنور ، والغزل ، ووصف الخمر على الرغم من أن القصيدة في أساسها قيلت في مدح المؤتمن عبدالعزيز بن عبدالرحمن ابن أبي عامر ، ضمن رسالة نثرية ، يشيد فيها بما أسداه إليه من النعم فقال : « مكرمة – أعز الله المؤتمن – ، لم تعد لغير عامري ، ولا سمع بمثلها لغير معافري ، ولماعز الخطاب ، ووقع الكتاب ، وكان عبدك منسوباً إلى شيء من نظم الكلام ، قال على كلّة الذهن وقلّة الغرْب بالحال ، وشغل البال ، ما علم وفهم»(٣) وأنشدها بالمطلع المذكور . ولعلنا نعرض نماذج منها ، لنبين كيف تواردت فيها أوصاف الطبيعة والخمر والغزل ، ثم انتهى فيها إلى المدح ، يقول :

---

(١) الأدب الأندلسي ، أحمد هيكل ، ص ٣٧١ .

(٢) الديوان ، ص ١٥٥ ، قصيدة (٦٤) .

(٣) الذخيرة ق ١/ ١٩٩ .

سَــهِــرَ الحَــيَــا بِرِيَاضِــهــا ... فــأَسَــالَهَــا ، والنورُ نَائِمْ
حــتى اغْـــتَــدَتْ زهراتُهــا ... كــالغِــيــدِ باللُّجِّ العــوائِمْ
من ثـيـــــابــــاتٍ لم تُبَلْ ... كَــشْفَ الخـدودِ ولا المعَـاصِم
وصـــِـغَـــــارِ أبكارٍ شَكَتْ ... خَــجَــلاً فــعــاذَت بالكَمَــائِم
وَرْدٌ كـــمـــا خَــجِلت خُــدو ... دُ الـعِـينِ مـن لحظـاتِ هَـائِـمْ
وشــقـــيقُ نعــمـــانٍ شَكَتْ ... صــفـــحــاتُه من لطمِ لاطِمْ
وغُـــصُــونُ أشــجــارٍ حَكَتْ ... رَقْصَ المآثـمِ لـلمــــــآثِم
بَكَرَ الحـــســـانُ يَرِدْنَهـــا ... من كلِّ واضِــحَـــةِ الملاغِمْ
وضَـحِكْنَ عَـجْـبـاً فـالتـقَتْ ... فـــيـهـــا المبــاسِمُ بالمبــاسِمْ

إلى أن قال :

وَتَكَاوَسَــــتْ فــيـهـا الأبـــا ... رِقُ وهي فـــاهِقَــةُ الحــلاقِمْ
وجـــرى بهـــا فلكُ الصَّـــبـــا ... با للهـــو ، والقُـــضُب اللواثِم
وكـــأننا فــيـــهــا العـــفـــا ... رتُ والـكـؤوسُ مـن الـرَوَاجِـم
وعـــــــلا بـنـا سُكْـرُ أبـى ... إلا الانـابـةَ للمـحـــــارِمْ(١)

فهذه القصيدة محدثة المعنى والمبنى ، تدل على براعة ابن شهيد ، وقدرته على مجاراة المحدثين ، كما كان يجارى القدامى في الوقوف بالأطلال ، ورأينا ذلك في قصيدته الهائية التي يقول فيها :

هاتيكَ دارُهـــم فَـقِـــفْ بمغَانِهــا ... تَجِـدِ الدُّمـوعَ تجدُّ في هَمَلانِهـا
عُـجْنَا الرِّكـابَ بها فَـهَيَّجَ وَجْـدَنا ... دِمَنٌ ذَعْرنَ السِّرْبَ من إدمَانِهـا

---

(١) الذخيرة ق١م١ ١٢١ ، ١٩٩ - ٢٠٠ ، الديوان ، ص ١٥٥ ، قصيدة (٦٤) .

إلى أن قال :

أمسى الفرزدقُ كُفْؤَها في حَوْكِـهِ   وجرى القضاءُ لها على صَلَتانِها(١)

فهل بعد هذا يمكن أن نقبل كلام الدكتور شوقي ضيف ، في أن الأندلسيين يقلدون دون وعي ، لمذاهب المحدثين ، ولو لم يكن ابن شهيد يدرك ذلك ماستطاع أن يقول :

أَذَّنَ الديكُ فَـشُبْ أو ثَوِّبِ   وانْضَحِ القلبَ بماءِ العنبِ
وتأمَّلْ آيةً ، مُعجِزةً ...   ماقرأنا مثلَها في الكتبِ
ركعَ الإبريقُ من طاعتِهِ   وبكى فَابْتَلَّ ثوبُ الأكؤُبِ
وغمامٍ باكرتْنا عينُه   تَتْرعُ الأُفْقَ بدفعٍ صَيِّبِ(٢)

وهذه الأبيات من الدلالة بمكان على وضوح أثر أبي نواس في الخمر والطبيعة على ابن شهيد ، وضوحاً لا يحتاج إلى رجوع لنصوص أبي نواس ، فابن شهيد هنا يقلد اتجاهاً وليس نصا بعينه ، وهذا مايؤكده قول أبي الحسن ابن بسام : «وقد ضارع أبو عامر هذا محاسن الطبقة العالية البغدادية المضارعة التي بانت قوته ، ولدنت اختراعاته ، ومقدرته ، فصار يتناول المعنى الحسن ، فيصيره محسا بحسن مساقه ، فمنها وصفه للنحل والعسل : واسعة الأكفال والصدور مرهفة ، ووصف البرغوث فقال أسود زنجي ، ووصف البعوضة فقال : ملكية لا جيش لها سواها ، ووصف الثعلب فقال أدهى من عمرو ، فهذه أوصاف لو رامها غيره لكبا جواد بنانه ، ونبا حسام لسانه . . »(٣) وكل هذه الموصوفات من مظاهر الطبيعة الحية ، وإن كانت في نظر ابن شهيد ذات مغزى بعيد يفسرها سخطه وتذمره من مجتمعه .

---

(١) الذخيرة ق١ ، م١ ، ص ٢٠٥ - ٢٠٧ .

(٢) الديوان ، ص ٩٢ ، قصيدة رقم ١٠ .

(٣) الذخيرة ق ١ م ١ ص ٢١٩ .

وكلام ابن شهيد « المنثور » فيه من الشواهد على أن شعره في وصف الطبيعة في جو الخمر إنما يعبر عن حياته اللاهية ، فهو يقول : « أجل مابيننا ارتضاع الكأس ، وشم الآس ، والجري في حانات الصبا والصيد بالسكر في الربى »(١) .

ولعل في ما ذكرنا عن تأثر ابن شهيد بمذهب أبي نواس في الخمر والطبيعة مايسد الرمق ، لأن ثمة موضوعا بارزاً طرقه الشعراء المحدثون كثيراً ، وشغف به شعراء الأندلس ، مما أدى إلى حصر بعض الأشعار التي قيلت فيه في مؤلفات مستقلة أشرنا إلى أهمها وهو كتاب « البديع في فصل الربيع » ، لأبي الوليد اسماعيل الحميري الذي شغف بالطبيعة في شعره ونثره ، يقول المقرّي : « وكان وهو ابن سبع عشرة سنة ينظم النظم الفائق ، وينثر النثر الرائق . . . وله كتاب سماه بـ« البديع في فصل الربيع » جمع فيه أشعار أهل الأندلس خاصة ، أعرب فيه عن أدب غزير ، وحظ من الحفظ موفور » (٢) وكان « أكثر نظمه ونثره في الأزاهر ، وذلك يدل على رقة نفسه » (٣) . وهذا يؤكد ولعه بالطبيعة ، ولذلك كثيراً ماتجد عباراته عندما يتحدث عن حياته الخاصة لاتخرج عن البساتين والحدائق التي يتنزه فيها ، يقول الدكتور عبدالله عسيلان : « ولا غرابة في ذلك ، فقد كان أبوالوليد مولعاً بمظاهر الطبيعة التي تبدو في الأندلس ، وفي موطنه اشبيلية بثوبها الأخضر القشيب المنمنم بروائع الغراس ، والأشجار ، والموشى ببدائع الزهور ، من آس ، وأقحوان ، وبنفسج ، وجلنار ، وخيري ، وريحان ، وسوسن ، وعرار ، ونرجس ، ونسرين ، ونيلوفر ، وورد ، وياسمين ، وغير ذلك مما تزخر به حدائق أشبيلية وبساتينها ، ومتنزهاتها التي كان أبوالوليد يهوى التنزه في أفيائها . . »(٤) .

---

(١) السابق ، ص ٢٢٧ .

(٢) نفح الطيب ٣/ ٤٢٨ .

(٣) نفسه

(٤) مقدمة التحقيق ، ص ١٧ ، د. عبدالله عسيلان .

وقد جمع في كتابه هذا أشعاراً لم يخرج فيها عن أشعار أهل بلده إلا إذا أراد تبيان الأوصاف التي اشترك فيها المشارقة والأندلسيون على سبيل المضاهاة ، كقصيدة ابن الرومي التي يفضل فيها النرجس على غيره من أنواع الورد ، والزهور ، والتي يقول فيها :

أين العيونُ من الخدودِ نَفَاسةً   ورياسةً لولا القياسُ الفاسِدُ

وهذه القصيدة قد أثرت تأثيرا واضحاً على بعض الشعراء من وصافي الطبيعة بالأندلس ، سنقف عندها وقفة متأنية إن شاء الله ، بعد أن نبين أثر بعض الشعراء العباسيين الذين سبقوا ابن الرومي ، ولعل أبرزهم أبو تمام .

لاشك أن لأبي تمام تأثيراً بالغاً على شعراء عصره وشعراء الأندلس وقد عرفنا شيئاً من ذلك في غرضي المديح والغزل ، ولم يكن يدور بخلدي أن أثره سيستمر حتى في وصف الطبيعة الذي فاق الأندلسيون فيه المشارقة إلا أن أبا تمام يعد في طليعة شعراء الطبيعة ، يؤيد ذلك ماقامت به الدكتورة نسيمة الغيث من دراسة للتجديد في وصف الطبيعة بين أبي تمام والمتنبي (١) ، وأكدت في هذا البحث أن أبا تمام كان أحد الشعراء المولعين بالطبيعة ، وأنه قد جدد كعادته في الصور والأخيلة ، والاستعارة والتشبيه ، فتقول الباحثة : « ويقع التجديد عند أبي تمام غالباً في استعاراته الغريبة ، واستخدامه للبديع » (٢) .

ونظراً لكون أبي تمام أحد شعراء المديح البارزين ، فكان يستخدم مظاهر الطبيعة في وصف الممدوح ، لذلك تقول هذه الباحثة : « كما أفاد أبو تمام من فكرة الطير عند العرب ، فاستخدمها في الرمز إلى الشعر وإلى الممدوح » (٣) ، وكذلك رمز - كما فعل الشعراء من قبل - بالأسد لممدوحه ، كما في قوله :

---

(١) التجديد في وصف الطبيعة بين أبي تمام والمتنبي ، د. نسيمة الغيث ، مصر ، ص١٣٩ .

(٢) نفسه ، ص ١٣٩ .

(٣) نفسه ، ص ١٩٨ .

يقولون إن الليث ليث خفية   نواجذه مطرورة ومخالبه (١)

وقد كانت عناية أبي تمام بالطبيعة عناية من يرى فيها الرمز والإيحاء دون التصريح ولذلك ركز عليها وانتهجها غاية ووسيلة في شعره ووقف بها وقفات غير قصيرة ، متأملاً أسرارها وعجائبها ، بعد أن كانت في العصور الجاهلية مجرد وصف نقلي لطبيعة صحراوية متواضعة (٢) ، وأبو تمام كما يرى الدكتور نجيب البهبيتي كان حسه بالطبيعة « لا يقف عند الوصف فقط ولكنما يتعداه إلى أثر جمالها في النفس » (٣) .

ولا نود إطالة القول في كيفية معالجة أبي تمام لشعر الطبيعة ، لأننا نودُّ أن نتعرف على تأثيره على شعراء الأندلس في وصف الطبيعة ، فالمعهود عن هذا الشاعر أنه قد برع في غرض المديح ، ولهذا فإن وصف الطبيعة عنده « يأتي مع غرض المديح أو الرثاء ، أو الوصف أحيانا » (٤) باعتباره أعم من وصف الطبيعة ، فقصيدته الرائية التي أثرت في شعراء الأندلس وتداولها الدارسون على أنها في وصف الربيع ، هي في حقيقتها قيلت في مدح المعتصم ، ومطلعها :

رقعت حواشي الدهر فهي تمرمر   وغدا الثرى في حليه يتكسرُ (٥)

وهؤلاء الدارسون على حق ، لأن جزءاً كبيراً منها هو في وصف الربيع ، ولذلك احتضنها الأندلسيون ، وعارضوها ، مع أن الدكتور إحسان عباس كان

---

(١) الديوان ١/ ٢٢٩ ، ت . محمد عبده عزام .

(٢) التجديد في وصف الطبيعة بين أبي تمام والمتنبي/ بتصرف ص ٨٧ .

(٣) أبو تمام ، حياته وشعره ، د. نجيب البهبيتي ، ص ٢١١ .

(٤) التجديد في وصف الطبيعة بين أبي تمام والمتنبي ، ص ٧٥ .

(٥) الديوان ، ٢/ ١٩١ ، القصيدة ٧١ .

يرى أنه من « أغرب الأمور أن يكون شعر أبي تمام محركاً في وصف الطبيعة الأندلسية ، وأنموذجاً للأندلسيين في هذا المقام وبخاصة قصيدته التي يصف فيها الربيع » (١) ، وهذه القصيدة قد لفتت أنظار كثير من الدارسين ، وأعجبوا بها أيما إعجاب ، وللدكتور نجيب البهبيتي تعليق لطيف عليها ، فعندما استعرض جملة من أبياتها ، أحس بسيطرة صاحبها بحسه ، وفلسفته الخاصة عليها ، حيث يقول عن « حس أبي تمام بجمال الطبيعة » : « هذا الحس الرائع . . . . المستقر في أعماق نفسه وتلك الريشة القديرة البارعة في التصوير ، وذلك الإدراك للألوان والأضواء، كل أولئك كونت صورةً للربيع لم تحظ العربية بمثلها قبل أبي تمام أو بعده . . » (٢) ولذلك جاء شعره فيها على نحو متميز فهو : « ليس ذلك الشعر القائم على الاندفاع ، وإرسال النفس على سجيتها ، وإنما وصف المتأمل الذي يسلط عقله على حسه ليتبينه ، وينظر فيه » (٣) وكان كثيراً مايجعل وصف الطبيعة مقدمةً لمدائحه ، يقول شوقي ضيف : « ولعل من الطريف أنه وقف بعض مقدماته للمديح على وصف الطبيعة » (٤) .

وقد أورد الدكتور محمد بن شريفة هذه القصيدة ضمن القصائد التي كان لها حضور في الأوساط الأدبية والنقدية بالأندلس ، فقال : « وعارض بعض شعراء الأندلس رائية أبي تمام في وصف الربيع : رقت حواشي الدهر البيت»(٥) .

---

(١) عصر سيادة قرطبة ، ص ١١١ .

(٢، ٣) أبوتمام ، البهبيتي ، ص ١١١ - ١١٢ .

(٤) العصر العباسي الأول ، ص ٢٨١ .

(٥) أبو تمام وأبو الطيب في أدب المغربه الأندلسيين ، ص ٦٢ .

ومن أبرز الشعراء الذين عارضوا هذه القصيدة ، شاعر وصف بأنه من « أهل الأدب والعلم باشبيلية » (١) هو أبوبكر بن نصر الكاتب ، فقال :

انْظُرْ نسيمَ الزَّهرِ رَقَّ فوجهُهُ ... لَكَ عن أسرَّته السرية يسفرُ
خَضِلٌ بريعانِ الربيعِ ، وقد غَدَا ... للعين وهو من النَّضارة منظرُ
وكأنما تلك الرياض عرائسٌ ... ملبوسهُنَّ مُعَصْفَرٌ ومزعفرُ
أو كالقيانِ لَبِسْنَ مَوشِيَّ الحُلَى ... فلهُن من وشي اللباسِ تَبَخْتُرُ (٢)

ويتضح أثر أبي تمام في هذه القصيدة كما هو ظاهر من جانبين ، جانب المعارضة وهو منهج سائر في الشعر العربي ، قد يهدف الشاعر من ورائه إلى التفوق والابداع ، وجانب تأثر فيه الشاعر في «جزئيات القصيدة المعارضة ، فقوله : « وقد غدا للعين ، وهو من النظارة منظر » فإنما هو ناظر فيه إلى قول أبي تمام :

دنيا معاشٍ للورى حتى إذا ... جَلَّى الربيعُ فإنما هي منظرُ » (٣).

ويعلق الدكتور محمد بن شريفة على هذه القصيدة بأ « التشبيه » في البيت الثاني يذكر بتشبيه أبي تمام :

مُصْفرةٌ محمرةٌ فكأنَّها ... عُصَبٌ تَيَمَّنَ في الوغى وتَمَضَّرُ

ثم يقول : « وإذا كان أبو تمام قد انتزع صورته من تراث العرب ، وأيامها وراياتها المضرية الحمراء واليمنية الصفراء لقرب العهد بذلك وسهولة تهدي الناس يومئذ إليه ، فإن الشاعر الأندلسي استعمل التشبيه نفسه ، ولكنه قربه إلى أهل

---

(١) جذوة المقتبس ، ص ٣٩٤ .

(٢) نفسه ، ص ٣٩٠ .

(٣) تاريخ الأدب الأندلسي ، عصر سيادة قرطبة ، ص ١١١ – ١١٢ .

عصره وعامة أقرانه ، وأخذه من لونين مألوفين هما لون العصفر الأصفر ، ولون الزعفران الأحمر . » (١) .

وتطرد معارضة هذه القصيدة بين شعراء الأندلس إطراداً يؤكد شدة إعجابهم بها ، وبمن يعارضون ، فأبو تمام عندما يعارضه أي شاعر أندلسي فإنه يشعر بالاعتزاز والفخر ، فهذا شاعرٌ ذو قدم راسخة في الأدب ، وهو أبو محمد بن قلبيل(*) البجاني ، وصفه الحميدي بقوله : « أديب شاعر له كتابٌ في القوافي، وقد رأيته » (٢) ، يقول هذا الشاعر معارضاً أبا تمام :

ضحك الربيع بروضةٍ وَسْمِيَّةٍ　　وافْتَرّ عن نَوْرٍ أنيقٍ يزهرُ
فكأنه زُهرُ النُجوم إذا بدَتْ　　وكأنها في التُّرْبِ وشيٌ أخضرُ
وكأنّ عرف نسيمها عند الصّبا　　عَرْفُ العَبير يفوحُ فيهِ العنْبرُ(٣)

وكيف لايطرد تأثير هذا الشاعر ، وقد كان لديوانه عناية خاصة لدى شعراء الأندلس ، وقد تحدثنا عن ذلك في غرض المديح . ومن القصائد التي حوت كثيراً من أوصاف الطبيعة ، وشرحها الأعلم الشنتمري ، القصيدة التي مدح بها « يحيى بن ثابت ثم صيرها في محمد بن حسان » ، ومن أبياتها الجميلة المشتملة على وصف الطبيعة قوله :

ومَعَرَّسٍ للغيثِ تَخْفِقُ بينَه　　راياتُ كلِّ دُجُنَّةٍ وطفاءِ
نَشَرَت حدَائِقَهُ فَصِرنَ مَآلِفاً　　لِطَرائفِ الأنْوَاءِ والأنْداءِ

---

(١) أبو تمام وأبو الطيب في أدب المغاربه والأندلسيين ، ص ٦٣ .

(*) وروي بالتشديد « قلَّبيلْ » .

(٢) الجذوة ، ص ٣٩٠ .

(٣) نفسه الصفحة نفسها .

فسقاه مسكَ الطَّلِّ كافورُ الصَّبَا وانحلَّ فيه خَيْطُ كلِّ سماءِ
عُنيَ الربيعُ بروضهِ فكأنما أَهْدى إليه الوشيَ من صنعاءِ
صبَّحتَه بسلافةٍ صبحتُها بسلافةِ الخُلَطاءِ والنُّدماءِ (١)

فقصيدة مثل هذه تنتشر في بلاد الأندلس ، ويعكف عليها العلماء والأدباء درسا ورواية وتقوم عليها الشروحات المختصرة والمطولة لابد أن ترسخ في أذهان الشعراء ، وإن لم يعارضوها فلن يبرحوا معانيها ، والأمر كما يقول الدكتور محمد ابن شريفة : « إذا لم تكن نية المعارضة فيها حاصلة ، والقصد إليها قائماً ، فإن استحضارها يفضحه تضمين بيت أو اقتباس شطر » (٢) لاسيما وأن شعر أبي تمام من « المحفوظ الذي تجرى ألفاظه ومعانيه على ألسنة الشعراء وأقلام الكتاب في الأندلس » (٣) ، ووصف الطبيعة على وجه الخصوص ، كما يقول نجيب البهبيتي من « أهم ماسار فيه الشعر قدماً على يد أبي تمام » (٤) ، وهو بهذا يفوق أبا نواس لأن « تلك الإشارات العابرة في وصفها عند أبي نواس قد استحالت في شعر أبي تمام إلى نظرات مطولة تأملية ، كما يفعل في وصف الربيع » (٥) مشيراً إلى قصيدته المشهورة « رقت حواشي الدهر . . » ، وهذا يخالف ما ذهب إليه إحسان عباس عندما قال : « ومن أغرب الأمور أن يكون شعر أبي تمام محركاً في وصف الطبيعة(*) الأندلسية » ، وكيف يكون من أغرب الأمور ، وأبو تمام له تلك المكانة العظيمة في نفوس شعراء الأندلس وهو أيضاً بتلك المثابة التي أشار إليها الدكتور البهبيتي .

---

(١) الديوان ١/ ٢٣ .

(٢، ٣) أبو تمام وأبو الطيب في أدب المغاربة والأندلسيين ، ص ٦٦ .

(٤ ، ٥) تاريخ الشعر العربي ، ص ٤٩٩ .

(*) تكرر هذا النص لهدف مناقشته .

وربما يكون أثر أبي تمام محدوداً في مجال الطبيعة إذا قيس بأثر غيره من الشعراء أمثال البحتري وابن الرومي وابن المعتز ، والصنوبري ومن حذا حذوهم وسلك سبيلهم . وسنجد في شعر شعراء عشقوا الطبيعة في الأندلس أمثال ابن خفاجة وابن الزقاق ، وابن زيدون ، وعبادة بن ماء السماء ، وغيرهم ، ما يؤكد ذلك الأثر ، وهو أثر لا يقلل من شأن الشاعر العربي في الأندلس ، لأن الشعراء في هذا البلد أغلبهم شعراء طبيعة ، ولذا لايستطيع دارسٌ أن يجزم بأن أحداً من شعراء الأندلس لم يصف الطبيعة ، أو ينصرف عنها بالكلية ، وإن كانت هناك بعض الدراسات دأبت على تصنيف الشعراء بحسب الأغراض الشعرية ، كما فعل الدكتور شوقي ضيف في كتابه « عصر الدول والإمارات » ، وربما فعل غيره سوى ذلك ، ولكن القول الأكيد ، هو أن الشاعر الأندلسي حتى ولو اشتهر بغرض من الأغراض فإنما ينطلق فيه من طبيعته التي وهبته صوراً وأخيلةً ماكان ليصل إليها لو لم يكن معايشاً لتلك البيئة ، ولنأخذ مثالاً الشاعر القدير أبا الوليد ابن زيدون ، فكان مولعاً بالمديح والغزل ، وديوانه خير دليل على ذلك ، ومع هذا فقد كان يعد في مقدمة وصافي الطبيعة ، وكان كثيراً مايتأثر بأبي عبادة الوليد ، البحتري شاعر الطبع ، ولنصغ إلى قافيته المشهورة التي يصف فيها مجالي « الزهراء » في رسالة بعث بها إلي حبيبته ولادة بعد فراره من قرطبه ، وكان قد دخل مستخفياً إلى الزهراء ، فيقول في هذه القصيدة :

إني ذكرتكِ بالزهـــــراءِ مُشْتَاقا ... والأُفْقُ طَلْقٌ وَمَرْأَى الأَرْضِ قَدْ رَاقا

وللنَّسِيمِ اعْتِلالٌ في - أَصَائِلِهِ - .. ... كأنَّــــه رَقَّ لي فاعتَلَّ إشفَاقا

والرَّوْضُ عن مائِه الفِضِّيِّ مُبْتَسِمٌ ... كما شَقَقْتَ - عن اللبَّاتِ أَطْوَاقا

نلهـو بما يَسْتَمِيلُ العَيْنَ مـن زَهَــرٍ ... جَالَ النَّدَى فيه حتى مَالَ أَعْنَاقا(١)

---

(١) الديوان ، ص ١٤٠ .

وهذه القصيدة معروفة مشهورة وهي من عيون الشعر العربي ، وصاحبها «في الذروة بين شعراء الأندلس من حيث ملكات التعبير الأدبي ، وما صاحبها من ابداع فني » (١) وقد أودع في هذه القصيدة أحاسيسه ومشاعره تجاه « ولادة » مستخدماً الطبيعة ، ومباهجها ليعبر عن ذلك الحب الذي ملأ عليه حسه ، ولبه ، ودخل شغاف قلبه ، وكان هيامه بتلك الطبيعة الجميلة التي حبا الله بها مدينة «الزهراء » لا يقل عن هيامه بولادة ، ولقد عشقها حتى امتزجت بعروقه ، وخالطت بشاشتها روحه الشاعرة ، وعادت الطبيعة جزءاً من إحساسه العام ممزوجاً بإحساسه بالمرأة ، وشعوره بها . (٢) ، وهذه القصيدة لاتختلف عن قصائده الأخرى خفة ورشاقة ، . . . . مما جعل النقاد يلقبونه ببحتري الأندلس «لسلاسة شعره وانسيابه كأنه الماء العذب السلسبيل » (٣) ولذلك تجد في هذه القصيدة شيئاً من معاني البحتري ، فقوله :

يومٌ كأيّامٍ لذاتٍ لنا انصَرَمَتْ ... بِتْنَالها – حينَ نَامَ الدهرُ – سُرّاقا (٤)

لايبعد فيها عن قول البحتري :

ليالٍ سرقنا من الدهرِ بعدَ ما ... أضاءَ بإصباحٍ من الشَّيبِ مَفرِقِ (٥)

وتلقيبه ببحتري الأندلس ليس لقباً جديداً من وضع المعاصرين بل إن ابن بسام على شدة تعصبه للأندلسيين ، قد أقر بما يقوله النقاد عن ابن زيدون فقال : «ويقول بعض أدبائنا إن ابن زيدون بحتري زماننا ، وصدقوا لأنه يحذو حذو

---

(١) ابن زيدون ، سلسلة نوابغ الفكر ، د. شوقي ضيف ، دار المعارف ، ص ٣٧ .

(٢) الأدب الأندلسي ، مصطفى منجد مصطفى بهجت ، ص ٢٩٣ بتصرف

(٣) ابن زيدون ، شوقي ضيف ، ص ٢٣٨ .

(٤) ديوان ابن زيدون ص ١٤٠ .

(٥) ديوان البحتري ٣/ ١٤٨٩ .

الوليد . » (١) ، وقال عنه أيضاً « وأبو الوليد ابن زيدون على كثير إحسانه كثير الاهتدام في النثار والنظام . » (٢) .

وكلما اقتربنا من ابن زيدون تأكد لنا تأثره بالبحتري ، ولاسيما في الوصف ، لأن البحتري كان يُعنى كثيراً بهذا الفن ، وقد أشاد ببراعته في ذلك عبدالله بن المعتز عندما وقف على بعض قصائده الوصفية فقال : « لو لم يكن للبحتري إلا قصيدته في وصف إيوان كسرى - فليس للعرب مثلها - ، وقصيدته في صفة البركة ، « ميلوا إلى الدار من ليلى نحييها . . . وقصيدته التي في دينار بن عبدالله التي وصف فيها مالم يصفه أحد قبله هي التي أولها « ألم تر تغليس الربيع » لكان أشعر الناس في زمانه . » (٣) ، وشاعر له هذه الشهرة لابد أن يكون له تأثيره على غيره من مشارقة وأندلسيين ، وسيجد ابن زيدون مندوحة في احتذائه ، وقد شغل ابن بسام جزءاً كبيراً من حديثه عن شعره بتتبع ما أخذه من البحتري ، والشواهد على ذلك كثيرة ، فانظر إلى قصيدته التي أرسلها ضمن رسالة خاطب بها ابن جهور ، عندما خلط المديح بوصف الطبيعة فقال : (٤)

للشَّفيعِ الغناءُ والحمدُ في صو ... بِ الحَيَا للرياحِ لا للغُيُومِ (٥)

فقال ابن بسام : « البيت إلى معنى بيت البحتري يشير :

حازَ حَمْدِي وللرياحِ اللواتي ... تَجْلبُ الغيثَ مِثْل حَمْدِ الغُيُومِ (٦)

---

(١) الذخيرة ق ١ م ١ ، ص ٣٧٨ .

(٢) نفسه ، ص ٣٥٥ .

(٣) رسائل ابن المعتز ، ت عبدالمنعم خفاجي ، نقلاً عن كتاب الرمزية في شعر البحتري ، ص ٣٦١ .

(٤) الذخيرة ق ١ م ١ ، ص ٣٤٠ .

(٥) الذخيرة ، ٣٤٦ ، والديوان ، ص ٢٨٢ ، وفيه « للشفيع الثناء » .

(٦) ديوان البحتري ، ٢/ ٢٦ ، طبعة بيروت ، ١٤٠٠ هـ .

مع أن البحتري نفسه ليس أبا عذرته ، فهو كما يقول ابن بسام مأخوذ من قول أبي تمام :

وإذا امرؤٌ أَهْدَى إليك صَنيعةً   من جَاهِهِ فكأنها مِن مَالهِ (١)

وكان ابن زيدون يأخذ من معاني المحدثين وهو على وعي كامل بما يصنع لأنه سبر غور الشعر العربي وتثقف به ، ووقف شوقي ضيف عند قضية تشبيهه بالبحتري ، وقال : « وليس من شك في أن هذا يدل على أنه طبع فنه بالطوابع العربية الأصيلة فقد أخذ نفسه على مايظهر بثقافة واسعة للشعر الذي سبقه من العصر الجاهلي إلى عصره ، ولم يدخر وسعاً في قراءة دواوينه ، والوقوف على أسراره ، وكأنه يشعر شعوراً قوياً بأن الشعر ينبغي أن لاينفصل قديمه عن حديثه ، ففزع إلى جداوله المختلفة ينهل منها ويعب ، محتذياً بأمثلة سابقيه غير خارج ولاتأثر على قواعدهم وقوالبهم الفنية المرسومة . » (٢) . ومما يدل على وعيه بمذاهب المحدثين العباسيين قوله في نهاية رسالته المذكورة : « ولو أني أوتيت في النثر غزارة عمرو ، وبراعة سهل ، وأمددت في النظم بطبع البحتري ، وصناعة الطائي لما رددت إلى الحاجب إلا ما أخذت منه . . . . الخ » (٣) .

وعلى الرغم من تشبثه بمذاهب المحدثين إلا أننا نجد عنده أصالة تؤكد سعة معرفته بالشعر قديمه وحديثه ، فقصيدته التي يقول فيها :

يَلْبَدُ الوردُ السَّبَنْتَى   ولهُ بَعْدُ افتِراسُ (٤)

فإن ذلك يذكر يقول النابغة :

---

(١) ديوان أبي تمام ٣/ ٦٠ .

(٢) ابن زيدون ، ص ٣٨ .

(٣) الذخيرة ق ١ م ١ ، ص ٤٠٣ .

(٤) نفسه ق ١ م ١ ، ص ٣٥٩ ، والديوان ص ٢٧٦ .

وقلتُ ياقـومُ إنَّ اللَّيثَ مُنْقَـبِضٌ   علـى بَراثِنِهِ لِلْوَثْبَـةِ الضَّـارِي (١)

وقد سبقه إلى ذلك الأخذ ابن الرومي فقال :

سكنتَ سُكوناً كان رَهْناً بوثبـــةٍ   عَماسٍ كذاك اللَّيْثُ للوَثْبِ يَلْبَدُ (٢)

ولماذا لايكون ابن زيدون أخذه من ابن الرومي في البيت المذكور ، على أنه ليس لابن الرومي فضل كفضل السابق المتقدم .

وكثيراً ما نلقى ابن زيدون يدور بين معاني ابي تمام والبحتري ، فتجد معنىً لأبي تمام يأخذه البحتري ، ثم نجده عند ابن زيدون ، ومن ذلك قول أبي تمام :

إن الرياحَ إذا مـا أَعْـصَـفتْ قَـصَـفَتْ   عِيْدَانَ نَجْـــدٍ ولـم يَعْبَأْنَ بِالـرَّتَمِ

بناتُ نعشٍ ونعشٌ لا كســـوفَ لهـا   والشمسُ والبدرُ منها الدهرَ في الرَّقِمِ(٣)

فأخذه منه البحتري فقال

ولستَ تَرى شَوْكَ القَتَادَةِ خَـائِفـاً   سُمُـومَ الرياحِ الآخِـذاتِ من الرَّنْدِ

ولا الكلبَ محموماً وإنْ طَالَ عمـرُه   ألا إنما الحمّى على الأَسدِ الوَرْدِ(٤)

قال ابن بسام : « وبيت البحتري الأخير من قول حبيب أيضاً :

فإن تكُ قد نالتْكَ أطـرافُ وَعْكَةٍ   فلا عجب أن يُوعَكَ الأسدُ الوَرْدُ

وأتى ابن زيدون ونظر إلى السابق منهما فقال :

---

(١) الذخيرة ق ١ م ١ ص ٣٥٩ ، وديوان النابغة ص ٨١ .

(٢) ديوان ابن الرومي ٢/ ١٢٢ .

(٣) ديوان أبي تمام ٣/ ٢٨٠ .

(٤) ديوان البحتري ص ٧٥٧ - ٧٥٨ .

هل الرياح بنجم الأرض عاصفة   أم الكسوف لغير الشمس والقمر(١)

فهذا يؤكد ما ذهب إليه ابن بسام عندما قال : « . . . معنى قد طوى ونشر . » وتأثر كذلك بعبدالله بن المعتز ففي قصيدته القافية السالفة الذكر يقول ابن بسام إن قول ابن زيدون :

« وللنسيم اعتلال في أصائله   كأنه رق لي فاعتل إشفاقا » (٢)

ألم فيه بقول ابن المعتز :

والريح تجذب أطراف الثياب كما   أفضى الشفيق إلى تنبيه وسنان (٣)

ثم قال ابن بسام « وقلبه الرضي فقال :

وأمست الريح كالعيرى تجاذبنا   على الكثيب فضول الريط واللمم (٤)

وكل أولئك سبقوا إلى هذا المعنى ، يقول الفرزدق :

وركب كأن الريح تطلب عندهم   لها ترة(*) من جذبها بالعصائب(٥)

وهذا ما جعل صاحب الذخيرة يقول : « وأحسب الفرزدق أبا عذرته وواسم غرته»(٦) .

---

(١) الذخيرة ق ١ م ١ ص ٣٤٩ .

(٢) الذخيرة ق ١ م ١ ص ٣٦٥ .

(٣) الذخيرة ق ١ ، ١ ص ٣٦٥ .

(٤) ديوان الشريف الرضي ٢/ ٢٧٤ .

(*) ضبطها احسان عباس بالفتح .

(٥) ديوان الفرزدق ، طبعة الصاوي ، الطبعة الأولى ١٣٥٤هـ - ١٩٣٦م ١/ ٣٠ .

(٦) الذخيرة ق ١ م ١ ص ٣٦٥ .

وهكذا فابن زيدون إذا لقب ببحتري الأندلس ، فإنه يزداد رفعة ويعلو قدره، وكأنما هو أحد الشعراء المحدثين بعدت به الديار ، وعاش مغتربا عن دياره، وساقه خياله ، وما حوته ذاكرته من مخزون الشعر العربي ، إلى العيش في أكناف المحدثين في المشرق ، بمتابعتهم ، والإفادة من معانيهم ، وكل ذلك لايقلل من مكانته في الشعر العربي ، فقد كان لبعض قصائده ولاسيما النونية أثر كبير على الشعراء ، هنالك ، وفي عصرنا الحديث ، وصف ابن بسام هذه القصيدة فقال : «وهذه القصيدة بجملتها فريدة ، وقد عارضه فيها جماعة قصروا عنه ، منهم أبوبكر ابن الملح فإنه نازعه فيها الراية ، فقصر عن الغاية . »(١) ، وعارضها في عصرنا الحديث أحمد شوقي شاعر العصر كما يقول شوقي ضيف .

ونتجاوز ابن زيدون كي نتحدث عن شاعر جعل الطبيعة جزءاً من حياته ، وأصبحت غايته ووكده ، وثمرة جهده ، ذلكم هو عاشق الطبيعة المشهور «بالجنان»، وهو أبو اسحق إبراهيم بن خفاجة ، فقد كان يتغنى بطبيعة الأندلس فيقول :

إن للجَـنَّـة بالأندلـــــــسِ ... مُـجْـتَلى عــــينٍ وريَّا نَفَسِ .....
فـسَنا صـبـحـتِـهـا من شَنَبٍ ... ودُجَــــى لَيْلَتِـهـا من لَعَسِ .....
فـإذا مـاهَبَّتِ الريحُ صَـبـــاً ... صِـحْتُ واشَـوْقِي إلى الأَنْدَلُسِ(٢)

وامتدحها وأهلها بقوله :

ياأهلَ أندلسٍ للهِ درُّكـــــــمُ ... مـاءٌ ، وظلٌ ، وأنهـارٌ ، وأشـجـارُ
مـاجنةُ الخلدِ إلا في ديارِكِـــمُ ... ولو تخـيـرتُ هذي كنتُ أخـتـارُ

---

(١) الذخيرة ق ١ م ١ ص ٣٦٢ .

(١) ديوان ابن خفاجة ، د د. سيد غازي ، منشأة المعارف ، الاسكندرية ، ط ٢ ، ص٣٦٤.

لا تَخْتَشُوا بعد ذَا أنْ تدخلُوا سقرًا   فليس تُدْخَـــــلُ بعد الجنة النارُ(١)

وابن خفاجة يعد شاعر الطبيعة الأول في الأندلس ، قال عنه ابن بسام «الناظم المطبوع ، الذي شهد بتقديه الجميع المتصرف بين حكمه وتحكمه في البديع . »(٢) ، وكان من شدة ولعه بالطبيعة يجتمع مع بعض الشعراء في البساتين، ويأخذون في وصف مايشاهدون ، فيذكر المقري أنه اجتمع مع ابن عائشة وابن الزقاق فشرع كل منهم يصف الحال التي هم فيها (٣) .

وابن خفاجة على الرغم من تفوقه على شعراء عصره ، فإن ذلك التفوق لم يأته من فراغ ، فقد ثقف نفسه بمعارف وأشعار مشرقية ، وولدت منه ذلك العبقري الذي قطع شوطاً كبيراً في الحياة ، وهو مغرم بنوابغ الشعراء في العصر العباسي ، يقول الدكتور سيد غازي محقق ديوانه : « قُدِّر لأبي إسحق إبراهيم بن خفاجة الأندلسي أن يقطع ركب الحياة نيفا وثمانين عاماً . . . . عاش أكثرها بين سمع الزمان وبصره علما من أعلام الأندلس يشار إليه بالبنان ، وعبقريةً فذة تُزهى بها جزيرة شقر ، ويفاخر بها المغرب المشرق فيما أنتج من عبقريات ، كان شاعراً كبيراً، وكاتباً مجيداً . . . فتن أول أمره بأشعار المحدثين في المشرق ، وبشعراء القرن الرابع خاصة » (٤) ، وهذا ماأكده ابن خفاجة بنفسه في خطبة الديوان ، حيث يقول « أما بعد : فإني كنت والشباب يرف غضارة ، ويخف بي غرارة ، فأقوم طوراً وأقعد تارة - قد جنحت إلى الأدب أرتاده مرتعاً ، وأرده مشرعاً ، فما تصفحت مثل شعر الرضي ، ومهيار الديلمي ، وعبدالمحسن الصوري وما حذا

---

(١) نفسه ص ٣٦٤ .

(٢) الذخيرة ق ٣ م ٢ ص ٥٤١ .

(٣) ينظر نفح الطيب ٤/ ١٤ .

(٤) مقدمة المحقق .

حذوه ، وأخذ مأخذه – حتى تملكني من تلك المحاسن الرائعة الرائقة والألفاظ الشفافة الشائقة ، مايناسب برد الشباب رقة ، وبرد الشراب ريقة ، فما كان إلا أن ملت إليه ، وأقبلت عليه أروقه وأرَوِّيه وأحاول التشبه بواحد واحد فيه . » (١)، فهو كما نلحظ لم يستنكف من التصريح بتلمذته لأشعار هؤلاء المحدثين ، ولم يجد غضاضة من التصريح بأسمائهم (*) ، وكأنه شاعر عباسي هيء له ما هيء لبعض المحدثين أمثال أبي تمام الطائي عندما عكف على ديواني مسلم وأبي نواس ، حتى صقل موهبته بما حوته أشعارهم .

ولذا لا يجب أن ننكر على ابن خفاجة إذا ظهر أثر هؤلاء ، ومن حذا حذوهم وأخذ مأخذهم في شعره ، فسنجد أثراً لشعراء محدثين بارزين لم يصرح بهم ولكنهم داخلون ضمن عبارته الأخيرة « وما حذا حذوه وأخذ مأخذه » . فللبحتري ، وابن الرومي ، وابن المعتز ، أثر واضح على شعره ، وكذلك لمن سمي به في الأندلس ، شاعر حلب الصنوبري أثر لا سبيل إلى إغفاله ولا إلى غض الطرف عنه .

ولعل أول من أطلق على ابن خفاجة « صنوبري الأندلس » – لجامع وصف الطبيعة بينهما – هم الأندلسيون أنفسهم ، وأخذها عنهم المقَّري فقال : «وكان صنوبري الأندلس أبو إسحق ابن خفاجة ، وهو من رجال الذخيرة ، والقلائد ، والمسهب ، والمطرب ، والمغرب ، وشهرته تغني عن الإطناب فيه ، مغرى بوصف الأنهار ، والأزهار ، ومايتعلق بهما ، وأهل الأندلس يسمونه الجنان، ومن أكثر من شيء عرف به . » (٢) .

---

(١) خطبة الديوان ص ٦ .

(*) كان ابن خفاجة قد ذكر في ديوانه أنه إنما عاد لشعر هؤلاء لتنقيح ديوانه وإصلاح بعض أشعاره « إما لاستفادة معنى ، أو لاستجادة مبنى » الديوان ص ٩ .

(٢) نفح الطيب ٣/ ٤٨٨ .

ومن يقرأ شعر ابن خفاجه في « وصف الطبيعة » يجده بالفعل قارئاً جيداً لشعر أبرز شعراء « الوصف » في الشعر العربي ليس من المحدثين فحسب ، بل ممن سبقهم من الجاهليين والإسلاميين ، وقصيدته في وصف الجبل تنبيء عن ذلك ، فهي ترجع في أصل منباها إلى قصيدة مجنون ليلى التي يصف فيها جبل التوباد ، يقول فيها :

وأجهشتُ للتوبادِ حين رأيتُه ... وكبَّر للرحمنِ حينَ رآني
وأذريتُ دمعَ العينِ لما عرفتُه ... ونادى بأعلى صوتهِ فدَعاني
فقلتُ له : أين الذين عهدتُهم ... حواليك في خصبٍ وطيبِ زمانِ
فقال : مَضَوا واستودعوني بلادَهم ... ومن ذا الذي يَبْقَى على الحدثانِ
وإني لأَبْكِي اليومَ من حَذَرِي غدا ... فراقَك ، والحيانِ مُجْتَمِعان
سجالاً وتهتَانا ووبلاً وديمةً ... وسحّاً وتسجَاماً إلى هَمَلانِ (١)

وأبو اسحق ابن خفاجة قد استحضر هذه القصيدة وجانب عروضها جرياً على طريقة ابن شهيد ، عندما مر بشيخ يعلم بنيّا له صناعة الشعر ، وهو يقول له : إذا اعتمدت معنى قد سبقك إليه غيرك ، فأحسن تركيبه ، وأرق حاشيته فاضرب عنه جملة ، وإن لم يكن بد ففي غير العروض التي تقدم إليها ذلك المحسن ، لتنشط طبيعتك ، وتقوى منتك » (٢) ، وهكذا فعل ابن خفاجة ، في وصفه للجبل ، فقال :

---

(١) الأغاني ٢/ ٥٣ .

(٢) التوابع والزوابع ص ١٣٥ .

وأَرْعَنَ طماحِ الذُؤابَــــةِ بَاذِخٍ ... يُطَـــاوِلُ أَعنانَ السمــاءِ بَغـارِبِ
يسَدُّ مهَبَّ الرِّيحِ عن كلِّ وِجْهةٍ ... وَيزحَـــــمُ ليــلاً شُهْبَهُ بالمنَاكِبِ
وقـورٍ على ظَهْرِ الفـلاةِ كـأنّـهُ ... طِـوالَ اللّيَـالِي مُطرقَ فِي العـواقِبِ
أصختُ إليه وهو أخرسُ صـامِتٌ ... فحـــدّثَني ليلَ السُّرى بِالعجَائِبِ
وقـال ألاَ كَمْ كنتُ ملجـأَ فـاتِكٍ ... وموطِــــنَ أوّاهٍ تبتّلَ تـــائِبِ
وكم مرّ بي من مُدلجٍ ومؤوّبٍ ... وقَــــالَ بِظلّي مــن مَطِيٍّ ورَاكِبِ
فما كـان إلا أن طوَتهُم يد الرّدَى ... وطَـــارَتْ بِهِمْ ريحُ النّوَى والنّوَائِبِ
فما خفقُ أَيْكِي غيرَ رَجْفَةِ أَضْلُعٍ ... ولا نَــوْحُ وُرْقِي غَـيْرَ صَرْخَةِ نَادِبِ
وما غَيَّضَ السّلوانُ دَمْعِي وإنّمــا ... نَزَفْتُ دُمُوعِي في فراقِ الأَصَاحِبِ(١)

وإذا أمعنا النظر ، وأعملنا الفكر في القصيدتين ، ألفينا لكل من الشاعرين أسلوبا في التناول يختلف عن الآخر ، فالمجنون في أساسه لم يكن واصفا لذات «التوباد» ، وإنما تدخل هذه القصيدة ضمن الإطار العام للوصف ، لأن المجنون هنا، جعل هذا الجبل رمزاً لذكرى غابرة ، ففيما يروي صاحب الأغاني أن المجنون كان مع ليلى (وهما صبيان يرعيان غنما لأهلهما عند جبل ببلادهما يقال له : التوباد ، فلما ذهب عقله وتوحش ، كان يجيء إلى ذلك الجبل فيقيم به ، فإذا تذكر أيام كان يطيف هو وليلى به ، جزع جزعا شديدا ، واستوحش ، فهام على وجهه حتى نواحي الشأم ، فإذا ثاب عقله رأى بلدا لايعرفه فيقول للناس الذين يلقاهم : بأبي أنتم ، أين التوباد من أرض بني عامر ؟ ، فيقال له : وأين أنت من أرض بني عامر ! أنت بالشأم عليك بنجم كذا فأمه ، فيمضي على وجهه نحو ذلك النجم

---

(١) ديوان ابن خفاجة ص ٢١٦ .

حتى يقع بأرض اليمن ، فيرى بلادا ينكرها وقوما لايعرفهم فيسألهم عن التوباد وأرض بني عامر ، فيقولون : وأين أنت من أرض بني عامر ! عليك بنجم كذا وكذا ، فلا يزال كذلك حتى يقع على التوباد ، فإذا رآه قال في ذلك : «وأجهشت للتوباد . . . الخ » (١) .

وأخذ المجنون يصف حاله لهذا الجبل الصامت يبث همومه وأحزانه من خلاله ، وهذا هو التفاعل الصحيح مع الطبيعة والانفعال بها ، لا كما دندن بذلك بعض من جرفهم التيار الأوربي ، ونظروا إلى الشاعر العربي على أنه لم يستطع التعامل مع الطبيعة كما كان الشاعر الرومانسي في أواخر القرن الثامن عشر(٢) .

وأما ابن خفاجة فيشعرك في مخاطبته للجبل ، أنه منطلق من ثقافته الواسعة ، ومبدئه الذي يقول أنه إذا نظر في أشعار الآخرين « إما لاستفادة معنى أو لاستجادة مبنى » ، وعلى ضوء ذلك أعاد صياغة القصيدة بروح جديدة ، وديباجة رائعة ، وأحال الطبيعة من خلاله إلى صور ووجوه ناطقة ، وبعض معاني هذه القصيدة ينبع من روح الشعر العربي القديم فمطلع القصيده يوحي بذلك فيقول :

بعَيْشِك هل تَدْرِي أَهُوجُ الجَنَائِبِ ... تَخُبُّ بِرَحْلِي أم ظُهُورُ النَّجَائِبِ(٣)

وهي مما نظمه الشاعر في فترة حياته المتأخرة ، وهي فترة « التأمل في مصيره ومايتنظره . . . من الموت والعدم » (٤) ولذلك جاءت هذه القصيدة بعنوان

---

(١) الأغاني ٢/ ٥٢ - ٥٣ .

(٢) شعر الطبيعة ، نوفل ص ١٧ .

(٣) الديوان ص ٢١٥ .

(٤) عصر الدول والامارات ص ٣٢١ .

«الاعتبار» فهو يصف رحلته الطويلة في الحياة ، فيصطدم بذلك الجبل الشاهق ، فيرى فيه شيخاً كبيراً قد أنهكته السنين ، فظل يحادثه ويبثه آلامه كما فعل المجنون ، وقد أبدع ابن خفاجة في تصوير حالته مع هذا الجبل .

وقد وقف بعض الدارسين عند هذه القصيدة : فالدكتور شوقي ضيف أكد تأثر ابن خفاجة بالمجنون فقال : « ومن غير شك استمد ابن خفاجة من هذه المقطوعة منظومته في الجبل ، مضيفاً إليها من خياله مايكمل به الصورة من تفاصيل ودقائق جديدة ، فقد أعطانا أولاً هيئة الجبل ، وصوره لنا وقورا لاث عمامته ، وهو يطوي الليل مفكراً في العواقب ، ثم أخذ يفصل الحديث عمن يمرون به من مجرمين ، وتقاه صالحين ، وصوره حزينا لفراق أصحابه ملتاعاً لوحدته من دونهم، ولعل في هذا كله مايصور لنا جهد ابن خفاجه في إعادة الصور القديمة ، وكثيراً مانقع عنده على صور بديعة » (١) .

وهذا الكلام تبدو من ظاهره الإشادة ببراعة ابن خفاجة على إعادة الصور القديمة ، وقدرته على إيجاد صور بديعة ، لكنه يحمل في طياته لمزاً خفيا للشاعر الأندلسي ، يفهم من وصف القصيدة بأنها «منظومة» ، والمنظومة هي نوع من الشعر يخلو من العاطفة ، والخيال ، وهما من مقومات الكلام الذي يسمى شعراً ، وكأني بالدكتور شوقي ضيف ، يود أن يقرب ابن خفاجة من نظرية اتخذها قديما تتعلق بأبي تمام ، فهو يقول : « . . فهو يستمد ، من القديم حقاً ، ولكننا نقع عنده على أخيلة طريفة ، وكان ذوقه أقرب مايكون إلى ذوق المصنعين ، وما أشاعه أبوتمام من تشخيص عناصر الطبيعة ، ومع ذلك كان يتصنع في أطراف كثيرة من شعره ، ولعل خير مايصور ذلك عنده ماشغف به من نقل أوصاف الطبيعة إلى موضوعات شعره الأخرى ، فكما كان المتنبي ينقل أوصاف الغزل إلى الحرب كان

---

(١) الفن ومذاهبه ص ٤٤٨ .

ابن خفاجة ينقل أوصاف الطبيعة إلى الأبواب المختلفة . » (١) ، وهذا الرأي يؤكد أن الشاعر الأندلسي ملم بطرائق المحدثين في التعامل مع الشعر القديم، ويؤكد قدرة ابن خفاجة على نقل المعاني من غرض إلى آخر كما كان يفعل المتنبي . ويقرر أخيراً فيقول : « ومن يقرأ هذه القطعة يعجب بابن خفاجة ، ومقدرته على تشخيص عناصر الطبيعة ، لكن لا تظن أنه أول من ألمَّ بالجبل على هذا النحو ، فحدثه ذلك الحديث ، فإن من يرجع إلى ترجمة مجنون ليلى في الأغاني يجد فيها الأصل الذي بنى عليه ابن خفاجة مقطوعته . » (٢) .

ومن الذين تعرضوا لدراسة هذه القصيدة لابن خفاجة ، الدكتور محمد رجب البيومي ، وقد تحمس للدفاع عن ابن خفاجة ، وإنكار تأثره بالمجنون ، وقد ذهب بعيداً في ذلك ، فقال : « . . تعد هذه القصيدة ذروة اكتمال شعر الطبيعة في الأندلس ، وقد بلغ التشخيص فيها مبلغا لا نجده إلا عند كبار الشعراء في الشرق والغرب ! ، ولو ذهب جميع ما قاله ابن خفاجة ، وبقيت وحدها لكانت معجزة إبداعه ، ودليل تفوقه ! بل ربما ظننا أن جميع شعره من هذا الطراز ! وقد وجد من يقول ان ابن خفاجة قد استلهم قول المجنون في جبل التوباد ، . . . وهذا بعيد لأن قول المجنون خطرة عابرة لو وقف عندها ابن خفاجة مابلغ هذا النفاذ ! أما قصيدة الجبل فنسق شعري متكامل ذو شعاب وأفانين . ولو كان المجنون - على سبيل الاحتمال - موحياً موجهاً لكان لابن خفاجة فضل أثير أن يكون موضع هذا الايحاء ، وقد عبرت القرون خلف المجنون ، وتوالى عشرات الشعراء في العربية شرقاً وغرباً ومغرباً دون أن يبدع أحدهم في وصف الجبل ما أبدع ابن خفاجة فيأتي بهذا البيان » (٣) .

---

(١) الفن ومذاهبه ص ٤٤٨ .

(٢) نفسه ص ١٤٧ .

(٣) الأدب الأندلسي بين التأثر والتأثير ، رجب البيومي ص ٧٨ .

والدكتور بيومي هنا أبدى حماسه مشكوراً في انصاف الشاعر الأندلسي في وقت قل أن نجد من ينطق بالحق ، لكنه جانبه الصواب في إنكار استلهام ابن خفاجة فكرته من المجنون ، ولم يأت بدليل قاطع ينفي القضية ، وإنما كلامه مجرد رغبة في رد ما قاله السابقون ، وإلا فقوله : إن قول المجنون خطرة عابرة فهذا كلام عام لا ينفي التأثر ، لأن الشعراء منذ القديم وهم تبعٌ لأولهم حتى يومنا هذا ، وماقول زهير عنا ببعيد :

ما أرانا نقولُ إلا معارا ... أو معاداً من لَفْظِنا مَكْرورا

وكذلك عنترة عندما قال :

هل غادر الشعراء من « مترنم »(*) ... أم هل عرفت الدار بعد توهم

فالخطرة العابرة التي ذكرها الدكتور بيومي ، صفة لقصيدة المجنون ، وقد تصبح رؤية متكاملة إذا التقطها شاعر مبدع كابن خفاجة أو أبي تمام ، أو سواهما ، فهو – أعني المبدع – يستطيع أن ينقلها من عالم الضيق إلى عالم واسع الفضاء بخياله الخصب ، وبراعته الفذة ، وحول هذا الكلام نجد تعليقاً طريفاً للدكتور شوقي ضيف يقول فيه : « ومن يرجع إلى طوال النماذج الجاهلية ، ويترك المقطعات القصيرة يلاحظ في وضوح أنها تأخذ نمطاً في التعبير والأداء . . . فإن الشعراء يحرصون في كثير من مطولاتهم منذ العصر الجاهلي على أسلوب موروث فيها . . . » ثم يقول : « وهذا النمط المعين في صنع المطولات القديمة يدل دلالة قاطعة على أن صناعة الشعر استوى لها حينذاك غير قليل من القيود والتقاليد ، إذ

(*) الرواية المشهورة « متردم » وهو موضع ، ولكن مترنّماً أكثر إيحاءً بالمعنى « فالمترنم : هو الشيء الذي يُترنم به ، يريد أن الشعراء لم يتركوا شيئاً إلا ترنموا به » . ينظر الفن ومذاهبه في الشعر ، شوقي ضيف ص ١٨ .

نرى القصائد تتحد أنغامها ، وكان عنترة يشكو من هذا الاتحاد ، كما تتحد أساليبها ولغتها وتراكيبها ، وكما تتحد معانيها وصورها وأخيلتها ، وكان زهير يشكو أيضاً من ذلك ، فما يقوله ابن خذام في بكاء الأطلال يأخذه عنه امرؤ القيس ، ومايقوله امرؤ القيس يأخذه عنه بقية الشعراء . . » (١) .

وخلاصة القول ، فإن قصيدة ابن خفاجة قد جمعت بين قوة سبك القدماء وسلاسة المحدثين ، ولقد استطاع أن يعايش الطبيعة وينفعل بها ، ويصور الجبل شيخاً كبيراً مرّت به سنون . وهو صامد ، تمر به الرواحل ، وتعصف الرياح والأمطار بكل ماحوله ، ولعلنا نذكر في هذا المقام قول امريء القيس :

كأن أبانـــاً في أفانينِ وَدْقِهِ   كبيرُ أناسٍ في بِجَادٍ مُزَمَّلِ(٢)

فلم يكن امرؤ القيس يقصد « أبانا » لذاته ، وإنما هو يشكل رمزاً لعناء تلك السنين العجاف التي يمر بها الإنسان العربي في حياته القاسية ، فهو يصور الحالة التي لمع فيها أبان أمامه ، ورآه بمرآة الساعة نفسها التي رأى فيها جبل القنان ، والسيل يمر من فوقه ، والسيل يعصف بمنازل بني أسد بتيماء ، فيصور حالة شيخ تزمل في ثيابه من شدة البرد والخوف من صوت الرعد والبرق .

وهكذا فإن الشاعر عندما يصور مشهداً كهذا ، فهو يرمز إلى شيء لايدرك كنهه إلا الشاعر نفسه .

وشاعر كابن خفاجة وهب الطبيعة كل حياته ، لابد أن تمتزج بأحاسيسه وتدخل في وجدانه ، فهو يتصل بالطبيعة « اتصال الصديق بالصديق وقد لجأ إليها» لتكسبه من عطفها وحنانها . ولذلك اعتبر بعض الدارسين قصيدته في تصوير

---

(١) الفن ومذاهبه ص ١٩ .

(٢) ديوان امريء القيس ، طبعة حسن السندوبي ص ١٥٨ .

الجبل من أميز شعره « فقد أثار مرأى الجبل في نفسه عاطفة إنسانية جعلته يبعث في هذا الطود المنتصب رعشة الحياة فأخذ يستمع إلى عظاته ، وعبره ، ويترجم له أفكاره وحسه ، وبدا الجبل شيخاً وقوراً متململاً من طول بقائه ، وهو يشاهد مواكب الإنسانية تمر وتمضي ، ويطويها الزمن . » (١) .

ومن أوصاف ابن خفاجة التي جارى فيها المتقدمين ، قصيدته التي وصف فيها الذئب ، وهو يلتقي فيها مع كل من الفرزدق ، والبحتري ، وقد لقيت هذه القصيدة كسابقتها من يطعن فيها ، ويتهمه بالعجز عن الوصول إلى شأو هذين الشاعرين ، فهذا دارس معاصر يقول : « ويلتقي ابن خفاجة بشعراء كثر في وصف الذئب ولكنه يقصر عن شأوهم ، فيوجز في المقطوعة ، ويلم بالموضوع ولايبسطه، ولايبني قصيدته على التقائه بالذئب كما فعل الفرزدق والبحتري . »(٢) .

ونحن لانطلب من ابن خفاجة أن يصل إلى شأو من سبقه ، لأنه سيظل له أسلوبه الخاص ، وصوره البديعة المتميزة ، وهو في حقيقة أمره لايصف الذئب منفرداً ، وإنما يصف ليلاً اشتدت ظلمته في صحراء مترامية الأطراف ، وفوجئ بهذا الذئب ، يجوس في هذه الفلاة ، كعادة الصحاري المقفرة تكون دائما مأوى للسباع ، فحين يصف الذئب ليلاً لا يُعنى بوصف فتك الذئب وبأس الشاعر ، ومادار بينهما من صراع ، على نحو ماصنع غيره ، وإنما يصف جو المفازة وقتامته ، ومايتراءى في سمائها السوداء ، يقول ابن خفاجة :

ومَفَازةٍ لا نَجْمَ في ظَلْمَائِهَا يَسْرى ولا فَلَكٌ دَوَّارُ
تَتَلَهَّبُ الشِّعْرَى بها وكأنَّهَا في كفِّ زِنجيِّ الدُّجَى دِينارُ

---

(١) الطبيعة في الشعر الأندلسي ، الركابي ص ٥٢ - ٥٣ .

(٢) ابن خفاجة الأندلسي ، عبدالرحمن جبير ، ط ١ ، ١٤٠٠ هـ ، ص ١١٩ .

تَرْمِي بي الغِيطَانُ فِيها والرُّبَى ... دُوَلاً كما يتَمَوَّجُ التَّيَّارُ
والقُطْبُ مُلتَزِمٌ لِمَرْكَزِه بها ... فكأنَّهُ في سَاحةٍ مِسْمَارُ
قد لَفَّنِي فيها الظلامُ وطافَ بي ... ذِئْبٌ يُلِمُّ مع الدُّجَى زَوَّارُ
طَرَّاقُ سَاحَاتِ الدِّيارِ مُغَاوِرٌ ... خَتَّالُ أبناءِ السُّرَى غَدَّارُ
يسرى وقَدْ نَضَحَ الندى وَجْهَ الصَّبا ... في فَرْوَةٍ قد مَسَّها اقْشِعْرَارُ
فعشوتُ في ظلماءَ لم تُقْدَحْ بها ... إلا لمقلَتِهِ وبأْسِيَ نَارُ
ورفَلْتُ في خلَعٍ عليَّ من الدُّجَى ... عُقِدَتْ لَهَا من أَنْجُمٍ أزرَارُ
والليلُ يقصُرُ خطوه ولَرُبَّما ... طَالَتْ لَيَالي الرَّكبِ وهيَ قِصَارُ
قد شَابَ من طوقِ المجرَّةِ مَفْرِقٌ ... فيها ومِنْ خَطِّ الهلاَلِ عِذارُ(١)

فهذه القصيدة الرائعة تؤكد مقدرة صاحبها على توظيف ماعرفه من أوصاف عند الآخرين في أسلوب جديد ، وكما قال الدكتور إحسان عباس «فقد كانت مهمة هذا الشاعر تكثيف كل تلك المظاهر التي رأيناها موزعة عند الآخرين . »(٢) ، وليست القضية كما تصورها أحد الباحثين بأن ابن خفاجة لم يلتق بالذئب في الصحراء ، حتى وصل الأمر بهذا الدارس أنه يشك كل الشك - على حد زعمه - في أن ابن خفاجة شاهر الذئب أو لاقاه منفرداً في بعض أسفاره، كما فعل الفرزدق الذي شاهر الذئب وقاسمه زاده ، وذكر ذلك مفتخرا بجوده الذي شمل وحوش القفار » (٣) وأن « البحتري وصف الذئب وكيف رماه

---

(٢) الديوان ص ٨٥ - ٨٦ .

(٣) تاريخ عصر الطوائف ص ٢٠٤ .

(١) ابن خفاجة ، عبدالرحمن جبير ص ١١٩ .

فأصماه متحدثاً عن شجاعته ، وقوة جنانه في قصيدته المشهورة » (١) ، ونحن نقول لسنا بحاجة إلى أن نطالب ابن خفاجة بالصدق والواقعية فنلجأ إلى الشك فيما يقول ، لأن ابن خفاجة لايخفى عليه أصلاً أوصاف هؤلاء الشعراء ، ولو فتحنا باب الشك ، لشككنا في قصيدة الفرزدق ، ونستبعد أن يكون قد قاسم الذئب زاده إذا ماتذكرنا أبيات ذي الرمة وهو يصف « الذئب الجائع يرسم له صورة دقيقة ، مكتملة التفاصيل ، واضحة الملامح » (٢) ، وكذلك البحتري ماالذي يمنعنا من الشك في كونه لم يلتق بالذئب ، وإنما احتذى من سبقه من الشعراء ، كل هذه التساؤلات ترد على الخاطر ، لكن إذا تذكرنا أن شعراء العربية كانوا يبرزون قدراتهم من خلال مجاذبة الفحول فيما وصفوا توقفنا عن تلك الشكوك ، فالذئب لم يصفه فقط الثلاثة المذكورون ، بل إن المتتبع لأوصاف الحيوان في الأدب العربي يجد وصف الذئب كحلبة الفرسان بينهم ، وهاك أسماء شعراء لمعوا في وصف الذئب :

١ - جويرية بن أسماء الفزاري(٣)، وصف ذئباً تعرض له في السفر فعقر راحلته.
٢ - ذو الخرق الطهوي (٤) .
٣ - النجاشي الحارثي واسمه قيس ابن عمرو (٥) .
٤ - كعب بن زهير بن أبي سلمى .

---

(١) ابن خفاجة ، عبدالرحمن جبير ص ١١٩ .
(٢) ذو الرمة ، يوسف خليف ص ١٧٠ .
(٣) ينظر رسالة الصاهل والشاحج لأبي العلاء المعري ص ١٢٦ .
(٤) ينظر خزانة الأدب ٢/ ٤٤ في ترجمته ، والقصيدة في مجالس ثعلب ١/ ١٥٤ .
(٥) الصاهل والشاحج ص ١٦٥ .

٥ - الفرزدق وصفه مرتين ، قصيدة نونية ، وأخرى سينيه ، نسج ابن شهيد على منوالها .

٦ - الربيع بن ضبع الفزاري (١) .

٧ - من المحدثين - البحتري ، ابن الرومي ، وأبوالقاسم الدواوي من شعراء اليتيمية ، والشريف الرضى .

٨ - ومن الأندلسيين ابن خفاجة (٢) ، وابن شهيد الأندلسي (٣) .

فهل هؤلاء الشعراء جميعاً يطالبون بالصدق في رؤية الذئب وملاقاته ، أم أن ذلك يطلب من ابن خفاجة لأنه شاعر أندلسي ، أم الأمر في الشعر يجب أن ينظر له بنظرة أبعد من ذلك لأن الشعر مبناه على الخيال والصورة ، فعلينا أن نستبعد الصدق كمقياس نقدي لأن الناقد القديم كان يقول أعذب الشعر أكذبه ، والبحتري نفسه يقول :

كَلَّفْتُمونا حُدودَ منطقكُم ... والشِّعرُ يُغْني عن صدقِه كَذِبُه

ولم يكن ذو القُروح يلهجُ بالْ ... مَنْطِقِ مانوعُه وماسببُه

والشعرُ لمحٌ تكفي إشارتُه ... وليس بالهذْر طُوِلَت خُطَبُه

وخلاصة هذا التطواف ، ان ابن خفاجة كان شاعراً « يقصد إلى التعبير عن الجمال الطبيعي ، لا إلى الفخر والبطولة والبأس » (٤) ، ولا ضير من أن يأخذ من

---

(١) أمالي القالي ٢/ ١٨٥ .

(٢) ديوانه ص ٨٥ - ٨٦ .

(٣) ديوانه ص ٨٣ .

(٤) الطبيعة في الشعر ، سيد نوفل ص ٢٨٤ .

أوصاف البحتري أو سواه ، فيظهرها في حلة جديدة تمثل ابن خفاجة « الشاعر الصادر عن حسه وبيئته » (١) .

وكان أبو اسحق إذا أخذ معنى من شاعر آخر ، فإنه يحسنه ويخرجه في صبغة جديدة ، فكشاجم وصف التين فقال :

يشبهُ في اللونِ وطِيبِ الأرْجِ نوافجَ المسكِ وطعمَ الثلْجِ
مثلُ رؤوسِ الغُلف سودِ الدَّعْجِ أو كَثُدايا ناهداتِ الزَّنْجِ (٢)

قال ابن ظافر : « وأخذه ابن خفاجة الأندلسي وحسنه فقال :

وسودِ الوجوه كلونِ الصُّدُودِ تبَسَّمْنَ تحتَ عُبوسِ الغَبَشْ
إذا ما تجلّى بياضُ الضُّحَى تَطَلَّعْنَ في وجْهِهِ . كالنَّمَشْ
كأنّي أُقطِّفُ منها ضُحىً ثُدِيَّ صِغارِ بنَاتِ الحَبَشْ »(٣)

وقد يأخذ من أبي نواس طريقته في مزج الطبيعة بالخمر والغزل ، ويفوقه في مثل قوله :

للهِ نهرٌ سالَ في بطْحَاءِ أشْهَى وُرداً مِنْ لَمَى الحسناءِ
مُتعطِّفٌ مثْلَ السِّوَارِ كأنَّهُ والزَّهْرُ يكْنُفُهُ مجَرُّ سَمَاءِ
قد رقَّ حتى ظُنَّ قوساً مفرَغاً من فضَّةٍ في بُرْدَةٍ خَضْراءِ
وغَدَتْ تَحُفُّ به الغصونُ كأنها هُدبٌ تحُفُّ بمُقْلَةٍ زَرْقاءِ

---

(١) الطبيعة في الشعر ، سيد نوفل ص ٢٨٤ .

(٢) التشبيهات لابن ظافر ص ١١٧ .

(٣) التشبيهات ص ١١٧ ، الديوان ص ٣٧٤ .

ولربما عاطيتُ فيه مُدامةً صفراءَ تَخْضِبُ أَيْديَ النُّدماءِ
والرِّيحُ تَعْبثُ بالغصونِ وقد جَرَى ذهبُ الأصيلِ على لجينِ الماءِ(١)

وهذا يؤكد ماذهب إليه بعض الدارسين من ان ابن خفاجة هو الشاعر الذي جعل الطبيعة مرتبطة بالناحية الوجدانية في الغزل والخمر على نحو من التذكر ، فالطبيعة تثير لدى الشاعر كوامن الذكرى (٢) ، ولذلك أصبحت القصيدة الغزلية عبارة عن قطعة قصصية تُحكى في جو الطبيعة المفعم بأزهى الحلل والأزاهير والورود ، وبذا يكون الغزل الأندلسي أبدع وأرق شفافية من الغزل عند المشارقة ، ورأينا ذلك من قبل عند ابن زيدون ، عندما كتب إلى ولادة رسالة يصف فيها مجالي الزهراء .

ومن معارضاته لأبي نواس المشهورة قصيدته التي يدمج فيها الغزل بالطبيعة يقول فيها :

قُلْ لمسرَى الريحِ من إِضَمِ وليالينا بذي سَلَمِ
طالَ ليلي في هَوَى قمرٍ نامَ عن لَيْلِي ولم أنمِ(٣)

وهي تذكرنا بقصيدة أبي نواس التي يقول فيها :

ياشقيقَ النفسِ من حكمِ نمتَ عن ليلي ولم أَنَمِ(٤)

فهي معارضة صريحة واضحة تدل على براعة ابن خفاجة ، وقدرته على الابداع فهو كما يقول الدكتور احمد ضيف « يفكر في شعره فيأتي بأفكار جميلة ،

---

(١) الديوان ص ٣٥٦ .

(٢) ينظر ابن بسام وكتابه الذخيرة ، د. حسين خربوش ، ص ١٥٧ ومابعدها .

(٣) الديوان ص ١٠٦ .

(٤) ديوان أبي نواس ص ٤١ .

وملاحظات جميلة ، ويخرج من معنى إلى آخر ، وقد تكون المعاني معروفة وجديدة معاً ، لأنه يبدع ويبتكر في التعبير » (١) .

ومن الشعراء الذين برز تأثيرهم في وصف الطبيعة بالأندلس ابن الرومي ، فله مكانة لايستهان بها في « فن الوصف » ، وربما جاوزت براعته كل من سبقه في هذا الجانب « لأنه اختص به واعتمده ، وربما اقتصر عليه في قصائده كافة »(٢) . وقد سبق(*) الإشارة إلى تفننه وابداعه في هذا الميدان . والطبيعة تشكل جزءاً كبيراً من حياته وشعره ، يقول الدكتور شوقي ضيف : «وكانت الطبيعة تستأثر مشاعره وعواطفه ، مما جعله يكلف بها كلفاً شديداً بل لقد تحول عاشقاً لها عشقاً لا نألفه عند شعراء العربية من قبله ، فهو يعيش فيها كل حركة وكل همسة ، وكل وسوسة معيشة قوية حارة ، معيشة محب واله ، يرى الطبيعة من حوله ، وقد تحولت وجوها فاتنة ناطقة ، وكل شيء فيها يغريه بالنظر واللمس ، والشم ، حتى لنحس كأنما الحجب ترفع بينه وبينها في كل يوم فيزداد بها ولها ، ويزداد سروراً وغبطة»(٣) . وهذا ماأكده إيلياحاوي بأن ابن الرومي يعتبر شاعر الطبيعة ، إضافة إلى كونه شاعر الوصف ، « فالرياض والطيور ، ومجالس اللهو ، والبساتين ، فضلاً عن الأثمار ، هذه جميعاً نشاهدها في شعره »(٤) .

---

(١) بلاغة الغرب في الأندلس ص ١٩٩ .

(٢) ابن الرومي ، إيلياحاوي ص ١٧ .

(*) أشرنا إلى طريقة ابن الرومي في وصف الطبيعة في صفحة (٢٩٣) ونظراً لتقدم بعض الشعراء عليه كأبي تمام وغيره ، أرجأنا الحديث عن أثره في شعراء الأندلس .

(٣) الفن ومذاهبه ص ٣٢١ .

(٤) ابن الرومي ص ٣٢-٣٣ .

ولا نود الاطالة في الحديث عن ابن الرومي وحبه للطبيعة ، فقد وضعناه في مكانه بين شعراء الطبيعة في العصر العباسي ، والذي يعنينا الآن هو بيان أثره في هذا الميدان على شعراء الأندلس .

ظهر أثر ابن الرومي على شعراء الأندلس بشكل ملحوظ ، وهو لايقلُّ عن أثر غيره من العباسيين ولكن تأثيره قد أخذ مساراً جديداً وطريفاً في الوقت ذاته ، ذلك لأن ابن الرومي عندما أولع بالطبيعة « نظر إليها كائنا حياً ، فليست كما يقول عباس العقاد دمية ولا حلية ، وليست مروحة للهواء ولا مجلساً للمنادمة ، ولكنها قلب نابض ، وحياة شاملة ، ونفس تخف إليها وتأنس بها ، و«ذات» تساجلها العطف وتجاذبها المودة ، ثم هي عمار لا خواء فيه وأسرة لاتبرح منها في حضرة قريب يناجيك وتناجيه ، ويعاطيك الإخلاص وتعاطيه . . وقد كان ابن الرومي يحب الطبيعة على هذا النحو ، ويستروح من محاسنها نفسا تتصبى الناظر إليها . . »(١) . ولذلك جرى عليها عنده مايجري على الإنسان من صداقة وعداوة، يلحقها الذم أو المديح ، وكان من طبعه نظرة التشاؤم ، مما حدا به إلى الافراط في كثرة الهجاء ، حتى الطبيعة في بعض مظاهرها لم تسلم من هجائه ، ولذلك هجا الورد ، وفضل عليه النرجس ، وقد أحدث هذا النمط من شعره ضجة كبرى في المشرق بين معاصريه ، ثم انتقلت تلك الضجة إلى الأندلس ، وسنقف عند قضية المفاضلة بين الأزهار كظاهرة أدبية انتشرت في المشرق وانتقلت إلى الأندلس بعد أن نتعرف على أبرز الشعراء الذين نالهم أثر ابن الرومي في وصف الطبيعة .

فمن هؤلاء الشعراء الذين ذاع صيتهم في وصف الطبيعة وتأثروا بابن الرومي « ابن بُرْد الأصغر » وابن برد هذا ليس شاعراً عادياً ، فقد أثنى عليه ابن بسام بقوله : « كان أبو حفص ابن برد الأصغر في وقته فلك البلاغة الدائر ، ومثلها

---

(١) ابن الرومي ، حياته من شعره ، العقاد ص ٢٩٩ .

السائر نفث فيها بسحره ، وأقام من أودها بناصع نظمه ، وبارع نثره ، وله إليها طروق وفي عروقها الصالحات عروق . »(١) .

وابن بُرْد أحد الشعراء المولعين بوصف الطبيعة ، ولطبيعة بلده الجميلة أثر كبير على شعره ، كغيره من شعراء عصره ، فكان إذا نسب أو تغزل خلط ذلك بشيء من مظاهر الطبيعة على طريقة بعض المحدثين ، وبعض شعراء الأندلس وهذاً ماجعل الدكتور شوقي ضيف يقول إنه « يحتذى دائماً على مثال العباسيين»(٢) ، وقد رصد ابن بسام تلك التأثيرات ، وأشار إلى مواطنها ، وهذا لايعني أن ابن برد ليس له شعرٌ جيد، لأن ابن بسام قد ألزم نفسه بهذا المنهج مع جميع الشعراء الذين ترجم لهم ، ولذلك لاينبغي لنا أن نتكيء على منهج ابن بسام، ونلهج به كما فعل الآخرون ، فالدكتور شوقي ضيف عندما يقول : « بل إنه ليبلغ مبلغاً لايكاد يدور بخلد الإنسان ، فقلما يوجد له معنى إلا وهو مسبوق به ، قد طرقه الشعراء من قبله ولاحظ ذلك عليه صاحب الذخيرة في غير موضع من روايته لشعره » (٣) ، فهذا الحكم فيه مغالاة وجور كبير ، لأن شوقي ضيف لم يُعنَ بدراسة خصائص شعر ابن برد ، حتى يكون حكمه دقيقاً عليه وكل مافي الأمر أنه وجد نماذج جاهزة لدى ابن بسام ، فنقلها وفهم من تعليقاته عليها هذا الفهم ، وماكتبه في القضية لايتجاوز الصفحة الواحدة باستثناء النماذج الشعرية ، ثم أصدر قراراً نهائياً ربما يقفل أبواب البحث أمام الدارسين ، لأنه حكم شمل الأندلس كلها، ولم يقتصر فيه على ابن برد ، فقال : « والحق أنه لاينبغي أن نتعلق بالفكرة الشائعة من أن الأندلس كان لها شخصية واضحة في تاريخ الشعر العربي ، فإن هذه الشخصية تنحصر في كثرة الإنتاج ، وخاصة في شعر الطبيعة ، أما بعد ذلك

---

(١) الذخيرة ق ١ م ١ ص ٤٨٦ .

(٢) الفن ومذاهبه في الشعر العربي ص ٤٣٧ .

(٣) نفسه ص ٤٣٧ .

فالأندلس تستعير من المشرق موضوعات شعرها ومعانيه وصوره وأساليبه ، وكل مايتصل به استعارة تكاد تكون طبق الأصل على نحو مانرى عند ابن برد » (١) .

وهذا الرأي حتى لو كان صحيحاً ليس هذا موطنه ، لأنه أشبه مايكون بالنتائج التي ينتهي إليها البحث ، ولم يفرغ الدكتور شوقي ضيف من دراسة شعراء الأندلس ، وليس هذا الرأي جديداً على دارسي هذا الأدب ، لأنه يتكرر دائماً على ألسنة أغلب الكتاب والأساتذة الذين تأثروا بالفكرة الشائعة في الأدب العربي التي أصدرها الصاحب بن عباد قديماً عندما قرأ كتاب « العقد » ، وزج به وقال «هذه بضاعتنا ردت إلينا»(٢) وهو يقصد من ذلك ، أننا كنا نتلهف لأخبار أهل الأندلس، وابن عبدربه لم يقصد سوى تعريف أهل الأندلس بتراثهم المشرقي الأصيل لينهلوا من معينه الذي لاينضب .

وعلى أية حال لانود أن نصرف عناية الدرس إلى تفنيد تلك الآراء ، فما ذكرناه سابقاً قد يفي بالغرض ، ويسد الرمق ، وأما مانحن بصدده من تأثر ابن برد بالمحدثين فلا ننكره ، وإنما هو لم يخرج فيه عن غيره من شعراء الأدب العربي بعامة، والأندلس بخاصة .

وعلى الرغم من إيراد ابن بسام لنماذج من شعره ، والدلالة على مواطن أخذه من العباسيين ، فإنه لم يعدم براعة التصوير ، وحسن الأخذ ، وسنقف على تلك النماذج مع الافادة من تعليقات ابن بسام على نحو يختلف عما فهمه السابقون بإذن الله .

---

(١) الفن ومذاهبه ص ٤٣٨ .

(٢) معجم الأدباء ٤/ ٢١٤ .

يقول ابن برد :

لَمّــا بــدا فــي لازَوَرْ ... دِيّ الحــريرِ وقــد بَهَــرْ
كَـبَّـرتُ من فَـرْطِ الجـمـا ... لِ ، وقلـتُ : مـاهذا بَشَـرْ
فــأجَابني لا تُنْــكِرَن ... ثوبَ السماءِ على القَمـرْ

قال ابن بسام : « وهذا كقول ابن الرومي :

ياثوبَــه الأزرقَ الذي قــد ... فــاقَ العِــراقيَّ في السَّناءِ
كــأنّه فـيــهِ بدْر تم .... يشقُّ في زرقــة السـمــاءِ

ومن ثم تلا ذلك بأبيات ابن المعتز التي يقول فيها :

وبنفــسـجيّ الثّــوْبِ قــتــ ... ـلُ مـحِبــّه من رَائِه
الآنَ صـرت البــدرَ حيــ ... ـنَ لِبِسْتَ ثوبَ سـمــائِه

ويتراوح تأثره بين الشاعرين ، فقوله :

بأبــي أنــتَ وأمّــي ... لِمْ تَطَبَّــعْتَ بظلمي ؟
أبـداً تـأتــي بعَــتْبٍ ... دون أن آتـي بِجُــرْمِ
بيننــا فـي الحُبِّ قُـربى ... سُـقْمُ عَـيْنَيْكَ وجِـسْمي

هو كقول ابن الرومي :

يا عليــلاً جـعلَ العلــ ... ـةَ مـفـتـاحـاً لسُـقْـمي
ليــس فـي الأرض عليــلٌ ... غـيـرُ جَـفْنَيكِ وجِـسْمي

وفي أبيات أخرى يوردها ابن بسام ثم يعقب عليها بقوله : « كأنه ذهب في البيت الثاني الى معارضة ابن المعتز في قوله :

قــد صــاد قلبي قَــمَــرُ ... يَســحَــرُ منــه النظَــرُ

بوجنـــــةٍ كـــأنَّمـــا يُقْـدَحُ منهـــا الشَّـــرَرُ
وشـــاربٍ قَـــدْهَـــمَّ أو نَمَّ عليـــه الشَـــعَـــرُ

وأبيات ابن برد هي قوله

أعَنْبَرٌ في فَمِـهِ فُتِّـتَـا أم صـارِمٌ من لَحْظِه أُصْلِتَـا
ياشـــارباً أَلثَمَني شَـــارِبَاً قَدهمَّ فيه الاسُ أَنْ يَنْبُتَا(١)

ولنستمع إلى تعليق ابن بسام لنعرف الشاعر العربي في الأندلس كيف ينظر إليه، يقول ابن بسام : « وليست يد ابن برد فيه عن مرماه بقاصرة ، ولا صفحته حين جاراه بخاسرة ، بل ساواه وزاد ، وأجاد ماأراد ، ألا ترى قول ابن المعتز على تقدمه « قد همَّ أو نمّ عليه الشعر لايكاد يخرج عن لفظ العامة » (٢) ، وهذا شيء يدرك بإعادة النظر في النموذجين ، فأيهما أكثر إلغازاً ، وأجمل مجازاً قولة ابن المعتز ، «قد همّ أو نمّ عليه الشعر » أم قول ابن برد : « قد همّ فيه الآس أن ينبتا » فهذا الأندلسي الذي لم يعبأ به شوقي ضيف ، قد جاء باستعارة لطيفة لم يوفق إليها ابن المعتز ، وهي استعارة « الآس » للشعر النابت على الشارب .

وابن بسام لم يقل هذا الرأي تعصبا لابن برد ، ولو قال قائل بذلك ، لنفاه ماأورده تالياً لهذا القول ، من تعليق على الأبيات التالية لابن برد نفسه بإزاء ابن المعتز .

قال ابن برد :

عارضٌ أقبَلَ في وجهِ الدُّجَى يتهـادَى كتهَـادِي ذي الوَجَى
أتْلفَـتْ ريـحُ الصَّـبا لؤلُـؤَه فانْحَنَى يوقدُ عنَّا السُّرُجَـا(٣)

---

(١) الأبيات المذكورة جميعها من الذخيرة ق ١ م ١ الصفحات ٥٠٥ - ٥١٠ .

(٢) المصدر السابق ص ٥١١ .

(٣) الذخيرة ق ١ م ١ ص ٥١٧ .

قال ابن بسام : « ومعنى البيت الثاني من هذا كقول ابن المعتز ، وهو من أحسن ماقيل في الصبح :

والصبحُ يتلو المشتري فكأنه عريانُ يمشي في الدُّجَى بسراجِ»(١)

فتأمل انصاف ابن بسام ، مع أن القضية فيما يرى من إيراد نموذج لتميم بن المعز وآخر للبحتري ، ونماذج أخرى لابن برد نفسه ، ليست إلا من قبيل إثبات البراعة والقدرة على مجاراة المحدثين في ماوصفوه ، وأن المحدثين أنفسهم قد أولعوا بالقول فيما قاله بعض معاصريهم من معاني مستحسنه لدى النقاد .

ولقد أراد ابن برد أن يفخر بمعنى اعتقد أنه لم يسبق إليه ، فكبح ابن بسام جماحه ، يقول ابن برد يصف كلف البدر :

والبدر كالمرآةِ غيّر صَقْلَها عبثُ العذارى فيهِ بالأنفاسِ
والليلُ مُلْتَبِسٌ بِضوءِ صَباحِهِ مثلُ التباسِ النِّقْسِ بالقرطاسِ(٢)

ويعلق ابن بسام قائلاً : « ورأيت ابن برد قد ذكر في كتابه أنه لم يسمع فيه لأحد شيئا ، وابن المعتز القائل في وصف الفرند :

جَرَى فوقَ مَتْنَيْهِ الفِرِنْدُ كأنما تَنفَّسَ فيه القَينُ وهو صَقِيلُ »(٣)

وفيما يرى كذلك من صنيع ابن بسام في توارد المعاني التي برز فيها الشعراء، والأوصاف التي انتشرت بين المحدثين ، لم يكن يورد أشعار المحدثين على أنها طارئة أو شيء جديد عليهم وإنما يذكر الشاعر الأندلسي بجوار العباسي باعتبار أنهم كلهم شعراء محدثون يفهم ذلك من قوله : « وإذ قد انتهينا إلى ذكر البدر فنلمع بشيء مما قيل فيه من مقطوعات أو أبيات لها موقع بهذا الموضع ،

---

(١) الذخيرة ق ١ م ١ ص ٥٢٠ .

(٢) نفسه ص ٥٢٠

(٣) السابق ص ٥٢٠ .

لمحدثين متقدمين ومعاصرين » (١) ، فتأمل قوله لمحدثين متقدمين ومعاصرين ، وتأمل النماذج الموجودة ، فقد جاء بنماذج لكل من ابن المعتز ، وابن الرومي ، والمعري ، وأبوالمغيرة ابن حزم أحد شعراء الأندلس البارعين .

وإذاً فالمسألة ليست مسألة بروز الاستقلالية في الشخصية كما يريدها الدكتورشوقي ضيف أو سواه ، وإنما هي أن الشاعر الأندلسي يرغب أن يكون له حضور بين أقطاب المحدثين لأنه واحد منهم لغة وعصراً ، وإن نأت به الديار .

ظاهرة المفاضلة بين الأزهار عند المحدثين والأندلسيين :

هذه الظاهرة من الظواهر التي ولدها عشق الطبيعة ، والترف العلمي والأدبي الذي عاشه العصر العباسي ، ومن ثم انتقلت إلى الأندلس ، لأنها تمثل أسلوبا من الأساليب التي جاء بها المحدثون ، وقد اختلف الدارسون حول بدايتها ، على يد مَن من الشعراء ، وكيف تطورت حتى أصبحت حلبة يتنافس فيها الشعراء ، وينقض بعضهم ماقاله غيره ، على سبيل الانتصار لما يفضله من الورود ، حتى غدت نموذجاً للمعارضات بين شعراء عباسيين وأندلسيين . يقول الدكتور منجد مصطفى بهجت : « وقد شاعت القطع الشعرية والنثرية في المفاضلة بين نور، ونور ، مما كان يجر إلى النقاش ، والجدل ، ونشأ ضرب من المعارضات في مجال ذكر النواوير والربيع » (٢) وممن تعرض لهذه القضية الدكتور إحسان عباس ، حيث لفت نظره ماكان من الأندلسيين من إعلاء شأن الورد بين الأدهار ، وأكد بأن هذا الأمر « يلفت النظر حقاً » (٣) لأن الشاعر يعدد مساوئ كل زهر ، ومن ثم يختم بالفوز للورد ، وذهب إلى « أن السبب في هذا الموقف أن شعراء الأندلس

---

(١) السابق ص ٥٢٠ .

(٢) الأدب الأندلسي ، منجد بهجت ص ٢٩١ .

(٣) تاريخ الأدب الأندلسي ، عصر سيادة قرطبة ص ١٠٩ بتصرف .

تأثروا في وصف الطبيعة - وفي الحديث عن الأزهار خاصة - بموقف ابن الرومي الذي افتتح باب المناظرة بين أنواع الأزهار ، واستغل القضايا المنطقية في تحقيق المفاضلة بينها ، وكان ابن الرومي يفضل النرجس على الورد فعارضه الشعراء الأندلسيون ، وأكثروا من القصائد التي يفضلون بها الورد على بقية الأزهار »(٤).

ويرى الدكتور مقداد رحيم : « أن كل مافي هذا الكلام ليس بصحيح ، ولادقيق فأما ابن الرومي فليس هو الذي افتتح باب المناظرة بين أنواع الأزهار ، واستغل القضايا المنطقية في تحقيق المفاضلة بينها ، فقد سبقه إلى ذلك كله صريع الغواني عندما فضل الورد على النرجس بقوله :

كم يدٍ للوردِ مشكورةٍ عندي وليست كيدِ النَّرجسِ
الوردُ يأتي ووجوهُ الرُّبى تَضْحَكُ عن ذي بَرَدٍ أَمْلسِ
وقد تحلّتْ بعقودِ النّدى نَابتةً في الأرضِ لم تُغْرَسِ
ولن ترى النَّرجسَ حتى ترى روضَ الخُزامَى رثَّةَ الملبَسِ
وتخلقِ النكباءُ ماجَدَّدَتْ أيدي الغَوادِي في سنا السُّنْدُسِ(٢)

قال : « وكانت وفاة صريع الغواني قبل وفاة ابن الرومي بخمس وسبعين سنة ، وأما إكثار الأندلسيين من القصائد التي يفضلون بها الورد على بقية الأزهار ، فليس بدقيق هو الآخر ، إذ أنهم أكثروا أيضاً من القصائد التي يفضلون بها غير الورد على بقية الأزهار ، كما أنهم أكثروا من تفضيل بقية الأزهار على الورد ، فضلاً عن تفضيلهم زهرة على أخرى ، مع بيان الحجة ، وسوق البرهان لتأكيد مايذهبون إليه في هذا الشأن » (٣).

---

(١) نفسه ص ١٠٩ .

(٢) ديوان مسلم ص ٣٢٤ .

(٣) النوريات في الشعر الأندلسي ص ٢٦ - ٢٧ .

وبعد استقرائنا للقضية ، وتتبع مناهج الشعراء المحدثين على وجه التقريب ، تبين لنا أن هذه القضية لاتستحق كل هذا النقاش من الدكتور رحيم ونفي كلام الدكتور إحسان عباس ، وذلك لسبب واضح ، وهو أن الشيء يشتهر غالباً على يد من يكثر منه ، حتى لو بدأه غيره ، فقد يبدأ مبدع عملاً من الأعمال ثم ينصرف عنه فيأتي من يوليه عناية أكثر ويطوره تطويراً يشتهر به ، وقد وجدنا من ذلك أمثلة كثيرة ، فالبديع الذي بدأ على يد مسلم ، اشتهر به أبوتمام شهرة أنست بدايته الأولى على يد مسلم ، وفي مجال آخر ، مجال النسق المعجمي ، بدأ محمد بن تميم البرمكي مدرسة معجمية ، ومن ثم جاء الزمخشري وطورها حتى حاز شهرتها ، وسميت باسمه ، هذا من جانب ، ومن جانب آخر فإن المفاضلة بين الورود والأزهار أسلوب ساد بين الشعراء المحدثين في العصر العباسي ، فأراد الأندلسيون مجاراتهم .

ولعل ماعرف عن ابن الرومي من حب المخالفة ، جعله ينال تلك الشهرة ، يقول الصفدي : « ابن الرومي كان يخالف الناس ، ويعكس القياس ، فيذم الحسن ويمدح القبيح ، واستشهد بقوله :

في زخرفِ القولِ ترجيحٌ لقائِلِه ... والحقُّ قد يَعْتَريهِ بعضُ تَغْييرِ
تَقُولُ هذا مجاجُ النَّحْلِ تمدحُه ... وإن تعبْ قلتَ ذَا قَيءُ الزنَابِيرِ
مدحاً وذماً وماجاوزتَ وصفَهُمَا ... سِحْرُ البيانِ يرى الظلماءَ كالنُّورِ

ومن ثم هجا الورد ببيتيه المشهورين اللذين ذكرناهما في صفحات سابقة من هذا الفصل ، فلم يقابل هجاؤه بالاستحسان ، فالصفدي أنكر ذلك الصنيع من ابن الرومي فقال : « وأين هذا التشبيه القبيح من قول الآخر في الورد :

كأنه وجنةُ الحبيبِ وقد ... نقَّطَها عاشقٌ بدينارِ

فانظر إلى وجنة حبيب ودينار ، وإلى ذاك سرم بغل ، وروث ، وشتان مابين ذاك ، وهذا . . . » (١) ثم أورد أبياتا لابن الرومي فضل فيها النرجس على الورد ، وهي

وهذا . . . » (١) ثم أورد أبياتا لابن الرومي فضل فيها النرجس على الورد ، وهي مشهورة ، ثم أكد الصفدي بأن القضية لم يسلم فيها لابن الرومي بل « . . ناقضه جماعة من البغداديين وغيرهم في ذلك »(٢) . وربما يكون من بين تلك المناقضات بيتي ابن المعتز اللذين يقول فيهما :

ياهاجي الوردِ لا حُيِّيتَ من رَجُلٍ غلطتَ والمرءُ قد يُؤْتى على غَلَطِه

هل تنبتُ الأرضُ شيئاً من أزاهِرِهَا إذا تجلَّتْ يُحاكي الوردَ في نَمَطِه(٣)

وفيما يرى أن ابن الرومي من منطلق سلوكه في مخالفة الناس ، وذم الحسن ومدح القبيح ، قد عرف ماعند الشعراء السابقين كمسلم بن الوليد ، فجاء شعره على هيئة رد عليهم ، واكتسب شهرة بذلك ، وظل الشعراء ينقضون ماذهب إليه لكونه خرج عن المألوف ، ولذلك كثرت الردود عليه من شعراء عصره ، ومن متأخريهم حتى غدت ظاهرة نقائضية استحقت الوقوف عندها من قبل العلماء ، والدارسين ، وألف فيها بعض الكتب ، يقول الصفدي : « وقد وضع بعضهم كتاباً في المفاضلة بين الورد والنرجس ، لأن الشعراء أولعوا بذلك ، فأطالوا وأطابوا ، والمفاضلة بينهما ممكنة » (٤) .

وجاء الأندلسيون ، ووجدوا تلك المفاضلة على أشدها ، وصادفت هوى في نفوسهم ، فأدلوا بدلوهم ، وظلوا يتتبعون المحدثين يرصدون طرائقهم ، وفي مقدمتهم ابن الرومي ، فقد كان شعره حاضراً بينهم في هذا المعنى دون شعر مسلم، ومسلم وإن كان رائداً للمحدثين إلا أنه لم يشتهر في فن الوصف شهرة ابن الرومي .

(١ ، ٢) الغيث المسجم ٢/ ٢٦٧ .

(٣) لم أجدهما في الديوان .

(٤) الغيث المسجم ٢/ ٢٦٨ .

ونظراً لولع الأندلسيين بالورود والأزاهر ، وما حصل لهم من الخصب والرخاء والترف ازداد شغفهم بمثل تلك المناظرات لشغل مجالسهم بها ، وليحيوا أنديتهم الأدبية على غرار أندية العصر العباسي في المشرق .

ومما يؤكد اهتمامهم بتلك المناظرات ، كتاب « البديع في وصف الربيع » لأبي الوليد الحميري الذي احتل موضوع المناظرة هذا حيزاً كبيراً منه ، وبين أن المفاضلة بين الأزهار والورود التي بدأها ابن الرومي قد وجدت سبيلها إلى الأندلس ، وأصبحت ضرباً من المحاججة ، واثبات القدرة على نقض ماذهب إليه ابن الرومي ، أو غيره ، وكأن الأمر كما يقول إحسان عباس إنما فعلوا ذلك «ليمتحنوا مقدرتهم الجدلية ، فاتخذوا من الطبيعة موضوعاً للجدل بدلاً من أن يكون جدلهم حول شئون العقيدة »(١) .

وكتاب « البديع » المذكور قد عني صاحبه عناية كبيرة بأشعار الأندلسيين وأورد لهم نماذج كثيرة في وصف الربيع ، وأزهاره ، ووروده ، ثم وشي كتابه - كما أسلفنا - بشيء من تلك المجادلات ، والمناظرات الشعرية حول الأزهار ، بل إنه عد ذلك من صميم كتابه ، فقال : « ومما يصلح في هذا الباب ماوقع في النواوير من تفضيل وتغليب وماوقع بينهما من تفاخر وتفاضل ، فإن تلك القطع الشعرية تشتمل على مدح نور ، وذم آخر ، فهما موصوفان ، ولم تنفرد بنور وإنما اشتملت على نورين ، وتضمنت وصف شيئين ، وأكثر ماوقع هذا قديماً في الورد والبهار . » (٢) ، وأولى مذهب ابن الرومي في ذلك عناية كبيرة ، لأنه يرى أن « قول ابن الرومي في ذلك كثير ومذهبه مشهور . » (٣) . ومن هذا المنظور تعمد إيراد بعض الرسائل والقصائد التي ترد على ابن الرومي ، وتنقض ماذهب إليه ،

---

(١) تاريخ الأدب الأندلسي ، عصر الطوائف والمرابطين ص ١٩٧ .

(٢) البديع ص ٧٣ .

(٣) نفسه ص ٧٤ .

بقول ابن الرومي :

خَجِلتْ خدودُ الوردِ من تَفْضِيلِه خجلاً تَوَرُّدُها عليه شاهدُ(٢)

وشرع في سرد كلام الجياني « من أوله إلى آخره » كما يقول ، ومنه :

عنّي إليكَ فما القياسُ الفاسدُ إلا الذي أَدّى العيانُ الشاهدُ

واستمر يورد أبيات القصيدة مركزاً على مواطن ردوده على ابن الرومي على هذا النحو :

قال أبوالوليد ، وقوله : « ولمن يكون الفضل في حكم العلا . . البيت . رد على قول ابن الرومي :

شتانِ بين اثنين هذا مُوعِدٌ بتَسَلُّبِ الدُّنيا وهذا وَاعِدُ

وعلق على ذلك بقوله : « فجعل الورد لتأخره موعداً بانقضاء الربيع ، والبهار لتبكيره واعداً به ، ورد الجياني عليه مقنع ، لأن الموعود به أجل من النذير الواعد عنه . » وقوله : يفنى خيار الناس . . البيت ، رد على قوله :

وإذا احتفظتَ بهِ فامتعُ صاحبٍ بِبَقَائِهِ لو أن حياً خالـــــدُ

لأن البهار يبقى بنضرته أياماً ، والورد أسرع ذبولاً ، وقول الجياني :

« وجعلت للأسماء حظاً زائدا » رد على ابن الرومي في قوله :

أُطلب بِعَيْشِكَ في الملاحِ سَمِيَّه أبداً فإنك لا محالةَ واجدُ(٣)

جعل من محاسنه التسمى به عندهم ، فنرجس في أسمائهم كثير ، وذلك لاحجة له ولا عليه . وقوله : ولو أن فعلاً للكواكب في الثرى . الأبيات رد على بيتي ابن

---

(١) البديع ص ٧٤ .

(٢) ديوان ابن الرومي ٢/ ١٦١ .

(٣) ينظر في جميع ماسبق « البديع » ص ٧٤ – ٧٥ .

له ولا عليه . وقوله : ولو أن فعلاً للكواكب في الثرى . الأبيات رد على بيتي ابن الرومي :

هذي النجــومُ التي ربَّتْهُمَــا   بِحَيَا السَّحابِ كما يُرَبِّي الوالدُ
فانظُرْ إلى الأخوينِ مَنْ أدناهُما   شَبَهًا بوالــدِهِ فــذاكَ الماجــدُ

شبه البهار بالنجوم . »(١)

ومن ثم اطردت تلك الردود في كتاب أبي الوليد ، فمنها رد لأبي بكر بن القوطية « في المعنى والقافية قصيد مستول على غاية الكمال ، مستوفٍ نهاية الجمال» ومطلع هذه القصيدة :

كَسَفَتْ خدودُ النَّرْجسِ المصفرِّ من   حَسَدٍ وقد يُدْوي العدوّ الحاسدُ (٢)

وهذه القصيدة أخذ منها صاحبها بطريقة ابن الرومي ، وقد ظهر أثره عليه في قوله : أين الحياة من الممات . . . البيت » (٣) .

قال أبو الوليد « البيت هو لابن الرومي ، واتقن الرد عليه فيه ، وبيت ابن الرومي :

أين العيونُ من الخدودِ نفاسةً   ورِيَاسةً لولا القياسُ الفاسدُ (٤)

ثم أعقب أبو الوليد تلك القصائد بقصيدة للشيخ أبي عبدالله بن مسعود يصف فيها البهار ويفضل الورد عليه(٥) ، وآخر كنى عنه بـ« ببعض الأندلسيين » قال قصيدة يرد فيها على ابن الرومي بيتيه الطائيين(*) ، يقول فيها :

---

(١) البديع ص ٧٦ .
(٢) البديع ص ٧٦ .
(٣) نفسه ، ص ٧٦ .
(٤) نفسه ص ٧٧ .
(٥) نفسه . .
(*) يقصد قوله : وقائل لما هجوت الورد معتمداً . . . . البيتين .

الورد خَدُّ حبيبٍ حينَ تَلْثَمُه فَيُغْتَدى أثَرُ الأسنانِ في وَسطِه(١)

واستمر الأندلسيون يقرضون الشعر ويكتبون الرسائل النثرية الموشاة بالأشعار في هذا الميدان ، يعقدون فيها المفاضلات بين الورد والنرجس ويصطنعون القصص على ألسنة تلك الورود والأزهار يردون فيها على بعضهم ، كما كانوا يردون على ابن الرومي .

ومن خلال استقراء تلك النماذج ، وتعليقات أبي الوليد الحميري عليها تبين لنا أن الشعراء الأندلسيين كانوا مولعين بمنافسة المشارقة ، وابراز البراعة ، والقدرة على مجاراة المحدثين وطرق الميادين التي طرقوها ، وكانوا يحسون من أنفسهم في شعر الطبيعة على أقل تقدير أنهم هم أولى بالإجادة في تصوير مشاهد طبيعتهم ، وإقامة تلك المجادلات والمناظرات حولها ، وإن اعترفوا ضمنا بسبق الحكيم ابن الرومي إياهم ، واعجابهم بطريقته ، إلا أن هذا الاعجاب مالبث أن تحول إلى ردود فعل قوية في نفوسهم حتى بدت تلك العصبية المنكرة في مقدمة أبي الوليد الحميري التي يقول فيها متحدثاً عن منهجه في كتاب « البديع » : «ولست أودعه إلا ماذكر لأهل الأندلس خاصة في هذا المعنى إذ أوصافهم لم تتكرر على الأسماع » . وقال مقللاً من شأن أشعار المشارقة : « وأما أشعار أهل المشرق فقد كثر الوقوف عليها ، والنظر إليها حتى ماتميل نحوها النفوس ، ولايروقها منها العلق النفيس ، مع أني أستغني عنها ، ولا أحوج إليها بما أذكره للأندلسيين من النثر المبتدع ، والنظم المخترع ، وأكثر ذلك لأهل عصري إذ لم تغب نوادرهم عن ذكري »(١) .

وهذه عصبية مفرطة من أبي الوليد ، ولقد جاءت متأخرة عن وقتها ، ولن

---

(١) نفسه ص ٧٩ .

(٢) البديع ص ٤ .

تنفي التأثر القائم بابن الرومي أو المنهج الذي ساد في المشرق من المفاضلة بين الأنوار ، ونحو ذلك .

وطريقة ابن الرومي هذه لم تعارض من قبل الأندلسيين فقط ، فقد رأينا ذلك من قبل عند المشارقة أنفسهم ، وقد دفعهم إلى ذلك تعصب ابن الرومي لما يحب ، ولقد أحب النرجس فتعصب له ، وذم الورد كما يقول أبوإسحق الحصري ، حيث ناقضه جماعة من البغداديين وغيرهم في هذا المذهب ، وذهبوا إلى تفضيل الورد فما دانوه وما استطاعوا (١) .

والأندلسيون هنا ليسوا إلا معارضين أذكياء ، لشعر ابن الرومي ، فقصيدة ابن فرج التي أشرنا إليها ، وقصيدة أبي الحزم ابن جهور بن أبي عبيدة ، وهي برواية أحمد بن فرج الجياني ، هي معارضة لابن الرومي في داليته المشهورة ، وقد أورد الحميدي في الجذوة(٢) قصيدة أبي الحزم ، ونص على أنها في تفضيل الورد ، وكذلك ابن الأبار ذكره في الحلة وقال : « وكان شاعراً مكثراً ، فمن شعره قوله من أبيات في تفضيل الورد وكأنه يرد بها على ابن الرومي » (٣) ، وذكرها المقري وعلق عليها بقوله : « وكأنه عارض بهذه الأبيات في تفضيل الورد قول ابن الرومي في تفضيل النرجس عليه من قصيدة :

للنرجسِ الفضلُ وإن أَبى   آبٍ وحادَ عن الحقيقةِ حَائِدُ

وهي مشهورة » ، وذكر من تلك الردود أيضا قول بعضهم :

يامن يُشَبِّه نرجساً بنواظرٍ   دعجٍ تَنَبَّهْ إن فَهَمَك فاسدُ(٤)

وهكذا فقد أحدثت هذه القصيدة ضجة كبرى بين شعراء الأندلس

(١) زهر الآداب ١/ ٥٦٥ .

(٢) الجذوة ص ١٨٨ ترجمة رقم ٣٦٠ .

(٣) الحلة السيراء ، لابن الأبار ، ت عبدالله أنيس الطباع ص ٢٧٤

(٤) نفح الطيب ١/ ٣٠٤/

وهكذا فقد أحدثت هذه القصيدة ضجة كبرى بين شعراء الأندلس و«ألهبت حماسهم ، فتباروا في معارضتها ، والنسج على منوالها في الوزن والقافية مفضلين الورد على النرجس داحضين حجته بحججهم ، وبراهينهم وجعلوا من موقف ابن الرومي ، وقصيدته محوراً هاماً تدور حوله نورياتهم على مدى الأجيال » (١) .

والحقيقة أن ابن الرومي يبدو الوحيد في الميدان في هجاء الورد يتبين ذلك من نصوص بعض الشعراء العباسيين ، ومناقضاتهم لما ذهب إليه ، ومن ثم انتقال الفكرة إلى الأندلس ، فانبرى شعراؤه للرد عليه واتمام السلسلة ، كما عرفنا من النماذج السابقة .

ولعلنا نقف عند هذا الحد ، ونكتفي بهذا القدر من التأثيرات في شعر الطبيعة ، وأحسب أن البحث قد استطاع أن يتعرف على كيفية تناول الأندلسيين لذلك الفن الوصفي الجميل ، وتعرف على كيفية تعاملهم مع الفن نفسه لدى الشعراء المحدثين في العصر العباسي بالمشرق ، لأن هذا الشعر يرتبط بفن هو ميزة من ميزات الشعر العربي بعامة ، ولكنه كثر لدى الشعراء العباسيين ، ومن ثم ازداد كثرة لدى شعراء الأندلس ، يقول الدكتور عمر فروخ : « والوصف في المشرق كان ميزة العصر العباسي ، وهو في الأندلس ميزة الأدب الكبرى في الشعر والنثر : وصف الطبيعة بما فيها من آثار علوية ، وبما فيها من جنائن وأنهار ، ومن أشجار وأزهار وأثمار ، ومن حيوان . . . » (٢) .

---

(١) النوريات ص ٣٧ .

(٢) تاريخ الأدب العربي ، عمر فروخ ٤/ ٤٠٣ ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط/ ١ ، ١٩٨١م .

وحقيقة فإن الشعراء الأندلسيين قد تفننوا في وصف الطبيعة وتوسعوا فيه توسعاً ملموساً ، ولاينكر ذلك إلا جاحد أو مكابر ، وقد حاولوا أن يقفوا عند كل مايقع عليه ناظرهم ، وتظفر به حواسهم ، واصفين متأملين ، ساعدهم على ذلك مامنحته لهم هذه الطبيعة بما حباها الله من الجمال والفتنة من ناحية ، وبما اتسموا به من سماح وانفتاح ، وقدرة فائقة على الابتكار ، والابتداع والادراك من ناحية ثانية(١).

وهكذا فإن الشاعر العربي في الأندلس كان يعنى كثيراً بالشعر العباسي ، والقاريء المتوغل في أشعار أهل الأندلس يجد الشعر العباسي أمامه في أغلبها ، وفي أنديتهم ومسامراتهم الأدبية ، ولذلك نستطيع القول بعد هذا الاستقراء لهذه التأثيرات إن الشعر الأندلسي لايعدو أن يكون شعراً محدثاً ، وإن نشأ بالأندلس ، وأن الشاعر الذي يعارض شاعراً عباسياً أو يناقضه ، فليست تلك المعارضة أو المناقضة من قبيل التقليد والمحاكاة ، وإنما لإحساسه القوي بأنه صنوٌ للشاعر العباسي ، وبأنه أحد شعراء هذا العصر ، ولذلك وجدنا النظرة واحدة لشاعر نشأ في بغداد ، وآخر نشأ في قرطبة أو حلب أو غرناطة لدى نقاد الأندلس ومؤرخيهم، كابن بسام وابن دحية ، وابن سعيد ، وغيرهم ، كما هو الشأن بالنسبة لشعراء المهجر أو غيرهم من شعراء العربية في العصر الحديث ممن عاش في أمريكا ، أو أي من البلاد الأوروبية ، ومن واقع نظرة النقاد المعاصرين إليهم ، مع أن الأمر بالنسبة لهم كان يجب أن يكون أشد من حيث المطالبة بالجدة والابتكار ، لأن الشعراء الأندلسيين يعيشون في أكناف دولة عربية إسلامية وكانت لغتهم عربية خالصة ، ولم يكن لهم عناية باللاتينية ولابغيرها .أما شعراء المهجر ومن إليهم فقد

---

(١) النوريات في الشعر الأندلسي ص ٦ بتصرف .

خالصة ، ولم يكن لهم عناية باللاتينية ولابغيرها . أما شعراء المهجر ومن إليهم فقد عاشوا في دول ليست عربية ، وتمكنوا من تعلم لغاتها ، ومع ذلك ظل شعرهم عربياً تقليديا خالصا مرتبطا بمسقط رؤوسهم في المشرق ، ولم يطالبوا بأن يصبحوا صورة من أدب تلك الأمم كما فعل بعض الدارسين مع شعراء الأندلس .

ولو أن النقاد نظروا بعين الانصاف لعدّوا الشاعر العربي في الأندلس شاعراً مبدعاً عندما يعارض شاعراً مشرقياً عباسياً أو غيره ، ولولا أمثال تلك المعارضات لما كان لهذا الأدب هذه الشهرة وهذا الاهتمام ، حتى أصبح له مكانة عظيمة في أعين المنصفين من النقاد والدارسين ، ولربما كانت النظرة إليه - لولا تلك النظرة - على أنه أدب مستقل وطارىء بسبب بعد الإقليم ، والأندلسيون أنفسهم لولا إحساسهم بكثرة الطعن عليهم لما حصل ذلك النقد والرصد لتجارب الشعراء وابرازهم لأهل المشرق على حساب سمعتهم ، ولولاه أيضاً لما خرجت إلينا تلك المؤلفات التي وضعها أصحابها لغرض التفوق على المشارقة وإن تأثروا بمؤلفات المشارقة أنفسهم في الطريقة والمنهج ، يقول الدكتور أحمد هيكل « إن الأندلسيين مع تأثرهم بالمشارقة كانوا يحاولون التفوق على سابقيهم المشارقة ، وكانوا أحياناً يتفوقون فعلاً وهم في كل ذلك مدفوعون بروح القومية الأندلسية التي كانت تدعوهم دائماً إلى تأكيد ذواتهم ، وابراز جهود بلدهم » (١) .

وإذاً فالشاعر المتأخر أو المعاصر عندما يعارض شاعراً أكثر منه شهرة أو شاعرية فليس منطلقه دائماً المحاكاة ، فلربما يعارض لابراز براعته ، أو متحدياً أو معجباً ، ولايقلل ذلك من مكانته ، فهاكم ابن زيدون في « نونيته » المشهورة ، فكم من الشعراء أعجب بها وعارضها ، وقد أعطت لصاحبها شهرة واسعة حتى أصبحت هي وأخواتها من قصائده مثلاً يحتذيه الشعراء من بعده(٢) ، ومعروف

---

(١) الأدب الأندلسي ص ٢٥٥ أحمد هيكل .

(٢) الأدب الأندلسي ، منجد مصطفى بهجت ص ٢٧٣ ، وتاريخ الفكر الأندلسي ص٨٦ .

واعجاب النقاد بها وارتقاء منزلتها . . . من الأسباب الداعية للمعارضة وهو أمر شبه متواتر في القصائد المشهورة » (١) ، وقد وصف «جارثيا قومث» هذه النونية بـ«أنها أجمل قصيدة حب نظمها الأندلسيون المسلمون ، وغرة من غرر الأدب العربي كله عارضها أناس كثيرون ولازالوا يعارضونها حتى اليوم » (٢) ، وروى أن «أوجست كور» وصف ابن زيدون بأنه « شاعر من طبقة الفحول القدماء وطابعهم ، وكان شعره لهذا جديراً بأن يتخذ مثلاً يحتذيه من جاء بعده من الشعراء»(٣) ، وكلام أوجست هذا ليس سوى تأكيد « لما ذهب إليه من قبل أبوعلي ابن رشيق ومحمد بن صارة الشنتريني ، وأحمد المقري»(٤) .

وليس ببعيد عنا مانالته سينية البحتري المشهورة من إعجاب الشعراء بها ، واقبالهم على معارضاتها في العصر الحديث من شعراء رواد يشار إليهم بالبنان أمثال أحمد شوقي شاعر العصر .

وهذا شأن القصائد الذائعة تسجلها المعارضات قبل أن يسجلها التاريخ ، فقصيدة ابن الأبار الجهادية الرائعة قد حازت شهرة منقطعة النظير بسبب تلك المعارضات حتى قال عنها ابن سعيد : « التي سارت بها الركبان ، وعارضها كثير من الشعراء بين محظى ومحروم ، وأغري الناس بحفظها إغراء بني تغلب بقصيدة عمرو بن كلثوم . » (٥) .

وخلاصة القول ، فإن الشعراء فرسان ، والشعر ميدان ، ولذلك قد يبرز الشاعر فيه مبدعاً ، ومعارضاً ، ومبتكراً ، وليس للأول سوى فضل السبق والتقدم ، أو القرب من منبع العروبة الصافي ، ولعلّ في هذا مندوحة في تفوق شعراء المشرق على شعراء الأندلس .

---

(١) نفسه ، منجد بهجت ص ٢٧٣ .

(٢) الفكر الأندلسي ص ٨٦ .

(٣) نفسه .

(٤) نفسه .

(٥) اختصار القدح المعلى ، ابن سعيد ، ت/ ابراهيم الأبياري ، ط/ ٢ ، ١٤٠٠هـ ، ص١٩١ .

الفصل الخامس

خصائص الشعر الفنية

بين المحدثين والأندلسيين

المبحث الأول

بنية القصيدة

الخصائص الفنية هي قسمة مشتركة بين الشعراء ، تتفاوت في الشعر العربي جودة ورداءة بحسب تفاوت الشعراء في ذلك ، ومن المعروف أن الشعر فن مقصود متعمد . . يمارسه طائفة من الفنانين المتميزين عن سواهم من الناس ، ينطقون بالشعر عن موهبة فطرية ، وسليقة مغروسة في نفوسهم ، . . . يعتمدون فيه الاتقان ، والابتكار ، ويتنافسون في فنهم هذا (١) . ونظراً لكون الشعر كذلك ، فإننا رأينا أن يتخذ البحث في هذا الفصل مسلكاً جديداً ، فيكون موازنة بين المحدثين وإخوانهم شعراء الأندلس في الخصائص الفنية ، ولايعمد إلى تتبع الأثر لذاته بقدر مايعمد إلى إبراز مكانة الشاعر العربي في الأندلس بالنسبة للشعر العربي عامة ، والعباسي بخاصة ، من خلال تلك الخصائص .

ولم يكن الشاعر العربي الأندلسي يجهل مامرّ بالشعر العربي من مراحل وماقيل فيه من آراء نقدية حددت مساره ، ومذاهب شعرائه ، ولاسيما الشعراء المحدثين الذين أثروا بشكل واضح على شعراء الأندلس ، ونظراً لكونه عالماً بأساليب الشعراء كان تأثره بهم تأثراً انتقائيا مبرزاً فيه براعته ، وليس تأثراً عشوائياً كما يعتقده بعض الدارسين (٢) .

وليس من شك في أن الشاعر العربي في الأندلس كان متعلقاً بشعر الشعراء المحدثين العباسيين . وذلك يعود إلى أن الشعر الأندلسي قد تأخر ظهوره عن الشعر العباسي عشرات السنين كما يقول الدكتور إحسان عباس (٣) ، وكانت نماذج هذا

---

(١) بتصرف من كتاب التوجيه الأدبي ، طه حسين وآخرون ص ١٢٩ .

(٢) ينظر على سبيل المثال ماكتبه الدكتور شوقي ضيف في الفن ومذاهبه .

(٣) عصر سيادة قرطبة ، ص ١٢٤ .

الشعر ماثلة أمام شعراء الأندلس ، فبدأت البدايات الأولى له على نهج المحدثين ، وإن كان البعض منهم تأثر بأسلوب الشعر القديم من خلال الأشعار التي رويت بالأندلس على أثر الرحلات العلمية التي قام بها بعض شعراء الأندلس ، إلى المشرق ، وانتقال بعض الأدباء إلى الأندلس حاملين معهم شيئاً من تراثهم للعكوف عليه وتدريسه بالأندلس ، أمثال أبي على القالي (١) ، وصاعد البغدادي ، وإن كان للأول فضل كبير في تأصيل الشعر الأندلسي على الاتجاه القديم .

وكان لابد للشعر القديم الذي عنى به كبار اللغويين والنقاد بالمشرق أن يجد قبولاً حسنا في نفوس الأندلسيين ، لاسيما وهو مناط الدراسات القرآنية التي أولع بها علماء الأندلس ، وكان لهم اليد الطولى في ذلك ، أضف إلى ذلك أن الشعر المحدث بالمشرق لم يقم إلا على أكتاف القديم وهو الأصل الذي يلجأ إليه كل شاعر متى أعياه القريض .

والشاعر العربي عندما هاجر إلى الأندلس ظلت نفسه تواقة إلى منابعه الأولى ، فقد ولدت منه الغربة حنيناً جعله يعود إلى تراثه ، يلتمس فيه الدفء والحنان ، فوجد في الشعر القديم مسلاةً له ، ومنبعاً صافياً ينهلُ منه ، ولهذا «كان من الطبيعي أن يصدر الأندلسيون في موطنهم القصي عن أدب مشابه لأدب أرومتهم في المشرق ، أدب يتسم بطابع المحافظة ، ويعبق بسمات منً الأصالة»(٢) وذلك شيء تحتمه طبيعة الشعر العربي ، فهو كالشجرة الكثيره الأغصان لاينفصل شيءٌ منها عن الشجرة الأم .

ويظل لهذا القديم هيمنة عظيمة على الشاعر العربي في أي عصر من العصور، بل وفي أي إقليم وجد ، والأمر يعود كما يؤكد «جارثيا جومث» لقوة

---

(١) ينظر الفصل الأول ، المبحث الأول من هذا البحث ص ٧٣ .

(٢) ملامح الشعر الأندلسي ، عمر الدقاق ، ص ٤٣ .

سلطان القديم على نفوس العرب خاصة(١) . ولذلك تكمن قيمة التاريخ الأدبي لهذه الأمة قبيل الإسلام في هذا التراث الشعري العظيم، فهو ديوانهم وسجل مآثرهم كما ذكرنا ذلك من قبل ، وقد غدا هذا الشعر محفوظاً من عامتهم فضلاً عن علماء هذه الأمة، من رواة ولغويين ، وغيرهم ، وقد أنصف هذا المستشرق عندما قال: « إذ إن للقديم سلطاناً على نفوس العرب خاصة » معللاً ذلك ، بأن هذا التراث الشعري القديم، هو « «ديوان العرب» الذي تتبين به الأصول القديمة، وتعرف الأنساب . . . . وكان الناس جميعاً يحفظون هذا الشعر القديم»(٢) .

والأندلسيون من أشد الناس حرصاً على حفظ هذا الشعر، وعلى تتبع أساليب شعرائه ، ولذلك جاءت القصيدة العربية في الأندلس ، مطابقة في بنيتها ، من حيث المقدمة والاستهلال وحسن التخلص ، والخاتمة للقصيدة العربية في المشرق، وليسوا بهذا المسلك بعيدي الشأو عن المحدثين العباسيين ، فالمحدثون أنفسهم لم يجدوا بداً من متابعة القدماء في بنية القصيدة ، والجديد الذي أحدثوه إنما هو في أجزاء منها ، أو في الصور والأخيلة والإغراق في أنواع البديع، ولقد بقيت القصيدة العربية تسير وفق القالب المعهود لاتخرج عنه إلا في نطاق محدود ، وهذا يؤكد ماذهب إليه ابن رشيق عندما قال: «وإنما مثل القدماء والمحدثين كمثل رجلين : ابتدأ هذا بناءً فأحكمه وأتقنه، ثم أتى الآخر فنقشه وزينه . . » (٣) .

---

(١) (٢) الشعر الأندلسي ، جارثيا جومث ، ت/ طاهر مكي ، ص ٢٢ .

(٣) العمدة ١/ ٩٢ .

بناء القصيدة بين المحدثين والأندلسيين :

عقد ابن رشيق باباً سماه « باب المبدأ ، والخروج ، والنهاية » انطلق فيه من أن الشاعر الجيد هو من « استطاع أن يجعل شعره حسناً في هذه الصفات الثلاث مستشهداً بكلام بعض حذاق الشعر ، وذلك في قوله : « قيل لبعض الحذاق بصناعة الشعر : لقد طار اسمك واشتهر ، فقال : إني أقللت الحز ، وطبقت المفاصل ، وأصبت مقاتل الكلام ، وقرطست نكت الأغراض بحسن الفواتح ، والخواتم ، ولطف الخروج إلى المدح والهجاء ، وقد صدق ، لأن حسن الافتتاح داعية الانشراح ومظنة النجاح ، ولطافة الخروج إلى المديح سبب ارتياح الممدوح ، وخاتمة الكلام أبقى في السمع وألصق بالنفس لقرب العهد بها ، فإن حسنت حسن ، وإن قبحت قبح . . . » (١) .

وكان يرى أن الشعر قفل أوله مفتاحه ، وينبغي للشاعر أن يجود ابتداء شعره ، فإنه أول مايقرع السمع منه ، وبه يستدل على ماعنده في أول وهلة . »(٢) .

وابن رشيق هنا يحدد لنا الهيئة التي يجب أن تكون عليها القصيدة العربية فهو كما يقول الدكتور عبدالرحمن ياغي : « قد تناول القصيدة العربية ودرسها دراسة تفصيلية ، وأخضعها لأصول منهجية ، وعرض لأجزائها من زوايا متعددة ، فنية وتاريخية ونفسية . » (٣) .

حسن الابتداء :

وقد وقف ابن رشيق كما وقف غيره من النقاد عند بعض الابتداءات الحسنة كقول امرئ القيس :

---

(١) العمدة ١/ ٢١٦ - ٢١٧ ، طبعة الشيخ محي الدين ، ١/ ٣٨٨-٣٨٩ ، ت/ قرقزان .

(٢) نفسه ، الصفحة نفسها .

(٣) حياة القيروان وموقف ابن رشيق منها ص ٤٢٣ نقلا عن (بناء القصيدة العربية) ، د . يوسف بكار .

« قِفَا نَبْكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ » (١)

وقال بأنه « أفضل ابتداء صنعه شاعر ، لأنه وقف ، واستوقف وبكى واستبكى ، وذكر الحبيب ، والمنزل في مصراع واحد » (٢) .

وأخذ يستعرض جملة من الابتداءات الحسنة لشعراء جاهليين ومحدثين . فمما اختير للمحدثين قول بشار :

« أبى طللٌ بالجزْعِ أنْ يَتَكلّما »

وعلق عليه بقوله : « وهو عندهم أفضل ابتداء صنعه محدث » (٣) . ثم جاء إلى أبي نواس ، وسرد له جملة من المطالع الحسنة لإثبات براعة المحدثين في حسن ابتداءاتهم ، مهما غض منهم اللغويون .

وأغلب تلك المطالع جارية على سنن الشعر الجاهلي ، ماعدا البعض اليسير من مقدمات أبي نواس ، وهذا يدل على أن المطلع الحسن ليس بالضرورة أن يقتفي أثر المطالع القديمة ، بقدر مايشترط فيه أن يلفت انتباه السامع ، ويشده لسماع مابعده .

ولا ريب أن الحديث عن جمال مطالع القصائد ذو مساس قوى بحذق الشاعر ، وفطنته ، ومدى تمثله لسنن الشعر العربي ، وتجديده فيها في حدود المألوف ، يقول الدكتور محمد كامل حسين « كان الشاعر العربي يبدأ قصيدته بالنسيب ، كما يبدأ الشاعر الأوروبي قوله بالإشارة إلى أساطير الاغريق ، كلاهما يود أن يبدأ بالمألوف من القول ، يتبع الأسلوب المعبد من قبل حتى يطمئن إلى إجادته القول ، ثم يندفع فيما يريد أن يقول سوى أن الشاعر الأوروبي كان يعنى

---

(١) الديوان ، ص ٨٤٣ ، قصيدة ٥٣ .

(٢) العمدة ١/ ٢١٨ طبعة محي الدين .

(٣) العمدة ص ٢١٩ ، ط/ محي الدين .

بالمعاني التي يتحدث عنها ، أو كان يعنى بالوقائع التي يرويها من هذه الأساطير ، أما الشاعر العربي فكان همه التفنن في القول ، وحسن السبك ، والموسيقى ، لا يعنيه كثيراً من المعاني التي يذكرها في نسيبه . »(١) .

ونحن نتفق مع الدكتور محمد كامل حسين ، في الشطر الأول من كلامه في أن الشاعر العربي يريد البدء في قصائده بما ألفه الناس ، حتى يجد لقوله قبولا في أذواقهم ، أما أن الشاعر العربي همه فقط التفنن في القول وحسن السبك ، والموسيقى ، ولا يعنى بالمعاني ، فهذا حكم عام لاينطبق على سائر الشعر العربي ، وإلا كيف يؤثر النسيب في نفس من ينسب بها ، وأين نضع الحكم ، وأبيات المعاني، وماقيل من أن قبيلة رفعها بيت وأخرى أسقطها بيت من الشعر ، فكل ذلك لايأتي إلا إذا تظافر مع السبك الحسن ، والجرس الموسيقى معنى قوي يصل إلى المتلقى فيؤثر فيه ، وإن كنا لاننكر أن من الشعر العربي ماحسن لفظه ، وقصر عن معناه ، كما أشار إلى ذلك ابن قتيبة ، وهذه تدعونا إلى القول بالعلاقة بين الشكل والمضمون ، وقد قال عنها «هارولد آزبورن» : (لا يظل شيء من القصيدة ولا بنيتها العروضية ، ولا علاقاتها الإيقاعية ، ولا إسلوبها الخاص بها عندما تفصل عما تحتويه من معنى ، فاللغة ليست لغة ، بل أصوات إلا إذا عبرت عن معنى » (٢) .

وهذا الكلام الذي ذكره آزبورن ، هو المعقول جدا لأن الشاعر الجيد من يطوع قالب القصيدة للمعنى الذي يريد ، ويناسب بين تلك الأصوات في ألفاظ

---

(١) متنوعات / محمد كامل حسين ، ٢/ ٨٧ ، عن كتاب براعة الاستهلال ، ص ١٩ .

(٢) مفاهيم نقدية ، رينيه ولك ، ترجمة د . محمد عصفور ، ص ٥٠-٥١ ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت .

معينة تتسق مع المعنى ، والمعروف أن « اللفظة المفردة لاجمال فيها ولا قبح ، ولكن الجمال في علاقتها بغيرها » (١) .

صحيح أن بداية التأليف هو اختيار الألفاظ ، ولابد أن يعي المبدع أن تلك الألفاظ إذا ألفت لابد أن تأخذ مسارا جديدا ، حتى « يخيل للسامع أن هذه الألفاظ ليست تلك التي كانت مفردة ، ومثال ذلك كمن أخذ لآليء ليست من ذوات القيم الغالية ، فألفها ، وأحسن الوضع في تأليفها فخيل للناظر بحسن تأليفه ، وإتقان صنعته ، أنها ليست تلك التي كانت منثورة مبددة ، وفي عكس ذلك من يأخذ لآليء من ذوات القيم الغالية ، فيفسد تأليفها ، فإنه يضع من حسنها ، وكذلك يجري حكم الألفاظ العالية مع فساد التأليف . » (٢) .

ولا نود إطالة الردود على من يصم الشعر العربي بعدم ارتباط شكله بمضمونه ، لأننا مازلنا في الحديث عن مطالع الشعراء ، وموقف المحدثين العباسيين منها ، فمما قدمنا يرى أن العرب كانت تهتم بحسن المطلع وقد أبدع المحدثون في ذلك ، وكذلك شعراء الأندلس وجدناهم في مصاف المحدثين في جمال مطالعهم .

وهنا قضية تبرز لنا وهي تجديد المحدثين في هذه المقدمة ، وهل وجد بالفعل تجديد يذكر ؟

من خلال دراستنا لشعر القدماء والمحدثين ، اتضح لنا أن الشاعر العباسي ، هو شاعر حضاري مثقف ، ليس مثل الشاعر الجاهلي ، الذي لاتعدو ثقافته ماحفظ من أشعار السابقين ، وعلى هذا فالأصل في الشاعر العباسي ألا يلتزم بما سمى

---

(١) الأسس الجمالية في النقد العربي ، عزالدين اسماعيل ، دار الفكر العربي ، ١٤١٢هـ ، القاهرة ، ص ١٩٨ .

(٢) المثل السائر ١/ ٢٠٩ .

مقدمة القصيدة العربية ، سواء كانت نسيبا أو وقوفا بالأطلال ، لأنه يعبر عن عصره الذي نشأ فيه ، وهو إذا لجأ للمقدمة تلك فإنه يناقض نفسه ليرضي وسطا معينا من الناس ، وعلى الرغم مما يجب أن يكون عليه الشاعر العباسي ، من إحساس بلغة عصره ، فإنه ظل أسيرا لمنهج القصيدة العربية ، من حيث مقدمتها ووسطها وخاتمتها ، ولم يخرج عن ذلك إلا في القليل النادر ، وليس ذلك يعتبر بالجديد بمعنى الجدة ، والابتكار ، لأن الشعر صناعة ، يستطيع الشاعر أن يصنع قصيدته على منهج القدماء كما فعل بشار ، عندما قال عن إحدى قصائده « بنيتها أعرابية . . . » أو نحو ذلك ، ويستطيع أن يصنعها مناسبة لروح العصر الذي يرفل فيه .

ولا يغيب عن الذهن أن « الشعر العربي من حيث الصناعة يقوم على الأركان الأربعة الآتية : النظم ، الجرس اللفظي ، والصياغة ، ثم إلقاء الكلام على صور خاصة من الأداء ، وفي أساليب ، ومناهج تمليها عوامل التقاليد ، والبيئة على مر الأزمان ، واختلاف الأمكنة وتؤثر فيها الأفكار المستحدثة ، ومايجري مجراها من دواعي التغير والتجدد . » (١) .

وقد أحاطت بالمحدثين ظروف ميزتهم بشيء من التجديد ، قد تنطبق إلى حد كبير على الشعراء الأندلسيين ، مما جعلهم يقتفون أثر المحدثين ، ويرون فيه الشعر الذي يناسب حضارتهم ، كما يرون فيه الابتكار والجدة ، ولذلك نحن ملزمون بأن نتعامل معه ، بنفس النظرة التي ننظر بها لشعر المحدثين . وأن نتلمس له من المبررات مايحمد لهم من ابتكارهم وتجديدهم كما صنعنا مع المحدثين .

وقد جهد الشاعر الأندلسي نفسه في الظهور بمظهر الأصالة والجدة في الوقت ذاته ، فحافظ على الإسلوب القديم من حيث حسن الاستهلال وحسن

---

(١) المرشد الى فهم أشعار العرب ، ١/ ١١ .

التخلص ، لكنه انساق وراء الشعراء المحدثين في جوانب أخرى جمعا بين الأصالة والحداثة ، فاجتمع له من الخصائص مالا يجتمع في شعر الشعراء المحدثين أنفسهم، من حيث البناء الفني للقصيدة وشدة أسر الكلام ، مما جعل بعض الشعراء المحدثين يشيد ببراعتهم ، كما سمعنا من إعجاب المتنبي على مكانته بابن عبدربه ، واعجاب أبي نواس زعيم طبقة المجددين بشعر عباس بن ناصح ، وبعض من حدثه عنهم من الأندلسيين .

ونحن نعلم أن المحدثين بتجافيهم عن جزء من بنية القصيدة العربية ، وخروج بعضهم عن « عمود الشعر العربي » المزعوم ، قد أحدثوا ضجة كبرى بين اللغويين والنقاد في المشرق ، ومن ثم انتقلت هذه الضجة بآرائها النقدية ونماذج الشعر المطروحة للدرس والتمحيص إلى الأندلس ، وبهذا استطاع الشاعر الأندلسي أن يتعرف على أدق خصائص المحدثين الفنية ، وقد تأثر بها الشعراء هناك بالقدر الذي سمحت به قدراتهم ، ولم تطغ على ابداعهم ، لأن الإبداع لايأتي بالتقليد ، والمحاكاة ، فالمبدع في أساسه فنان يشكل رؤاه وصوره من خياله الخصب ، وينميه بثقافته ، فيتمخض ذلك عن إسلوب خاص به تنطبع عليه بصماته الخاصة ، ولاسيما الشاعر .

والأسلوب كما يرى بعض النقاد « هو تقاطيع الذهن ، وملامحه ، وهو أكثر صدقا ودلالة على الشخصية من ملامح الوجه ، ومحاكاة الكاتب لأسلوب غيره أشبه بارتداء قناع ، وهو أمر لايلبث أن يثير التقزز ، والنفور ، لأنه موات لا حياة فيه ، حتى إن أجمل الوجوه قبحا لهو أجمل من الوجه المقنع مادام فيه ريق من حياة ، ومن هنا فإن أولئك الذين يكتبون باللغات القديمة ، ويعتنقون أساليب القدامى يمكن أن يقال إنهم يتحدثون من وراء قناع ، فلا يستطيع قارؤهم أن يتبين ملامح وجوههم ، أي أن يرى أسلوبهم ، أما بالنسبة لأولئك الذين يكتبون

باللغات القديمه ممن يفكرون لأنفسهم ، فالأمر مختلف ، لأن القاريء يستطيع أن يتبين أساليب تميزهم . » (١) .

ونحن قد لانطبق نظرية شوبنهار بتفاصيلها على موقف الأندلسيين من تراثهم القديم أو من شعر المحدثين ، وإنما على أقل تقدير يمكن تطبيق الجزء الأخير منها ، ونجعلهم ممن يكتبون بالأساليب القديمة ، وممن يفكرون لأنفسهم ، وبعد ذلك نتذكر الجزء الأول من نظرية « شوبنهار » هذه ونحدد ماإذا كان الشاعر الأندلسي استطاع أن يبرز تقاطيع ذهنه وملامحه ، وهو أكثر صدقا ودلالة على شخصيته ، أم أن الأمر غير ذلك .

ويجب أن نضع في الحسبان أن الشعر العربي لم يتغير بتغير الأزمان وقد تتغير أساليب الشعراء وتتنوع وتتجدد ، أما موضوعاته القديمة المعروفة ، فهي عبارة عن نقاط التقاء تجمع أكثر الشعراء على مر العصور ، يقول الدكتور أحمد الحوفي « . . . ففي مجالي الشعر موضوعات كثيرة تناولها الشعراء منذ زمن بعيد ، ومازالوا يتناولونها ، كالوصف ، والغزل ، والمدح ، والرثاء ، والحكمة ، وهي موضوعات متجددة ليست حكراً لعصر أو طابعاً لبيئة أو صدى لشخصية ، فليس لنا أن نصف شاعرا محدثا بالتقليد لأنه قرض الشعر في غرض من هذه الأغراض . . . ، وفي كل موضوع من هذه الموضوعات معان عامة ، وأخيلة شائعة لايستطيع أن يدعيها شاعر أو كاتب ، لأنها ملك عام للجميع كالهواء ، والماء . » (٢) .

ولذا فعلينا أن نكتشف أثر المحدثين في شعراء الأندلس من خلال الجوانب

---

(١) فن الأدب من مختارات شوبنهور ، ترجمة شفيق مقار ، ص ٥٣ ، نقلاً عن كتاب قضايا الأدب والنقد ، د. العشماوي ، ص ١٥ .

(٢) الشعر بين التقليد والتجديد ، د. احمد الحوفي ، مقال نشر بمجلة الشعر ، العدد الخامس، ص ٤٦ .

الجديدة التي أحدثها العباسيون في الصياغة والمعاني ، والصور ، لا في الجوانب المشتركة بين الشعراء ، لأن تلك « المعاني العامة ينهل منها الأدباء ، ويولدون ، ويتصرفون بالزيادة والنقصان ، ويستقون عصرا بعد عصر ، ولهذا لايزعم أحد أن هذا الشاعر سرق من ذاك ، ولأن ذلك المعنى راجع لذاك كالتمثيل بالأسد في الشجاعة والبأس ، وبالجبل في الضخامة ، والرسوخ ، والثبات ، وبالبحر في السعة والجود ، وبالشمس في العلاء ، والنفع والاشراق ، وبالشفق في الحمرة ، وبالليل في الظلمة ، وبالبدر في البهاء والجمال . وهكذا تتوارد الخواطر على هذه المعاني ، والأخيله ، فتخرج عن نطاق السرقة ، والمحاكاة . » (١) .

ولعل في كلام الدكتور الحوفي مايدل على أن هناك قدرا مشتركا بين المبدعين لايستطيع الانفصال فيه عن غيره ، وهذا يذكر بما ذهب إليه «لانسون» عندما تحدث عن الحس التاريخي في الدراسات الأدبية ، عندما يروم الدارس أو المؤرخ الفروق بين الوقائع العامة ، أو يحاول آخر أن يتلمسها بين الأفراد فإنه سيصتدم بأنه أمام شخصيات متعددة من خلال الشخصية الواحدة ، ولذلك سيضطر دون مواربة أن يدرس هذه الشخصيات مهما كانت مكانة الشخصية المقصودة ، يفهم ذلك من قوله : « ولكن مهما يكن الأفراد من العظمة ، والجمال فإن دراستنا لايمكن أن تقتصر عليهم ، وذلك أولا لأننا لن نعرفهم إذا لم نرد أن نعرف غيرهم ، فأكثر الكتاب إلى حد بعيد هو راسب من الأجيال السابقة ، وبؤرة للتيارات المعاصرة ، وثلاثة أرباعه مكون من غير ذاته ، فلكي نميزه - أي نجده هو في نفسه - لابد من أن نفصل عنه كمية كبيرة من العناصر الغريبة ، يجب أن نعرف ذلك الماضي الممتد فيه ، وذلك الحاضر الذي تسرب إليه ، فعندئذ نستطيع أن نستخلص أصالته الحقيقية وأن نقدرها ، ونحددها . . » (٢) .

---

(١) نفسه ، ص ٤٦ .

(٢) منهج البحث في الأدب ، ص ٣٣ .

والشاعر العربي في الأندلس ، كان ذلك الشاعر اليقظ المحس بقيمة تراثه، ولقد وضع أمام ناظريه هذا التراث يتمثله ، وينظر بعين البصير المدقق ماذا أحدث شعراء بني العباس من جديد في هذا التراث ، ولا نغالي إذا قلنا إن الشعر العربي في الأندلس ، هو النمط الذي جمع بين مناهج القدماء والمحدثين .

ولايزال الحديث موصولا ببراعة الشعراء المحدثين في حسن المطالع ، وإذا كان الأمر كذلك ، فالشاعر الأندلسي ، لايقل معرفة ، وتمحيصا لما كانت عليه القصيدة العربية في نسج بنائها ، وجمال مطالعها ، وحسن خواتمها ، وكان على دراية بمدى مايثيره المطلع الحسن ، ولاسيما إذا كان على ماألفه الذوق والمجتمع ، ولعلنا نشير في هذا الموطن إلى تلك القصة التي ذكرناها من قبل(١) ، وهي لقاء الشاعر الأندلسي عثمان بن المثنى النحوي بأبي تمام في بحر القلزم ، وسمع منه شعرا بدأه بقوله :

اللهُ أكبرُ جاءَ أكبرُ من مشى   فَتَعَثَّرَتْ في كُنْهِهِ الأَوْهَامُ

وكان هذا البيت مبتدأ الشعر ، فقال له ابن المثنى : شعر حسن لولا أنه لا ابتداء له ، فوقذت في نفس حبيب ، وابتدأ الشعر بقوله :

دِمَنٌ ألمَّ بها فقالَ سَلامُ   كم حلَّ عُقْدَةَ صَبْرِهِ الإلهامُ

ثم أنشده في اليوم الثاني ، هذا المطلع . . . فقال له ابن المثنى : أنت أشعر الناس . . . الخ » (٢) .

وعثمان بن المثنى هو أحد اللغويين الذين كان للقديم قداسة في نفوسهم ، وهذا يؤكد أن الأندلسيين لم ينبهروا بما سمعوه من المحدثين ، وقبلوه دون فحص وترو في كيفيته ، ومدى مناسبته لمناهج الشعر المألوفة التي أشار إليها النقاد ، وأشاد

---

(١) ذكرناها في فصل سابق لنؤكد معرفة الأندلسيين بأبي تمام .

(٢) ينظر المبحث الخاص بأثر المحدثين في غرض المديح .

بها كبار شعرائهم كابن حزم عندما امتدح « أبا الأجرب » بأنه جار على طريقة الأوائل لا على طريقة المحدثين .

والمطالع الحسنة ، فيما يبدو من كلام ابن رشيق ليس لها صلة بالتزام المقدمة الطللية . فحسن المطلع هو قدر من التشويق والإثارة يفعله الشاعر لتصغى إليه الآذان ، ولهذا استحسن ابن رشيق قول أبي نواس :

دع عنك لومي فإن اللوم إغراء ... وداوني بالتي كانت هي الداء (١)

وهو هنا خرج عما ألفه الشعر العربي من ذكر المقدمة الطللية ، أو الغزلية، وربما انتقد من يقف بالأطلال كما في قوله :

مالي بدار خلت من أهلها شغل ... ولا شجاني لها شخص ولا طلل(٢)

لكن مافعله أبونواس هنا ، لم يؤثر على هيكل القصيدة العربية ، وهذا ماجعل ابن رشيق يستحسن مطالعه الخمرية ، لأنها توقظ في السامع مكامن التأثر فتضطره لسماع القصيدة ، وهذا منهج اتبعه المحدثون - أعني نبذ المقدمة الطللية - حتى القريبين منهم من العصر الأموي كبشار الذي استهزأ « بالبكاء على الأطلال بالرغم من أنه التزمه في أكثر قصائد مديحه » (٣) ، وقصيدته اللامية خير شاهد على موقفه هذا ، ومطلعها :

كيف يبكي لمحبس في طلول ... من سيفضي لحبس يوم طويل

إن في البعث والحساب لشغلا ... عن وقوف برسم دار محيل !! (٤)

---

(١) الديوان ص ٦ .

(٢) الديوان ص ٦٩٨ .

(٣) اتجاهات الشعر العربي في القرن الثالث ، د. مصطفى هدارة ، ص ١٥٣ .

(٤) ديوان بشار ٤/ ١٧٣ .

والشعر العربي في الأندلس ، كان في أغلبه آخذا بالاتجاه القديم ، جريا على سنة الشعر العربي ، في مطالع القصائد ، ولاسيما المقدمةالطللية ، فكان ابن شهيد الأندلسي وهو أحد الشعراء الذين أولعوا بمجاراة المحدثين يعجب بقول امرئ القيس :

« ألا عِمْ صَبَاحاً أيها الطللُ البالِي »

حتى أنه أصبغ عليه رؤية نقدية تداولها الأدباء ، والنقاد من بعده وهي قوله «أن يتركب الحسن من غير حسن » (١) . ولذلك جاءت مطالع قصائد ابن شهيد متأثرة بذلك النمط المألوف في الشعر القديم ، ومن مطالعه المشهورة قوله :

منازِلُهم تَبْكِي إليكَ عَفَاءَها ... سَقَتْها الثُّرَيَّا بالغَرِىِّ نِحاءَها

خَلِيلَيّ عوجا بارك اللهُ فيكما ... بدارتها الأولى نُحَيِّ فناءَها(٢)

على أن ابن شهيد كان يدعو إلى « . . . التوسط الذي يجمع بين محاسن المحدثين وروح العرب ، وهو ماجاء به أبوالطيب المتنبي » يدل على ذلك ماذكر من أنه « شهد يوما شعراء عند ابن حمود يمدحونه بقصائد صدروها « بزينب والرباب ، ولميس ، وفرتنى ، وأعجازها للجود والكرم ، وبذل اللهى ولم يلم أحد منهم بذلك الغرض ، والمغزى إلا في بيتين أو ثلاثة ، فأنشده ابن شهيد قصيدته التي مطلعها :

فريقُ العدا من حَدِّ عزمِكَ يفرقُ ... وبالدَّهْرِ مما خاف بَطْشَكَ أولَقُ »(٣)

---

(١) التوابع والزوابع ، ص ٥٨ .

(٢) ديوان ابن شهيد ، ص ٨٢ .

(٣) الديوان ص ١٣٠ ، وبحث للدكتور إبراهيم الحاردلوا بعنوان من ثورة الأدب في الأندلس ، دراسات إسلاميه مهداة للدكتور إحسان عباس ، ص ١١٨ .

وموقف ابن شهيد هذا ليس غريبا في كونه ينكر على الشعراء هذا المسلك، لأنه لم يكن يرى كبير جدوى في تعدد موضوعات القصيدة الواحدة ولاسيما قصيدة المدح، وهو بإنكاره على شعراء بلده كثرة المقدمات الغزلية، كأنه يدعوهم إلى التحرر من التبعية والتقليد، يقول الدكتور إبراهيم الحاردلو : « ومامن شك أن ابن شهيد لايأخذ على هؤلاء الشعراء تقليدهم في مقدمات قصائدهم فحسب، بل يعاتبهم على أنهم لم يكافحوا الموضوع، ولم يلتزموا غرض القصيدة، وهو المدح، وحسب كثير من النقاد أن تعدد الموضوعات في القصيدة العربية القديمة كان من أكبر العيوب، فهل يدعو ابن شهيد إلى نوع من وحدة الموضوع، وهجر التقليد؟، ونقد ابن شهيد لايقلل من عدم التزامه هو به، فكثيرا مانجده يقف على الأطلال، في مقدمة بعض قصائده، ويبكي الديار، ويتلوم على الدمن الدوارس»(١)، وهذا يؤكد أن شعراء الأندلس لايختلفون عن المحدثين في شيء، فهم يحافظون على منهج القصيدة العربية، وفي مقدمتها هذا المطلع، فقد التفتوا لحسنه مما يدل على وعيهم بما قرره النقاد، من حسن الاستهلال، الذي قال عنه حازم القرطاجني : « وتحسين الاستهلالات، والمطالع من أحسن شيء في هذه الصناعة، إذ هي الطليعة الدالة على مابعدها، المتنزلة من القصيدة منزلة الوجه والغرة، تزيد النفس بحسنها ابتهاجا ونشاطا لتلقي مابعدها إن كان بنسبة من ذلك، وربما غطت بحسنها على كثير من التخون الواقع بعدها إذا لم يتناصر الحسن فيما وليها. »(٢).

وحسن الابتداء قد شغل النقاد، وراحوا يتتبعون بعض الشعراء المحدثين، فوجدوا منهم من لايحسنه، وقد لا يخطر ببال أحد أن ممن لايحسنه البحتري على جلالته، يقول ابن رشيق : «ومن الشعراء من لايجيد الابتداء، ولا يتكلف له، ثم

---

(١) نفسه، ص ١١٨ .

(٢) المنهاج، ت الحبيب بلخوجة، ص ٣٠٩ .

يجيد في باقي القصيدة، وأكثرهم فعلا لذلك البحتري ، كان يصنع الابتداء سهلا ويأتي به عفوا ، وكلما تمادى قوى كلامه ، وله من جيد الابتداءات كثير ، لكثرة شعره ، والغالب عليه ماقدمت . » (١) .

ومن شعراء الأندلس ، من كان مستشعرا لحسن الابتداء ، وماله من قيمة في النفس ، وتهيئتها إلى مابعده ، فالشاعر الأندلسي كان يجاري ميول النقاد والوسط المحيط به ، وقد جاءت أغلب مقدمات مدائحهم على النمط القديم كقول ابن مقانا :

لِمَنْ طَلَلٌ دارسٌ باللوى ... كحاشية البردِ أو كالرّدا

رمادٌ ونُؤْيٌ ككحل العروسِ ... ورسمٌ كجسمٍ براهُ الهوى (٢)

وإن كانوا في بناء القصيدة في الغالب الأعم لايخرجون عن مذاهب المحدثين ، حتى أن الشاعر محمد بن يحي الرباحي رثى أحمد بن موسى بن حدير بقصيدة(٣) بناها على مذاهب العرب ، وخرج فيها عن مذاهب المحدثين فلم يرضها العامة ، مما يدل على صحة ماذهب إليه إحسان عباس من أن الذوق الأندلسي قد تربى « مدة طويلة على الشعر المحدث » (٤) ، حتى وجد منهم من يتعصب لبعض الشعراء المحدثين ، وهذا بالتالي ينفي ماذهب إليه «جارثيا جومث» عندما قال بأن ليس لشعر المحدثين أثر بعيد في نفوس شعراء الأندلس (٥) .

---

(١) العمدة ص ٢٣٢ ، ط/ محي الدين .

(٢) الذخيرة ٢/ ٧٨٨ .

(٣) مطلع القصيدة : إحدى الرزيات ولا أعطى السوى ... رزءا به دهري ولو عز العزا
ينظر طبقات النحويين واللغويين للزبيدي ، ص ٣١٣ .

(٤) تاريخ النقد الأدبي ، د. إحسان عباس ، ص ٤٧١ .

(٥) ينظر : الشعر الأندلسي ، ترجمة حسين مؤنس ، ص ٢٤ .

ولا يعني كلامي هذا نقض ماذهبت إليه في بداية هذا الفصل وهو كونه موازنة في الخصائص الفنية ، وإنما لأدلل على أن الأندلسيين كانوا يجلون الشعر المحدث ، لأنه الغالب على ألسنة عامتهم ، ولا يعني ذلك عدم تأثرهم بالقدماء بأي حال من الأحوال ، ومايمكن أن يقال عن المحدثين هو الذي نقول عن الأندلسيين ، فالمحدثون ، ابتعدوا عن مقدمات الجاهليين ، ثم لجئوا إليها في جزء كبير من أشعارهم ، وكذلك الشاعر الأندلسي وجد هذا المنهج سائدا مستساغاً فاتبعه ، ولنتأمل بعض مطالع الأندلسيين لنؤكد ماقلناه آنفا . وسيظهر لنا أن بعض مقدمات قصائدهم المدحية جاءت « وصفا للخمر أو الطبيعة ، أو للبلد الذي نشأ فيه الشاعر ، أو للمرأة التي أحبها » (١) ، وهذا منهج شاع على ألسنة المحدثين كأبي تمام ، وأبي نواس ، ومطيع بن إساس ، في كثير من قصائدهم . ومن أجمل المطالع الأندلسية الغزلية قول الأديب أبي عبدالله محمد بن البين ، أحد الشعراء المجيدين كما يقول ابن بسام :

غَصَبُوا الصَّباحَ فقسموه خدودا   واسْتَرْهَفُوا قُضُبَ الأراكِ قُدُودا(٢)

وهذا لاينفي وجود مطالع سيئة لبعض الأندلسيين كقول ابن سيد الملقب باللص :

غَمِّضْ عن الشمسِ ، واسْتَقْصِرْ مدى زُحَلِ   وانْظُرْ إلى الجَبَلِ الراسي على جَبَلِ

مما جعل الخليفة عبدالمؤمن يستاء منها ، ويقول له : لقد أثقلتنا يارجل فأمر به فأجلس ، مع أن المراكشي يعد هذه القصيدة من خيار مامدح به لولا أنه كدر صفوها بهذه الفاتحة(٣) .

---

(١) الشعر الأندلسي ، الركابي ، ص ١١٤ .

(٢) الذخيرة ٢/ ٢ ٨٠ .

(٣) بتصرف من المعجب ، ص ٢٨٦ .

ولا ننسى أن من المحدثين من كانت مقدماته سيئة بالنسبة لمقام الممدوح فأبو الطيب المتنبي ، في قصيدته التي مدح بها كافور ابتدأها بقوله :

كفى بك داءً أن ترى الموت شافيا وحسبُ المنايا أن يكنَّ أمانيَا(١)

وقد عابه ابن رشيق ، وقال : « فالعيب من باب التأدب للملوك وحسن السياسة لازم لأبي الطيب ، وأشرف مآثر شعره ، إذا ذكر الشعر . »(٢) وماقول جرير عنا ببعيد ، وقد عده النقاد من أسوأ المطالع ، عندما قال لعبدالملك بن مروان :

أتصحو أم فؤادُك غيرُ صاحِ عشيةَ هَمَّ صحبُك بالرَّوَاحِ

فقال له الخليفة « بل فؤادك ياابن الفاعلة » (٣) .

وعندما تتبعنا مطالع الشعراء الأندلسيين ، رأينا منها ماهو في غرر تلك الابتداءات الحسنة ، كقول ابن هاني يمدح المعز العبيدي :

أتظن راحاً في الشمالِ شَمُولا أتظنُّهـا سَـكْرَى تجُرُّ ذُيولا
نَثرتْ ندى أَنْفَاسِها فكأنَّمـا نَثرتْ حِبالاتِ الدُّموعِ هُمَولا

إلى أن قال :

بَكَرَتْ تَلُومُ على النّدى أزديةٌ تَمي إلى خَضارماً وقُيُولا(٤)

فهي تذكرنا بابتداءات المتنبي في مدائحه لسيف الدولة ، كقوله :

---

(١) الديوان ٤/ ٢٨٠ .

(٢) العمدة ١/ ٢٢٢ ، ط/ محي الدين .

(٣) نفسه ص ٢٢٢ .

(٤) ديوان ابن هانيء ، ص ٢٦٥ .

أَيدْرِي الربــــعُ أيَّ دم أَراقـــا   وأيَّ قلوبِ هـذا الركـبِ شَــاقَــا
لنــــا ولأَهْلِــه أبــدا قلـــوبٌ   تلاقـى في جُـســوم مــاتلاقَى
ومـا عـفتِ الرياحُ لـــه مَـحَـلاًّ   عـفـاهُ من حـدا بـهمُ وسـاقَـا(١)

مع أن المتنبي كان يمقت كثرة المقدمات الغزلية ولذلك لم يعبأ بالنسيب في كل قصائده ، وربما تهكم بمن يقدم النسيب وجوبا ويفرض على كل مادح أن يكون متيما ، فهو يقول :

إذا كان مدحٌ فالنسيبُ المقدمُ   أكُلّ فصيحٍ قال شعراً مُتيَمُ(٢)

وقد تحرر بعض المحدثين من هذه المقدمة ، وأولهم أبو نواس ، يقول ابن رشيق : « وزعموا أن أول من فتح هذا الباب ، وفتق هذا المعنى أبو نواس بقوله :

لاتبك ليلى ، ولا تطرب إلى هند   واشرب على الورد من حمراء كالورد

فأحل صفة الخمر محلها ، وقد تبعه في ذلك بعض الشعراء من مشارقة وأندلسيين ، لأنه عد فيما بعد مذهبا نواسيا خالصا ، وقد امتدح الحاتمي هذه البادرة من أبي نواس ، وعدها من الابتداءات الحسنة ، وقال بأن «أفضل ابتداء صنعه شاعر من القدماء والمحدثين » (٣) قول أبي نواس :

صفةُ الطُّلولِ بلاغَةُ القُدْمِ   فاجعلْ صفاتِك لابنةِ الكرْمِ

ولا أدري كيف استحسنه الحاتمي مع أنه يتهكم هنا بمطالع القصائد العربية ، ومطلعه هذا ليس كما يزعم الحاتمي ، وكل مافي البيت هجوم ونكران على من تمسك بوصف الأطلال ، والدعوة إلى صفة الخمر ، ولو وضع إلى جوار مطلعه السابق الذي ذكره ابن رشيق ، لضمر واضمحل ، واختفى أثره .

---

(١) الديوان ٢/ ٢٩٤ .

(٢) الديوان ٤/ ٣٥٠ .

(٣) العمدة ١/ ٢٣٢ .

وثمة نوع من القصائد جاءت على نمط من المطالع يهجم الشاعر فيها على غرضه دون مقدمات ، وسميت بالقصائد المبتورة ، قال ابن رشيق «ومن الشعراء من لايجعل لكلامه بسطا من النسيب، بل يهجم على مايريده مكافحة، ويتناوله مصافحة، وذلك عندهم هو الوثب والبتر، والقطع، والكسع، والاقتضاب كل ذلك يقال، والقصيدة على تلك الحال بتراء، كالخطبة البتراء، والقطعاء، وهي التي لايبتدأ فيها بحمد الله عز وجل على عادتهم في الخطب.»(١) .

وهذا النوع إنما فعله الشعراء المحدثون ، وذلك عندما يجد الشاعر نفسه أمام غرض أو موقف عصيب، لايحتمل دغدغة العواطف، فيثب إلى المديح، أو الغرض مباشرة، وأمثلة ذلك كثيرة، وعلى وجه الخصوص في شعر أبي تمام، كقوله:

السيفُ أصدقُ أنباءً من الكتُبِ   في حدِّه الحدُّ بين الجدِّ واللَّعِبِ(٢)

وقد وقف الدكتور نجيب البهبيتي عند هذه القصيدة، واصفا موقف أبي تمام بأنه: «يندفع في الابتداء بما يجيش بنفسه فيهجم على غرضه هجوما لاهوادة فيه، لايمهد له، قويا منصبا كالسيل الجارف . . . فنراه في قصيدته في فتح عمورية ، وقد مضى ماأحاط بهذه الموقعة من أحداث تأخذ بجماع النفس، يبدأ قصيدته هاجما على غرضه هجوما . . . ثم يمضي في ذلك حتى ينتهي ، فلا غزل ، ولا أطلال . . »(٣) . وليس هذا الأسلوب هو ديدن أبي تمام، لأنه حافظ على المقدمة الطللية ماأمكنه ذلك ليرضي الوسط اللغوي الذي كثيرا ماوجه الطعن عليه ، وقد يحاول أن يكون خروجه محمودا كأن يصف الطبيعة، ومشاهدها ، ونحو ذلك.

---

(١) العمدة ١/ ٢٣١ .

(٢) الديوان ١/ ٤٠ .

(٣) أبوتمام ، حياته من شعره ، ص ٢٢٥ .

وعندما نأتي لشاعر أندلسي ، سيطرت عليه همته، وتمثل في شعره البطولات ، والأمجاد ، فإنه سيفعل مافعل أبوتمام، فيبدأ قصيدته هاجما على غرضه مباشرة ، وقصيدة أبي البقاء الرندي خير دليل على ذلك ، تلك القصيدة التي تعد من عيون الشعر العربي، صحيح هي في فن «الرثاء» ، ولكنها في رثاء الأندلس ، وليست في رثاء شخص بعينه، ولذلك تعد في باب الحماسة، وقد افتتحها بما يتلاءم مع الموقف ، والواقعة ، وفي حقيقة الأمر لم يخرج بفعله هذا عن المألوف في الشعر، فقصائد الرثاء يندر افتتاحها بالنسيب وإنما لكونها مما يدرج في رأيي في باب الحماسة ولو ابتدئت بالنسيب لما عد ذلك عيبا ، كما أن انطلاقه لغرضه مباشرة ، مما يحبب في هذا المقام . فلنستمع إليه إذ يقول :

لكلِّ شيءٍ إذا ماتمَّ نقصانُ   فلا يُغَرَّ بطيبِ العيشِ إنسانُ(١)

مع أننا وجدنا لأبي البقاء هذا ، ابتداءات غزلية من أروع ماوجد في الشعر العربي ، فله قصيدة رائية « بدأها بمقدمة غزلية رائقه محكمة النظم . »(٢) ، أعجب بها لسان الدين بن الخطيب كما يقول الدكتور طاهر مكي فقال ومن نزعاته العجيبة قوله ، وقد سبق إلى غرضه غيره :

ياطلعةَ الشمسِ إلا أنه قمرُ   أما هواكِ فلا يُبقي ولايذَرُ
كيف التخلُّصُ من عَيْنَيكِ إلى ومتى   وفيهما القاتلانِ الغنجُ والحورُ(٣)

---

(١) أزهار الرياض ، للمقرى، ت اللجنة المشتركة لنشر التراث (المغرب - الامارات)، ٤٧/١ .

(٢) دراسات أندلسية ، في الأدب والتاريخ ، والفلسفة ، الطاهر مكي ، ص ٣٠٠ ، وانظر كذلك رثاء المدن في الشعر الأندلسي ، عبدالله محمد الزيات ، ص ٣٦٢ .

(٣) دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة ، د. الطاهر مكي، دار المعارف، ط١/ ١٤٠٠هـ، ص ٣٠٠ .

وكثير من الشعر الأندلسي الذي جاء في فترات تتابع الحروب ، لم يبدأه ذووه بالنسيب نظراً لعظم الموقف ، إذ ليس كل مديح يراد منه المديح لذاته ، فقد يراد منه الحماس ، والنجدة ، كما فعل أبوتمام في « العمورية » ، وكما فعل ذلك ابن الأبار القضاعي ، في قصيدته المشهورة التي بعث بها إلى أبي زكريا الحفصي عندما حاصر النصارى مدينة بلنسية ، فبدأها بقوله :

أَدرِكْ بخيلِكَ خَيْلَ اللهِ أَنْدَلُسا ... إن السَّبِيلَ إلى مَنْجَاتِها دَرَسا (١)

وهذا أبوالوليد بن زيدون الشاعر الغزل الرقيق الحس يهنيء المعتضد بالفصد على عادة أهل الأندلس، فيبدأها بالتهنئة مباشرة ، فيقول :

لِيَهْنِكَ أَنْ أَحْمَدْتَ عَاقِبَةَ الفَصْدِ ... فللهِ مَنّا أَجْمَلُ الشُّكرِ والحمدِ
وياعَجَباً من أنَّ مِبْضَعَ فَاصِدٍ ... تَلَقَّيْتَهُ لم ينصرِفْ نَابِيَ الحدِّ(٢)

وهكذا فإن الشاعر الأندلسي ، قد برز إلى جوار أخيه المحدث في تنويع مقدمات القصائد ، بحسب تداعياتها ، وملابساتها .

وليست تلك المطالع المباشرة لما يهدف إليه الشاعر مما عيب على الشعراء بل إن مقدمة أبي تمام التي يقول فيها :

الحقُّ أبلجُ والسيوفُ عوارِ ... فحذارِ من أسدِ العرين حذارِ(٣)

من أروع المقدمات التي استشهد بها في الابتداءات الحسنة ، حتى قال بعض النقاد « وكان أبوتمام فخم الابتداء ، له روعة ، وعليه أبهة » (٤) وذكر المطلع المذكور .

---

(١) الديوان ص ٣٩٥ ، ت/ عبدالسلام الهراس .

(٢) الديوان ص ٤٩٩ .

(٣) الديوان ص ١١٦ ، بتحقيق محمد سيد كيلاني، القاهرة، سنة ١٣٨٥هـ/ ط٣.

(٤) العمدة ١/ ٢٣٣ .

فالمطلع الحسن لايرتبط بشيء مما ألفناه في الشعر العربي من وقوف أو نسيب أو نحو ذلك .

وكان محمد بن هاني ممن يحسن ابتداءاته ، إذا نحى هذا المنحى ، أعني عندما يهجم على غرضه مباشرة ، كما فعل في قصيدته التي مدح بها المعز العبيدي « يصف فيها هدية القائد جوهر ، وذلك بعد تسخير القائد بلاد المغرب وانتهائه إلى البحر المحيط سنة ٣٤٨هـ» . يقول فيها :

ألا هكذا فَلْيَهْدِ من قادَ عَسْكَرا وأوردَ عن رَأْيِ الإمامِ ، وأَصدَرا(١)

مع أنه افتتح بعض مدائحه بنسيب رقيق كقوله :

قفا ! فلأمرٍ ماسَرَيْنا ومانَسْرِي وإلا فَمَشْياً مثل مَشْيِ القَطَا الكُدْرِ

قفا ! نَتَبَيَّنْ أين ذا البرقُ منهمُ ومن أين تسري الريحُ عاطرةَ النَّشْرِ

إلى أن قال :

أكُلُّ كِنَاسٍ في الصَّريمِ تظنُّه كِنَاسَ الظباءِ الدُّعْجِ والشُّدَّنِ العُفر(٢)

وثمة ظاهرة تتعلق بالمحدثين ، بالنسبة لحسن المباديء ذكرها حازم القرطاجني ، فقال : « وأحسن المباديء ماتناصر فيه حسن المصراعين وحسن البيت الثاني على ماتقدم ذكره في المعلم قبل هذا، وأكثر ماوقع الإحسان في المباديء على هذا النحو للمحدثين ، فأما العرب المتقدمون فلم يكن لهم بتشفيع البيت الأول بالثاني كبير عناية » (٣) وقد جعل هذه رتبة ، تليها رتبتان :

---

(١) ديوان ابن هانيء ، ص ١٤٠ .

(٢) الديوان ، دار صادر ، بيروت ، ص ١٥٣ .

(٣) المنهاج ص ٣١٠ .

إحداهما : في حسن المبادىء في تناصر المصراعين ، دون البيت الثاني نحو قول المتنبي :

أَتَرَاها لكثرةِ العشّاقِ تَحسَبُ الدَّمعَ خِلْقةً في المآقي (١)

والثالثة ، بالنسبة للرتبتين السابقتين : أن يكون المصراع الأول كامل الحسن، ولايكون المصراع الثاني منافرا له ، وإن لم يكن مثله في الحسن . . . ومثل هذا يوجد كثيراً (٢) .

ولعلنا نذكر في هذا الموطن بالنسبة لتشفيع البيت الأول بالثاني قول ابن شهيد الأندلسي :

إنّ لآليكَ أحْدَثَتْ صلفا فاتّخَذَتْ من زمُرُّدٍ صَدَفا
تَسْكُنُ دُرَّاتها البحورَ وذي تسكنُ للحسنِ رَوْضَةً أنُفَا(٣)

ولقد توفر في هذين البيتين أيضا ، الرتبة الثانية ، وهي تناصر المصراعين .

ولحازم اختيارات في المباديء الحسنة ، منذ العصر الجاهلي إلى أن عطف على أهل الأندلس ، فبدأ بقول النابغة :

« كليني لهم : يا أميمة ناصبِ » (٤)

ثم تلاه بالأعشى ، والقطامي ، وانتقل إلى المحدثين ، فذكر قول بشار :

« أبى طللٌ بالجزعِ أن يتكلّما »

---

(١) ديوان المتنبي ٢/ ٣٦٢ العكبري .

(٢) بتصرف من المنهاج ، ص ٣١٠ .

(٣) ديوان ابن شهيد ، ص ١٢٧ .

(٤) منهاج البلغاء، ص ٣١٢ .

وقول حبيب :

« يا بعد غاية دمع العين إن بعدوا »

وقول البحترى :

« عارضتنا أصلا فقلنا الربرب »

ثم قال : « ومما أستحسنه أنا قول منصور النمري

ماتنقضي حسرة مني ولا جزع إذا ذكرت شبابا ليس يرتجع

وقول أبي الطيب :

أغالب فيك الشوق والشوق أغلب

وقول أبي عمر بن دراج القسطلي :

« أهل بالبين فانهلت مدامعه »

وقول يوسف بن هارون :

من حاكم بيني وبين عذولي

وقول أبي اسحق بن خفاجة :

« لك الله من برق تراءى فسلما . »

ثم قال : « فلو قال قائل إنه لم يستفتح في قافية الهمزة بأحسن من قول أبي جعفر بن وضاح : وأظنه أندلسي (*)

ياسرحة العلمين من تيماء حدبت عليك روائم الأنواء

لكان حقيقا أن يصدق ، وأن يسلم له فيما قال . » (١) .

(*) قلت أظنه لشاعر اندلسي لأنه أورده ضمن الأندلسيين ، ولم يترجم له المحقق واكتفى بقوله : « من فرائد المنهاج » يقصد البيت ، ص ٣١٤ .

(١) ينظر في كل ماسبق المنهاج ، ص ٣١٢-٣١٤ .

وعندما نعيد النظر في مااستحسنه حازم ، وهو ناقد ذو بصيرة ، نرى أنه أدرج الأندلسيين من ضمن المحدثين ، وأنهم ممن لايستهان بهم في حسن المباديء ، والشعراء الذين ذكرهم من أميز الشعراء الأندلسيين وأكثرهم دراية بمذاهب الشعر في المشرق .

ومن مقدمة القصيدة إلى ماأسماه النقاد « الخروج » أو التخلص ، وهو «عندهم شبيه بالاستطراد ، وليس به ، لأن الخروج إنما هو أن تخرج من نسيب إلى مدح أو غيره بلطف تحيل ، ثم تتمادى فيما خرجت إليه » (١) . وهذا الكلام قد يدعونا إلى أن نعود إلى منهج القصيدة الذي أشبعه النقاد درسا وتفنيدا ، ولسنا بحاجة إلى أن نبديء ونعيد فيه ، ولكن لابأس من لمسه لمسا خفيفا من وجهة نظر ابن قتيبة ، فهو عندما عرض لمطلع القصيدة ، تحدث عن الخروج منها ، بعد لفت الشاعر أنظار السامعين إليه ، فقال : « فإذا علم أنه قد استوثق من الإصغاء إليه ، والاستماع له ، عقب بإيجاب الحقوق ، فرحل في شعره ، وشكا النصب والسهر ، وسرى الليل ، وحر الهجير ، وانضاء الراحلة والبعير ، فإذا علم أنه قد أوجب على صاحبه حق الرجاء ، وذمامة التأميل ، وقرر عنده مماناله من المكاره في المسير بدأ في المديح ، فبعثه على المكافأة ، وهزه للسماح ، وفضله على الأشباه ، وصغر في قدره الجزيل . » (٢) .

وكلام ابن قتيبة ، إنما ينطبق على قصيدة المدح ، فكان الشاعر يحرص أن يجتمع في قصيدته هذه الصفات ، لتكون قصيدة حقا ، ولو أخذنا على سبيل المثال قصيدة من قصائد النابغة الذبياني ولتكن قصيدته في مدح عمرو بن الحارث الغساني :

---

(١) العمدة ، ت محي الدين ، ١/ ٢٣٤ .

(٢) الشعر والشعراء ١/ ٧٥ .

كليني لهمٍّ ، ياأميمةَ ، ناصبِ ، وليلٍ أقاسيه بطيءِ الكواكبِ
تطاولَ حتى قلتُ ليس بمُنقضٍ ، وليس الذي يَرْعَى النُّجومَ بآئبِ
وصدر أراحَ الليلُ عازبَ همه ، تضاعفَ فيه الحزنُ من كلِّ جَانِبِ

ثم تخلص تخلصا محمودا فقال :

عليَّ لعمرو نعمةٌ ، بعد نعمةٍ لوالدِه ، ليستْ بذاتِ عَقَارِبِ (١)

والنابغة من الشعراء الذين اشتهروا بالاعتذارات في شعرهم ، وجو الاعتذار غالب على هذه القصيدة ، وقد وصف الأستاذ أحمد حسن الزيات رحمه الله شعر النابغة بالجودة في الاعتذار والمدح ، ووصف ليل الخائف فقال : « وقد أجاد في وصف ليل الخائف ، واعتذار الجاني ومدح المنعم إجادة لايتعلق بها درك . »(٢)، فهو من الشعراء الذين يسيطر عليهم بعض الأغراض ، ويظل يخيم عليه جو خاص يناسب هذا الغرض كما يقول الدكتور أحمد بدوي ، وحينئذ يكون الغزل فرحا إن كانت القصيدة فرحة ، وحزينا إن كانت حزينة ، ومفتخرا إن كانت فخرا، ومعاتبا إن كانت عتابا ، ومخاصما إن كانت القصيدة خصاما(٣) .

وربما يشعر المتلقي بمعاناة بعض الشعراء ، من صعوبة الخروج ، الذي عرفه الأستاذ التهانوني ، بأنه : « الانتقال مما انفتح به الكلام إلى المقصود مع رعاية المناسبة ، وأحسنه أن يكون الانتقال على وجه سهل يختلسه إختلاسا دقيق المعنى

---

(١) الديوان ، إخراج عباس عبدالستار ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١/ ١٤٠٥هـ ، ص ٢٩ .

(٢) تاريخ الأدب العربي ، ص ٥٠ .

(٣) ينظر كتاب أسس النقد الأدبي عند العرب ص ١٤٢ ومابعدها .

بحيث لايشعر السامع بالانتقال من المعنى الأول إلا وقد وقع في الثاني لشدة الالتئام بينهما » (١) .

ولم يكن الخروج يشكل مشكلة في رأي النقاد بالنسبة لشعراء العصر الجاهلي ، ومن تلاهم من الإسلاميين ، لأنه أخذ طابعا معينا ، ومذهبا واحدا كما يقول ابن طباطبا(٢) .

أما عند المحدثين ، فليسوا على نمط واحد فيه ، فابن رشيق امتدح خروج أبي تمام، والبحتري ، ولم يثن كثيرا على طريقة المتنبي في تخلصه ، فمما استحسن لأبي تمام قوله :

صُبَّ الفراقُ علينا صُبَّ من كَثَبِ ... عليه اسحقُ يومَ الرّوع مُنْتَقِمَا

سيفُ الإمامِ الذي سَمَّتْهُ هِمَّتُه ... لما تَخَرَّمَ أهلُ الكُفْرِ مُخْتَرِما(٣)

قال ابن رشيق « ثم تمادى في المدح إلى آخر القصيدة » (٤) .

ومهما أعجب النقاد بتخلص المحدثين إلا أنهم يفضلون دائما تخلص القدماء ، فابن رشيق امتدح تخلص أبي تمام ، ولكنه يرى في تخلص النابغة أنموذجا للتخلص الحسن ، في ضوء المعنى الذي حدده للتخلص ، وهو أن يتخلص الشاعر من معنى إلى معنى ، ثم يعود إلى الأول ، ويأخذ في غيره ، ثم يرجع إلى ماكان فيه (٥) ، فالتخلص إذاً: أن يكون الانتقال فيه من معنى إلى معنى في ذات

---

(١) كشاف اصطلاحات الفنون ، ١/ ٣٨٨ .

(٢) عيار الشعر ص ١١٧ .

(٣) الديوان ٣/ ١٦٨ .

(٤) العمدة ١/ ٢٣٤ .

(٥) نفسه بتصرف ، ينظر ص ٢٣٧ .

الغرض في القصيدة الواحدة ، أو في غرضين أولهما تمهيد للآخر كالنسيب والمديح، وقد برز الشعراء المحدثون في ذلك (١) .

ولعل سر تفوق المحدثين في نظر بعض النقاد - في التخلص - هو صلة الأبيات ببعضها دون أن تأتي منقطعه ، يقول ابن طباطبا : « ومن الأبيات التي تخلص فيها قائلوها إلى المعاني ، التي أرادوها من مديح أو هجاء ، أو افتخار ، أو غير ذلك ، ولطفوا في صلة مابعدها بها ، فصارت غير منقطعة عنها، ماأبدعه المحدثون من الشعراء دون من تقدمهم . »(٢)، وأخذ يسرد أنماطا متعددة للمتقدمين ، والمحدثين ، من أنواع التخلص ، ولكنه إلى المحدثين أميل على عكس ابن رشيق الذي تحدث عن الفرق بين تخلصات القدماء والمحدثين ، وفضل من المحدثين البحتري لكونه اقترب من القدماء، وكان اختلاف أولئك عن هؤلاء ، من جانب أن القدماء إذا فرغوا من نعت الإبل ، وذكر القفار ، وماهم بسبيله ، يقولون : « دع ذا » ، و «عد عن ذا » ، ويأخذون فيما يريدون أو يأتون بأن المشددة ابتداء للكلام الذي يقصدونه، فإذا لم يكن خروج الشاعر إلى المدح متصلا بما قبله، ولا منفصلا بقوله : «دع ذا» ، و«عد عن ذا» ، ونحو ذلك سمي طفرا، وانقطاعا . . وكان البحتري كثيرا مايأتي به نحو قوله :

لولا الرجاءُ لمتُّ من ألَم الهوى لكنَّ قلبي بالرجاءِ مُوَكَّلُ
إن الرعيةَ لم تزل في سيرةٍ عمريةٍ مُذْ ساسها المتوكِّلُ (٣)

وإذاً فالتخلص هو الخروج من غرض النسيب -إن عد غرضا مستقلا مع أنه يغلب مجيئه في مقدمة القصائد - إلى غرض المديح أو أي غرض آخر ، وقد يعتبر

---

(١) منهاج البلغاء ، ص ٣٠٥ .

(٢) عيار الشعر ص ١٨٧ .

(٣) بتصرف من العمدة ص ٢٢٩ .

الخروج من معنى إلى معنى آخر تخلصا إذا قصد بالمعاني الأغراض ذاتها ، وإن قصد بالمعاني القضايا التي يعالجها الشاعر ، فذلك أمر يتصل بأسلوب الشاعر ، وطريقته في معالجته لقضاياه .

هذا وقد وقف باحث معاصر عند قضايا التخلص والاستطراد ، وقال بأنها هي « الوسائل الفنية التي تجعل الكلام متصلا دون خلل أو انقطاع ، وتجعل معاني القصيدة تنساب إنسيابا طبيعيا بحيث لايحس القاريء أو السامع بالنقلة ، لتقبل فكره لها نتيجة الجسور اللفظية ، والمعنوية ، والتركيبية ، التي وضعها الشاعر ليعبر من خلالها الفكر ، والشعور إلى الموضوع الجديد الذي يكون استمرارا للأول ، وامتدادا له ، ويكون بينهما تمازج واسنجام » (١) .

وحسن التخلص « هو دليل مهارة واقتدار على التصرف في تأليف الكلام ، واحكام نسجه ، حين ينتقل الشاعر من معنى إلى معنى من غير إشعار بالانقطاع »(٢) .

ويبدو أن بعض الشعراء المحدثين ، كان يأنف من طريقة القدماء وهي قولهم : «دع ذا » ، و « عد عن ذا » كأبي تمام عندما قال :

دَعْ عنك دَعْ ذا إذا انتقلتَ إلى المد ح وشُبْ سَهْلَه بمقتَضَبه (٣)

بعد كل ماتقدم من تفصيل القول في الفرق بين تخلصات القدماء والمحدثين ، ماموقف الأندلسيين من ذلك ، وكيف جاءت تخلصاتهم ؟ .

---

(١) عناصر الوحدة والربط في الشعر الجاهلي ، سعيد الأيوبي ، مكتبة المعارف ، الرباط ، ١٩٨٦م ، ص ٢٣٧ .

(٢) مآخذ البيانين على الشعراء ، للباحث صالح الزهراني ، رسالة دكتوراه ، بجامعة أم القرى ، ١٤١٢هـ.

(٣) الديوان ، ١/ ٢٧٠ .

بتأملنا لنماذج من الشعر الأندلسي ، وفحص بعض قصائدهم ، تبين لنا أنهم جمعوا بين طريقتي القدماء والمحدثين ، ولنأخذ شاعرا كابن عبدربه الذي كان على وعي تام بما يجرى في المشرق من الخصومات حول القدماء والمحدثين ، فقد مدح إبراهيم بن حجاج ، واستطاع أن يحسن التخلص ، بحيث جاء كلامه غير منفصل بعضه عن بعض على شرط « حازم القرطاجني » ، في كون الشاعر يجب أن يحتال في مايصل بين حاشيتي الكلام ، ويجمع بين طرفي القول حتى يلتقى طرفا المديح والنسيب ، أو غيرهما من الأغراض المتباينه التقاء محكما فلا يختل نسق الكلام ، ولا يظهر التباين في أجزاء النظام(١) ، يقول ابن عبدربه :

كتابُ الشوقِ يطويه الفؤادُ ... ومن فيضِ الدموعِ له مدادُ
تخط يدُ البكاءِ به سُطوراً ... على كَبِدِي ويمليها السُهادُ
وكيف وبي فؤادٌ مستطيرٌ ... بمن لايستطارُ له فؤادُ
أمن يمنٍ يكون الجودُ خلوا ... وإبراهيمُ حاتِمُها الجوادُ(٢)

وهذا التخلص جاء على منهج المحدثين ، الذي لم يبتر أول الكلام فيه عن وسطه ، وهو قريب مما ذكره حازم من استحسانه وجود اسم الممدوح في القافية ، وهو إن لم يكن موجودا فيها ، فقد وجد في شطر بيت من القصيدة ، يقول حازم : «وكلما أمكن وضع الاسم في القافية كان أحسن موقعا ، وأبلغ في اشتهار الاسم ، والناس يسمون هذا النوع الشق على الإسم كقول البحتري :

ولو أنني أُعطيتُ فيهنَّ المُنَى ... لقيتهُنَّ بكفِّ إبراهيما(٣)

وكذا قول ابن عبدربه في استمناح أبي العباس القائد :

---

(١) بتصرف من المنهاج ، ص ٣١٨ .

(٢) ديوان ابن عبدربه ، ت/ محمد بن تاويت ، الدار البيضاء ، ١٣٩٣هـ ، ص ٢٩ .

(٣) المنهاج ، ص ٣١٨ .

اللهُ جَرَّدَ للندى والباسِ سيفاً فقلده أبا العباسِ (١)

فابن عبدربه تخلص دون اللجوء إلى قول « دع ذا » ، و«عد عن ذا» .

ولكن ابن خفاجة يمدح قاضي القضاة ، فيفتتح القصيدة ببيتين يصف فيهما الروض على عادته، ثم يتخلص على طريقة القدماء :

عوجا على قاضي القضاةِ غُدَيةً في وشي زهرٍ أو حُلى أنداءِ(٢)

ومخاطبة الاثنين هي طريقة الشعراء الجاهليين ، كما كان امروء القيس يقول : « عوجا على الطلل المحيل لعلنا . . . البيت » ، وكذلك غيره من الجاهليين ومن تبعهم .

إلا أن ابن خفاجة كان أميل إلى طريقة المحدثين فيما نعلم عنه ، فعندما مدح أبا الطاهر والي مرسية جعل من مكانة الممدوح سببا في العدول عن النسيب فقال :

بمثل عُلاكَ من ملكٍ حسيبِ عدلتُ إلى المديحِ عن النسيبِ (٣)

وهذه من الأشياء التي عيبت على بعض المحدثين ، وعابها بعض أهل الأندلس على شعرائهم ، وسبق أن ذكرنا أن ابن حمدين قاضي قرطبة عندما مدحه هلاك البياني بقصيدة أولها .

عــرج على ذاك الجنـــابِ العــالي واحكُمْ على الأمــوالِ بالآمــالِ
فـيــه ابنُ حــمــدين الذي لنوالِه من كُلِّ أرضٍ شَــدُّ كلِّ رِحَــالِ

---

(١) ديوان ابن عبدربه ص ٥٣ .

(٢) ديوان ابن خفاجة ص ٤٠ .

(٣) نفسه ، ص ٩١ .

فقال له القاضي : ماهذا الوثوب على المدح من أول وهلة . . . »(١) وهذا يؤكد أن الذوق الأندلسي ، يرتاح لطريقة القدماء ، في المطالع ، وحسن التخلص .

ومن الشعراء الأندلسيين من كان يأتي تخلصه في وسط النسيب أي أنه يمدح من يريد ثم يعود إلى النسيب ، كما ذكر ابن رشيق(٢) ، واستشهد بقول أبي تمام :

ظَلَمَتْكَ ظالمةُ البَرِيءِ ظَلُومَ ... والظُّلمَ من ذي قدرَةٍ مَذْمُومُ
زَعَمَتْ هَوَاكَ عَفَا الغَدَاةَ كما عَفَتْ ... منها طلولٌ باللِّوى وَرُسُومُ
لا والذي هُوَ عَالِمٌ أن النَّوَى ... صَبِرٌ وأن أبا الحسينِ كريمُ
مازُلتُ عن سَنَنِ الوِدادِ ولا غَدَتْ ... نَفْسي على إلفٍ سِوَاكَ تَحُومُ

ثم قال بعد ذلك :

لمحمّدِ بن الهيثَم بن شُبانةٍ ... مَجْدٌ إلى جنبِ السِّماكِ مُقيمُ(٣)

قال ابن رشيق : « ويسمى هذا النوع الإلمام » (٤) .

وقد فعل الشاعر الأندلسي « القزاز » عندما مدح ابن صمادح ، مثل ذلك ؛ إلا أنه خلط النسيب بالمديح ، فقال :

نَفَى الحُبُّ عن مُقلَتَيَّ الكَرَى ... كما قد نفى عن يَدَيَّ العَدَمْ
فقد قَرَّ حُبُّك في خاطري ... كما قَرَّ في راحتَيْكَ الكَرَم

(١) النفح ٣/ ٥٣٧ .

(٢) ينظر العمدة ص ٢٣٨ .

(٣) ديوان أبي تمام ٣/ ٢٨٩ – ٢٩٠ .

(٤) العمدة ص ٢٣٩ .

وفَـرَّ سُـلُوُّكَ عن فِكْـرَتي ... كـمـا فَـرَّ عن عِـرْضِـه كلُّ ذَمْ
فـحـبي ومـفْـخَـرُه باقـيـانِ ... لايذهبـان بطـولِ القِـدَمْ
فـأبقى لي الحبَّ خـالٌ وجـدٌّ ... وأبْقَى له الفـخـرَّ خـالٌ وعَمّْ(١)

ولو حاولنا تطبيق ماذهب إليه حازم على هذه الأبيات ، لقلنا إنه أصاب ناصية القول ، وأحسن التخلص كما فعل أبوتمام ، مع أن ابن رشيق قال : «إنه تمادى فيه منقطعا» ، وقول حازم المقصود هو : « فالذي يجب أن يعتمد في الخروج من غرض إلى غرض ، أن يكون الكلام غير منفصل بعضه من بعض ، وأن يحتال فيما يصل بين حاشيتي الكلام ، ويجمع بين طرفي القول حتى يلتقي طرفا المديح ، والنسيب ، أو غيرهما من الأغراض المتباينة التقاء محكما ، فلا يختل نسق الكلام ، ولا يظهر التباين في أجزاء النظام» (٢) .

وقد يرى أن الكلام هنا قد تكرر ، وإنما تكرر لتطبيق نظرية حازم هذه على ماأبدع فيه الشاعر الأندلسي .

وأما ماسماه النقاد « الاقتضاب » ، وهو «قطع الكلام ، واستئناف كلام آخر غيره بلا علاقة ، تكون بينه وبينه» وهو ماأسماه ابن رشيق ، وحازم الاستطراد ، فقد وجد عند الشعراء المحدثين وغيرهم ، يقول ابن الأثير : «والاقتضاب الوارد في الشعر كثير لايحصى ، والتخلص بالنسبة إليه قطرة من بحر ، ولايكاد يوجد التخلص في شعر الشاعر المجيد إلا قليلا بالنسبة إلى المقتضب من شعره . »(٣) ، واستشهد ابن الأثير بقول أبي نواس :

---

(١) النفح ٤/ ١٠٣ .
(٢) المنهاج ص ٣١٨ .
(٣) المثل السائر ٣/ ١٤١ .

فاسقني كأساً على عذل ... كرهت مسموعه أذني
من كميت اللون صافية ... خير ماسلسلت في بدني
ماستقرت في فؤاد فتى ... فدرى مالوعة الحزن

حتى قال :

تضحك الدنيا إلى ملك ... قام بالآثار والسنن
سن للناس الندى فندوا ... فكأن البخيل لم يكن(١)

ولعل ابن هانيء يقترب كثيرا في حسن تخلصه من أبي نواس ، في قوله يمدح ابراهيم بن جعفر بن علي :

قد مررنا على مغانيك تلك ... فرأينا فيها مشابه منك
مسعدي عج فقد رأيت معاجي ... يوم أبكي على الديار وتبكي
بحنين مرجع كحنيني ... وتشك مردد كتشكي
فاتئد تسكب الدموع كسكبي ... ثم لاتسفك الدماء كسفكي

ثم قال

لا أرى كابن جعفر بن علي ... ملكا لابسا جلالة ملك
مثل الغمام يندى شبابا ... وهو في حلتي توق ونسك(٢)

وأقرب من ذلك قول ابن زيدون يمدح الوليد بن جهور :

ما للمدام تديرها عيناك ... فيميل في سكر الصبا عطفاك

إلى أن قال :

---

(١) الديوان ص ٤١٢ .
(٢) الديوان ص ٢٤٩ .

ولئِنْ تجنبتُ الرّشَادَ بِغَدْرَةٍ   لم يَهْوِ بي في الغَيِّ غيرُ هواكِ
لِلجَهْوَرِيِّ أبي الوليدِ خلائِقٌ   كالروضِ أَضْحَكَهُ الغَمَامُ البَاكِي(١)

وكان بعض النقاد يعد « الاقتضاب » عيبا بالنسبة للمحدثين ، يقول الدكتور يوسف بكار : « وقد ذهبوا إلى أن هذا هو مذهب الشعراء المتقدمين من مثل امريء القيس ، والنابغة الذبياني ، وطرفة ، ومن تلاهم من طبقات الشعراء ، أما المحدثون من مثل أبي تمام، والمتنبي فقد تصرفوا في المخالص وأبدعوا فيها»(٢) ولذلك لم يعذر الباقلاني البحتري في مديحه الذي انقطع عن غزله في قوله :

أهلاً بذلكمُ الخيالِ المقبلِ   فَعَلَ الذي نَهْواه أو لَمْ يَفْعَلِ

فعندما قال :

لمحمد بن عليِّ الشرفُ الذي   لايلحَظُ الجوزاءَ إلا من علِ
وسحابةٌ لولا تتَابعُ مُزْنِها   فينا لراحَ المُزْن غيرَ مُبَجَّلِ(٣)

قال الباقلاني : « البيت الأول منقطع على ماوصفنا به شعره : من قطعه المعاني ، وفصله بينها ، وقلة تأتيه لتجويد الخروج والوصل ، وذلك نقصان في الصناعة وتخلف في البراعة ، وهذا إذا وقع في مواضع قليلة عذر فيها ، وأما إذا كان بناء الغالب من كلامه على هذا، فلا عذر له . »(٤) .

وهذا العيب يندر أن نجده في مدائح شاعر تأثر بالبحتري ، بل كان يسمى بحتري الأندلس، وهو ابن زيدون ، فعندما تتبعت أغلب مدائحه من خلال

---

(١) الديوان ص٣٤٣.

(٢) بناء القصيدة العربية ص ٣٠٠ .

(٣) ديوان البحتري ٣/ ١٧٣٧ ، ت/ الصيرفي

(٤) إعجاز القرآن ، ت/ صقر ، دار المعارف ، ط٤ ، ١٩٧٧م ، ص ٢١٩ .

ديوانه، لم أجده يبتر الكلام ويخرج من موضوع ، ويدخل في آخر دون رابط بينهما، ولنقرأ مثلا قوله مخاطبا أبا بكر الأسلمي :

وَمَالَتْ علينا غُصُونُ الهَوى ... فَأَجْنَتْ ثِمَارَ المُنَى مِن أَمَمْ
وأيامُنا مُذْهَبَاتُ البرودِ ... رِقَاقُ الحواشي صوافي الأَدَمْ
كأن أبابكرٍ الأسْلَميَّ ... أجْرى عليها فِرِنْدَ الكَرَمْ
ووشَّحَ زَهْرَةَ ذاك الزمانِ ... بما حازَ من زُهْرِ تلك الشِّيَمْ(١)

فقد وصل سعادة أيامه الأولى مع من كان يهوى ، بالأيادي البيضاء التي أسبغها عليه الأسلمي ، فخلص إلى المديح دون أن يبتر الكلام في إسلوب دقيق .

غير أنني لا أكاد أجزم بأن أكثر شعراء الأندلس لم يقعوا في ذلك المأخذ ، وإنما شأنهم شأن غيرهم من المحدثين إذ هم جزء منهم، والدارس المتقصي للحقائق لو أراد ذلك ، لخرج بنتيجة مؤداها أن الشاعر الأندلسي ، قد سبر أغوار الشعر العربي ، وربما استطاع على طول تلك الفترة التي ظل يتتبع فيها مذاهب الشعراء في المشرق، أن يتلافى ماوقع فيه شعراء المشرق، بما فيهم المحدثون - وهم المثل الأعلى بالنسبة لهم - من مآخذ وقف عليها النقاد واللغويون ، مع أن أغلب تلك المآخذ ليست ذات بال إذا التفتنا لنصاعة شعر المحدثين وجمال تركيبه .

أما الاستطراد : الذي عناه النقاد ، وعدوه من مميزات الشعر الجيد ، فقد عرفه بعض الدارسين بأنه « تدرج الشاعر في صياغته وأسلوبه تدرجاً فنيا بحيث يبين عما به تدريجيا ، ولا يفاجأك بمعناه ولا يصدمك بما به ، وإنما يتركه يتسرب إليك في رفق ، وهدوء بأسلوب هو أسلوب الاسماح الذي يغلب عليه التدفق والتصبب، ويصل بين حاشيتي الكلام. »(٢) فهذا أسلوب كثيراً ماتمثله المحدثون،

---

(١) الديوان ص ٤٩ .

(٢) عناصر الوحدة والربط في الشعر الجاهلي، سعد الأيوبي ، ص ٢٣٧ .

والمميزون من شعراء الأندلس، فهل ثمة أذكى من أبي نواس ، في تخلصاته التي لانظير لها، ولنتأمل قوله من قصيدة يمدح فيها الخصيب :

تقول التي عن بيتها خفّ مَرْكَبي ... عَزِيزٌ علينا أن نَراكَ تَسيرُ
أما دونَ مِصْرٍ لِلْغِنَى مُتَطَلَّبٌ ... بلى إنَ أسبابَ الغِنَى لَكَثيرُ
فقلتُ لها واستَعْجَلَتْهَا بَوادِرٌ ... جَرَتْ فَجَرى في جَرْيِهِنَّ عَبيرُ
ذَريني أُكَثِّر حاسديكِ بِرِحلةٍ ... إلى بلدٍ فيه الخصيبُ أميرُ
إذا لَمْ تَزُرْ أرضَ الخَصِيبِ رِكَابُنَا ... فأيَّ فتىً بعد الخَصِيبِ تَزُورُ(١)

وإن عطفنا على شعراء الأندلس وجدنا ابن الحداد الأندلسي ، قد بلغ الغاية في حسن التخلص أو الاستطراد ، وانظر إلى قوله يمدح المعتصم بن صمادح :

خليليَّ من قيسِ بن عَيْلانَ خليا ... رِكَابي تُعَرِّجْ نحو مُنْعَرَجَاتِها
بِعَيْشِكُما ذاتِ اليمينِ فإنَّني ... أَرَاحُ لِشَمِّ الرَّوْحِ من عَقَدَاتِها
أما إنها الأَعْلامُ من هَضَبَاتِها ... فكيف تَكُفُّ العَيْنَ من عَبَراتِها ؟
ذَرَاني وإِذْراءَ الدُّموعِ لَعَلَّه ... يُسَكِّن ماقد هاجَ من ذُكَرَاتِها

إلى أن قال :

مَشاعِرُ تَهْيَامٍ وكعبةُ فتنةٍ ... فؤاديَ من حُجَّاجِها ودعاتِها
أُهِلُّ بأشواقي إليها وأتَّقي شرائعها ... في الحبِّ حَقَّ تُقاتِها
غرامٌ كإقدامِ ابن مَعْنٍ ، ومَغْرَمٌ ... كإنْعامِهِ ، والأرضُ في أَزَمَاتِها
فتى البأسِ والجودِ اللذين تبارَيَا ... إلى غايةٍ حازَا له قَصَبَاتِها(٢)

---

(١) الديوان ص ٤٨١ .

(٢) ديوان ابن الحداد ، ت/ يوسف طويل ، ص ١٦٣-١٦٥ .

فقد تخلص من الغزل إلى المديح في دقة متناهية ، لا يشعر السامع أو القاريء بنقلته بين الغرضين ، ولكنما جمع بين طرفي القول كي يلتقي المديح والنسيب ، وهذه ميزة تميز بها المحدثون عن القدماء إلى حد كبير ، وهذا مايؤكده استنتاج باحث معاصر ، بأن تخلص المحدثين يختلف عن تخلص القدماء « من عدة وجوه ، لعل من أبرزها ربطه بين المقدمة والموضوع الرئيس للقصيدة ، ولهذا وصف بالحسن واللطف . »(١) .

وهذه الآراء المتعلقة بالترابط بين المقدمة والموضوع توقظ فينا مااتهم به الشعر العربي ، بأنه غير مترابط ولا متصل الأجزاء ببعضها بعضا ، نظرا لما أشيع بين النقاد من القول بوحدة البيت في الشعر العربي .

ووحدة القصيدة ، هي اتساقها ، وتقارب عناصرها ، وهي كما يقول الحاتمي : « مثل القصيدة مثل الإنسان في اتصال بعض أعضائه ببعض فمتى انفصل واحد عن الآخر ، وباينه في صحة التركيب ، غادر الجسم ذا عاهة تتخون محاسنه ، وتعفي معالمه ، وقد وجدت حذاق المتقدمين وأرباب الصناعة من المحدثين يحترسون من مثل هذه الحال احتراسا يجنبهم شوائب النقصان ويقف بهم على محجة الإحسان ، حتى يقع الاتصال ، ويؤمن الانفصال ، وتأتي القصيدة في تناسب صدورها وأعجازها ، وانتظام نسيبها بمديحها كالرسالة البليغة ، والخطبة الموجزة ، لاينفصل جزء منها عن جزء ، وهذا مذهب اختص به المحدثون لتوقد خواطرهم ، ولطف أفكارهم ، واعتماد البديع وأفانينه في أشعارهم ، وكأنه مذهب سهلوا حزنه ، ونهجوا رسمه ، فأما الفحول الأوائل ، ومن تلاهم من المخضرمين ، والإسلاميين فمذهبهم المتعالم « عد عن كذا إلى كذا » ، وقصارى كل واحد منهم وصف ناقته بالعتق ، والنجابة ، والنجاء . . . الخ » (٢) .

---

(١) الخصومة بين القدماء والمحدثين ، عثمان موافي ، ص ٢٥٠ .

(٢) زهر الاداب ، ٣/ ٦٥١ .

ولله در الحاتمي ، فقد أنصف المحدثين ، ولم يتجن على المتقدمين ، وهذا شأن الناقد المبدع ، أما التحامل وازدراء المتأخر لتأخره ، فذلك أمر قد زلت به أقدام ، فغضت من شأن شعراء عصرهم ، ولم يروا في إحسانهم إحسانا ، ولا في تميزهم تميزا ، ولم يدركوا مافي مذاهب المحدثين من مهارة وحبك ، كما أدركه أولئك المنصفون أمثال حازم ، وابن رشيق وغيرهما ، ممن ميزوا بين القدماء والمحدثين « وآثروا طريقة أبي تمام ، والمتنبي في أكثر الأحيان ، ومسلم بن الوليد ، ومنصور النمري ، لأنهم كانوا يخرجون من الغزل إلى غيره في لطف وحيلة . »(١) . كما يتضح ذلك في قول صريع الغواني : في مدح « يحي بن خالد » :

أَجِدّكِ ماتدرين أَنَّ ربَّ ليلةٍ　　　كأنَّ دجاها من قرونِك يُنْشَرُ
صبرتُ لها حتى تجلّت بغرّةٍ　　　كغُرَّةِ يحي حينَ يُذْكَرُ جَعْفَرُ

فهو هنا أدخل المديح ضمن النسيب ومدح يحي ، ثم استطرد منه إلى ذكر جعفر(٢) .

والشاعر الحاذق هو من يراعي في صياغته ، وفي التعابير عن معانيه ماأشار إليه الشيخ عبدالقاهر الجرجاني ، وهو من أدق الفاحصين الذين ، عنوا بنقد الشعر العربي فكان يقول : « واعلم أن مما هو أصل في أن يدق النظر ، ويفيض المسلك في توخي المعاني التي عرفت ، أن تتحد أجزاء الكلام ، ويدخل بعضها في بعض ، ويشتد ارتباط ثان منها بأول ، وأن يحتاج في الجملة إلى أن تضعها في النفس وضعا واحدا ، وأن يكون حالك فيها حال الباني يضع بيمينه هاهنا في حال مايضع بيساره هناك ، نعم وفي حال مايبصر مكان ثالث ورابع يضعهما بعد الأولين . »(٣) .

---

(١) عناصر الوحده والربط بي الشعر الجاهلي ، ص ٢٥٤ .

(٢) بتصرف من المنهاج ص ٣١٧ .

(٣) دلائل الاعجاز ، د/ رشيد رضا ، ١٣٩٨هـ ، دار المعرفة ، بيروت ، ص ٧٣ .

ومن شعراء الأندلس من استطاع مجاراة المحدثين ، وقد يتفوق على بعضهم في حسن الاستطراد ، والانتقال من الغزل إلى غيره ، بذات الطريقة التي ذكرها هؤلاء النقاد ، إلا أنهم مغمورون ببعدهم عن منبع الثقافة ، وموطن النقد بالمشرق ، ولنا أن نستعرض طريقة بعض شعرائهم في الاستطراد ، يقول الشاعر يحي بن حكم الغزال :

ألا يا نسيمَ الريح بَلِّغْ سَلامَنَا ... وصِفْ كُلَّ مايلقى الغريبُ وخَبِّرِ

وقُل لشعاعِ الشمسِ : بَلِّغْ تحيتي ... سَمِيَّك واقرأها على آلِ جَعْفَرِ(١)

ويقول الشاعر أبوبكر بن عمار متخلصا بعد مقدمة مزج فيها الخمر بوصف الطبيعة على عادة أهل الأندلس : « وهي في مدح ابن عباد » .

روضٌ كأن النهرَ فيهِ معصمٌ ... صافٍ أطلَّ على رداءٍ أخْضَرا

وتَهُزُّه ريحُ الصَّبَا فتخالُه ... سيفَ ابن عبادٍ يُبَدِّدُ عَسْكَرا

ملكٌ إذا ازدحم الملوكُ بموردٍ ... ونحاه لايرِدون حتى يَصْدُرا(٢)

فكان استطراد ابن عمار أبلغ من استطراد الغزال انتقل من وصف الروض إلى وصف شجاعة الممدوح رابطا بين حركة الروض والريح تعبث به وحركة السيف في يد ابن عباد .

---

(١) ديوان الغزال ، ت/ رضوان الراية ص ٧٦ .

(٢) المعجب ، ص ١٧٤ .

خاتمة القصيدة :

وأما الخاتمة في القصيدة فقد ألمع إليها النقاد، وإن كانوا ربطوها بالتخلص، وكأنما هي جزء منه ، يقول القاضي الجرجاني : « والشاعر الحاذق يجتهد في تحسين الاستهلال ، والتخلص ، وبعدهما الخاتمة ، فإنها المواقف التي تستعطف أسماع الحضور ، وتستميلهم إلى الإصغاء ، ولم تكن الأوائل تخصها بفضل مراعاة . »(١)، واعتبر البحتري ممن تابع القدماء ووقع فيما وقعوا فيه فقال : « . . . وقد احتذى البحتري على مثالهم - يعني على مثال الأوائل - إلا في الاستهلال ، فإنه عني به فاتفقت له فيه محاسن، فأبوتمام والمتنبي فقد ذهبا في التخلص كل مذهب ، واهتما به كل اهتمام ، واتفق فيه للمتنبي خاصة مابلغ المراد، وأحسن وزاد. »(٢).

ومن النقاد من يجعل الخاتمة هي المقطع « فحازم» عندما تحدث عما يجب في المطالع، والمقاطع قال : « فأما مايجب في المقاطع على ذلك الاعتبار وهي أواخر القصائد فأن يتحرى أن يكون ماوقع فيها من الكلام على لفظ كريه أو معنى منفر للنفس عما قصدت إمالتها إليه ، أو مميل لها إلى ماقصدت تنفرها عنه، وكذلك يتحفظ في أول البيت الواقع مقطعا للقصيدة من كل مايكره، ولو ظاهره مايتوهمه دلالة العبارة أولاً ، وإن رفعت الإيهام آخرا، وإن دلت على معنى حسن . »(٣)، واستشهد حازم بقول المتنبي :

فلا بلغتَ بها إلا إلى ظَفَرٍ ... ولا وصلتَ بها إلا إلى أَمَلِ

---

(١) الوساطه ص ٤٨ .

(٢) نفسه ص ٤٨ .

(٣) المنهاج ص ٢٨٥ .

وعقب حازم بقوله : « وإنما وجب الاعتناء بهذا الموضع لأنه منقطع الكلام وخاتمته، فالإساءة فيه معفية على كثير من تأثير الإحسان المتقدم عليه في النفس . »(١) .

فكلام حازم على اضطرابه، وعدم اتساقه يفهم منه أن ثمة مصطلحا نقديا يختص بالخاتمة يدعى المقطع ، وأكد ماذهب إليه في آخر كلامه عندما أوجب العناية به لكونه منقطع الكلام وخاتمته .

ولأسامة ابن منقذ كلام ، يقول فيه : « وكذلك ينبغي أن تكون أواخر القصائد حلوة المقاطع، توقن النفس بأنها آخر القصيدة لئلا يكون كالنثر »(٢) .

وكل ماذكر من هذا التقنين إنما يتعلق بالدرجة الأولى بغرض المديح، يقول الدكتور صالح سعيد الزهراني : « والذي يتضح أن هذه الجزئيات التي يتأسس عليها هيكل القصيدة تختص بالدرجة الأولى - في النقد التطبيقي - بقصيدة المديح، وإن كان كل قصيدة بحاجة إلى براعة في الاستهلال، وحسن في التخلص، وجودة في المقطع » (٣) .

وقد ركز النقاد كثيرا على إبداع المحدثين في هذا الجزء الأخير من القصيدة وهو ماسموه حسن المقطع أو الخاتمة، وكما رأينا الجرجاني عندما أشاد ببراعة المحدثين وعندما وقف عند المتنبي خصوصا قال بأنه « قد ورد معين الشعر القديم ، وحاول أن يبعثه ، ويجدد فيه . »(٤) .

---

(١) المنهاج ص ٢٨٥ .

(٢) البديع في نقد الشعر ، ت/ الدكتوران احمد أحمد بدوي ، وحامد عبدالمجيد ، طبع ونشر البابي الحلبي ، مصر ، القاهرة ، ١٣٨٠ ، ص ٢٨٧ .

(٣) مآخذ البيانيين على الشعراء ، رسالة دكتوراه ، جامعة أم القرى ، ٢/٢٥٨ ، ١٤١٢هـ.

(٤) الوساطه ، ص ٤٨ .

وهذا ماجعل شعراء الأندلس يقتفون أثر أبي الطيب ، لأنهم وجدوا فيه خلاصة المذاهب الفنية والأطوار التي مر بها الشعر العربي في المشرق، وقد وقفنا مليا عند أثره في غرض المديح بصفة عامة، إذ أن أغلب الشعر العربي في المديح مافي ذلك شك، وهنا نجد أثره في بناء القصيدة ، وإن كان ليس أثرا بالمعنى المباشر، لأن بنية القصيدة هيكل عام بين الشعراء ، ولكن يبقى للمحدثين بما فيهم أبوالطيب حسن هذا البناء ، والتجديد فيه كما أشار إلى ذلك النقاد .

ولو أخذنا شاعرا كابن عبدون الذي أولع بمعارضة المتنبي ، ولقد عده بعض الدارسين « أشد الشعراء الأندلسيين نسجا على طريقة المتنبي في السياق ، والبناء »(١) ، وبلمحة في قصيدته العينيه التي يخاطب بها بعض الأعيان :

سأطلبُ لا بألسنةِ اليَراعِ ... سوى ذا الحظِّ من أيْدِي الزمَاعِ

وأخبطُ بالسُّرى وُرْقَ الدَّيَاجي ... ووجهُ الموتِ محدُورُ القناعِ

وأمرقُ من أساريرِ المواضِي ... كما مرق الهلالُ من الشَّعَاعِ

فسلني عن ملوكِ الأرضِ تَسْألْ ... خَبِيراً فاقضِ حقَّ الاستماعِ(٢)

وقد وقف إحسان عباس عند هذه القصيدة ، وأكد أن ابن عبدون يعيد فيها بعض التدفق في اسلوب المتنبي ، وذهب الدكتور حسين خريوش إلى قريب من هذا، وقال بأن احتذاء ابن عبدون للمتنبي يقف به عند بناء القصيدة . . . وبعض المعاني فيها. (٣) .

وقد ختم قصيدته هذه بمقطع يوقن المستمع بأنه نهاية القصيدة وهو قوله :

---

(١) مقدمة الديوان .

(٢) الديوان ص١٦١ ، ت/ سليم التنير ، دار الكتاب العربي ، دمشق-سوريا، ط١٤٠٨هـ.

(٣) ينظر كل من/ تاريخ الأدب الأندلسي ، عصر الطوائف والمرابطين ص ١١١ ، وابن بسام وكتابه الذخيرة ص ١٢٢ .

ولم أَجْعَلْ قُرابى غيرَ بيتي فَحَسْبِي ماتقدَّمَ من قِرَاع(١)

ومن أحسن ماقرأنا في المقاطع قوله من قصيدة يمدح بها المعتمد بن عباد :

إليك منِّي ، أعزَّ اللهُ نَصْرَك مــا أَبْقَتْـه أيدي السُّرى والبيـدِ والنوبِ

جَـاءَتْكَ ترقُص أردانُ الكلامِ بِه ســوابحٌ تأكـلُ الغبــراءَ بالخَبَبِ(٢)

فهذا المقطع كما قال حازم لم يأت على لفظ كريه ، ولا معنى منفر للنفس، كما رأينا في بيت المتنبي الذي عرض به حازم وهو قوله :

فلا بلغتَ بها إلا إلى ظفرِ ولا وصلتَ بها إلا إلى أملِ

وحتى ابن رشيق انتقد هذا المقطع وقال بأن ختم القصيدة بالدعاء، مما كرهه الحذاق من الشعراء لأنه من عمل أهل الضعف(٣). وكأنه يرى أنه لايستحسن من مثل المتنبي، لأنه وصفه قبل ذلك بالجودة في كل أجزاء القصيدة، وأنه قد أربى على كل شاعر(٤) .

ومن الشعراء الذين سيطرت عليهم طريقة المتنبي في بناء القصيدة عبدالجليل بن وهبون ، فله قصيدة في مدح المعتمد، جاءت في مطلع ، ومقطع يوهم أن المتنبي كان وراء سبكها، فمطلعها يفصح عن ذلك يقول :

ياأشبهَ الناسِ آدابا بِمَالَكَ من جَمالِ وجهِ تحدثني وفضلِ يدِ

إلى أن قال في خاتمتها :

طبعتُها ولكَ التبرُ الذي طُبِعَتْ منه فأسلمتُها في كفِّ مُنْتَقِدِ(٥)

---

(١) (٢) الديوان ص ١١٥ .

(٣) بتصرف من العمدة ، ص ٢٤١.

(٤) العمدة ١/ ٢٣٩ .

(٥) الذخيرة ٢/ ١/ ٥٠٢ .

وأغلب القصائد الشعرية الموجودة بين أيدينا لايمكن الحكم عليها بحسن مقطعها أو رداءته، لأن جل هذه المقاطع توهم بأن القصيدة لم تنته، وكأنها لم تصلنا كاملة، فيبقى الحكم خاضعا للحس والذوق عند القاريء، أو المتلقي، فلو جاءنا مقطع كقول تأبط شراً:

لتقرعنّ على السنَّ من نَدَمٍ إذا تذكرتَ يوماً بعض أَخْلاقِي(١)

فإن هذا المقطع يسلمك إلى نهاية القصيدة دون عناء، ولذلك عده بعض النقاد «أحسن المقاطع»(٢). لأنه آخر مايبقى في الأسماع، ولايمكن الزيادة عليه، ولا يأتي بعده أحسن منه، وهو بمثابة القفل للقصيدة، كما أن أولها مفتاح لها(٣).

ومن شعراء الأندلس من كان حسن المقطع، جيد الانتهاء في قصائده إلا أن الشعر العربي في الأندلس لم يحظ بأمثال تلك المصنفات التي وضعت خصوصا لنقد الشعر، فبثت فيها الآراء النقدية، من أجل شعراء العربية قاطبة ولاسيما المحدثين، وإلا لو كان لذلك الشعر الذي نشأ بالأندلس حضور نقدي بارز في الموازنات، كما حصل للطائيين، والمتنبي، وسائر المحدثين، لكانت النظرة لأولئك الشعراء غيرها اليوم، ولبان جيد الشعر الأندلسي من رديئه على أصول نقدية صحيحه، وكل ماوجد عن هذا الشعر لايعدو تتبعات بعض نقاد الأندلس كابن بسام لسرقات الشعراء من بعضهم بعضا في الأندلس والمشرق، وأصبح هذا المنهج باليا بالنسبة للدراسات المتعلقة ببنية القصيدة، وموسيقاها وإيقاعاتها.

ولو أخذنا شاعرا مثلا كابن دراج الأندلسي، وتقصينا شعره، ووقفنا عند البناء الفني في قصائده، لألفينا مطالعه، ومقاطعه لايقل فيها عن غيره من شعراء

---

(١) ديوان تأبط شرا ص ٤١٤، ت/ علي ذوالفقار شاكر، دار الغرب الإسلامي.

(٢) ينظر البديع، لابن منقذ، ص ٢٨٧.

(٣) بتصرف من العمدة ص ٢٣٩.

المشرق، وعلى وجه الخصوص الشعراء المحدثين الذين كانوا معاصرين له، وهو ممن شبه بالمتنبي، وقد نالته يد العابثين ، ولاكته ألسنة المفتاتين الذين حشروا أنفسهم في النقد، مع أن أول القائلين بشبهه بالمتنبي هو أبومنصور الثعالبي في يتيمته.

وعلى أية حال، فلنقرأ قصيدته النونيه التي مدح بها المظفر، ونقف عند مطلعها وخاتمتها، فهو يقول فيها:

مِنَنٌ بأيسر شُكرِها أعْيَيتَنِي فَمتَى أقومُ بشُكْرِ ما أوْلَيتَنِيَ

فهذا المطلع خالف فيه سنة الشعر العربي، وبدأ بالثناء والمديح كما فعل أبوتمام وأبوالطيب في بعض قصائدهما، ثم ختمها بمقطع حلو طريف يعد في مقدمة المقاطع الحسنة يقول فيه:

فلو أنَّ آمالي بِقُرْبِك أسعَفَتْ ماقلتُ بعدَ بُلوغِها يَاليْتَني
حتى أُقَبِّل كلَّما قابلتُها كَفّاً بجودِ عطائِها أحيَيْتَنِي(١)

وحتى نتبين براعة ابن دراج ، فلننظر إلى قوله من قصيدة مدح بها منذر بن يحي ذهب فيها إلى معارضة المتنبي، في قصيدته التي مدح بها أبا الفضل ابن العميد، ومطلعها :

« بادٍ هواكَ صبرتَ ألم تَصْبِرا »

وقد سبق دراستها في غرض المديح ، وختمها أبوالطيب بقوله :

أَنا من جميعِ الناسِ أطيبُ منزلا وأسرُّ راحلةٍ وأربحُ مَتْجَرا
زحلٌ على أن الكواكبَ قومُه لو كان مِنكَ لكانَ أكرمَ مَعْشَرا(٢)

وابن دراج يقول في مطلعها :

---

(١) ديوان ابن دراج ص ١٩ .

(٢) ديوان المتنبي ٢/ ١٧٢ .

« بِسُرَاك من طولِ التَرَحُّلِ والسُّرى »

ثم يختمها بقوله :

وانصُــر نصُـرتَ من الســمـاءِ فـإنما ناســـبتَ أنصـارَ النبي لِتُنْصَـرا
واسْلَمْ ولا وَجُدوا لجودكِ منفـــساً في النائباتِ ، ولا لبحرِك مَعْبَرا

فالمتنبي اختتم قصيدته بامتداح نفسه، وشعره، وبالغ في جعله زحل في مكانة دون مكانة قوم الممدوح، وأنه لو كان من قوم الممدوح لكان حاله أفضل مما هو عليه . وقد دأب المتنبي على أمثال تلك المبالغات .

أما ابن دراج ، فقد ختم بالدعاء للممدوح - وهذا أسلوب وجد عند المحدثين كثيرا - وقد شبه ممدوحه بما ألفه السمع والذوق ، وهو البحر، في الكرم والسخاء .

ومن الشعراء الذين ذهبوا إلى معارضة المتنبي ، ابن عبدون ، فقد عارض إحدى كافوريات المتنبي المشهورة ، وخاتمتها قوله :

فأصبح فوقَ العالمينَ يرونَه وإن كان يُدْنيه التَّكَرُّمُ نائيا

فهذا المقطع أوله جميل ، وإن كان في شطره الثاني ضعف تأليف بسبب الفصل بين كان واسمها وخبرها بالجملة الفعلية ، وهو نمط من التعقيد اللفظي الذي أشار إليه البلاغيون .

ومعارضة ابن عبدون للمتنبي التي نحن بصدد الوقوف عند مقطعها، يرى بعض(١) الدارسين أنه لم يلحق فيها بشأو المتنبي ، وهذا صحيح ، لكن خاتمتها جاءت على حال أفضل من خاتمة قصيدة المتنبي ، وهو قوله :

---

(١) ينظر على سبيل المثال ماكتبه الدكتور محمد محمد قاسم نوفل في كتابه تاريخ المعارضات ، ص ١٣٦ .

وَمَنْ قَامَ رَأْيَ ابنُ المُظَفَّرِ بينَه وبينَ الليالي نَامَ عَنهُنَّ لاهيا

فهي أفضل لكونها تنسجم مع مطلع القصيدة، ومشعرة بأنها النهاية، لكن الناقد المتأخر يظل سقيم الرأي إذا رام نقد المتنبي لما أضفاه عليه النقاد من هيبة وجلال، والشاعر الأندلسي في حقيقة الأمر لايقل براعة عن المتنبي ، وابن عبدون هذا كان من شعراء المديح الذين عرفوا بالجودة في سائر أجزاء القصيدة ، يقول شارح الديوان « . . . فكما كان يتخلص بسهولة وبراعة إلى غرضه، كان ينهى بحسن الختام مضمنا كلامه إشارة إلى انتهاء القصيدة مثل قوله خاتما إحدى قصائده :

لمـــا رأَوا أنـــــه لاعيبَ يُدْرِكُه عابوه، وهو الكبيرُ القدرِ بالقِصَرِ

والصبحُ مُبدى رُبى نَجدٍ وإن صَغُرتْ والليــلُ يسترُ لبناناً على الكِبَرِ»(١)

وكانت هذه الخاتمة لقصيدة مدح بها المتوكل ، وهي من روائع شعر ابن عبدون الذي لم يجد حظاً من الشهرة والتقدير .

وممن رام تقليد المتنبي ففشل في بعض خواتيم قصائده، ابن هانيء ، عارض المتنبي، في قصيدته الرائية التي مدح بها على بن أحمد الأنطاكي، وقد ختمها بمقطع ليس للمتنبي فيه سوى الصياغة، وهو قوله :

أزالَتْ بِكَ الأيامُ عَتْبِي كأنما بنوها لها ذَنْبٌ ، وأنتَ لها عُذْرُ(٢)

قال أبو البقاء « . . . معنى المصراع الأول من قول حبيب :

نوالُكَ ردَّ حُسّادي فلولا وأَصلَحَ بينَ أيامِي وبَيْني

والثاني من قوله أيضاً :

---

(١) الديوان ، مقدمة المحقق ، ص ١٥٩ .

(٢) الديوان ٢/ ١٥٩

كَثُرَتْ خطايا الدَّهرِ فِيَّ وقد يُرى ... بِنَداك ، وَهْوَ إليَّ منها تَائِبُ

وابن هانيء على الرغم من احتذائه أبا الطيب في الروي والقافيه ، لكنه لم يوفق توفيقا حسنا لحسن الخاتمة ، فقد جاءت بعد بيتين كان أولهما أولى أن يكون مقطعا للقصيد وهو قوله :

فليسَ لِمَنْ لايَرْتقِي النجمَ طالبٌ ... وليسَ لِمَنْ لايستفيدُ الغِنى عُذْرُ

ثم لجأ بعد هذا إلى مالم يستحسن ، وهو قوله :

فلو سَمِعَ التثويبَ من كان رمةً ... رفاتاً ولبى الصوتَ من ضَمَّهُ القَبْرُ(١)

وجعل الخاتمة في قوله :

لناديتَ من قدماتَ حَيَّ بدولةٍ ... تُقَامُ لها الموتى ، ويُرتجعُ العمْرُ(٢)

وهذا الشاعر قد شبه نفسه في بعض قصائده بالبحتري ، في خاتمة إحدى قصائده :

كنتُ الوليدَ فلم ينازِعْهُ بنو ... خاقانَ مكرمةً ولا خَاقَانُها(٣)

فكيف يأتي بخاتمة في الرائية التي يعارض فيها أبا الطيب ، على هذا النحو من الفساد في قوله : « تقام لها الموتى » .

ومما يستحسن في الخواتم الدعاء للممدوح ، وقد كثر عند المحدثين والأندلسيين نذكر من الأندلسيين حازما القرطاجني في قوله يمدح المستنصر ، ومهنئا إياه بعيد الأضحي :

ودعاؤُنا لك أنْ تدومَ مُهَنِئاً ... ومُبشِّرا ومُنَعِّماً ومُخَلَّدا(٤)

---

(١) الديوان ص ١٣٩ .

(٢) نفسه .

(٣) الديوان ص ٣٦٨ .

(٤) الديوان ، تحقيق عثمان الكعاك ، دار الثقافة ، بيروت ١٤٠٩هـ ، ص ٤١ .

ومن المحدثين العباسيين نذكر البحتري وهو يهنيء المتوكل بسلامة الفتح بن خاقان ، فيختتم القصيدة بقوله :

بقـــيتَ أمـيـــرَ المؤمنين ! فــإنما بقــاؤُكَ حــسنٌ للزمـــان وطيـبُ
ولا كان لِلمكروهِ نحوك مَذْهـــبٌ ولا لِصرُوفِ الدهر فيك نَصِيبُ (١)

على أن بعض المحدثين قد يختتم قصيده ، بمدح القصيدة نفسها ، وبيان الجهد الذي بذله فيها ، ووجد هذا النوع كثيراً عند الأندلسيين أيضا ، فأبو تمام يقول في قصيدة له مخاطبا مالك بن طوق :

خذها ابنةَ الفكرِ المهذَّبِ في الدُّجى والليـــلُ أســودَ رُقعةِ الجلبَابِ
بكراً تورِّثُ في الحياةِ وتنتهـــي وفي السِّلم وهي كثيرةُ الأسْلاَبِ
ويزيدُهـــا مرُّ الليالي جـــدَّةً وُتقَاوِمُ الأيامَ حُسْنَ شَبَابِ(٢)

وقد تأثر المعتمد بن عباد بهذا الأسلوب ، فختم إحدى قصائده بقوله :

فهاكها قطعةً تَطوى لها حسدا «السيف أصدق أنباء من الكتب»(٣)

فهو إضافة إلى التأثر في الاسلوب تأثر بتضمين شطر أول بيت من عمورية أبي تمام .

هذا ونختم المطاف في المقاطع بقول لابن خفاجة ذهب فيه كذلك إلى مدح قصيده ، وذلك في قوله مخاطبا أبا الطاهر بن تميم :

أباالطاهرِ اقْبَلْها إليكَ تحيـــةً أَرَقْتُ عليها سُحْرةً رونقَ السِّحْر
خلعتُ قوافيها عليك وإنمـــا نظمتُ بها عِقْداً نفيساً على نَحْرِ

---

(١) الديوان ، المجلد الأول ، ص ٢٠٤ .

(٢) ديوان أبي تمام ١/ ٩٠ .

(٣) الذخيرة ٢/ ١/ ٦٨ .

إلى أن قال :

فصيح لسان السيف والضيف والندى رفيع منار القدر، والذكر والفخر(١)

ولعلنا نكتفي بهذا القدر ، من هذه النماذج للتدليل على براعة الأندلسيين والمحدثين العباسيين في خواتم قصائدهم ، ورأينا كيف استطاع الشاعر الأندلسي أن يثبت براعته في سائر أجزاء القصيدة وبنائها الفني متأثراً في بعضها بالمعاصرين له من المحدثين من أضراب أبي تمام والبحتري والمتنبي .

---

(٣) الذخيرة ٣/ ٢/ ٦٤٣ ، والديوان ، ص ٢٧ .

المبحث الثاني
الخصائص الفنية المشتركة
بين المحدثين والأندلسيين

من المتعارف عليه لدى النقاد والدارسين أن للشعر لغةً تميزه عن غيره من فنون القول وأن له طرقاً وأساليب يتبعها الشعراء في إخراج نتاج قرائحهم .

والشعر ليس نمطاً قولياً مطلقاً ، وإنما لابد له من صفات وهيئات يأتي عليها حتى يتسم بميسم الشعر .

ولقد مرّ الشعر بمعان وتعريفات عديدة ، فمن ذلك ماذكره ابن رشيق القيرواني في باب حدّ الشعر وبنيته قولَه : « الشعر يقوم بعد النيّة من أربعة أشياء ، وهي اللفظ والوزن ، والمعنى والقافية ، فهذا هو حدّ الشعر ، لأن من الكلام موزوناً مقفى وليس بشعر لعدم القصد والنيّة كأشياء اتزنت من القرآن ، ومن كلام النبي ﷺ وغير ذلك مما لم يطلق عليه أنه شعر . » (١) .

وقد اجتهد بعض العلماء في أوصاف الشعر وأبانوا خصوصيته من بين الفنون ، فالجاحظ نقل عنه قوله : « إنما الشعر صناعة وضرب من النسج وجنس من التصوير »(٢) . ونقل ابن رشيق عن ابن سلام قوله : « وللشعر صناعة ، وثقافة يعرفها أهل العلم كسائر أصناف العلم » (٣) .

ولقدامة بن جعفر تعريف مختصر للشعر يقول فيه : «إنه قول موزون مقفى يدل على معنى»(٤) ، ثم جعل الأسباب المفردات التي يحيط بها الشعر أربعة : اللفظ ، والمعنى ، والوزن ، والتقفية(٥) .

وقد وقف بعض(٦) المعاصرين عند خصوصية الشعر ، فذكروا أن الكلام الذي يجب أن يسمى شعراً لابد أن تتوافر له ثلاثة أركان :-

---

(١) العمدة ١/ ١١٩ .

(٢) الحيوان ٣/ ١٣٢ .

(٣) العمدة ١/ ١٨ .

(٤) نقد الشعر ص ١٧ ،ت/ كمال مصطفى .

(٥) نفسه ص ٢٥ .

(٦) التوجيه الأدبي طه حسن وزملاؤه ص ١٤٧ «بتصرف» .

الأول : أن تكون المعاني مما ولده الخيال .

الثاني : أن يكون اللفظ متميزاً بحيث يلائم طبيعة الشعر الخيالية ، والموسيقية .

الثالث : أن تكون الألفاظ ذات انسجام خاص ، وهو مايسمى بالوزن(١) .

ومن خلال تلك التعريفات والصفات التي وضعت للشعر ، يمكن أن نضع الشعر العربي في الأندلس في موطنه الصحيح ، ونتعرف على خصائص هذا الشعر من خلال كلام الدارسين في ضوء خصائص اللغة الشعرية التي حددها العلماء والنقاد ، وبذلك تتحدد المكانة التي يتسنمها شعرنا العربي بالأندلس إلى جوار أخيه العباسي المحدث ، لأنني كما أسلفت القول في الفصل السابق أن الخصائص الفنية هي قاسم مشترك بين الشعراء ، وليس من السهولة القول بالتأثير فيها جزافاً ، فالشعر أحد مظاهر الحياة التي يعايشها الإنسان ، ولهذا كان لابد له من التعرض لمناحي متعددة يتأثر فيها ويؤثر في غيره .

والمحدثون أنفسهم الذين عني البحث بدراسة أثرهم لم يسلموا من التأثر بمن سبقهم ، كما أنهم لم يكن تجديدهم إلا في الإطار الذي رسم للشعر(٢) العربي وفي ضوء الخصائص التي اشتمل عليها الشعر ، ولقد ظلّ أكثرهم يحتذي النماذج القديمة ، إضافة إلى مجاراة عصره الذي نشأ فيه ، واستطاع بعضهم أن يمزج بين

---

(١) نفسه ص ١٤٧ .

(٢) وضع الشعر العربي في عصر بني العباس يؤكد أن هناك تيارين قد تجاذبا هذا الشعر وعاشا جانبا إلى جنب ، فبينما نجد شعراء مجددين أمثال بشار وأبي نواس ، ومسلم وأبي تمام ممن يحملون لواء التجديد نجد في المقابل شعراء ظل شعرهم بدويا خالصا من أمثال : «ناهض بن ثومة» و«عبدالملك بن عبدالحارثي» و«والحسين بن مطير» و«وأبي البيداء الرياحي» و«يزيد بن ضبة» وغيرهم ممن كانوا يعدون في نظر اللغويين مصدراً من مصادر اللغة لكون شعرهم بقي على الصورة القديمة .

ماوعاه وحفظه من تراثه، وما اكتسبه من حضارة عصره من الثقافات المتعددة الجوانب. ولا غرو فالشعر الأصيل هو ذلك الشعر الذي يستمد من جذوره ويتغذى من تراثه مهما جُدّد فيه وابتكر، فلا يقوم جديد إلا على أساس من القديم، إذ هو الركيزة والدعامة الضاربة بأطنابها في الماضي، ولن يستقيم بناء الجديد إلا على أساسها.

ونحن نعلم مسبقاً أن العصر العباسي بأكمله، عصر تنوعت فيه العلوم وتعددت فيه المشارب، والشاعر الحاذق هو من افتنَّ في استيعاب تراثه وصبغه بما اكتسبه من تلك العلوم والمشارب، ولا سيما ماانتقل إليه من علوم الفرس وآدابهم، فهو لم يعد ذلك الشاعر الجاهلي الذي ليس أمامه سوى ماخلفه الشعراء وما جرى في أشعارهم من حكم وأمثال جعلتهم أسيرين لها ينسجون على منوالها، ويعزفون على قيثارتها دون أن يجدوا غضاضة في ذلك، ودون شعور بأن سهام النقد في يوم من الأيام ستلاحقهم.

ومهما يكن الأمر فإن الشعر الجاهلي، قد أعطانا النوتة الأولى، والقاعدة العريضة التي يقوم عليها الشعر من وزن وايقاع وقافية، ومنهج يشكل الصورة المثلى للقصيدة العربية، ولا يخفى على أولى البصائر ماخاض فيه النقاد عندما ظهر هذا الشعر المحدث بأساليبه التي تحمل طابع التجديد، وظلوا يوازنونه بصورة الشعر العربي القديمة التي عرفت فيما بعد بما أسموه «عمود الشعر» الذي جعل مقياساً لجودة الشعر.

والشعر العربي في الأندلس ليس إلا صورة مثلى للشعر العباسي المحدث، فقد عاش معاصراً له متأثراً بما تأثر به ذلك الشعر في المشرق، ولربما رأى فيه مثلاً أعلى، وذلك لابد أن يكون، لأن أغلب العوامل المؤثرة فيهما واحدة.

ولقد ضرب النقاد بسهم وافر في قضايا الأصالة والابداع في الشعر العربي، فألجأهم ذلك إلى دراسة الشعر في ضوء مقاييس نقدية ارتضوها ليميزوا بين الغث والسمين، والطارف والتليد.

ولعلّ من ألمع القضايا التي شُغل بها النقاد «قضية اللفظ والمعنى» أو مايسمى بالشكل والمضمون أو الصورة والمحتوى، وكلها تصب في قالب واحد وتأرز إلى جحر واحد .

أضف إلى ذلك ماحدده النقاد من ميزات وسمات طبعت الشعر بطابع معين مما ذكرنا سالفاً، وما استخلصه النقاد من تعريفات للشعر .

وعلى ضوء تلك القضايا سوف نستبين سبيل الشعر العربي بالأندلس، ونستكنه ابداعاته من خلال مااكتسبه من ثقافات، ومن علوم العربية بأنواعها من نحو وصرف، ولغة وعروض، وما إلى ذلك مما يشكل الركيزة الأساسية في حياة الشاعر قبل الموهبة والاستعداد الذاتي التي عبر عنها أحد نقاد الأندلس وشعرائها اللامعين، وهو ابن شهيد عندما قال : «وإصابة البيان لايقوم بها حفظ كثير الغريب واستيفاء مسائل النحو، وإنما يقوم بها الطبع مع وزنه من هذين : النحو والغريب»(١) .

وقضية اللفظ والمعنى المشار إليها آنفاً قد استوقفت النقاد، وتأرجحت آراؤهم في المفاضلة بينهما، والتسوية في النظر إليهما .

فمن حيث اللفظ نجد ناقداً كـ«قدامة» يعقد فصلاً لنعته، فيرى بأنه لابد أن يكون «سمحاً سهل مخارج الحروف من مواضعها عليه رونق الفصاحة مع الخلو من البشاعة»(٢) .

وقد كان للجاحظ اهتمام كبير بقضية اللفظ، حيث يرى أن الشأن في الشعر إنما هو في «إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وكثرة الماء وفي صحة الطبع وجودة السبك»(٣)، وقد عدّ الدكتور إحسان عباس ذلك تحيزاً من الجاحظ

---

(١) الذخيرة ١/ ١/ ٣٣١ .

(٢) نقد الشعر ص ٧٤ .

(٣) الحيوان ٣/ ١٣١-١٣٢ .

فقال: «وبهذا التحيز للشكل قلل الجاحظ من قيمة المحتوى، وقال قولته التي طال تردادها « والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي، والبدوي والقروي»»(١). وظلت نظرية الجاحظ هذه متداولة بين النقاد، فأبو هلال العسكري قد تأثر بها وقال: « ومن الدليل على أن مدار البلاغة على تحسين اللفظ أن الخطب الرائقة ماعملت لافهام المعاني فقط لأن الرديء من الألفاظ يقوم مقام الجيد منها في الإفهام، وإنما يدل حسن الكلام، وإحكام صنعته ورونق الفاظه، وجودة مطالعه وحسن مقاطعه، وبديع مبانيه على فضل قائله، وفهم منشئه، وأكثر هذه الأوصاف ترجع إلى الألفاظ دون المعاني وتوخي صواب المعنى أحسن من توخي هذه الأمور في الألفاظ، ولهذا تأنق الكاتب في الرسالة والخطيب في الخطبة، والشاعر في القصيدة يبالغون في تجويدها ويغلون في ترتيبها ليدلوا على براعتهم، وحذقهم بصناعتهم، ولو كان الأمر في المعاني لطرحوا أكثر ذلك فربحوا كدا كثيرا وأسقطوا عن أنفسهم تعباً طويلاً»(٢) ثم يذكر دليلا آخر، وهو أن الكلام إذا كان لفظه حلوا عذبا وسلسا سهلا ومعناه وسطا دخل في جملة الجيد وجرى مع الرايع النادر»(٣).

ويرى ابن رشيق أن اللفظ « جسم وروحه المعنى، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم يضعف بضعفه ويقوى بقوته، فإذا سلم المعنى واختل بعض اللفظ كان نقصا للشعر وهجنة عليه»(٤).

ولهذا اختلف موقف النقاد في تفضيل أي منهما على الآخر كما يقول ابن رشيق حتى أصبح «للناس ...... آراء ومذاهب: منهم من يؤثر اللفظ على

---

(١) ينظر المصدر السابق ٣/ ١٣١.

(٢) الصناعتين ص ٧٣.

(٣) نفسه ص ٧٣.

(٤) العمدة ١/ ١٢٤.

المعنى فيجعله غايته ووكده، وهم فرق : قوم يذهبون إلى فخامة الكلام وجزالته على مذهب العرب من غير تصنع كقول بشار :

إذا ماغضبنا غضبةً مُضَريةً هَتكْنا حجابَ الشَّمسِ أو قَطَّرتْ دَمَا
إذا ماأَعَرْنا سيداً من قبيلةٍ ذُرَى منبرٍ صلّى علينا وسَلَّما

. . . وفرقة أصحاب جلبة وقعقعة بلا طائل معنى إلا القليل النادر كأبي القاسم ابن هانيء ومن جرى مجراه فإنه يقول أول مذهبته :

أصاخَتْ فقالت : وقعُ أجردَ شَيْظَمِ وشامَتْ فقالَتْ لمعُ أبيضَ مِخْذَمِ
وماذَعَرَت إلا جَرْسِ حُلِيِّها........ ولا رَمَقَتْ إلا بُرىً في مُخَدَّمِ

وليس تحت هذا كله إلا الفساد، وخلاف المراد، ما الذي يفيدنا أن تكون هذه المنسوب بها لبست حليها فتوهمته بعد الاصاخة والرمق وقع فرس أو لمع سيف؟ غير أنها مغزوة في دارها أو جاهلة بما حملته من زينتها، ولم يخف عنا مراده أنها تترقبه !! فما هذا كله، وكانت عند أبي القاسم مع طبعه صنعة، فإذا أخذ في الحلاوة والرقة وعمل بطبعه على سجيته أشبه الناس ودخل في جملة الفضلاء، وإذا تكلف الفخامة، وسلك طريق الصنعة أضر بنفسه، وأتعب سامع شعره، ويقع له من الكلام المصنوع والمطبوع في الأحايين أشياء جيدة»(١) .

وابن رشيق هنا على الرغم من انصافه لابن هاني فإن رأيه هذا قد يكون متأثراً فيه برأي أبي العلاء المعرى عندما سئل عن شعر ابن هاني فقال : «ماأشبهه إلا برحى تطحن قرونا(٢). . . » .

وأيا ماكان فإن كلا من ابن رشيق وأبي العلاء يؤكد بآرائه أن ابن هاني قد تربع بشعره بين أحضان النقد، وأن ابن هاني قد فرض نفسه بوجوده في المغرب العربي، واشتهر لدى شعراء المشرق .

---

(١) العمدة ص ١٢٥ .

(٢) وفيات الأعيان ٤/ ٢٢٤ .

على أن الجزالة التي ذكرها ابن رشيق للشعر الجاهلي ، وظلت ماثلة في شعر بشار ، قد تميز بها الشعر الأندلسي نفسه ، فقد ذكر ابن بسام(١) أن شعر ابن وهبون قد اجتمعت له الجزالة والرقة في آن واحد ، أما ابن هاني فهو لم يكن متأثرا في مذهبه الشعري إلا بالشعر الجاهلي أو بشعراء الاتجاه القديم ، يدل على ذلك تكلفه الصور والتشبيهات ، وتعمده استعمال الغريب ، وتتبع القوافي المهجورة كقافية الطاء في قوله :

أَلُؤلُؤٌ دمعُ هذا الغيثِ أم نُقَطُ ماكان أحسَنَهُ لو كان يُلتَقَطُ(٢)

وقد علق الدكتور اليعلاوي على هذه الأبيات بقوله : « في هذا المشهد المشحون بالتفاصيل المثقل بالتشبيهات نظفر أحيانا بصورة طريفة تخرج عن مألوف الخيال عند شعراء الجاهلية»(٣) .

وكان ابن هاني كما أسلفنا لايتأثر إلا بالقدماء أو من يليهم كأبي نواس ، فقد حاكاه في بعض خمرياته ، ولذلك لايعتبر ابن هاني إلا أحد شعراء الاتجاه القديم المحدث ، فهو لم يحاصر نفسه في طريقة المحدثين فقط ، وإنما كان يقلد الشعراء القدامى بحذر شديد ، وكان مما عرف عنه يجاوز تقليد الفحول الأولين إلى فطاحل الفترة الأموية شأنه في ذلك شأن معاصريه المتنبي وأبي فراس فهو يغامر مثلهم ويستعد للمغامرة(٤) ، ومن ذلك رائيته التي نظمها على نمط رائية عمر بن أبي ربيعة ، وإن كانت هذه الرائية قد أثرت في بعض الشعراء العباسيين ، فأبو فراس «قد نقل هذه الصورة إلى شعره»(٥) ثم شاع عنهم بعد ذلك في الأندلس فممن

---

(١) الذخيرة ق١م١ص١٤ ، وأخذ ابن بسام ذلك من قوله عن شعره :

« رقيق كما غنت حمامة أيكةٍ وجزل كما شقّ الهواء عقابُ »

(٢) الديوان ص ١٨٤ .

(٣) ابن هانيء المغربي الأندلسي ص ٢١٦ .

(٤) نفسه ص ٢٠٨ .

(٥) الفن ومذاهبه ٤٣٢-٤٣٣ .

تأثر بها يحيى بن بقي وابن شطرية وأبو حفص عمر بن عمر، لهم قصائد يستمدون صورهم من قصائد مشرقية، لكنهم أعادوها بصورة جديدة فيها «طرافة الخيال وبراعة التصوير»(١).

وليس ابن هاني إلا أحد الشعراء المحدثين الذين استطاعوا بثقافتهم الواسعة حذق معاني السابقين وتطويرها إلى أحسن صورة، شأنه في ذلك شأن أبي نواس وغيره من المحدثين الذين تبوأوا مكانة عالية في عيون النقاد، فهذا ابن قتيبة يعجب بقول لأبي نواس ويفضله على قول للأعشى، يقول ابن قتيبة: «وكان الناس يستجيدون قول الأعشى:

وكأسٍ شربتُ على لذةٍ   وأخرى تداويتُ مِنَها بِها

حتى قال أبو نواس:

دَعْ عنك لومي فإنَّ اللومَ إغراءُ   وداوني باللتي كانت هي الداءُ

فسلخه وزاد فيه معنى آخر اجتمع به الحسن في صدره وعجزه، فللأعشى فضل السبق إليه ولأبي نواس فضل الزيادة فيه»(٢)

ومازال الكلام موصولا بقضية اللفظ والمعنى وموقف النقاد منها، فللفظ حصة من تفكير صاحبه لايتنازل عنها، فالشاعر الماهر هو من يطوع لفظه لما يريد من المعاني، وقد عرف عن بعض الشعراء كما يقول نجيب البهبيتي المقدرة الحسية الرابطة بين ألفاظه ووزن شعره ومقاطع قصيدته، وإن وقع في كلام أحدهم لفظ مستكره أو معنى مستغلق فإنما هو ضرورة يقول المبرد: «قد يضطر الشاعر المفلق، والخطيب المصقع، والكاتب البليغ فيقع في كلام أحدهم: المعنى المستغلق،

---

(١) الفن ومذاهبه ٤٣٢-٤٣٣.

(٢) الشعر والشعراء ١/ ٧٣.

واللفظ المستكره ، فإن انعطفت عليه جنبتا الكلام غطتا على عواره ، وسترتا من شينه»(١) .

ولكن ابن قتيبة يختلف مع أولئك النقاد إذ جعل مقياس الجودة والرداءة يشمل كلا من اللفظ والمعنى، ولذلك قسم(٢) الشعر إلى تلك الأقسام الأربعة المعروفة، وهي : ١ - لفظ جيد، ومعنى جيد ، ٢ - ولفظ جيد ومعنى رديء، ٣-ولفظ رديء ومعنى جيد، ٤ - ولفظ رديء ومعنى رديء .

ومعنى ذلك أنه ينبغي أن يكمل كل من اللفظ والمعنى صاحبه .

هذا ولا يبعد كلام ابن طباطبا عن كلام ابن رشيق السابق من أن العلاقة بين اللفظ والمعنى كالعلاقة بين الروح والجسد « والكلام الذي لامعنى له كالجسد الذي لاروح فيه كما قال بعض الحكماء : الكلام جسد وروح فجسده النطق وروحه معناه . »(٣) .

وكان المرتضى صاحب الأمالي يقول : «وحظ اللفظ في الشعر أقوى من حظ المعنى»(٤) ولا شك أن الألفاظ كما يقول الشريف الرضي خدم للمعاني لأنها تعمل في تحسين معارضها وتنميق مطالعها . »(٥) .

ولعلنا بعد هذا البساط الطويل، نؤكد أن الذي أحدث كل ذلك هو شعر المحدثين، وقد قامت تلك المعارك النقدية الفاصلة، للفصل أساساً في قضية اللفظ والمعنى أو الشكل والمضمون . وأدت إلى خصومات كان مؤداها صنع موازنة بين

---

(١) الكامل ١/ ٢٧ .

(٢) الشعر والشعراء ١/ ٦٤ - ٧٤ .

(٣) عيار الشعر ص ١١ وكذلك ص ١٢١ .

(٤، ٥) آمالي المرتضى نقلاً عن تاريخ النقد لإحسان عباس ص ٣٧٠ .

أبي تمام والبحتري، ولم نجد مثل تلك الخصومات حول شعر من سبقهما أمثال أبي نواس، وبشار، ذلك لأن البحتري ظل مستكينا لمذهب الأوائل يسير على سجيته، وأباتمام نفد من خلال ثقافته، وتعمقه في الفلسفة، إلى معان لم يسبق لمثلها في الشعر العربي. وليس من همنا أن نستقصي هذه القضيه، وإنما نورد شيئا من هذه الآراء للاستدلال على تشبث الأندلسيين بمذاهب الشعر في المشرق.

والحقيقة أن المحدثين في أغلبهم هم أصحاب المعاني ولذلك يرى بعض الدارسين المعاصرين أن شعرهم يقدر في معانيهم المبتكرة، وألفاظهم المنتظمة، ونوادرهم المضحكه، والأناقة العامة التي تمازج أشعارهم(١).

وحول السمات الفنية يدور أكثر كلام النقاد، في الشعر العباسي إذ لم تحدث تلك الضجة النقدية الكبرى إلا بعد أن ظهر ذلك الشعر.

فكانت السمة الغالبة لشعر الجاهليين هي الجزاله، وجزالة الألفاظ عند ابن الأثير هي «متانتها وعذوبتها في الفم ولذاذتها في السمع»(٢)، وكان ابن سلام يقول عن النابغة: «كان أحسنهم ديباجة شعر، وأكثرهم رونق كلام. . . . واجزلهم بيتا»(٣)، وقد جعل المرزوقي أحد صفات عمود الشعر «جزالة اللفظ واستقامته» وكان القاضي الجرجاني يصف شعر المتقدمين بصفات مؤداها الفخامة في المعنى والجزالة في اللفظ، فيقول: «فإن قلت، فمابال المتقدمين حضوا بمتانة الكلام، وجزالة المنطق، وفخامة الشعر، حتى إن أعلمنا باللغة، وأكثرنا رواية للغريب، لو خفظ كل ماضمت الدواوين المروية، والكتب المصنفة من شعر فحل وخبر فصيح ولفظ رائع - ونحن نعلم أن معظم هذه اللغة مضبوط مروي وجل

---

(١) ينظر تاريخ النقد، إحسان عباس ص ١٤٣.

(٢) المثل السائر ١/ ١٨٥.

(٣) طبقات فحول الشعراء ١/ ٥٦.

الغريب محفوظ منقول - ثم أعانه الله بأصح طبع وأثقب ذهن وأنفذ قريحة، ثم حاول أن يقول قصيدة أو يقرض بيتا يقارب شعر امريء القيس وزهير في فخامته، وقوة أسره، وصلابة معجمه لوجده أبعد من العيوق متناولا، وأصعب من الكبريت الأحمر مطلبا.»(١).

لكن هذا الكلام على اللفظ لايعني اللفظ المفرد، بل هو اللفظ المركب لأنه لاتبين قوته إلا بالإسناد لغيره، وكان الثعالبي يقول: «البليغ من يحوك الكلام على حسب الأماني، ويخيط الألفاظ على قدود المعاني»(٢).

وصفة الجزالة في الشعر القديم هي ضرورية له، لأنها - كما يعلل بعض الدارسين «كانت أثراً لحياة الصحراء، تلك الحياة التي تتصف بالشدة والقسوة في كل شيء فاستجاب الشاعر، - وهو فرد في ذلك المجتمع - للذوق العام، أو دفع إلى نوع من الألفاظ الجزلة يعجب جمهور السامعين.»(٣). وإن كان هذا التعليل قد سبقه إليه القاضي الجرجاني في الوساطة عندما فاضل بين الشعراء القدماء والمحدثين منهم، فقال: «قد كان القوم يختلفون في ذلك، وتتباين فيه أحوالهم، فيرق شعر أحدهم، ويصلب شعر الآخر، ويسهل لفظ أحدهم ويتوعر منطق غيره، وإنما ذلك اختلاف الطبائع، وتركيب الخلق، فإن سلامة اللفظ تنبع من سلامة الطبع، ودماثة الكلام بقدر دماثة الخلقة، وأنت تجد ذلك ظاهراً في أهل عصرك وأبناء زمانك، وترى الجافي الجلف منهم كز الألفاظ، معقد الكلام وعر الخطاب حتى إنك ربما وجدت ألفاظه في صوته ونغمته، وفي جرسه ولهجه، ومن شأن البداوة أن تحدث بعض ذلك، ولأجله قال النبي ﷺ «من بدا جفا» ولذلك تجد

---

(١) الوساطه ص ١٦.

(٢) العمدة ص ١٢٨.

(٣) الخصومة بين القديم والجديد في النقد العربي القديم، د. البسيوني أحمد منصور ص١٨٣.

شعر عدى - وهو جاهلي أسلس من شعر الفرزدق ورجز رؤبة وهما آهلان، لملازمة عدي الحاضرة، وإيطانه الريف، وبعده عن جلافة البدو، وجفاء الأعراب»(١).

أما المحدثون الذين « أعانهم لين الحضارة وسهولة طباع الأخلاق . . »(٢) فـ«ترفقوا ماأمكن وكسوا معانيهم ألطف ماسنح من الألفاظ، فصارت إذا قيست بذلك الكلام الأول يتبين فيها اللين، فيظن ضعفاً فإذا أفرد عاد ذلك اللين صفاء ورونقاً، وصار ماتخيلته ضعفا رشاقة ولطفا، فإن رام أحدهم الاغراب والاقتداء بمن مضى من القدماء لم يتمكن من بعض مايرومه إلا بأشد تكلف، وأتم تصنع، ومع التكلف المقت، وللنفس عن التصنع نفرة، وفي مفارقة الطبع قلة الحلاوة وذهاب الرونق، وإخلاق الديباجة. . وربما كان ذلك سببا لطمس المحاسن، كالذي نجده في شعر أبي تمام، فإنه حاول من بين المحدثين الاقتداء بالأوائل في كثير من ألفاظه، فحصل منه على توعير اللفظ فقبح في غير موضع من شعره»(٣).

أما شعر البحتري فهو شعر السماحة والطبع المسترسل مع سجية فطر عليها الشاعر، وشعره يحدد ذلك الفرق بين المطبوع والمصنوع، وإذا أردت أن تعرف «فرق مابين المصنوع والمطبوع، وفصل مابين السمح والمنقاد، والعصي المستكره فاعمد إلى شعر البحتري» وقبل ذلك قال: «وإذا أردت أن تعرف موقع اللفظ الرشيق من القلب، وعظم غنائه في تحسين الشعر، فتصفح شعر جرير وذي الرمة في القدماء، والبحتري في المتأخرين. »(٤).

وقد دعانا الجرجاني لنتأمل قول البحتري فقال: «وعليك بما قاله عن عفو خاطره وأول فكرته كقوله:

---

(١) الوساطه ص ١٧-١٨.

(٢) نفسه ص ١٨.

(٣) نفسه ص ١٩.

(٤) نفسه ص ٢٤-٢٥.

ألام علـى هـواكِ وليس عـدلاً إذا أحـببتُ مِـثْلَكِ أن أُلاما
أعـيدي فِيَّ نظرةَ مُـسْـتـثِـيب ٍ تَوخَّى الأجْـرَ أو كَـرِه الأثامـا(١)

وبعد إيراده نماذج متعددة من شعره قال: «ثم انظر هل تجد معنى متبذلاً ولفظاً مشتهرا مستعملاً؟ وهل ترى صنعة وإبداعا أو تدقيقا أو إغرابا؟ ثم تأمل كيف تجد نفسك عند إنشاده، وتفقد مايتداخلك من الارتياح . . . الخ»(٢).

ونظرة بعض الأندلسيين إلى الشعر عامة لاتقتصر على اللفظ وحده فابن شهيد يقول: «فليس الشعر باللفظ وحده وإنما يستحق الصناعة من يتقحم بحور البيان، ويتعمد كرائم المعاني وينطلق بالفصل ويركب أثباج الجد، ويطلب الأشياء النادرة والسائرة وينظم من الحكمة مايبقى بعد موته»(٣) . . . وكان الأندلسيون يعجبون بطريقة البحتري، وقد صرح بذلك ابن بسام عندما قال: «وطريقتهم في الشعر هي الطريقة المثلى التي هي طريقة البحتري في السلاسة والمتانة والعذوبة والرصانة»(٤) ونقل عنه قوله: «ذلك هو البحتري طريقته في الشعر نموذجية لسلاسته وجزالته وطلاوته وقوته»(٥).

وكان الشاعر عمر بن يوسف الخيطي يتعصب للبحتري ويدعو إلى الاسترسال مع الطبع والابتعاد عن الصنعة حتى قال عنه الزبيدي «كان شاعراً مطبوعاً مجوداً»(٦).

وهذه النظرة من أهل الأندلس ليس المقصود بها البحتري لذاته، ولكنها هي نظرتهم إلى الشعر بعامة، من حيث لفظه ومعناه، وهي قريبة من طريقة المشارقة في حرصهم على إقامة «عمود الشعر»، مع أننا لو فتشنا عن مثل تلك الآراء النقدية الحاصلة في المشرق لتعذر الأمر.

وكان لشدة حرص الأندلسيين على جزالة الشعر في لفظه، كانوا يعمدون إلى قراءة وحفظ الدواوين المشهورة بذلك كديوان ذي الرمة الذي يعد في قمة

---

(١) نفسه ص ٢٥.
(٢) نفسه ص ٢٧ .
(٣) ينظر التوابع والزوابع، البستاني، ص ١٨ .
(٤) الذخيرة ق ٢ ص ١٢ .
(٥) الشعر الأندلسي في عصر الطوائف هنري بيرس ص ٤٠ .
(٦) طبقات النحويين واللغويين ص ٣٠٥ .

الجزالة والفصاحة(١)، وقد حفظه أكثر من شاعر هناك، وكانوا يعمدون أيضاً إلى حفظ الأراجيز، وكل ذلك مما يساعد على بروز الألفاظ الجزلة في الشعر الأندلسي.

ويمكننا القول بأن الشاعر الأندلسي استطاع أن يقوى لفظه ويتبع الجزالة فيه فيما بعد قدوم أبي علي القالي سنة ٣٣٠هـ، وكان له فضل في نقل دواوين الشعراء الجاهليين والاسلاميين لكونه لغوي يميل إلى تأصيل الشاهد والمثل في مدرسته فيلقنه لطلابه، وبوجود تلك الدواوين استطاع الشاعر الأندلسي تأصيل شعره الذي يعتبر محدثاً في نشأته الأولى وتراثياً محدثاً في مراحله التالية، والأمر في ذلك كما يقول إحسان عباس أنه قد وجد نهج القدامى ونهج المحدثين وعاشا معاً جنباً إلى جنب، ولكن الذوق العام كان أميل إلى الاتجاه المحدث. . . »(٢) مع أن الشعر الأندلسي كان يصدر عفوياً، ولم يفرض عليه توجيه معين، ولم يك يشعر بحاسية النقد كما كان يشعر بها الشاعر المحدث، وكان كل مايهم الشاعر الأندلسي إقامة الوزن، والألفاظ والتراكيب على نحو يرضاه اللغويون والنحاة والمؤدبون الذين قاموا على تلقينهم اللغة ورواية الشعر حتى أصبحوا على جانب كبير من الإلمام بمعاني الشعر وطرق التأتي فيه، وهذا ينفي كونهم عمدوا إلى نصوص مشرقية وذابوا في غمارها، وإنما هم استوحوا القيم الفنية للشعر من خلال مايدار من آراء في حلقات العلم بينهم «وكل مافي الأمر أن ارتباطهم بذوق المشرق صبغ شعرهم بصبغة محافظة»(٣) وهذا من المظاهر التي تبرز الشعر في لون من الأصالة والجدة في آن واحد، والشعر الأندلسي كما يقول الدكتور النعمان القاضي: «لاينفصل عن التقاليد الموروثة في الشعر العربي العام فهو يجري في نفس الاتجاه ويشيع فيه

---

(١) نفح الطيب ١/ ٣٨٨.

(٢) ينظر الفصل الخاص برواية الشعر ص ٩٣ وما بعدها .

(٣) مقدمة رايات المبرزين .

هذا التيار الذي يصل بين الماضي والحاضر، وليس ذلك شيئاً نحسه في الأدب الأندلسي وحده، فنحن نحسه أيضاً في الأدب العباسي إذا قسناه إلى الأدب العربي القديم، ومعنى ذلك أن الشعر العربي في عصوره وأقاليمه المختلفة يعتبر استمرارا لصورة فنية أصيلة، وحقا تأثرت هذه الصورة بالعناصر الأجنبية، وتغيرت تحت تأثيرها، سواء في المشرق أو في الأندلس ولكن في هذه الحدود التي لاتفصل قديم الشعر عن حديثه وتجعلنا نقرأ المتنبي كما نقرأ الفرزدق وكما نقرأ زهيراً»(١).

ومن خلال بعض النصوص الشعرية سنعرف قوة التيارين اللذين تجاذبا الشعر الأندلسي، فنجد شاعراً كابن شهيد يدعو إلى حر اللفظ، وقوة أسر الكلام ويعجب بشعر امريء القيس لما له من الرصانة والجزالة وشدة الأسر، كما أنه يعجب بشعر أبي نواس والبحتري لما فيهما من السلاسة في الاسلوب ولين العبارة، وقد وقف ابن سعيد الأندلسي عند تأثر ابن شهيد بقول امريء القيس:

سموتُ إليها بعدما نامَ أهلُها سُموَّ حبابِ الماءِ حالاً على حالِ(٢)

في قوله:

ولما تمَدَّدَ في سُكْرِه ونامَ ونامتْ عيونُ العَسَسْ(٣)

قال ابن سعيد « والسابق له امرؤ القيس، لكنه أحسن في تناوله غاية الإحسان»(٤).

وفعلاً تجد لفظ امريء القيس ومعناه واضحاً في قول ابن شهيد:

---

(١) مقدمة رايات المبرزين.

(٢) ديوان امريء القيس ص ١٦١، ط ٥، حسن الندوي.

(٣) ديوان ابن شهيد ص ١٢٠.

(٤) رايات المبرزين ص ٧٢.

دنوتُ إليـــه على قُــرْبِه ... دنوّ رَفِيــقٍ إذا مــا التَـمَسْ
أدبُّ إليـــه دبيبَ الكَــرى ... وأســمُــو إليــه سُــمُــوّ النَّفَسْ(١)

وأنشد كذلك على طريقة امريء القيس في جزالة لفظه وقوة سبكه عندما التقى بتابعته «عتيبة بن نوفل» :

شجته مغانٍ من سليمي وأدؤرُ ... .

حتى انتهى فيها إلى قوله :

ومن قبـةٍ لايُدرِك الطرفُ رأسَـهـا ... تزلّ بهـا ريحُ الصَّبـا فتـحـدّرُ
تكلّفتُـهـا والليلُ قـد جـاش بحرُهُ ... وقـد جـعلَـتْ أمـواجُـهُ تتكسَّـرُ
ومن تحتِ حضني أبيضُ ذو سَفَاسِقٍ ... وفي الكَفِّ مِـنْ عسَّالةِ الخـطِّ أسمَرُ
هما صاحباي من لدُن كُنْتُ يافِعاً ... مُقيلانِ مـن جدِّ الفَتى حين يَعْثُر
فذا جدولٌ في الغمدِ تُسْقَى به المُنَى ... وذا غُصُنٌ في الكَفِّ يُجْنَى فيُثْمِرُ(٢)

ويجاري أبا نواس في مذهبه بقوله المشهور :

أَصَــبَــاحٌ شِــيمَ أم برقٌ بَدا ... أم سنَى المحــبــوبِ أورَى أزْنُدا
هبَّ مِنْ مَــرقَــدِهِ مُنكَسِــرا ... مُــسْــبِــلاً لِلْكُمِّ مــرخٍ للرِّدَا
يمسحُ النعــســةَ من عَــيْنَي رشـأ ... صــائــدٍ في كلِّ يومٍ أسـدا(٣)

وينشد على منهج البحتري :

وفُــتُــوٍّ سَــرَوْا وقــد عكفَ اللــيــ ... ـــلُ وأرخَى مُـغْـدَودِنَ الأَطْنَابِ
وكــأن النُّجــومَ لما هَدَتْهُــمْ ... أشــرقَتْ للعــيــونِ من آدابِي
يَتَــقَــرَّوْنَ جَــوْزَ كلِّ فــلاةٍ ... جُنْحَ لَيْلٍ جَــوْزَاؤُه من رِكَــابِي(٤)

---

(١) الديوان ص ١٢٠ .
(٢) الديوان ص ١٠٧ .
(٣) الديوان ص ١٠٢ .
(٤) الديوان ص ٨٦

وابن شهيد يعترف بأن البحتري كان من أساتيذه الأوائل ولكنه أنسيه(١) وهذا يدل دلالة قاطعة على أن طريقة البحتري، وهي طريقة الأوائل هي التي كانت سائدة في الشعر الأندلسي ثم جنحوا فيما بعد لطريقة المحدثين البحته من حيث الاغراق في البديع، واتباع الصنعة اللفظية، وإن كان ابن شهيد قد مقتها في بعض آرائه النقدية إلا أنه غرق فيها حتى أذنيه، وقال مخاطبا صاحب أبي تمام:

أبكيت إذ ظعن الفريق فراقها ....

إنّي امرؤٌ لعبَ الزمانُ بِهمّتي وسُقيتُ من كأسِ الخُطُوبِ دِهَاقَها

وكَبَوتُ طرفا في العُلا فاستضْحَكَتْ حُمْرُ الأنامِ فما تريمُ نِهاقَها

وإذا ارتمتْ نحوى المُنَى لأنالَها وَقَفَ الزمانُ هناك فَعَاقَها(٢)

ثم يشير إلى معاناة أبي تمام في شعره، واستحضاره الشعر القديم ونصيحته إياه، بأنك «إن كنت ولابد قائلا، فإذا دعتك نفسك إلى القول فلا تكد قريحتك، فإذا أكملت فجمام ثلاثة لا أقل، ونقح بعد ذلك وتذكر قوله - والأبيات لسويد بن كراع -:

وجشمنى خوفُ ابنِ عفانَ رَدَّها فَثَقَّفْتُها حولاً كريتاً وَمَرْبَعا

وقد كان في نَفْسِي عليها زيادةٌ فلم أَرَ إلا أن أُطِيعَ وأَسمعا(٣)

وهذا يذكر بوصية أبي تمام للبحتري التي يرويها البحتري عن نفسه فيقول: «كنت أروم الشعر في حداثتي، وكنت أرجع فيه إلى الطبع، ولم أكن أقف على تسهيل مأخذه، ووجوه اقتضائه حتى قصدت أباتمام وانقطعت فيه إليه واتكلت في

---

(١) الديوان ص ٨٦ .

(٢) الديوان ص ١٣٦ .

(٣) التوابع والزوابع ص ١٠١ .

تعريفه عليه، فكان أول ماقال لي : ياأباعبادة تخير الأوقات وأنت قليل الهموم صفر من الغموم واعلم أن العادة جرت في الأوقات أن يقصدها الإنسان لتأليف الشيء أو حفظه في وقت السحر، وذلك أن النفس تكون قد أخذت بحظها في الراحة وقسطها من النوم، فإن أردت التشبيب فاجعل اللفظ رقيقا، والمعنى رشيقا، وأكثر فيه من بيان الصبابة، وتوجع الكئابة، وقلق الأشواق، ولوعة الفراق، فإذا أخذت في مدح سيد ذي أياد فأشهر مناقبه وأظهر مناسبه، وأبن معالمه، وشرف مقامه، ونضد المعاني، واحذر المحتمل منها، وإياك أن تشين شعرك بالألفاظ الهجينة، وكن كأنك خياط تقطع الثياب على مقادير الأجسام، وإذا عارضك الضجر فأرح نفسك، ولا تعمل شعرا إلا وأنت فارغ القلب، واجعل شهوتك إلى قول الشعر الذريعة إلى حسن نظمه، فإن الشهوة تجمع النفس، وجملة الحال أن تعتبر شعرك بما سبق من شعر الماضين فما استحسن العلماء فاقصده، وماتركوه فاجتنبه ترشد إن شاء الله تعالى، قال : فاعملت نفسي فيما قال : فوقفت على السياسة»(١).

ولعل ابن شهيد انتفع بالنصيحتين، فهو ممن يهتم باختيار لفظه، ودقة تصوره لتجانس الحروف يدل على ذلك قوله : «إن للحروف أنسابا وقرابات تبدو في الكلمات فإذا جاور النسيب النسيب، ومازج القريب القريب طابت الألفة وحسنت الصحبة. »(٢).

وقد وقف ابن شهيد موقفا وسطا بين شاعرين اعتبرا رأسين لمذهبين أبوتمام والبحتري، ولكل منهما مكانته في أعين النقاد وبعض أهل العلم، سؤل المبرد عنهما «أيهما أشعر، فقال : لأبي تمام استخراجات لطيفة، ومعان ظريفة، وجيدة أجود من شعر البحتري ومن تقدمه من المحدثين، وشعر البحتري أحسن استواء من

---

(١) شرح مقامات الحريري، للشريشي ١/ ٩٧.

(٢) الذخيرة ق ١/ ٢٣٣-٢٣٤.

شعره، لأن البحتري يقول القصيدة كلها فتكون سليمة من طعن طاعن، وأبو تمام يقول البيت النادر والبارد . . . وما أشبهه إلا بغائص يخرج الدرة المخشلبة ثم قال: لأبي تمام من المحاسن ما لو قيس بأكثر شعر الأوائل ماوجدوا فيه مثله، ثم قال: والبحتري ختم الشعر. »(١).

ولقد كان الشعر العربي في الأندلس كثير الاستقراء لشعر هذين الشاعرين حتى وقف كما يقول إحسان عباس على مفترق الطريق بين مذهبي أبي تمام والبحتري.

ولقد قرأنا في الشعر الأندلسي قراءات مستقرئه بفضل الله فألفيناه لايخرج عما أطره النقاد من أطر للشعر العربي، فتقسيم ابن قتيبة للشعر العربي سوف لن يخرج به شعرنا الأندلسي بل هو مما يدخله في صميم ذلك الشعر العتيق، وماأخذه ابن رشيق وأبو العلاء على ابن هانيء نفسه أخذ على شعراء يعدون من الفحول في المشرق، ولقد أكد ابن قتيبة أن هناك من الفضلاء من وجد في شعره قعقعة اللفظ دونما طائل من ورائه، وليس الشاعر الأندلسي فقط الذي عيب عليه ذلك. فعندما قسم ابن قتيبه الشعر إلى أربعة أضرب، جعل منها ضربا حسن لفظه وحلا فإذا أنت فتشته لم تجد هناك فائده في المعنى . . . وهو قول القائل:

ولما قضينا من مِنًى كلَّ حاجَةٍ ... ومَسَّحَ بالأركانِ من هو ماسحُ
وشُدَّتْ على حُدْبِ المهارِى رحالُنا ... ولا ينظُرُ الغادي الذي هُوَ رائِحُ
أَخَذْنَا بأطرافِ الأَحادِيثِ بينَنَا ... وسالَت بِأَعناقِ المطيِّ الأباطحُ

قال ابن قتيبة: «هذه الألفاظ كما ترى أحسن شيء مخارج ومطالع ومقاطع وإن نظرت إلى ماتحتها من المعنى وجدته: ولما قطعنا أيام منى واستلمنا الأركان وعالينا إبلنا الأنضاء، ومضى لاينتظر الغادي الرائح، ابتدأنا في الحديث وسارت

---

(١) شرح المقامات ص ٩٥ .

المطي في الأبطح . . . وهذا الصنف في الشعر كثير، مع أن هذه الأبيات تنسب لشاعر ذو باع طويل في الشعر وهو كثير عزة(*)، بل اعتبر من هذا الصنف شعر لجرير وهو من هو في قوله:

يأخت ناجية السلام عليكم … قبل الرحيل وقبل لوم العدل
لو كنت أعلم أن آخر عهدكم … يوم الرحيل فعلت مالم أفعل

بل استشهد بما هو أظرف وأحب إلى قلوب العشاق، وهو قوله:

بان الخليط ولو طوعت مابان … وقطعوا من حبال الوصل أقرانا
إن العيون التي في طرفها مرض … قتلننا ثم لم يحيين قتلانا
يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به … وهن أضعف خلق الله إنسانا(١)

فإذا كان هذا الشعر مما حسن لفظه وقصر معناه فما بالنا نشنع على المتأخرين من الشعراء ولاسيما شعراء الأندلس ؟؟ مع أن شعراء الأندلس كما يقول إحسان عباس ملمون بعلم معاني الشعر(٢)، وعيوبه التي أفادوها من المشارقة فكان ابن عبدربه في ذوقه قريب من ابن قتيبة في عدم تفضيل القديم لتقدم قائله بل كان يرى تقديم الشاعر لجودة شعره ولتوفر الموهبة والدربة، وكان يرى أن الشاعر لايفيد من أخذه كلام الناس وألفاظهم ما لم تكن الصناعة ممازجة لذهنه وملقحة لطبعه(٣)، وقد التفت شعراء الأندلس لما كان عليه الوضع في الشعر بالمشرق فابن شهيد يقول

(*) وهناك من ينسبها ليزيد بن الطثرية، يقول الدكتور ناصر الرشيد «فقد نسبت ليزيد أبياتها الثلاثة . . . ونسبتها إلى يزيز واهية» ينظر شعر يزيد بن الطثرية/ ت د. ناصر الرشيد ص٤٠-٤١.

(١) الشعر والشعراء ١/ ٦٨.

(٢) تاريخ النقد ص ٤٧١.

(٣) المصدر نفسه بتصرف.

بأن «الشعراء انتقلوا عن العادة في الصنعة بانتقال الزمان وطلب كل ذي عصر مايجوز فيه وتهش له قلوب أهله فكان من صريع الغواني وبشار وأبي نواس وأصحابهم في البديع ماكان من استعمال أفانينه والزيادة في تفريغ فنونه، ثم جاء أبوتمام فأسرف في التجنيس وخرج عن العادة وطاب ذلك منه وامتثله الناس، فكل شعر لايكون اليوم تجنيسا أو مايشبهه تمجه الآذان والتوسط في الأمر أعدل، ولذلك فضل أهل البصره صريع الغواني على أبي تمام لأنه لبس ديباجة المحدثين على لأمة العرب، فتركب له من الحسن بينهما ماتركب.»(١).

وكان ابن حزم يقسم الشعر إلى وجوه ثلاثة:

١ - فالصناعة هي الجمع بين الاستعارة والتحليق على المعاني « كشعر زهير وأبي تمام».

٢ - والطبع ما أشبه المنثور في تأليفه وسهولته ولم يقع فيه تكلف «كشعر جرير وأبي نواس.».

٣ - والبراعة هي التصرف في المعاني الدقيقة البعيدة، والاكثار مما لا عهد للناس بالقول فيه، وإصابة التشبيه وتحسين المعنى اللطيف «كشعر امريء القيس وابن الرومي»(٢).

أما ابن خفاجة الأندلسي فكان يرى أن الشعر لايمكن أن يجيء كله مستوي الجودة وإنما ينقسم إلى طرفين ووسط وفي الطرف الثاني تكل الأذهان، وتقل المادة من لفظ وقافية، ثم إن الشعر يلحق بالأشياء المركبة لأنه يتألف من معنى ولفظ، ووزن وروي، وكل تركيب فلابد أن يصيب بعض أجزائه اضطراب إذ قد يتعسر

---

(١) الذخيرة ١/١/٢٠٣.

(٢) ينظر فيما سبق: التقريب لحد المنطق ص ٢٠٧، وتاريخ النقد، إحسان عباس ص٤٨٦.

إيراد شيء من هذه الأربعة يكون انسجاما كاملاً مطلقاً، ولذلك تجد التفاوت في الأبيات فبعضها منظومة أي متسقة، وبعضها منثورة أي ضعيفة الايقاع»(١).

وعلى الرغم من اهتمام الأندلسيين بمعاني الشعر ومجيئها متسقة مع ألفاظها كانوا يكرهون المعاني الفلسفية، فابن بسام عندما عرض لقصيدة السميسر التي يقول فيها:

ياليتنا لم نكُ من آدمٍ — أورطَنَا في شَبَهِ الأَسْرِ
إن كان قد أخرجه ذَنْبُه — فمالنا نُشْرَكُ في الأَمْرِ

فحمل عليه بشدة قائلاً: «والسميسر في هذا الكلام ممن أخذ الغلو بالتقليد ونادى الحكمة من مكان بعيد، صرح عن ضيق بصيرته، ونشر مطوى سريرته في غير معنى بديع، ولا لفظ مطبوع، ولعله أراد أن يتبع أبا العلاء فيما كان ينظمه من سخيف الآراء، وهبه ساواه في قصر باعه وضيق ذراعه، أين هو من حسن إبداعه ولطف اختراعه.»(٢)، وفي موطن آخر يعلق ابن بسام على ماشرع فيه بعض شعراء الأندلس اتباعاً للمحدثين في الأخذ بتلك المعاني الفلسفية ووقف عند أبيات لأبي عامر ابن نوار الشنتريني يقول فيها:

يالَقَومي دفَنُوني ومَضَوْا — وبَنَوْا في الطينِ فَوْقِي مَابَنَوْا
ليت شعري إذْ أَرَوني ميِّتاً — وبكوني أيَّ جُزْأَيَّ بَكَوا
ماأراهم ندبوا فيَّ سِوى — «فُرْقَةَ التأليفِ» إن كانُوا دَرَوا

قال ابن بسام: «وهذا معنى فلسفي قلما عرج عليه عربي، وإنما فرغ إليه المحدثون من الشعراء حين ضاق عنهم منهج الصواب، وعدموا رونق كلام الأعراب، فاستراحوا إلى هذا الهذيان استراحة الجبان إلى تنقص أقرانه، واستجادة

---

(١) الديوان ص ١٠-١١.

(٢) الذخيرة ١/ ٢/ ٣٧٨، وكذلك تاريخ النقد ص ٥٠٤.

سيفه وسنانه، وقد قال بعض أهل النقد إنه عيب في الشعر والنثر أن يأتي الشاعر أو الكاتب بكلمة من كلام الأطباء أو بألفاظ الفلاسفة القدماء، وإني لأعجب من أبي الطيب على سعة نفسه وذكاء قبسه فإنه أطال قرع هذا الباب، والتمرس بهذه الأسباب وكذلك المعري كثر به انتزاعه، وطال إليه إيضاعه، حتى قال فيه أعداؤه وأشياعه وحسبك من شر سماعه وإلى الله مآله وعليه سؤاله.»(١).

وكان الشعر العربي في الأندلس محاطاً بضروب من أمثال تلك الرقابة النقدية التي نجدها عند ابن بسام وابن حزم، ولهذا جاء أسلوب الشعر العربي بالأندلس كما يقول العقاد «أسهل وأبسط وأقرب إلى الترخص والسلاسة، كأنه وسط بين اللغة الفصيحة ولغة المعيشه اليومية، فإن الناطق بالعربية تعود بين المتكلمين بها من الغرباء عنها أن يقيس لغته إلى لغتهم فلا يحس بالاسفاف والخطأ بالقياس إليهم، ولايزال في لهجته الشائعة أنها أفصح وأقوم من لهجاتهم وأن لهجته الشائعة على إسفافها لاتزال مطلبا رفيعا فيما يحاوله الأعاجم من حكايتها وفهمها»(٢). ثم يقول: «وقد سرت السهولة إلى أنماط البلاغة ومعانيها فأصبح العربي الأندلسي أقرب إلى التصرف وإلى مجاراة أحوال المعيشة في وطن الهجرة، ولعل المسألة هنا مسألة استطاعة لا مسألة روية ومشيئة، فإن المنقطع عن وطنه القديم لايستطيع أن يحافظ على أحواله وأطوار معيشته كما يستطيع ذلك أهلوه الذين يصبحون ويمسون بين تلك الأحوال والأطوار ولا يتكلفون جهداً ولا حركة في المحافظة عليها.»(٣).

على أن المعاني في نظر ابن بسام لاتخرج عن ثلاثة أقسام: المعاني القيمة المتداولة، والمعاني التي تتميز بأنها قليلة الدوران على ألسنة الشعراء، والمعاني الجديدة المخترعة(٤)، وقد ذهب الدكتور حسين خريوش إلى أن مايسمى بالأخذ

---

(١) هذا النص جاء به احسان عباس وأحال الى المخطوطة.

(٢، ٣) شاعر أندلسي وجائزة عالمية ص ٨٦-٨٧.

(٤) ابن بسام وكتابه الذخيرة ص ٢٤٧ .

عند الشعراء إنما هو النظر في الابداع الشعري وتطوره ونقد كثير من الشعر في نطاق هذا الابداع، وهذا التطور»(١). وهم بلا شك كانوا يدركون أن تطور الشعر في المشرق قد صاحبه نقد وتمحيص كبيران من أئمة النقد واللغة، فمطلب الجزالة في اللفظ، والفخامة في المعنى الناتجين عن التنقيح والدقة في إخراجهما قد وعاه الشاعر الأندلسي صاحب الحس النقدي كابن خفاجة مثلا الذي كان يرى أن الشعر لايمكن أن يقال ثم يسكت عنه بل لابد من أن تدركه ألسنة النقد فهو يقول: «وإن جميع الكلام من مرتجل بديهي، ومنقح حولي متقدماً كان سابقا أو تاليا لاحقا مستهدفاً لمطعن طاعن إما بوجه صحيح يعقل ويقبل، وإما لخبث سريرة، وضعف بصيرة، وخطوة في الادراك قصيرة، ولوجود هذين القسمين الأخيرين أو وجود أحدهما في أحد أهل هذا العصر بذلك المصر مابلغنا أنه لايرى لأحد من حاكة الشعر في حال من أحواله، وقول من أقواله إلا أن يتجزل: مدح أو تغزل وجد أو هزل، ويستجن في باب الغزل تلك الطريقة الأنيقة، ويستبرد تلك الألفاظ المرهفة الرقيقة، ولانعلم هل ماينعاه وليس يرضاه هو في مثل مانلم به من طريقة عبدالمحسن الصوري تشبها به كقولنا:

يابانةً تهتزُّ فَيْنَانةً ... وروضةً تنفحُ مِعْطَارا

للهِ أعطافُكِ من خُوطَةٍ ... وحبذا نورُك نُوَّارا»(٢)

ثم تلى ذلك بما قال من شعر يقتفي فيه آثار شعراء مشارقة من أمثال الرضي ومهيار، وطريقة أبي الطيب في لف الغزل بالحماسة، وكل ذلك يؤكد كما يقول إحسان عباس أن ابن خفاجة كان يضيق ذرعاً بالنقاد في مؤاخذتهم الشاعر على «كل مايقوله ويحاسبونه من خلال القول على فعله، وهؤلاء في رأيه يغفلون عن

---

(١) المصدر السابق ص ٢٤٧ .

(٢) الديوان ص ١٠-١١ .

طبيعة الشعر الذي يقصد فيه التخيل، وليس القصد فيه الصدق ولايعاب فيه الكذب»(١).

ومع أن ابن خفاجة من الشعراء المتأخرين الذين عاشوا في القرن السادس الهجري إلا أنه عاش مشكلة الشعر وأزمة الشعراء المحدثين، وعمد إلى احتذاء بعضهم ليرضي الذوق المحيط به حينذاك. ولذلك فتن بمعارضتهم وعنى «على غرارهم بمحسنات البديع وتزاويقه ثم لم يلبث أن استقل بطابعه، وأخذ يغترف من ينبوع قلبه وبيئته وزمانه فكان له أسلوبه الخفاجي الذي يتميز به عن معاصريه جميعاً. وقد أصبح في الأندلس رأس مدرسة في الشعر لها أنصارها المعجبون بها وخصومها الناعون عليها.»(٢). تقول الباحثة هدى بهنام وقد ساد في فترة من الفترات مايسمى بالنزعة «الخفاجية» وجعلت ميزانا نقديا للمفاضلة بين الشعراء، وكان يفضل شاعر على آخر قياسا على مدى إجادته وقوة عارضته في محاكاة شعر ابن خفاجة»(٣).

على أننا يجب ألا نغفل عن كون الشاعر العربي في الأندلس كان مهيئا لقبول خصائص الشعر المحدث، تلك الخصائص التي ميزته عن الشعر القديم وهي تتلخص فيما يأتي:

- التصورات الغريبة والمعاني الدقيقة، الظاهر أثرها في شعر بشار وأبي نواس، وأبي العتاهية، ومسلم وأبي تمام، والبحتري وأضرابهم.
- الخيال البديع الظاهر في التشبيهات، والمجاز، وحسن التعليل، ومراعاة النظير.
- التهويل والمبالغة.

---

(١) تاريخ النقد ص ٤٩٨.

(٢) مقدمة ديوان ابن خفاجة / د. غادي.

(٣) النقد في نفح الطيب ص ١٤٢-١٤٨.

- انتقاء الألفاظ الرشيقة الممثلة للمعنى كل التمثيل لاستعمال الروية وقلة الحاجة إلى الارتجال.

- دقة الكنايات والرموز والحكم، وارسال المثل.

- الإكثار من الحجج والبراهين الشعرية، والعقلية، وانتحاء مذاهب الفلاسفة.

- الميل إلى استعمال ألفاظ القرآن الكريم، ومحاكاة أساليبه.

- التوسع والإكثار من ألفاظ التشبيه والمجاز والتمثيل والكناية والمحسنات اللفظية كالجناس والطباق وغير ذلك .

- التوسع في إدخال ألقاب التعظيم على أسماء الخلفاء صونا لاعلامهم الشخصية من الابتذال.

- دخول كثير من الألفاظ الأعجمية بنوع من التحريف .

- التأنق في صوغ العبارات وجعلها في غاية الاحكام، والبلاغة وسهولة التراكيب والتفنن فيها، وتوخي الألفاظ الرائعة الطنانة.

- الازدواج في الكلام(١).

ولقد مر الشعر الأندلسي بمراحل مختلفة عن بعضها بعضا إختلافا يعد فنيا خالصا، ذلك لأن هذا الشعر قد عرف بدايته الأولى نماذج الشعر الجاهلي وتشبث بها لأنها تواكب مايعانيه الشاعر هناك من أحداث تتطلب شعر الحماسة والفخر، وبعض أنواع الشعر العامة. وكان هذا الشعر عربيا بدوياً فإذا تغنى فهو لايخرج عن باديته وصحراء الشعر الجاهلي ومايجري فيه كالجمل، أو المنازل التي رحلت عنها الحبيبة(٢).

---

(١) ينظر في ماسبق/ تاريخ آداب اللغة العربية في العصر العباسي/ الشيخ أحمد الاسكندري/ الطبعة الأولى/ مطبعة السعادة سنة ١٣٣٠هـ/ ١٩١٢م بتصرف من ٧-١٠.

(٢) الشعر الأندلسي/ جارثيات جومث ص ٢٨ بتصرف .

ومن خلال دراستنا للشعر الأندلسي وجدنا أنه يصعب فصل الشعر الأندلسي عن أي من العصور الأدبية في مجمله لأنه يأخذ من كل بطرف، فالأدب في الأندلس والأدب في المشرق ذوا عناصر متداخلة كما يرى جارثيا جومث، ولذلك يصعب تحليله إلى مواده الأولى، ويقال: «هذه أخذها من تراث أجداده العرب القدماء، وذلك ابتكره أو استوحى فيه طبيعة الأندلس لأن العنصرين متداخلان متشابكان تشابك اللحمة مع السدى»(١).

ويمكننا القول بأن الشعر الأندلسي إضافة إلى تلقفه النماذج الأولى من الشعر الجاهلي، فقد مر بمرحلتين رئيستين من حيث الاتجاهات الفنية:

المرحلة الأولى: مرحلة الشعر المحافظ على النمط القديم للقصيدة العربية.

المرحلة الثانية: وهي مرحلة يلتقي فيها نمط الشعر المحدث وهو شعر بشار وأبي نواس ومن تبعهم، وشعر النضج الفني، وهو ماسمي بحركة إحياء القديم التي أحياها أبو تمام والبحتري وثبتت على يد المتنبي.

فشعر المرحلة الأولى الذي حافظ على نمط القصيدة القديمة، جاء إلى الأندلس وليس في ذهن العربي سواه، وهو الشعر المتمثل لأجزاء بنية القصيدة المعروفة، ولم يعرف المعاني الجديدة التي طرأت على شعر المحدثين فيما بعد، وكان من أبرز أعلامه أبو الأجرب جعونة بن الصمة الكلابي الذي احتج ابن حزم على عدم الاستشهاد بشعره لأنه يعد في طبقة جرير والفرزدق(٢).

وقد ترددت في هذا الشعر تلك الموضوعات المعهودة كالفخر والحماسة والمديح، والهجاء، إلا أن هذا الشعر لايشكل البداية الحقيقية للشعر الأندلسي، إذ يرى بعض المحققين الذين لهم عناية بتاريخ هذا الشعر أن هذا الشعر قد عاصر

---

(١) الشعر الأندلسي/ جارثيات جومت ص ٢٨.

(٢) ينظر رسالة ابن حزم في فضائل أهل الأندلس/ نفح الطيب ٣/ ١٧٧.

تكونه الحقيقي الشعر المحدث في المشرق، ولاينكر أثر ذلك الشعر القديم الموجود بالأندلس في استقامة القصيدة العربية على سوقها، وكان شعر هذه المرحلة بسيطا يجري على «تقاليد المدرسة الكلاسيكية المحافظة»(١).

ولذلك جاء شعر أبي الأجرب بدوى السمات، ولعلنا نقف على شيء من شعره من خلال ترجمة الحميدي له في الجذوة، وابن سعيد في المغرب.

فمما ذكر عنه الحميدي أن أبا محمد بن حزم قال عنه «لم نبار به إلا جريراً والفرزدق لكونه في عصرهما، ولو أنصف لاستشهد بشعره، فهو جارٍ على مذهب العرب لا على طريق المحدثين»(٢).

وذكر ماوقع له من شعره قوله:

ولقدْ أَرَانِي مِنْ هـوايَ بِمَنْزِلٍ عَالٍ وراسِي ذو غَدَائِرَ أَفْرَعُ
والعيشُ أغيدُ ساقطٌ أفنانُه والماءُ أطيبُه لنا والمرتَعُ(٣)

وهذا الشاعر لابد أن يجري على مذهب الأوائل لأنه كما يذكر ابن سعيد «فارساً شجاعاً، يدعى عنترة الأندلس»(٤) وهو من العرب الطارئين على الأندلس كما أشار إلى ذلك الحجاري(٥).

وليس يعنينا الآن سيرة أبي الأجرب بقدر مايهم البحث معرفة ماذا يقصد بمذهب الأوائل الذي مثله أبو الأجرب.

لعل من أبرز ملامح شعر الأوائل وسماته: أنه شعر يعنى بالجزالة اللفظية وفخامة العبارة، ولايرى في معانيه كثير من تعمق الفكر، ولا يلمح في صوره

(١) أحمد هيكل ص ٦٤، الأدب الأندلسي.

(٢) الجذوة ص ١٨٩.

(٣) المصدر نفسه ص ١٩٠.

(٤) المغرب ١/ ١٣١.

(٥) بتصرف من الأدب الأندلسي/ احمد هيكل ٦٣-٦٤.

نصيب من الأخيلة الواسعة المحلقة، وإنما هو شعر يميل إلى بداوة الصحراء وخشونتها فهو شعر يعتمد في تجميع صوره غالبا من عالم البادية، وتأليف أسلوبها في الأعم من لغة تستوحي الذاكرة والتراث أكثر مما تستوحي العصر والواقع(١).

وكون هذا الشعر يظل على منهج أصيل فإنه يؤكد الرابطة القوية التي تربط هؤلاء الطارئين إلى الأندلس بأصالتهم في المشرق، يقول الأستاذ أحمد ضيف: «جاء الشعر بلاد الأندلس بصبغته الأولى البدوية، ومالبث أن أخذ صبغة جديدة باتساع الصور واختلاف المناظر، والاطلاع على كثير من العلوم والآراء... ولكن كثيراً ماكان الشعراء يرجعون في أساليبهم وأفكارهم إلى الأساليب والأفكار البدوية لأن العرب من أشد الأمم عصبية وحنينا إلى وطنهم وعيشتهم الأولى... وكانوا لايزالون يميلون إلى أخيلتهم الأولى، ولم يكن لهم أن يهجروا عاداتهم، لأن العجب والخيلاء اللذين كان لهما السلطان على عقولهم جعلاهم... يتغنون بذكر بلادهم، ويتخذون الشعر القديم نموذجاً لهم في الصناعة والخيال.»(٢).

ونذكر من الشعراء الذين ينطبق عليهم هذا الوصف أبا المخشي عاصم بن زيد ترجم له الحميدي وقال إنه «شاعر بدوي مشهور قديم»(٣)، ومما أنشد له قوله:

همامَهَّدَا لي العيشَ حتى كأنني　　خَفِيَّةُ رِفٍ بين قَادِمَتَيْ نَسْرِ(٤)

وهذا البيت تشير المصادر(٥) إلى أنه وصل إلى سمع ابن هرمة، وقد رده هذا البيت عن الأندلس وقد وصل إلى «تيهرت» حين أنشده في جملة ماأنشده من شعره فإنه يؤكد بالفعل أن الشعر الأندلسي حينذاك لم يعرف سوى مذهب الأوائل، وأن ابن هرمة وهو الشاعر الذي وقف الاحتجاج بالشعر عنده لم يغير خط سيره عن الأندلس إلا لقيمة ماسمع من الشعر، وأنه لن يكون له مكانة تذكر بجواره هناك.

---

(١) بتصرف من الأدب الأندلسي، أحمد هيكل ص ٦٣-٦٤.

(٢) بلاغة العرب في الأندلس ص ٣٥.

(٣، ٤، ٥) الجذوة ص ٤٠١.

هذا وله أبيات مما أنشده له أبوعامر ابن شهيد - كما يقول الحميدي - تدل على اصباغ شعره بالصبغة البدوية، وعراقة مذهبه يقول فيها:

وهَمٍّ ضَافَنِي في جوفِ يَمٍّ كلا مَوْجَيْهِما عندى كبيرُ
فَشُبْنا والقلوبُ معلقاتٌ وأجنحةُ الرياح بنا تطيرُ(١)

قال الحميدي: «قال ابن شهيد: فإنه شاعر قديم الحوك والصنعة عربي الدار والنشأة وإنما تردد بالأندلس طارئا وهو من فحول الشعراء المتقدمين»(٢).

ونكتفي بهذين الشاعرين بالنسبة للشعر الذي يمثل الشعر في مراحله الأولى في الأندلس، وينتقل بنا الحديث إلى شعراء المرحلة الثانية الذين ساروا على منهج الشعراء المحدثين الذين عنينا بهم في هذا البحث، لنعرف قدرتهم الإبداعية والبيانية التي عرفت لدى الشعراء المحدثين في المشرق ومدى تأثرهم ومشابهتهم لهم في صورهم وأخيلتهم.

المرحلة الثانية: مرحلة الشعر المحدث بالأندلس:

ويجتمع في هذه المرحلة حداثة الشعر التي رأيناها في المشرق بكل ماتحمله الكلمة من المعاني، وطرق جميع أبواب ومعاني الشعر التي طرقوها، وحاذوهم في الصور والأخيلة وربما تفوقوا عليهم وسنعرف ذلك من خلال نصوص الشعراء الذين يمثلون هذا الاتجاه، وهو ماأرخ به بعض(٣) الدارسين البداية الفنية لتكون الشعر الأندلسي.

وتعتبر البدايات الأولى للشعر المحدث بالأندلس على يد الشاعر يحى بن حكم الغزال الذي كان بصيرا بمناهج العرب والمحدثين، وعلى الرغم من كونه أحد

(١، ٢) الجذوة ص ٤٠١.

(٣) ينظر تاريخ الأدب الأندلسي/ عصر سيادة قرطبة/ إحسان عباس ص ٤٧.

الشعراء التقليديين لكنه في بعض أشعاره يرنوا إلى الحداثة، وقصيدته التي حاكى بها مذهب النواسي معروفة مشهورة، وهو بهذه القصيدة «يعد إنعطافا بالشعر العربي في الأندلس نحو الحداثة أو الأندلسية»(١).

على أننا لن نجعل الغزال أو نعده الممثل الحقيقي لهذا الاتجاه، لأن هناك من هو أولى به من أمثال ابن عبدربه وابن هانيء الأندلسي.

لكننا سنقف هنيهة عند قصيدة الغزال التي جارى فيها أبانواس لنعرف ماالذي أوكرها في الشعر المحدث.

ومن خلال النص سيتبين لنا خصائص وردت عند أبي نواس في شعره وهي الطريقة الحوارية الموجودة فيه، إذ جاءت القصيدة على هيئة قصة شعرية يروى لنا الشاعر فيها ترجمته الذاتية فهو يقول: (٢) «ولما رأيت الشرب، تأبطت زقي... فلما أتيت الحان...، .. ناديت ربه....، فهب خفيف الروح...، ... فقلت أذقنيها......، .. فلما أذاقني...، .. طرحت إليه ريطتي - أي ثوبي... وقلت له أعرني بذلة...، ... بذلت له فيها.»(٣) وهكذا يستمر الغزال في قصيدته حتى انتهى منها فهي طريقة أبي نواس ومنحاه الذي نعهده فيه، والقصيدة بلغتها وبديعها وجناسها يغلب عليها لغة المحدثين وطريقتهم، فقد غلبت عليها الطرافة والرقة في لفظها وسلاسة أسلوبها، أضف إلى ذلك مايسيطر عليه من روح المرح والدعابة جانحا فيها إلى التفصيل والتحليل لما يريد فعله دون أن يكد خاطره أو يكلف خياله كثير عناء.

ولعل هذا كان طابع أكثر شعراء تلك الفترة الذين ظلوا يعيشون في أكناف الشعر القديم الذي إن خرجوا عنه ففي حدود ضيقة لأن «هناك سمات خاصة

---

(١) ملامح الشعر الأندلسي، عمر الدقاق ص ٦٣.

(٢) القصيدة في المطرب ص ١٤٨، والديوان ص ٤٣.

(٣) حاولت هنا أن آخذ بعض ألفاظ القصيدة للدلالة على ماأقول، والقصيدة قد مرت بنا في الفصل الخاص بالغزل والخمر، ومطلعها:

ولما رأيت الشرب أكدت سماؤهم تأبطت زقي واحتسبت عنائي

صنعت الملامح الأولى للشعر الأندلسي»(١). ولعل شعر عبدالرحمن الداخل في مقدمة الشعر الذي يمثلها، فهو من ابرز شعراء تلك المرحلة، إذ يتسم شعره بالبساطة في أسلوبه وموسيقاه بالرغم من الحماسة والفخر الذي يغلفه، وفي ذات الوقت نجد في شعره عاطفة قوية، ولاسيما في شعر الحنين كما في قصيدته التي خاطب فيها النخلة وهي مشهورة.

أما ابن عبدربه الأندلسي، فقد اخترناه نموذجا لحركة الاتجاه المحدث الذي جدد شعراؤه في الموضوعات الشعرية تمهيداً لتقبل تجديد مسلم وأبي تمام والبحتري في المعاني الشعرية وألوان البديع بالمشرق.

ولن نقف طويلا عند تجديد المحدثين في الأغراض الشعرية لأننا قد بسطنا القول في ذلك في الصفحات السابقة من هذا البحث، ونود أن نؤكد أن هذه الأغراض الجديدة تتمثل في الخمريات والمجون، والزهديات، والغزل الشاذ وبواكير شعر الطبيعة، والاخوانيات.

وأما مايتعلق بابن عبدربه فهو أحد الشعراء المجددين، وقد تأثر بالمحدثين في ناحية الجوانب الفنية التي عليها مدار حديثنا.

ابن عبدربه شاعر وناقد في ذات الوقت، وقد عمد إلى معارضة بعض الشعراء المحدثين تحديا وإتيانا للبراعة، وليس محاكاة ولا تقليداً، وإن جاء شعره كما يقول إحسان عباس(٢) مبنيا على أمثال سابقة، فهو يؤكد مقدرته بذلك فكان «يختار بيتا من المحفوظ ويجعله أساس بضعة أبيات من نظمه»(٣) وقصيدته التي نظمها على غرار بيت لعدي بن زيد العبادي دليل على ذلك، يقول ابن عبدربه:

---

(١) الأدب الأندلسي، هيكل ص ٨٢.

(٢) تاريخ الأدب الأندلسي، عصر سيادة قرطبة ص ٢٠٠.

(٣) نفسه ص ٢٠٠.

زادنـــي لومـك إضــــراراً إن لي فـــيك أنصــــارا
طار قلبي من هوى رشــــأٍ لو دنا للقلـب مـــاطارا
خــذ بكفي لا أمت غــرقــاً إن بحــر الحـب قــد فــارا
أنضجت نار الهوى كبدي ودموعي تطفـــيء النار(١)

وجاء ببيت عدي :

« رب نار بت أرمقها تقضم الهندي والغارا

وكان ابن عبدربه يحرص على التجديد في المعاني ليواكب الحركة التجديدية في المشرق، فهو يقول عن نفسه «وقد وصفنا الحرب بتشبيه عجيب لم يتقدم إليه ومعنى بديع لا نظير له، وذلك قولنا :

وجيش كجنح اليم تنفحه الصبا يعـــب عبابا مـن قنا وقنـــابل
فـتنزل أولاه وليـس بنـــازل وترحل أخـراه وليس براحل(٢)

وهذا المعنى قد أثبت براعة ابن عبدربه لأن فيه «شيئاً من الابتكار والتوجيه فإن وصفه للحروب حين يجيء في نغمة قوية منحدرة خير من تطلبه المعنى والاحتفال به . »(٣) .

ويبدو أن ابن عبدربه كان يأخذ نفسه بثقافة واسعة، ومعرفة جيدة بالشعر القديم والمحدث، وهذه الثقافة هي ماسماه بعض النقاد الإطار الشعري، يقول الدكتور مصطفى هدارة إنه «إذا لم يكن للشاعر إطار شعري واسع لايمكن أن يحقق شيئا اسمه الابداع، فيجب على الشاعر أن يتزود بمعارف الأقدمين، ويستفيد من

---

(١) العقد ٥/ ٤٤٧ .

(٢) العقد ٣/ ٤٣، الديوان .

(٣) تاريخ الأدب الاندلسي/ عصر سيادة قرطبة ص ١٩٩ .

تجاربهم الشخصية والفنية، وفي ذلك اقتصار للمجهود الإنساني المتواصل، وتعميق للرؤيا الفنية عند الشاعر . . . وإن عملية الإبداع الفني ليست في الواقع عملية مفاجئة بالنسبة للشاعر، بل لابد أن يكون مستعدا لها نفسيا وذهنيا بطريقة شعورية أو لاشعورية، وإن المادة التي يجري الإلهام بها في قصائده هي نتاج قراءاته القديمة وتأملاته، والصور التي يتضمنها نتاجه الفني لابد أن تكون مخزونة في ذاكرته . »(١).

وهذا هو شأن شعراء العربية في الأندلس لم يكن محاكاتهم للمشارقة لروح التقليد، وإنما كان هناك مخزون ثقافي واسع تحمله أفئدتهم وعقولهم ولاعجب إن وجد شاعر كابن عبدربه تتضح في شعره روح أبي نواس، وصنعة أبي تمام وحكمة المتنبي، فهذا يحتمه ذلك الإطار الشعري الواسع، وابن عبدربه كما يرى الدكتور عمر الطيب العباسي، في تتبعه الشعر المشرقي فإنه وجد في هذا الشعر «الأنموذج الأعلى . . فلا غرو أن نجده قد تتبع آثار الشعراء المشارقة وقلدهم في موضوعاتهم الشعرية، وصورهم الفنية وكان المثال الأعلى عنده هو الشعر الجاهلي على وجه التحديد، فزهير وعدي ومن حذا حذوهم مثل جرير، هم الأنموذج الأمثل عنده»(٢)، ويفهم ذلك من قول ابن عبدربه :

هنا تفنى قوافي الشعر في هذا الرويّ
قواف ألبست حليا من الحسن البدي
تعالت عن جرير، بل زهير بل عدي(٣)

وكذلك نظرته للشعر في نجد والحجاز والعراق في قوله :

منظومة هذبت ألفاظها ليست من الشعر الحجازي

---

(١) السرقات الشعرية ص ٢٥١-٢٥٤ مؤقتا .

(٢) ابن عبدربه الأندلسي، رسالة دكتوراه ، جامعة أم القرى، ١٤٠٨-١٤٠٩هـ، ص ٢٤٠ .

(٣) ديوان ابن عبدربه ص ١٠١ .

لكنهـا في الصـوغ نجـدية　　صـاحبُـهـا ليس بنجـديٍّ
كـوفـيــةَ الابداع بِصـرية　　لغَيْـرِ كـوفيٍّ وبصـريٍّ (١)

وهذا الأمر لايستغرب من شاعر كابن عبدربه ملأ كتابه «العقد» بأشعار هؤلاء القدماء و«احتفى بشعر هؤلاء النفر من العراق، والذين يمثلون المدرسة الحديثة في الشعر آنئذ، أمثال أبي نواس، ومسلم، وأبي تمام، ومن قبله بشار وغيرهم» ولم يكن احتفاؤه بأشعار هؤلاء لمجرد الاستشهاد بها على كلامه وثقافته «بل ذهب إلى أكثر من ذلك في معارضتهم بشعره واجترار معانيهم الشعرية وصورهم الفنية»(٢).

ولقد تغلب ثقافة ابن عبدربه على دقائق شعره يقول الدكتور إحسان عباس «إن من تدبر تأثير ثقافته وجد روحها متغلغلة في شعره متداخلة في كيانه»(٣) ولذلك استطاع أن يستخدم بعض المعاني التي نظم فيها السابقون دون أن يظهر عليه أثر لمعارضة تلتزم الروي والقافية كما هو السائد المعروف في المعارضة وكان يأتي بأبيات لشاعر، ثم ينظم مايشاء في نفس المعنى مفتخراً بذلك، كوصفه للقلم، فقد أورد في «عقده» نماذج لبعض الشعراء في وصف القلم، منهم أبوتمام في قوله:

لك القلمُ الأَعْلَى الذي بِشَبَاتِه　　يصابُ من الأمرِ الكُلى والمَفَاصِلُ

والبحتري في قوله:

وإذا تألَّقَ في النَّدى كـلامُـه الـمـصـقـولُ خلتَ لسـانَه من عَـضَـبِـه
وإذا دَجَـتْ أقلامُه ثـم انْحَنَتْ　　بَرَقَتْ مصابيحُ الدُّجَى في كُتِبِه

ولأحمد بن أبي طاهر قوله:

قلمُ الكتابةِ في يمينِكَ آمنٌ　　مما يعودُ عليه فِيمَا يَكْتُبُ

---

(١) الديوان ص ١٧٦-١٧٨ ليست في الديوان الذي أخرجه ابن تاويت.

(٢) شعر ابن عبدربه الأندلسي، عمر الطيب، رسالة دكتوراه، جامعة أم القرى، ص٢٤١.

(٣) تاريخ الأدب الأندلسي، عصر سيادة قرطبة ص ٢٠٠.

ثم قال «ومن قولنا» وأورد لنفسه قوله :

بِكَفِّهِ ساحِرُ البيانِ إذا أدَارَه في صحيفةٍ سَحَرا(١)

وهو هنا على الرغم من إيراده نماذج متعدده، فقد تأثر بأبي تمام في وصفه للقلم، وهذا النوع يدخل في إطار المعارضة، بل هي معارضة «لاتلتزم روى القصيدة التي يعارضها، وإنما هو ينظر فيها إلى معاني قصيدة سابقة، ثم ينشيء قصيدة تتضمن هذه المعاني مع شيء من التغيير والتقليب والعكس والإسهاب»(٢).

ولعل ابن عبدربه هنا يتمثل نظرية ابن شهيد السالفة الذكر التي توصي من أراد معنى سبق إليه أن يتنحى عن العروض الذي سبق إليه ذلك الشاعر، وابن عبدربه هنا كما يقول أحمد هيكل في رده على أحمد أمين «لم يكن يسير في ركاب المشارقة، وإنما كان يعارضهم ويهدف إلى التفوق عليهم وكان مدفوعا إلى ذلك بثقافته الأدبية الواسعة وطبعه الفني الأصيل وروحه الأندلسي الطموح المتفق مع الاتجاه العام لعصره، حيث كان الأندلسيون يحاولون دائما تأكيد ذواتهم الأندلسية وإثبات عدم تخلفهم عن المشارقة فهو لم يكن يأخذ معاني المشارقة، وإنما كان يحاول أن يثبت قدرته على الاتيان بمثلها أو بأحسن منها، وهو لم يكن يتخذ لنفسه إماما من شعراء المشرق في كل فن، وإنما كان يعارض هؤلاء الأئمة ليثبت أنه مثلهم أو أقدر منهم، وهو لم يجانب التحرر ويترك الإصغاء إلى قلبه، وإنما تحرر فلم يلتزم مذهبا معينا.»(٣).

وابن عبدربه ليس شاعرا مبتدئا حتى يقف عند تلك النماذج، فهو شاعر له مكانته عند أهل بلده وعند من عرف قدره من سواهم كما عرفنا ذلك من إعجاب

(١) ينظر فيما تقدم العقد ٤/ ١٩٢-١٩٣.

(٢) تاريخ الأدب الأندلسي، عصر سيادة قرطبة ص ٢٠٣.

(٣) الأدب الأندلسي، هيكل ص ٢٢٩.

المتنبي بشعره، ويدل على عظم مكانته ماقاله عنه ابن شرف: «وأما ابن عبدربه القرطبي، وإن بعدت عنا دياره فقد صاقبتنا أشعاره، ووقفنا على أشعار صبوته الأنيقة ومكفرات توبته الصدوقة ومدائحه المروانية، ومطاعنه في العباسية، وهو في كل ذلك فارس ممارس وطاعن مداعس، وأطلعنا في شعره على علم واسع، ومادة فهم مضيء ناصع، ومن تلك الجواهر نظم عقده، وتركه لمن تجمل بعده»(١)، وقد جعل ابن شرف ابن عبدربه من «الطبقة المتأخرة في الزمان المتقدمة في الاحسان كأبي فراس بن حمدان والمتنبي بن عبدان، وابن جدار المصري، وابن الأحنف الحنفي، وكشاجم الفارسي، والصنوبري الحلبي، ونصر الخبزرزي، وابن عبدربه القرطبي وابن هانيء الأندلسي، وعلى بن العباس التونسي الايادي، والقسطلي»(٢).

وقبل أن نغادر ابن عبدربه نود أن نقف عند قصيدته في وصف القلم وموازنتها بقصيدة أبي تمام لنقف على براعة أبي تمام، كنموذج للشاعر الأندلسي في مجاراة المشارقة، والافادة من معانيهم وأوصافهم بمنتهى الحذق والفطنة، فأبوتمام يقول:

لك القلمُ الأعلى الذي بِشَبَاتِه ... يصابُ من الأمر الكُلى والمفاصلُ

لُعابُ الأفاعي القاتلاتِ لُعَابُه ... وأَرْيُ الجَنَى اشْتارتْه أَيْدٍ عواسلُ

له ريقةٌ طلٌّ ولكنَّ وقعَها ... بآثاره في الشَّرق والغَرْب وابلُ

فصيحٌ إذا اسْتنطقتَه وهو راكبٌ ... وأعجمُ إن خاطبتَه وهو راجلُ

إذا ما امْتطَى الخمسَ اللطافَ وأفرغت ... عليه شعابُ الفكرِ وهي حوافلُ

أطاعتْهُ أطرافُ القنَا وتقوَّضَتْ ... لِنَجْواه تقويضَ الخيامِ الجحافلُ

---

(١) الذخيرة ٤/ ٢١٠.

(٢) ينظر الذخيرة ٤/ ١٩٨.

إذا اسْتَغْزَرَ الذهنَ الجليَّ وأقبلتْ أعاليه في القِرْطاسِ وهي أسافلُ
وقد رَفَدَتْه الخِنْصران وسدَّدت ثلاثَ نواحيه الثلاثُ الأناملُ
رأيتَ جليلاً شأنُه وهو مُرْهَفٌ ضَنىً وسميناً خَطْبُه وهو ناحلُ(١)

فقلم ابن الزيات هذا له نمط يختلف عن سائر الأقلام، فقد جعلت هذه الأوصاف الحسد يتسرب إلى نفوس بعض الناس، يقول ابن عبدربه «ولما قال حبيب هذا الشعر حسده الخثعمي، فقال لابن الزيات:

ما خطبةُ القلمِ التي أُنْبِيتَها وَرَدتْ عليك لشاعرٍ مَجْدُودِ

ثم تتابع الشعراء على وصف ذلك القلم الذي يحمله الممدوح، ولم يوصف هذا القلم مجرداً من يد صاحبه، فابن عبدربه ابتدأ شعره بقوله «بكفه ساحر البيان» واستمر يصف حركة القلم تسيرها هذه الكف فقال:

بكفِّهِ ساحرُ البيانِ إذا أَدَارَه في صحيفةٍ سَحَرَا
يَنْطِقُ في عُجْمَةٍ بلفظَتِهِ نُصَمُّ عنها وتُسمِعُ البَصَرَا
نوادرٌ يقرعُ القلوبَ بها إن تَسْتَبِنْها وجدتَها صُوَرَا
نظامُ درِّ الكلام ضَمَّنَه سلكاً لِخَطِّ الكتابِ مُسْتَطِرَا
إذا امتطى الخِنْصَرين أَذْكَرَ مِنْ سحبانَ فيما أطال واخْتَصَرَا
يخاطبُ الغائبَ البعيدَ بما يخاطبُ الشاهدَ الذي حَضَرَا
ترى المقاديرَ تَسْتَدِفُّ له وتُنْفِذُ الحادثاتُ ماأمرَا
شَخْتٌ ضَئِيلٌ لفعله خَطَرٌ أَعْظِمْ به في ملمَّةٍ خَطَرَا
تمجُّ فكَّاه ريقةً صَغُرت وخطبها في القلوب قد كَبُرَا

---

(١) العقد ٤/ ١٩٢.

تواقع النفسَ منه مــــاحــــذِرَتْ | وربما جُنِّبَتْ بــــــــهِ الحــــذَرا
مُــهَــفْــهَفٌ تَزْدَهِي به صُــحفٌ | كــأنما حُلِّيــــت بــــــــه دُرَرا
كــــأنما تَرتَعُ العـــيـــونُ بهـــا | خِـــلالَ روضٍ مُكلَّلٍ زهــــــرا
إن قُــرِّبت مُــرِّطَــتْ طوابعُــهــا | مـــافُضَّ طينٌ لهـــا ولا كُــسِــرا
يكـــــاد عُنْوانُهــــا لروعتِـــــه | يُنَبِيك عن سِرِّها الذي استترا(١)

وعندما نلاحظ هذه الأبيات لابن عبدربه نجدها معارضة جزئيه لأكثر من شاعر، وإن وافق هؤلاء الشعراء في المعنى العام، ولقد اتضح عليه أثر أبي تمام أكثر من غيره مما يؤكد عظم مكانة الشاعرين، وبالدرجة الأولى إحساس الشاعر الأندلسي بمن يقلد، ومن يختار لشاعريته، فهو يعلم أن أباتمام مدرسة في الوصف، وله اليد الطولى في القدرة على التصوير، واستخدام رموز شعره من الجو المحيط به، وكلا الشاعرين أبي تمام وابن عبدربه ممن اشتهر بالثقافة الواسعة، وابن عبدربه قد أغرم في شعره بالأوصاف والتشبيه يقول الدكتور سامي مكي العاني «وكان شاعرنا مغرما بالتشبيه، أتى به في معظم أشعار وصفه ويكفي أن نذكر أن صاحب كتاب «التشبيهات من أشعار أهل الأندلس» أثبت له أربعين نصا في كتابه أكثرها في باب الوصف»(٢).

وهنا في هذه الأبيات نلاحظ توارد المعاني التي أخذها ببراعة واضحة من أبي تمام، فقوله:

ينطقُ في عجمةٍ بلفظَتِهِ | نُصَمُّ عنها وتَسمعُ البصرا

هو من قول أبي تمام:

فصيحٌ إذا استَنْطَقْتَهُ وهو رَاكِبٌ | وأَعْجَمُ إن خاطَبْتَه وهو رَاجِلُ

---

(١) العقد ٤/١٩٣-١٩٤.

(٢) دراسات في الأدب الأندلسي ص ٢٨٩.

وقوله :

شَخْتُ ضئيلٌ لفعله خَطَرُ ... أَعظِمْ به في مُلمَّةٍ خطَرا

قريب من قول أبي تمام :

وقـد رفـدتْهُ الخِنْصَـران وسَـدَّدت ... ثــلاثَ نواحيـه الثـلاثُ الأناملُ

رأيت جليـلاً شـأنُه وهو مُـرْهفٌ ... ضَنىً وسـمـيناً خَطْبُـه وهو نَـاحِلُ

وقوله

تَمُجُّ فكاه ريقةً صَغُرَتْ ... وخَطْبُها في القُلُوبِ قد كَبُرَا

لايبعد عن قول حبيب :

له ريقةٌ طَلٌّ ولكنَّ وَقْعَهَا ... بآثاره في الشَّرق والغَرب وابلُ

وقوله :

إذا امتطى الخِنْصَرينِ أَذْكَرَ مِن ... سَحْبَان فيما أطال واختصرَا

يذكر بقول أبي تمام :

إذا ما امتطى الخمسَ اللِّطافَ وأُفْرِغَتْ ... عليه شعابُ الفِكْرِ وهي حَوَافِلُ

وكذلك يذكر بقوله :

وقد رفدتْهُ الخِنْصَران وسدَّدَت ... ثلاثَ نواحيه الثلاثُ الأناملُ

وهكذا استطاع ابن عبدربه أن يلم بمعاني أبي تمام في براعة وحذق تدل على قدرته على تقليب المعاني وتوظيفها في أشعاره تحديا، واعجابا بما يأتي، حتى أعجب المتقدمون «من النقاد والمتذوقين . . وبخاصة قدرته على النظم ومحاولته الاهتداء إلى المعاني الجديدة»(١) .

---

(١) تاريخ الأدب ، عصر سيادة احسان عباس ص ٢٠٤ .

وأما صوره في هذه الأبيات فهي تنبيء عن نفسها، وأول مايلفت الانتباه هو تصويره للقلم في صورة إنسان جليل القدر عظيم الخطب، ساحر البيان، مضمن نظام در الكلام.

وقوله: «إذا امتطى الخنصرين» فهذا عجيب من تشبيهات ابن عبدربه العجيبة صور القلم بفارس، والخنصرين بالمركب الذي يمتطيه الفارس، لينطلق لما أهل من أجله.

ومن تشبيهاته الجميلة: قوله «تمج فكاه» فهي صورة إفراز القلم للمداد، شبهها بما تمجه النحله من الشهد، وهي من الصور الحسية التي كثيرا مايلجأ اليها الشعراء، ولقد استطاع ابن عبدربه أن يذلل هذه المعاني حتى يقربها للمتلقي في ألفاظ شيقة حلوة، وموسيقى هادئة تنم عن دقة في التصوير، وقدرة فائقة في استغلال معاني السابقين وإعادة نسجها في نظام جديد يتسق مع حياة عصره وذوقه.

وهكذا يبدو لنا ابن عبده محافظا ومجددا، يحب القديم ويتمسك به في هيكل قصيدته ويجنح إلى الحديث في صوره وأخيلته، وبعض معانيه، وإن أي شاعر مهما كانت براعته لايملك سوى النظر حوله والاستفادة ممن سبقه يقول «ت. س. إليوت»: «إن أي شاعر أو أي فنان لايمكن أن يدعي معنى لنفسه إذ لابد من وجود صلة قوية بين معانيه، ومعاني الشعراء الأقدمين، ولعل من أهم عناصر الجمال الأدبي مقارنة فن المحدثين من الشعراء بأسلافهم، ولابد للحكم على الشعر الحديث من تقدير مستواه بالنسبة لمستويات الأقدمين وعلى الشاعر ألا ينقل من القديم دون أن يسبغ شخصيته على ماينقله وإلا كان مقلدا سخيفا، كما أن عليه ألا يقلد شاعرا بعينه، فهذا عمل يزيد تجربة الناشيء فحسب، ولكن عليه أن يكون محيطا بمجرى التيار الرئيسي للفن، ثم عليه بعد ذلك أن يؤمن بهذه الحقيقة وهي أن الفن لايتغير ولكن مادة الفن هي التي لايمكن أن تبقى كما هي»(١).

---

(١) السرقات، هدارة ص ٢٥٦.

وهكذا كان ابن عبدربه قد جهد نفسه في قراءة المنبع الصافي للشعر العربي في المشرق، واستشهد به وضمنه شعره وجاراه لدرجة المنافسة، واثبات الوجود، ولذلك اتسم شعره بالمحافظة والجدة، يقول الدكتور عمر الدقاق: «ولعل هذه الظاهرة تعكس واقع الحياة الأدبية في الأندلس، هذه الحياة التي كان يتجاذبها تياران قل أن كتبت الغلبة لأحدهما بصورة مطلقة، تيار المحافظة الذي كان يجذب عرب الأندلس إلى أرومتهم وتراثهم في المشرق، وتيار المعاصرة الذي كان يشدهم إلى الأرض التي آثروا العيش فوقها في وطنهم الجديد، الأندلس.»(١).

(١) ملامح الشعر الأندلسي ص ٧٨.

الغوص على المعاني والصنعة البديعية بين المحدثين والأندلسيين

من السمات الفنية البارزة لشعر المحدثين الغوص على المعاني، حتى وسم هؤلاء المحدثون بشعراء المعاني، فهم لايستشهد بشعرهم إلا فيها، فهذا ابن جني يستشهد بقول المتنبي:

فلو قَدِرَ السِّنَانُ على لسانٍ لقالَ لَكَ السّنانُ كما أقولُ

وقوله:

لو تعقلُ الشجرُ التي قابلتَها مدَّت مُحَيِّيَةً إليك الأغْصُنا

قال ابن جني «ولاتستنكر ذكر هذا الرجل - وإن كان مولداً - في أثناء مانحن عليه من هذا الموضع وغموضه، ولطف متسربه، فإن المعاني يتنابها المولدون كما يتنابها المتقدمون، وقد كان أبوالعباس - وهو الكثير التعقب لجلة الناس - احتج بشعر حبيب بن أوس الطائي في كتابه في الإشتقاق لما كان غرضه في معناه دون لفظه فأنشد فيه له:

لو رأينا التوكيدَ خُطَّةَ عَجْزٍ ماشَفَعْنَا الأَذَانَ بالتَثْوِيبِ» (١)

ولقد تأثر الشعراء الأندلسيون بمعاني هؤلاء المحدثين، وشاركوهم في عناصر الشعر الأساسية التي لابد للشعر من أن يتسم بها، وينال القبول لدى المتلقين، وهذه العناصر تبرز إلى جوار المعاني في خيال الشاعر، وعاطفته، ثم مايلي ذلك من الصور الفنية التي أبرز عناصرها التشبيه والاستعارة، ويعتبر ان وسائل ذات بال في أداء المعاني، والتعبير عن الأحاسيس والمشاعر، وبها يتميز الشعر من غيره من فنون القول.

---

(١) الخصائص ١/ ٢٤.

ومن أهم ماعرف عن المحدثين، الغوص على المعاني حتى جرهم ذلك إلى الغموض في أشعارهم ولاسيما أبو تمام فقد أتى على المحال في شعره.

ولسنا بصدد عرض ملامح شعر المحدثين لذاتها، وإنما لمعرفة أثرها في الشعراء الأندلسيين، لأن هؤلاء الشعراء بدورهم حاولوا التجديد في أشعارهم، والبعد عما ألفه السابقون من وسائل وطرق في معالجة تجاربهم.

هذا وقد تشبث الأندلسيون بشعر المحدثين واتجاهاتهم منذ ظهرت بوادره ونمت في المشرق على يد بشار وأبي نواس، ثم استوى على سوقه على يد أبي تمام والمتنبي.

وبما أن هذا الاتجاه قد ظهر أثره على الأندلسيين في أغراض الشعر كما رأينا من قبل، فإنه أثر أيضاً بأسلوبه وصوره وأخيلته، وقد جمع الشعر الأندلسي كثيراً من عناصر الوحدة في القصيدة كالوزن والصياغة والأغراض، ونفس(١) الشاعر وظل شاعرنا العربي بالأندلس ينافس أخاه المشرقي، ويقف معه جنباً إلى جنب في سبيل تحقيق ذاته.

وكان بعض الشعراء الأندلسيين يسعى في شعره - جرياً على عادة المحدثين- في طلب الصورة، وتوليد المعاني المخترعة، مما يصل إلى درجة الغرابة. وقد أصرّ الشاعر الأندلسي من أجل ذلك على تحلية شعره بالمحسنات البديعية، حتى كثرت في أشعارهم وجاوزت شعر المحدثين كثرةً.

وقد ألجأهم الغوص على المعاني إلى استخدام المقطعات بدلاً من القصائد الطوال لكونها تيسر عليهم القدرة على الغوص، وجلب الصور المبتكرة، إلا أن ذلك التصرف ليس مطرداً، فالشاعر المجيد استطاع أن يسعى سعياً حثيثاً وراء المعنى بقصائد طويلة، كما نجد في شعر ابن دراج وابن هانيء وابن خفاجة.

---

(١) المرشد إلى فهم أشعار العرب ص ١٩.

ومما يؤكد ماذهبنا إليه هنا، هو مانلمسه من حرص النقاد في الأندلس على وصف شعرائهم بأوصاف تدل على عظم مكانتهم وحداثة أدبهم وأصالته في الوقت ذاته، وحرصهم على تميز شعرائهم بإزاء الشعراء المحدثين، فنجد في كتب الموسوعات الأدبية بالأندلس من أمثال الذخيرة والنفح وأزهار الرياض وغيرها كثيراً من ألفاظ: الاعجاز، والسبق والابداع والبديهة والارتجال، والطبع، وحسن التأتي ونحو ذلك من صفات ومميزات تميز بها الشاعر المحدث.

وكل ذلك يبين لنا أن الشاعر الأندلسي قد ضرب بسهم وافر في الإبداع الفني ذلك الإبداع الذي كان قد اتكأ في بدايته على شعر المحدثين، ونحن نعرف أن للذوق المحدث أثراً كبيراً على مذاهب الشعر في الأندلس، ولذلك نجد الشاعر يحرص على الصورة والإكثار من التشبيهات، وفي ذلك يقول إحسان عباس إن «من أبرز العناصر التي التفت إليها الناقد المتذوق عنصر التشبيه، وحسبنا أن نجد كتابين في أوائل القرن الخامس يكتبان في التشبيهات، أحدهما: كتاب أبي الحسن علي بن محمد بن أبي الحسين الكاتب، والثاني: ابن الكتاني الطبيب وكلاهما مقصور على تشبيهات الأندلسيين وحدها دون سواها.»(١).

قلنا إن المحدثين اهتموا كثيرا بالغوص على المعاني وتبعهم الأندلسيون، فأبوتمام رائد الشعراء المحدثين ومن تبعهم من الأندلسيين كان يعمد إلى ذلك ويطلب الغرابة في شعره، وكان الأندلسيون يدركون ذلك تماماً، وما الحوار الذي جرى بين ابن شهيد وبين تابعه أبي تمام إلا دليل على ذلك فقد وجده يسكن في قعر بئر، ثم يسأله ماالذي أسكنه(٢) قعر هذه البئر، كناية عن طريقة أبي تمام في ذلك الغوص وراء المعنى، وقد اطردت متابعة أبي تمام واحتذاء طريقته في الأندلس حتى إن بعض الشعراء تجاوز أباتمام في الغوص وراء المعنى، أمثال ابن هانيء، وابن حصن الاشبيلي وغيرهما.

---

(١) تاريخ النقد، إحسان عباس ص ٤٧٤.

(٢) ينظر رسالة التوابع والزوابع ص ٩٨.

وقد عرفنا طريقة ابن هانيء وموقف النقاد منه في بداية هذا البحث، أما ابن حصن الاشبيلي، فعندما نقرأ له قوله متأثراً بأبي تمام:

فقلت صلي قد ضِقْتُ ذرعاً بهجركم فقالت صهٍ قد ضقتُ ذرعاً بدُمْلُجي(١)

يتأكد ماذهبنا إليه، إذ يقول ابن بسام معلقاً على بيت ابن حصن «وهذا المعنى مشهور، وهو في شعرهم كثير، إلا أنه غوّره وأبعده وأوعر لفظه وعقده، والذي إليه أشار وعليه أدار قول أبي تمام:

يعيرُني أَنْ ضقتُ ذَرعاً بِبَينِهِ ويجزعُ أَنْ ضاقت عليه خَلاخِلُه.»(٢)

وكذلك وقف ابن بسام عند قوله:

جزيلُ التقى يمشي الهُوينا تواضعاً ويهتزُّ إعظاماً له كلُّ خُنْبُجِ

فقال - ابن بسام - : «وهذا المعنى مما ركب فيه ابن حصن رأسه، وحكم هواه، والمعنى مشهور في مَنْ وصف بالنسك، ومدح بالانسلاخ عن أبهة الملك، ومن ذلك ماقال أبو تمام:

يقولُ فيُسمعُ ويمشي فيُسرِعُ وَيضْرِبُ في ذات الإلهِ فيُوجِعُ.»(٣)

والشعر الأندلسي حقيقةً «غني مليء بالصور الشعرية الجميلة المبتكرة سواء كانت بيانية كالتشبيه، والاستعارة، والمجاز المرسل، أو بديعية كالجناس والاقتباس وهما من المحسنات اللفظية، والطباع والمقابلة، والترديد والغلو والمبالغة وهي من المحسنات المعنوية»(٤).

ونحن لن نستقصى كل هذه المحسنات والأبواب البلاغية، وإنما سنكتفي بإيراد نماذج على بعضها وأكثرها بروزاً في الشعر الأندلسي.

(١، ٢، ٣) الذخيرة ق ٢/ ص ١٧٠ - ١٧١.

(٤) مقدمة ديوان ابن الحداد، د. يوسف علي طويل ص ٤٠.

ففي باب التشبيه نجد كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس يزخر بأنواع التشبيه، فقد عقد باباً للتشبيهات في السماء والنجوم والقمرين سنأخذ نماذج منه لندلل على مشاركة الأندلسيين للمحدثين في استخدام ألوان البيان .

يقول الشاعر عبادة بن ماء السماء الأنصاري :

كأنَّ السماءَ قبةٌ من زُمُرُّدٍ وفيها الدراري من عقيقٍ مسامرِ(١)

وقال سعيد بن عمرو في الهلال :

والبدرُ في جوِّ السماءِ قد انطوى طرفاه حتى عادَ مثل الزَوْرَقِ
فتراه من تحتِ المُحاقِ كأنما غَرِقَ الجميعُ وبعضُه لم يغرقِ(٢)

وقال يوسف بن هارون :

آنسني فيكَ النجومُ برعْيِها فَدُرِّيُها خِلّي وبَدْرُ الدُّجى إِلْفِي
كأنَّ سماءَ الأرضِ نطعُ زُمردٍ وقد فُرِشَتْ فيه الدنانيرُ للصّرْفِ(٣)

وقال ابن دراج :

وقد حَوَّمَتْ زُهرُ النُّجُومِ كأنها كَواعِبُ في خُضْرِ الحدَائِقِ حورُ
ودارتْ نجومُ القطبِ حتى كأنها كؤوسُ مهاً وافى بهن مديرُ
وقد خُيِّلَتْ زهرُ المجَرّةِ أنها على مَفرِقِ الليلِ البهيمِ قَتيرُ(٤)

وفي باب الغزل يقول يحيى بن حكم الغزال :

فارعةُ الجسمِ هضيمِ الحشا كالمُهْرَةِ الضامِرَةِ لم تُرْكَبِ
أو دُرَّةٍ ساعةَ استُخْرِجَتْ لم تُمْتَهَن بعدُ ولم تُثْقَبِ
مشربةُ اللون متوعَ الضُّحى صفراءُ بالاصالِ كالمُذْهَبِ(٥)

(١، ٢، ٣، ٤) التشبيهات من أشعار أهل الأندلس ١/ ٢٧، ٣١، ٣٢.

(٥) نفسه ٢/ ١١٩، ١٢١.

وقال ابن عبدربه:

أبيتُ تحت سماءِ اللهــوِ مُعْتَنِقاً شَمسَ الظهيرةِ في ثوبٍ من الغَسَقِ
بيضاءُ يحمرّ خداها إذا خَجِلَــتْ كما جرى ذَهَبٌ في صَفْحتَى وَرِق(١)

ويلتقي بعض شعراء الأندلس مع بعض المحدثين في كثير من التشبيهات، أورد ابن ظافر من أحسن ماقيل في «التين» تشبيهاً للشاعر العباسي كشاجم يقول فيه:

يشـــبـــهُ في اللونِ وطيبِ الأَرْجِ نوافــجَ المسكِ وطَعْمَ الثَّلْجِ
مـــثلَ رؤوسِ الغُلْفِ ســـودِ الدُّعْجِ أو كـــثـــدايا ناهداتِ الزَّنْجِ

وأخذه ابن خفاجة الأندلسي وحسنه فقال:

وســودُ الوجـوه كلونِ الـصـدودِ تبـــســمْنَ تحتَ عــبـوسِ الغَــبَشْ
إذا مـــاتجلى بيـــاضُ الضُّـــحى تطلعْنَ في وجْـــهِـــهِ كـــالنَّمَشْ
كـــأني أُقطِّـــفُ منهـــا ضُـــحًى ثُدِيَّ صــغــارِ بناتِ الحــبَشْ(٢)

ومن أروع التشبيهات قول أبي بكر الخالدي في وصف البدر عند تستره بالغيم:

والبـــدرُ مُنتــقبٌ بغـــيمٍ أبيـضٍ هو فـــيـــه بين تَخَـــفُّـــرٍ وتَبَـــرُّجِ
كـــتنفُّسِ الحـــسناءِ في المرآةِ قـــد نَظَرَتْ مـــحـــاسنَهـــا ولم تَتَـــزَوَّجِ

وأخذه ابن برد الأندلسي فقال:

والبدرُ كالمرآةِ غَيَّرَ صَقْلَه عَبَثُ العذارى فيه بالأَنْفَاسِ(٣)

---

(١) نفسه ٢/١١٩، ١٢١.

(٢، ٣) تشبيهات ابن ظافر ص ١١٧، ص ٢٢

ولأبي الربيع سليمان بن أحمد القضاعي قوله :

كأنَّ ابتسامَ الصُّبحِ في نَواجِذِ زِنْجِيٍّ غَدا يَتَبَسَّمُ

قال ابن بسام : وكأنه يشير إلى قول ابن المعتز :

حتى تَبدّى تحتَ ليلٍ مُظْلمٍ كأنه غُـــــرةُ طرفٍ أَدْهَمِ

أو ثغرزنجيٍّ لدى التبسمِ(١)

ولابن خفاجة :

كأنني بعدَكم شمالٌ قد فارقَتْ مِنْكُم يمينا

هو أيضاً من قول ابن المعتز

أُقِــيمُ وترحــلُ ذا لا يكـــونُ لئن صَحّ هذا ستُـدْمى عــيــونُ

وإني وإياك مــثلُ اليـــدينِ ولكنِ الفـــضلُ أنتَ اليـــمينُ

ولكن ابن خفاجة كما يقول ابن بسام «محا بشره، وأبطل سحره»(٢) .

وقال ابن عطيون التجيبي :

وقد أكل المحاقُ البدرَ حتى تحيَّفَ نورَه إلا قُلامه

وهو تشبيه يقرب من قول ابن المعتز - كما يقول ابن بسام - :

ولاحَ ضوءَ هلال كادَ يفضَحُه مثلَ القُلامةِ قد قُدَّت من الظُفرِ(٣)

وهكذا حرص الأندلسيون على حسن التشبيه حتى أنهم انتقلوا بمقدمات مدائحهم من غزل وطلل ونحو ذلك إلى وصف الطبيعة لما في ذلك من حسن

(١ ، ٢) الذخيرة ق ٣ ص ٥١٢ ، وكذلك ق ٣ ص ٧٧٩ .

(٣) الذخيرة ق ٣ ص ٧٧٩ .

التشبيه . وكان الشاعر الأندلسي إذا تأثر بمعنى من المعاني وأخذه فإنه يحسنه ويزيد عليه كما رأينا ذلك من ابن خفاجة ، وغيره من شعراء الأندلس .

والشواهد في هذا الباب كثيرة إذ اقترن شعر الأندلسيين بشعر المحدثين ، وقد تولى ابن ظافر استخراج تلك التشبيهات من أشعار المشارقة والأندلسيين ، ووقف إبداع الأندلسيين في ذلك بما لايدع مجالاً للشك ، فإن الأندلسيين كانوا شديدي الاعجاب بتلك الأشعار المشرقية التي كثر فيها أمثال تلك التشبيهات كما أنهم أعجبوا بالقصائد المشرقية «التي تتضمن بعض المحسنات البديعية كالطباق مثلاً ، ودفعهم ذلك الإعجاب إلى نعت الشعر الجيد بأوصاف عامة متعددة كالسحر ، والأناقة ، والجمال . . . والطواعية لسرعة خاطر الشاعر وتأتيه المعاني العفوية ، والنباهة لما احتواه من الأوصاف الكثيرة التشبيه . »(١) .

وفي باب الاستعارة ، فقد اكتنز الشعر الأندلسي شيئاً غير قليل من الاستعارات الجميلة ، إذ ساعدتهم بيئتهم الجميلة بمادتها الخصبة فجاءت استعاراتهم على نمط متميز في الشعر العربي ، فنجد شاعرا ماهرا كابن حصن يقول مخاطباً المعتضد :

فدونك عذراءَ المعاني ابتدعتُها تساعدُني عفواً ولم تَتَعَذَّرِ
إذا ما الرواةُ استشهدتْها تبرقَعَتْ لها أوجهٌ من حشمةٍ وتَغيُّرِ(٢)

وفيما يرى من هذه الأبيات فإن ابن حصن قد استعار لفظ العذراء وأضافه إلى المعاني ، لكونها مبتكرة مبتدعة ، وجعلها تتولى الإنشاد في البيت الثاني ، وقد جاءت في معرض السخرية من ابن زيدون فقد وصف المستمع لها الحاسد بالمرأة الخجلة إذا لبست البرقع ، ويؤكد سخريته هذه البيت الثالث الذي يقول فيه :

---

(١) النقد الأدبي في نفح الطيب ، هدى شوكت بهنام ص ٢١٤-٢١٥ .

(٢) مقدمة ديوان ابن زيدون ص ٥٣ .

وينكلُ عنها شاعرُ المصرِ كلّه ... ألا فاضحَكَنْ من شاعرِ المصرِ وافخَرِ(١)

وفي كل هذه الأبيات المملوءة بالسخرية، جعل الشاعر معاني شعره بمثابة الفتيات فأمرهن بالتضاحك من ابن زيدون لأنه هو شاعر المصر حينذاك.

ومن نماذج الاستعارة المكنية قول ابن الحداد في وصف نهر:

إذا صافحتْهُ الريحُ تصقُلُ متنه ... وتصنعُ فيه صنعَ داودَ في السَّرْدِ

فهو «يستعير المصافحة من الإنسان إلى الريح فيشبه الريح وهي تلاعب صفحة ماء النهر بإنسان يضع درع الكميّ الشبيه بدرع النبي داود عليه السلام، والاستعارة مكنية لأنه حذف لفظ المشبه به، وهو الإنسان، وذكر لفظ المشبه وهو الريح، وبذلك تكون المصافحة في اللفظ المستعار، والريح مستعاراً له، والإنسان مستعاراً منه»(٢).

أما بقية المحسنات البديعية فقد برع الأندلسيون فيها وأجادوا أيما إجادة، فابن خفاجة الأندلسي كان من الشعراء المكثرين من الصور البيانية، من تشبيه واستعارة وكناية وألوان بديعية مولعاً بذلك حتى جاء شعره يختال في مطارف التشبيه والمجاز وربما جره الامعان في هذا إلى غموض المعنى واستغلاق الفكرة، وكان يجنح إلى المبالغة في أكثر صوره الشعرية(٣) ولنتأمل قوله يصف خاتماً سماوي الفص:

ومُرَقْرَقِ الإفرنْدِ أَبْرَقَ بهجةً ... وذَكَا فأطلع بالظَّلام ضِياءَ

كُسفِتْ به للشَّمسِ في الحُسْنِ ابنةٌ ... تَسْتَوْقِفُ الرَّائي لَهَا حرباءَ

وتخَتَّمَتْ من فِصّه بِغَمَامَةٍ ... كفٌّ تكونُ على السماحِ سَمَاءَ

---

(١) السابق ص ٥٣.

(٢) مقدمة ديوان ابن الحداد ص ٤١.

(٣) ينظر قصة الأدب في الأندلس، محمد عبدالمنعم خفاجي ج/ ٢/ ٢٢٧ ومابعدها.

قد صِيْغَ صِيغَةَ فِتْنَةٍ أَصْبَى لَهَا نَفْسَ الحَلِيمِ وضَاجَعَ العَذْرَاءَ
ما إن ترِفُّ لها بَنفسجَةٌ به حتى تَرِقَّ لها فَتَجْرِيَ ماءَ
فكأنما نَظَرَتْ به يومَ النَّوَى عن مُقْلةٍ بُهِتَتْ به كحْلَاءَ(١)

وقد شارك ابن خفاجة المحدثين في أصعب القوافي في لزوم مالايلزم، فقال:

أما وشبابٌ قد ترامَتْ به النَّوى فأَرْسلَتْ في أَعْقَابِه نَظرةَ عَبْرَى
لقد رَكِبَتْ ظهر السُّرَى بي نومةٌ فأصبحتُ في أرضٍ وقد بِتُّ في أُخْرى(٢)

وهكذا نجده يلتزم الراء مع الألف المقصورة إلى نهاية القصيدة، وهو مذهب ساد في المشرق على يد أبي العلاء المعري حتى إنه أقام ديواناً بأكمله في لزوم مالايلزم.

وابن خفاجة هذا كان مفتوناً - كما يقول الدكتور سيد غازي - بأشعار المحدثين في المشرق وبشعراء القرن الرابع خاصة، فأخذ يقلدهم حيناً، ويعارضهم حيناً آخر، ويعنى على غرارهم بمحسنات البديع وتزاويقه ثم لم يلبث أن استقل بطابعه المتميز، وأخذ يغترف من ينبوع قلبه وبيئته وزمانه، فكان له أسلوبه الخفاجي الذي يتميز به عن معاصريه جميعاً، وقد غدا في الأندلس رأس مدرسة في الشعر لها أنصارها المعجبون بها وخصومها الناعون عليها»(٣)، وذكر ذلك المقري في نفح الطيب فقال: «وقد سادت النزعة الخفاجية وجعلت ميزاناً نقدياً للمفاضلة بين الشعراء، وكان يفضل شاعر على آخر قياسا على مدى إجادته، وقوة عارضته في محاكاة شعر ابن خفاجة»(٤).

---

(١) الديوان ص ١٤٩.

(٢) الديوان ص ١٤٨.

(٣) مقدمة المحقق ص ١ .

(٤) ينظر نفح الطيب ٦/ ٧٥، ٧/ ٣٠٤.

أما أنواع البديع الأخرى كالجناس والطباق والمقابلة، فهي في الشعر الأندلسي أكثر من أن تحصى، فهذا حازم القرطاجني الشاعر الناقد يمتليء ديوانه بتلك المحسنات البديعية ولاسيما في المقصورة مما أدى به إلى «الاتيان بصور متكلفة ممجوجة كقوله:

وعَزَّني وَجْدِي بخُودٍ غَرَّني عطفٌ لها لاَنَ بقلبٍ قد قَسَا»(١)

وقوله:

يشوقُ فؤادي مايشقُّ عليه مِـــنْ شذا روضةٍ من مَجْرِسِ الحُلى غَنَّاءُ(٢)

وقوله:

ومتى تَزُرْ عفـراءَ أرضٍ تَبْكِـــــها كبكـــاءِ عروة عُذْرةٍ عَفْرَاءَها(٣)

فهذا نوع من التكلف اتبعه حازم حتى جاء بعض شعره ثقيلاً معقداً، على هذا النحو، إلا أننا ربما نعذر حازماً أن جاء شعره كذلك فهو عالم ناقد أكثر منه شاعراً وإن كان وقع في بعض ماذهب إليه بعض النقاد من أن الشاعر قد يعاب أشد العيب إذا قصد بالصنعة سائر شعره، وبالإبداع جميع فنونه، فإن مجاهدة الطبع ومغالبة القريحة مخرجة سهل التأليف إلى سوء التكلف وشدة التعمل كما عيب صالح بن عبدالقدوس وغيره ممن سلك هذا السبيل حتى سقط شعره، لأن لكل شيء حداً إذا تجاوزه المتجاوز سار مفرطاً، فكيف إذا تتبع الشاعر مالا طائل تحته من لفظة مستغثة لمتقدم أو معنى وحشي جعله إماماً، واستكثر من أسبابه ووشح شعره بنظائره، وإن هذا لعين الخطأ وغاية في سوء الاختيار(٤).

---

(١) حازم القرطاجني، حياته وشعره، كيلاني حسن سند ص ٢١٩.

(٢) الديوان ص ٢.

(٣) الديوان ص ٦.

(٤) ينظر الموازنة ١/ ١٨.

ونقف مع شاعر آخر أولع بالبديع، وبالصورة في شعره هو ابن صارة الشنتريني فقد عُني الدكتور حسن الوراكلي بدراسة شعره، وعندما تحدث عن خصائصه الفنية قال: «لعل أول مايلفت نظر الباحث، وهو بصدد رصد خصائص شعر ابن صارة الفنية كلفه بالصورة الطريفة وشغفه بالمعنى المبتكر يسعى وراءهما سعياً فيه إلحاح المكلفين بالإبداع، ويتعقبهما تعقباً فيه إصرار المشغوفين بالإطراف، وهو لكي يظفر بذلك تراه يعنى في أشعاره على اختلاف أغراضها بالصقل البياني والتحلية البديْعة. أما الصقل البياني فقد اعتمد فيه الشاعر الأساليب المألوفة والمعهودة لدى شعراء العربية من قبله، ونعني بها التشبيه والإستعارة وما إليهما من كناية ومجاز ونحوهما، وبهذه الأساليب جميعها مجتمعةً حيناً ومفترقة آخر، كانت تستوي في شعر ابن صارة صور فيها طرافة، وفيها امتاع كقوله يصف الطبيعة غبّ نزول المطر في صورة تجيش بالحركة:

في غبّ سارية ترقرق أدمعا ... يحكي الجمان صغارها وكبارها

ماشئت من نهر كصدر عقيلة ... شفت أناملها على صدارها

أو جدول كالنصل في يد ثائر ... أمهى صفيحته وهز غرارها

مابين أشجار تميد كأنها ... شراب جريال يدير عقارها»(١)

وهذه الأبيات إضافة إلى طرافتها وجمالها وماتحويه من صور بديعة، فإنها تحوي ايقاعاً وجرساً جميلاً، تغذيه الصور والتشبيهات التي اشتملت عليها الأبيات، وهذه الموسيقى الداخلية الموجودة في النص تدل على ما للشاعر من قدرة فائقة في استغلال طرائق المحدثين في أشعارهم، وتتجلى هذه الموسيقى الداخلية

---

(١) ينظر قلائد العقيان ص ٢٧٦ نقلاً عن ابن صارة الشنتريني، حياته وشعره، للدكتور حسن الوراكلي، ط ١/ ١٤٠٥هـ ص ١٥٧-١٥٨.

في مثل قوله: «في غب سارية» «ترقرق أدمعاً»، وقوله «ماشئت من نهر، كصدر عقيلة» وهي في الحقيقة موسيقى هادئة لاتصل لدرجة ايقاع بعض الشعر المحدث كما في شعر مسلم بن الوليد أو غيره من المحدثين.

ومما يحسب لابن صارة في جمال موسيقاه تركيزه على حروف الصفير كالسين، والصاد، كل ذلك يدل على تكون لغته الخاصة من تلقاء نفسه.

أما التشبيه فهو كما يقول الدكتور الوراكلي فإنه يبدو فيه «بادي التكلف ظاهر التصنع»(١).

أنشد له صاحب رايات المبرزين، وهو «من فرائد ماأنشد له صاحب الذخيرة وصاحب القلائد قوله»(٢) يصف شجر النارنج:

أرى شجر النارنج أبدى لنا جنى كقطر دموع ضرحتها اللواعج
كرات عقيق في غصون زبرجد بكف نسيم الريح منها صوالج
نقلبها طورا، وطورا نشمها فهن خدود بيننا ونوافج(٣)

وأوضح من ذلك على تكلفه للتشبيه ماأشار إليه الدكتور الوراكلي وهو قوله يصف الباذنجان:

ومستحسن عند الطعام مدحرج غذاه نمير الماء في كل بستان
أطافت به أقماعه فكأنه قلوب نعاج في مخاليب عقبان(٤)

وليس ابن صارة بدعاً في التشبت بالبديع وأنواع الصنعة، فإن أغلب شعراء الأندلس قد نهجوا نهج المشارقة في ذلك وجاروا المحدثين في أدق خصائص

---

(١) ابن صارة، د. الوراكلي ص ١٥٨.

(٢) رايات المبرزين ص ٦٤.

(٣) نفسه ص ٦٤.

(٤) نفسه ص ٦٥.

الشعر، وهذا الشيء نلمسه كثيراً في شعر الأندلسيين وتؤكده تتبعات ابن بسام للشعراء وتبيينه مواضع التأثر بينهم، وتركيزه على أنواع البديع، يقول أحد الباحثين «إن اهتمام ابن بسام بالبديع وبالصنعة البديعية من دعائم منهجه التطبيقي في كتابه.»(١). ويرجع السبب في ذلك كما يقول هذا الباحث إلى أن ابن بسام «كان يحاول أن يظهر المحاسن لأهل الأندلس مما هو مخترع مبتدع من أنواع المعاني والخيال في الشعر والنثر، ولقد ألزمه هذا المنهج التطبيقي بأن يلتفت إلى الموازنة والمقارنة بين أشعار المشارقة والأندلسيين»(٢).

وعلى وجه العموم فقد كثر في أشعار أهل الأندلس البديع بأنواعه من جناس وطباق، ومقابلة واقتباس من القرآن الكريم وتضمين لأبيات الشعراء الآخرين من مشارقة وغيرهم.

ففي المقابلة يقول عبدالجبار بن حمديس:

لهم رياضُ حتوفٍ فالذبابُ بها   يشدوهمُ في الهوادِي كلما اقتحمُوا
بيضٌ يضعْنَ المنايا السودَ صارِخةً   وهي الذكورُ التي افْتُضَّت بها القِمَمُ(٣)

يقول ابن دحية إن هذا من مليح أخذه المستحسن، وقد أخذ من قول أبي نصر عبدالعزيز بن نباته السعدي:

ومن العجائبِ أن بيضَ سيوفِهِ   تلدُ المنايا السودَ وهي ذُكورُ(٤)

قال ابن دحية «إلا أن ابن حمديس زاد عليه بعدما ساواه في المقابلة بذكر البيض والسود، وذكر الذكورية مع ذكر الوضع الذي ذكره في موضع تلد بقوله: صارخة إذ من شأن المولود أن يستهل صارخاً عند الوضع، وكذلك الواضعة تصرخ أيضاً حالة الطلق»(٥). ويبدو أن ابن حمديس هذا كان متشبعاً بمعاني المحدثين

---

(١) ابن بسام وكتابه الذخيرة، حسين خربوش ص ٢٤٠.

(٢) المصدر السابق ص ٢٤٠.

(٣، ٤، ٥) المطرب ص ٥٦.

عالماً بها حتى المتأخرين منهم، فقد أشار ابن حمديس في قوله:

حمامة أيك مالك فوق غصنها غناء له عند المعري أقوال(١)

إلى قول المعرى:

أبكت تلكم الحمامة أم غنت على فرع غصنها المياد(٢)

ويشير ابن دحية إلى أن هناك ظاهرة انتشرت لدى المحدثين، وأخذها منهم الأندلسيون تسمى «الالتقاط» وهو مايسمى بالتلفيق والترتيب وهو أن ينشر الشاعر المعاني المتقاربة ويستخرج منها مولداً يكون كالمخترع له، وبنظرته إلى جميع تلك المعاني فيقوم وحده مقام جماعة من الشعراء وهو مما يدل على حذق الشاعر، وفطنته، ومن أحذق من فعل ذلك المتنبي والمعري، ومثل ابن دحية بقول لابن رشيق - وإن كان ليس أندلسياً لكن النظرة كانت لشعراء الأندلس والمغرب واحدة من أمثال ابن حمديس وابن رشيق - ، وهو قوله:

فالجيش ينفض حوليه أسنته نفض العقاب جناحيها من البلل»(٣)

يقول ابن دحية «وهذا البيت من غرر قلائده، وهو مع ذلك ملتقط من قول المتنبي:

يهز الجيش حولك جانبيه كما نفضت جناحيها العقاب

ومن قول أبي صخر الهذلي:

وإني لتعروني لذكراك هزة كما انتفض العصفور بلله القطر.»(٤)

---

(١) الديوان ص ١٥٧ .

(٢) ديوان سقط الزند، تصحيح إبراهيم الزين، دار الفكر، بيروت ١٩٦٥م ص ٧.

(٣) المطرب ص ٥٩ .

(٤) نفسه ص ٥٨ .

ومن الظواهر البارزة في شعر المحدثين الجناس وهو كثير في الشعر العربي وفي الشعر الأندلسي :

يقول ابن زمرك الغرناطي :

سَلِ الأُفْقَ بالزَّهْرِ الكواكِبِ حاليا فإنِّيَ قد أودَعْتُه شرحَ حَاليا(١)

وهذا جناس تام، ومن الناقص قوله :

إن الحجازَ مغَانِيه بأندلسٍ ألفاظُها طابقَتْ منها مغَانِيها(٢)

وكذلك استغلال المثل السائر كقول ابن عمار الأندلسي :

فلولا امتناعُ الفتاةِ الكعابِ لما كَمُلَتْ لذةُ النَاكِحِ(٣)

قال ابن بسام هذا كقول كشاجم :

لولا اطِّرادُ الصيدِ لم تكُ لذةٌ فتطارُدِي لي بالوصالِ قَليلا(٤)

قال ابن بسام : «وكلها مأخوذة من المثل «تمنعي أشهى لك»(٥) .

وفي باب الحشو يقول ابن اللبانه :

وعمرت بالإحسانِ أَفْنَ ميورقة وبنيتَ فيها مابنى الاسكندرا
فكأنها بغدادُ أنت رشيدُها ووزيرُها - وله السلامةُ - جعفَرا

قال ابن دحية «قوله «وله السلامة» في باب الحشو أملح وأوضح من قول المتنبي لكافور :

(١ ، ٢) أزهار الرياض ٢/ ٦٥ ، ٢٢ ، وكذلك ابن زمرك الغرناطي لنعيم الحمصي ص١٩٤ .

(٣ ، ٤) الذخيرة ق٢/ ٣٨٧ .

(٥) المصدر السابق ص ٣٨٧، الأمثال ، للميداني ١/ ٧٤ .

وتحتقرُ الدنيا احتقارَ مُجَرِّبٍ ترى كلَّ مافيها - وحاشاك - فَانِيا»(١)

وللمشارقة طريقة في الأخذ بمعاني القرآن الكريم، وقد أخذها منهم الأندلسيون فهذا ابن دراج القسطلي أحد الشعراء الحذاق في القرن الرابع يقول مادحاً «أبا الأصبغ عيسى بن سعيد القطاع:

وإنيّ في أفياءِ ظِلِّك أشتكي شكيةَ موسى إذ تولّى إلى الظِّلِّ (٢)

قال ابن بسام «وهذا البيت من لفظ القرآن العزيز، وقد أقدمت على مثل هذا جماعة من الشعراء من محدثين وقدماء، فمن غالٍ متسور، ومن آخذ متعذر، قال أبو العلاء المعري:

كنت موسى وافَتْهُ بنتُ شُعَيب غيرَ أَنْ ليس فيكُما من فَقِيرِ

وأخذه بعض أهل عصرنا، وهو حسان بن المصيصي، فقال للمعتمد بن عباد:

كبنتِ شُعَيبٍ إذ زُفَّت لموسى ولكنْ للثراءِ هُنــا مَزِيدُ

ثم قال ابن بسام: ومن آخر من ركب هذا الأسلوب في مكابرة الحقائق وأضلّ من ذهب هذا المذهب الغريب من الاجتراء على الخلق والمخالقة، «المنفتل» بقوله:

وقد كان موسى خائفاً مُتَرقِّبا فقيراً وآمنتَ المخافةَ والفقرا

وكذلك ابن صارة الشنتريني كان ممن أفاد من هذه الطريقة فقال:

لها قسمةٌ بين الرواةِ وبينَكــم فمن قِسْمةٍ ضيزي ومن قسمةٍ عَدْلِ
بأفواهِهِم منها جنى النَّحْلِ كلّما رَوَوْها وفي أستاهِكُم إبَرُ النَّحْلِ»(٣)

---

(١) المطرب ص ١٧٨.

(٢، ٣) ينظر فيما سبق الذخيرة ق ١/ ٧٨-٧٩.

وهكذا يتأكد لنا ماذهبنا إليه سابقاً بأن الذوق الأندلسي كان آخذاً بالبديع وتوليد المعاني، ومحاولة الشاعر الأندلسي إبراز براعته بجوار الشاعر المحدث، وكذلك يؤكد ماذهب إليه بعض(١) الدارسين من أن الأدب الأندلسي هو فرع من أصل، فإذا استمد هذا الفرع فإنما يستمد من أصوله المشرقية، والفرع لايطول إلا بأصله كما قال الشاعر :

ولم أَرَ فرعاً طالَ إلا بأَصْلِهِ ... ولم أر بَدْءَ العلم إلا تَعَلُّما(٢)

وكما يقول أبوهلال العسكري : «ليس لأحد من أصناف القائلين غنى عن تناول المعاني ممن تقدمهم، والصب على قوالب من سبقهم»(٣).

ويقول مصطفى ناصف «فالشعراء يستمدون من الفن أكثر مما يستمدون من الطبيعة والمجتمع»(٤).

وإذاً «ليس بدعاً أن يخضع الشعر الأندلسي في بعض مظاهره للمؤثرات المشرقية خضوعاً تاماً، فقد ساعد على ذلك عوامل كثيرة، لعلّ أهمها أن الأساس الأول للثقافة والأدب في المشرق والمغرب هو القرآن وعلوم الدين ولغة الأدب»(٥) وكما قال أحمد أمين بأن «الأدب العربي نهر جار، والأندلس رافد من روافده لانهر مستقل مواز له»(٦) وهذا أعدل كلام قرأناه لأحمد أمين في قضية تأثر الأدب العربي في الأندلس بالأدب المشرقي. والحقيقة أن الشاعر الأندلسي كان حاضراً

---

(١) ينظر : اتجاهات الشعر الأندلسي إلى نهاية القرن الثالث الهجري، د. نافع محمود ص١٠٥.

(٢) العقد ٢/ ٤٢٣.

(٣) الصناعتين ص ٨٤.

(٤) نظرية المعنى ص ١٠٥ .

(٥) اتجاهات الشعر الأندلسي في القرن الثالث الهجري ص ١٠١ .

(٦) ظهر الاسلام ٣/ ٢٣٠ .

في عيون النقاد المنصفين، فحازم القرطاجني على الرغم من ولعه بشعراء المشرق فقد تظفر منه في ثنايا كتابه بآراء ممتازه تنصف الشاعر الأندلسي وتضعه في مكانه اللائق بين الشعراء فهو يقول: «وللشعراء مذاهب فيما يعتمدون في اتباعه في الجهات التي يعتمدون فيها على القول في الأنحاء المستحسنة في الكلام في الأوصاف والتشبيهات، والحكم والتواريخ، فقل مايشذ من مستحسن الكلام عن هذه الأنحاء الأربعة شيء... فمنهم من تشتد عنايته بالأوصاف كالبحتري، وبالتشبيه كابن المعتز، وبالأمثال كالمتنبي، وبالتواريخ كابن دراج، ومن يتوفر قسطه في جميع ذلك كأبي تمام، وإن كان غيره أشف منه في التشبيه، والحكم، ولابن الرومي الاحاطة بالأوصاف والتشبيهات المجال المتسع، وابن دراج أيضاً في الأوصاف والتشبيهات متسع المجال»(١).

ويؤرخ حازم لمكانة هؤلاء الشعراء ولا يغفل أقطاب الشعراء في الأندلس، وهذا يؤكد أن الشعراء في الأندلس ليسوا سوى شعراء محدثين استوطنوا الأندلس، فتجد شاعراً كالأمير الطليق يعيش بروحه وشعره بين المحدثين، يقول جارثيا جومث: «إنه ينتمي جمالياً دون شك إلى المدرسة المحافظة المجددة، والموازنة بينه وبين الخليفة العباسي، وتقليده الواضح للبحتري، فهو يجد في خمرياته، وأشعاره النورية أساساً ينهض عليه»(٢).

ومن الدارسين المنصفين من نظر لمكانة الشاعر الأندلسي وساواه بأخيه المشرقي الدكتور نبيل أبوحلتم، فعندما تحدث عن شعراء القرن الرابع قال: «إن عمالقة الشعر وفطاحل النظم في هذا القرن يكادون يلتزمون في أشعارهم النهج التقليدي القديم فهناك على سبيل المثال: المتنبي وأبوفراس الحمداني وابن نباته

---

(١) المنهاج ص ٢٢٠.

(٢) مع شعراء الأندلس والمتنبي ص ٦٤ .

السعدي والسري الرفاء، وابن دراج القسطلي، وابن شهيد الأندلسي، وابن هانيء الأندلسي، وابن عبدربه الأندلسي، والشريف الرضي، وأبواسحق الصابي، وأبوالعباس النامي، وأبوالفرج الببغاء، والوأواء الدمشقي، ويوسف الكندي الأندلسي..»(١).

فذلكم هو الشعر الأندلسي المحدث استطاع أن يجد لنفسه موقعاً بين تراثه المشرقي، وحسب البحث أنه استطاع أن يبين هذه المكانة من خلال تلك التأثيرات الواسعة النطاق، ونحمد الله أن من علينا بلم شتات ما استطعنا إليه سبيلا إنه وليّ الحمد والمنة.

---

(١) اتجاهات الشعر في القرن الرابع ص ٩٧ للمؤلف المذكور.

الخاتمة

الخاتمة

وبعد أن طاف البحث هذا التطواف الواسع في مصادر الأدب العربي بصفة عامة، والمصادر الأندلسية على وجه الخصوص، لابد أن يقف بالقاريء عند أهم وأبرز ماتوصل إليه من نتائج.

ونحب أن نؤكد مسبقاً أن هذا البحث هو مشروع لدراسة تأصيلية لشعرنا العربي في الأندلس، وكونه يعالج أثر المحدثين العباسيين في هذا الشعر، فمعنى ذلك أنه سيلم بزبدة الشعر العربي، فالشعر العباسي يمثل قمة النضج والاستواء في الشعر العربي مهما قيل فيه من آراء واتجاهات.

وقد رأينا من خلال دراسة هذا الشعر بين القديم والمحدث في مدخل هذه الرسالة أن شعر المحدثين العباسيين قد مرّ بمراحل متعددة من حيث القدم والحداثة ونظرة النقاد إليه، وقد صنف شعراؤه إلى قديم ومحدث أو مولد، وتبين للبحث أن النقاد واللغويين من منطلق حرصهم على الحفاظ على اللغة العربية وبقائها سليمة من الشوائب، قد ركزوا على القديم وأولوه جلّ عنايتهم، يحدوهم في ذلك حسن النية والحرص على الشاهد المنتقى من روح الشعر العربي القديم، إلا أنّهم اشتد بهم التعصب على المحدثين مما أدى إلى غمطهم والتقليل من شأن أشعارهم، وصارت كما يقول ابن رشيق لجاجة.

وعلى ضوء ذلك قسموا الشعراء إلى طبقات، قديم ومحدث، يتخلل ذلك تقسيم داخلي في تصنيف الشعراء، وقد أدى بهم ذلك إلى إيقاف الاحتجاج بالشعر عند منتصف القرن الثاني الهجري عند الشاعر ابراهيم بن هرمة.

ومن هنا اتضح للبحث أن تلك الخصومة قد قامت حول ثلاثة من الشعراء هم أبونواس، وأبوتمام، والمتنبي.

فأبونواس لم تقم حوله خصومة إلا بعد الإنشقاق الكبير الذي قام بسبب أبي تمام عندما خرج على عمود الشعر العربي الذي حدده النقاد. وأما المتنبي فهو كما قال ابن رشيق أنه ملأ الدنيا وشغل الناس، وكان قد تتلمذ في بداية أمره على شعر أبي تمام حتى استوت له الملكة الشعرية التي صدر عنها، فإذا به يأتي بنغمات جديدة فيها من القوة والقدرة على التصوير والإيحاء مايجعله شاعراً أصيلاً، ولم يكن يعبأ بأي من الاتجاهات والآراء النقدية التي كانت توجه إليه.

ثم انطلق البحث لدراسة علاقة الأندلس بالمشرق في فصله الأول، فجاء المبحث الأول منه لدراسة العلاقات بين الأندلس والمشرق وأكد أن هذه العلاقات قد قويت بفضل هذا الدين الإسلامي الذي جاء ليؤلف بين الناس ويجمعهم على دستور واحد، وقد تبين لنا من خلال هذا المبحث أن تاريخ دخول الإسلام إلى بلاد الأندلس كان مبكراً، وأنه كما تروي المصادر كان في زمن عثمان رضي الله عنه سنة ٢٧هـ، ثم تتابعت الفتوحات والوفود الإسلامية عليها حتى أصبحت الأندلس جزءاً من بلاد المسلمين دام فيها الإسلام نحواً من ثمانية قرون.

وفي المبحث الثاني من هذا الفصل درس البحث الروافد الثقافية التي مكنت للعلوم المشرقية في الأندلس، وأكد هذا المبحث شغف الأندلسيين بعلوم المشارقة ومؤلفاتهم، وحرصهم على اقتناء دواوينهم الشعرية، لما يرون في ذلك من الضرورة العلمية، وأن المشرق كنز أصالتهم وعلومهم، وكان من أبرز هذه الروافد استعداد أهل الأندلس لقبول الثقافة الإسلامية القادمة من المشرق، والرحلات المتبادلة بين المشرق والأندلس، حيث يلتقي فيها طلاب العلم بالأندلس بالعلماء المشارقة يأخذون عنهم ويروونه في بلادهم.

وظهر لنا أن من بين هؤلاء الراحلين إلى الأندلس شعراء ورواه ولغويين كان لهم بصر بمعاني الشعر واتجاهاته، من أمثال أبي علي القالي الذي رسخ أصول

الشعر القديم هناك، وزرياب المغني الذي نقل جزءاً لا بأس به من شعر المحدثين، وكذلك صاعد البغدادي الذي سمي بسفير الثقافة المشرقية بالأندلس.

ومن أبرز ماتأكد للبحث هنا قوة شغف الأندلسيين بشعر المحدثين في المشرق بعد أن روي عندهم شعر أهم الشعراء المحدثين أمثال أبي نواس، ومسلم وأبي تمام، يدل على ذلك قصة رحلة الشاعر عباس بن ناصح الجزيري بعد أن سمع ببزوغ نجم أبي نواس بالمشرق، وكذلك قصة عثمان بن المثنى النحوي، والتقائه بأبي تمام في بحر القلزم، وروايةشعره عنه.

وتبين للبحث من خلال الفصل شدة عناية أهل الأندلس بالكتب حتى كانوا يتجملون بها كما يتجمل الناس اليوم باقتناء السجاجيد، والخزف، والطرف الأثرية، ومما ذكر من ذلك أن الإمبراطور البيزنطي وجد أن خير هدية يمكن أن يهديها لعبدالرحمن الناصر هي كتاب يوناني أحسن تجليده وزخرفته وتجميله.

أما بعد ذلك فتأتي فصول أربعة كلها في صميم التأثيرات التي نحن بصددها، فالفصل المقدم منها هو دراسة أثر شعر المحدثين في الشعر الأندلسي في غرض المديح، وقد درس البحث قصيدة المدح في الشعر العربي وتطورها بصفة عامة، ثم انتقل إلى تتبع التأثيرات، واتضح للبحث أن منهج قصيدة المدح لم تتغير في الأندلس لا من حيث دوافعه أو الشكل العام للقصيدة، وقد لاحظ البحث أن أغلب هذه التأثيرات هي تأثيرات جزئية في المعارضات، وأخذ بعض المعاني من المحدثين.

وقد أعقب هذا الفصل فصلان في غرضي الغزل وشعر الطبيعة، ففي غرض الغزل رأينا أن الطريقة التي اتبعها الشعراء العباسيون من حيث نوعية الغزل وطريقة تناوله هي نفسها التي جرت في الأندلس، . . . وأن الغزل منه ماجاء في

مقدمات قصائد المديح، ومنه ماهو غزل مقصود لذاته، وهذا النوع منه العفيف الذي يصل إلى درجة الغزل العذري، ومنه الغزل الحسي الذي يتجاوز ذلك إلى وصف مفاتن المرأة كما رأينا في شعر بشار بن برد، ومن قبله عمر بن أبي ربيعة . . . وتبين للبحث كذلك أن طريقة أبي نواس في الغزل بالمذكر، وافتتاح القصائد بوصف الخمر قد ظهرت في الأندلس بشكل ملحوظ.

أما وصف الطبيعة فهو الغرض الذي برز فيه الأندلسيون وظهرت فيه لغة التحدي والمنافشة لاسيما وأن طبيعتهم الجميلة قد جعلت الشعراء يتعشقونها، فأمدتهم بصور وأخيلة لم تكن معروفة في المشرق، وقد لحظ البحث مظهر ذلكم التحدي والمنافسة فيما يتعلق بالمناظرات والمجادلات الشعرية التي كانت تعقد بين الورود والأزهار التي افتتحها ابن الرومي في المشرق، ومن ثم انتقلت إلى الأندلس، وتنافس الشعراء فيها، وقد اتضح للبحث اجماع شعراء الطبيعة على الرد على ابن الرومي في شعره الذي هجا فيه الورد، وفضل النرجس عليه، وناقضوه كما ناقضه من قبل جماعة من البغداديين، ومما يؤكد ولع الأندلسيين بالورود والأزاهر تأليف أبي الوليد الحميري كتابه «البديع في وصف الربيع» الذي عقد فيه فصلاً لتلك المناظرات الشعرية وركز فيها على الردود على شعر ابن الرومي.

أما الفصل الأخير الخاص بالخصائص الفنية، فقد جاء خاتمةً للحديث في الأغراض الشعرية، ونحن نؤكد مسبقاً أن الخصائص الفنية هي قسمة مشتركة بين الشعراء يتفاوتون فيها حسب قدراتهم الإبداعية. ومن ثم تبين للبحث أن الشاعر العربي في الأندلس لم يكن يقل شأناً عن الشاعر العباسي في المشرق لا في ابداعه الشعري، ولا في إلمامه بمراحل الشعر العربي، ولذلك جاء تأثرهم بالمحدثين تأثراً انتقائياً تبرز فيه براعتهم وليس تأثراً عشوائياً كما كان يعتقده بعض الدارسين، أو تقليداً محضاً.

وهنا حقيقة يجب أن يؤكدها البحث أنه مهما حصل من تأثر بالنسبة للشعر الأندلسي، فهو شيء حتمي لأن طبيعة الشعر العربي تدعو إلى أن يكون هناك قدرٌ مشترك بين المبدعين لايستطيع الشاعر أن ينفصل فيه عن غيره، وأن الدارس أو المؤرخ لهذا الشعر عندما يروم الفرق بين الوقائع العامة أو يتلمسها بين الأفراد فإنه سيصتدم بشخصيات متعددة من خلال الشخصية الواحدة، ولذلك سيضطر إلى دراسة هذه الشخصيات لتبرز مكانة الشخصية المقصودة.

ويتضحُ من خلال هذه الدراسة الفنية أن الشاعر الأندلسي كان يقول الشعر وهو على وعي تام بقيمة الأدب العربي منذ جاهليه حتى عباسيه، وكان بعضهم كابن شهيد يدعو إلى التوسط الذي يجمع بين محاسن المحدثين وروح العرب على طريقة أبي الطيب المتنبي وكان يرى عدم تعدد موضوعات القصيدة الواحدة، ولذلك أنكر على شعراء بلده كثرة المقدمات الغزلية في غرض المديح.

أما المبحث الثاني من الدراسة الفنية، فقد درس فيه البحث تلك الخصائص الفنية المشتركة بين المحدثين والأندلسيين في ضوء كلام النقاد والدارسين، وتبين أن الشعر العربي في الأندلس قد شارك أخاه العباسي في أبرز الخصائص التي اتسم بها الشعر من حيث الوزن والايقاع والخيال، والغوص على المعاني، والإسراف في المحسنات وألوان البديع وما إلى ذلك مما أفرط فيه بعض المحدثين كمسلم بن الوليد وأبي تمام، وغيرهما.

وأخيراً أرجو أن أكون قد وفقت في وضع أدبنا العربي بالأندلس في مكانه الصحيح بالنسبة لأدبنا العربي بصفة عامة، وأن تكون هذه التأثيرات قد حددت مسار الشاعر الأندلسي في طريقة تعامله مع الأدب العربي في المشرق.

والله أسأل أن يوفقنا لما يحبه ويرضاه إنه سميع مجيب.

الباحث

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر

القرآن الكريم ..

– ابن الابار : أبو عبدالله محمد بن عبدالله ، أبوبكر القضاعي.

(تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس)

عني بنشره السيد عزت العطار الحسيني، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثانية ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م.

(أعتاب الكتاب)

حققه وعلق عليه د. صالح الاشتر – المطبعة الهاشمية ، دمشق ١٣٨٠هـ/ ١٩٦٠م.

(ديوانه)

تحقيق عبدالسلام الهراس ، الدار التونسية للنشر ، ١٤٠٥هـ–١٩٨٥م.

(الحلة السيراء)

تحقيق : حسين مؤنس – الشركة العربية للطباعة والنشر ، القاهرة. الطبعة الأولى ١٩٦٣م

(تحفة القادم)

تحقيق إحسان عباس، دار الغرب

الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م

(التكملة لكتاب الصلة) .

طبعة مدريد ١٨٨٦م .

- **ابن الأثير : ضياء الدين**

(المثل السائر)

تحقيق أحمد الحوفي، ود. بدوي طبانة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، الطبعة الثانية.

- **ابن الأحمر : إسماعيل بن يوسف**

(نثير فرائد الجمان)

تحقيق د/ محمد رضوان الدايه

بيروت ١٩٦٧م.

- **أسامة بن منقذ**

(البديع في نقد الشعر)

تحقيق د/ أحمد أحمد بدوي، ود/ حامد عبدالمجيد.

مصطفى البابي الحلبي وأولاده.

(المنازل والديار)

تحقيق د/ مصطفى حجازي، القاهرة، ١٤١٢هـ.

- **الأعلم الشنتمري**

(أشعار الشعراء الستة الجاهليين)

دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

- **الأعمى التطيلى**

(ديوانه)

تحقيق د/ إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت

١٤٠٩هـ- ١٩٨٩م.

- **امرؤ القيس**

(ديوانه)

تحقيق حسن السندوبي، الطبعة الخامسة.

- **الأنبارى : أبومحمد**

(المفضليات)

عناية كارلوس يعقوب لايل

مطبعة الآباء اليسوعيين، ١٩٢٠م

- **الباقلاني : أبوبكر محمد بن الطيب**

(إعجاز القرآن)

تحقيق سيد صقر، دار المعارف - مصر

الطبعة الرابعة.

- **البحتري**

(ديوانه)

تحقيق حسن كامل الصيرفي، دار المعارف، القاهرة.

(ديوانه)

نشر دار بيروت للطباعة، بيروت

١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

- **البديعي : يوسف**

(الصبح المنبي عن حيثية المتنبي)

دار المعارف، الطبعة الثانية.

- ابن بسام : أبو الحسن على بن بسام الشنتريني .
(الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة) .
القسم الأول - المجلد الأول - تحقيق إحسان عباس - دار الثقافة .
بيروت ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩م .

- بشار بن برد
(ديوانه)
جمع وشرح الطاهر بن عاشور ، الشركة التونسية الوطنية .

- ابن بشكوال : أبوالقاسم خلف بن عبدالملك .
(الصلة)
الدار المصرية للتأليف والترجمة ، مطابع سجل العرب ١٩٦٦م .

- البغدادي : عبدالقادر بن عمر
(خزانة الأدب)
تحقيق عبدالسلام هارون، الطبعة الثانية
الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٩م

- تأبط شرّاً
(ديوانه)
جمع وتحقيق علي ذو الفقار شاكر، دار الغرب الإسلامي
الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م

- ابن تغرى بردى .
(النجوم الزاهرة)
تحقيق محمد على مكي - لجنة احياء التراث الاسلامي - القاهرة
١٣٩٠هـ .

- **أبوتمام : حبيب بن أوس**

(الحماسة)

تحقيق د. عبدالله عبدالرحيم عسيلان، نشر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

(ديوانه)

شرح الخطيب التبريزي، تحقيق محمد عبده عزام.

- **الثعالبي: أبومنصور عبدالملك بن محمد**

(يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر)

تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد

الطبعة الأولى ١٣٦٦ هـ - ١٩٤٧م.

- **ابن جابر الوادي آشي**

(برنامج ابن جابر الوادي آشي)

تحقيق محمد الحبيب الهيلة ، تونس ، ١٤٠١هـ

نشر جامعة أم القرى ، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي.

- **الجاحظ : أبوعثمان عمرو بن بحر**

(الحيوان)

تحقيق عبدالسلام هارون، دار إحياء التراث العربي، بيروت

الطبعة الثالثة ١٣٨٨هـ - ١٩٦٩م

(البيان والتبيين)

تحقيق عبدالسلام هارون - دار الفكر.

- **الجرجاني : علي بن عبدالعزيز**
(الوساطة بين المتنبي وخصومه)
تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم وعلى محمد البجاوي
دار القلم ، بيروت .
- **جميل بثينة**
(ديوانه)
تحقيق حسين نصار ، دار مصر للطباعة .
- **الجوهري : إسماعيل بن حماد**
(الصحاح « تاج اللغة وصحاح العربية »)
تحقيق أحمد عبدالغفور عطار ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م .
- **حاجي خليفة : مصطفى بن عبدالله**
(كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون)
منشورات مكتبة المثنى - بغداد .
- **حازم القرطاجني**
(منهاج البلغاء وسراج الأدباء)
تحقيق الحبيب بلخوجة ، دار الغرب الإسلامي ١٩٨٦م
(ديوانه)
تحقيق عثمان الكعاك ، دار الثقافة - بيروت
١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م
- ابن الحداد
(ديوانه)
تحقيق د . يوسف الطويل ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
الطبعة الأولى ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م .

- ابن حزم : أبو محمد على بن أحمد بن حزم .
(التقريب لحد المنطق)
تحقيق إحسان عباس، منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت .
(طوق الحمامة في الالفة والالاف)
تحقيق الطاهر أحمد مكي - ط ٣ - دار المعارف - ١٤٠٠هـ .
(طوق الحمامة) . تحقيق الاستاذ حسن كامل الصيرفي ، تقديم الاستاذ ابراهيم الابياري - المكتبة التجارية الكبرى بمصر - مطبعة الاستقامة - القاهرة ١٣٨٣هـ .
(طوق الحمامة) .
قدم له وحققه فاروق سعد ، منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت .
الطبعة الجديدة ١٩٧٢م .
(طوق الحمامة)
تحقيق صلاح القاسمي ، دار بوسلامة للطباعة والنشر
تونس ١٩٨٠م .
(جمهرة أنساب العرب)
تحقيق وتعليق عبدالسلام محمد هارون - الطبعة الرابعة - دار المعارف .
(ديوانه)
تحقيق صبحى رشاد عبدالكريم ، دار الصحابة للتراث، مصر
الطبعة الأولى ١٤١٠هـ.

- **الحصري القيرواني**
(زهر الآداب)
تحقيق زكي مبارك، ومحمد محي الدين عبدالحميد
دار الجيل، الطبعة الرابعة ١٩٧٢ .
- **الحميدي : أبوعبدالله محمد بن فتوح**
(جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس)
الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٦م.
- **الحميري : أبوالوليد إسماعيل الإشبيلي**
(البديع في وصف الربيع)
تحقيق د. عبدالله عبدالرحيم عسيلان، دار المدني
الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
- **ابن حيان القرطبي**
(المقتبس في أخبار بلد الاندلس)
تحقيق محمود علي مكي، دار الكتاب العربي، بيروت
١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣م
(المقتبس في أخبار بلد الأندلس)
تحقيق عبدالرحمن علي الحجي ، دار الثقافة ، بيروت .
(المقتبس في أخبار بلد الأندلس)
تحقيق إسماعيل العربي ، منشورات دار الآفاق الجديدة
المغرب ، ١٤١١ هـ .

– **ابن الخطيب : ذو الوزارتين لسان الدين بن الخطيب .**
(الإحاطة في أخبار غرناطة) .
تحقيق محمد عبدالله عنان – مكتبة الخانجي – القاهرة – الطبعة الثانية ١٣٩٣هـ .
– **الخطيب القزويني**
(الإيضاح)
تحقيق د . محمد عبدالمنعم خفاجى
دار الكتاب اللبناني – بيروت
الطبعة الخامسة ١٤٠٠هـ – ١٩٨٠م .
– **ابن خفاجة**
(ديوانه)
تحقيق الدكتور سيد غازي ، منشأة المعارف
الطبعة الثانية .
– **ابن خلدون : عبدالرحمن بن محمد**
(مقدمة ابن خلدون)
دار القلم ، بيروت ، الطبعة الخامسة ١٩٨٤م .
– **ابن خلكان : أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد .**
(وفيات الاعيان وأنباء أبناء الزمان)
تحقيق إحسان عباس – دار صادر ١٩٦٨م .
– **ابن خير : أبو بكر محمد بن خير**
(فهرسة مارواه عن شيوخه)
منشورات دار الآفاق الجديدة – بيروت
الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ .

- ابن دحية : ذو النسبين أبو الخطاب عمر بن حسن .

(المطرب من أشعار أهل المغرب)

تحقيق : إبراهيم الأبياري ، وحامد عبدالمجيد ، ود. أحمد أحمد بدوي - المطبعة الاميرية

١٣٧٤ هـ - ١٩٥٥م .

- ابن دراج

(ديوانه)

تحقيق محمود على مكي ، المكتب الإسلامي، دمشق

١٣٨١هـ - ١٩٦١م .

- ذو الرمّة

(ديوانه)

تحقيق عبدالقدوس أبوصالح، مؤسسة الإيمان، بيروت .

- ابن رشيق

(أنموذج الزمان في شعراء القيروان)

جمعه وحققه محمد العروسي المطوى، وبشير البكوش ، الدار التونسية، المؤسسة الوطنية : تونس ، الجزائر

١٤٠٦ هـ .

(العمدة)

تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد ، دار الجيل، بيروت .

الطبعة الرابعة ١٩٧٢م.

(العمدة)

تحقيق محمد قرقزان، دار المعرفة ، بيروت

الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م .

– **الرصافي البلنسي**

(ديوانه)

تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة ، بيروت .

– **ابن الرومي**

(ديوانه)

شرح وتحقيق عبدالأمير على مهنا، دار مكتبة الهلال

الطبعة الأولى ١٤١١هـ – ١٩٩١م.

– **الزبيدي : أبوبكر محمد بن الحسن**

(طبقات النحويين واللغويين)

تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر

الطبعة الثانية .

– **ابن الزقاق البلنسي**

(ديوانه)

تحقيق عفيفة محمود ديراني ، دار الثقافة ، بيروت

١٤٠٩هـ – ١٩٨٩م.

– **الزمخشري : جارالله أبوالقاسم محمود بن عمر**

(أساس البلاغة)

تحقيق عبدالرحيم محمود، دار المعرفة ، بيروت

١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م.

– **أبوزيد : محمد بن أبي الخطاب القرشي**

(جمهرة أشعار العرب)

تحقيق د. محمد على الهاشمي، نشر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

١٤٠١هـ – ١٩٨١م.

- **ابن سعيد : على بن موسى بن سعيد الأندلسي .**
(المغرب في حلى المغرب) .
حققه وعلق عليه الدكتور شوقي ضيف - دار المعارف - الطبعة الثالثة المنقحة / ١٩٧ م .
(اختصار القدح المعلى في التاريخ المحلى)
تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي المصري واللبناني، ودار الكتب الإسلامية، القاهرة، بيروت
الطبعة الثانية ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م
(رايات المبرزين)
تحقيق النعمان القاضي، القاهرة
١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣م.

- **ابن سلام الجمحي**
(طبقات فحول الشعراء)
قرأه وشرحه محمود محمد شاكر ، طبعة المدني - القاهرة .

- **ابن سيده : أبوالحسن على بن إسماعيل**
(المخصص)
دار الفكر ، بيروت ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.
(المشكل في شعر المتنبي)
تحقيق مصطفى السقا وحامد عبدالمجيد
الهيئة المصرية .

– **السيوطي : عبدالرحمن جلال الدين**
(المزهر في علوم اللغة وأنواعها)
شرحه وضبطه محمد أحمد جاد المولى وزميلاه، دار الجيل، دار الفكر، بيروت .
– **ابن شرف القيرواني**
(رسائل الانتقاد)
تحقيق حسن حسني عبدالوهاب، دار الكتاب الجديد، بيروت ١٩١١م .
– **الشريشي : أبوالعباس أحمد بن عبدالمؤمن**
(شرح مقامات الحريري)
تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم، مطبعة المدني ، القاهرة .
– **شكيب أرسلان**
(الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية)
المطبعة الرحمانية ، القاهرة ١٣٥٥هـ .
– **ابن شهيد : أبو عامر أحمد بن أبي عبدالملك .**
(ديوانه)
جمع وتحقيق يعقوب زكي – دار الكتاب العربي للطباعة والنشر بالقاهرة .
(رسالة التوابع والزوابع)
تحقيق ونشر بطرس البستاني – دار صادر ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م .

- ابن صاحب الصلاة

(تاريخ المن بالإمامة)

تحقيق عبدالهادي التازي، دار الأندلس، بيروت.

- **الصفدي : خليل بن أيبك**

(تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون)

تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم

المكتبة العصرية، بيروت .

(الغيث المسجم في شرح لامية العجم)

دار الكتب العلمية - بيروت

الطبعة الأولى ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م

- **الصنوبري : أبوبكر أحمد بن محمد**

(شرح بائية ذي الرمة)

تحقيق محمود مصطفى حلاوي، مؤسسة الرسالة

الطبعة الأولى، بيروت ، ١٤٠٦هـ.

- **الصولي : محمد بن يحي**

(أخبار أبي تمام)

تحقيق الدكتور خليل عساكر وزميليه، المكتب التجاري، بيروت .

- **ابن الصيرفي : أبوالقاسم على بن المنجب**

(المختار من شعر شعراء الاندلس)

تحقيق هلال ناجي ، العراق .

- **الضبي : أحمد بن يحي بن أحمد**
(بغية الملتمس)
دار الكتاب العربي ، بيروت .
- **ابن طباطبا : أبوالحسن محمد بن أحمد**
(عيار الشعر)
تحقيق عبدالعزيز بن ناصر المانع ، دار العلوم ، الرياض
١٤٠٥هـ .
- **العباسي : عبدالرحيم بن أحمد**
(معاهد التنصيص)
تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد ، عالم الكتب ، بيروت
١٣٦٧هـ - ١٩٤٧م .
- **ابن عبدربه : احمد بن محمد**
(ديوانه)
تحقيق محمد بن تاويت ، مطبوعات دار الغرب للتأليف والنشر ،
الدار البيضاء
١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م .
(العقد الفريد)
تحقيق وترتيب وتصحيح أحمد أمين ، أحمد الزين ، إبراهيم
الأبياري ، دار الكتاب العربي - بيروت ١٤٠٣هـ .
- **عبدالقاهر الجرجاني**
(دلائل الإعجاز)
تحقيق رشيد رضا ، دار المعرفة ، بيروت
١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م

- **عبدالواحد المراكشي**
(المعجب في تلخيص أخبار المغرب)
تحقيق محمد سعيد العريان، القاهرة، ١٣٨٣هـ.

- **ابن عذاري : المراكشي .**
(البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب)
تحقيق ومراجعة ج . س كولان، وليفي بروفنسال ، دار الثقافة، بيروت
الطبعة الثانية ١٤٠٠هـ .

- **العسكري : أبو هلال**
(الصناعتين)
تحقيق مفيد محمد قميحة ، دار الكتب العلمية، بيروت
الطبعة الأولى ١٤٠١هـ - ١٩٨١م .

- **أبو العلاء المعري : أحمد بن عبدالله**
(الصاهل والشاحج)
تحقيق عائشة عبدالرحمن (بنت الشاطئ) ، دار المعارف
الطبعة الثانية ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م

- **على بن ظافر الأزدي**
(بدائع البدائه)
تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم، مكتبة الأنجلو المصرية
١٩٧٠م.
(غرائب التنبيهات على عجائب التشبيهات)
تحقيق محمد زغلول سلام ومصطفى الصاوي الجويني، دار المعارف .

- أبوعلي القالي

(الأمالي)

دار الكتاب اللبناني ، بيروت .

- الغزال : يحي بن الحكم

(ديوانه)

تحقيق محمد رضوان الداية، دار قتيبة

الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م

- ابن فارس : أبوالحسين أحمد بن فارس

(معجم مقاييس اللغة)

تحقيق عبدالسلام هارون، مكتبة مصطفى البابي الحلبي

الطبعة الثانية ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م .

- الفتح بن خاقان : أبونصر

(قلائد العقيان)

تحقيق الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر .

١٩٩٠م

(مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس)

تحقيق محمد على شوابكة، مؤسسة الرسالة، بيروت .

- أبوالفرج الأصفهاني

(الأغاني)

دار إحياء التراث العربي، مصور عن طبعة دار الكتب .

- **ابن الفرضى : ابو الوليد عبدالله بن محمد**
(تاريخ علماء الاندلس)
نشرته اللجنة المصرية للتأليف والترجمة ضمن المكتبة الاندلسية ثم نشره السيد عزت العطار - القاهرة ١٣٧٣هـ .

- **ابن قتيبة : أبو محمد عبدالله بن مسلم**
(الشعر والشعراء)
تحقيق أحمد محمد شاكر ، دار المعارف .

- **قدامة بن جعفر**
(نقد الشعر)
تحقيق محمد عبدالمنعم خفاجي ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

- **القفطي : جمال الدين أبوالحسن علي بن يوسف**
(إنباه الرواه على أنباه النحاه)
تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم ، دار الفكر ، القاهرة ١٤٠٦هـ.

- **ابن القوطيّة**
(تاريخ افتتاح الأندلس)
تحقيق إبراهيم الأبياري ، دار الكتاب المصري ، القاهرة ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت
الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ.

- **ابن القيم : العلامة شمس الدين محمد بن أبي بكر**
(روضة المحبين ونزهة المشتاقين)
دار الكتاب العربي - بيروت .

- ابن الكتاني الطبيب : أبو عبدالله
(كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس)
تحقيق إحسان عباس، دار الشروق
الطبعة الثانية ١٤٠١هـ - ١٩٨١م
- الكلاعي : أبو القاسم محمد بن عبدالغفور
(إحكام صنعة الكلام)
تحقيق محمد رضوان الداية، دار الثقافة، بيروت
١٩٦٦م
- المبرد : محمد بن يزيد
(الكامل)
تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار نهضة مصر، الفجالة، القاهرة.
- المتنبي : أحمد بن الحسين
(ديوانه)
شرح العكبري، تصحيح وضبط نخبة من الأساتذة
الطبعة الأخيرة ١٣٩١هـ.
(ديوانه)
مطبعة هندية، مصر ١٣٤٢هـ - ١٩٢٣م.
- المرزباني : أبو عبدالله محمد بن عمران
(الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء)
تحقيق محب الدين الخطيب، المطبعة السلفية
الطبعة الثانية - القاهرة ١٩٨٥م.

(الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء)
تحقيق محمد على البجاوي، دار الفكر العربي.
(معجم الشعراء)
عني به الدكتور « ف . كرنكو » دار الكتب العلمية، بيروت
الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م

– **المرزوقي : أبوعلي أحمد بن محمد**
(شرح ديوان الحماسة)
نشره أحمد أمين وعبدالسلام هارون، القاهرة
الطبعة الثانية ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م
(شرح ديوان الحماسة)
تحقيق أحمد أمين وعبدالسلام هارون، بيروت
١٤١١هـ .

– **مسلم : أبوالحسين مسلم بن الحجاج**
(صحيح مسلم بشرح النووي)
دار إحياء التراث العربي ، بيروت.

– **مسلم بن الوليد**
(ديوانه)
تحقيق سامي الدهان، دار المعارف، مصر
الطبعة الثالثة.

– **ابن المعتز**
(طبقات الشعراء المحدثين)
تحقيق عبدالستار أحمد فراج، دار المعارف
الطبعة الرابعة.

- المقرى : أحمد بن محمد

(نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب)

تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت

١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م.

(أزهار الرياض في أخبار عياض)

إعداد اللجنة المشتركة نشر التراث بالمغرب والإمارات

الرباط ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.

- ابن منظور : جمال الدين محمد بن مكرم .

(لسان العرب)

طبعة دار صادر - بيروت .

(مختار الأغاني)

تحقيق إبراهيم الأبياري، الدار المصرية للتأليف والنشر

١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م.

- النابغة الذبياني

(ديوانه)

شرح وتقديم عباس عبدالستار، دار الكتب العلمية، بيروت

الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ.

- ابن النديم : محمد بن إسحـق .

(الفهرست)

دار الباز للنشر والتوزيع - مكة المكرمة ١٣٩٨ هـ .

- أبو نواس : الحسن بن هانيء

(ديوانه)

تحقيق أحمد عبدالمجيد الغزالي

دار الكتاب العربي، بيروت

١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م .

- ابن وكيع التنيسي

(المنصف في نقد الشعر وبيان سرقات المتنبي)

تحقيق محمد رضوان الداية، دار قتيبة .

- ابن هانيء الأندلسي

(ديوانه)

دار صادر، بيروت .

- ابن هشام : أبومحمد عبدالله بن هشام

(مغني اللبيب عن كتب الأعاريب)

تحقيق نخبة من الأساتذة، دار الفكر، بيروت

الطبعة الخامسة ١٩٧٩م .

- ياقوت الحموي

(معجم الأدباء)

الطبعة الأخيرة - دار احياء التراث العربي - بيروت .

ثانياً : المراجع

- إبراهيم أحمد الحاردلو

(ملامح من ثورة الأدب في الأندلس)

نشر ضمن دراسات إسلامية مهداه إلى إحسان عباس، تحرير وداد القاضي، بيروت ، ١٩٧٥م.

- ابراهيم ياسر خضر الدوري

(عبدالرحمن الناصر وسياسته الخارجية والداخلية)

دار الرشيد للنشر - الجمهورية العراقية - سلسلة دراسات ٣٢٦.

- احسان عباس

(تاريخ الأدب الأندلسي)

عصر سيادة قرطبة - دار الثقافة - بيروت - الطبعة السادسة .

(تاريخ الأدب الأندلسي)

عصر الطوائف والمرابطين - دار الثقافة - بيروت

الطبعة السادسة .

(رسائل ابن حزم)

المؤسسة العربية للطباعة والنشر - الطبعة الأولى ١٤٠١هـ.

(دراسات في الأدب الأندلسي)

بحوث أعدها بالاشتراك مع الدكتورة وداد القاضي والدكتور البير مطلق - الدار العربية للكتاب - ليبيا - تونس - الطبعة الثانية ١٣٩٨هـ .

(تاريخ النقد الأدبي عند العرب)

دار الثقافة ، بيروت

الطبعة الرابعة ١٤٠٤هـ - ١٩٨٣م

(فن الشعر)

دار الثقافة ، بيروت

- أحمد إبراهيم موسى

(الصيغ البديعي في اللغة العربية)

دار الكتاب العربي، القاهرة ١٣٨٨هـ - ١٩٦٩م.

- أحمد الاسكندري

(تاريخ آداب اللغة العربية في العصر العباسي)

الطبعة الأولى، مطبعة السعادة ١٣٣٠هـ - ١٩١٢م.

- أحمد أمين

(ظهر الاسلام)

الجزء الثالث - دار الكتاب العربي - بيروت - طبعة ٥ .

- أحمد حسن الزيات

(تاريخ الأدب العربي)

دار الثقافة - بيروت .

- أحمد الشايب

(الغزل في تاريخ الأدب العربي)

دار المعارف، تونس.

- **أحمد ضيف**

(بلاغة العرب في الأندلس)

الطبعة الأولى - مطبعة مصر - شركة مساهمة ١٣٤٢هـ .

- **أحمد عبدالمقصود هيكل**

(الأدب الأندلسي من الفتح الى سقوط الخلافة)

طبعة دار المعارف - الطبعة السابعة ١٩٧٩م .

- **أحمد بن محمد الشنقيطي**

(شرح المعلقات العشر)

دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م .

- **أحمد مختار العبادي**

(في تاريخ المغرب والأندلس)

مؤسسة الثقافة الجامعية - الاسكندرية .

- **أحمد يزن**

(النقد الأدبي في القيروان في العهد الصنهاجي)

مكتبة المعارف، الرباط ١٩٨٥م .

- **ادريس الناقوري**

(المصطلح النقدي في نقد الشعر)

المنشأة العامة للنشر والتوزيع، طرابلس، الجماهيرية الليبية .

- **إيليا حاوي**

(ابن الرومي)

دار الكتاب اللبناني، بيروت، الطبعة الثانية ١٩٨٦م .

- بدوي طبانه

(السرقات الشعرية)

دار الثقافة، بيروت، الطبعة الأولى ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.

- بدير متولى حميد

(قضايا أندلسية)

دار المعرفة ومطبعتها - القاهرة ١٩٦٤ م

- البسيوني أحمد منصور

(الخصومة بين القديم والجديد في النقد العربي القديم)

مكتبة الفلاح، الكويت، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ-١٩٨١م.

- بطرس البستاني

(أدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعاث)

الطبعة السادسة - دار المكشوف ودار الثقافة ١٩٦٨م .

- بهيج مجيد القنطار

(الطبيعتان الحية والصامتة في الشعر الجاهلي)

دار الآفاق الجديدة، بيروت

الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

- جبرائيل جبور

(ابن عبدربه وعقده)

منشورات دار الآفاق الجديدة - بيروت - الطبعة الثانية ١٩٧٩م.

- جودة الركابي

(في الأدب الأندلسي)

دار المعارف بمصر، ط ٣، ١٩٦٦م .

– **حازم خضر**

(ابن شهيد الأندلسي – حياته وأدبه)

منشورات وزارة الثقافة والاعلام الجمهورية العراقية دائرة الشئون الثقافية والنشر ١٩٨٤م .

– **حسن درويش العربي**

(أبونواس وقضية التجديد)

الهيئة المصرية العامة للكتاب .

– **حسن الوراكلي**

(ابن صاره الشنتريني)

مطبعة النور – تطوان

الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ – ١٤٠٦هـ .

– **حسين خريش**

(حركة الشعر العباسي في مجال التجديد بين أبي نواس ومعاصريه)

الجزء الثاني، مؤسسة الرسالة، بيروت

الطبعة الأولى ١٤١٤هـ .

– **حسين خريوش**

(ابن بسام وكتابه الذخيرة)

دار الفكر للنشر والتوزيع ، عمان ، ١٩٨٤م

– **حسين مؤنس**

(فجر الاندلس)

الدار السعودية للنشر والتوزيع الطبعة الثالثة .

(شيوخ العصر في الأندلس)

الدار المصرية للتأليف والترجمة وتوزيع مكتبة مصر بالفجالة ١٩٦٥م .

- حكمة على الاوسى

(فصول في الأدب الاندلسي في القرنين الثاني والثالث للهجرة)

مكتبة المعارف - الرباط - الطبعة الرابعة .

وكذلك مطبعة الخانجي بالقاهرة - الطبعة الثالثة .

- حلمي خليل

(المولّد في العربية)

دار النهضة العربية ، بيروت

الطبعة الثانية ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م .

- حنا فاخورى

(تاريخ الأدب العربي)

المطبعة البولسية الطبعة الثالثة مزيدة ومنقحة .

- خير الدين الزركلي

(الأعلام)

دار العلم للملايين ، بيروت

الطبعة الخامسة ١٩٨٠م .

- درويش الجندي

(ظاهرة التكسب وأثرها في الشعر العربي ونقده)

دار نهضة مصر للطباعة والنشر ، ١٩٧٠م .

- رشاد علي رشدي

(شعر الطبيعة في العصر العباسي الثاني)

مؤسسة الرسالة ، دار عمار

الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م .

- سامي الدهان

(المديح)

دار المعارف ، الطبعة الرابعة .

- سامي مكي العاني

(دراسات في الأدب الأندلسي)

الجامعة المستنصرية - بغداد - ١٣٩٨هـ .

- سعد أبو الرضا

(البلاغة بين القيمة والمعيارية)

الطبعة الأولى ١٣٨٤هـ - ١٩٨٤م .

- سعد اسماعيل شلبي

(دراسات أدبية في الشعر الأندلسي)

دار مصر للطبع والنشر - الفجالة - القاهرة .

- سعيد الأيوبي

(عناصر الوحدة والربط في الشعر الجاهلي)

مكتبة المعارف ، الرباط ١٩٨٦م .

- السيد عبدالعزيز سالم

(قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس)

دار النهضة العربية - بيروت ١٩٧٢م .

- سيد نوفل
(شعر الطبيعة في الأدب العربي)
دار المعارف، الطبعة الثانية .
- شكري فيصل
(تطور الغزل)
دار العلم للملايين، بيروت
الطبعة السادسة ١٩٨٣م .
- شوقي ضيف
(العصر العباسي الأول)
دار المعارف ، الطبعة السابعة .
(العصر العباسي الثاني)
دار المعارف ، الطبعة الثانية .
(العصر الإسلامي)
دار المعارف ، الطبعة السابعة .
(العصر الجاهلي)
دار المعارف ، الطبعة السابعة .
(عصر الدول والإمارات الأندلس)
دار المعارف
(الفن ومذاهبه في الشعر العربي)
دار المعارف، القاهرة
الطبعة العاشرة

(فصول في الشعر ونقده)
دار المعارف ، الطبعة الثالثة .
(ابن زيدون)
دار المعارف ، الطبعة الحادية عشرة .
(البلاغة تطور وتاريخ)
دار المعارف، الطبعة الثالثة .
(التطور والتجديد في الشعر الأموي)
دار المعارف، مصر، الطبعة الخامسة .
- **الشيخ الإسكندري وآخرون**
(المفصل في تاريخ الأدب العربي)
المطبعة النموذجية ، مصر .
- **صالح آدم بيلو**
(الثقافات الأجنبية في العصر العباسي)
مكة المكرمة ، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ .
- **الطاهر أحمد مكي**
(دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة)
دار المعارف، الطبعة الثانية ١٩٨٣م
(دراسة في مصادر الأدب)
دار المعارف، الطبعة السادسة ١٩٨٨م .
- **طه أحمد إبراهيم**
(تاريخ النقد عند العرب)
جمعه وقدم له أحمد الشايب، منشورات دار الحكمة، دمشق ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م .

- طه حسين

(التوجيه الأدبي)

دار المعارف

(حديث الأربعاء)

دار المعارف ، مصر ، الطبعة الثانية عشرة ١٩٢٥م

(من تاريخ الأدب العربي)

دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الرابعة ١٩٨٢م.

- عباس العقاد

(ابن الرومي - حياته وشعره)

دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة السابعة ١٩٦٨م

(شاعر أندلسي وجائزة عالمية)

القاهرة - نيويورك ١٩٦٠م.

- عبدالحكيم النجار

(تاريخ الأدب العربي)

دار المعارف، الطبعة الخامسة.

- عبدالحميد جيدة

(مقدمة لقصيدة الغزل العربية)

دار العلوم العربية، بيروت

الطبعة الأولى ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

- عبدالرحمن عطية

(الصنوبري شاعر الطبيعة)

الدار العربية للكتاب، ليبيا - تونس ، ١٩٨١م.

- **عبدالرحمن علي الحجي**

(التاريخ الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة)

دار الاصلاح

الطبعة الأولى المصورة ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

- **عبدالعزيز الأهواني وآخرون**

(حركات التجديد في الأدب العربي)

دار الثقافة - القاهرة ، ١٩٧٩م.

- **عبدالعزيز عتيق**

(الأدب العربي في الأندلس)

دار النهضة - بيروت .

- **عبدالقادر القط**

(الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر)

دار النهضة - بيروت

الطبعة الثانية ١٤٠١هـ .

(حركات التجديد في الشعر العباسي)

نشر ضمن كتاب (إلى طه حسين في عيد ميلاده السبعين)

(في الشعر الإسلامي والأموي)

دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت

١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

- **عبدالكريم التواتي**

(مأساة انهيار الوجود العربي في الأندلس)

مكتبة الرشاد - الدار البيضاء

الطبعة الأولى.

- **عبدالكريم خليفة**

  (ابن حزم الأندلسي، حياته وأدبه)

  دار العربية للطباعة والنشر، بيروت ، لبنان، ونشر مكتبة الأقصى، المملكة الاردنية ، عمان، مطابع معتوق اخوان.

- **عبدالله التطاوي**

  (المعارضة الشعرية بين التقليد والإبداع)

  دار الثقافة، الفجالة، مصر، ١٩٨٨م

- **عبدالله الطيب**

  (المرشد إلى فهم أشعار العرب)

  دار الفكر، بيروت

  الطبعة الثانية ١٩٧٠م.

- **عبدالله المحارب**

  (أبو تمام بين ناقديه قديماً وحديثاً)

  مكتبة الخانجي، القاهرة ، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

- **عبدالله محمد الزيات**

  (رثاء المدن في الشعر الأندلسي)

  منشورات جامعة قاريوس، بنغازي

  الطبعة الأولى ١٩٩٠م.

- **عثمان موافي**

  (الخصومة بين القدماء والمحدثين)

  دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية

  الطبعة الثانية ١٩٨٤م.

- **عز الدين إسماعيل**

(الأسس الجمالية في النقد العربي)

دار الفكر العربي ، القاهرة، ١٤١٢هـ.

(في الشعر العباسي الرؤية والفن)

دار المعارف ، ١٩٨٠م.

- **علي محمد راضي**

(الأندلس والناصر)

دار الكتب للطباعة والنشر ١٩٦٧م.

- **علي نجيب عطوي**

(خمريات أبي نواس)

دار مكتبة الهلال ، الطبعة الأولى ١٩٨٦م.

(غزليات أبي نواس)

دار مكتبة الهلال ، الطبعة الأولى ١٩٨٦م.

- **عمر الدقاق**

(ملامح الشعر الأندلسي)

دار الشرق العربي ، بيروت.

- **عمر رضا كحالة**

(معجم المؤلفين)

دار احياء التراث ، بيروت.

- **عمر فروخ**

(تاريخ الأدب العربي)

دار العلم للملايين ، الطبعة الرابعة ١٩٨١م.

- **فوزي سعد عيسى**

(الشعر الأندلسي في عصر الموحدين)

الهيئة المصرية للكتاب، الإسكندرية

الطبعة الأولى ١٩٧٩م.

- **أبوالقاسم محمد كرّو**

(ابن هانيء الأندلسي - متنبي المغرب)

الدار العربية للكتاب ١٩٨٤م.

- **مجاهد مصطفى بهجت**

(التيار الإسلامي في شعر العصر العباسي الأول)

الجمهورية العراقية ، وزارة الأوقاف والشئون الدينية

الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

- **مجدي وهبه**

(معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب)

مكتبة لبنان، بيروت

الطبعة الثانية ١٩٨٤م.

- **محمد بدري عبدالجليل**

(براعة الاستهلال في فواتح القصائد والسور)

المكتب الإسلامي ، الطبعة الثانية، بيروت

١٤٠٥هـ - ١٩٨٤م.

- **محمد رجب البيومي**

(الأدب الأندلسي بين التأثير والتأثر)

المجلس العلمي - جامعة الامام محمد بن سعود .

- **محمد رضوان الداية**

(تاريخ النقد في الأندلس)

مؤسسة الرسالة - الطبعة الثانية ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

- **محمد رضا الشبيبي**

(أدب المغاربة والأندلسيين في أصوله المصريّة ونصوصه العربيّة)

١٣٨٠هـ - ١٩٦٠م.

- **محمد زكي العشماوي**

(قضايا الأدب والنقد)

دار النهضة العربية، بيروت ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

- **محمد بن شريفه**

(أبوتمام وأبوالطيب في أدب المغاربة)

دار الغرب الإسلامي، بيروت

الطبعة الأولى ١٩٨٦م.

- **محمد عبدالعزيز الكفراوي**

(الشعر العربي بين الجمود والتطور)

مكتبة نهضة مصر، الفجالة

الطبعة الأولى ١٣٧٨هـ - ١٩٥٨م.

- **محمد عبدالله عنان**

(نهاية العرب وسقوط الأندلس ، وتاريخ العرب المتنصرين)

مطبعة لجنة التأليف والنشر - الطبعة الثالثة - القاهرة .

(دولة الاسلام في الأندلس)

العصر الأول - لجنة التأليف - القاهرة ١٣٦٢هـ .

- **محمد عبدالمنعم خفاجي**

(قصة الأدب في الأندلس)

مطبعة المعارف - بيروت ١٩٦٢م .

- **محمد عبدالوهاب خلاف**

(قرطبة الاسلامية في القرن الحادي عشر الميلادي - الخامس الهجري)

الدار التونسية للنشر .

- **محمد على الهاشمي**

(طرفة بن العبد، حياته وشعره)

عالم الكتب ، الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م

- **محمد بن لطفي الصباغ**

(الوصف في مدرسة عبيد الشعر)

المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .

- **محمد محمود نوفل**

(تاريخ المعارضات في الشعر العربي)

مؤسسة الرسالة، بيروت

الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .

- **محمد مصطفى هدارة**

(مشكلة السرقات في النقد العربي)

المكتب الإسلامي ، الطبعة الثالثة ١٤٠١هـ - ١٩٨١م .

(اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري)

دار المعارف ، الطبعة الثالثة

المكتب الإسلامي ، دمشق ، بيروت

الطبعة الأولى ١٤٠١هـ-١٩٨١م .

- محمد مندور

(النقد المنهجي عند العرب)

دار نهضة مصر ١٩٧٢م .

- محمد اليعلاوي

(ابن هانيء المغربي الأندلسي)

نشر دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م .

(أشتات في اللغة والأدب والنقد)

دار الغرب الإسلامي، بيروت

الطبعة الأولى ١٩٨٢م .

- مصطفى أبو ضيف أحمد

(القبائل العربية في الأندلس)

دار النشر المغربية، الدار البيضاء .

- محمد مندور

(الأدب وفنونه)

نشر معهد الدراسات العربية العالية - القاهرة .

(الأدب ومذاهبه)

دار نهضة مصر بالفجالة - الطبعة الثالثة .

- مصطفى الشكعة

(الأدب الأندلسي - موضوعاته وفنونه)

دار العلم للملايين - بيروت ١٩٧٥م .

(الأدب في موكب الحضارة الاسلامية)

دار الكتاب اللبناني - بيروت - الطبعة الثانية .

- **مصطفى صادق الرافعي**

(تاريخ آداب العرب)

الجزء الثالث ، دار الكتاب العربي ، بيروت

الطبعة الثانية ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م .

- **مصطفى عليان**

(تيارات النقد في الأندلس في القرن الخامس)

الطبعة الأولى - مؤسسة الرسالة .

- **مصطفى ناصف**

(الدراسة الأدبية)

مطبعة الدار القومية - القاهرة

(قراءة ثانية لشعرنا القديم)

منشورات الجامعة الليبية ، كلية الآداب .

- **مقداد رحيم**

(النوريات في الشعر الأندلسي)

عالم الكتب ، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م .

- **موهوب مصطفاي**

(الرمزية عند البحتري)

الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر

١٤٠١هـ - ١٩٨٨م .

- **نبيل أبو حلتم**

(اتجاهات الشعر في القرن الرابع الهجري من خلال يتيمة الدهر)
نشر وتوزيع دار الثقافة، الدوحة ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

- **نبيل رشاد نوفل**

(الحداثة في تراث العرب الأدبي والنقدي)
منشأة المعارف، الاسكندرية.

- **نجيب البهيتي**

(أبو تمام حياته وشعره)
دار الفكر ومكتبة الخانجي، الطبعة الثانية ١٩٧٠م.
(تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري)
دار الكتاب العربي، بيروت
الطبعة الثالثة ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م.

- **نسيمة الغيث**

(التجديد في وصف الطبيعة بين أبي تمام والمتنبي)
دار المعارف ، مصر، الطبعة الأولى ١٩٨٨م.

- **وليم نقولا**

(العرجي شاعر الغزل في العصر الأموي)
دار الآفاق الجديدة، بيروت
الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

- **يوسف حسين بكار**

(اتجاهات الغزل في القرن الثاني الهجري)
دار المعارف بمصر
(بناء القصيدة العربية)
دار الإصلاح للطباعة والنشر - الدمام.

- **يوسف خليف**

(تاريخ الشعر في العصر العباسي)
دار الثقافة، القاهرة ١٩٨١م
(ذو الرمّة - شاعر الحب والصحراء)
دار المعارف ، مصر .
(الشعر العباسي « نحو منهج جديد »)
مكتبة غريب .

ثالثاً : المراجع المترجمة :

- آنخل بلانثيا

(تاريخ الفكر الأندلسي)
ترجمة الدكتور حسين مؤنس - مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ومكتبة النهضة المصرية ١٩٥٥م .

- اغناطيوس كراتشكوفسكي

(الشعر العربي في الأندلس)
ترجمة محمد منير مرسي ، تقديم أحمد هيكل ، عالم الكتب ١٩٧١م.
(دراسات في تاريخ الأدب العربي)
ترجمة عن الروسية، دار النشر « علم »، موسكو ١٩٦٥م.

– بلاشير

(المتنبي)

ترجمة د. إبراهيم الكيلاني، دار الفكر

الطبعة ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م.

– ج . ك . فاديه

(الغزل عند العرب)

ترجمة د. إبراهيم الكيلاني، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق ١٩٧٩م.

– جارثيا جومث

(الشعر الأندلسي)

ترجمة الدكتور حسين مؤنس سلسلة الألف كتاب إدارة الثقافة العامة بوزارة التربية والتعليم .

(مع شعراء الأندلس والمتنبي)

ترجمة د. طاهر مكي – دار المعارف

الطبعة الرابعة ١٤٠٦هـ – ١٩٨٥م.

– رينيه ويلك

(مفاهيم نقدية)

ترجمة محمد عصفور، عالم المعرفة، الكويت

١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م.

– شوبنهور

(فن الأدب)

ترجمة شفيق مقار، ١٩٦٦م.

– فؤاد سزكين

(تاريخ التراث العربي)

المجلد الثاني – الجزء الخامس ، نقله إلى العربية الدكتور عرفه مصطفى – جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية .

- **فوك شاك – مستشرق فرنسي**

(الفن العربي في أسبانيا وصقلية)

ترجمة طاهر مكي – دار المعارف ١٩٧٨م

- **كارل بروكلمان**

(تاريخ الأدب العربي)

نقله إلى العربية عبدالحليم النجار ، ط/ ٥ ، دار المعارف .

- **لانسون**

(منهج البحث في اللغة والأدب)

ترجمة محمد مندور، دار العلم للملايين

الطبعة الثانية ١٩٨٢م .

- **لاستانلى لين بول**

(العرب في أسبانيا)

ترجمة على الجارم – دار المعارف – القاهرة ١٩٤٧م .

- **ليفي بروفنسال**

(الإسلام في المغرب والأندلس)

ترجمة الدكتور محمد عبدالعزيز سالم ، ومحمد صلاح الدين حلمي – نهضة مصر سنة ١٩٥٧م .

وترجمة د. عبدالهادي شعيرة – المطبعة الاميرية ١٩٥١م .

(الحضارة العربية في أسبانيا)

ترجمة الطاهر مكي، دار المعارف .

الطبعة الثانية ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م .

(الشرق الإسلامي والحضارة العربية الاندلسية)

ترجمة الفريد البستاني تطوان سنة ١٩٥١م .

(سلسلة محاضرات عامة في أدب الأندلس وتاريخها)

ألقاها عام ١٩٤٧م ترجمها الى العربية محمد عبدالهادي شعيرة – المطبعة الاميرية بالقاهرة ١٩٥١م .

- مانويل مورينوجومث

(الفن الإسلامي في أسبانيا)

ترجمة كامل كيلاني ١٩٣٣م .

- هنري بيرس

(الشعر الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين)

ترجمة الطاهر مكي، دار المعارف

الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

- نيكل - مستشرق انجليزي

(مختارات من الشعر الأندلسي) نشر عمر فروح - بيروت ١٩٤٩م.

- يوهان فك

(العربيّة)

ترجمة د. رمضان عبدالتواب، مكتبة الخانجي، مصر، ١٤٠٠هـ.

رابعاً: الرسائل العلمية

- إبراهيم بن موسى السهلي

(تجديدات الأندلسيين في فن النثر)

رسالة ماجستير، كلية اللغة العربية، جامعة أم القرى، ١٤٠٧هـ.

- شاهر عوض الكفاوين

(الشعر العربي في رثاء الدول والأمصار حتى نهاية سقوط الأندلس)

رسالة دكتوراه، كلية اللغة العربية، جامعة أم القرى، ١٤٠٤هـ.

- **صالح سعيد الزهراني**

(مآخذ البيانيين على النص الشعري حتى نهاية القرن الرابع الهجري)

رسالة دكتوراه، كلية اللغة العربية، جامعة أم القرى، ١٤١٢هـ.

- **عمر الطيب العباسي**

(شعر أحمد بن عبدربه الأندلس - دراسة تحليلية)

رسالة دكتوراه ، كلية اللغة العربية، جامعة أم القرى، ١٤٠٨هـ.

خامساً: الدوريات

- عالم الفكر ، الكويت ، إبريل ، مايو ، يونيو ١٩٨٢ ، بحث بعنوان: تأثر الفكر الأندلسي بالحركة العلمية في المشرق.
- مجلة آداب الرافدين ، عدد ١٢ ، ١٩٨٠م، بحث بعنوان : « ملامح من النقد السياسي والاجتماعي في الشعر الأندلسي، على عهد الطوائف والمرابطين» للدكتور/ منجد مصطفى بهجت.
- مجلة الشعر ، عدد ٥ ، مقال بعنوان : الشعر بين التقليد والتجديد ، للدكتور أحمد الحوفي.
- مجلة كلية الآداب، جامعة بغداد، عدد ١٥ ، ١٩٧٢م، بحث بعنوان: الخمر والطبيعة عند الخالديين، بقلم/ حبيب حسين الحسني.
- مجلة كلية الآداب/ جامعة بغداد، عدد ٢٠ ، ١٩٧٦م، بحث بعنوان: صاعد البغدادي سفير الثقافة الشرقية في الأندلس.
- مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس، عدد ٧، ١٩٨٣-١٩٨٤م، بحث بعنوان «كتاب يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر لأبي منصور الثعالبي، وأثره في منهج التأليف الأدبي»، بقلم/ محمد اشهبار.

فهرس الموضوعات

الموضـــــــوع	الصفحة

الموضـــــــــوع	الصفحة

الفصل الرابع
مظاهر التأثر في شعر الطبيعة

الفصل الخامس
الخصائص الفنية بين المحدثين والأندلسيين